توم سيغف

١٩٤٩
الاسرائيليّون الأوائل

مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

مؤسسة عربية مستقلة تأسست عام ١٩٦٣ غايتها البحث العلمي حول مختلف جوانب القضية الفلسطينية والصراع العربي ــ الصهيوني. وليس للمؤسسة اي ارتباط حكومي او تنظيمي، وهي هيئة لا تتوخى الربح التجاري.

وتعبّر دراسات المؤسسة عن آراء مؤلفيها، وهي لا تعكس بالضرورة رأي المؤسسة او وجهة نظرها.

شارع انيس النصولي ــ متفرع من شارع فردان
ص.ب ٧١٦٤ــ١١. بيروت ــ لبنان
برقيا: دراسات. تلكس: ماداف ٢٣٣١٧
تلفون: ٨١٤١٧٤

INSTITUTE FOR PALESTINE STUDIES
Anis Nsouli Street, Verdun
P.O.Box: 11-7164. Beirut, Lebanon
Telex: MADAF 23317 LE
Cable: DIRASAT. Tel: 814174

تَوم سيغف

الإسرائيليّون الأوائل - ١٩٤٩

ترجمة عن العبرية : خالد عايد ، رضا سلمان
رندة حيدر شرارة ، كمال إبراهيم

راجع الترجمة : سمير جبّور

قدّم له : الدّكتور محمّد المجذوب

مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة

al-Isrā'īlīyūn al- awā'il – 1949
Tom Segev
tarjamat: Khālid 'Āyid, Riḍā Salmān, Randah Ḥaydar Sharārah, Kamāl Ibrāhīm

The First Israelis – 1949
Tom Segev
Translated by: Khalid Ayid, Rida Salman, Randa Haidar Charara & Kamal Ibrahim

سلسلة الدراسات رقم ٧٣
Monograph Series No. 73

ص. ب ٥٦٥٨، نيقوسيا ــ قبرص
الطبعة الأولى، ١٩٨٦

«هايسرائيليم هاريشونيم – ١٩٤٩»
توم سيغف
دار دومينو للنشر
القدس – ١٩٨٤

المحتويات

تقديم

يسر مؤسسة الدراسات الفلسطينية ان تقدم الى القارىء العربي كتابا مترجما عن العبرية وضعه صحافي اسرائيلي أمضى سنوات في الاطلاع على آلاف الوثائق المهمة التي تتضمنها ملفات المؤسسات، الرسمية وغير الرسمية، في اسرائيل. وقد استطاع المؤلف، بمهارة فائقة ومنهجية بارعة وجهد تنقيبي واضح، أن يكشف لنا الكثير من الاسرار والمعلومات المذهلة المتعلقة بعملية اغتصاب فلسطين.

ان المكتبة العربية تفتقر الى كتب مترجمة عن اصولها العبرية تُسهب في وصف أوضاع الكيان الصهيوني لدى ولادته، وتتضمن الوثائق الموضحة للخطط والممارسات والاساليب التي انتهجتها الحركة الصهيونية للاستيلاء على فلسطين وتشريد سكانها. وكتاب «الاسرائيليون الأوائل» يزخر بمثل هذه الوثائق والأدلة.

لكن هذا الكتاب لا يقدم الينا القصة الكاملة لاغتصاب فلسطين، ولا الرواية الشاملة لمأساة شعب تألّبت عليه قوى جبارة وشريرة وحاولت اقتلاعه من ارضه وطمس معالم ثقافته وحضارته. والكتاب ليس محاولة، كذلك، لاصدار أحكام، عادلة او قاسية او متحيزة، على الشعب الفلسطيني او الكيان الصهيوني. فليس الغرض من الكتاب إبراز ما أصاب أهل فلسطين من نكبات ومصائب وما ألم بهم من ظلم وإجحاف، وادانة الحركة الصهيونية، بالتالي، التي كانت السبب في كل ما حل بهم. لقد كانت غاية المؤلف من وضع الكتاب القيام بمحاولة موضوعية وأمينة لتسجيل أحداث حقبة مهمة من تاريخ الكيان الصهيوني. غير ان اطلاعه على هذه الكمية الضخمة من الوثائق المتراكمة والمبعثرة في محفوظات المؤسسات الاسرائيلية دفعه، من حيث يدري او لا يدري، الى تضمين كتابه معلومات غزيرة وأدلة وفيرة تدين قادة الحركة الصهيونية وتفند مزاعمهم وتميط اللثام عن نياتهم الخبيثة وممارساتهم الاجرامية.

قال المؤلف في مقدمته: «ان حكاية الاسرائيليين الأوائل هي حكاية أمل كبير، وإيمان بأن كل شيء يمكن ان يكون افضل كثيرا، وبأنه سيكون كذلك فعلا. فقد حلموا بمجتمع متحضّر وعادل يحلو العيش فيه، ويُؤمّن لكل فرد سعادته، مستلهما القانون والاخلاق والعدالة والسلام». وأورد في الكتاب قصصا عديدة تمجد اعمال هؤلاء الأوائل وتُشيد بوطنيتهم وتفاخر بتضحياتهم. لكنه اضطر، بعد الاطلاع على الوقائع الدامغة والمستندات

الصريحة، الى الاعتراف بأن حكايتهم لم تكن حكاية «أمل كبير» فقط، بل كانت كذلك «حكاية محنة كبيرة وبؤس وارتباكات مزعجة»، وان «الروح الريادية» لم تكن الميزة التي يتمتع بها الجميع، فقد كان هناك في المقابل سعي متهافت وراء الحياة الرغيدة والتفكير الأناني في الذات وحدها، «فهناك من نهب الممتلكات خلال الحرب، وهناك من أخذ منها فيما بعد. ومع مرور الوقت نشأت سوق سوداء. لم يكن الاسرائيليون الأوائل، اذن، اكثر خلقية ولا اكثر مثالية من اولئك الذين جاؤوا بعدهم».

ويعرض الكتاب، عبر أقسامه الأربعة، المحطات او المراحل الأولى والأساسية التي مرت بها عملية اقامة الكيان الصهيوني. وقد خصص **القسم الاول**، المكون من ثلاثة فصول، للحديث عن العلاقات بين العرب واليهود. ولعله القسم الأهم، أولا لاشتماله على العدد الأوفر من الأدلة القاطعة على أضاليل حكام اسرائيل، الأوائل والأواخر، وثانيا لأن المؤلف حاول، في هذا القسم، البحث عن «المجتمع العادل» الذي حلم به الأوائل، فإذا به يصطدم بالواقع المرير ويكتشف أن السجلات الصهيونية لا تزخر إلّا بالمخازي والأباطيل. ان قادة اسرائيل والحركة الصهيونية قد اتبعوا أساليب المراوغة والخداع في محادثات الهدنة مع الدول العربية المتاخمة لفلسطين، وحاولوا استغفال المندوبين العرب الذين وصفوهم بـ«الأغبياء»، وراحوا يستعدون لتحقيق الحلم الصهيوني القديم في ضم الجنوب اللبناني واقامة دولة مسيحية في لبنان «يكون الليطاني حدها الجنوبي وتعقد مع اسرائيل حلفا». أما السكان العرب الذين بقوا في فلسطين فقد تحوّلوا الى اقلية تخضع لحكم عسكري رهيب، وتتعرض لأقسى ضروب العذاب والتنكيل. كانوا يدعون الى الخروج من منازلهم بحجة التدقيق في هوياتهم ويؤمرون بترك أبوابها مفتوحة. وكانوا، عندما يُسمح لهم بالعودة اليها، يكتشفون ان الجنود قد سرقوها. ومع ذلك، اعتبر بعض الصهيونيين وجود «الأقلية العربية» خطرا على الدولة الجديدة، ودعا الى استعمال سياسة البطش ضدها. وفي الملفات التي اطلع عليها المؤلف وثائق تشير الى اتفاقات جرت بين قادة عسكريين ومتعهدين وأدت الى التلاعب بأملاك الغائبين. ولاحظ ان عمليات النهب والسلب كانت شائعة، واستشهد بما قاله بن ـ غوريون في احدى جلسات الحكومة عن المفاجأة المرة التي واجهته، وهي النهب الجماعي لأملاك العرب الذي اشترك فيه اليهود عامة. وقال أحد الوزراء إنه شاهد عمليات النهب بأُم عينيه، وإن «الجيش أخرج من اللدّ وحدها ١٨٠٠ شاحنة مليئة بالممتلكات العربية». وكانت الأحزاب تتنافس على نهب هذه الممتلكات. وكان أعضاء الوكالة اليهودية يتشاجرون حول تقاسم الغنائم. والمؤلف لا ينسى مذبحة دير ياسين التي يعتبرها من أبرز معالم النزاع العربي ـ الاسرائيلي، ولا يتردد في ايراد ما قاله أحد الوزراء: «بفضل دير ياسين انتصرنا»!

وكرس المؤلف **القسم الثاني** من كتابه لمعالجة الصراع بين اليهود القدامى والمهاجرين

الجدد. وفيه تحدث عن سياسة الهجرة والاستيعاب، وعن المخططات الصهيونية لاجتذاب اليهود الى فلسطين «لأن من شأن الهجرة تعزيز أمن الدولة». وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، عمدت اسرائيل الى اجراء صفقات مع الحكومات الأجنبية ترمي إلى السماح لليهود بالهجرة لقاء مبالغ مالية. وفي الدول التي لم تمنح اليهود حرية الهجرة، نظمت «مؤسسة الهجرة» خطوط تهريب ليلية. وكان لهذه المؤسسة مندوبون وجواسيس في الأقطار العربية يتصلون بالسلطات الرسمية لتسهيل ترحيل اليهود. فاليهود السوريون واللبنانيون كانوا يتجمعون في بيروت، ومنها يُنقلون بالسيارات الى الجنوب اللبناني حيث يجتازون الحدود بسلام. وأتيح للمبعوثين الصهيونيين الاجتماع الى بعض زعماء الدول المجاورة، من امثال شاه ايران ونوري السعيد. وفي كل مكان تقريبا، كما ذكر المؤلف، كانوا يعرضون الرشوة، وفي كل مكان كان ثمة استعداد لقبولها. ومسألة الهجرة أثارت جدلا عميقا، وانتشر قول مأثور ينطوي على بعض الحقيقة: «ان اسرائيل تريد الهجرة غير ان الاسرائيليين لا يريدون المهاجرين». واستعملت مختلف الوسائل لحمل يهود العالم على الهجرة، مع ان «ارض ـ اسرائيل»، كما قال احد رؤساء الوزارة، صغيرة لا تستطيع استقبال كل مهووسي يهود العالم. وكان المهاجرون يفدون حاملين معهم عقليات ونفسيات وثقافات وعادات متباينة. وكانوا، عند وصولهم، يخضعون للتدقيق والفحوصات الطبية ويرسلون، وغالبا لمدة اشهر، الى معسكرات رديئة تفتقر الى الماء والحمامات. وأدى كل ذلك الى ظهور المشكلات الاجتماعية وانتشار الحزازات والأحقاد بين اليهود المتحدرين من اصول مختلفة، كما أدى الى اندلاع خلافات شديدة بين المسؤولين حول حصص الهجرة من الشرق والغرب، فقد كان البعض يخشى تقليص الهجرة من أوروبا وازديادها من الدول العربية. ويُشبّه يهود البلاد العربية، كما فعل بن ـ غوريون، «بالزنوج الذين أُحضروا الى أميركا كعبيد».

ويعالج **القسم الثالث** من الكتاب مسألة الصراع بين المتدينين والعلمانيين، ويبيّن كيف ان الأحزاب الصهيونية «السياسية» والأحزاب الدينية حاولت استغلال الدين وتسخير السياسة لتحقيق مآربها الخاصة.

أما **القسم الأخير** فيتحدث عن الصراع السياسي بين ما سماه المؤلف «اليمين واليسار» في اسرائيل، وعن التنافس بين الأحزاب السياسية، وخصوصا بعد انتهاء حرب ١٩٤٨، على التبعية للدول الاستعمارية.

* * *

ان مطالعة الكتاب توحي الينا بالأفكار والفوائد التالية:

أولا ـ ان الكتاب ينطوي على وقائع ومعلومات، قيمة ودقيقة، عن بداية مسار الكيان الصهيوني، من شأنها ان تساعدنا على فهم طبيعة هذا الكيان، ومعرفة الظروف

والملابسات التي نشأ في ظلها، وادراك عوامل القوة والضعف فيه، فجذور التيارات والحركات المتصارعة في المجتمع الصهيوني اليوم تعود الى ما زرعه «الاسرائيليون الأوائل» في فلسطين.

ثانيا ــ ان الكتاب، بالنسبة الى غيره من الكتب التي عالجت الموضوع نفسه، يتميز بالشيء الكثير من الموضوعية والجرأة، وإن كان لا يخلو من المغالطات التي تشتهر بها الأدبيات الصهيونية. ونعتقد ان وعي القارىء العربي كفيل بوضع محتويات الكتاب في سياقها الصحيح وبالتمييز بين الخطأ والصواب، وبين الحقيقة والتزوير، وبين الواقع والخيال.

ثالثا ــ ان هذا الكتاب، وهو من وضع اسرائيلي لا يشك احد في ولائه للكيان الصهيوني، جاء يثبت لنا، بالمستندات والوثائق، ان هذا الكيان قام بالخداع والاغتصاب وعاش على العنف والأكاذيب. وكل من يحاول دراسة سلوك المسؤولين الصهيونيين يخرج بالانطباع نفسه. فالجنرال كارل فون هورن، الذي كان كبيرا للمراقبين الدوليين في المنطقة العربية، قال عنهم في مذكراته: «... وكم ذهلنا جميعا لمقدرتهم على اختراع الأكاذيب وتشويه الصورة الحقيقية، فقد قام قسم الدعاية والأنباء، بالاشتراك مع الصحافة الاسرائيلية بأجمعها، باختراع القصص والأكاذيب حول الحادث (بين سورية واسرائيل) واستعملوا كل وسائل الدعاية لزرع الأكاذيب في اذهان الشعب الاسرائيلي، وفي أذهان مؤيديهم في أميركا والعالم» («جندي في خدمة السلام»، تعريب د. جورج ديب، منشورات دار النهار، بيروت ١٩٦٧، ص ٥٦).

رابعا ــ ان الكتاب يحدثنا عن العنف الذي استعمله الصهيونيون ضد العرب، وأحيانا ضد اليهود انفسهم. وهذا يؤكد لنا ان الصهيونية ترتبط بالعنف ارتباطا وثيقا وعضويا، فالعنف جزء لا يتجزأ من تفكير الحركة الصهيونية وتصرفات زعمائها. والصهيونيون كانوا، وما زالوا، يعتقدون أن العنف هو السبيل الأمثل والأوحد لتحقيق أهدافهم السياسية والتوسعية في العالم.

خامسا ــ ان الكتاب يحثنا على التعرف الى المزيد من أخبار النظام الصهيوني الذي استطاع، بدهائه وتآمره، ان ينتزع من وطننا العربي أرضا غالية ما زال يسعى، منذ سنة ١٩٤٨، لتوسيع رقعتها بالقضم التدريجي. كما ان الكتاب يحثنا، كذلك، على وجوب الاسراع، قبل فوات الأوان، في تدبير أمرنا للذود عن حياضنا وحضارتنا ووجودنا.

الدكتور محمد المجذوب

كانون الثاني / يناير ١٩٨٦

مُقَدِّمَة

أعد هذا الكتاب بتكليف من دار نشر دومينو في القدس، وقد وضع بالاستناد الى مئات الملفات التي تتضمن الآلاف من الوثائق. وقد استخرجتُها بمساعدة لائقة من العاملين في كل من: ارشيف الدولة، والأرشيف الصهيوني المركزي، وأرشيف الجيش الاسرائيلي، وأرشيف الهاغناه، ومعهد تراث بن ــ غوريون في سديه بوكر، وأرشيف حزب العمل، وأرشيف الكيبوتس الموحد في بيت جابوتنسكي، والأرشيف المركزي لتاريخ الشعب اليهودي، وأرشيف ياد فيشيم، وأرشيف مدينة القدس. وبالاضافة الى الملفات، تلقيت بضع نصائح جيدة تستحق التقدير والشكر.

وأتوجه بجزيل الشكر الى ثلاثة رفاق على قراءتهم المخطوطة وهم: يوسف آفنر، وأبراهام كوشنير، وناحوم بارناع؛ فقد ساعدوني كثيرا.

* * *

في احد الأيام الأولى من سنة ١٩٤٩، خرجت السيدة رفقه فاكسمان للتسوق في شارع هيرتسل بحيفا. كان ذلك اليوم ايضا من ايامها الاولى في اسرائيل، بعد ان هاجرت اليها من بولندا. وبالقرب من دار سينما «أورا» لمحت السيدة جنديا ينزل للتو من سيارة جيب، ويتجه نحو شباك التذاكر. تسمرت في مكانها، وصرخت: «حاييم»؟ التفت الجندي نحوها، وفي ثوان معدودة كان يحتضن احدهما الآخر غير مصدق عينيه. وما لبثت المرأة ان دفعت بذراعيها الى الامام وهي على وشك الاغماء، ثم عانقت الشاب؛ لقد كانت امه. كانت آخر مرة شاهد فيها احدهما الآخر تعود الى ما قبل ثمانية أعوام. كان يومها في الرابعة عشرة من العمر، وفرقت الحرب العالمية بينهما. وحتى لحظة لقائهما في ذلك الشارع، كانت السيدة فاكسمان تعتقد ان ولدها حاييم قد قضى في الكارثة النازية. ونشرت صحيفة «معاريف»، التي لم يكن قد مضى على صدورها عام واحد، الحكاية في اليوم نفسه؛ فقد كان لها دلالة رمزية.[1] ان آلافا مؤلفة من الناس افترقوا عن احبائهم في عهد الاحتلال النازي، من دون ان يعرفوا شيئا عن مصيرهم: هل أصبحوا في أحياء الغيتو، ام في المنفى، ام في معسكرات الموت، ام في الغابات؟ وهنا في البلد، كان الناس يلتقون مصادفة، او بواسطة

اعلانات في الصحف، او بواسطة برنامج اذاعي يهز المشاعر عنوانه: «من يتعرف على من، من يعرف من»؛ «من يتعرف، من يعرف»: يقيم آريه (ليبوش) كانتروفيس من كراكوف، حاليا، في كيبوتس هزوريع * ويبحث عن والدته. المطلوب التوجه الى بيت مرغولين (...) من بلوما لانغر الى بيت فسرشتاين، سابقا في كونتا وحاليا في بيت المهاجرين في رعنانا، تبحث عن زوجها أهارون فسرشتاين (...)؛ ليئه كورن من لوبلان، وحاليا في البلد، تبحث عن شقيقتها؛ شانيا فريدمان (المطلوب التوجه) الى بيت كورن (...). كانوا كلهم مهاجرين جددا على عتبة حياة جديدة.

ان حكاية الاسرائيليين الاوائل هي حكاية امل كبير، وايمان بأن كل شيء يمكن ان يكون افضل كثيرا، وبأنه سيكون كذلك فعلا. فقد حلموا بمجتمع متحضر وعادل يحلو العيش فيه، ويؤمن لكل فرد سعادته، مستلهما القانون والاخلاق والعدالة والسلام. وكان دافيد بن ــ غوريون قد اعلن، في اثناء تقديم حكومته الاولى للكنيست، ان دولة اسرائيل لن تكتفي بأن يجد مواطنوها المأكل والمشرب وينجبون الاولاد. وقال: «ليست الاعتبارات المعيشية والاقتصادية هي وحدها التي توجه عملنا وسياستنا، بل الرؤيا السياسية والاجتماعية التي ورثناها عن انبيائنا وتشربناها من تراث خيرة الحكماء والمعلمين في زماننا.» وتوقف في كلماته عند عناصر الرؤيا: «ان رواد العمل في الاحزاب والكتل الصهيونية كافة يبنون حياتهم بالاستيطان على اسس العمل الذاتي والعون المتبادل كأكثر الوسائل مصداقية لاستيطان شعب، وكهدف انساني بحد ذاته لتغيير علاقات الانسان والمجتمع. وترى الحكومة ان من واجب الدولة منح الدعم المعنوي والقانوني والمالي الكامل لرعاية هذه القيم (... قيم الخلق النبوي) كنهج وكرؤيا لتربية الشبيبة وتكوين شخصية امة عبرية وفية لأصولها منذ غابر الازمان حتى رؤيا نهاية العالم.»(٢) وراحت الصحف تنشر صور الرائدين والرائدات، صور قامات أشخاص وُسَماء وكأنهم يمثلون المستقبل. ورسمت شركة فيليبس هؤلاء الاشخاص على اعلان كبير نشرته في الصحف: شاب مفتول العضلات وفتاة تنضح بالحيوية، كادحان، على خلفية خريطة بلدهما، وتحتها عنوان متعرج يقول: «يبزغ الفجر الآن.»(٣) وعرض مسرح «هميتاتيه» تمثيلية بعنوان: «ستحيا دولتنا».

وبينما كانت الحرب على اشدها، انشئت في البلد مؤسسات الحكم الاولى: انشئت الوزارات، وعُيّن قادة الجيش الاسرائيلي وألويته، وكذلك السفراء في العواصم التي وافقت على استقبالهم، وقضاة المحكمة العليا. وأعد مجلس الدولة الموقت عمل الكنيست الذي يجمع بين تقاليد المؤتمرات الصهيونية وتقاليد البرلمان البريطاني، برئاسة يوسف شبرينتساك،

* يقع على بعد ٢ كلم شرقي قرية «قيرة وقامون». وهذه القرية تبعد ٢٢ كلم تقريبا الى الجنوب من حيفا، وكانت تقوم في موقعها بلدة «يقنعام» الكنعانية. (المحرر)

وهو رجل قصير القامة ذو شاربين كثين ويدخن السيجار باستمرار، ذكي وثاقب الفكر، اكتسب خبرة بالعمل البرلماني نتيجة عمله لفترة طويلة في مؤسسات الحركة الصهيونية. ويُروى ان ضيفا اجنبيا وُجد مصادفة في مكتبه ذات مرة، فأبدى دهشته الشديدة من المحاضر المتراكمة، وسأل: «متى تسنى لكم الاسهاب في الكلام؟» فأجاب شبرينتساك: «هذا لأننا التزمنا الصمت ألفي عام.» وكان موضوع بنية الكنيست بين الموضوعات التي بُحث فيها. فقد طالب ممثلو الكتل الصغيرة بزيادة عدد الاعضاء (١٧١ عضوا)، بينما طالب ممثلو الكتل الكبيرة بتقليصه (٧٠ عضوا). واتفق كحل وسط على ١٢٠ عضوا، وهو عدد اعضاء الكنيست (المجمع) الكبير في عهد الهيكل الثاني. وكان على الممثلين ان يبتوا أمورا مشابهة يوميا. وفي اثناء مناقشة بنية الحكومة، تنهد احد زعماء «ماباي» قائلا: «انها تشكل سابقة للأجيال القادمة.» وعلق آخر بقوله: «ليست لدي خبرة كبيرة ببناء الدول.»(٤) في ذلك الحين، كان عربي من يافا، يدعى ابو لبن *، وهو من زعماء قومه، قابعا في احد السجون، بعد ان اعتقل بموجب امر اداري خلافا لقرار المحكمة العليا التي امرت باطلاقه. وقد تناولت صحيفة «هآرتس» الموضوع في افتتاحيتها بالقول: «اننا نواجه مراحل حاسمة في تاريخ دولتنا الفتية، ستتحدد فيها صورتها وتتشكل تقاليدها، وانه لنذير سوء ان لم يكن النصر الى جانب القانون في الصراع بين سيادة القانون ومجالات العمل الاداري.»(٥) ** كان الجميع يعلمون انهم يصنعون تاريخا، وكانوا جميعا مصممين على احتلال حيز صغير في التاريخ. ولذلك، أصعدوا بن ــ غوريون الى اول قطار توجه الى القدس بعد الحرب، وتجمعوا خلفه للنظر من فوق كتفيه الى عدسات آلات التصوير التي خلدت الحدث للصحافيين، وللأجيال القادمة. وكانوا في الحقيقة شديدي التأثر، اذ شهدوا عملية التكوين بعد ألفي عام. ونشرت صحف اسرائيل كلها هذه الصورة.

بعد ان انتصروا في الحرب، وأقاموا مؤسسات الحكم الاولى وانتخبوا اعضاء الكنيست الاول، باشروا سن القوانين وأنشأوا مستعمرات جديدة لاستيعاب المهاجرين. كانوا يقيمون هذه المستعمرات بمعدل واحدة كل ثلاثة ايام، اي نحو مائة مستعمرة في السنة. وشيدوا ــ في المقابل ــ مساكن للقدامى، وأنشأوا مصانع جديدة وخدمات صحية ونظام تعليم، ودشنوا معهد وايزمن للعلوم وكليتي الطب والحقوق في الجامعة العبرية، وأصدروا الجزء الاول من الموسوعة العبرية؛ انجازات ابداعية راحت تتوالى، يوما بعد يوم، بجرأة وبزخم هائل. لقد كان لهم، اذن، سبب وجيه ليكونوا متفائلين جدا بنهجهم وواثقين جدا منه.

* احمد ابو لبن، عضو اللجنة القومية في يافا. (المحرر)

** سجل بن ــ غوريون في مذكراته ان ابو لبن كان من منظمي الحركة السرية العربية في يافا، التي عملت في تهريب الاسلحة وبث المعلومات بارسال اشارات في اتجاه البحر، وما الى ذلك.(٦)

لكنهم، في قرارة نفوسهم، غالبا ما كانوا يميلون الى تجاهل الواقع الفعلي. فقد كان يعتقد ستة من اصل عشرة منهم انه يجب ألا تُنشر اعلانات النعي في شوارع المدن والصحف للذين يسقطون في الحرب، تجنبا للمساس بالمعنويات.[٧] وقد بات هناك الآلاف من العائلات الثكلى في انحاء البلد؛ اذ قتل نحو ٦٠٠٠ اسرائيلي خلال الحرب، اي واحد من كل مائة مواطن، وجرح عشرات الالوف، وسرح من الجيش عشرات الالوف من الجنود. ووجد هؤلاء صعوبة في التكيف وفي ايجاد مكان لهم في الحياة العامة نتيجة الانتقال من صدمة المعركة الى صدمة العودة الى الديار. ومال كثيرون منهم الى التنكر لبيئتهم. وفي النصف الاول من شهر كانون الثاني/يناير، جال احد مراسلي صحيفة «يديعوت احرونوت» في ازقة يافا، وروى فيما بعد: «استقبلني مشهد مفزع فعلا؛ اناس يحملون على اكتافهم الحقائب والصرر والقليل من الاغراض المنزلية والبطانيات والفُرش وقطع الأثاث، وخلفهم نسوة يسرن مترنحات تحت وطأة الصراخ، والاولاد (...) الى اين؟ للبحث عن فندق للمبيت.» فقد كانوا مهاجرين جددا، مبعدين ــ مهجرين. وأشار المراسل الى ان المئات منهم يصلون الى المدينة كل يوم، بحثا عن بيوت اخليت من سكانها العرب. وكان معظم تلك البيوت قد احتل، لكن المهاجرين ظلوا يتدفقون. واستقر عشرات الألوف منهم في خيم.[٨] * أما العرب الذين بقوا في البلد، فكانوا مهزومين ومهانين يتملكهم الرعب. وهكذا، فان حكاية الاسرائيليين الاوائل كانت ايضا حكاية محنة كبيرة وبؤس وارتباكات مزعجة.

كان في البلد استعداد كبير للتنازلات والتضحية، مما يدل على روح ريادية حقيقية ووطنية فائقة. كما كان هناك، في المقابل، السعي المتهافت والانساني جدا وراء الحياة الرغيدة ورفاه الفرد، كل شخص لنفسه، وأحيانا على حساب الآخرين. فهناك من نهب الممتلكات خلال الحرب، وهناك من اخذ منها فيما بعد. ومع مرور الوقت، نشأت سوق سوداء. لم يكن الاسرائيليون الاوائل، اذن، اكثر خلقية ولا اكثر مثالية من اولئك الذين جاؤوا بعدهم.

قال بن ــ غوريون بعد مرور بضعة اشهر على اعلان الاستقلال: «اننا سنخذل الحركة الصهيونية ونخطىء الهدف اذا بدأنا فجأة نتفلسف (بالتساؤل) من انا، ومن اكون؟ فأمامنا، في هذه اللحظة، مسألة عمل فعلي واحد علينا حلها (...).»[١٠] ومال بن ــ غوريون نحو التركيز على مشكلات الدولة لا على مشكلات الفرد. وفعل كتّاب ذلك الجيل مثله.

* كان عرب يافا قد غادروا المدينة قبل ثمانية اشهر تقريبا. وقد وصف احدهم خروجهم منها بالكلمات نفسها تقريبا التي استخدمها ذلك الصحافي الاسرائيلي لوصف دخول المهاجرين اليها: «مشهد جماهير من الرجال والنساء والاولاد يتعثرون تحت ثقل الحقائب والصرر، متوجهين بخطوات ثقيلة نحو ميناء يافا بضجيج ينذر بالسوء ــ المشهد ترك في نفسي صورة لا تمحى.» كان هذا الشخص، كما عرف بعد فترة وجيزة، ابو اياد نائب ياسر عرفات رئيس م. ت. ف.[٩]

فمعظمهم كتب وفكر كثيرا في صيغة المتكلم. ولم ترسم الدراما الانسانية الكبيرة في تلك الايام، في الحقيقة، كصراع بين الفرد والمجتمع، بل كسلسلة من المواجهات الجماعية بين اليهود والعرب، وبين القدامى والمهاجرين الجدد، وبين المتدينين والعلمانيين؛ كل هذا في ضوء المواجهة بين الرؤيا وروتين الحياة اليومية.

وفي خضم هذا الواقع تبدو ثمة اهمية، في الوقت نفسه، لتأمل صحيفتي «دافار» و«هآرتس»: فالاولى تزخر بالايمان الساذج «الصوفي» الى حد ما، اذ انها تجمّل الامور احيانا، وتتظاهر بالتقوى احيانا اخرى، وتقع اسيرة بلاغة الرؤيا؛ والثانية متزمتة، متشككة، ومتصاغرة احيانا، ومتعالية اسيرة عادة الانتقادات احيانا اخرى. وعندما افتتحوا مصنعا لانتاج الساعات المنبهة، نشروا صورة في «دافار» الاسبوعية وكتبوا: «سترسل اول ساعة منبه تصنع في البلد هدية الى رئيس الدولة الدكتور حاييم وايزمن، وسترسل الثانية الى رئيس الحكومة دافيد بن ــ غوريون.»[١١] واعتبرت هيئة تحرير «هآرتس» الامر مثيرا للسخرية كعادتها. لكن مقالا من المقالات القليلة التي نشرت في تلك السنة الانقلابية، يحمل توقيع غرشوم شوكن رئيس تحرير «هآرتس»، طالب بتغيير شعار الدولة فورا لأنه «شنيع، ومثال لانعدام الذوق والثقافة والحس الجمالي عند حكومة اسرائيل.» لقد ثار غضب شوكن من شكل الشمعدان في شعار الدولة، ومن رسم الحروف وأوراق شجرة الزيتون التي اعتبرها كبيرة جدا؛ «وكل هذا ضمن لوحة كتلك التي تستخدم جوائز للفائزين في المباريات الرياضية.»[١٢]* وكتب قراء الصحيفة الى هيئة التحرير، محتجين على التوزيع غير المنظم لقوالب الثلج، وعلى الازدحام في الباصات، وعلى البلدية التي لا تعنى بتنظيف الارصفة، وعلى النقص الدائم في القطع النقدية الصغيرة ــ تلك «التي ترن» ــ وعلى المستوى الثقافي المتدني للبيروقراطية التي قررت فرض ضريبة الكماليات على اسطوانات الموسيقى الكلاسيكية. وأسهبت صحيفة «هآرتس»، في فصل الصيف، في معالجة موجة الجرائم الجنسية التي عمت البلد، فاعتبرتها «من مظاهر انحطاط المعنويات التي تسببها الحرب لتنتشر بين المنتصرين والمهزومين معا.»[١٤] وبعد مضي ثمانية اشهر على اعلان الاستقلال، نشرت الصحيفة مقالا تضمن بدعة من بدع تلك الأيام: كلمة الصهيونية عبارة من دون مضمون.**

* أراد مصمما الشعار، الاخوان غبريئيل ومكسيم شمير ــ وبحسب قولهما ــ رسم شمعدان بخطوط اكثر حداثة. لكن عضو الكنيست يافا ايدلسون، وكانت ترئس اللجنة التي اقرت الشعار، أرادت شمعدانا مستوحى من بوابة تيطُس في روما.[١٣]

** «ان عظمة (جيل البلماح) كانت تكمن في نهجه العملي. ففي الوحدات القتالية كانت الشعارات والعبارات الايديولوجية تختفي. كان ذلك كله هو الصهيونية، امر لا مضمون له ولا صلة له بالموضوع.»[١٥]

وحاول دافيد بن ــ غوريون، بطريقته الخاصة، التصدي للوهن الذي أصاب الرؤيا، فاستدعى، خلال النصف الاول من السنة ثم خلال النصف الثاني، مجموعة كبيرة من الكتّاب والمفكرين للتداول وطلب منهم ــ كما لو كانوا ممثلي نقابة مهنية ــ العمل بصورة جماعية لتعزيز روح الدولة. وكان بعضهم يتخبط في مسائل الوجود الاساسية، تائها بين الماضي اليهودي والحاضر الاسرائيلي، وحائرا بين رفض الشتات وحسّ التضامن اليهودي، بين النزعة الانسانية والخلقية وبين نهج الواقعية السياسية الذي تسير فيه الحكومة، يبحث عن هوية وعن طريق. حتى ان واحدا منهم ابدى شكه فيما اذا كان لا يزال هناك من هدف لتكوين شعب. كان هذا هو [الفيلسوف] مارتن بوبر الذي تساءل: «هل بقيت لنا اية ذريعة؟» وقاطعه رئيس الحكومة بنفاد صبر. وبدا ما تبادله الاثنان من كلام حوارا بين كوهين والنبي:

— بوبر: قلنا «تحرير»؛ تحرير الارض وتحرير العمل. بل قلنا تحرير الانسان في اسرائيل. وكانت اصول هذه المسألة تكمن في مفهوم العقيدة، لكننا انتزعنا منه ذلك الاساس. قلنا بتحرير الارض، وقصدنا جعلها أرضا لليهود؛ (ولكن) أرضا لليهود من أجل ماذا؟

— بن ــ غوريون: من أجل استخراج الخبز من الارض!

— بوبر: من أجل ماذا؟

— بن ــ غوريون: كي نأكل!

— بوبر: من أجل ماذا؟

— بن ــ غوريون: كفى.

كان غضب رئيس الحكومة شديدا، وقد اشتكى قائلا: «لقد طرح [بوبر] اسئلة لا اجوبة عنها. ألا يكفي استخراج الخبز من الارض؟ ألا يكفي هذا. من اجل الاستقلال؟ مرة اخرى هذا لا يكفي. من اجل تحرير الشعب اليهودي؟ حتى هذا لا يكفي. ان البروفسور بوبر يواصل التساؤل من اجل ماذا. ربما كان عنده جواب نهائي على الرغم من انني لست واثقا من ذلك. انني اسأله: «الاسئلة هذه من أجل ماذا؟» ان بن ــ غوريون لا يتنكر للحق في التشكك، لكنه يعترف قائلا: «التساؤل مسموح، لكن علينا قبل كل شيء ان نبني الدولة.»(١٦)

وعشية توقيع ميثاق الاستقلال طلب فليكس روزينبليت ذكر حدود الدولة فيه. وروزينبليت، الذي كان على وشك تغيير اسمه الى بنحاس روزين، اصبح خلال أيام معدودة وزيرا للعدل، وقد عارض بن ــ غوريون طلبه وسجل ما تبادلاه من كلام كالآتي:

— روزين: هناك مسألة الحدود، ويستحيل عدم التطرق اليها.

— بن ــ غوريون: كل شيء ممكن. اذا قررنا هنا عدم ذكر قضية الحدود، فاننا عندئذ لن نتكلم فيها. ليس هناك اي شيء بديهي.

— روزين: هذا ليس بداهة، لكنه امر قانوني.

— بن ــ غوريون: القانون هو امر من الامور التي يضعها البشر.(١٧)

لقد قدّر بن ــ غوريون ان الحرب سوف ترسم حدود الدولة، وستكون هذه الحدود اوسع من تلك التي خصصتها لها الامم المتحدة.* وكان الاسرائيليون الاوائل يتحركون طوال الوقت بين هذين القطبين: الاول يتمسك بالشرعية ويعترف بوجود المستحيل، والآخر عملي يقول بأن كل شيء ممكن.

في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧، صدر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة قرار بتقسيم ارض ــ اسرائيل [فلسطين]، وبقيام دولتين فيها: واحدة يهودية، وأخرى عربية. وبذلك أوشك الحلم الصهيوني ان يتحول الى واقع، بعد مرور اجيال عديدة على خسارة الشعب اليهودي سيادته السياسية وعلى نفيه من بلده. وها هي، اذن، احدى نقاط البداية لحكاية الاسرائيليين الاوائل. لكن، حتى في تلك الليلة لم يكن قيام الدولة مضمونا بعد. وما ان أُعلن تقسيم البلد بين اليهود والعرب حتى سادت موجة من أعمال الارهاب والقتل؛ ففقد الآلاف حياتهم، وأُرغم مئات الآلاف على هجر بيوتهم. وكان اغلبهم من العرب، الى جانب قلة من اليهود. وما دام العنف مستمرا بقي استقلال الدولة موضع شك. وعندما اعلن استقلال اسرائيل كانت الحرب لا تزال في ذروتها، ثم استمرت ستة اشهر اخرى. ولفترة من الزمن، ظل هناك شك في انتصار اسرائيل.

لكن، حتى عندما لاح الانتصار في الافق وتشكلت مؤسسات الحكم الاولى في الدولة بقي هناك مكان للشك فيما اذا كانت ستقوم دولة قانون منظمة. وفي الاشهر الاولى بعد قيام هذه الدولة، وجد مواطنوها صعوبة في الالتفاف حول مسلمات اساسية مشتركة، وتخوف البعض من نشوب حرب اهلية. وبعد مرور بضعة اسابيع على اعلان الاستقلال، ظهرت امام شواطىء البلد الباخرة «ألتالينا» حاملة على متنها مهاجرين وأسلحة لمنظمة الايتسل

* لقد ميزوا، في الاشهر التالية، بين مناطق البلد التي خصصت للدولة اليهودية في خطة التقسيم في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر، وبين المناطق التي احتلت وراء خطوط التقسيم ــ وأساسا في الجليل ــ اي «المناطق المحتفظ بها» في لغة تلك الايام. وبعد ذلك بوقت قصير، قرر قاضي المحكمة المركزية في حيفا، موشيه عتسيوني، ان دولة اسرائيل تستند ــ أولا وقبل كل شيء ــ الى حقوق شعب اسرائيل الطبيعية والتاريخية، ولذلك فان تلك الحدود التي تضمنها قرار الامم المتحدة ليست، في الواقع، هي التي تعني حدود الدولة. واستنادا الى هذا القرار، دانت المحكمة مواطنا من شفا عمرو اتهم بالتهريب، وزعم في دفاعه انه يجب ألا يحاكَم بموجب القانون الاسرائيلي لأن الجرم نفذ خارج تخوم الدولة.(١٨)

(المنظمةالعسكرية القومية). وزعم بن ــ غوريون ان الباخرة استُقدمت من اجل «تدمير جيش الدفاع الاسرائيلي ونحر الدولة»، فأصدر امرا بقصفها من الشاطىء بعد نزول معظم المهاجرين الذين كانوا على متنها.[١٩] واشتعلت النار فيها، وسقط قتلى وجرحى. وفي شهر تموز/يوليو، نشب خلاف حاد بين بن ــ غوريون وبعض قادة الجيش بسبب طلب هؤلاء ترقية مجموعة من الضباط من جماعة (حزب) مابام. وعندما رفض هذا المطلب استقال عدد من قادة الجيش الاسرائيلي، واعتبر بن ــ غوريون ذلك «تمردا سياسيا داخل الجيش.»[٢٠] وبعدها بأيام معدودة، اقتيد المهندس مئير طوفيانسكي الى بيت مهجور في منطقة على طريق القدس، وبعد تحقيق خاطف معه اعدم رميا بالرصاص بتهمة التجسس لمصلحة السلطات البريطانية. ولم يُـمنح (طوفيانسكي) فرصة الدفاع عن نفسه خلال «المحاكمة»، كما لم يسجل محضر بها. وكان «كتاب الاتهام» و«الحكم» الذي صدر في حقه قد حرر بعد ان اصبح في عداد الاموات. وقد اشـرف على «المحـاكمة» و«تنفيذ حكم الاعدام» احـد مسؤولي اجهزة الاستخبارات الاسرائيلية، ويدعى ايسر بتيري. وفي القدس، كانت المنظمات اليمينية السرية لا تزال نشيطة؛ ففي النصف الثاني من شهر ايلول/سبتمبر، اقدم رجال ليحي (منظمة المقاتلين من اجل حرية اسرائيل) على اغتيال وسيط الامم المتحدة، الكونت السويدي فولك برنادوت، الذي كان قبل مقتله بوقت قصير قد بلور اقتراحا لتسوية سلمية تقضي بمصادرة معظم مكاسب اسرائيل الاقليمية التي حصلت عليها للتو من حرب الاستقلال.

حدث كل هذا في فترة تقل عن ستة اشهر، وهو ما كان يميز الفترة الانتقالية من الفوضى الى القانون والنظام. وكانت السنة التالية، ١٩٤٩، مختلفة جدا عن سابقتها؛ اذ انتهى الصراع على انشاء الدولة، وانتهت الحرب دفاعا عنها ومن اجل توسيع حدودها، وجاءت سلسلة من القرارات التي نظمت الحياة العامة، ووضعت الاساس لصهر الاسرائيليين الاوائل في مجتمع واحد. وها هي اذن سنة التكوين؛ تكوين عبر سلسلة القرارات العسكرية والسياسية.

مساء يوم السبت في ٣١ كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٨، اوقف مندوب الولايات المتحدة في اسرائيل الاستعدادات للاحتفال بمناسبة رأس السنة الذي كان مقررا اجراؤه غداة اليوم التالي، وتوجه الى فندق «غالي كينيرت» في طبرية لاجتماع عاجل مع دافيد بن ــ غوريون. وكان الدبلوماسي جيمس مكدونالد، الذي اصبح فيما بعد اول سفير للولايات المتحدة في البلد، يحمل رسالة انذار من الرئيس ترومان يطلب فيها من اسرائيل سحب قوات الجيش التي اجتازت الحدود الدولية مع مصر، وكانت تلك القوات قد تقدمت آنذاك نحو القواعد البريطانية حول العريش. وقد جاءت المبادرة الاميركية استجابة لطلب لندن، وصيغت الرسالة بلهجة تهديد: اذا رفضت اسرائيل اعادة قواتها من سيناء، فستتصرف بريطانيا

بمقتضى معاهدة الدفاع المعقودة بينها وبين مصر، وان الولايات المتحدة «ستعيد النظر» في علاقاتها باسرائيل. قرأ بن ــ غوريون الكلمات بتأن وباهتمام كبير، بينما جلس المندوب الاميركي ينتظر الرد. وفي النهاية، قال بن ــ غوريون ان اسلوب الرسالة جارح، وكأنما كتبها وزير الخارجية البريطاني، بيفن، بنفسه. وفيما يتعلق بلب المسألة، تعهد رئيس الحكومة باعادة الجيش الاسرائيلي الى الجانب الاسرائيلي من الحدود.[٢١] وضاعت بذلك فرصة احتلال قطاع غزة.

حاول قائد الجبهة الجنوبية، يغآل آلون، انقاذ حملة الاحتلال التي اوكلت الى قواته، فهرع الى تل ابيب لمحادثة يغئيل يادين الذي كان يتولى يومها مهمات رئيس الاركان المريض، يعقوب دوري، وتداول بعد ذلك مع وزير الخارجية شرتوك (شاريت)، وفي النهاية مع بن ــ غوريون نفسه الذي وافق على عملية اخرى واحدة: مهاجمة رفح. لكن العملية لم تتكلل بالنجاح، فقد قطعت الطريق بين رفح والعريش، وعزل الجيش المصري الموجود في غزة عن سيناء. كان الجيش الاسرائيلي في تلك المرحلة يسيطر على النقب الشمالي كله، على طول الحدود الدولية مع مصر ــ باستثناء قطاع غزة ــ ويحاصر جيب الفالوجة. وليس بعيدا عن ذلك المكان قامت، فيما بعد، كريات غات *. وقد حوصر داخل الجيب بضعة آلاف من الجنود لم يتمكنوا من الانسحاب. وكان احدهم جمال عبدالناصر. ولم يتمكن الجيش الاسرائيلي من قهرهم. وأبلغ بن ــ غوريون الحكومة: «ان المصريين تعلموا كيف يقاتلون.» وسجل في مذكراته: «لقد تحولت الفالوجة الى تل حي** مصرية.»[٢٢] واتخذت الحكومة، في ذلك اليوم، قرارا بوقف اطلاق النار. ورأى بن ــ غوريون في ذلك انجازا كبيرا، على الرغم من ان غزة والفالوجة لم تسقطا. وسجل في مذكراته: «ان هذه مرحلة مهمة لتحقيق السلام وتعزيز مكانة دولة اسرائيل.» وأضاف: «اذا توصلنا الى اتفاق سلام مع مصر، مع ان هذا ليس بالأمر السهل، فسيسهل علينا التوصل الى اتفاق مع شرق الاردن والآخرين (...).»[٢٣] في احدى امسيات ذلك الاسبوع، تفرغ بن ــ غوريون لمشاهدة شريط سينمائي حربي من انتاج الاتحاد السوفياتي، بدعوة من المندوب باول ايفنوفيتس بارشوف، وذلك في دار سينما «استر» بتل ابيب. وكتب رئيس الحكومة فيما بعد: «خلال مشاهد القصف الذي كانت تقوم به الطائرات السوفياتية، سمعت صفارة انذار. وأراد بارشوف الذي كان جالسا بقربي ان يوقف العرض، لكني عارضت ذلك. وبعد ربع ساعة سمعت اشارة انتهاء

* مستعمرة في منطقة عسقلان، أقيمت سنة ١٩٥٤ على أراضي الفالوجة وعراق المنشية، في جوار مستعمرة «غات». (المحرر)

** مستعمرة تأسست سنة ١٩١٨ مكان قرية طلحة العربية، التي تقع في الجليل الاعلى بمقاطعة صفد. وقد دمرها العرب سنة ١٩٢٠. (المحرر)

الانذار. وعلمت، بعد ذلك، ان مطار اللد تعرض للقصف وأصيبت قاعة الطعام المخصصة للكتيبة ٨٢. وقتل جندي واحد (غيفر)، وجرح اثنان آخران. كان الفيلم محض دعاية.»[٢٤] في ذلك الاسبوع، قصف مطار تل ابيب وقصفت القدس من الجو. ودمرت احدى القنابل سور مستشفى «شعاري تسيدك»، وأصيب عدد من المارة بجروح.[٢٥]

ظل اطلاق النار على الجبهة الجنوبية مستمرا ايضا، خلافا لقرار الحكومة، وقال بن ــ غوريون: «ان يغئيل (يادين) يشك في ان رجالنا ايضا لم يوقفوا (اطلاق النار)، على الرغم من ان يغآل آلون قد تلقى منه أمرا واضحا هذا الصباح. ويعتقد يادين ان أفراد الزمرة: (يتسحاق) رابين ويتسحاق ساديه وغيرهما، أوعزوا اليه بالاستمرار في اطلاق النار عندما عاد الى الجنوب (...).»[٢٦]

كانت تلك الطلقات هي الاخيرة. فالحرب انتهت بمعركتين جويتين، سقطت خلالهما خمس طائرات بريطانية. وقتل طيار بريطاني واحد، وأسر اثنان آخران. وقد حاولت اسرائيل، فيما بعد، الادعاء بأن الطائرات البريطانية توغلت في مجالها الجوي، وأسقطت في أراضيها. وكان هذا الادعاء كاذبا. فقد تضمنت مذكرات بن ــ غوريون برقية تلقاها من الجنوب، تذكر ان آلون اصدر أمرا بسحب حطام الطائرات من الاراضي المصرية ونثرها في الاراضي الاسرائيلية «لأسباب مفهومة»، كي «تكتشف» هناك.[٢٧] * وبعد ساعات معدودة، عاد بن ــ غوريون الى طبرية كعادته. وكانت معنوياته مرتفعة. وسجل في مذكراته: «انه ليوم في غاية الروعة؛ أولم تنته الحرب؟»[٢٩] وبعد مرور اربعة ايام على انتهائها، ألغت قيادة الدفاع المدني الامر القاضي بتعتيم نوافذ البيوت ومصابيح الطرق. وظل التعتيم ساري المفعول في المعامل والمصانع. لكن الخطر الآني قد زال. في هذه الاثناء، استكملت الترتيبات في القاعة الصفراء في فندق «الورود» بجزيرة رودس، لبدء المفاوضات بشأن خط الهدنة بين اسرائيل ومصر. وتحدثت الصحف بلغة تلك الايام عن «الخط الفاصل»، وكان هذا هو الخط الاخضر.

---

* كانت مهاجمة الطائرات البريطانية عملا صبيانيا، قام به طيارون تصرفوا بداعي الاستمتاع باطلاق النار عشوائيا. وقد كتب الطيار عيزر وايزمن الذي اسقط واحدة، في مذكراته فيما بعد، انه فعل ذلك لأنه كان «حزين القلب»، فقد فاتته روعة ذلك اليوم. قال: «ها هي الحرب قد انتهت، وهي تلفظ رمقها الاخير (...) وأنا خارج الاحتفال.» اذن، فقد خرج يبحث لنفسه عن طريدة.[٢٨]

القِسْمُ الأوّل

بَينَ اليَهُود وَالعَرَب

الفصل الأول
الخط الأخضر

استجابت حكومة اسرائيل، مرغمة، لاقتراح اتخاذ جزيرة رودس مقرا لمحادثات الهدنة. وكتب بن ــ غوريون: «عارضتُ رودس لأنها انكليزية، ولن يكون لنا فيها تسهيلات في الاتصالات.» واقترح اجراء المفاوضات في القدس، او على خط الحدود بين اسرائيل ومصر، او في عرض البحر على متن احدى السفن الاميركية يرفع عليها علم الامم المتحدة. ومع ذلك، فقد كان بن ــ غوريون يعتقد انه يجب عدم الاصرار على ذلك.(١) في ذلك الحين، كان يقع على الشاطىء الشمالي لهذه الجزيرة العريقة تاريخيا مقر عمل فولك برنادوت، وسيط الامم المتحدة الذي قتل في القدس قبل ذلك التاريخ بأربعة اشهر، وكأنما روحه الشريرة ما زالت تحوم هناك. غير ان الكونت السويدي أجاد في وصف رودس، كزاوية جميلة وهادئة ومثالية من اجل اتصالات السلام، فهي بعيدة جدا عن النار والكراهية، وليست ببعيدة كثيرا عن وسائل المواصلات والاتصال.(٢) ومما رسخ في ذاكرة دايان، فيما بعد:(٣) «أسراب كبيرة ومتنوعة من الفراشات كانت تطير بين الشجيرات كي تضفي على المكان سمة اسطورية.» كان فندق «الورود» مؤثثا بفخامة عريقة من الطراز القديم، وبزخرفة ملائمة للصحافيين والدبلوماسيين ليحتك بعضهم ببعض، وليتبادلوا الاسرار، حول كؤوس الويسكي او الليموناضة. ولقد ظل المقدم يتسحاق رابين، الذي استدعي للحضور جوا الى رودس مباشرة من معارك النقب، يتذكر استمتاعه بشرائح اللحم اللذيذة التي تناولها هناك.(٤) كما ظل وولتر ايتان، المدير العام لوزارة الخارجية، يشتهي في ذكرياته الحلويات التي استقدمت خصيصا من محل «غروبي» الشهير في القاهرة، قبل توقيع الاتفاق مع مصر.(٥) أما وسيط الامم المتحدة الذي أدار المحادثات، فقد كان الدكتور رالف بانش، وهو اميركي زنجي وأحد مساعدي برنادوت، وكان حاد الذكاء ومحبا للناس. وقد خولته جهوده، فيما بعد، لنيل جائزة نوبل للسلام. اقام بانش ورجاله في احد اجنحة الفندق، وأقام كل من الوفدين في جناحين آخرين: الاسرائيليون في طبقة، والمصريون في الطبقة التي فوقها. لم يصفُ جو السماء للقادمين؛ ففي يوم الخميس، الواقع في ١٣ كانون الثاني/يناير، استقبلتهم في رودس رياح عاتية وعاصفة من الامطار الغزيرة.

وفي اليوم ذاته، التأم في تل ابيب المجلس الموقت للدولة الذي سبق تأليف الكنيست، في جلسة خاصة ومغلقة من اجل وضع السياسة التي سيلتزمها الوفد الاسرائيلي في رودس. ولقد اقترح مابام، في تلك الجلسة، اتخاذ قرار بعدم اجراء مفاوضات على اساس المطالبة بضم اي جزء من ارض ــ اسرائيل الغربية الى احدى الدول العربية. أما ماباي وسائر الاحزاب، فقد قررت وجوب المطالبة باخراج المصريين من قطاع غزة، كنقطة انطلاق وليس كشرط لا رجوع عنه.(٦)

خلال تلك الاسابيع، لم يكن بن ــ غوريون في الواقع في حالة نفسانية مريحة؛ فقد ذكر في احد لقاءاته الاستشارية مع معاونيه: «قبل قيام الدولة وعشيته، كانت مصلحتنا الاساسية هي الدفاع عن النفس؛ يجب ان نعزو اقامة الدولة، الى حد كبير، الى الدفاع عن النفس (. . .) ويعتقد كثيرون اننا ما زلنا نعيش في تلك الفترة. غير ان المسألة المطروحة الآن هي مسألة الاحتلال، لا مسألة الدفاع عن النفس. أما فيما يتعلق بتعيين الحدود، فأمر لا نهاية له، اذ ان في التوراة كل أنواع مواصفات حدود الدولة، وكذلك في تاريخنا. وفي الواقع، لا نهاية لهذا الامر. ليست هناك حدود مطلقة. فاذا كانت الحدود هي الصحراء، فمن الجائز ان تكون ايضا على جانبها الآخر. واذا كانت الحدود هي البحر، فيمكن ان تكون ايضا وراءه. ومنذ الازل والعالم بأسره سائر في هذه الطريق. المفاهيم وحدها كانت مختلفة. فاذا اكتشفت طريق الى الكواكب الاخرى، فمن المحتمل ان تصبح الكرة الارضية ايضا غير كافية.»(٧) وصاغ بن ــ غوريون، في مذكراته، توجيها سياسيا اكثر دقة: «السلام ضروري، لكن ليس بأي ثمن.»(٨)

لم يبشر اللقاء الاول بين مندوبي مصر واسرائيل بالخير، فقد تجاهل المصريون الاسرائيليين، في البداية. ولاحظ وولتر ايتان ان بعض المصريين الذين ازداد فضولهم يديرون رؤوسهم بسرعة خاطفة عندما يلتقون الاسرائيليين في ردهات الفندق. ولم ينجح بانش في جمعهم فورا. لكن في النهاية قبل المصريون المجيء الى غرفته، فجلس الوسيط على المقعد وجلس الوفدان حوله: الاسرائيليون الى يمينه، والمصريون الى يساره. وقد حرص المصريون على مخاطبة الوسيط، كما لو ان الاسرائيليين غير موجودين. بدأ الجو يتغير بالتدريج، وأخذ أعضاء الوفدين يتداولون فيما بينهم بالانكليزية والفرنسية، وفي النهاية عرض بعضهم على بعض صور أبنائهم.(٩) كان ايتان على رأس الوفد، وبين اعضائه: رؤوفين شيلواح احد مستشاري بن ــ غوريون المقربين ومن رواد الاستخبارات الاسرائيلية؛ والياهو (الياس) ساسون، مدير دائرة الشرق الاوسط في وزارة الخارجية، وهو صحافي ورجل سياسة من مواليد دمشق، ومن أوائل دبلوماسيي الوكالة اليهودية الذي كان يتصرف كأهل البيت في العواصم العربية، ويتردد الى قصور الحكام، كما انه رجل أحلام ومحب للسلام؛ أما يغئيل

يادين، فلقد كان يرئس الوفد العسكري ومعه، بالاضافة الى رابين، ضابطان: يهوشعفاط هركابي وآرييه سيمون.

استمرت المفاوضات ستة اسابيع. وبذل بانش، في الايام الاولى، جهودا كبيرة من اجل انقاذ القوة المصرية المحاصرة في جيب الفالوجة. واعتبر ذلك شرطا مسبقا لنجاح المفاوضات. وتخوفت اسرائيل من ان يؤدي الانسحاب من الجيب الى إضعاف استعداد المصريين للتوصل الى اتفاق، ورفضت بالتالي رفع الحصار. ونتيجة ذلك، ساد التوتر الشديد بين الاسرائيليين ووسيط الامم المتحدة، وبدا أن المفاوضات ستنهار. ثم تم التوصل الى تسوية وافق المصريون، بموجبها، على مواصلة المحادثات من دون فك الحصار، وسمحت اسرائيل بادخال الطعام والادوية الى الفالوجة. وفي المقابل، تم توقيع اتفاق وقف اطلاق النار، كمرحلة تسبق الهدنة. في البداية، ألمّ بانش بوضوح بمواقف الوفدين الأساسية وأخذ ينقل بالتدريج المعلومات من وفد الى آخر. وساد الفريقين، حينها، احساس بأن الاتفاق بات وشيكا. وهكذا اصبح لدى وفد اسرائيل انطباع بأن المصريين قد يوافقون على سحب قواتهم من قطاع غزة شرط ألا يخضع السكان المحليون لسلطة اسرائيل. لكن اتضح، فيما بعد، ان الفجوة بين الفريقين اعمق مما تخيلا، فلقد تمسكت اسرائيل بمطلبها وهو جلاء المصريين عن القطاع، في حين طالب المصريون بجلاء الجيش الاسرائيلي عن بئر السبع التي كان اخلاؤها أمرا مهما بالنسبة الى المصريين الذين لم يعترفوا بسقوطها: لم يسمع الجمهور المصري بيانا معتمدا من حكومته في هذا الشأن. ورفض كل من الطرفين المتخاصمين مطالب الآخر بتصلب مثير للأعصاب. وجرب بانش كل وسيلة لحملهم على الاتفاق. ودعا، ذات يوم، الاسرائيليين والمصريين الى غرفته، وعرض عليهم صحونا من السيراميك كان قد طلب إعدادها من معمل محلي كتب عليها: مفاوضات الهدنة، رودس، ١٩٤٩. وقال لهم: «اذا توصلتم الى اتفاق فسيحظى كل منكم بصحن كهذا للذكرى، وإلا فسوف إحطم هذه الصحون على رؤوسكم.» وذكر ايتان، في تقريره لوزير الخارجية شاريت، ان وسيط الامم المتحدة تصرف بطريقة «غريبة جدا». أما في شأن التصلب المصري، فقد كتب قائلا: «احسست بأنني قادر على الصراخ بأعلى صوتي.»(١٠) *

قبيل المرحلة الثانية من المحادثات، قررت الحكومة الاسرائيلية التنازل عن المطالبة

* اكثر اعضاء الوفد الاسرائيلي في رودس من الابراق الى تل ابيب لتوضيح ادق التفاصيل وطلب التوجيهات، ولقد تجنبوا اتخاذ القرارات بأنفسهم، او طرح مقترحات من عندهم. كما اكثرت تل ابيب من الابراق اليهم عدة مرات في اليوم، وأرسلت لهم الآلاف من الرسائل والبرقيات والرسائل اللاسلكية. وبصورة عامة؛ فضلوا لسبب ما الكتابة باللغة الانكليزية، ربما لأنه لم يكن لديهم عدد كاف من الآلات الكاتبة باللغة العبرية، او لأنهم كانوا متمكنين من الانكليزية، او لأنهم شعروا بأن الوثيقة =

بانسحاب المصريين من قطاع غزة، غير انها رفضت التنازل عن مواقعها في المنطقة الاثرية في عوجا الحفير، وهي نيتسانا*. ولم يكن التنازل عن غزة سهلا؛ فلقد رأى الجيش الاسرائيلي ومابام، وطبعا «حيروت»، ان في ذلك خضوعا مهينا وخطرا. وفي الواقع، كان الامل ضئيلا بأن ينسحب المصريون من القطاع بمحض ارادتهم، لذلك فضلت الحكومة الاعتراف بالواقع كي لا تتسبب بانهيار المفاوضات. كما ان بانش لم يكن ميالا الى الاعتقاد ان اسرائيل قامت بخطوة كبيرة بتنازلها عن القطاع. وقد اغضبه تصلب اسرائيل ازاء مسألة بئر السبع، والعوجا، وخرائب أكواخ الطين في بئر عسلوج القريبة من رفيفيم. في تلك الاثناء، تنازل المصريون عن مطالبتهم بوضع جيشهم في بئر عسلوج، واكتفوا بوضع حاكم عسكري هناك. أما فيما يختص ببئر السبع والعوجا، فلم يتنازلوا عنهما. وبحسب قرار التقسيم، في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧، ظلت بئر السبع والعوجا ضمن حدود الدولة العربية.

في الايام التالية، تم التوصل الى اتفاق بشأن عدد من المسائل العسكرية مثل: المناطق العازلة، وتخفيض القوات، وغير ذلك. وعندئذ طرح بانش حلا وسطا: اقترح ابقاء بئر السبع وبئر عسلوج في يد اسرائيل، لكنه قال ان بئر السبع يجب ضمها الى منطقة تخفيض القوات. وكان المصريون يزمعون الاحتفاظ بحقهم في ان يطرحوا من جديد مطلبهم بشأن المدينة، في موعد لاحق. واقترح بانش تجريد قرية العوجا وضواحيها من السلاح، ووضعها تحت سيطرة الامم المتحدة. فوافق المصريون على اقتراحه، غير ان اسرائيل رفضته. وبرز بالنسبة الى هذه النقطة خلاف في الآراء بين اعضاء الوفد الاسرائيلي، اذ اتخذ يادين موقفا متصلبا، في حين مال ايتان الى التساهل. وفي البداية، تبنى شاريت موقف مديره العام، حتى انه نجح في حمل بن ـ غوريون على الموافقة على تنازلات بشأن قضية العوجا. واعترض يادين زاعما انه يكفي ان اسرائيل وافقت على الانسحاب من الفالوجة، ويكفي انها تنازلت عن قطاع غزة. ان من شأن تنازل جديد ان يضعف موقفها في المفاوضات مع باقي الدول العربية. وتمت الموافقة على موقفه، لكن بن ـ غوريون غير رأيه خلال فترة قصيرة من الزمن، في اعقاب استشارات متتالية أجراها مع دوري وشاريت، وتم رفض موقف يادين مجددا.(١١) وفي ٩ شباط/فبراير، قررت الحكومة الموافقة على الحل الوسط الذي اقترحه بانش، شرط ان تكون المنطقة المجردة من السلاح والمحيطة بالعوجا اصغر مما اقترحه الوسيط، بحيث تمتد الى جانبي الحدود الاسرائيلية ـ المصرية، وألا تسلم الى سيادة الامم المتحدة وانما

= الدبلوماسية ستكون «مهنية» اكثر اذا كانت مكتوبة بالانكليزية، وربما فضلوا ذلك من باب التباهي. وولتر ايتان من مواليد ميونيخ في ألمانيا، تعلم وحاضر في جامعة اوكسفورد، وتعكس البرقيات التي ارسلها الى شاريت غطرسة وطريقة تفكير بيروقراطية عديمة الخيال.

* مستعمرة أُقيمت على أراضي عوجا الحفير. (المحرر)

تستخدم مقرا للجنة الهدنة فقط. وقد اتخذت الحكومة قرارها بأغلبية كبيرة. قال بن ـ غوريون: «لقد تم اقرار اقتراحي بشأن العوجا بالاجماع، باستثناء (أهارون) تسيزلينغ (وزير الزراعة) الذي صوت ضده، و (مردخاي) بنطوف (وزير العمل والبناء) الذي خجل من التصويت الى جانبه فامتنع عن التصويت.»(١٢) وفي الاسابيع الثلاثة التالية، جرت مساومة في رودس فيما يخص التفاصيل الاخيرة، وفي ٢٤ شباط/فبراير تم التوقيع. كتب بن ـ غوريون معلقا: «بعد اقامة الدولة وانتصارنا في ساحة القتال، فان هذا هو الحدث الكبير في سنة الاحداث الكبيرة والرائعة.»(١٣)

استند اتفاق الهدنة مع مصر، في اساسه، الى الوضع العسكري على الارض. فاسرائيل اضطرت الى الموافقة على وجود عسكري مصري في قطاع غزة، والى سحب قواتها من منطقة بيت حنون والمنطقة المتاخمة لمقبرة رفح. ومع ذلك، سمح لها بالاحتفاظ بسبعة مرتفعات على طول القطاع. وفك الحصار عن اللواء المصري الذي كان محاصرا في الفالوجة. وانتقلت المنطقة التي كانت في حيازة اللواء المصري الى اسرائيل.* كما اضطرت اسرائيل الى الموافقة على اقامة منطقة مجردة من السلاح في نيتسانا. وبناء على طلبها امتدت هذه المنطقة على جانبي الحدود. وتم اختيار نيتسانا مقرا للجنة الهدنة ـ وبسبب معارضة اسرائيل أُلغيت فكرة وضع المنطقة تحت اشراف الامم المتحدة. كما رفضت اسرائيل الطلب المصري بضم بئر السبع الى المنطقة الدفاعية ذات القوات المخفضة، غير انه تم ضم منطقة رفيفيم اليها. وقد عزز توقيع اتفاق الهدنة مع اكبر دولة عربية الامل بتوقيع اتفاقات هدنة، وربما اتفاقات سلام، مع سائر الدول العربية. كتب يتسحاق رابين: «اعتقدت اننا نتقدم نحو السلام. الجميع آمن بذلك.»(١٤)**

بعد اربعة اسابيع من توقيع الاتفاق مع مصر، وُقع مع لبنان اتفاق شبيه. أما المفاوضات التي ادت اليه فلم تكن معقدة، اذ جرت قبلها محادثات جس نبض غير رسمية، بيد ان اللبنانيين تخوفوا من ان يكونوا الاوائل، فقالوا للاسرائيليين: «توصلوا الى الاتفاق مع احدى الدول العربية، وسيكون لبنان الثاني.» وقد دارت المفاوضات على الحدود

* بعد مرور عام على ذلك، عاد عبدالناصر الى هذا المكان بالتنسيق مع لجنة الهدنة من اجل المساعدة في تحديد الاماكن التي تم فيها دفن الجنود الاسرائيليين الذين قتلوا وقام المصريون بدفنهم.

** مع توقيع الاتفاق، ارسل ايتان الى تل ابيب اقتراحا مفصلا بشأن كيفية توجيه مراسلي الصحف؛ فقد اقترح التقليل من منجزات اسرائيل كي لا يثير غضب المصريين، كما اقترح إخفاء امر اية تنازلات اسرائيلية عن الصحف.(١٥) وكعادته، وقع موشيه شاريت في سوء فهم تحول تقريبا الى قضية فعلية. فلسبب من الاسباب، لم يعرف وزير الخارجية ان اسرائيل تعهدت باخراج قواتها من بئر عسلوج، ولسبب ما تحدث عن ذلك امام الصحافيين وأعطاهم معلومات مغلوطا فيها. وما لبث ان ابرق الى ايتان طالبا تزويده بتفسير يسمح له بالخروج من الورطة.(١٦)

بين الدولتين بالقرب من رأس الناقورة. واجتمع الوفدان تارة في مركز الجمارك ما وراء الخط اللبناني، وتارة اخرى في مركز الشرطة بالقرب من الخط الاسرائيلي. وكان المركزان يبعد احدهما عن الآخر ٥٠٠ متر تقريبا، ويطلان على شاطىء البحر الابيض المتوسط، والمنظر يحبس الانفاس، وكانت الطريق المتعرجة تمر بحقول مزروعة بالألغام. اسهب اعضاء الوفدين في التحدث وجها لوجه وبالعربية. وكان على رأس الوفد الاسرائيلي المقدم مردخاي مكليف الذي اصبح فيما بعد رئيس الاركان الثالث للجيش الاسرائيلي، ومعه كان يهوشواع بالمان (بالمون) وشبتاي روزين من وزارة الخارجية. ولم يطلب من ممثلَيْ الامم المتحدة، هنري فيزيه ووليم رايلي، التدخل كثيرا مثل رالف بانش في رودس. كتب روزين قائلا: «ان هذا المكان يسمح بالتقارب الشخصي بين الوفدين، لأن احدهما مضيف والآخر ضيف، وتجري المحادثات في جو من الاحترام، بحسب ما هو متعارف عليه في الشرق مما يمكّنك من التعرف الى محاوريك.»[١٧] ولقد طلب روزين تعلم درس من ذلك للمستقبل: ان المحادثات المباشرة افضل من المحادثات عن طريق وسطاء. وكتب الى ساسون: ان اللبنانيين عندما يكونون وحدهم يتظاهرون بأنهم ليسوا عربا على الاطلاق، وانهم انجرّوا الى مغامرة الحرب رغما عنهم؛ «فهم يزعمون ان اسبابا داخلية تمنعهم من ان يعلنوا بصراحة كراهيتهم للسوريين وعدم قبولهم بوجود الجيش السوري داخل حدودهم. وهم يسارعون الى اقتراح ادخال تعليمات ملائمة على الاتفاق تؤدي الى الحد من حرية الجيش السوري (. . .) وأعتقد انهم سيقترحون، في اول مناسبة ملائمة، اعادة العلاقات التجارية معنا.»[١٨]

عندما بدأت المفاوضات، كان الجيش الاسرائيلي يسيطر على قطاع ضيق في الجنوب اللبناني، الى الغرب من اصبع الجليل، تقع فيه اربع عشرة قرية، واحدة منها تقع في الطرف الشمالي ولا تبعد كثيرا عن مجرى نهر الليطاني. وكانت هذه القرى قد احتلت في عملية «حيرام». ومع بدء المفاوضات، اتضح انه لا يوجد تقريبا اي خلاف في الرأي بين الطرفين. فلقد اتفقت الدولتان على ان تشكل الحدود الدولية خط الهدنة، وعلى ان تنسحب اسرائيل من المناطق التي احتلتها بعد توقيع الاتفاق. وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت هناك حاجة الى ثلاثة اسابيع لتوقيع الاتفاق، اذ حاولت اسرائيل في البداية ربط انسحابها بانسحاب السوريين من لبنان. وما بدا اكثر اهمية هو انسحابهم من المناطق التي احتلوها خلال الحرب على طول نهر الاردن وشرقي بحيرة طبرية. وطلب شاريت من رؤوفين شيلواح ان يشرح لرالف بانش ان هناك خيارين فقط: إما ربط المفاوضات مع لبنان بالمفاوضات مع سورية، وإما القيام بعملية عسكرية ضدها من اجل طردها من الاراضي التي احتلتها.[١٩] وخالفه في هذا بعض معاونيه. فكتب روزين: «انني مضطر الى القول ان لا مبرر لطلبنا هذا، لأننا نحتفظ بأرض لبنانية والسوريين يحتفظون بأرض اسرائيلية، ومن الصعب عمليا ان نستخدم تفوقنا

على لبنان لنبتز انسحابا سوريا من أرضنا.»[٢٠]

كان هذا نقاشا جرى بين وزارة الخارجية والجيش الاسرائيلي. وكتب يغئيل يادين الى وولتر ايتان يقول ان الدبلوماسيين «لا يفهمون» كما يجب المشكلات العسكرية للحدود الشمالية وأهمية هذه الحدود، وطالب بتوجيههم توجيها سليما.[٢١] ولم يكن موقف اسرائيل مقبولا من وسطاء الامم المتحدة او من اللبنانيين. وفي الواقع، لم تعرقل اسرائيل في المرحلة الاولى النقاش بشأن مضمون الاتفاق واعداده. لكن، كلما تبلور [الاتفاق] ازداد تخوف اسرائيل من تعرضها لدى انجازه لضغوط دولية من اجل توقيعه. فتشبثت، في هذه المرحلة، بمطالبتها بأن يترافق انسحاب قواتها من لبنان مع اتفاق مقابل مع سورية. عندئذ ثار وسيط الامم المتحدة هنري فيزيه، وروى روزين عنه فيما بعد قائلا: «لقد هددنا بكل صنوف المتاعب»، وكاد يلغي المفاوضات كلها، غير ان وليم رايلي ما لبث ان انقذ الموقف باقتراحه ان يجتمع مندوبو الطرفين وجها لوجه للتفاوض من دون وسطاء. فجرت محادثات جيدة وبالعربية، علق عليها روزين بقوله: «لدي انطباع بأن حكومة لبنان معنية جدا بالتوصل الى اتفاق معنا.»[٢٢] غير ان المفاوضات واجهت طريقا مسدودا. واتضح، خلال ساعات معدودة، ان ثمة سبيلا واحدا للتوصل الى اتفاق. كتب بن ـ غوريون بتاريخ ١٧ آذار/مارس في مذكراته: «في رأيي، يجب التوقيع من دون ربط الامر بانسحاب السوريين لأن هذا، اولا، يقوي موقفنا السياسي بصورة عامة، وفي ايلات (التي احتلت على التو) بصورة خاصة؛ ثانيا، يزيد في ضغطنا على السوريين؛ ثالثا، يسهل تنفيذ عملية في المثلث، في حال الاضطرار الى ذلك.» وفي الليلة نفسها، زار بن ـ غوريون كلا من دوري ويادين وموشيه دايان وايتان وروزين. وعرض العسكريون موقفهم، كما عرض موظفو وزارة الخارجية موقفهم ايضا. وفي تلك الاثناء، مارس رالف بانش والاميركيون ضغوطا كبيرة، فهددوا في حال فشل المفاوضات بأن تلقى المسؤولية على عاتق اسرائيل، وهذا سيضر كثيرا بمكانتها الدولية، وبفرص قبولها عضوا في الامم المتحدة. وقال بن ـ غوريون: «حسمت الامر بتوقيع اتفاق هدنة مع لبنان.»[٢٣] وفي الايام التالية، حاول الوفد الاسرائيلي تحسين شروط الاتفاق. وضمن ما طالب به تعديل الحدود في منطقة المالكية، واخراج القوات السورية من لبنان، فرفض اللبنانيون تعديل الحدود، واضطرت اسرائيل الى الاكتفاء بالترتيب الذي توصل اليه وليم رايلي مع حكومة لبنان، والذي يقضي بأن يبعد السوريون قواتهم الى خط طرابلس ـ حلب. وفي مقابل ذلك حُلّت مشكلة الاسرى بطريقة مرضية. فقد رفض اللبنانيون الاعتراف بأن الاسرى الخمسة الذين يحتفظون بهم هم اسرى حرب، وهذا صحيح من الناحية التقنية، لأن الخمسة وقعوا في الاسر بعد قيام دولة اسرائيل. وفي نهاية الامر، وافقت اسرائيل على الاعتراف بأنهم ليسوا اسرى حرب، ووافق اللبنانيون على اطلاقهم كما لو انهم اسروهم في

الحرب.(٢٤) *

بعد توقيع الاتفاق مع مصر، وقبل توقيع الاتفاق مع لبنان، بدأت محادثات مشابهة مع الاردن. وجرت المفاوضات في رودس مثل المفاوضات مع مصر، ومثلها ايضا كانت بادارة رالف بانش. وفي فندق «الورود» وُقِّع الاتفاق. لكن، باستثناء حفلي الافتتاح والتوقيع اللذين استغرقا سبع دقائق فقط، لم يحدث الشيء الكثير بين الاسرائيليين والاردنيين في رودس. وعلق موشيه دايان على ذلك بقوله: «ان عيب الوفد الاردني الاساسي هو تركيبه الغبي» ــ مستخدما كلمة عامية كانت معروفة بين ابناء جيله هي كلمة «داغي» او «دغنرقي» اي: «غبي».(٢٧) فالدبلوماسيون الذين ارسلهم [الملك] عبدالله الى رودس أغضبوا دايان: «كانوا مكبلين بالتعليمات، وغير مخولين الخروج عنها.» وفي الواقع لم يقرروا شيئا، ولم يُضِع دايان وقته بصحبتهم. فالمحادثات الحاسمة جرت في اوروبا وفي القدس، وعبر سلسلة اجتماعات تحيطها السرية وطابع الشرق في قصور الملك عبدالله. وهنا قام دايان بدور اساسي، وتوثقت صلاته ببن ــ غوريون بالتدريج؛ فهو ابن شموئيل دايان، احد زعماء حركة الموشافيم وماباي وعضو في الكنيست الاول، وكأنه ولد داخل ماباي. وكان هذا يعتبر امتيازا مهما في الجيش الاسرائيلي؛ فالكثيرون من قادة المقاتلين أيدوا مابام، ولم يعتمد بن ــ غوريون عليهم. تعرف بن ــ غوريون الى دايان عندما كان قائدا لفرقة الكوماندوس في اللواء الثامن المدرعة، وهي الكتيبة ٨٩ التي احتلت اللد والرملة، واختاره بن ــ غوريون فيما بعد ليحل محل دافيد شلتيئيل قائدا للقدس. ومنذ ذلك الحين، حافظ دايان على علاقة مباشرة برئيس الحكومة، متجاوزا رؤساءه ومن دون التنسيق معهم. وأشركه بن ــ غوريون في وضع السياسة. كان هذا الرجل ذو العصبة السوداء حينئذ في الثالثة والثلاثين من عمره، وهو من مواليد دغانيا، وجندي مزارع وشاعر مستتر وعالم آثار هاو وسياسي. وكان يتحدث باقتضاب مفيد عما يجب عمله اوعدم عمله في ذلك اليوم. وغلب على تلك الحقبة شدة النزعة العقائدية وكثرة الكلام، غير ان دايان كان متحررا من القيود الفكرية جميعا، لذلك بدا رجلا

وهكذا لم يتبدد حقا الحلم القديم في ضم الجنوب اللبناني واقامة دولة مسيحية في الشمال، او على الاقل تقسيم لبنان، واقامة دولة مسيحية في الجنوب. ولقد سعى بن ــ غوريون لذلك في بداية الحرب اذ قال: «ان حكم المسلمين (في لبنان) مصطنع ومن السهل القضاء عليه، ويجب اقامة دولة مسيحية يكون الليطاني حدها الجنوبي، ونعقد معها حلفا.»(٢٥) وطرح بن ــ غوريون فكرته في السنوات التالية، كما كتب موشيه شاريت عن ذلك في مذكراته: «اقتفى (موشيه دايان) اثر بن ــ غوريون، وكشف بواطن افكاره المتمادية. فبالنسبة اليه، ان كل ما هو مطلوب هو ايجاد ضابط ولو برتبة رائد، واستمالته او شراؤه بالمال كي يوافق على اعلان نفسه منقذا للسكان الموارنة. وربما عندها يدخل الجيش الاسرائيلي لبنان، ويحتل المنطقة المطلوبة، ويقيم حكما مسيحيا بالتحالف مع اسرائيل.»(٢٦) كانت هذه الفكرة تبدو لشاريت «فظيعة».

عمليا ذا اعتبارات موضوعية تماما ــ لكن لم تكن صحيحة دائما.

عندما عين دايان حاكما في القدس اقام علاقة مع الملك عبدالله ومع قائد القوات الاردنية في المدينة [عبدالله التل]. والتقى الاثنان في البداية بواسطة الامم المتحدة، من اجل ترتيب مجموعة من الامور المحلية لتسهيل الحياة اليومية في المدينة خلال الحرب. وبدأ الاثنان يتحادثان بالتدريج وجها لوجه من دون وسطاء. فكانا يلتقيان تارة في دير للآشوريين بالقرب من بوابة يافا، وتارة ثانية في منزل عائلة مندلبوم الواقع على مشارف حي ميئاه شعاريم، وتارة اخرى بين الخطوط وعند أطراف حقول الألغام بالقرب من سور المدينة. وتم، فيما بعد، تركيب خط هاتفي مباشر بينهما. وفي نهاية شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٨، تمت الموافقة على «هدنة جدية»: كان هذا بمثابة اتفاق على وقف اطلاق النار على طول خطوط متفق عليها، وفي الواقع كان بداية تقسيم المدينة. وفي مقابل المحادثات التي دارت في القدس بين دايان والتل، جرت محادثات سياسية بين ممثلين عن الاردن والياهو ساسون في باريس ولندن. وهيأت كل هذه الاتصالات الاجواء لاجراء محادثات مباشرة في قصور [الملك] عبدالله.

بدأت الاتصالات بين ممثلي الحركة الصهيونية والحاكم البدوي العجوز، الواقع تحت وصاية بريطانيا، منذ وقت طويل. وقد عرف [الملك] عبدالله موشيه شاريت منذ اكثر من خمسة عشر عاما. كما التقى إلياهو ساسون مرات كثيرة. وزارته غولدا مئيرسون (مئير)، متنكرة في ثياب رجل، قبيل اعلان استقلال الدولة، في محاولة فاشلة للتوصل الى اتفاق معه لمنع وقوع الحرب. لم ترق غولدا للملك كثيرا. وعندما اخبروه فيما بعد انها ارسلت الى موسكو مندوبة لاسرائيل، قال: «حسنا. ابقوها هناك.»(٢٨)

اثمرت المحادثات التي دارت في الشونة وعمان تقارير كثيرة؛ كان بعضها متناقضا، وبعضها الآخر يزخر بالفولكلور اكثر مما يزخر بالتاريخ. كان هدف احد الاجتماعات الاولى مع الملك العمل على اطلاق نحو ٧٠٠ اسرائيلي من سكان الحي اليهودي وغوش عتسيون، كان الاردنيون قد اسروهم خلال الحرب. وقد درج [الملك] عبدالله على تكريم ضيوفه الاسرائيليين بمآدب عامرة. وكان يكثر من سرد النوادر والأمثال العربية. وبعد المأدبة يروي لهم النكات والطرائف. أما ساسون، فكان يضحك حين يجب الضحك ويتأثر عندما يستوجب الامر التأثر. ورأى دايان في ثرثرة الملك هدرا مملا للوقت. كان ساسون الذي يكبر دايان بأكثر من عشرة أعوام، شديد الانسجام مع تلك الاجواء، وبدا انه نسي مسألة الاسرى لشدة استمتاعه. وأخذ دايان يحثه، من حين الى آخر، على ولوج الموضوع: «هيا بنا». وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل. فالترتيب المبدئي وحتى التفاصيل التقنية، بما في ذلك نفقات انتقال المطلق سراحهم، قد بُحث فيها مسبقا مع التل. وبحسب دايان، فلقد اتفق التل عليها مع الملك، لكن الملك لم يقل كلمته بعد. وروى ساسون فيما بعد: «وأخيرا

عندما حان في رأيي الوقت الملائم قلت لدايان: هيا بنا. قمنا انا وهو، وقام الملك ايضا لمرافقتنا الى المدخل. وكنت اعرف انهم يتعانقون عادة عند الوداع. هذا ما كان يجري في الاجتماعات السابقة بيننا. وعندما تقدم الملك ليعانقني، ادخلت يدي في حزامه وأمسكت به، وكان هذا احدى عادات الارستقراطية العربية؛ فاذا ما نجحتَ في القيام بذلك نلت كل ما تطلبه. رفع الملك عبدالله يديه، وقال: الياس، اطلب ما هو ممكن فقط. اي: اني تحت امرك، وتستطيع ان تطلب ما تشاء. قلت: سأطلب الممكن فقط. وكان ذلك مشهدا مسرحيا: الجميع واقفون ومحملقون، ودايان والتل واقفان بينهما. قلت: سيدي الملك، لديك ٧٠٠ امرأة وطفل وشيخ وجندي. ان حكومتك تدفع مالا لاطعامهم من اجل ماذا؟ اعطنا اياهم. واستجاب الملك.»(٢٩) كان الملك يكثر من غمر ضيوفه من اسرائيل بعبارات الود والتحية. ونقل ايتان لشاريت، عقب عودته من احد الاجتماعات، ان الملك «لم يكف عن الحديث عن الصهيونية.»(٣٠) في هذه الاجتماعات، كانت الاشعار تُردد احيانا، وأحيانا اخرى يتم تبادل الهدايا. وذات مرة طُرح امكان قيام سلاح الجو الاسرائيلي بمساعدة الاردنيين على احتلال دمشق. فكل ما كان مطلوبا لذلك هو ان تطلى الطائرات الاسرائيلية بألوان طائرات الاردن.(٣١)

كان الاسرائيليون يذهبون الى اجتماعاتهم مع عبدالله في سيارة التل المصفحة وهم يرتدون ثياب الامم المتحدة، أما دايان فكان يستبدل عصبته السوداء بنظارة شمسية خوفا من ان يتعرف اليه الحراس في الطريق. فاذا ما تأخروا في العودة وطلع النهار، كانوا يستلقون على ارض السيارة ويغطيهم التل بالكوفيات. كان لقب التل في تقارير الاسرائيليين السرية: «وليم»، تيمنا بـ«وليم تل». وأطلق على عبدالله كنية «الامير»، وذلك بحسب لقبه السابق. لكن كل من أراد ان يعرف شيئا عن تلك اللقاءات الليلية، كان في امكانه ان يطلع لا على حقيقة حدوثها فحسب بل ايضا على كل ما ذكر فيها. فأعداء [الملك] عبدالله كانوا يحصلون باستمرار على التقارير من التل الذي كان ولاؤه لمليكه مشكوكا فيه. وبعد ان رفعت السرية عن ملفات وزارتي الخارجية البريطانية والاميركية، تبين ان سفيري بريطانيا والولايات المتحدة كانا يطلعان حكومتيهما على آخر تفاصيل الاتصالات. والصحف المحلية والعالمية وحدها لم تعرف بهذا. وكانت هذه اكبر فرصة فاتتها خلال تلك السنة.* لم يعلق بن ـ غوريون اهمية كبيرة على هذه المفاوضات، فدوّن في مذكراته: «اشك في الفائدة العملية للمحادثات بصورة عامة.» كان يهزأ بعبدالله، اذ درج على كتابة كلمة ملك داخل شولتين، وكتب ذات

* ما لبثت قضية المحادثات ان نشرت بتفاصيلها، بعد مرور عشرة أعوام، في مذكرات عبدالله التل، وعندما ترجمتها صحيفة «معراخوت»، الى العبرية مع ملاحظات تقديمية لحاييم هيرتسوغ، طلبت رئاسة تحرير «يديعوت احرونوت» من دايان التعليق عليها، ففعل في سلسلة من المقالات.(٣٢)

مرة: «يذكرني العجوز بناحوم سوكولوف عندما كان رئيسا للوكالة اليهودية، فهو يتحدث بسلاسة من دون سيطرة على الكلام، ومن دون ايحاء بالثقة (...).»(٣٣) كان سوكولوف صحافيا نشيطا صهيونيا وثرثارا كبيرا. أما ساسون فكان اكثر تفاؤلا، اذ ابرق لشاريت يقول له: «يتصرف الملك طوال الوقت انطلاقا من الاحساس بأنه عندما يحين وقت اجراء المفاوضات بيننا وبينه، لن يكون من الصعب على الطرفين ايجاد لغة مشتركة. وأطلب، اذن، ان نعامله بلين وصبر، وأن نحرص على شرح الامور له بلغة الاصدقاء الذين يرغبون في الخير له وللمصلحة المشتركة، لا بلغة السياسيين الذين يتشبثون بحقوقهم فقط. فلقد عودناه على ذلك طوال الوقت. وفي رأيي يجب ان نستمر هكذا معه حتى النهاية، ولا شك عندي في اننا سنفوز بمبتغانا لا محالة.»(٣٤)

قبل ذلك بعدة اشهر، وفي الوقت الذي كانت فيه الحرب على اشدها، طُرح في مجلس الوزراء اقتراح لاحتلال الضفة الغربية؛ قال بن ـ غوريون: «اقترحت على الحكومة مهاجمة «الفيلق» [العربي] الذي تمركز في اللطرون وأقفل في وجهنا الطريق الى القدس. وكانت الخطة تقضي بتدمير مواقع الفيلق في اللطرون، والتقدم نحو مصب الاردن على البحر الميت جنوبي رام الله، واحتلال القدس بأكملها والجيب الجنوبي الذي يشمل بيت لحم والخليل اللتين كان يقطنهما نحو ١٠٠ ألف عربي (...) وافترضت ان يفر معظم عرب القدس وبيت لحم كما فر قبلهم عرب اللد ويافا وحيفا وطبرية وصفد. وهكذا نسيطر على البلد بأكمله حتى نهر الاردن شمالي اريحا او جنوبيها، ويصبح الجانب الغربي كله في قبضتنا.» وقد رفضت الحكومة هذا الاقتراح بالأغلبية. وزعم بن ـ غوريون فيما بعد اننا سنندم على هذا القرار «ولات ساعة مندم.»(٣٥) * ميز إلياهو ساسون بين ثلاث مراحل في العلاقات بين اسرائيل والدول العربية: وقف القتال، ثم مرحلة انتقالية، ثم السلام. وقال في احدى استشاراته السياسية لبن ـ غوريون: «يجب العمل كثيرا من اجل السلام.» فلم يكن يعتقد ان يحل السلام قريبا. لذلك علق اهمية كبيرة على الفترة الانتقالية، وطالب بأن تنسج «علاقات امر واقع» غير رسمية مع بعض الدول العربية. واقترح، بصورة مباشرة، تشجيع ضم الضفة الغربية الى مملكة عبدالله الاردنية، وتوطين اللاجئين العرب فيها.(٣٩) لم يكن

* اعتاد بن ـ غوريون، خلال اشهر الحرب، ان يسجل في مذكراته كل أنواع الافكار الحربية التي تطرأ على باله: «عندما نحطم قوة الفيلق ونقصف عمان نقضي على شرق الاردن، وحينئذ تسقط سورية.» وكتب ذات مرة: «اذا ما تجرأت مصر على القتال فسنقصف بور سعيد والاسكندرية والقاهرة.»(٣٦) وفي اليوم نفسه، تنبأ بالنظام الجديد الذي ينوي اقامته في لبنان. وبعد مرور فترة من الزمن، كتب فيما يتعلق بهذا الموضوع: «ربما سنقصف ايضا دمشق.»(٣٧) غير انه دوّن، بعد بضعة اشهر، في مذكراته: «لست نادما كثيرا على عدم احتلالنا المثلث، فهذا نعمة ونقمة في آن. لكني نادم جدا على عدم احتلالنا القدس، بما في ذلك كاليا.»(٣٨)

بن ـ غوريون مقتنعا بأن [ساسون] على حق. فدوّن في مذكراته: «لم يكن على بينة من صعوبات الاتفاق مع عبدالله (قضايا اقليمية)، وأخطاره (دخول انكلترا).»(٤٠) وتخوف من ان يؤدي ضم الضفة الغربية الى مملكة عبدالله، الى تلبد العلاقات بين اسرائيل والاتحاد السوفياتي الذي قد يرى في الضم دعما لموقع الامبريالية البريطانية. ورفض اعضاء مابام، في الحكومة وفي مجلس الدولة الموقت، ضم الضفة الغربية الى الاردن، كما رفضته «حيروت» طبعا.

خلال تلك الاسابيع، لاحظ بن ـ غوريون ثلاثة احتمالات للعمل، قام موشيه شاريت بنقلها الى زملائه في وزارة الخارجية:

«(١) عملية عسكرية بحتة. ويمكن ان يؤدي هذا الامر الى احتلال الضفة الغربية لنهر الاردن كلها، وعندئذ نصرّ مجددا على مشروع بلتمور (١٩٤٢).

«(٢) قرار الامم المتحدة الذي اتخذ ولن نخالفه، اي حدود قرار التقسيم في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر (١٩٤٧)، مع تعديلات معينة (تتلاءم مع ما احتله الجيش الاسرائيلي في الجليل).

«(٣) سلام بيننا وبين العالم العربي، الذي سنضطر طبعا الى دفع ثمنه.»(٤١)

خلال تلك الاسابيع، طرح الجميع مقترحات وأثاروا أفكارا ووضعوا خططا: الكل تراجع عما قاله، الكل ارتبك، ولم يكن احد يعرف بالضبط ما سيحدث.

وعندما بدأت المفاوضات وافق مندوبو اسرائيل والاردن على مبدأ تقسيم ارض ـ اسرائيل [فلسطين] بين الدولتين، وكذلك مدينة القدس. كما اتفقوا، مبدئيا، على ان ليس هناك ما يقال للفلسطينيين في هذا الشأن. وفي بداية المفاوضات، تحدث [الملك] عبدالله عن تسوية تجمع بين مشروع التقسيم (٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر [١٩٤٧]) ومشروع التقسيم الذي وضعه الكونت برنادوت قبيل اغتياله في القدس. أما مندوبو اسرائيل فدعوا الى ترسيخ التسوية على الواقع العسكري. كان عبدالله يأمل بضم النقب الجنوبي الى مملكته، غير انه وافق على تقاسمه مع اسرائيل. وفي الوقت الذي كان يساوم في ذلك، أُرسل الجيش الاسرائيلي لتنفيذ «عملية عوفدا»؛ فقد اندفع لواءان جنوبا نحو خليج البحر الاحمر، وأخذا يتسابقان كالأطفال للوصول أولا. في ١٠ آذار/مارس، رفع على مركز الشرطة المهجور في ام رشرش علم ابيض رسم عليه بالحبر خطان بينهما نجمة داوود. نسي الجميع ان يجلبوا معهم العلم الوطني. ومنذ ذلك الحين، سيطرت اسرائيل على النقب بأسره باستثناء قطاع غزة. وبعد وقت قصير، ستنشأ في الطرف الجنوبي للنقب مدينة جديدة اسمها ايلات. وكتب بن ـ غوريون: «لقد كان هذا ربما اكبر حدث وقع في الاشهر الاخيرة، ان لم يكن في

حرب التحرير والسيطرة بأسرها، ومع ذلك لم تسفك نقطة دماء واحدة.»(٤٢) سلم عبدالله بهزيمته، ومع ذلك لم يقطع المحادثات اذ كان لا يزال يأمل بانجازات فعلية. فطلب من اسرائيل التنازل عن اللد والرملة، او على الاقل السماح للاجئي هاتين المدينتين بالعودة الى منازلهم. أما يافا فقد طلب جعلها جيبا عربيا. وقال بن ـ غوريون: «فيما يتعلق بالرملة، نقول (لا) بوضوح مطلق، وكذلك بالنسبة الى يافا. ولتبق مسألة اللد معلقة.»(٤٣) وعلق عبدالله اهمية كبيرة على قطاع غزة، فقال للاسرائيليين: «أبقوا غزة معكم او اعطوها للشيطان، شرط ألا تتركوها في ايدي المصريين.»(٤٤) وكان الملك يتوقع ان تساعده اسرائيل في ضم القطاع ايضا الى مملكته.

طرحت اسرائيل مطالبها الاقليمية ايضا، وعلى رأسها خط الجبهة شرقا بحيث يصبح وادي عارة، وضمنه طريق العفولة ـ الخضيرة، داخل ارض ـ اسرائيل. وكانت ترابط في هذه المنطقة قوات عراقية، وتُرك لاسرائيل ممر ضيق في السهل الساحلي. كما طالبت اسرائيل ايضا باخلاء «ثغر اللطرون»، وتعيين الحدود الدولية في العربة خطا للهدنة، وحرية العبور الى جبل المكبر والمقابر في جبل الزيتون والحائط الغربي [المبكى]، واستئناف تسيير خط سكة الحديد الى القدس، وحرية المرور الى معمل الكهرباء في نهرايم واستئناف العمل فيه، واستئناف تزويد معمل البوتاس جنوبي البحر الميت بالمياه، وحرية العبور لبواخر شركة البوتاس في البحر الميت والسماح بنقل منتوجاتها بشاحنات اسرائيلية الى القدس، والى غير ذلك من المطالب.(٤٥) واتفق على ان تسيطر اسرائيل على وادي عارة، بما في ذلك طريق الخضيرة ـ العفولة وخط سكة الحديد الى القدس. وضمن ذلك، ضُمت الى حدود اسرائيل سلسلة من القرى العربية يقطنها آلاف السكان الذين لم يطلب رأيهم في الامر. وهذه القرى هي: ام الفحم، والطيبة، وقلنسوة، والطيرة، وباقة الغربية، وكفر قاسم، وغيرها. وحدد اتفاق الهدنة مجموعة تدابير في القدس تتلاءم مع مطالب اسرائيل، وظل النقب مع اسرائيل، وتنازل عبدالله عنه مكرها لأنه خشي ان ينطلق الجيش الاسرائيلي، في حال رفض مطالب اسرائيل، الى احتلال السامرة كلها كما فعل بالنقب.

بعد مضي اربعة اشهر على توقيع الاتفاق مع الاردن، وُقع اتفاق مشابه مع سورية. وكانت المحادثات التي سبقته الاطول والأصعب. كان السوريون قد نجحوا، خلال الحرب، في التمركز بالمناطق الواقعة غربي الحدود الدولية. ومع بداية المفاوضات تمركزوا في منطقة مشمار هايردين ـ الواقعة بين الحدود الدولية وبحيرة طبرية ـ والى الجنوب من عين غيف*، وفي بضعة اماكن اخرى. وطالبت اسرائيل بأن يسحب السوريون قواتهم الى

* مستعمرة اقيمت على الأراضي المصادرة لقرية النقيب العربية، التي تبعد عنها شمالا مسافة ١,٥ كلم. (المحرر)

ما وراء الحدود الدولية، فرفضوا ذلك. وبعد مرور بضعة ايام على بدء المحادثات، وقع انقلاب عسكري في دمشق. كان الحاكم الجديد ضابطا برتبة عميد، هو حسني الزعيم الذي اقترح بعد مضي زمن قصير على استيلائه على الحكم، مقابلة دافيد بن ـ غوريون وجها لوجه من اجل التوصل الى اتفاق سلام، والذي قال في تلك الاثناء انه يوافق على استيعاب ما بين ٣٠٠ ألف و ٣٥٠ ألف لاجىء فلسطيني في بلده وتوطينهم بصورة دائمة. وفي ١٦ نيسان/ابريل، كتب بن ـ غوريون في مذكراته: «اقترح السوريون سلما منفردا مع اسرائيل، وتعاونا وجيشا مشتركا. . . غير انهم يريدون تغيير الحدود، ويريدون نصف بحيرة طبرية. فقلت (. . .) يجب ابلاغهم بوضوح انه يجب، قبل كل شيء، توقيع اتفاق الهدنة على اساس الخط الدولي السابق. وبعدها يجري البحث في السلام والحلف. وسنكون مستعدين للتعاون الى اقصى الحدود.»[٤٦] وبعد مضي اسبوعين، سجل بن ـ غوريون التالي: «تم الاتفاق على ان يجتمع رؤوفين (شيلواح) ويغئيل (يادين) الى الزعيم ومستشاريه. لكن، كان من المحتمل ان يأتي الزعيم رئيسا للحكومة او وزيرا للخارجية. أما موشيه (شاريت) فكان مستعدا للقائه لكن ليس هذا الاسبوع.»[٤٧] وبعد مرور يومين، بعث مندوب الولايات المتحدة في سورية، جيمس كيلي، بتقرير قال فيه ان الزعيم تراجع عن استعداده لتوطين نحو ٢٥٠ ألف لاجىء.[٤٨] وفي الاسبوع نفسه، سمع بن ـ غوريون من مندوب الولايات المتحدة في اسرائيل، جيمس مكدونالد، ان الزعيم ومندوب الولايات المتحدة في دمشق يطالبان بأن تضغط وزارة الخارجية الاميركية على بن ـ غوريون كي يوافق على اللقاء المقترح. ويسجل بن ـ غوريون: «قلت اذا تعهد الزعيم مسبقا بالجلاء عن أراضينا والانسحاب الى الحدود الدولية، فانني مستعد للاجتماع اليه.»[٤٩] ووجد الاميركيون صعوبة في تصديق ما سمعوا. وشك وزير الخارجية الاميركي، دين اتشيسون، في عدم اطلاع بن ـ غوريون على اقتراح الزعيم. وطلب من مكدونالد ان يبلغ رئيس الحكومة اهتمام الولايات المتحدة بهذا الاجتماع.[٥٠]

حاول وليم رايلي اقناع موظف وزارة الخارجية، شبتاي روزين، بفائدة الاجتماع. وكتب روزين الى بن ـ غوريون رسالة طويلة عن ذلك. أما بن ـ غوريون، فلخص الأمور بايجاز شديد كعادته: «(. . .) تحدث رايلي الى روزين. ويريد الزعيم تنمية سورية لاستقبال ٣٠٠ ألف لاجىء. ويسأل رايلي ما اذا كنا سنوافق على توقيع اتفاق الهدنة الآن على اساس الوضع القائم (ويجرى نقاش آخر فيما بعد على اساس قرار التقسيم في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧). رد روزين بأن جوابنا سيكون سلبيا.»[٥١] وحتى ذلك الحين، كان الاهتمام يتمحور حول خط الحدود، ولم يكن هناك في الحكم الاسرائيلي من نظر بجدية الى اقتراح الزعيم استيعاب مئات الآلاف من اللاجئين على أراضيه، باستثناء آبا ايبن، الذي كان

يقيم في الولايات المتحدة، والذي طلب معرفة سبب عدم الاهتمام باحتمال قيام سورية باستيعاب اللاجئين، وبدا له كون سورية هي التي اقترحت ذلك حقيقة مهمة جدا.[٥٢] في تلك الاثناء، واصل المندوب الاميركي في سورية التمادي في كيل المديح للزعيم. وعلق عليه «الامل الاخير»، شرط ان توافق اسرائيل على التساهل، او على الاقل ان يقبل بن ـ غوريون مقابلته. وكتب الدبلوماسي الاميركي ان كل من تحدث الى الزعيم اقتنع بصدقه وسعة افقه فيما يختص باسرائيل.[٥٣]

١/٦/٤٩، ايبن لشاريت: يعتقد بانش ورايلي ان لقاء الزعيم وبن ـ غوريون سيؤدي الى اتفاقية السلام الاولى بين اسرائيل واحدى الدول العربية. وهما مستعدان لترتيب اللقاء في حال موافقتنا.[٥٤]

٢/٦/٤٩، شاريت لايبن: يعارض بن ـ غوريون الاجتماع الى الزعيم قبل ان ينقل بانش مقترحاته.[٥٥]

٥/٦/٤٩، شاريت لايبن: ان بانش يضغط للاجتماع. (ويوافق ممثله على) اننا على حق من الوجهة الاجرائية، لكن السوريين يعانون عقدة نقص (. . .) وعلينا ان نأخذ ذلك بعين الاعتبار.[٥٦]

بعد تردد كبير واستشارات متواصلة مع بن ـ غوريون، اعلن شاريت استعداده للذهاب الى سورية والاجتماع الى الزعيم للبحث معه في موضوعين: ١) اتفاق الهدنة؛ ٢) السلام. وكان يقصد أن يكون النقاش بهذا الترتيب، اي بعد ان يتم التوصل الى الهدنة، بما في ذلك انسحاب سوري الى الحدود الدولية، يجري البحث في السلام. لم يكن السوريون معنيين بنقاش كهذا. وسارع شاريت الى الاستنتاج ان القضية كانت خدعة منذ البداية. وعلق قائلا: «ربما ظنوا اننا سنتحدث عن الشعر العربي في القرون الوسطى، او عن الحب العذري، وربما عن فلسفة ديكارت او الفن الياباني. . .»[٥٧] ولقد كانت هذه، في رأيه، ملاحظة مسلية. فبعد مرور بضعة اشهر على ذلك، قتل الزعيم.* دارت المحادثات مع السوريين في خربة وردة، في المنطقة الحرام بين محنايم ومشمار هايردين. كان يترأس الوفد

* افترض بن ـ غوريون ان الزعيم مهتم فعلا بالسلام. وقبيل توقيع اتفاق الهدنة، كتب في مذكراته: «ان مجرد كون الزعيم مستعدا للهدنة التي تقضي بانسحاب كامل الى ما وراء الحدود، يشكل برهانا على انه يرغب في علاقات طيبة معنا لسبب في نفسه. هل بسبب النزاع مع العراق؟ حتى ان مصلحة فرنسا ـ صديقة الزعيم ـ تستوجب سلاما بين سورية واسرائيل. واذا ما تم هذا الاسبوع ـ كما يعتقد مكليف ـ توقيع اتفاق الهدنة بيننا وبين سورية، فان على ساسون ان يذهب الى دمشق للتمهيد لذلك. وحتى ايتان يعتقد ان اول سلام من المحتمل ان يكون مع سورية، وان لدى الزعيم طموحا الى ان يكون اول رجل سياسي عربي نلتقيه.»[٥٨]

الاسرائيلي مردخاي مكليف. وكما في المحادثات مع لبنان، فقد حضرها ايضا موظفا الامم المتحدة، هنري فيزيه ووليم رايلي، غير ان الجهد الاساسي وقع هذه المرة ايضا على عاتق رالف بانش الذي نشط من نيويورك، متوخيا الحذر كما كان يتقن ذلك، خادعا الطرفين معا كعادته، ليدفعهما في النهاية الى تسوية: ينسحب السوريون، ويصبح جزء من الاراضي التي اخذوها منزوعا من السلاح.

تابع بن ـ غوريون كل تفاصيل الاتصالات بشأن توقيع اتفاقات الهدنة. وثمة موضوعات عديدة حسمها بنفسه. ولم يكثر في غضون ذلك من التشاور مع موشيه شاريت، بل فضل استشارة موشيه دايان ورؤوفين شيلواح. كان تفكير وزير الخارجية ينسجم مع تفكير بن ـ غوريون اكثر من اللازم، كما كان شاريت يتكلم اكثر من اللازم، وشخصيته مثيرة للشفقة. وهو شديد الحرص على هندامه وطريقة كلامه، كثير الاهتمام بالتفاصيل الدقيقة ويخاف على كرامته الى درجة الجنون، ويتهيب بن ـ غوريون اجلالا ورهبة وكأنه يقف امام عملاق منحوت من المرمر. كان شاريت اكثر اعتدالا من بن ـ غوريون، وأشد حذرا وتساهلا، واكثر حكمة منه، لكنه نادرا ما كان يتجرأ على التمسك برأيه. ولقد اسعفه اعتداله وحذره وتساهله وحكمته، بصورة عامة، على شرح سياسة بن ـ غوريون. فعلى سبيل المثال علق، فيما يختص بقضية الاجتماع الى الزعيم، «اهمية كبيرة بحسب كلامه على اقتراح استيعاب اللاجئين في بلده، غير ان الحسم لم يكن في يده.»(٥٩)

كان رؤوفين شيلواح مثل موشيه دايان احد اهم الاشخاص الذين يقررون السياسة، وكان مثله ايضا يتردد الى بن ـ غوريون وان لم تكن آراؤه دائما مسموعة. * وكان مثل دايان من الشخصيات المهمة في ذلك الوقت، لكنه على النقيض منه يعمل من وراء الكواليس، بعيدا عن وسائل الاعلام والسياسة: كنبات الظل، خجول، صامت كأبي الهول، فضولي، على خده الايمن ندبة وهي الاثر الذي تركته الشظية التي اصابته يوم الاعتداء الكبير على مبنى الوكالة اليهودية في القدس. وكان يُعرف في وزارة الخارجية بأنه مستشار المهمات الخاصة. أما غرفة عمله، فكانت تقع في مكان ما من الساحة الواقعة خلف المبنى الرئيسي بالقرب من الحمام الذي حوله الى امانة سر.

ولد شيلواح في احياء اليمنيين في القدس، في شعاريه بينا الواقع بين حي «بيت اسرائيل» وحي البوخريم. وهو ابن الحاخام زسلنسكي ومن مواليد ليطا، والامين العام للمجلس الديني ومن المقربين من الحاخام كوك. درس في دار المعلمين بالقدس، ثم تخصص بالاستشراق.

أقام شيلواح في بغداد في بداية الثلاثينات، حيث اسس حركة سرية للشباب، شكلت حجر الاساس للحركة السرية الصهيونية هناك. كان يحمل في جيبه بطاقة تعريف شخصية

* لم يؤخذ برأيه في قضية الزعيم، فلقد كان من مؤيدي الاجتماع اليه.(٦٠)

بأنه مراسل «بالستاين بولتين»، وهي باكورة صحيفة «بالستاين بوست» التي اصبحت، فيما بعد، «جيروزالم بوست». وكان شيلواح في الواقع جاسوسا. ومن الامور التي قام بها، نسج العلاقات الاولى مع زعماء الحركة القومية الكردية. وهو مدين بنجاحه في مهمته الى دوف هوز، عضو الهاغناه وأحد نشيطي حركة العمل. فهو الذي رقاه خلال فترة معينة وعينه مساعدا له في اللجنة التنفيذية للهستدروت، وأسند اليه معالجة شؤون العامل العربي، وفيما بعد اطلق شيلواح اسم دوف على ابنه. في أحداث سنة ١٩٣٦، اعادته اللجنة التنفيذية الى طاقم الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية لمساعدة الكولونيل كيش، كضابط اتصال بين الوكالة وسلطات الانتداب البريطانية. وشغل هذا المنصب ايضا خلال الحرب العالمية الثانية. وكان له ضلع في انشاء الفرقة اليهودية، وفي ارسال المظليين الى ما وراء خطوط النازيين، وفي شراء السلاح قبيل حرب الاستقلال. في بداية الحرب، عاش مع بن ـ غوريون في «البيت الاحمر»، مقر القيادة. والى جانب هذا كله، قام بمهمات سرية لا تحصى، وكان بين الذين أنشأوا مؤسسات الاستخبارات والتجسس في اسرائيل. كان تفكيره منهجيا وتحليليا، ونصائحه مثل نصائح دايان، مختصرة وتستند الى الواقع الآني. وكان بن ـ غوريون بحاجة الى مثلها.

رافق مفاوضات اتفاق الهدنة نقاش عام وصل الى ذروته قبيل انتخابات الكنيست الأول. وقد وعد ماباي ناخبيه بوضع حد للحرب، كما وعدهم بالسلام. أما موشيه شاريت فقال: «كل الاحزاب مستعدة للسلام، وكلنا مستعدون لمواصلة الحرب في حال عدم تحقيق السلام. غير ان السؤال هو ما اذا كان علينا ان نسعى للسلام بالشروط التي نقدر على الموافقة عليها، او الاستمرار في القتال من اجل احتلال البلد كله.»(٦١) وقال مناحم بيغن: «هناك سلام يؤدي الى الحرب، وهناك سلام حقيقي وسلام دائم. ففي ميونيخ ايضا تحقق (السلام) زعما، لكن هذا السلام بالذات حمل في طياته اكثر الحروب عنفا.»(٦٢) ورفضت حيروت كل تنازل عن تكامل البلد، ولا سيما عن قسمه الغربي. وكانت خطب بيغن مفعمة بنزعة قومية اسطورية؛ ففي اعقاب الاتفاق مع مصر وقبيل توقيع الاتفاق مع الاردن، صرخ قائلا: «لم يقطعوا اوصال الارض وانما اوصال الروح.»(٦٣)

هكذا أيضا تحدث اعضاء آخرون من حركته. فقد قال اوري تسفي غرينبرغ: «لو كنا مستعدين لاستطعنا الآن، وقبل فوات الاوان، ان نكون من دون مبالغة في شرق الاردن، وفي منحدرات لبنان، وفي الطريق الى النيل. وبدلا من اتفاق الهدنة العديم الفائدة، كان في امكاننا ان نحقق شروطا للسلام تلائمنا من النواحي كافة (. . .) ان المفاوضات في رودس هي دراما يهودية (. . .) فارس بوريمية* (. . .) ان القدس الحقيقية هي تلك التي تقع فقط داخل

* بحسب الاسطورة اليهودية، تعود كلمة بوريمية الى احتفال يهودي يدعى البوريم، يحتفل فيه اليهود بذكرى انقاذ يهود فارس (ايران) كما ورد في سفر استر. (المحرر)

الاسوار (. . .) ما حاجتنا الى دولة من دون القدس؟ ان كون عبدالله ملكا على القدس يعني فلسطين عربية وغيتو يهوديا مستقلا ذاتيا بصورة موقتة (. . .).»[٦٤] ورد بن ــ غوريون على ذلك بقوله ان دولة يهودية من دون تكامل البلد افضل من تكامل البلد من دون دولة يهودية. وأوضح ان دولة يهودية في ارض ــ اسرائيل بأسرها، ولو في الجزء الغربي منها فقط، هي امر مستحيل اذا أرادت ان تكون دولة ديمقراطية. وعزا ذلك الى ان عدد العرب في غرب ارض ــ اسرائيل يفوق عدد اليهود: «أتريدون ان تقوم في البلد بأسره، سنة ١٩٤٩، دولة اسرائيل ديمقراطية، ام تريدون دولة يهودية في ارض ــ اسرائيل كلها فنطرد العرب، ام تريدون ديمقراطية داخل هذه الدولة؟» وأضاف انه يريد دولة يهودية ديمقراطية، ولو في جزء من البلد.[٦٥] ولم يكن هذا هو الخط الذي استرشد به عندما اقترح على الحكومة احتلال الضفة. لقد افترض حينئذ ان يهجر العرب ويطردوا، وأن يأتي بدلا عنهم يهود يضمنون اكثرية يهودية في البلد. وكان بن ــ غوريون يكثر من التوفيق بين الحجج والتفسيرات والذرائع الايديولوجية، وبين الاوضاع السياسية التي اوجدها. وفي مقابل ذلك، طالب قادة حيروت بأن يصار الى تشكيل الواقع بما يتلاءم مع الايديولوجية التي التزموها. وهكذا فعل ايضا قادة مابام الذي كان لا يزال يضم عناصر نشيطة متشددة وصقرية، انشقت فيما بعد عن الحزب لتقيم حركة احدوت هعفوداه (اتحاد العمل). وقد اعتقد هؤلاء ان على اسرائيل ان تحتل الضفة الغربية كي تقيم عليها دولة مستقلة لعرب اسرائيل، تسلم السلطة فيها الى «جهات تقدمية» تعقد سلاما مع اسرائيل في ضوء المحافظة على تكامل البلد. ومن اجل هذا الغرض، اقترح الحزب تجنيد مقاتلين من العرب، ومساعدتهم في حربهم من اجل اقامة دولتهم.[٦٦] وقد برز موقف مابام هذا انطلاقا من مزيج غريب ميز عقيدته في تلك الايام، وهو تضافر النزعة العسكرية المتشددة، بما في ذلك ميل نحو التوسع الاقليمي، والسعي للسلام والتعايش العربي ــ اليهودي، وعداء شديد للامبريالية لم يكن قد وجّه في تلك الفترة ضد الولايات المتحدة وانما ضد بريطانيا، وذلك من دون الانتباه الى ان البريطانيين كانوا يفقدون بسرعة قوتهم الامبريالية. وفي هذا الشأن، لم يكونوا مختلفين كثيرا عن حيروت، ولا حتى عن بعض الاطراف الاخرى في الحكم. وقد رد بن ــ غوريون على مابام بأن اقامة دولة من اجل عرب فلسطين ليست شأنا اسرائيليا. وأضاف: «لسنا متعهدين [مقاولين] تشكيل دولة عربية مستقلة»، وقال: «اننا نعتقد ان هذه مسألة تخص العرب انفسهم.»[٦٧] وحدد في مذكراته قاعدة لنفسه: «سلام مع العرب الموجودين لا الخياليين. لا حرب (من اجل اقامة) دولة عربية (فلسطينية)، ولا حرب من اجل تنصيب فئة معينة حاكمة (عليها). واذا ما تطلب ذلك حربا، فالأفضل ان تكون حربا بين العرب والعرب وليس معنا.»[٦٨]*

* كان العرب أيضا مختلفين فيما بينهم. فقد كان عبدالله يسعى لضم الضفة، بينما كانت الهيئة العربية العليا =

كان عبدالله هو «العربي الحاضر». وقد كتب بن ــ غوريون عنه في مذكراته: «ليس للرجل اية قيمة»، وشبهه ساخرا بناحوم سوكولوف.[٦٩] غير ان الاتصالات بالملك تواصلت باستمرار. ومن الامور التي بُحث فيها معه تنظيم الحياة في القدس، بما في ذلك ضم الحي اليهودي الى اسرائيل، وكذلك امكان حصول الاردن على طريق ومخرج الى البحر. وفي اثناء هذه المفاوضات، استقبل الملك في قصره وزير الخارجية شاريت، وعرض المجيء الى القسم الاسرائيلي من القدس لمشاركة بن ــ غوريون في احدى المآدب.[٧٠] وفي مرحلة معينة، وضعت مسودة اتفاق عدم اعتداء لمدة خمسة أعوام.[٧١] وفي ١٣ شباط/فبراير ١٩٥١، دوّن بن ــ غوريون في مذكراته: «ان شرق الاردن ليس بلدا مستقرا وطبيعيا، بل هو بمثابة شخص واحد معرض للموت في اية لحظة.» وبعد مرور اسبوع على ذلك، ذهب الملك لأداء الصلاة في المسجد الاقصى. وكان يتربص به بين الجمهور شخص فأطلق النار عليه وقتله.

وضعت اتفاقات الهدنة حدا لحرب استمرت عاما كاملا. وكان انتهاء الحرب الانجاز الاكثر اهمية من اي شيء آخر. ومع توقيع الاتفاقات كانت اسرائيل قد سيطرت على منطقة اوسع مما خصصه لها قرار ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧، وبقي فيها من العرب عدد اقل كثيرا مما كان مفترضا بحسب مشروع التقسيم. وقد سرى مفعول الاتفاق مع مصر على النقب الشمالي ــ الغربي فقط، وفسح توقيعه المجال لاحتلال النقب الجنوبي. كما ان الاتفاقين مع الاردن وسورية اديا الى توسيع مساحة الدولة.* فالحدود الجديدة، وبصورة خاصة، في

= تطالب باقامة دولة عربية مستقلة برئاستها. وفي صيف سنة ١٩٤٨، اقامت مصر، بواسطة الجامعة العربية وبموافقة الهيئة العربية العليا، «حكومة فلسطين»، وهي «حكومة غزة» التي ادعت تمثيل العرب الفلسطينيين. وكانت هذه الحكومة تتمتع برعاية مصر، لكن لم يكن لها اي تأثير. وخلال عام ونصف العام لم يبق منها إلا «رئيس الحكومة» وأمين سره، اللذان كانا يمضيان وقتهما في ارسال البيانات الى الصحف. أما في الضفة الغربية، فقد ازداد نفوذ عبدالله مستندا، من اجل ارساء صلاحياته والتصرف كما يشاء، الى مؤتمر لبعض الزعماء السياسيين عقد في كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٨في أريحا. ولقد خوّله «مؤتمر أريحا» ضم الضفة الى مملكته، واعترفت اسرائيل بذلك.

* خصصت لجنة التحقيق في الامم المتحدة ــ اونسكوب ــ التي اعدت قرار التقسيم (٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر) ٦٢ ٪ من مساحة البلد للدولة اليهودية، و٣٨ ٪ للدولة العربية. غير ان قرار التقسيم غيّر هذه النسبة لمصلحة العرب، فأعطى اليهود ٥٥ ٪ والعرب ٤٥ ٪. وعند توقيع اتفاقات الهدنة كانت اسرائيل تسيطر على ما يقارب ٨٠ ٪ من المناطق العربية، في حين كان العرب يسيطرون على ٢٠ ٪ فقط. ولقد طلب موشيه شاريت، لدى كشفه عن هذه الارقام امام امانة سر ماباي، الحفاظ على سرية ذلك «كي لا تصبح سلاحا حادا ضدنا، وحجرا لشحذ سيف الذين يلوحون به في وجهنا، وبطبيعة الحال الزيت الذي يسكب على النار.»[٧٢]

وادي عارة كانت اكثر ملاءمة للدفاع، وأضفت اتفاقات الهدنة عليها مكانة عالمية معترفا بها، بما في ذلك المناطق المحتلة في الجليل التي لم تكن مخصصة لاسرائيل بحسب مشروع التقسيم.

حسّنت هذه الاتفاقات من مكانة اسرائيل السياسية، ومن صورتها في العالم، ومن فرص قبولها عضوا في الامم المتحدة.

بيد ان هذه الاتفاقات اشتملت على عيوب عديدة. فقد كان المخربون يخترقون الخط بين قطاع غزة واسرائيل. ومع مرور الوقت، كادت تتطور هناك دينامية عمليات انتقام، وتنشب حروب جديدة. كما كان خط التقسيم بين اسرائيل والاردن اعتباطيا تماما، وفي حالات كثيرة لم يأخذ بعين الاعتبار حاجات السكان؛ فقد وجد آلاف القرويين العرب انفسهم، نتيجة هذا الاتفاق، في الجانب الاسرائيلي من الخط، في حين بقي قسم من أراضيهم في الجانب الاردني. وثمة أراض كان يملكها العرب في الجانب الاردني من الخط، بقيت في الجانب الاسرائيلي. أما مستعمرات غوش عتسيون والحي اليهودي في المدينة القديمة، فقد ظلت مهجورة داخل حدود الاردن. كما كان المخربون يخترقون الحدود بين اسرائيل والاردن كالحدود بين اسرائيل ومصر. وتعرضت المستعمرات التي قامت على طول هذه الحدود لمضايقات لا حد لها. وقُسمت القدس بالأسلاك الشائكة، وبحقول من الالغام، وبصفوف من الابنية التي لا نوافذ لها. وفي احيان كثيرة، كان يجري تبادل اطلاق النار داخل المدينة من طرفي الحدود. وكان جبل المكبر بمثابة جيب معزول، ويتم الصعود اليه مرة كل اسبوعين بقافلة. وظلت مباني الجامعة ومستشفى «هداسا» مقفرة، فتداعت مع مرور الاعوام. ولم يعد ممكنا دفن الموتى في المقبرة الواقعة على جبل الزيتون، ولا زيارة القبور، ولا الصلاة قرب حائط المبكى.*

لم يعرف احد، بالضبط، المناطق التي اتفق على تجريدها من السلاح على طول خطوط الهدنة بين اسرائيل وسورية، وما يقتضيه نزع السلاح. ومع مرور الوقت، وقعت في هذا المكان حوادث اطلاق نار لا حصر لها، وكانت الحياة في المستعمرات على امتداد الحدود قاسية

---

* طرحت خلال المفاوضات مقترحات عديدة لتقسيم المدينة، بينها مقترحات لتبادل الضواحي. وأمل الاردنيون باستعادة القطمون والبقعة والمستعمرة الالمانية، وكانوا يسعون لأن يضموا الى أراضيهم ايضا تالبيوت ورامات راحيل. وكانوا مستعدين، في مقابل ذلك، للتنازل عن الحي اليهودي وبعض الضواحي الاخرى الى الشمال الغربي من المدينة. كما طرح اقتراح لاقامة منطقة مجردة من السلاح بين جزأي المدينة الاسرائيلي والاردني، تمر بشارع داوود. وكان من المفترض ان يصبح لمبنى واي. ام. سي. إي.، وفندق الملك داوود، وضع دولي خارج الحدود الاقليمية. وعندما رسموا خط التقسيم في القدس استخدموا قلما ذا خط سميك جدا، اذ غطت منطقة الخط على الخريطة عدة امتار في الواقع، وعندما اختلفوا على تقاسمها اصبحت هذه الامتار جزءا من المنطقة الحرام الواقعة بين قسمي المدينة.

جدا. فالوضع القائم الجديد كان ابعد مما يبعث على الرضا. ولقد عمق استمرار هذا الوضع العداء بين الاسرائيليين والعرب، وكان هذا عيبه الاساسي.

قبل فترة وجيزة من توقيع الاتفاق مع سورية، دعي مندوبو اسرائيل والدول العربية الى مدينة لوزان في سويسرا، لحضور «مؤتمر صلح» برعاية لجنة من الامم المتحدة، وعضوية ممثلين عن الولايات المتحدة وفرنسا وتركيا. وأسفرت ابحاث المؤتمر عن مئات التقارير والرسائل والبرقيات التي احتوت عشرات الآلاف من الكلمات. لكن لم يحدث الشيء الكثير في الواقع. وبعد جهود حثيثة نجح وسطاء الامم المتحدة في حمل مندوبي اسرائيل ومصر والاردن وسورية على توقيع جدول اعمال ابحاثهم الذي دعي «بروتوكول لوزان».

ولم ينجزوا اكثر من ذلك! فلقد قبلت الدول العربية البحث مع اسرائيل في اتفاق يستند الى قرار التقسيم المؤرخ في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧. وردت اسرائيل على ذلك بطلب انسحاب مصر من قطاع غزة وانسحاب الاردن من الضفة الغربية. وفي الواقع، فان الجمعية العامة للأمم المتحدة كانت قد اقرت بأنه لا يحق للجيوش العربية التمركز في البلد. ورد العرب بأنه يجب اولا البحث في مشكلة اللاجئين، وذلك بما يتفق وقرارات الامم المتحدة. وردا على ذلك، قررت اسرائيل وجوب حل مشكلة اللاجئين كجزء من اتفاق السلام. وهكذا قال الجميع ما كان متوقعا منهم، وبالتالي دارت المحادثات في دوامة.

في احد أيام النصف الثاني من شهر آب/اغسطس ١٩٤٩، سافر إلياهو ساسون ورؤوفين شيلواح الى «لافرايت» ــ وهي بلدة صغيرة بالقرب من لوزان ــ من اجل التفاوض مع رئيس الوفد المصري الى محادثات الصلح، عبدالمنعم مصطفى. وقد استمرت محادثاتهم سبع ساعات تقريبا، وصفها ساسون في احدى الرسائل (رقم ١٣) التي اعتاد ارسالها بانتظام الى موشيه شاريت. ولم تكن هذه المحادثات الاولى التي تجري بين الاسرائيليين والدبلوماسي المصري، غير ان سيرها ومضمونها ونتائجها عكست جيدا وضع العلاقات بين اسرائيل والدول العربية: فقد كان هناك اتصال، و«اعترف» العرب بدولة اسرائيل، كما كان هناك استعداد مبدئي للبحث في السلام. لكن اسرائيل رفضت الشروط.

طالب المصريون بأن يصبح النقب مع الضفة الغربية دولة عربية مستقلة، تشكل حاجزا بين اسرائيل ومصر، وبين مصر وشرق الاردن. وأوضح عبدالمنعم ان اقامة هذا الحاجز بين اسرائيل ومصر في كل النقب ستتيح توطين قسم كبير من اللاجئين في ارض ــ اسرائيل، بينهم نحو ٢٦٠ ألف لاجيء يقيمون في مصر وقطاع غزة. وربما يصبح في الامكان نقل المزيد من اللاجئين الى هناك من اماكن اخرى. وقال الدبلوماسي المصري ان النقب الشمالي صالح كله للاستيطان، وبمساهمة مالية من الولايات المتحدة ومن دول عربية، يصبح في الامكان تنفيذ المشروع. ولقد رأى في المشروع ميزة كبرى اخرى: يمكن ان يُعرض

كتحقيق لمشروع التقسيم المؤرخ في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧. واقترح في مقابل ذلك اتفاقا للسلام.

لفت ساسون وشيلواح انتباه المصري الى ان مشروع ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر [١٩٤٧] للتقسيم وضع النقب ضمن حدود الدولة اليهودية. ورد المصري بأنه يعرف ذلك، غير ان المشروع اعطى العرب الجليل، ومن الواضح له ان اسرائيل لن تتخلى عن الجليل. وأجاب ساسون وشيلواح بأن اسرائيل لن تتخلى حتى عن شبر واحد في النقب ايضا. فاعتبر المصري انه، في هذه الحال، ليس هناك اي اساس للتفاهم بين الدولتين، ومن الافضل ان تمثلا امام الجمعية العامة للأمم المتحدة. ووعد بأن توافق مصر على قرار الجمعية العامة، وأن تجلو عن غزة لو طلب منها ذلك. لكن عندها لا يظل هناك اي امل بالتفاهم او بالسلام والتعاون بين الدولتين، ويمكن ان تنشب حرب بينهما، لكن ليس حرب بنادق ومدافع بل حرب باردة: حرب سياسية واقتصادية.

لاحظ ساسون ان المصري «ثار بعض الشيء» عند هذه النقطة، اذ قال: افهموا ان مصر لا ترغب في حدود مشتركة مع اسرائيل، ولكانت سعيدة لو لم تقم اسرائيل. فلقد فعلت كل شيء من اجل منع اقامتها. ان مصر مقتنعة بأن دولة اسرائيلية ستكون غريبة عن العرب في كل شيء، وبأنها ستشكل داخل المحيط العربي، وبالضرورة، عنصرا دائما للنزاعات والتعقيدات وعدم الاستقرار في الشرق. وأضاف: يمكن ان تكون مصر مخطئة في تقدير نيات اسرائيل وعقليتها. لكن من غير الممكن، وعلى الاقل في هذه الفترة، اقتلاع هذا التفكير غير السليم من عقل مصر بالكلام فقط. ان مصر لن تشعر بالاطمئنان والمناعة وعلى حدودها في النقب ثلاثة ملايين او اربعة ملايين يهودي، كلهم مثقفون وأصحاب مبادرة ويتمتعون بروح التضحية. لذلك، دعا الى اقامة «دولة فاصلة» عربية فلسطينية في النقب.

حاول الاسرائيليون اقناعه بضلاله، وقالوا له ان لا اساس لمخاوفه، غير ان المصري كرر انه يمكن ان يكون على خطأ، لكن يجب ان تأخذ مصر في حسابها أسوأ الاحتمالات. وأوضح الاسرائيليون انه اذا قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة اعطاء النقب للمصريين، فستخذلها اسرائيل لأن النقب حيوي جدا بالنسبة اليها. * فأجاب المصري: «افعلوا ما يحلو لكم.» قال ساسون: «ان هذا النقاش مع محاورنا في شأن النقب لم يمكّنا من مناقشة مشكلات اخرى. وعندما حاولنا ذلك قال ان لا فائدة منه. وعندما اردنا موعدا آخر للقاء قال انه مستعد للاجتماع الينا في اية ساعة، لكن ما دام هذا هو موقفنا فالأفضل الاجتماع للحديث

---

* آمن بن ـ غوريون بأن النقب بأكمله سيستوطن بكثافة. وعدد في مذكراته المناجم المطمورة في ارضه. غير ان المعهد الذي يخلد ذكرى تراث بن ـ غوريون والذي تولى نشر مذكراته، اخفى في قائمة المناجم كلمة واحدة يساوي طولها طول كلمة أورانيوم. [٧٣]

عن اي شيء ما خلا الامور السياسية.» [٧٤] *

بعد مرور بضعة اسابيع على اتخاذ قرار التقسيم، وعد بن ـ غوريون حزبه انه خلال اشهر معدودة «ستحدث تغييرات كبيرة في تركيب البلد السكاني.» كان يقصد بذلك خروج العرب. وكان هذا في نظره تطورا مرغوبا فيه. قال: «نحن مدينون الى حد كبير بهذا التغيير للمفتي **»، تماما كما ان تل ابيب العبرية كانت على حد قوله «هدية المفتي»، وكذلك قرار التقسيم: «فلو لم يتخذ المفتي هذا الموقف المتصلب والمتطرف مثل التصحيحيين عندنا، لما كنت واثقا مما اذا كانت ستتوفر خمس وثلاثون دولة توافق على ما وافقت عليه.» [٧٦] وفعلا، فقد نزح عشرات الآلاف من العرب عن بيوتهم خلال تلك الاشهر. وقبل عدة اسابيع من اعلان الاستقلال، علق بن ـ غوريون قائلا: «لقد اثبت التاريخ الآن من الذي يتشبث بهذه الارض حقا، ومن الذي يعتبر هذه الارض من الكماليات التي في الامكان التنازل عنها بسهولة. لم يتم حتى الآن ترك نقطة يهودية واحدة، حتى لو كانت الاكثر بعدا وضعفا وعزلة. وفي مقابل ذلك، هجر العرب بسهولة كبيرة مدنا كاملة مثل طبرية وحيفا، بعد الهزيمة الاولى، مع انه لم يكن يتربص بهم اي خطر دمار او وقوع مذابح.»

وهكذا برز بوضوح قاطع من هو الشعب الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بهذه الارض. [٧٧] وفي الوقت الذي كانت تقال فيه هذه الكلمات، سجل تاريخ الاستيطان الصهيوني في البلد العديد من المستعمرات التي هجرت. وأبقى مشروع التقسيم عددا من المستعمرات العبرية خارج المنطقة التي خصصت للدولة اليهودية. وفي أثناء الحرب، كان

---

* بهذه الروح تحدث ساسون وشيلواح مع سمير الرفاعي، رئيس حكومة الاردن، فيما بعد. اذ التقياه في احد قصور الملك عبدالله الشتوية في الشونة. وقد رحب بهما الملك عبدالله لدى وصولهما، غير انه انسحب بعد ذلك، ولم يشارك في المحادثات نفسها. ومثل الدبلوماسي المصري، اوضح السياسي الاردني للاسرائيليين ان النقب هو وتد داخل الامتداد الاقليمي العربي. فاذا ما حصل الاردن على النقب يستطيع ان يبرر سياسته بشأن السلام امام العالم العربي. قال بن ـ غوريون: «لقد اوضح له رجالنا ان الامر غير وارد في حسابنا. فلن نقدم اي تنازل اقليمي. ربما نوافق على حرية المرور (الى البحر) فقط، اما بالنسبة الى الارض فليس هناك اي امل.»

شعر ساسون وشيلواح بأن موقف كل من المصريين والاردنيين كان منسجما. ففي حال تنازلت اسرائيل عن النقب، ستنقل مصر قطاع غزة الى سيطرة الاردن. فالأمر الاساسي بالنسبة الى مصر كان منع قيام حدود مشتركة بينها وبين اسرائيل. وبكلمة اخرى: لم يكن لدى مصر نية في مهاجمة اسرائيل. حتى ان الاردنيين أملوا بالحصول على انجازات فعلية من الاتفاقات مع اسرائيل، وضمن ذلك مخرج الى البحر. واقترحوا اعطاء اسرائيل منطقة حرة في ايلات، في مقابل منطقة حرة في حيفا. قال بن ـ غوريون: «اوضح رجالنا ان في الامكان الحديث عن غزة فقط، شرط ألا نقدم اي تنازل اقليمي.» [٧٥]

** الحاج محمد امين الحسيني. (المحرر)

هناك بعض المستعمرات التي لم تصمد في وجه الهجمات العربية، فهرب اهلها او استسلموا. كما فرضت اتفاقات الهدنة تنازلا عن بعض المستعمرات العبرية.[٧٨] لقد هجر العديد من العرب بيوتهم، لكن لم يهجروا البلد. فقد وجدوا ملجأ عند اقرباء لهم في اماكن كانت تبدو لهم اكثر امانا. وترك العديدون منازلهم قبل الحرب، وبينهم من رحل خوفا من أخبار مجزرة دير ياسين. وهناك من غرّر به واعتقد انه سيكون في امكانه العودة خلال ايام معدودة وراء الجيش العربي المنتصر. ورحل غيرهم على الرغم من المحاولات التي قامت بها شخصيات يهودية لاقناعهم بالبقاء. وكان هناك من قاتل الجيش الاسرائيلي ورحل عندما هزم في القتال. وثمة من سمع عن الجنود الاسرائيليين ما سمعه ايضا وزير الدفاع عندما قال امام اعضاء ماباي، قبل فترة من بلوغ الحرب ذروتها: «انني في غاية الاسى من الاعمال التي بلغت مسامعي.»[٧٩]

ففي الاشهر التالية رفع وزير الدفاع تقريرا عن أعمال القتل ـ «الذبح» كما وصفها هو ـ وأعمال الاغتصاب التي قام بها جنود الجيش الاسرائيلي، اذ ان أخبارا من هذا النوع زادت في الفزع والنزوح.[٨٠] *

لقد ظل عشرات الآلاف من السكان العرب في منازلهم، لكن الجيش الاسرائيلي هو الذي طردهم منها.

[وفيما يلي بعض] من مناقشات اللجنة الوزارية لشؤون الاملاك المتروكة:

أ. كابلان**: لدى احتلال الرملة واللد واجهنا اول مرة مسألة الاستيلاء على ارض

* ان الاعمال التي ارتكبها جنود الجيش الاسرائيلي خلال الاحتلال وبعده، شغلت الحكومة في عدد من جلساتها. فالمعلومات التي وصلت الى الوزراء صدمتهم، وتسببت باطلاق اكثر التصريحات خطورة والتي لم يسبق ان ذكرت خلال جلسات الحكومة في يوم من الايام. فقد قال اهارون تسيزلينغ: «تلقيت من احد الاشخاص رسالة في هذا الشأن. وعلي ان أقول اني عرفت الوضع لدينا في هذه المنطقة، وأكثر من مرة طرحت الامور امام الحكومة. وبعد ان قرأت ما ترويه الرسالة التي تلقيتها، لم استطع النوم طوال الليل. شعرت بأن ما حدث هو طعنة لنفسي وبيتي ولنا جميعا هنا. لم استطع ان اتخيل من اين أتينا، والى اين نحن ذاهبون (. . .) لم اكن دائما موافقا عندما كان يلصق بالانكليز صفة «نازيين». لم اكن ارغب في استخدام هذا التعبير في وصفهم، على الرغم من انهم قاموا بأعمال نازية. بيد ان اعمالا نازية قام بها يهود ايضا، وتزعزع كياني كله من هذا الامر (. . .) نحن مضطرون الى اخفاء ذلك عن الخارج. وأنا أوافق على عدم الكشف عن التحقيق الذي نجريه في هذه الاعمال، لكن يجب ان نحقق فيها (. . .).»[٨١] وكُلف يعقوب شمشون شابيرا التحقيق في ذلك.[٨٢] وعندما قدم ما توصل اليه من استنتاجات للحكومة، استساغ الوزراء تكليف لجنة خاصة «ان تقترح على الحكومة السبل الآيلة الى الحؤول دون وقوع فظائع في الجيش وفي السكان المدنيين.»[٨٣]

** أليعيزر كابلان: وزير المالية وأحد قادة ماباي. (المحرر)

يسكنها عدد كبير من العرب. ويقدر عدد السكان في هاتين المدينتين، وفي القرى المجاورة المحتلة، ببضع عشرات الآلاف.

ب. شطريت: زار الرملة المحتلة، واطلع على الوضع عن كثب. فالجيش عقد العزم على أسر كل الرجال القادرين على حمل السلاح (باستثناء الذين وقّعوا صك الاستسلام)، ونقلهم الى حدود المنطقة العربية واطلاقهم. ولقد اتصل السيد شطريت، في شأن هذه المسألة، بوزير الخارجية وطلب منه تحديد موقف منها. وكان جواب السيد شرتوك انه يجب السماح لكل السكان الذين يرغبون في البقاء في اماكنهم بأن يفعلوا ذلك، شرط ألا تتحمل دولة اسرائيل وزر معيشتهم. والذين يرغبون في ترك المكان ليسمح لهم بذلك (. . .).

أ. كابلان: تحدث الى وزير الدفاع عن مشكلة سكان الرملة واللد، وتلقى منه جوابا يناقض ـ الى حد معين ـ جواب وزارة الخارجية. كان رد وزير الدفاع انه يجب اسر الشبان. أما بالنسبة الى باقي السكان، فيجب تشجيعهم على الرحيل. لكن بالنسبة الى الذين سيبقون، فستضطر اسرائيل الى الاهتمام بمعيشتهم.[٨٤]

بعد مرور يومين، كتب بن ـ غوريون: «يبث الفيلق العربي برقية تفيد ان ثمة ٣٠ ألف لاجيء حانقين على الفيلق يسيرون على الطريق من اللد الى الرملة ويطلبون خبزا. يجب نقلهم الى شرق الاردن».[٨٥]*

* بعد مرور أعوام، تحدث رابين عن الجلسة التي سبقت احتلال اللد والرملة. وبحسب كلامه، سأل بن ـ غوريون عن مصير هاتين المدينتين، فأجابه بن ـ غوريون بحركة يد فسرها رابين كاشارة لطردهم. وهذا ما جرى في اللد استنادا الى كلامه: أُجبر الناس على الذهاب الى الحدود. وتعلمت الرملة العبرة فوافق سكانها على الرحيل طوعا، مشترطين توفير سيارات لنقلهم. كان من المفترض ان تتضمن مذكرات رابين هذه التفاصيل، غير انه مُنع من نشرها في اسرائيل. وبعد فترة وجيزة اقتبستها صحيفة «نيويورك تايمز» وأثارت ضجة. لكن يغآل آلون كذبها بشدة. غير ان رواية رابين عززت، ظاهريا، أوامر «تشجيع السكان على الرحيل». وكذلك الكلام الذي قاله وزير الزراعة، اهارون تسيزلينغ، في احدى جلسات الحكومة: «اسمح لنفسي بالقول ان هذه الصيغة (التعليمات بشأن اسلوب التصرف في الرملة) هي دعوة الى طرد العرب من الرملة بصورة لبقة. فلو شعرت بذلك عبر تعليمات صريحة لكنت فسرتها على هذا النحو فقط. فالتعليمات التي تقول في ايام الاحتلال بأن الباب مفتوح، وبأن في امكان العرب الرحيل من دون تمييز بين الجنس والسن، وطبعا في امكانهم البقاء، على ألا يتحمل الجيش مسؤولية تزويدهم بالطعام ـ عندما تقال هذه الامور خلال ايام الاحتلال وفي حالة احتلال، وبعد كل ما جرى في يافا وفي اماكن اخرى (. . .) فانني افسر بيانا كهذا بأنه بمثابة انذار: أنقذوا انفسكم في الوقت الملائم واهربوا.»[٨٦] وقد هرب مئات الآلاف من العرب او طردوا من البلد عندما قام الجيش الاسرائيلي، بعد الاقتراح الذي طرحه وزير الزراعة على الحكومة في بداية تموز/يوليو، بتنفيذ الاوامر التالية: «في =

كان بن ــ غوريون يميل الى تجاهل مأساة عرب البلد الانسانية؛ فقد كانت نظرته اليهم تستند الى النفحية الذرائعية الراسخة في نظرته السياسية، وقال للحاضرين من أعضاء اللجنة المركزية لحزبه: «ان ارضا عليها عرب تختلف تماما عن ارض ليس عليها عرب»، شأنها في ذلك شأن تجارة الاملاك غير المنقولة.(٩٠) وبعد مرور شهر على ذلك، استدعى رئيس الحكومة مستشاريه للبحث في ضم قرى المثلث الى أراضي اسرائيل، انسجاما مع الاتفاق مع الاردن. ومما جاء في محضر الجلسة:

بن ــ غوريون: أنريد ان يرحل العرب الموجودون في القسم الذي اعطانا اياه عبدالله، ام نريدهم ان يبقوا؟

إلياهو ساسون: «اظن يجب ان يبقوا. فهناك عدد من الاسباب لذلك.»

زالمان ليفشيتس: اعتقد ان من الافضل ألا يرحلوا.

بن ــ غوريون: اريد الاستزادة في دراسة الموضوع.(٩١) *

= الوقت الذي لا يدور فيه قتال فعلي، يجب الامتناع عن تدمير مدن وقرى عربية واحراقها وتخريبها، وعن طرد السكان العرب من قراهم ومن الضواحي والمدن، او اقتلاع سكان من أماكنهم إلا باذن خاص او امر صريح من وزير الدفاع في كل حالة على حدة. كل من يخالف هذا الامر يحال على المحاكمة.»(٨٧)

بعد مرور فترة وجيزة، قيل للوزراء ان سكان بئر السبع من النساء والاطفال و«قسما من الرجال» قد نقلوا، «بناء على طلبهم»، الى الاراضي المصرية. وسأل وزير المالية عن صحة الخبر الذي مفاده ان الجيش طرد بضع مئات من سكان اسدود الذين استقبلوه برايات بيض، فرد عليه الحاكم العسكري أليميلخ افنر، بأن بين يديه تقريرا عن احتلال أسدود يُذكر فيه ان الجيش وجد المكان خاليا من الناس.(٨٨) وفي الجليل طرد المسلمون بصورة خاصة. وكتب احد اعضاء القيادة القطرية للشرطة بعد ان قام بجولة، في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٨، في قريتي عيلبون ومرر: «لقد طرد سكان عيلبون باستثناء اربعة قرويين من طائفة الروم الارثوذوكس وعدد قليل من الشيوخ والاطفال. وبلغ عدد الذين ظلوا في القرية **٥٢** شخصا. واحتج الكهنة بشدة على طرد ابناء القرية وطالبوا باعادتهم (. . .). وفي مرر، بقي السكان جميعا باستثناء قسم كبير من السكان المسلمين.»(٨٩)

* التزمت اسرائيل، في اتفاق الهدنة مع الاردن، عدم المساس بسكان القرى التي انتقلت الى سيطرتها، ولم يمس اغلبها. لكن عندما كانت المفاوضات لا تزال في ذروتها، كان ثمة افتراض بطرد عرب هذه القرى. قال موشيه شاريت: «اتصور ان النية ستتجه نحو التخلص منهم، فالمصلحة الامنية تقتضي ذلك.» وفي هذا السياق ثمة وثيقة فريدة في نوعها، محفوظة في احد ملفات وزارة الخارجية، كتبها المدير العام لهذه الوزارة الى الوزير المسؤول عنه يقول فيها: «اشعر بوخز الضمير ازاء ما فعلناه (. . .) فكرت انا ويادين في ذلك مليا (. . .). فعلى الرغم من الضمانات والكلمات المعسولة كافة فقد كان واضحا للاردنيين، كما كان واضحا لنا ايضا، ان سكان تلك القرى سيصبحون لاجئين في اللحظة التي سينسحب فيها العراقيون من المنطقة، وربما قبل ذلك. ومن الواضح ان الاردنيين هم الذين خانوا سكان هذه =

بدأت السياسة الاسرائيلية إزاء اللاجئين تتبلور بالتدريج. فبعد ثلاثة اسابيع من اعلان الاستقلال، وبينما كانت الحرب في ذروتها والبلد يفرغ من سكانه العرب، استرعى انتباه وزير الخارجية، شاريت، البيان الذي صدر عن الناطق باسم الوكالة اليهودية وأذيع من «صوت اسرائيل»، والذي جاء فيه ان اسرائيل سوف تكون مستعدة لاعادة اللاجئين، وحتى لدفع تعويضات لهم. وقد سارع شاريت الى الطلب من المدير العام لوزارته عدم تكرار اذاعة بيانات من هذا النوع، وقال محذرا: «يجب ألا يُفهم من كلامنا انهم يستطيعون العودة بعد انتهاء الحرب.» وأضاف: «سنبقي بابا مفتوحا امام الاحتمالات.»(٩٣) وبعد مرور عشرة ايام، كتب شاريت الى ناحوم غولدمان ان اجلاء العرب «حدث رائع في تاريخ البلد. وهو، بمعنى معين، اكثر روعة من اقامة دولة اسرائيل.» وأضاف ان الاجلاء «يفتح امكانات تحبس الانفاس امام التوصل الى حل جذري ودائم لأعوص مشكلة واجهتها الدولة.» وجزم بأن لا مجال للتفكير في ان يعود الوضع الى ما كان عليه.(٩٤) وفي جلسات الحكومة الموقتة، التي عقدت في شهر حزيران/يونيو، قال بن ــ غوريون انه لن يؤيد عودة اللاجئين، حتى بعد انتهاء الحرب. وكرر شاريت هذا الكلام على مسامع الكونت برنادوت،(٩٥) الذي قال في وقت لاحق: «لقد كان متصلبا كحجر الصوان.»(٩٦)

لكن بن ــ غوريون قال لمندوب الولايات المتحدة، جيمس مكدونالد، في بداية ايلول/سبتمبر: «ان الباب ليس مقفلا» امام البحث في اعادة اللاجئين، ووعد ان «هناك، في اطار مفاوضات السلام، امكانا للبحث في كل شيء.»(٩٧) ورأى يوسف فايتس، احد المسؤولين عن الكيرين كاييمت (الصندوق القومي) ضرورة اقناع بن ــ غوريون كي يستبعد، بصورة كاملة، امكان اعادة اللاجئين، وذلك بقرار واضح وملزم. واقترح، في النصف الثاني من ايلول/سبتمبر، سلسلة من الخطوات التي تؤدي الى ابعاد اللاجئين عن مناطق الحدود الى داخل العمق العربي، وجزم بأنه «يجب مضايقتهم بلا نهاية.»(٩٨) وطلب بن ــ غوريون من فايتس ان يدرس هذا الموضوع مع رجال المساحة ومع واضع الخرائط زالمان ليفشيتس، ومع المستعرب ومستشار الامور السرية عزرا رانين. وثمة وثائق متعددة وصفت هذا الثلاثي بأنه بمثابة «لجنة تحويل». وفي شهر تشرين الاول / اكتوبر، قدم هؤلاء الى بن ــ غوريون النتائج التي توصلوا اليها: «(. . .). أ) ان العرب انفسهم هم المسؤولون عن نزوحهم؛ ب) لا مجال لاعادتهم لأنهم سيشكلون طابورا خامسا، وسيحملون الضغينة في قلوبهم، فاقتصادهم مدمر، ويستوجب لاعادة بنائه مبالغ طائلة تفوق طاقة الدولة (. . .).» وأوصى اعضاء اللجنة بأنه اذا فرض على اسرائيل اعادة اللاجئين، فيجب ان تتشدد في رفضها

= القرى. غير ان ذلك لا يجعل الامور اكثر ارتياحا لنا. اننا شركاء في هذه الصفقة، ونحن الذين سنُتَّهَم بنتائجها لا الاردنيون.»(٩٢)

اعادتهم الى قراهم في مناطق الحدود، وانما الى المدن فقط وبنسبة لا تتجاوز ١٥ ٪ من نسبة السكان اليهود. وقدروا عدد اللاجئين بأكثر من نصف مليون نسمة.[٩٩] وفي نهاية تشرين الاول/اكتوبر، تلقى بن ــ غوريون تقريرا من الجليل مفاده «ان القرويين هربوا من كل القرى التي قاتلناها، لكن الكثيرين سيهربون ايضا.»[١٠٠]

وكلما مر الوقت وارتفع عدد اللاجئين تبلور الرأي القائل بأنه يجب عدم ارجاعهم، وبدأ ناطقون اسرائيليون يقولون ذلك بكلمات صريحة وواضحة. فقد قال دوف يوسف، حاكم القدس، لاعضاء لجنة الصلح: «لقد حدث ما حدث، ولا مجال لاعادة الماضي.»[١٠١] وبعث ممثل الولايات المتحدة في اللجنة الى مرؤوسيه في واشنطن، بأنه يكثر من التأكيد على مسامع الاسرائيليين ان موقفهم قاس جدا، غير انهم لا يتأثرون بكلامه.[١٠٢] وفي تلك الاثناء، كان موظفو دائرة الشرق الاوسط في وزارة الخارجية يشغلون انفسهم بالتنبؤ عن المستقبل. وقدر هؤلاء ان اللاجئين «سيتدبرون امورهم»: «اولئك الذين يتمتعون بأعلى مستويات البقاء والتكيف، سيتدبرون امورهم عن طريق خيار طبيعي. أما الباقون فسيسحقون؛ سيموت قسم منهم، وسيتحول معظمهم الى اشباه البشر والى حثالة المجتمع، وسينضمون الى اكثر الطبقات فقرا في الدول العربية.»[١٠٣] وكتب بن ــ غوريون الى وزير الهجرة شابيرا: «ان سياسة الحكومة هي عدم السماح لهم بالعودة.»[١٠٤] كان هذا في نيسان/ابريل ١٩٤٩. كانت «لجنة التحويل» قد انجزت مشاريع لتوطين اللاجئين في الدول العربية، حين تلقت فجأة تعليمات جديدة سرية جدا: طلب وزير الخارجية موشيه شاريت من اعضائها إعداد مشروع في حال رأت الحكومة نفسها مضطرة الى الموافقة على اعادة قسم من اللاجئين الى اسرائيل. وطلب الوزير ان يعين هذا المشروع الحد الاقصى لحجم الاعادة الذي في امكاننا الموافقة عليه، وأسلوب انتقاء العائدين، وتحديد المناطق والتجمعات السكنية التي يمكن ان يستوطنوا فيها من جديد.[١٠٥] وتخوف فايتس من احتمال عودة اللاجئين العرب، فكتب لشاريت بعد بضعة اشهر يقول «ان خوفا كبيرا يتملكه» بسبب هذه المشكلة. وان «رجالنا يلتقون يوميا معارف لهم كانوا غائبين، وهم يتنقلون بحرية مطلقة ويعودون شيئا فشيئا الى قراهم»، وتابع: «اخشى ان تكون (مشكلة) اللاجئين، الى حين انتهائكم من البحث المطول فيها في جلسات لوزان او في اماكن اخرى، قد حلت نفسها بنفسها بنسب معينة، وذلك عن طريق عودة اللاجئين! وهم لا يرون لدى حكومتنا اية خطة عمل ضد التسلل. ويبدو ان لا وجود للسلطة العسكرية او المدنية، فقد زالت كل العوائق، ويشعر العربي بذلك بذكائه ودهائه، ويعرف كيف يخرج بالاستنتاج الذي يريده.» وحذر فايتس من التوهم بأن مشكلة اللاجئين ستحل مع مرور الزمن. ان حلقة اللاجئين الحاقدين التي تحاصرنا بالكراهية والانتقام من كل الجهات، لن تتركنا ننعم

بالاً لسنوات عديدة، وستقف حاجزا في وجه عقد سلام حقيقي بيننا وبين جيراننا.*

وكان استنتاج فايتس ان ثمة حاجة الى «اعلان واضح وقاطع» يقضي بعدم عودة اي لاجىء إلا من اجل جمع شمل العائلات. لكن حكومة اسرائيل ستتكفل بقسم كبير من نفقات توطين اللاجئين في الدول العربية. وأضاف: «واذا ما تساءل وزير المالية عن مصدر الاموال، فالجواب واضح: الشعب سيعطي. (...) فاذا كنا على استعداد لشراء السلام بدماء الضحايا العزيزة، هل نمتنع عن شرائه بالمال.»[١٠٧]

كان فايتس يعرف ما يقوله. فبعد مرور بضعة ايام على ما كتبه لشاريت، ابلغ وزير الخارجية المندوب الاميركي مكدونالد ان ٢٤ ألف لاجىء تقريبا قد عادوا الى اسرائيل خلال الاشهر الاخيرة.**

اعتبر المندوب الاميركي ذلك دليلا على تليين موقف اسرائيل.[١٠٩] وبعد مرور سبعة اسابيع، ابلغ شاريت مكدونالد ان اسرائيل مستعدة، في اطار اتفاق سلام، لاعادة ١٠٠ ألف لاجىء شرط أن يعودوا كجزء من حل شامل ونهائي لمشكلة اللاجئين كلها. ورأى مكدونالد في ذلك «خطوة في الاتجاه الصحيح.» واعتقد الاميركيون ان على اسرائيل اعادة ٢٥٠ ألف لاجىء.[١١٠]*** وسرب الخبر عن استعداد اسرائيل لاعادة هذا العدد الضخم من اللاجئين الى الصحف قبل ان يبلَّغ الى العرب، وقبل ان تتم تهيئة الرأي العام في البلد له كما يجب. قال بن ــ غوريون: «يتضح ان رجلَي وزارة الخارجية هما اللذان ابلغا الصحافيين الامر. ابلغ آبا ايبن كانت بيلبي («نيويورك تريبيون»)، وأبلغ رؤوفين شيلواح جورديان من «التايمز». وقد اعطي الخبر لهما على ألا يكون للنشر، غير انه كان قد شاع في تلك الاثناء.»[١١١] وكأنما نشأت مبادرة الـ ١٠٠ ألف عن غير قصد في اعقاب اقتراح ضم قطاع غزة الى اسرائيل كجزء من اتفاق السلام مع مصر. ولقد قبلت اسرائيل الاقتراح. وقال موشيه شاريت، امام لجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست، ان الحكومة توخت تحقيق «مزايا مهمة جدا بضم القطاع، تنطوي على اضافة ارض جديدة، وابعاد المصريين عن حدود اسرائيل الى

---

* قال وزير الزراعة تسيزلينغ في احدى جلسات الحكومة: «ما زلنا لا نقدّر كما يجب اي عدو نربي الآن خارج حدود دولتنا. ان أعداءنا من الدول العربية لا يوازون شيئا ازاء مئات الآلاف من العرب الذين، انطلاقا من الحقد الواعي وعدم وجود مخرج والعداء السافر، سوف يهاجمون دولتنا على الرغم من اي ترتيب قد يتخذ (...).»[١٠٦]

** كان بن ــ غوريون يعتقد ان هذا اتفاق لا لزوم له، لأن مشكلة اللاجئين ستحل من تلقاء ذاتها. ولقد سجل فايتس في مذكراته: «ان الزمن في رأيه يداوي. وكل شيء سيزول.»[١٠٨]

*** لم يحدد هذا الرقم انطلاقا من دراسة او تقدير، بل حدد بطريقة اعتباطية، وربما بحكم العادة. ففي السنوات التي سبقت قيام الدولة، اعتاد الاميركيون الحديث عن ضرورة السماح لـ ١٠٠ ألف من يهود المعتقلات الناجين من الكارثة النازية بالاستيطان في البلد. وحتى هذا الرقم كان اعتباطيا في اساسه.

ما وراء الصحراء، والقضاء على امكان ضم القطاع الى الاردن، وغير ذلك.»[١١٢] بعد مرور فترة وجيزة اتضح للحكومة انها لم تقدّر، بصورة صحيحة، عدد اللاجئين الذين كانوا يقيمون في القطاع. فعندما قررت تسليمه كان الاعتقاد ان عدد السكان لا يتعدى ١٨٠ ألف نسمة، لكن اتضح فيما بعد ان الرقم الصحيح هو ٣١٠ آلاف، بينهم ٢٣٠ ألف لاجىء.* قال شاريت: «انني طبعا متقيد بقرار الحكومة في شأن قطاع غزة ـ رفح، لكني انتهج حاليا تكتيكا في هذا الصدد لا يناقض قرار الحكومة. فالتعليمات هي التوقف في الوقت الحاضر عن الحديث عن قطاع غزة ـ رفح، كي لا نكون نحن من يثير المسألة، لأن العرب سيضعون شروطا، بل يجب الانتظار حتى يثير العرب المسألة وعندها نضع نحن شروطنا، وضمنها شروط بالنسبة الى السكان.»[١١٤]** ان اعلان استعداد اسرائيل للسماح بعودة ١٠٠ ألف لاجىء عكس، اذن، تراجعها عن استعدادها السابق لاعادة ضعفي هذا العدد وأكثر.

وقد حاول شاريت ايضا، في لجنة الخارجية والأمن، ان يطرح المسألة كلها كـ«حيلة»، غير انهم لم يصدقوه. وعندما شاع عدد العرب الذي توافق اسرائيل على اعادته نشبت فضيحة. وكان النقاش الذي جرى في الكنيست في هذا الشأن اكثر صخبا من النقاش الذي سبقه، اذ تخلله صراخ وشتائم. واستخدم بن ـ غوريون تكتيكا برلمانيا عندما حوّل النقاش فجأة الى موقف المعارضة عشية حرب الاستقلال. وخلال دقائق اخذ الجميع يتناقشون بحماسة شديدة وضجة كبيرة، وكأن موضوع اللاجئين قد سقط من جدول الاعمال.[١١٦] وقد ابلغ القنصل الاميركي في القدس وزير الخارجية في واشنطن ان الغضب الذي اثارته موافقة الحكومة على اعادة اللاجئين مصطنع، ومن تدبير الحكومة نفسها. وبعد مرور بضعة ايام، ارسل القائم بالأعمال الاميركي تصحيحا لتقدير القنصل، فجزم بأن «الغضب حقيقي.»[١١٧]*** واشتد الهيجان داخل ماباي ايضا. ولم يسيطر اعضاء

* كان ذلك بمثابة هفوة ما كان يجب أن تُرتكب. فقبل عدة اشهر من ذلك، تحدث يغئيل يادين عن الوضع في القطاع في جلسة حضرها بن ـ غوريون، وقال: «من غير السهل في الوضع الحالي العيش هناك.» واستشهد بكلام سمعه من احد الدبلوماسيين المصريين في رودس وصف وضع اللاجئين في القطاع بـ«انهم كالجراد.»[١١٣]

** كتب شاريت في برقية الى ساسون ان النية هي ارجاع «نحو ١٥٠ ألف شخص مع القطاع، وليس اقل من ذلك.»[١١٥]

*** شكك القنصل الاميركي في القدس في الاقتراح الاسرائيلي باعادة ١٠٠ ألف لاجىء. وفي رسالة الى وزير الخارجية اتشيسون، كتب وليم بردت تقريرا عن احدى جلسات لجنة الهدنة بين اسرائيل والاردن، للبحث في مصير نحو ألف شخص طردتهم اسرائيل من قرية باقة الغربية، وأجبروا على اجتياز الحدود. وعلق دايان على هامش النقاش ان في استطاعة الامم المتحدة، فعلا، ان تجبر اسرائيل على اعادة =

الكنيست التابعون للحزب وأعضاؤه النشيطون على انفسهم، حتى ان بعضهم هدد بالتصويت ضد الحكومة. وقال احدهم: «ان هذه القضية توقف الشعر.» وقال آخر: «ان قبول اللاجئين العرب يعني ايجاد سبب للحرب، لأن الحدود ستكون بالقرب من كل بيت في دولة اسرائيل. ان اعادة اللاجئين لا تشكل طابورا خامسا فقط وانما طابورا اول.» وحذر احد الحاضرين من ان الرأي العام سيقف ضد الحكومة. ودعا آخر الى البحث في سبيل للتهرب من الموقف الذي اتخذته الحكومة. وحاول موشيه شاريت تهدئتهم، فأوضح ان المقصود ليس ١٠٠ ألف، وانما سوف يطرح من هذا العدد كل الذين عادوا في وقت سابق، اي ٦٥ ألفا. كما ان المقصود ليس اعادتهم الى منازلهم بل اسكانهم في اي مكان تراه الحكومة ملائما، وربما مكان بعيد. وقال بانفعال: «انني مستعد لأن ادفع ٦٥ ألف عربي ثمنا للسلام، في مقابل حل مشكلات الحدود.» فردوا عليه بأن العرب لن يوافقوا على حل المشكلة لقاء إعادة ٦٥ ألف لاجىء، اذ «ان الموافقة على ذلك بمثابة استسلام آخر بالنسبة اليهم. ان في استطاعة العرب ان يتقاسموا فيما بينهم ٦٥ ألف لاجىء، وليسوا بحاجة الى بادرتنا.»[١١٩] فرد شاريت: «اذا لم يرضوا فلن ندفع.» وهذا ما حدث طبعا.* وما لبثت المسألة ان طويت بعد فترة كما لو كانت مزحة، مثلما طويت الفكرة الغريبة بشأن «تسريع السلام» بمؤازرة حكومة ـ دمية فلسطينية كانوا يبتغون اقامتها في المنفى برئاسة المحامي نمر الهواري.**

وظل السؤال المطروح: هل كانت اسرائيل ترغب فعلا في اعادة عشرات الآلاف من اللاجئين، ام ان هذا لا يعدو ان يكون «تكتيكا». ومع ذلك، كان هناك امل ضعيف بأن يقبل العرب الاقتراح، وأمل ضعيف ايضا بأن يسمح الرأي العام في البلد للحكومة بأن تفي بوعدها. في اي حال، ثمة من عمل في وزارة الخارجية على دراسة الموضوع بجدية، مثل اللجنة التي درست الموضوع بناء على طلب شاريت، كما كان هناك من سارع الى وضع صيغة تصريح ولاء عقدوا النية على تقديمه الى اللاجئين العائدين لتوقيعه. وورد في احدى مسودات الوثيقة: «في مقابل موافقة حكومة اسرائيل على قبولي داخل تخومها كمواطن ومنحي كل

= اللاجئين. لكن اذا عادوا فسيندمون. واعتقد القنصل ان هذا الكلام يلقي «ضوءا جديدا» على قيمة الاقتراح الاسرائيلي الفعلية.[١١٨]

* اضطر شاريت وحده الى مواجهة الكتلة المتحررة، ولم يساعده بن ـ غوريون. ولقد تذمر يوسف فايتس امام بن ـ غوريون من قرار السماح بعودة اللاجئين. وزعم بن ـ غوريون ان القرار قد اتخذ «عكس رأيه»، وأضاف انهم على كل حال لم يعودوا بعد.[١٢٠]

** كان الهواري زعيم حركة شبيبة عربية يمينية تدعى «النجادة». وكان إلياهو ساسون هو الذي وضع الخطة ليجعل منه «رئيس حكومة» منفى برعاية اسرائيل، وشاريت لم يرفض الفكرة. ولقد اتى الهواري الى لوزان، وسدد ساسون حسابه في الفندق. وعلى ما يبدو، فقد كانت هذه هي الناحية العملية الأبرز للقضية كلها. وفيما بعد، سمح للهواري بالسكن في الناصرة وعين قاضيا.[١٢١]

حقوق مواطنيها، اقسم بشرفي بأنني محب للسلام وأريد الخير لدولة اسرائيل، وسأطيع قوانينها وتعليمات حكومتها، وسأكون مستعدا لمقاتلة أعدائها، والتضحية بنفسي من اجلها.»

وكالعادة، تجادل الموظفون في اختبار الكلمات الصحيحة. فقد كتب احد الموظفين الى زميل له: «لا اظن ان من المحبذ، فيما يتعلق بالجملة الاولى، ان نربط اعلان ولاء العربي كمواطن في اسرائيل بأي تعهد من جانبنا تجاهه. ان الاعلان هو من طرف واحد وليس تعاقدا بين العربي ودولة اسرائيل.» وهكذا تبادلوا الرسائل في هذا الموضوع كأنه على وشك التنفيذ.(١٢٢) وفي احد ايام تلك الفترة، كتب بن ــ غوريون في مذكراته: «زارني آبا ايبن، وهو لا يرى ضرورة للتهافت على السلام؛ فالهدنة تكفينا. واذا تهافتنا على السلام فسيطالبنا العرب بالثمن. أما (تغيير) الحدود او (اعادة) لاجئين او كلاهما، فلتنتظر بضع سنوات.» وقد ذكر رئيس الحكومة هذه الامور من دون تحفظ.(١٢٣) *

بينما كان المندوب الاميركي في دمشق، جيمس كيلي، يبذل كل ما في وسعه لترتيب لقاء بين [حسني] الزعيم وبن ــ غوريون، اخذ ايضا على عاتقه اصدار حكم تاريخي. فقد كتب الى وزير خارجيته يقول: «من شأن اسرائيل ان تظهر انها انتصرت في الحرب من اجل ارض ــ اسرائيل. غير انها بذلك خسرت السلام.»(١٢٥) وقد مارست حكومة الولايات المتحدة ضغوطا كبيرة على اسرائيل طالبة منها تليين مواقفها. وكان في تقدير مختلف الدبلوماسيين الاميركيين ان الطرفين مسؤولان عن الطريق المسدود، غير انهم اعتقدوا ان السلام يتوقف على اسرائيل. كتب مارك أتريج، مندوب الولايات المتحدة الى مفاوضات لوزان، الى الرئيس ترومان ان اسرائيل تتجه نحو ارساء مستقبلها على امنها العسكري بالتخلي عن فرصة «رائعة» في نظره للتوصل الى اتفاق للسلام، نظرا الى كونها دولة صغيرة الى هذا الحد. وبحسب كلامه، حاول ان يشرح للاسرائيليين انهم يهددون بذلك مستقبلهم ومستقبل العالم الغربي بأسره، لكن من دون جدوى.(١٢٦) وفي شهر آب/اغسطس، قدر وزير الخارجية الاميركي انه لم يعد هناك اساس لحل وسط. واستنادا الى كلامه، فان حكومة اسرائيل سمحت للرأي العام بالتطرف الى درجة لم تعد الحكومة قادرة على تقديم اية تنازلات. وقال وزير الخارجية، اتشيسون، لسفراء بلده في الشرق الاوسط ان اسرائيل قررت نهائيا تفضيل الوضع الراهن. ولاحظ فعلا ان الحكومات العربية، هي ايضا، تفضل حاليا

* لفظ مؤتمر لوزان خلال اسابيع معدودة انفاسه، ولم يستطع العودة الى الحياة. ولم يعد لهذا المؤتمر وجود إلا في اوهام الامم المتحدة لسنوات عديدة، وذلك كذريعة استخدمها موظفو المنظمة الدولية للسفر على هواهم من بلد الى آخر. لم يأسف موشيه شاريت على فشله، فقد كتب الى آبا ايبن: «ان اية تسوية سيئة تحمل في اساسها اتفاقا للسلام الدائم، من شأنها ان تجعلنا نندم الى اجيال.» وعلى ما يبدو، لم يؤمن بأن في ذلك تسوية جيدة لأنها كانت مكلفة جدا.(١٢٤)

الوضع القائم، وذلك بالرضوخ للرأي العام المتطرف الذي اوجدته بنفسها كما فعلت حكومة اسرائيل.(١٢٧) وقبل عدة أسابيع من ذلك، شرح رؤوفين شيلواح لبن ــ غوريون ان الرئيس ترومان يميل حاليا الى تأييد العرب عن طريق تعاطفه التام مع محنة اللاجئين الفلسطينيين، كما ايد سابقا الصهيونية بتعاطفه مع محنة اللاجئين اليهود الناجين من الكارثة النازية.(١٢٨) وتدخل ترومان شخصيا لانقاذ محادثات رودس. فكتب الى الرئيس وايزمن والى بن ــ غوريون ايضا. ودوَّن رئيس الحكومة في مذكراته ان رسالة رئيس الولايات المتحدة صيغت بلهجة «حادة وتهديدية». وطلب ترومان من اسرائيل ان تعوض العرب من الاراضي التي وقعت في يدها خارج حدود قرار التقسيم المؤرخ في **٢٩** تشرين الثاني/نوفمبر [**١٩٤٧**]. قال بن ــ غوريون: «ان الدولة لم تقم بفضل قرار الامم المتحدة. فلا اميركا ولا دولة اخرى نفذت القرارات، او منعت الدول العربية (وحكومة الانتداب) من اعلان حرب الابادة علينا، متذرعة بقرارات الامم المتحدة. لم تحرك أميركا ساكنا لانقاذنا، بل فرضت حظرا على السلاح، ولو تعرضنا للابادة لما انقذونا. ان تلك الحدود التي اقرتها الامم المتحدة كانت قائمة على ترتيب سلمي ومنطوق القانون الدولي بموافقة العرب، والعرب رفضوا. لا وجود للاجئين، هناك مقاتلون أرادوا اقتلاعنا من الجذور. لقد اتت الدول العربية بناء على طلبها، وهي ترفض حتى الآن توقيع السلام والاعتراف بنا، وتهدد علنا بالانتقام. أنعيد اللاجئين كي يبيدونا مرة اخرى، ام نطلب الشفقة من اميركا كي ترسل لنا جيشا يدافع عنا؟ ان اميركا قوية، ونحن شعب صغير لا حول له. لن نقف في وجه القوة الاميركية، لكن الحفاظ على وجودنا يتقدم على اطاعتها. لذلك لا نفهم لماذا التأديب ولغة التهديد.»(١٢٩)

في مكان آخر من هذه الأحاديث، برزت ايضا الجملة التالية التي ستستغلها اسرائيل مرات لا حصر لها: «ان القانون الدولي لا يفرض علينا الانتحار.»(١٣٠) *

ومع الوقت، كان هناك من عزا الى بن ــ غوريون نية التخلي عن السلام من اجل المحافظة على التوتر المطلوب لتوحيد المجتمع الاسرائيلي وبلورته، واستمرار سلطة ماباي.

* عندما كانت مفاوضات لوزان في ذروتها اتُهم مندوب الولايات المتحدة في اسرائيل بأنه لا يستخدم كل نفوذه في البلد من اجل تطوير مواقف «الادارة الاميركية». كان جيمس مكدونالد، المندوب السابق لشؤون اللاجئين في جنيف، يعتبر صديقا كبيرا لاسرائيل. ولقد ترك الرئيس ترومان لوزير خارجيته حسم مسألة ما اذا كان يجب تأنيب مكدونالد.(١٣١) وفي احد ايام الصيف، غادر إلياهو ساسون لوزان متوجها الى باريس كي يجتمع الى مكدونالد، الذي كان هناك في طريق عودته من تل ابيب الى واشنطن. وكتب، فيما بعد، الى شاريت: «لا اعرف ما اذا كان الجهد مجديا، لكني اعترفت له بفضله الاكبر.» وبحسب كلامه، فلقد وجد الدبلوماسي الاميركي في حالة اكتئاب، «وعبر عن تخوفه من ان مكانته في البيت الابيض، ولا سيما في وزارة الخارجية، متداعية لأنهم يستخدمونه كمراسل، فلا يستشيرونه قبل وضع السياسة. وسيحاول في اثناء وجوده بواشنطن ان يستوضح مدى فائدة مواصلة مهمته.»(١٣٢)

وكان هناك من اتهم اسرائيل بأنها أضاعت الفرصة للسلام. غير ان المحاضر التي سُجلت في الجلسات المغلقة، والبرقيات السرية التي تبادلها قادة الحكم، وحتى مذكرات بن ـ غوريون، تعكس رغبة صادقة في التوصل الى اتفاق، لكن ليس بأي ثمن. فقد ابرق الدبلوماسي ايتان الى وزير الخارجية شاريت، بعد فترة قصيرة من بدء المفاوضات مع مصر: «ارجو اعلامي بمدى الاهمية السياسية التي تعلقها على انهاء المفاوضات بنجاح»، فلم يكن هذا الامر بديهيا.(١٣٣) وفي اثناء المفاوضات بشأن اتفاقات الهدنة، وفي اجتماعات لوزان، ركز مندوبو اسرائيل على الثمن. وفاوضوا بتصلب. تورطوا مرة تلو الاخرى في المساومة في بعض التفاصيل، الى حد ان التفاصيل كانت تبدو لهم موازية لقيمة الاتفاق نفسه. وفقدوا مرة تلو الاخرى الرؤية الشاملة، ولم يميزوا بين الجوهر والثانوي. وأرادوا ان يستخلصوا من المحادثات مزايا اقليمية وضمانات امنية: هضبة هنا، وطريقا هناك. أما وقف القتال فلم يحظ باهتمامهم بحد ذاته. وقد علق بن ـ غوريون: «لم تعطنا الهدنة مع لبنان شيئا، بل على العكس اعطت لبنان.»(١٣٤) غير ان إلياهو ساسون كان الوحيد الذي تمسك، خلال تلك المحادثات، باستغلال الفرصة لوضع اساس للتعايش العربي ـ اليهودي في المدى الطويل. وذكر في احدى المناقشات السياسية ان امام الدولة طريقين مفتوحين: «ففي الامكان مواصلة نشاطنا العسكري بحيث نصد المصريين من جهة، وشرق الاردن من جهة ثانية، والعراق من جهة ثالثة، والسوريين من جهة رابعة، ونحصن حدودنا ونقول اننا (...) دولة غربية تتنازل عن اية صلة لها بالشرق. فنحن لا نريد علاقة اقتصادية او سياسية بالشرق، ونتحصن داخل حدودنا. هذا هو الطريق الأول.» وكان ساسون يعتقد ان هذا ليس الطريق الصحيح. ففي رأيه ان على اسرائيل ان تنخرط في العالم العربي، وأن تربطه بها.(١٣٥) وعندما وصل ساسون الى رودس، في الايام الاخيرة للمفاوضات مع مصر، ساهم كثيرا في انجاحها عبر محادثات غير رسمية أجراها مع المصريين، مشيعا حوله جوا من الثقة والصداقة والاعتدال والارتياح. وحذر من ان يثقل التصلب الذي اظهره زملاؤه على استمرار العلاقات بين اسرائيل ومصر. وكتب الى شاريت في احدى برقياته طالبا رحابة الصدر: «لقد كرر المصريون تأكيدهم انهم يرون في الهدنة خطوة واحدة فقط نحو المستقبل. فالمطلوب منك ومن بن ـ غوريون ان تنصرفا بكل ما اوتيتما من قوة لمعالجة شؤون السلام، كما كرستما نفسيكما لشؤون الدفاع.»(١٣٦) غير ان أحدا منهما لم يستجب له، اذ لم يكن يعتبر رجلا عمليا.(١٣٧)

كان الثمن الذي طلبه العرب غاليا جدا. فلقد تحدثوا عن النقب، وعن اعادة اللاجئين. ومن الجائز، طبعا، ان مقترحاتهم لم تكن تنطوي على شيء فعلي، لكن من المحتمل انها لم تكن سوى نقطة انطلاق وأساس للمساومة في المفاوضات، بحسب ما هو متعارف عليه بين الدول. وسواء أكان هذا ام ذاك، فلقد تحدد موقف اسرائيل استنادا

الى افتراضات لم تتحقق، اذ كان في الامكان معرفة ذلك بصورة مسبقة بالنسبة الى قسم منها على الاقل.

انطلق بن ـ غوريون من فرضية ان الزمن يعمل لمصلحة اسرائيل. فاذا ما استطاعت اسرائيل الصمود وتعزيز قوتها وبناء قوة رادعة، فستضطر الدول العربية عندها الى الاعتراف بوجودها وبحدود الهدنة. ومع مرور الوقت سيوطن اللاجئون داخل أراضيها، وتختفي بذلك اسباب النزاع من تلقاء نفسها. كان هذا خطأ! لأن خطوط الهدنة كانت في نظر العرب خطوط استسلام، وبالتالي لم يكن في استطاعتهم ان يوافقوا على جعلها خطوط سلام. فكلما شعر الفلسطينيون بأنه تم التخلي عنهم، وكلما طال نفيهم تعزز لديهم الوعي القومي، وضعف الامل بتوطينهم في الدول العربية. وهناك من حذر بن ـ غوريون بأن هذا ما سيحدث. غير انه تجاهل تحذيرهم، ولم يأخذ في الاعتبار القوة التي توحد الناس في المنفى، وحنينهم الى الوطن. وظن بن ـ غوريون ان الطريق الصحيح هو العمل لاتفاق مع مصر، اكبر الدول العربية. ومع ذلك، فقد راهن على ملك الاردن. وهذا ايضا كان خطأ، لأن الاتفاق الذي فرضته اسرائيل على عبدالله كان مهينا الى درجة ان الملك طلب اخفاء تفاصيله عن وزراء حكومته. وكلما كان يهان كانت مصر ترى صعوبة التوصل الى تسوية مع اسرائيل. لكن، وبكلمات اخرى، كان ثمن السلام يرتفع طوال الوقت، ولم يكن الزمن اذن في مصلحة اسرائيل.

والسؤال عما اذا كانت الحكومة مستعدة لأن تظهر المزيد من التساهل، فيما لو عرفت ان تصلبها يضع الاساس لعداء جيل، وحتى لعداء أبدي بين اسرائيل والشعوب العربية، يجاب عنه ربما بلا. لأنه كان الى جانب البراغماتية العقلانية التي حركت حكومة بن ـ غوريون غربة وشك وعداء وخوف، فرضت غشاوة على الرؤية العقلانية داخل الحكومة والجمهور. واضطرت الحكومة الى اخذ الجمهور بعين الاعتبار. وكانت طوال الوقت عرضة لانتقادات صاخبة وضاغطة، فهاجمها الناطقون باسم المعارضة من اليمين واليسار، ووصموها بالتساهل والانهزامية. وسُمع داخل ماباي ايضا مثل هذه الاصوات. وتخلل السنوات الخمس السابقة أحداث الكارثة النازية، والارهاب العربي، والقمع البريطاني. وعمّقت حرب الاستقلال، الى حد بعيد، العداء بين الشعوب. واعتبرت حرب وجود لا خيار فيها، وتحولت الى حرب انتصار وسيطرة. وشجع هذا كله التصلب لا التساهل. وغالبا ما وجدت الحكومة نفسها امام مزاج شعبي اشد تطرفا من المزاج الذي كان سائدا بين وزرائها. ولم يكن في امكانها تجاهل ذلك. وحتى داخل الحكم، كان هناك من فكّر وتحدث كمنتصر، اذ ألهب الانتصار خيالهم. ومما قاله دافيد هوروفيتس (موظف في وزارة المالية، وحاكم مصرف اسرائيل لاحقا): «ان استقرار (الملك عبدالله) سيتوقف علينا الى حد بعيد، (لأنه) ضعيف ومتخلف. والكل هناك

من طينة واحدة. فمستوى المعيشة متدن، ولا وجود للأحزاب او الديمقراطية، لا وجود لأي شيء. وهذا ناجم عن كونهم (الاردنيون) يعيشون مرحلة ما قبل الرأسمالية. وفي مقابل ذلك، اذا قيض لنا مضاعفة حجم اليیشوف * ثلاث مرات، خلال بضع سنوات، فسيصبح دخلنا القومي موازيا للدخل القومي للدول العربية مجتمعة، وسنصبح بلدا صناعيا (...) فالوقت يعمل في مصلحتنا. وبعد خمس سنوات، سنصبح قوة هائلة في هذه المنطقة كلها، وسيكون في امكاننا بسهولة استيعاب مليوني نسمة. وسنصبح قوة اقتصادية واجتماعية وعسكرية. وسنكون العامل الوظيفي الذي يقع عليه تطور هذا الوسط. ومع مرور الوقت سنصبح المحور، والنقطة المركزية لهذه الامور كافة (...) وسيصبح عبدالله معتمدا علينا اكثر من اي شخص آخر. (...).» وقد ايد هوروفيتس ضم الضفة الغربية الى الاردن، لأن من شأن ذلك ان يثقل على اقتصاده، ويصبح نتيجة ذلك مرتبطا باسرائيل لتسويق منتوجه الزراعي. وبهذه الطريقة سوف يرتبط باسرائيل من الناحية السياسية أيضا. وحذر يغئيل يادين من ضم مناطق استراتيجية الى مملكة الاردن، غير ان هوروفيتس فكر بمفاهيم اخرى: «من المعروف في الدول الحديثة ان الطاقة العسكرية هي عامل وظيفي للصناعة وللعنصر البشري. ورجالنا يتمتعون بمستوى ثقافي ـ خلقي مختلف تماما، وسوف ننمو بوتيرة سريعة نتيجة الهجرة. وحتى لو حدث في الدول العربية تطور حثيث ومذهل، فهي لن تستطيع اللحاق بنا (...).» وسأل بن ـ غوريون: «ومن اين سنأتي باليهود؟» فأجاب هوروفيتس: «في حال حدوث تطور فسيأتي اليهود من دول عديدة، حتى من الولايات المتحدة.»(١٣٨) وبعد مرور فترة من الزمن، اقترح هوروفيتس رشوة الزعماء العرب بالمال، كي يتخذوا مواقف مريحة لاسرائيل.(١٣٩) وسأل يغئيل يادين كما لو كان يحضر مؤتمر فرساي: «أيجب ان نتنازل لهم عن ديون الحرب؟» واقترح، كاستراتيجية للمدى الطويل، اثارة النزاعات بين الدول العربية: «في استطاعتنا ان نستخدم الاسلوب المعروف: فرّق تسد. وأظن اننا سنحصل على نتائج جيدة.»(١٤٠) **

وفي موازاة المداولات السياسية، كانوا يكثرون من البحث في العمليات العسكرية. قال يادين: «ان حدود الدولة (مع الاردن) يجب ان تكون على السلسلة الاولى للجبال. ومن دون ذلك، لا مجال للحديث عن حدود معقولة. واذا كان من غير الممكن تحقيق ذلك بالمفاوضات عبر طرح واضح للمسألة، فيجب تحقيقه من الناحية العسكرية. ولقد بدأ الوقت لتحقيق

---

* السكان اليهود في فلسطين قبل قيام اسرائيل. (المحرر)

** كان يادين، من وقت الى آخر، يعمل فكره في مسألة كيفية تحضير الجيش الاسرائيلي في حال نشوب حرب عالمية ثالثة. حتى ان بن ـ غوريون اشغل يادين بهذا الامر: «قلت له ان علينا في الوقت الراهن ان نعمل انطلاقا من الافتراض بأن هناك خطرا عربيا فقط.»(١٤١)

ذلك بالاقتراب.»(١٤٢) في شهر آذار/مارس، كتب بن ـ غوريون الى هيئة المستعمرات في وادي الاردن: «لم ننس طبعا القصر وقرية سمرا* ، ونحن نطالب بتحريرهما في مفاوضاتنا السياسية (...) واذا لم ننجح في تحرير هذه الاماكن بالطرق السلمية فسنحررها بطرق اخرى.»(١٤٣) وفي نيسان/ابريل، قال رئيس الحكومة: «هناك وسيلة ضغط واحدة: اذا رفضت سورية توقيع الهدنة بحسب الخط الدولي، فسنضطر الى تحقيق ذلك بقوانا الذاتية.»(١٤٤) وبعد مرور ستة اسابيع، اقترح دايان احتلال جبل المكبر.(١٤٥) ان الخيار العسكري الذي مثل امامهم طوال الوقت منحهم شعورا بأن لا سبب يدفعهم الى السرعة. حتى ان ساسون قال لبن ـ غوريون ان لا خوف من مبادرة عربية لاستئناف الحرب خلال السنوات المقبلة، حتى لو لم يكن هناك سلام.(١٤٦) وكلما اعتقدوا انهم قادرون على تحقيق أهداف الدولة «بطرائق اخرى» كانوا اقل جنوحا نحو التساهل. ولم يقترح احد من المشاركين في تلك المداولات، على الاطلاق، التفكير فيما يمكن التنازل عنه لقاء اتفاق سلام. ففي تلك الاشهر، اكثر مندوبو اسرائيل من الاجتماع الى مندوبين عرب، وقال العرب انهم يريدون السلام. وتطفح ملفات وزارة الخارجية ومذكرات رئيس الحكومة بتقارير تفصيلية عن هذا الموضوع. ان مجرد الاتصال بالعرب لم يعتبر اذن انجازا: لم يعتقد بن ـ غوريون انه خسر شيئا عندما رفض الاجتماع الى حاكم سورية؛ اذ كان يفترض ان المستقبل سيحمل له فرصا اخرى كهذه. وما لبثت ان تبلورت مدرسة فكرية في وزارة الخارجية، اعتقدت ان السلام غير مجد. وروى وزير الخارجية، شاريت، لأعضاء كتلة ماباي في الكنيست ان ثمة اشخاصا «في اسرة وزارة الخارجية يتمتعون بتفكير اصيل، وهم يساهمون مساهمة مهمة في تكوين التفكير الجماعي في الوزارة. ويميلون نحو الاكتفاء باتفاقات الهدنة، وفي الوقت ذاته (يطلبون) التوقف عن الادلاء بتصريحات عن رغبتنا في السلام، الامر الذي يفسره العالم العربي بأنه علامة ضعف واستعداد للرضوخ. بل علينا ان نقول عكس ذلك. لا حاجة بنا الى السلام. يكفينا هذه الاتفاقات (الهدنة)، لكن ربما يكون السلام ضروريا للعرب..» ثم استرسل شاريت في شرح مسهب للأسباب التي تجعل اسرائيل غير قادرة على البقاء في «عزلة شديدة» الى ما لانهاية، وشرح الفائدة التي ستجنيها من السلام في مجال السياحة والتجارة، بما في ذلك استخدام قناة السويس وما شابه. لكنه قال ايضا: «انني موافق تماما على انه ينبغي لنا، من الناحية التكتية، التوقف عن الادلاء بتصريحات في شأن تطلعنا الى السلام ورغبتنا فيه (...) لسنا مضطرين الى تكرار (هذا الشعار) يوميا، كاليهودي الذي يردد: ما اسعد الذين يقيمون في بيتك (...).»(١٤٧)

---

* قرية عربية تقع على شاطىء بحيرة طبرية الشرقي، دمرها الصهيونيون سنة ١٩٤٨، وأقاموا في ظاهرها مستعمرة «هاؤون». (المحرر)

قال بن ـ غوريون لمراسل «التايمز» اللندنية: «مع انني مستعد للنهوض في منتصف الليل لتوقيع (معاهدة) السلام، غير انني لست مستعجلا، وأنا مستعد للانتظار عشر سنوات. فليس هناك ما يضغط علينا.»(١٤٨)

في ٩ كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٩، قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة ان تصبح القدس «هيئة منفصلة» مستقلة، تقوم فيها سلطة دولية. واتخذ القرار بأغلبية كبيرة. وقد تطلب قرار الجمعية العامة ردا، فاقترح بن ـ غوريون على الحكومة نقل الكنيست من تل ابيب الى القدس، للتدليل بذلك على ان القدس جزء لا يتجزأ من دولة اسرائيل. وتم قبول اقتراحه. وقد عارض القرار وزيران فقط من الحكومة: موشيه شابيرا، زعيم حزب هابوعيل همزراحي ووزير الداخلية والهجرة؛ وأليعيزر كابلان، وزير المالية وأحد قادة ماباي؛ وكلاهما معتدل في نظرته السياسية. وأصبح كابلان، فيما بعد، المتحدث الاساسي في النقاش الذي أجراه اعضاء ماباي في الكنيست قبل طرح قرار الحكومة للتصويت. وقال كابلان: «انني اعتبر مسألة نقل الكنيست الى القدس خطأ مميتا، فلا ضرورة لاستفزاز الامم المتحدة. بل جل ما نحتاج اليه هو زيادة البناء والصناعة في القدس. يجب ألا نقوم بأية خطوات استعراضية، وألا نأخذ على عاتقنا هذه المخاطرة.» وعلق المتحدثون جميعا، بمن فيهم بن ـ غوريون، أهمية كبيرة جدا على قرار الامم المتحدة، وافترضوا ان المنظمة الدولية ستحاول اقامة سلطتها في القدس على الرغم من معارضة اسرائيل، حتى انهم أدخلوا في حسابهم احتمال ان تنشىء الامم المتحدة لهذا الغرض جيشا دوليا ترسله لاحتلال المدينة. وقال بن ـ غوريون: «من الواضح لي انه اذا ما وصل الامر الى مواجهة قوات نتيجة ارسال الامم المتحدة قوة عسكرية، فاننا سنرضخ.» وفي الواقع كان يعتقد ان هذا الامر لن يحدث. أما امكان لجوء الامم المتحدة الى معاقبة اسرائيل وفرض عقوبات اقتصادية عليها، فقد بدا اكثر واقعية. قال احد اعضاء الكتلة: «يجب ألا ننسى ان لدينا خبزا لثلاثة اشهر فقط.» وعلق زميل له: «ان ابقاء القدس وحدها، حتى لو أرسلنا اليها التوجيهات والمياه، يولد أخطارا عديدة.» لقد شعروا بأنهم يواجهون قرار مصيريا حاسما: التخلي عن القدس، او النضال من اجلها. وثمة من قابل هذا الحسم الذي وقفوا أمامه بذلك الذي واجهته قيادة الييشوف قبيل اعلان استقلال الدولة. قالت غولدا مئير: «كانت نظرتي في اثناء كل هذه المناقشات هي الخوف الدائم. فلقد خفت دائما ان يحدث ما هو اسوأ اذا لم نقرر على هذا النحو.» أما بن ـ غوريون فقال: «لا اعرف بين زملائي من هو خائف مثلي. اعترف بأنني اتخوف من هذا القرار.»

وفي الواقع، ادعى بن ـ غوريون انه يتعاطى المسألة «من دون الانسياق وراء العاطفة.» وبحسب كلامه، «ليس هناك مصلحة سياسية اهم من دعم الامم المتحدة. ومن

مصلحتنا ان تكون الامم المتحدة اهم وأقوى. ان دعم الامم المتحدة هو دعم للسلام.» لكن اذا ما نجحت المنظمة الدولية في السيطرة على القدس، فستحاول ان تفرض على اسرائيل قرار التقسيم المؤرخ في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر. وأضاف بن ـ غوريون: «تماما كما ضغطت روسيا من اجل تدويل القدس، فستستغل اول فرصة لتضغط بشأن مسألة الحدود، وليست لدى الروس كراهية في هذه المسألة تجاه اسرائيل، وهم يعملون وفق مصلحتهم. فالاتحاد السوفياتي يريد دولة عربية في نصف ارض ـ اسرائيل، وهذا لا يمكن ان يكون في نابلس والخليل وحدهما. وستطالب روسيا بضم يافا والناصرة وعكا وغيرها. وستضغط على حدود ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧. وليس في ذلك اي خطر لو كان الروس وحدهم، لكن العرب في الفاتيكان سيؤيدونهم، وسيطالبون هم ايضا بالناصرة (...) وسنعود من جديد الى الاشكال نفسه.* ان الطريق التي أقترحها تشمل مخاطر اقل من اي طريق اخرى. ان وضعنا اليوم افضل كثيرا، والمعركة سياسية. لدينا حليفان جيدان: انكلترا وعبدالله. واذا خسرنا معركتنا من اجل القدس ووصلنا الى جولة ثانية بشأن الحدود، فثمة خطر اكبر، وحينئذ لن يظل عبدالله وانكلترا حليفين (...).» وحتى الاردن رفض تدويل القدس، مثل اسرائيل، وأيدت بريطانيا موقفه.

غرقت كتلة ماباي في جدال متواصل استمر جلستين. قال بنحاس لوفيانكر (لافون): «اعتقد ان القدس ـ بغض النظر عن قرار الامم المتحدة ـ هي المكان الاسوأ لعاصمة سياسية. واذا تحدثنا عن الامور بحد ذاتها، فاني اعتقد انه يمكن ان تقوم في القدس وزارات حكومية، لكن هناك وزارات اخرى من العبث نقلها الى القدس. ان نقل الكنيست امر غير معقول. لماذا ينبغي لي، في مسألة بهذه الخطورة، ان اتصرف انطلاقا من تعليلات استعراضية. هل نستطيع بذلك ان نهون على انفسنا، ام اننا نسهل النزاع بيننا وبين الامم المتحدة؟ ان نقل وزارة التموين والمالية الى القدس هو، في رأيي، ضرب من الجنون.»**

---

* قال بن ـ غوريون: «الناصرة مكان مولد المسيح» فأخطأ.

** بالنسبة الى النشيطين السياسيين في تل ابيب، كانت القدس مدينة نائية. وقد تذمر رئيس الكنيست يوسف شبرينتساك، الذي عارض نقل الكنيست الى القدس لاعتبارات سياسية ايضا، كثيرا من التنقلات على الطريق ومن المناخ، ومن صعوبة ايجاد اماكن سكن ملائمة لأعضاء الكنيست في المدينة. كما احتج على قاعة اجتماعات الوكالة اليهودية التي اقترحت لاستضافة الكنيست حتى يجد مقرا دائما له. فالمسألة كلها كانت تبدو له ازعاجا لا يمكن احتماله. قال شبرينتساك امام ادارة الكتلة (كتلة ماباي): «لقد كونت انطباعا سيئا؛ لم ار الرقص والفرح كما كتبت الصحف، بل الذعر والخوف. فقد رافق ترتيبات الانتقال الى القدس صعوبات كثيرة. كان يحدث هذا كله في الشتاء.» وقال لو سألوه رأيه لنصحهم بالانتظار سنة او سنتين حتى يكوّن الكنيست «مناخا ملائما» في تل ابيب.(١٤٩) وقبل ان يتقرر وضع الكنيست في بيت =

واضطر بن ــ غوريون الى الكلام اكثر من مرة، حتى اقتنع اعضاء كتلته بوجهة نظره. وحاول كثيرا ان يزرع في اذهان زملائه خطورة القضية، فقال: «في اللحظة التي يخرجون القدس من سلطة دولة اسرائيل سوف تهلك وستقع الحرب.» وكان الاستنتاج: «ينبغي لنا ان نتحدى الامم المتحدة.» وفي نهاية الامر نجح في تمرير موقفه، فاقترع الى جانبه ٢٤ عضوا وعارضه ١٢، سواء بالامتناع عن التصويت او تأييد مقترحات اخرى.[١٥١] *

بعد مرور بضعة ايام، كتب بن ــ غوريون في مذكراته: «خلال السنوات الثلاث الاخيرة، واجهت مرارا قرارات صعبة ومريرة ومصيرية. لا أعرف ما اذا واجهت قرارا اصعب من عصيان الامم المتحدة ومواجهة العالم الكاثوليكي والسوفياتي والعربي (. . .).»[١٥٤] وقبيل نهاية الاسبوع، تلقى بن ــ غوريون برقية من موشيه شاريت الذي كان طوال هذا الوقت في نيويورك. لم يوافق وزير الخارجية على قرار نقل الكنيست الى القدس. وعندما قرروا ما قرروه، وذلك بعكس موقفه، استقال من منصبه. وكتب الى رئيس الحكومة في برقيته معللا موقفه: «لم ار مسبقا التحول الدولي الخطر الذي طرأ على قضية القدس، لقد رفضت الحكومة والاحزاب خطي السياسي بعد قرار الجمعية العامة. وفي المعركة الضارية التي تنتظرنا، اخشى ألا استطيع الدفاع بفعالية واقتناع عن الخط الذي تقرر.» وطلب بن ــ غوريون ان يقال له [شاريت] انه «لا يجوز للذين حققوا يوم ١٤

= فرومين، تم البحث في مسألة وضعه في دار المعلمين في بيت هاكيرم، وفي مقر مصرف ليئومي، وفي كنيس يشيرون، وفي سينما «اديسون» و «ركس» و «سمدر».[١٥٠]

* بين الذين أيدوا بن ــ غوريون: غولدا مئير، وليفي اشكول، ودافيد ريمز، ودوف يوسف، وشموئيل دايان، ويتسحاق بن تسفي، ودافيد هاكوهين، ويزهار سميلانسكي. والكلام الذي قاله بن ــ غوريون لأعضاء كتلته كان مختلفا جدا، في لهجته، عن الكلام الذي ادلى به من منصة الكنيست. ففي الكتلة تحدث عن «الواقعية السياسية» من دون عواطف. ولم يكن ظاهرا في كلامه ان القدس عزيزة عليه بسبب قدسيتها ومكانتها في تاريخ الشعب اليهودي. أما في قاعة الكنيست، فقد توجه بن ــ غوريون نحو التصور القومي. وهذا ما فعله ايضا قبل اسبوع، قبيل اتخاذ القرار في الجمعية العامة.[١٥٢] ولقد اضطر رئيس الحكومة الى مقارعة لجنة الخارجية والامن في الكنيست ايضا، قبل ان يتمكن من طرح قراره لينال موافقة الكنيست. وعارض أعضاء مابام في اللجنة القرار، وسألوه لماذا هذا الاندفاع في استفزاز الامم المتحدة. لكن اضطرارهم الى تأييد قرار الحكومة كان بمثابة مفاجأة سارة لبن ــ غوريون: «طالب بيغن طبعا بمناقشة سياسة الحكومة، وطلب حجب الثقة عنها (. . .) وبدلا من النقاش اقترحت بيانات كتل. وتمت الموافقة على ذلك. غير ان بيغن لم يف بكلمته، وبدلا من إلقاء بيان ألقى خطابا كريها يبعث على الضجر.»[١٥٣] وفي اثناء جلسة كتلة ماباي، برز رأي مفاده انه اذا لم تقترح الكتلة نقل الكنيست الى القدس فسيأتي الاقتراح من «حيروت»، وستجد ماباي صعوبة في التصويت ضده لأنها ستظهر انهزامية. لذلك اعتقدوا ان من الافضل ان تأتي المبادرة منهم.

ايار/مايو» ــ وهو يوم اعلان الاستقلال ــ «ان يتفرقوا.» وخلال ٢٤ ساعة، رد شاريت على زعيمه باقتضاب: «موافق على حكمك.»[١٥٥]

الفصل الثاني

وجهاً لوجه

لم تعد العلاقات بين اليهود والعرب علاقات مواجهة بين دول، بعد توقيع اتفاقات الهدنة وفشل محادثات لوزان بوقت قصير؛ فالجيوش توقفت عن القتال، والدبلوماسيون كفّوا عن الكلام. وانحصر النزاع العربي ــ الاسرائيلي، آنذاك، في التقاء الناس وجها لوجه، في دولة واحدة. هؤلاء غالبون وأولئك مغلوبون. كان ذلك لقاء صعبا: مزيجا من القسوة والرأفة، من الاستبداد والاحسان، من الظلم والارتياب والخوف. لكن كانت هنا وهناك نيات طيبة، وشيء من الخجل ايضا. وعندما افتتحت الجلسة الاولى للكنيست الاول، كان بين أعضائه المائة والعشرين ثلاثة من العرب؛ فقد سمح لعرب اسرائيل بالاقتراع، وبالترشيح للانتخابات. وظهر احد أعضاء الكنيست العرب في قاعة الجلسة الملتئمة وهو يعتمر الطربوش، بينما لف الثاني رأسه بالكوفية والعقال. واعتبر يوسف فايتس، المسؤول في الكيرين كاييمت (الصندوق القومي)، والذي كان من المدعوين، ذلك اهانة لاذعة وكتب في مذكراته في وقت لاحق، يقول ان «الصقيع غمر القلب، والغضب غمر النفس»، وتساءل عما فعله اعضاء الكنيست العرب عندما أقسموا يمين الولاء للدولة: «أوليس ذلك هو التملق والكذب؟ كلا. في اي حال، لم اكن اريد ان يتكاثروا. ربما ينخرطون في حياة الدولة، لكن ستمر اجيال قبل ان يصبحوا مخلصين لها.»(١) وكان هذا رأي الكثيرين؛ فقد همس يغئيل يادين في اذن بن ــ غوريون: «ان الاقلية العربية تشكل خطرا على الدولة، في ايام السلم كما في ايام الحرب.» وأصدر بن ــ غوريون أمرا يقضي بانشاء حكم عسكري، قيّد حقوق العرب وحرياتهم.(٢) وحذر عضو الكنيست توفيق طوبي، وهو شيوعي عربي من مواليد حيفا، قائلا: «ان حرمان اقلية وطنية من الديمقراطية والحرية يؤدي الى حرمان سكان الدولة جميعا منها؛ اذ لا يمكن تجزئة الديمقراطية والحرية.»(٣) واتضح ان ذلك ممكن.

في اعقاب قرار الامم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧، بتقسيم ارض ــ اسرائيل [فلسطين] وانشاء دولتين فيها، واحدة لليهود وأخرى للعرب، باشر حزب عمال اسرائيل [ماباي] إعداد انظمة الحياة العامة في الدولة اليهودية. وفي غضون ذلك،

ألّف مابای سلسلة من اللجان، انيطت باحداها مهمة توضيح العلاقات بالعامل العربي.(٤) وبعد ايام معدودة من ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر، اجتمعت اللجنة، وكان الافتراض الذي توصل اليه اعضاؤها هو ان البلد سيقسم بحسب المشروع، وستعيش الدولتان اليهودية والعربية في سلام جنبا الى جنب، وسيرتبط نظاماهما الاقتصاديان احدهما بالآخر. وأشار أعضاء اللجنة الى سلسلة من المشكلات، لكنهم كانوا متفائلين في نهاية الامر؛ فافترضوا ان تكون الاشهر القادمة عصيبة، وقال الأمين العام للهستدروت، بنحاس لافون: «يمكن لهذه السنة ان تكون سنة نضطر فيها نحن، كما يضطرون هم فيها، الى نبذ كل ما تراكم خلال عشرات السنين.» لكنهم كانوا واثقين من ان العرب سيسلمون بالوضع في نهاية الامر. واقترحوا، في تلك الاثناء، نشر الكراريس والبيانات لاقناع العرب بأن وضعهم سيتحسن مع قيام الدولة اليهودية. وكان التوجه الذي ساد تلك المناقشات توجها طبقيا ــ عماليا اكثر منه رسميا ــ صهيونيا: كان الهدف دمج العرب في مؤسسات الهستدروت، لتعزيز السلطة العمالية في البلد. ومن الامور التي اقترحت، التنازل في هذا السبيل عن مبدأ كانت تسترشد به قيادة الييشوف في حينه ويكاد يكون مقدسا، وهو مبدأ «العمل العبري». قالوا ان مئات الآلاف من المهاجرين اليهود سيتوافدون على البلد مع قيام الدولة، وسيعمل جميعهم، وستكون سوق العمل ــ بطبيعة الحال ــ سوقا عبرية، ولن يبقى مانع من فتحها امام العرب أيضا.* وقال لافون: «سنفترض اننا سننجح، في المرحلة الانتقالية، في ربط العمال العرب بالخدمة الاجتماعية للدولة اليهودية، وفي انشاء التنظيم الموحد للعاملين في المصالح الحكومية والبلدية، وفي السيطرة على مسألة تقسيم العمل عن طريق المكتب [مكتب العمل]، حكوميا كان ام بلديا ام اقليميا. اننا نوجد بذلك ثلاثة مراكز للاتصال الدائم والايجابي، بين العمال اليهود والعمال العرب. وتنشأ من هذه المراكز الثلاثة ارضية الاتصال اليومي، وسوف تتطور وترتقي ارضية المصلحة المشتركة وتضع الاساس لامكان التوصل، بعد مرحلة معينة، الى انشاء التنظيم المشترك للعمال اليهود والعرب.»

وفكر المشاركون في المناقشة، ايضا، في الناحية القومية للعلاقات بالعرب. وكانوا يأملون بأن ينجحوا في استمالة العرب من الطرف اليميني المناهض للصهيونية، ومن الطرف اليساري المناهض لها ايضا، الى وسط اشتراكي ــ ديمقراطي يكون مهتما بالتعاون مع الدولة والهستدروت ومابای. لذلك، قرروا تأهيل التنظيم العمالي العربي الذي كان ينشط منذ ما يزيد على عشر سنوات برعاية الهستدروت، وكان يحمل اسم «حلف عمال اسرائيل».**

* افترض لافون، حقا، ان اجر الحد الادنى للعامل العربي سيكون اقل من الاجر الذي يتقاضاه العامل اليهودي، لكنه اكد ضرورة ان يكون «قريبا جدا منه».

** اقيم الحلف بموجب قرار مؤتمر الهستدروت السنوي الثالث في سنة ١٩٢٧. وكان من المفترض ان يكون =

عبّر كل ذلك، اذن، عن التوجه نحو ربط العرب بحياة الدولة اليهودية. قال لافون: «لا شك في انه سيكون للدولة جيشها، ولن نسير في اي حال، على صعيد الجيش، في اتجاه اقامة جيشين على اساس قومي، فالجيش سيكون واحدا. ويبدو لي ان الجيش لن يكون مصدرا لفرص العمل فحسب بل سيكون ايضا عنصرا من العناصر القوية لحفز التطور الثوري الايجابي، اذا فهم هذا الجيش ما يفهمه كل جيش: انه ليس أداة لتأهيل الجنود فنيا فحسب وانما ايضا أداة لتثقيف المواطنين، اي اذا فهم وظيفته السياسية في التربية الرسمية والاجتماعية.»* ورأى لافون، في ربط العرب بحياة الدولة، امتحانا للفكرة الصهيونية وللأخلاق اليهودية، فقال: «اننا سنواجه اول مرة تجربة العيش مع اقلية، وتقديم المثال والبرهان على قدرتنا على ذلك.» وفي غضون ذلك، فكر ايضا في العلاقات العامة لهذه الدولة، والصورة التي يكوّنها الغرباء عنها، وقال: «ستكون هذه الدولة من ناحية معينة بيتا من زجاج، وسيصور العالم كافة كل تثاؤب وكل فعل يصدر عنا، صغيرا كان ام كبيرا. وسيكون ما سنفعله او ما سنهمله أخبارا تنقل الى العالم كله، وسوف تترصدنا سبع وخمسون لجنة رقابة للوقوف على كل حركة وهمسة تصدر في هذه الدولة.» وكان لافون يؤمن بوجود فرصة لدمج العرب في الدولة كمواطنين متساوين في الحقوق، لكنه حذر: «علينا ان نتذكر ان التربية التي اعطيت لجمهورنا طوال السنوات العشر الاخيرة ــ وفي الاساس عبر الواقع اليهودي والعالمي ــ لم تكن تربية تؤهل بصورة اساسية ومعمقة قدرة العيش المشترك. ان جيل الصابرا يترعرع الآن في البلد بنزعته القومية البدائية الفظة، والطوائف الشرقية بنزعتها الانتقامية التاريخية والطبيعية، من سنوات الاستعباد والاضطهاد في البلاد العربية؛ تلك النزعة التي قد تستثار عندما يواجهون فجأة حقيقة اننا نحن الاسياد ونحن الحكام، وعندما يواجهون خطر

= «اتحادا لكل عمال اسرائيل، من دون تمييز قومي او عرقي»، ليكون قائما على وحدتين قوميتين مستقلتين. لكن نشاطه تقلص ليشمل بضعة آلاف من العمال العرب فقط، في ضوء العداء اليهودي ــ العربي وأحداث الثلاثينات الدامية.

وفي صيف سنة ١٩٤٩، تغير اسم التنظيم الى «حلف عمال اسرائيل»، وأقيم «صندوق الشغيلة والفلاحين العرب». وقد نشط الحلف حتى الستينات، عندما شرع الهستدروت أبوابه للعمال العرب ايضا.

* قامت لجنة اخرى ألفها ماباي لاعداد انظمة الحياة في الدولة، بمناقشة نظام التعليم. وقد اصر أعضاؤها على حق العرب في تعليم ابنائهم بلغتهم، لكنهم حذروا من فكرة اثارها بين امور اخرى دافيد بن ــ غوريون فيما يخص منح الجمهور العربي استقلالا ذاتيا تربويا. فقد حذر اعضاء لجنة شؤون التربية من ان يؤدي الاستقلال الذاتي الى قيام دولة مسلوخة. ولذلك أوصوا بربط التعليم العربي ــ من الناحية التنظيمية أيضا ــ بشبكة التعليم العام. وكان من المفترض ان يعين وزير التربية لنفسه ثلاثة نواب: اثنين من اليهود وواحدا من العرب.(٥)

الايتسل [المنظمة العسكرية القومية] والمعسكر التصحيحي [حركة جابوتنسكي] الذي لم يبق له من الناحية النظرية، علاوة على كرهه للطبقة العاملة، سوى جنون العظمة القومية، لأن من شأن الايتسل والمعسكر التصحيحي ان يتحولا، خلال فترة قصيرة، الى عنوان لفكرة جنون العظمة بأشكال مختلفة، كما رأينا ذلك بصورة خاصة لدى العديد من الاغيار، وعندما يواجهون اليسار عندنا الذي يحمل هو ايضا أخطارا لا تقل اهمية عن غيره، مثل خطر التشويه واللاعقلانية العاطفية وتلقي الاملاءات من الخارج بشأن تحديد العلاقات بيننا وبين العرب في البلد. ان كل هذا يتراكم ليكوّن صورة لأخطار حقيقية (...).»

خلال الاشهر التالية نشبت الحرب في البلد، وأُعلن استقلال الدولة بينما كانت الحرب على اشدها: هرب مئات الآلاف من العرب وطردوا من بيوتهم، وتكبد الجيش الاسرائيلي خسائر فادحة بين قتلى وجرحى، ومنيت كل عائلة تقريبا بمصاب. وفي ضوء هذا الواقع اصاب الوهن هدف دمج العرب، الذين بقوا، في البلد كمواطنين متساوين في الحقوق. ومرة اخرى، وفي ضوء عددهم الضئيل، لم تعد هناك ضرورة لدمجهم، وتعزز اتجاه عزلهم في مناطقهم كـ«طابور خامس». وكانت سياسة الحكومة الخاصة بالأقليات تتأرجح بين هدفي دمج العرب وعزلهم. لكن تلك السياسة لم تتحرك دائما بين هذين الهدفين بصورة عقلانية، لأنها كانت تعبيرا عن حاجات امنية ومصالح اقتصادية واعتبارات سياسية محددة، كما كانت ايضا تعبيرا عن حب الانتقام وعن الخوف الشديد. وكانت تغير اتجاهها من وقت الى آخر، فكانت مؤشرا الى صراع داخلي بين نهج «اليد اللينة» ونهج «اليد القوية»: الاول متفائل، والثاني متشائم. ورمز واقع ان ٦٠٠ ألف من العرب أصبحوا الآن خارج البلد اساسا للأمل، بينما أثار بقاء ١٠٠ ألف منهم على الاقل القلق. وفي احدى الجلسات قال يتسحاق بن تسفي: «يوجد في البلد عرب اكثر من اللزوم.» وكان بذلك يعبر عن احساس الكثيرين.*

---

* من تلك الجلسة لسكرتارية ماباي ايضا:

قال شلومو ليفي (عضو كنيست): «... يقلقني هذا العدد الكبير من العرب، اذ قد ينشأ وضع نكون فيه نحن الاقلية في دولة اسرائيل. ان تعداد العرب في البلد اليوم يبلغ ١٧٠ ألف نسمة، بينهم نحو ٢٢ ألفا من الاولاد في سن التعليم الالزامي. والتكاثر السكاني كبير ومتزايد وسط الجمهور العربي، خصوصا اذا توفرت لهم كل الظروف الاقتصادية التي ننوي توفيرها لهم: الخدمات الصحية، والتعليم، والمنافع الكبيرة. ان نسبة التكاثر هذه غير موجودة في اي بلد في العالم، وعلينا ان نفكر جيدا في هذا الخطر الذي يتهددنا. ان مثل هذا التكاثر يمكنه ان يفوق هجرتنا (...) وسنصل الى وضع لن تكون فيه قضايا اليهود هي التي تحدد سمة البلد، بل قضايا العرب (...).» وقال إلياهو هاكرملي (عضو كنيست): «(...) لست على استعداد للقبول ولو بعربي واحد، بل ولا بواحد من الاغيار. اريد ان تكون دولة اسرائيل كلها يهودية، لأبناء ابراهيم واسحق ويعقوب (...).» وقال يحيئيل دوفدفني (عضو كنيست): «(...)

ضمت الحكومة الانتقالية التي تألفت مع اعلان الاستقلال، واستمرت الى ما بعد انتخابات الكنيست الاول، وزارة لشؤون الاقليات برئاسة الوزير باخور شالوم شطريت. وقد صاغ شطريت، عشية اعلان الاستقلال، ورقة عمل اقترح فيها ان يناط بوزارته معالجة «شؤون العرب كافة»، بما في ذلك: الامن الداخلي، واخلاء اماكن سكن العرب وحكاية أملاكهم، واعادة العرب الى اماكن سكنهم التي هجروها بشروط سيحددها هو، وتزويدهم بالمواد الغذائية، و«رعاية حاجاتهم التربوية والاجتماعية»، واشراكهم في مؤسسات الحكومة واقتصاد الدولة «بحسب ما تسمح به الظروف»، وتشجيع مشاركتهم في قطاعات التجارة والاقتصاد كافة، وفي شؤون الدين والعبادة وحماية الاماكن المقدسة. وكان شطريت ينوي ان يشرك في عمل وزارته ممثلين عن وزارات اخرى. ووعد بالمحافظة على علاقة ثابتة بـ«وزارة شؤون الدفاع وقوات الامن»، لكنه اقترح في الاساس ان يكون بمثابة المندوب السامي للسكان العرب، وأن تكون وزارته بمثابة حكومة ضمن حكومة. كما عرض ان يتولى العناية بالأملاك المتروكة.[٧] وأكد شطريت، خلال ممارسة مهماته، ان وزارته مسؤولة عن «حماية مصالح العرب.»[٨]

ولد شطريت في طبرية، وكان شرطيا سابقا ثم قاضي صلح، وقد ضُم الى الحكومة لأن زعماء ماباي شعروا بأن عليهم اشراك وزير «سفارادي» فيها. وبصفته سافاراديا افترضوا انه الشخص الملائم لرعاية شؤون العرب. وقد بدا هذا الموضوع، في نظرهم، ذا قيمة ضئيلة، لكن ما لبث ان اتضح لهم انه موضوع ذو اهمية لا نظير لها ويجب ان يبقى في عهدة وزير صغير «ليس من جماعتنا»، فقد ارتابوا من نيات شطريت تجاه «حماية المصلحة العربية». * وفي غضون اشهر معدودة أُلغيت وزارة الاقليات، واضطر شطريت الى الاكتفاء بوزارة الشرطة. وتحولت صلاحية رعاية شؤون العرب الى موضوع تنافس بين هيئات وشخصيات مختلفة، اذ وعدت هذه الصلاحية أصحابها بقوة كبيرة. فسعت وزارة الخارجية للحصول عليها، كما سعى لذلك الجيش الاسرائيلي وجهاز الامن العام، وأدرجها بن – غوريون كلها في مذكراته: «... موشيه (شاريت) اقترح ان تكون ضمن دائرة رئيس الحكومة، علما بأن موشيه سيتدخل في الأمر (...).»[١٠] «... (يهوشواع) بالمون (احد مساعدي شطريت)

= لو كان لدينا امكان التوصل الى حل عن طريق نقل الـ ١٧٠ ألف عربي الموجودين في الدولة، الى مكان آخر، لقبلنا الأمر (...).» وقال دافيد هاكوهين (عضو كنيست): «(...) لم نكن نحن من دبر رحيل العرب. لقد كان رحيلهم معجزة من السماء (...).» وقال ز. أون: «(...) حتى ان منظر البلد اصبح اكثر جمالا. انني استمتع كثيرا عندما اسافر من تل ابيب الى حيفا ولا اصادف عربيا في الطريق.»[٦]

* ان ملفات وزارة الاقليات، والأقوال التي ادلى بها الوزير شطريت في جلسة الحكومة، تظهر فعلا هدف تنفيذ سياسة الحكومة ازاء الاقليات بيد لينة قدر الامكان.[٩]

وزالمان ليفشيتس يريدان تقليص الحكم العسكري (...).»[١١] «... عمانوئيل مور، الحاكم العسكري، يعتقد ان لا وجوب لالغاء الحكم العسكري (...).»[١٢] «ايسر (هارئيل، رئيس جهاز الامن)، حملته اعمال بالمون، التي تؤدي في رأيه الى افساد العلاقات بالعرب، على الاستقالة.»[١٣] وكان هناك بضع لجان وزارية تعاطت شؤون العرب، لكن بن – غوريون اتجه نحو تحديد سياسة الاقليات بنفسه. واستعان لهذا الغرض بفريق كبير من المساعدين والمستشارين، وبأسرة مكتب رئيس الحكومة، وجهاز الامن العام، والجيش الاسرائيلي. وألقيت على عاتق موشيه شاريت وأفراد وزارة الخارجية مهمة السعي لاضفاء سمات لائقة على سياسة الاقليات اكثر مما كان لها من قبل، وكُلف أليعيزر كابلان، وزير المالية، ووزارته رعاية الاملاك المتروكة.

وقبل أيام معدودة من اعلان الاستقلال، كتب بن – غوريون يقول: «هناك ضرورة لتحديد قانون المدينة المحتلة (او القرية). من الذي يحكم؟ القائد العسكري ام حاكم معين؟ ومن قبل من؟ ما هي صلاحياته ازاء الجيش، والسكان وأملاكهم؟ ما الذي يجوز لقادة الجيش مصادرته؟ (...) من هم الذين يعلنون ان هذه المنطقة او تلك منطقة عسكرية؟ وما هو وضعها القانوني؟ وما هي الأحكام التي ستصدر ضد اللصوص؟ هل يوجد تعويض من أملاك منهوبة؟ هل سيطرد العرب؟ والاسرى؟ ما هي الأحكام التي تنطبق على العرب الذين بقوا (...)؟ من يعنى بالمعوزين العرب؟ من يخصص لهم الاموال؟»[١٤] وفي ذلك اليوم طلب نائب رئيس الاركان، اللواء تسفي ايلون، تعليمات فيما يتعلق بتنظيم الحياة في يافا بعد احتلالها. فاقترح بن – غوريون الاهتمام، في الوقت الحاضر، بالاحتلال «لا بتنظيم الحكم»، لكنه كلفه في المقابل اعداد «مشروع قانون ونظام» لعرضه على وزير العدل روزين، والمستعربَيْن شطريت وجاد مكنس.[١٥] وبعد أيام معدودة من ارتكاب الفظائع، خلال عملية احتلال الرملة واللد، وقبيل احتلال الناصرة التي كان من المتوقع ان تستحوذ على اهتمام وسائل الاعلام في انحاء العالم كله، استدعى بن – غوريون أليميلخ زليكوفيتس، وهو «زليغ» آفنر، وكلفه اقامة حكم عسكري في مناطق الاحتلال كافة. *

كان اللواء آفنر آنذاك في الثانية والخمسين من العمر، وهو من مواليد روسيا. وقد خدم في صفوف الجيش التركي خلال الحرب العالمية الاولى، وفي احدى الكتائب العبرية في اطار

* لم يكن واضحا، خلال الاسابيع الاولى لقيام الحكم العسكري، ما اذا كان هذا الحكم يسري فقط على المناطق التي احتلت خارج تخوم [قرار] ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر، بما في ذلك اماكن الييشوف اليهودي، ام انه يسري ايضا داخل تخوم التقسيم. وفي غضون بضعة اشهر أُلغي الحكم العسكري في القدس ويافا واللد والرملة وفي اماكن اخرى، وأيضا في بعض اماكن الييشوف اليهودي و«في المناطق المحتفظ بها»، وظل معمولا به في مناطق السكان العرب ضمن تخوم التقسيم وخارجها.

الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية. وكان واحدا من أوائل قادة الهاغناه. لم يكن أقرانه يقدرون كفاءاته كقائد. واعترف بن ـ غوريون: «ربما كان متخلفا في هذه الناحية.»[١٦] ولم يكن لدى الجيش ميل الى التعاون مع حكم آفنر العسكري: لم يخصص له قوة بشرية ولا سيارة ضرورية. وحدث ايضا انه منع من مرافقة قوات الاحتلال للجم فلتان الجنود. وكتب بن ـ غوريون: «رفضوه عمدا في بئر السبع، ولم يسيطر الجيش على أفراده.»[١٧] وحاولت وزارات الحكومة، في البداية، الالتفاف على الحكم العسكري: «وكثيرا ما اشتكى آفنر على مسامع بن ـ غوريون من هذا الامر.»[١٨] وتوطد الحكم العسكري، وتوسع في غضون بضعة اشهر: فمع نهاية سنة ١٩٤٩ كان يستخدم ما يزيد على ألف شخص. وكتب بن ـ غوريون: «يعنى الحاكم العسكري بتسجيل السكان، ومراقبة تحركاتهم، والدفاع عن الارواح والأملاك (منع السلب والنهب ومعالجة الشكاوى ضد الجيش)، ومكافحة التسلل بواسطة عمليات التمشيط والتثبت من الهويات (...) وتكليف المخاتير الابلاغ عن المتسللين (...)، ومصادرة السلاح (...)، واخلاء القرى شبه المهجورة (...)، وتوزيع السلاح من اجل امن القرى (بحسب الطريقة الانكليزية: يؤدي عدد من الاشخاص قسم اليمين ويُعطون البنادق الحربية)، والاعتناء بالسكان: توفير المواد الغذائية والوقود (...) والمسائل الصحية (افتتاح مستوصفات) والمسائل التربوية (افتتاح نحو ٤٥ نواة مدرسية، تعليم نحو ٦٩٠٠ تلميذ بواسطة ١٦٣ معلما. ويتعلم الاولاد ذكورا واناثا معا حتى العاشرة من العمر) وتوفير المياه والاشغال (...) والمساعدات الاجتماعية، (...) وخدمات بلدية (...).»[١٩] ونفذ جزء من كل هذا على اساس موقت في اعقاب الاحتلال، لكن بن ـ غوريون اصدر بعد ثلاثة اشهر أمرا يقضي بأن ينظم الحكم العسكري كل اعمال الوزارات في أوساط السكان العرب.[٢٠] واعترض بعض وزراء الحكومة على ذلك، وألفت الحكومة لجنة للتحقيق في اعتراضهم، توصلت الى ان من المفضل، «لأسباب امنية وأخرى تتعلق بوضع العرب الاجتماعي»، اقامة حكم عسكري على ان يعهد اليه «التنسيق والتوجيه والاشراف» على عمل الوزارات المختلفة، «من النواحي السياسية والامنية والعامة.» وأوصت اللجنة بأن تعين وزارات الحكومة ضباطا للعناية بشؤون العرب، على ان يعملوا في اطار وزارة الداخلية وبواسطة المسؤولين عن الاقضية، فيكونون خاضعين كليا للحكام العسكريين الذين يحق لهم معارضة ترشيح «ضباط» لا يرضون عنهم. في اية حال، فان اللجنة قد قررت ان «السلطة في الشؤون العربية الصرف هي للحاكم العسكري.»[٢١] وحاولت وزارة الداخلية، مرة اخرى، خوض صراع من اجل صلاحياتها. وقال مدير دائرة الاقليات في الوزارة، ش. لندمن: «ان السكان العرب يعترفون بالحكم العسكري مرجعا حكوميا في شؤون القيادة والجيش والامن، لكنهم يرفضون التعاون

معه في الشؤون الادارية (...) ان ابناء الاقليات يرفضون بشدة ان يتعاطى ضابط من الجيش [شأن] تشكيل مجالس محلية او ان يتدخل في شؤون بلدية (خصوصا ان أفراد الحكم العسكري يتبدلون من وقت الى آخر). وانني واثق من ان كادرا مدنيا كان سيحول، في هذا المجال، دون انتقاد الحكومة والتحريض ضدها، الأمر الذي تستغله جهات معنية بالتحريض، وكان سيحقق الفائدة المرجوة من تنظيم الحياة العامة والجباية المنظمة للعائدات والضرائب. ويرى بعض الخبراء ان تولي الحكم العسكري معالجة الشؤون الادارية، مثل [اصدار] الرخص وتخطيط العمل وتنسيقه بين وزارات الحكومة ومهمات اخرى، لن يكون غير مفيد فحسب بل مضرا أيضا بمصالح الدولة من الناحيتين العامة والسياسية في آن.»[٢٢]

وقد رد يهوشواع بالمون، الذي كان في تلك الاثناء مستشار رئيس الحكومة في شؤون العرب، فقال: «انني موجود في مجالات الحكم العسكري اكثر من السيد لندمن، وفي رأيي ان العكس هو الصحيح. ان السكان العرب لا يشكون من العمل المدني للحكم العسكري، بل يعربون عن رضاهم عن ذلك. لكنهم، في المقابل، يشكون من القيود الناجمة عن القضايا الامنية (...) وترى جميع الوزارات الحكومية، مثل وزارة التقنين والتموين والزراعة والعمل وغيرها، ان عملها بات اكثر صعوبة مع وجود الحكم العسكري وتدخله في كل ما يجري على الارض. وينطبق الشيء ذاته، في رأيي، على كل ما يتعلق بالتدخل في المجالس المحلية بـ[اصدار] الرخص وتخطيط العمل وتنسيقه بين وزارات الحكومة.» وبحسب المستشار، فان عمل الحكم العسكري كان اكثر نجاعة من عمل وزارة الداخلية. كان ذلك صراعا بين قطاعين اداريين، وصراعا سياسيا للسيطرة التامة على حياة عشرات الآلاف من البشر، فقد توقع السياسيون ان من يتحكم في العرب سيتحكم في أصواتهم ايضا، وكان يفترض في الحكم العسكري ان يبقى على حاله لسنوات طويلة، وهكذا كان.[٢٣] *

ان القاعدة القانونية التي أتاحت اقامة الحكم العسكري انتقلت الى اسرائيل من سلطات الانتداب البريطاني على صورة اكثر من ١٥٠ نظاما من انظمة الدفاع في وقت الطوارىء لعام ١٩٤٥. وكانت هذه الانظمة قد استخدمت في الثلاثينات لقمع الثورة العربية، كما استخدمتها السلطات في الاربعينات لقمع الثورة العبرية. وقد احتج رجال

* في الاشهر التالية درست بنية الصلاحيات. وفي منتصف شهر أيار/مايو ١٩٥٠، كتب بن ـ غوريون الى رئيس الاركان يادين: «أوافق على اقتراح الاركان العامة بأن يكون الحكام العسكريون خاضعين لقادة الالوية بالنسبة الى كل امر عسكري. أما عملهم الاداري، في مجالات التربية والصحة وباقي الحاجات المدنية للسكان في منطقة الحكم العسكري، فيتم تنسيقه بواسطة ضابط اركان خاص (...) وتعمل وزارات الحكومة المدنية في منطقة الحكم العسكري من الآن فصاعدا عن طريق الحاكم العسكري فقط (...).»[٢٤]

القانون اليهود بشدة على هذه الانظمة في ذلك الحين. وقال الدكتور مناحم دونكلمان، الذي عين فيما بعد رئيسا للمحكمة العليا: «صحيح ان هذه الانظمة تشكل خطرا على الييشوف كله، لكننا كمحامين نوليها اهتماما خاصا؛ فالأمر ينطوي على انتهاك لمفاهيم اساسية في القانون والعدالة والقضاء. ان هذه الأنظمة تخول السلطات الادارية والعسكرية ممارسة الاستبداد المطلق. وهذا الاستبداد هو فوضى حتى لو كان حائزا على موافقة هيئة تشريعية (...).» وقال وزير العدل الدكتور برنارد جوزف (دوف يوسف فيما بعد): «السؤال هو ما اذا كنا سنتعرض كلنا للارهاب بموافقة رسمية (...) ليس هناك ما يضمن ألا يبقى مواطن أسيرا طوال حياته من دون ان يمثل أمام المحكمة. لا ضمانة لحرية الفرد، ولا اعتراض على اعمال القائد [العسكري]، ولا مراجعة لمحكمة العدل العليا (...) ان حرية الادارة في نفي مواطن في اية لحظة هي حرية بلا حدود. وبالاضافة الى كل هذا، لا حاجة بالانسان الى ان يقترف جرما بالفعل، بل يكفي ان تتخذ احدى الوزارات قرارا فيتقرر مصير هذا الانسان (...).» وقال يعقوب شمشمون شابيرا، مستشار الحكومة القضائي ووزير العدل فيما بعد: «ان النظام الذي انشىء مع نشر انظمة الدفاع في ارض ـ اسرائيل [فلسطين]، نظام لا مثيل له في اي بلد متحضر. وحتى في ألمانيا النازية لم تكن هناك قوانين مثلها، كما ان الاعمال التي ارتكبت في ميدانيك وأمثالها، كانت اعمالا مخالفة لحرفية القانون المكتوب. ان نظاما واحدا يمكنه ان يشبه ظروفا كهذه هو النظام السائد في بلد محتل. وهم يسعون فعلا لتطميننا بالقول ان هذه الانظمة تستهدف المجرمين فقط، وليست موجهة ضد المواطنين كمجموع. لكن الحاكم النازي في اوسلو المحتلة اعلن ان المواطن الذي يثابر على عمله لن يلحق به اي اذى (...) وعلينا ان نعلن على الملأ: ان انظمة الدفاع التي وضعتها حكومة ارض ـ اسرائيل [فلسطين] هي تدمير لأسس القضاء في البلد. والمحاكم العسكرية تتزين بلقب «محكمة» لكنها، في الواقع، ليست سوى لجان قضائية عسكرية تقدم المشورة للجنرال. وان نقل جزء كبير من القضاء المدني الى القضاء الحصري او ما يوازي المحاكم العسكرية، يعني الغاء القضاء نفسه (...).» وقرر مؤتمر المحامين ان الصلاحيات التي اعطيت للسلطات بموجب أنظمة الطوارىء تنكر على سكان اسرائيل حقوق الانسان الاساسية، وان هذه الانظمة تقوض اسس القانون والقضاء، وتشكل خطرا جسيما على حرية الفرد وحياته، وتفرض نظام حكم استبدادي من دون اية رقابة قضائية.(٢٥)

وقد تبنى الكنيست بعد قيام الدولة انظمة الدفاع الانتدابية، باستثناء تلك التي استخدمها البريطانيون لتقييد الهجرة [اليهودية]. لقد جعل الكنيست في غضون بضعة اشهر انظمة الدفاع البريطانية تكمل انظمة الطوارىء الاسرائيلية. وأتاح قانون الطوارىء الاساسي للحكم العسكري اغلاق مناطق السكان العرب، وتقييد حرية الخروج منها والدخول اليها،

وحصرها بحاملي التصاريح فقط. ومعنى ذلك ان يترتب على كل ساكن التوجه الى مكاتب الحكم العسكري او الى مركز الشرطة للتزود بتصريح كلما أراد الخروج من قريته لأي غرض كان: العمل، او معاملات تجارية، او معالجة طبية، او زيارة الاقرباء. وكان في استطاعة الجنود اصدار التصاريح المطلوبة او الامتناع عن ذلك، ولم يكن مطلوبا منهم تعليل رفضهم بأكثر من «اعتبارات امنية». وكانوا يلحظون في تصريح التنقل هدف السفر وأحيانا الطريق التي سيسلكها تحديدا، واليوم، وأحيانا الساعة بالضبط. وكان الحكم العسكري صارما جدا في مسألة التصاريح. وفي احيان متقاربة اعتادوا توقيف الباصات المسافرة على الطرق، وانزال الركاب العرب للتدقيق في تصاريح المرور التي يحملونها. ومنح النظام رقم ١٠٩ الحكم العسكري صلاحية نفي السكان من قراهم، وخوله النظام رقم ١١٠ اجبار اي كان على المثول امام مركز الشرطة في اي وقت من الاوقات وفي اي مكان يطلب منه، وارغامه ايضا على الاقامة الجبرية داخل بيته. كما اتاح له النظام رقم ١١١ توقيف اي شخص في قيد الاعتقال الاداري لفترة غير محدودة، من دون تفسير ومن دون محاكمة. أما الذين يخالفون أوامر الحكام العسكريين، فقد كانوا يمثلون امام محاكم عسكرية؛ ولم يكن لهؤلاء حق الاعتراض. وكان لضباط الحكم العسكري صلاحيات واسعة لفرض الغرامات والعقوبات المختلفة، حتى من دون محاكمة.*

وكان بين الجنود والضباط الذين انتدبوا لحكم العرب، من اعتبروا غير مؤهلين للخدمة العسكرية، إما لأنهم متقدمون في السن وإما لأنهم ذوو عاهات جسدية او جرحى. وكان بعضهم مشحونا بمشاعر الانتقام، في نهاية الحرب التي لم ترحم المدنيين ايضا.(٢٨) في كل حال، فانهم جميعا لم يتمرسوا بتنفيذ المهمات التي ألقاها الحكم العسكري على عاتقهم، كما انهم لم يخلصوا في مراعاة الانظمة الادارية السليمة: رافق الحكم العسكري منذ بدايته استبداد شديد. وروى باخور شالوم شطريت لأعضاء اللجنة الوزارية لشؤون الاملاك المتروكة قصة الحاكم العسكري الذي فرض حظر تجول على احدى القرى العربية، ومنع سكانها من الذهاب الى اعمالهم في موشاف زخارون يعقوب.** وعندما احتج مزارعو

---

* بعد مرور بضعة اشهر على قيام الدولة، رفض احد قضاة المحكمة الاقليمية في تل ابيب، شالوم كسان، اصدار حكم بموجب انظمة الطوارىء. وكتب يقول: «لا تأتوني طالبين ان افعل ذلك خلافا لما يمليه علي ضميري.»(٢٦) لكن رأيه بقي رأي اقلية. وكانت المحكمة العليا تميل الى تصديق ممثلي الحكم العسكري عندما كان هؤلاء يزعمون امامها بأن الاعتبارات الامنية هي التي تطلبت الأوامر التي أصدروها. ولم تكن هذه المحكمة تبدي ميلا الى الخوض في تفاصيل تلك الاعتبارات.(٢٧)

** مستعمرة أُقيمت على أراضي قرية «زمّارين» العربية، وتقع في القسم الشمالي من السهل الساحلي الفلسطيني. (المحرر)

الموشاف على ذلك، عرض عليهم رفع حظر التجول في مقابل ان يدفعوا ٨٥٠ مليما في اليوم عن كل عامل عربي: يحصل العامل على ٣٥٠ مليما منها، والحكم العسكري على ٥٠٠ مليم.(٢٩) وفسح تقنين المواد الغذائية والنقص فيها وتسويق المنتوجات الزراعية العربية باشراف الحكم العسكري، من دون مراقبة عامة حقيقية، المجال للفوضى وللمساس بطهارة الدولة ولأعمال الفساد. وأبلغ أليميلخ آفنر رئيس الحكومة:(٣٠) «هناك فساد». وورد من اماكن عديدة انه تم اخراج آلاف السكان من بيوتهم، للتحقيق معهم والتدقيق في هوياتهم: كان رجال الحكم العسكري يجمعونهم في حقل مكشوف تحت وهج الشمس لعدة ساعات، من دون طعام او شراب، ومن دون تمكينهم من قضاء حاجاتهم، رجالا ونساء وأطفالا، ويأمرونهم في اثناء اخراجهم من بيوتهم بترك أبوابها مفتوحة. فتركت البيوت من دون رقابة. وعندما سمح لهم بالعودة، اكتشفوا ان الجنود سرقوا لهم امتعة منزلية وحلى ونقودا.(٣١) هذا ما كان يحدث احيانا: كانت عمليات التفتيش، والمواكب الجماعية للتدقيق في الهويات، وحظر التجول، ونظام التصاريح، ترعب السكان وتذلهم وتضايقهم، وكانت تشكل خرقا استبداديا للروتين اليومي لكل انسان. وجها لوجه: جندي في مواجهة فلاح، لأحدهم قدرة شخصية تكاد تكون مطلقة، والآخر من دون حقوق لا حول له ولا قوة. بضع عشرات الآلاف من العرب يسكنون في المناطق الخاضعة للحكم العسكري، والكثيرون منهم قرويون منهمكون. وآخرون لا يزالون واقعين تحت تأثير صدمة الهزيمة، اناس مذعورون من دون قيادة، لم يشكلوا خطرا على امن الدولة. لقد اقيم الحكم العسكري كي يمنع عودة اللاجئين او «المتسللين» كما كانوا يسمونهم، وكي يطرد اولئك الذين نجحوا في عبور حدود الدولة خلسة وعادوا الى بيوتهم. وهكذا طُرد ايضا عرب لم يتسللوا عبر الحدود. وكانت المهمة الثانية التي اسندت الى الحكم العسكري افراغ الاحياء والقرى شبه المهجورة، وبعض الاحياء والقرى التي لم يغادرها اهلها، ونقل سكانها الى اماكن اخرى في البلد. وكان بين هؤلاء من تم اجلاؤهم عن «قطاع الامن» على طول الحدود، كي يشغل اليهود بيوتهم وأراضيهم. أما مهمة الحكم العسكري الثالثة، فكانت فرض رقابة سياسية على السكان، وبالتالي عزلهم عن اليهود.

في احد أيام الخريف قام مراسل صحيفة «عال همشمار»، غبريئيل شتيرن، بجولة في جبال القدس. وفي مكان ما بين خراب بلدة الولجة المهجورة، التي لم يكن معروفا ما اذا كانت تقع في الاراضي الاسرائيلية او في الاراضي الاردنية، التقى فجأة متسللا. وكتب شتيرن، فيما بعد: «كنت اعرف هذه القرية جيدا منذ فترة ما قبل الطوفان.» وعندما تجول في البيوت الخالية شعر، على حد قوله، بأنه في جولة ذات علاقة بعلم الآثار. كان كل شيء مهجورا، لكن الجص الابيض لا يزال يتوهج في بعض البيوت وقد بهتت الزهور المرسومة عليه. كانت

الفرش في احد البيوت ممزقة ومبعثرة في الغرف، وكانت هناك أكوام من الأسمال، وايصال استلام ممزق لثمن اسمنت سدد سنة ١٩٤٧، وبطاقة تموين انتدابية: تعرّف شتيرن الى اصحابه، ثم صعد الى السطح. كانت الحدود في مكان ما بين التلال. وبينما كان يقف مفتونا بالمنظر الطبيعي، يفكر مليا في مصائر الناس في الحرب، لمح شخصين من بعيد. تقدما ببطء الواحد وراء الآخر عبر خط الافق، عبرا الخط وواصلا سيرهما بخطى واثقة وكأنما يفعلان ذلك يوميا. اختفيا للحظة في «الارض الميتة» على سفح القرية، ثم ما لبثا ان ظهرا ثانية. كتب شتيرن: «مرت دقائق معدودة ثم شاهدتهما يشقان طريقهما بين البيوت. الرجل، فلاح كهل يحمل بيده مجرفة، وعلى مسافة خطوات منه، فلاحة. وجهت اليهما تحية العاملين في الارض: «صح بدنك». توقف الرجل وتسمر في مكانه وكأنما شل، واختفت المرأة بين البيوت. اقتربنا بتؤدة واحدنا من الآخر، وكلانا مرتبك. وبعدما تأكد ان هناك مجرد مواطن يتجول في الجبال، اطمأن قليلا وجلسنا على الارض وتبادلنا لفائف التبغ. ثم سأل متلعثما بعض الشيء: «الى اي شعب تنتمي؟» وراح يبحث عن نقطة انطلاق. كيف يبدأ حديثا مع من استقرت الآراء جميعا على اعتباره عدوا؟ وأخيرا قال: «سمعت ان الامور ليست على ما يرام عندكم ايضا.» وعندما اكتشف اننا معارف مشتركون نادى زوجته، كمن يتحدث عن الطقس او عن احتمالات الحصاد: «هاجر، هاجر» (اجل اسمها ايضا ام اسماعيل!)، لكنها هربت واختفت... انه ابن هذه القرية المهجورة، هرب مع الهاربين خلال الاجتياح الاسرائيلي الى ما وراء الخطوط.* سألني: «هل ترى تلك البيوت هناك؟ توجد مغاور بالقرب منها يسكنها معظم لاجئي القرية.» وراح يتحدث عن عدم توفر فرص العمل وعن الفقر المستشري هناك: «كل شيء رخيص الثمن ومتوفر بكثرة، لكن المال غير متوفر. يقولون ان الامر عندكم هو عكس ذلك.» وسألته: «ما سبب مجيئك؟» ورمقني بنظرة جدية ثم قال بصوت مكبوت: «ان البيت عزيز أبدا.» لم يكن يخامره اي شك في انهم سيعودون الى ارضهم في يوم من الايام.»(٣٣)

في مطلع كانون الثاني/يناير ١٩٤٩، دوّن بن ـ غوريون في مذكراته: «ان التسلل يتزايد، فقد بلغ ما بين ٣٠٠٠ و ٤٠٠٠ شخص. يجب طرد المتسللين ومنع وزارة الداخلية من منحهم بطاقات تسجيل (...) ان المسألة الاساسية هي منع التسلل. يجب عدم طرد العربي اذا كان تسلله مشكوكا فيه، او اذا كان من الذين بقوا منذ البداية. لكن يجب طرده اذا اتضح بصورة قاطعة انه متسلل.»(٣٤) وبعد مرور اسبوع كتب قائلا: «نفذت مؤخرا عمليات تمشيط وطرد لنحو ألف من المتسللين (...).»(٣٥) وفي النصف الثاني من كانون

* كتب بن ـ غوريون في مذكراته باختصار، كعادته، ومن دون عواطف: «تم اخلاء الولجة.»(٣٢)

الثاني/يناير، اعلن رئيس مطارنة الروم الكاثوليك في شرق الاردن، ميخائيل عساف، ان بضع عشرات من الاشخاص وصلوا الى عمان قادمين من شفا عمرو ومعليا وترشيحا. وكان بينهم رجال ونساء وشيوخ وأطفال، مسلمون ومسيحيون. وكانوا قد هربوا الى لبنان مع نشوب المعارك، ثم حاولوا العودة الى ديارهم، لكنهم اعتقلوا فور دخولهم تخوم اسرائيل ونقلوا في شاحنات الى الحدود حيث أُجبروا على عبورها. وذكر رئيس المطارنة ان جوازاتهم اخذت منهم قبل طردهم، كما سرقت نقودهم وحلى النساء.[٣٦] بعدها ببضعة ايام، أُجبر نحو ٥٠٠ شخص على مغادرة قريتي الفرّاضية وكفر عنان، الواقعتين على طريق عكا – صفد. ونُقل نصفهم تقريبا الى منطقة المثلث ثم أرسلوا الى ما وراء الحدود. ونقل النصف الثاني الى قرى اخرى. وبعد اسبوعين، طُرد نحو ٧٠٠ شخص من بلدة كفر ياسيف، كانوا قد جاؤوا اليها خلال الحرب بعدما غادروا بيوتهم في القرى المجاورة. وتم نقل معظم هؤلاء في شاحنات حملتهم الى الحدود الاردنية حيث أُجبروا على اجتيازها.[٣٧] وفي ٢١ آب/اغسطس، في الساعة العاشرة ليلا تقريبا، اعتقلت الشرطة امرأتين وخمسة اطفال تتراوح اعمارهم بين العشرة اشهر والعشر سنوات، ونقلتهم الى الحدود في منطقة قلقيلية وهم يرتدون ملابس النوم، ودفعتهم الى ما وراء الحدود. وبحسب ما ذكرت الشرطة، لم تكن لدى كل من المرأتين رخصة اقامة في يافا. فقد غادرتا المدينة في اثناء الحرب لتعودا اليها تحت جنح الظلام، من اجل الانضمام الى زوجيهما اللذين لم يغادراها.[٣٨]

بعد مرور بضعة اشهر نشرت الاسبوعية «هاعولام هازيه» تحقيقا مصورا تحت عنوان: «كيف يطردون المتسللين؟» * ونشرت المجلة فوق العنوان وعلى مساحة نصف صفحة، صورة بدا فيها متسللون يقفون صفا واحدا بعضهم خلف بعض وظهورهم الى آلة التصوير، وكان معظمهم يرتدي زي الفلاحين التقليدي، ما عدا واحدا كان يرتدي بذلة اوروبية عرفت اياما افضل من هذه الايام. كان شكله ينم عن استسلام وتمرد، عن تسليم بالقدر وعن تصميم في آن. وبدا في الصورة امام الرجال المصطفين جنديان من الجيش الاسرائيلي ببزتين باليتين ممزقتين، يعتمران قبعتين تتدليان على جبهتيهما، ويوجهان بندقيتيهما نحو الاسرى. ان التناقض بين المواطنين العرب الذين يقفون صفا مستقيما استقامة المسطرة، وبين الجنديين الاسرائيليين المهملين كقطاع الطرق، اضفى على الصورة مسحة غرابة، وكأنه اخراج لاحدى المسرحيات. وكتبت «هاعولام هازيه»: «ربما يعتقد الكثيرون ان ترويع المتسللين اليوم هو السبيل الوحيد لمنع التسلل في الغد. وتثبت التجربة انه حتى من ناحية النجاعة فان هذا الاسلوب خطأ (...) ان الممارسات الوحشية لن تردعهم.» ونشرت

* كان يصدر الاسبوعية اوري كسري، وكانت المجلة آنذاك مجلة كل عائلة، وكان رئيس تحريرها التالي اوري افنيري، واحدا من المحررين فيها.

سلسلة من الصور الاخرى على طول الصفحة: شاحنة مكشوفة محملة بالبشر، وفلاحون، وآخرون يجلسون على الارض ينتظرون الشاحنة التالية. الجنود يقفون من حولهم وأيديهم على ازند بنادقهم، ويرتدي احدهم سروالا قصيرا واسعا يضفي عليه مظهرا انتدابيا، بينما يضع آخر يده في جيبه ويميل برأسه ليصغي الى فلاح يقف قبالته، ويحاول ان يؤثر في عواطفه، ويده ممدودة الى الامام لتعزيز كلامه. ونقلت الاسبوعية عن رجل يدعى حليم حمدان قوله: «افضل الموت ببندقية على ان اتضور جوعا.» وكتبت الاسبوعية فوق احدى الصور السطور التالية: «انتبهوا الى الرقم على ساعد الجندي الحارس. ان كثيرين من المهاجرين الذين مروا بسراديب الجحيم في معسكرات الاعتقال في اوروبا، يفتقرون الى مشاعر المعاملة الحسنة تجاه اسرى الدولة.» وبعد اسبوع، ظهرت في زاوية الرسائل الموجهة الى هيئة التحرير رسالة جاء فيها: «هناك انطباع بأن كاتب المقالة لم يقل كل ما يريد، وبأن هناك ثقوبا في امتداد الصور. فاذا كنتم تعرفون الحقيقة كلها، فلماذا لا ترووها لنا ايضا؟» وردّت هيئة التحرير: «هناك امور لا يليق نشرها.»[٣٩] في هذه الاثناء، عينوا قطاعا على طول الحدود بعرض ثمانية امتار، وأعلنوه منطقة عسكرية. كل غريب يوجد فيه تطلق عليه النار من دون انذار. فانخفض نتيجة ذلك عدد المتسللين. وكتب بن – غوريون: «سقط خوف عمليات التمشيط.»[٤٠]*

* بسرية تامة، وتحاشيا للفت النظر ولارتفاع الاسعار، حاولوا اغراء العرب ببيع أراضيهم والهجرة الى خارج البلد. كان يوسف فايتس، المسؤول في الكيرين كاييمت (الصندوق القومي)، يكثر من تعاطي هذا الموضوع، وكان يرى ان اعماله ناجحة في بعض الاماكن، في عرعرة على سبيل المثال. وقد دوّن فايتس في مذكراته: «وحتى ذلك الحين، كان قد تم شراء ٢٥٠٠ دونم فيها اشجار وبيوت وأملاك منقولة؛ لنبع الاملاك المنقولة فورا ونغلق البيوت. فالعرب الذين يبيعون هذه الاملاك يحصلون على الاموال بالعملة الفلسطينية لا بالعملة الاسرائيلية. ولننقلهم هم وأمتعتهم حتى الحدود بالقرب من قرية برطعة، حيث تحضر باصات من طولكرم وتنقلهم الى شرق الاردن. نقل حتى الآن نحو ٢٠٠ نسمة. والأنباء الواردة من هناك تبعث على الرضا. ان قسما منهم تدبر امره في مزاولة التجارة (في عمان)، والقسم الآخر في مزاولة الزراعة. واستمرت حركة الاقتلاع من اسرائيل هذه، على الرغم من الدعاية في اوساط العرب التي تدعو الى مقاومتها. ومن المحتمل ان تتوقف لسبب آخر، لأنه في أواخر شهر آب/اغسطس سيلغى الجنيه الفلسطيني في شرق الاردن ولن يكون لدينا العملة المتداولة لندفع للعرب.»[٤١]

في نهاية السنة، وضع فايتس خطة شاملة لمساعدة العرب المسيحيين على الهجرة الى اميركا الجنوبية. ولهذه الغاية، ازمع على شراء أراض لهم في مناطق هناك، منها منطقة مندوزا في الارجنتين. وقد اشرك سفير اسرائيل في بوينس ايرس، يعقوب تسور، في فكرته. وفي مرحلة معينة أسرّ بها لبن – غوريون ايضا. وأرسله رئيس الحكومة الى الارجنتين للتحقق من امكان تنفيذ هذه الفكرة. وسافر فايتس، وتفحص المنطقة، وقدر كل شيء بتفاصيله: عدد الاشخاص والدونمات والدولارات، حتى انه اطلق على الخطة اسما رمزيا: «عملية يوحنان». لكن كل هذا لم يسفر عن شيء، وذلك – كما قال – لأن الحكومة لم تعرف كيف تتبنى سياسة واضحة تجاه الاقليات.[٤٢]

وفي منتصف شهر نيسان/ابريل ١٩٤٩، رفع القنصل الاميركي في القدس تقريرا عن طرد «بضع مئات» من العرب من سكان الجليل ـ وهم مواطنون اسرائيليون يحملون بطاقات هوية ـ الى ما وراء الحدود مع المتسللين. وكان تقدير القنصل ان قادة الجيش المحليين بادروا الى تنفيذ عمليات الطرد خلافا لرأي الحكومة. ويحتفظ ارشيف الدولة ببضعة ملفات تؤكد هذا الافتراض. وقد طرد الجيش ايضا عرب بلدة المجدل ـ مدينة عسقلان فيما بعد ـ لكن رئيس الحكومة وافق على عملية الطرد.[43] *

لدى توقف المعارك واقامة الحكم العسكري، توقف هروب العرب ايضا، وتضاءلت عمليات الطرد الجماعي الى ما وراء الحدود. كان معظم العرب الذين طردوا من بيوتهم حتى ذلك الوقت، قد نقل الى مناطق سكن اخرى ضمن تخوم الدولة. وعشية الاول من تموز/يوليو ١٩٤٨، استدعي ممثلو السكان العرب في حيفا الى مكتب قائد المدينة المحتلة، للبحث في جلاء العرب عن الكرمل. كان ذلك الموقف مشحونا بالتوتر: بداية مواجهة شبه تاريخية، بين الصهيونيين المنتصرين والفلسطينيين المهزومين، كي تستمر مناقشة هادفة وذات طابع تقني جدا، لكيفية تنفيذ الامر رقم ٢٦٩٩ عملية/ ٤ب. [وفيما يلي فقرات] من المحضر:

ر. زبلوديفسكي (بالعبرية): انني آسف على انني لا استطيع تكلم العربية، كما انني لا افهمها، ولذلك سوف احتاج الى الترجمة. اطلب من السيد يعلي ان يفسر للحاضرين سبب استدعائهم.

أبراهام يعلي: يتكلم بالعربية عن امر قائد الهاغناه، القاضي بنقل العرب من الكرمل ومن المستعمرة الالمانية وغيرها الى بيوت (مهجورة) تم اعدادها لهم في وادي النسناس. ويقضي الامر بأن تنفذ العملية في موعد اقصاه الخامس من هذا الشهر. ويناشد [القائد] ممثلي العرب المساعدة في تنفيذ عملية النقل، كي يكون الامر منظما وسهلا على الناس (...).

توفيق طوبي: لم افهم. هل هذا الامر امر عسكري؟ فلننظر الى وضع هؤلاء الناس. انني لا ارى اي سبب، ولا حتى سببا عسكريا يتطلب هذه الخطوة. وهي، في نظري،

* في ٣١ كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٨، ناقشت اللجنة الوزارية لشؤون الأملاك المتروكة مستقبل المجدل. قال أليميلخ آفنر: «بعد تحقيق في الوضع اجرته وزارة الدفاع، اتضح ان هناك ١٦٠٠ عربي جمعوا في مكان جرى تسييجه (...) وأن وزارة الدفاع لا تعارض اطلاقا توطين المجدل، والأمر مرغوب فيه من الناحية الامنية.» وأقرت اللجنة توطين البلدة، «مؤكدة عدم طرد عرب من بيوتهم من دون تنظيم.» بعد ذلك ببضعة اشهر، وجد يوسف فايتس انه «لا يوجد كيان» للسكان العرب في المجدل وأنهم يشكلون عبئا على الحكومة، وقرر ان «من الافضل نقلهم الى يافا.» وكانت الخاتمة طردهم الى مصر.[44]

مشكلة سياسية اكثر منها عسكرية. والقصد منها ايجاد غيتو عربي في حيفا. وهذا امر لم يكن يتوقعه هؤلاء الذين بقوا هنا وارتضوا لأنفسهم نظام الحكم القائم. هل ان هذا العمل صحيح من الناحية الاجتماعية؟ لقد كنا نتوقع معاملة مختلفة (...) ثمة من يقول انه اذا كانت هذه هي الحقوق في دولة اسرائيل، فمن الافضل لو بقي الانكليز. اذا كان هناك اشخاص مشبوهون تعتبرونهم خطرين، فاننا لا نعارض ان تتخذوا اجراءات ضدهم. أما الذين يقطنون في المستعمرة الالمانية، فلا اعتقد انهم يشكلون خطرا على الجيش. اننا نطالب ببقاء الناس حيث هم.

بولس فرح: تسمّون هذ. الخطوة خطوة عسكرية، لكنها في الواقع خطوة سياسية. انها عنصرية! (...) اعتقدنا ـ بخروج الانكليز الذين كانوا اساس كل ما حدث هنا وعلته ـ ان العلاقات بين الشعبين ستتحسن، وكذلك الوضع. وها نحن نرى الامر معكوسا. لسنا على استعداد لأن نرى تحسنا في وضعنا في الوقت الحاضر، اذا كان علينا ان ننتقل الى داخل غيتو. واذا كانت هناك عناصر تتخوفون منها، فاتخذوا اجراءات لتجميعها في مكان واحد، لكن لا تفعلوا ذلك بالناس جميعا.

راحبعام: ارى انكم تجلسون هنا وتنصحون لي، بينما استدعيتم من اجل ان تتبلغوا امر قيادة الهاغناه وتقدموا مساعدتكم! انني لا اتدخل في السياسة ولا اتعاطاها. انني منفذ للأوامر فحسب (...) وطوال المدة التي كنت فيها مسؤولا عن هذه المناطق، فعلت ما في وسعي كي يكون الناس كافة بخير، حتى في ظروف الحرب تلك. لقد اهتممنا بالنظافة والمياه وغيرهما. ولم اتردد، خلال سيطرتي على المنطقة هنا، في اطلاق النار على اليهود عندما كنت اشعر بأنهم على وشك إلحاق الاذى بالممتلكات. وأريد ان تعود الحياة الى مجراها الطبيعي بأقصى سرعة ممكنة. ولو كان هناك امكان للسماح للشغيلة بفتح تعاونية لهم، لفعلت. انني اضغط طوال الوقت من اجل فتح مدرسة. ولو جاءني الناس يطلبون مساعدة من اي نوع كانت، لاستجبت ما دامت لا تعوق المجهود الحربي (...).

انها الحرب ولا يمكن تغيير الظروف في زمن الحرب (...) انني ملزم بتنفيذ الاوامر! وعلي الحرص على تنفيذ الامر حتى الخامس من هذا الشهر. وقد دعوت الممثلين [العرب] الى هنا كي انفذ المهمة بأقل قدر ممكن من الضرر بالذين يطالهم الامر، وكي اساعدكم بأفضل ما استطيعه (...) وأريد ان ينفذ هذا العمل بواسطة اشخاص تعينونهم انتم، وأنا اقدم لهم المساعدة. هذا لا يعني انني لن انفذ الامر بنفسي اذا لم يتم تنفيذه. وحتى لو كنت جنديا فان لي قلبا وأشعر بالالم لو تضرر انسان من دون ان تكون هناك ضرورة لذلك. انني متفهم، وقلبي حزين لأنه لا يجوز اقتلاع

انسان من مكان عاش فيه عشرات السنين. لكن ما العمل؟ لا اريد ان اخوض في جدل لأن هذا ليس من شأني. وأرفض بشدة الكلمات التي رُددت هنا في شأن الغيتو، لأن ذلك غير صحيح! ولا انوي اغلاق المنطقة ومد اسلاك شائكة حولها، كما لا انوي اقفال الحوانيت. كلا! سيواصل الناس حياتهم العادية، لكنهم سيتجمعون في مكان واحد. وفي المناطق (...) العسكرية، فان (الناس) سينزلون على الفور ولا مجال للكلام. ويقصد بذلك ستيلا ماريس، ووادي الجمال، وشارع عباس، والمستعمرة الالمانية (...).

ان ٩٠ عائلة تقريبا تقطن ستيلا ماريس، و ١٨٠ عائلة في المستعمرة، (٤٧ عائلة في وادي الجمال، و ٥٠ عائلة في شارع عباس). وقد قمت بجولة في انحاء وادي النسناس والاماكن هناك جاهزة للاستيعاب: بيوت جميلة ومبنية جيدا، والمهم ان يتم تنظيم هذه المسألة بصورة لائقة (...).

شحاده شلح: أيجب ان يغادر الانسان بيته حتى لو كان يملكه؟

راحبعام: على الناس جميعا ان يغادروا.

شحاده: حتى لو كان يسكن في شارع يوحنان؟

راحبعام: سأنزل واياكم غدا صباحا وأريكم الشوارع والحدود، وتقومون انتم فورا بتعيين البيوت ومن يسكنها.

توفيق طوبي: انني افهم ان القرار ثابت وغير قابل للتغيير. ولذلك، فاننا لن ندخل في جدل. والآن، هل فكر القائد في ان هناك عائلات لا تستطيع ان تتحمل نفقات الانتقال؟ (...).

راحبعام: سنعالج الامور التقنية غدا صباحا. سأهتم بتأمين السيارات والبنزين، لكن الناس هم الذين سيدفعون بأنفسهم (...).

فكتور خياط (بالانكليزية): اليوم هو الاول من تموز/ يوليو، وغدا سيكون الثاني منه، وهناك أناس كثيرون لم يسمعوا الامر اطلاقا. المسألة اكثر سهولة على الناس الذي يقتنون القليل من الاثاث. لكن الذين يسكنون شققا ويملكون أثاثا كثيرا وثقيلا، سيجدون صعوبة جمة في الانتقال، خصوصا انه لا يوجد حمالون. ومن الملائم معالجة امر هؤلاء أولا.

راحبعام: سنناقش كل هذه التفاصيل. فقد اخذنا هذا الامر في الحسبان ايضا. وان اربعة أيام هي وقت طويل جدا، وقد أُتيح [هذا الوقت] لتنفيذ هذا [الأمر] بصورة منظمة (...) ومن الافضل لكم اتمام الموضوع بسرعة ما دام يخضع لسلطتي (...).

شحاده: هناك مسلمون ايضا.

راحبعام: سيتم تجميع المسلمين في وادي الصليب بسهولة. فهناك ١٧٤ عائلة مسلمة فقط.

يعلي: سيقدرون هذا العمل فيما بعد، وسيرون ان تجميعهم مفيد لهم. وعندما تفتح المدارس وتدور عجلة الحياة كما يجب، سيكتشفون ان كل هذا كان في مصلحتهم تماما. انهم ينظرون الى الامر بشيء من الذهول الآن. ان التجمع سيكون حماية لهم من السرقة، وما شابه ذلك.

ممثلو العرب: لكن الوقت قصير!

راحبعام: لا استطيع التغيير (...).

بولس فرح: هل سيستطيع الناس العودة الى بيوتهم في وادي الجمال وغيره بعدما تنتهي حالة الحرب؟

راحبعام: لم افكر في الامر، ولا اعرف ما ستكون عليه الحال بعد ذلك. انني اتلقى الأوامر وأنفذها (...).

شكلت بلدية حيفا في تلك الايام «لجنة لشؤون العرب»، الى جانب «لجنة لاعادة الحياة الى مجراها الطبيعي». وقد شكا اعضاء هاتين اللجنتين تجاهل وزارة الاقليات، ووزارة الخارجية، ووزارة الدفاع، ومكتب رئيس الحكومة، لوجودهم وسماع نصائحهم. وكان بين هؤلاء من ترددوا في نقل العرب المسيحيين من بيوتهم في [جبل] الكرمل الى بيوت العرب المسلمين الذين غادروها في وادي النسناس. وقال احدهم: لا يمكن جمع ٣٠٠٠ شخص تقريبا كما يُجمع البيض.

ان العلاقات بين الييشوف العبري وبين كثيرين من العرب هنا عمرها عشرات السنين! (...)، وقال نفتالي ليفشيتس محذرا: «ان القرار قد يلحق بنا ضررا في انحاء العالم الواسع. ان النداءات التي اطلقت هناك حتى الساعة كانت بسبب يافا والقدس، والآن ستضاف حيفا اليهما ايضا. وان عمليات التنفيذ لا يمكن إلا ان تلحق أضرارا بنصف الممتلكات المنقولة، على الرغم من كل النيات الطيبة لأن الامر ينفذ بهذه السرعة.» وذكّرهم راحبعام زبلوديفسكي (راحبعام عمير فيما بعد)، الحاكم العسكري للجليل الغربي ومستشار رئيس الحكومة في شؤون العرب وأحد رجالات وزارة الخارجية، بأنه «تحدث في هذا الامر مرارا» بل أُعدت خرائط للمناطق تحدد ذلك. وهدد سكان ستيلا ماريس بمناشدة الفاتيكان؛ قالوا انهم سيجلون عن بيوتهم فقط اذا تلقوا أمرا بذلك من البابا. وتطوع توفيق طوبي بالذهاب اليهم ومصارحتهم. وحذر عمير ثانية: اذا لم يتعاونوا فستنفذ عملية الاجلاء بالقوة العسكرية، «واذا لم يقبلوا البيوت بارادتهم فان الجيش سيضعهم في غرف كيفما أراد، وبمعدل ٤ الى ٥ اشخاص في الغرفة الواحدة (...).» وذكر في محضر الجلسة ان الجميع خرجوا بعدها

للقيام بجولة في وادي النسناس، «واعترف الممثلون العرب برحابة المكان وحسنه، وبامكان ترتيب امورهم فيه كما يجب.»[٤٥]

قال عمير بعد مرور خمسة وثلاثين عاما: «رفض الناس الخروج من بيوتهم الى ان شاهدوا الشاحنات والجنود. قلنا لهم: إما ان تحملوا الامتعة واما ان نحملها نحن، ولن اكون مسؤولا عندئذ عما يلحق بكم من الخسائر. وقد خضع احدهم، وبدأ عملية التحميل، وكان لذلك الامر تأثيره النفسي على الآخرين ايضا. وأنا فخور حتى اللحظة بكون الامر قد نفذ بصورة انسانية.»[٤٦]

وقال طوبي بعد مرور خمسة وثلاثين عاما: «انا لا اعترف بتلك المحاضر، وأرى انني كنت على ما يرام. فقد كنت، في نهاية المطاف، في السادسة والعشرين من العمر. عندما استدعونا الى حاكم المدينة المحتلة لم نتردد: اعترفت «عصبة التحرير الوطني»، التي كنت امثلها والتي اصبحت فيما بعد جزءا من الحزب الشيوعي الاسرائيلي، بدولة اسرائيل. ويعود الامر الى تأييد العصبة المبدئي لقرار التقسيم الذي صدر في تشرين الثاني/نوفمبر [١٩٤٧]. وبطبيعة الحال، انطوت عملية الاجلاء على معاناة كبيرة للسكان. وقد نفذت العملية، بحسب ما اذكر، من دون عنف. ومع ذلك، فقد كان الامر وحشيا جدا. وكان الهدف منه ـ كما قلت في حينه ـ تجميع العرب في غيتو.»[٤٧] *

ومن محاضر اللجنة الوزارية لشؤون الأملاك المتروكة [ما يلي]:

أ. آفنر: ان العرب متجمعون في اثنين من احياء اللد: في الأول عمال سكة الحديد (بين ٤٦٠ و ٤٨٠ شخصا)، وفي الثاني بقي العرب حيث كانوا، ويجب عدم المساس بهم في هذه الاثناء. ويتجمع في حي ثالث، بصورة موقتة، عمال موسم القطاف

* درج بن ـ غوريون على الزعم بأن أنباء طرد العرب مختلقة، وتهدف الى تشويه سمعة الدولة. وطلب من لجنة شؤون الكنيست ايجاد السبل لمنع «تظاهرات مخزية من هذا النوع.»[٤٨] وكان يقصد ظهور توفيق طوبي. كان الشيوعي يثير أعصابه كثيرا. وفي احدى المرات سأل بن ـ غوريون الحاكم العسكري عما اذا كانت الاتهامات صحيحة. ونفى الحاكم العسكري ذلك، وسجل بن ـ غوريون اقواله بلهجة (علمتُ) كما لو ان عمليات الطرد لم تتم، ولم تكن موجودة.[٤٩] وكان توفيق طوبي في ناحية من النواحي ظاهرة جديدة، استفزازية: لقد وجدت اسرائيل صعوبة في الاعتياد عليه. وكثيرا ما تعرض للتأنيب لأنه لا يقدر الحق الذي اعطي له في الجلوس في الكنيست والتكلم فيه كواحد بين متساويين، لكن ناتان ألترمن نظم قصيدة تكريما له، وقال: «(...) انه عضو كنيست، انه شيوعي عربي، يجلس في بيت النواب هنا بحقوق كاملة وليس تصدقا... ربما هذا هو الوقت الملائم لنذكر ذلك ايها الرفاق، يجب ان نتذكر ذلك ايها الزملاء.»[٥٠] وفي شهر نيسان/ابريل ١٩٤٩، توقعت القنصلية الاميركية في القدس ان يزداد نفوذ الشيوعيين في اوساط عرب اسرائيل بصورة مستمرة، وأن يصبح عضو الكنيست طوبي قائدهم.[٥١]

العرب. وهذه الاحياء قائمة في أطراف مختلفة من المدينة، وهي احياء مسيَّجة (...).

ج. مكنس: لا يعتقد ان الاحتفاظ بالسكان العرب في معسكرات تجميع مسيَّجة امر له ما يبرره كثيرا. وتفيد التجربة في حيفا ايضا، بأنه يجب السماح للعرب بالتنقل الحر داخل حدود المدينة.

الخلاصة: (...) سيطلب من وزارة الدفاع ابداء رأيها في موضوع ازالة الاسلاك الشائكة من حول الاحياء العربية (...).[٥٢]

في النصف الأول من شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٨، وصل عمانوئيل (مانو) فريدمان الى قرية الجش (غوش حلاف)، في الجليل الاعلى، وأمر السكان بمغادرة بيوتهم. وكان فريدمان، وهو من روش بينا *، ضابط ارتباط بين الجيش والسكان العرب. قال للسكان ان الجيش يقترح عليهم مغادرة القرية لما فيه مصلحتهم، وسيسمح لهم بالعودة في غضون اسبوعين. وانتشر الخبر بسرعة في ازقة القرية: خلال دقائق كان الجميع يتجمهرون أمام باب بيت المختار. كان بينهم شاب صغير عاد خلسة عبر الحدود، من لبنان حيث مكث طوال فترة اشتداد الحرب وروى فيما بعد، فقال: «اذكر جيدا الجدل الذي دار بين الضابط اليهودي الاشقر البدين وبين مدرس الدين الذي كان يعلمني، واسمه الشماس اتناس عقال. قال فريدمان ان الجيش يطلب المغادرة. وسأله عقال ماذا سيحدث لو رفضنا؟ فرد فريدمان: انتم مرغمون على المغادرة. وطلب منه عقال خدمة شخصية، ان يتيح له التحدث هاتفيا مع صديقه الطبيب يتسحاق بن تسفي! وتوجه الاثنان في سيارة جيب مكشوفة الى صفد. وانطلق باقي السكان من بيت المختار الى الكنيسة حيث اقاموا الصلاة من اجل نجاح المهمة. وبعد ساعة من الزمن ـ بدت لنا دهرا ـ عاد الاثنان وقد ارتسمت على شفاههما بشرى الغاء الامر. فقد اتصل بن تسفي بباخور شطريت، ونجح الاثنان في اقناع الجيش بالتراجع. وبلغنا في هذه الاثناء ان أمرا مماثلا صدر لسكان كفر برعم المجاورة لنا. وقد باشر هؤلاء حزم امتعتهم استعدادا للانتقال الى قرية الرامة، جارتهم الى الغرب. وروى الشماس اتناس عقال ان صديقه بن تسفي ابلغه ان سكان كفر برعم يستطيعون الانتقال الى الجش الى حين يسمح لهم بالعودة الى قريتهم. وفعلا، بدأوا يصلون غداة اليوم التالي الى بلدتنا، ويستقرون في البيوت التي هجرها ابناؤها المسلمون.»[٥٣] وروى المحامي انيس شقور من حيفا، فقال: «كنت آنذاك صبيا في العاشرة. انتشر نبأ في قرية كفر برعم يفيد بأن السلطات امرتنا بمغادرة القرية خلال ٢٤ ساعة والانتقال الى لبنان. كان الذعر كبيرا، فأخذنا نبحث كبارا وصغارا

* مستعمرة انشأها الصهيونيون في موقع قرية الجاعونة العربية، الى الشرق من مدينة صفد. (المحرر)

عن جمال وحمير للرحلة المتوقعة، لنحملها الاملاك المنقولة. وأذكر عددا من ابناء القرية اخذ ينزل الى الكروم المجاورة والوديان لاخفاء الاشياء الثمينة. توجه والدي الى عمانوئيل ـ مانوـ فريدمان في روش بينا، الذي كان على صلة بنا، ومن هناك توجه الى الحاكم العسكري آنذاك، أليشع سولتس، ثم انطلق من عنده الى وزير الاقليات باخور شالوم شطريت. أثمرت الجهود، وتحول امر الترحيل الى لبنان الى ترحيل الى الجش لمدة اسبوعين. وحضر مانو الى القرية وقال لنا: لا تحملوا معكم امتعة كثيرة، فستعودون بعد بضعة ايام على اية حال. وصدقه والدي. وعوضا من الانتقال الى الجش توجهنا الى بيت شقيقتي المتزوجة في بلدة حرفيش. ولم ننتقل الى الجش إلا بعد مرور عام. واشترى والدي غرفة مهجورة كانت ملكا لمسلم، ودفع ثمنها ٦ ليرات. كان والدي فلاحا في كفر برعم، وفي الجش اصبح اسكافيا. ولم تكن عندنا إلا غرفة واحدة، استُخدمت لتأوي العائلة كلها، للحمار ومهنة تصليح الاحذية ايضا. كنا نحمل مياه الاستحمام من النبع، ونقضي حاجتنا في الكروم المجاورة.

لم ينسجم أولاد كفر برعم مع أولاد الجش. فقد كانوا ينظرون الينا كغرباء ويحتقروننا. «تعلمنا هناك ان نكون لاجئين.»(٥٤) وبعد ايام معدودة دوّن بن ـ غوريون في مذكراته: «استجليت الوضع في الجليل مع يعقوب (دوري) وموشيه كرمل (قائد الجبهة الشمالية). قال موشيه انه كان مضطرا، لدواع عسكرية، الى فرض حظر التجول على خط الحدود وطرد القرويين الذين يسكنون المنطقة الحدودية الى الجنوب: كفر برعم، النبي روبين، تربيخا، إقرت (. . .). وهو مستعد لتجميد الوضع وعدم طرد المزيد من السكان وعدم السماح لهم بالعودة (. . .).» وأمره بن ـ غوريون بابلاغ القرويين ان السلطات ستبحث في مسألة عودتهم «بعد ان يتم ضمان الحدود فقط.» ومع ذلك، وافق رئيس الحكومة على «التجميد»، وأمر بعدم طرد اي انسان آخر من مكانه.(٥٥) وبعد شهرين، كتب الحاكم العسكري راحبعام عمير: «انني آسف، لا يمكنني تحديد التاريخ الذي يستطيع فيه اللاجئون (من اقرت) العودة الى قريتهم. علاوة على انه يجب عدم الافتراض ان مثل هذا اليوم قريب.»(٥٦)

وقبل ذلك وضع ضابط الاستخبارات في منطقة حيفا تقريرا عن وضع اللاجئين في قرى الشمال [على النحو التالي]:

عربات بتول: ما يزيد على ٢٠٠ من قرية حطين، يقيم بعضهم في خيم ويلتحف بعضهم السماء بين شجر الزيتون، ويسكن البعض الآخر بين بيوت القرية.

البقيعة (حاليا بقعين): قرابة ٤٥٠٠ لاجىء. يقيم معظمهم تحت اشجار الزيتون حول القرية، وفي الاساس الى جانبي الطريق عند مدخل القرية الشرقي.

المغار: نحو ٥٠٠. جميعهم داخل القرية. وقد نزحوا من جيدا، والرينة، وطبرية.

سحماتا: نحو ٦٠٠. يقيم نصفهم بين شجر الزيتون، ويسكن الباقي القرية. ويحصل هؤلاء على قوتهم اليومي من عملهم في معاصر الزيتون العائدة لأبناء القرية.

دير القاسي: نحو ٢٠٠. معظمهم من صفورية، وهم يعيشون من أموالهم ويسكنون بيوت القرية (. . .).

الرامة: نحو ١٠٠٠. يعمل جزء منهم في المزارع وفي معاصر الزيتون لدى سكان القرية. وهناك بين اشجار نادي سلامة بالقرب من قرية الرامة، ٢٢٠٠ لاجىء يشكون من عوز كبير. ومعظم هؤلاء من قرى ميعار، والدامون، والبروة، والمنشية، والسميرية.(٥٧)

في مطلع شهر ايار/مايو، سجل بن ـ غوريون: «هناك نحو ١٧,٠٠٠ لاجىء من اسرائيليين ومتسللين، لكن من غير الواضح كم هو عدد اللاجئين وكم هو عدد المتسللين.» وأمر رئيس الحكومة بعدم السماح بعودة اللاجئين الى قراهم.(٥٨) *

لم يسمح لسكان قريتي اقرت وكفر برعم بالعودة. ولم يكونوا الوحيدين، لكنهم كانوا عنيدين جدا ويتمتعون بعلاقات عامة جيدة. لم يستسلموا؛ فقد كتبوا الرسائل مستصرخين اعضاء الكنيست وصحافيين ورجال دين في انحاء العالم كافة. وكانوا بين وقت وآخر يتوجهون الى محكمة العدل العليا. وفي ليلة عيد الميلاد، سنة ١٩٥١، قبل نحو عشرة ايام من موعد استماع المحكمة الى الالتماس الثاني لسكان اقرت، تسللت قوة من الجيش الاسرائيلي الى القرية المهجورة، ونسفت بيوتها. وبقيت الكنيسة وحدها قائمة. وفي مطلع ايلول/سبتمبر ١٩٥٣، كانت قضية سكان كفر برعم لا تزال مطروحة على محكمة العدل العليا. وفي ١٦ من الشهر ذاته، حلقت طائرات سلاح الجو فوق القرية المهجورة، فقصفتها ودكت اساساتها. وواصل سكان اقرت وكفر برعم نضالهم من اجل حقهم في العودة الى قريتيهم. وسمح لهم، فيما بعد، بدفن موتاهم هناك.

ان موضوع نقل العرب من مكان الى آخر، بحسب طلب الجيش او من اجل الاستيطان في أراضيهم، نوقش مرارا في اللجنة الوزارية لشؤون الاملاك المتروكة. ويصف بعض محاضر جلسات هذه اللجنة بأنها «لجنة شؤون العرب». وأشار بن ـ غوريون في مذكراته الى لجنة شؤون «الاقتلاع والطرد».** وبن ـ غوريون هو الذي عين اعضاءها وهم ـ

* قبل اسبوعين من ذلك، كتب قائد منطقة حيفا يقول: «بحسب الآراء التي ابدتها الجهات المسؤولة عن شؤون الامن كافة، توصلت السلطات العسكرية الى ان من الضروري عدم الاخذ في الحسبان، بأي شكل من الاشكال، عودة السكان العرب الى القرى التي تقع على مقربة من طرق المواصلات الحيوية في الدولة.»(٥٩)

** استصوب محررو مذكرات رئيس الحكومة تصحيح أقواله. وبحسب قولهم فان اللجنة تعاطت امور «الاجلاء والاسكان».(٦٠)

بـالاضافة اليـه ــ وزراء الخارجية، والاقليات، والمالية، والزراعة، والعدل. وكانت اللجنة ايضا «لجنة نقل السكان»، او باختصار «لجنة النقل». وفي غضون بضعة اشهر، نشطت ايضا «هيئة توطين اللاجئين».

دوّن يوسف فايتس، الذي شارك في مناقشات تلك اللجـان، بعض الاقوال في مذكراته: «تقرر الشروع في نقل سكان ترشيحا الزراعية الى قرية معليا المجاورة، بقدر ما يوجد متسع هناك لسكنهم. وهم يستطيعون العمل في ارض ترشيحا.»[٦١] وبعد مرور فترة قصيرة سجل قائلا: «يسكن قرية الريحانية شركس. ويثير موقعها هناك اليوم القلق. فكرت في أنه سيكون من الافضل نقلهم الى مقربة من قرية كفركنا، وسيكون في امكاننا عندئذ استيطان رأس الاحمر، والريحانية، وعلما، وديشوم.»[٦٢] ومضت بضعـة اشهر اخرى، وقام فايتس بجولة في المثلث. ودوّن ما يلي: «شاهدنا الخرائب المبعثرة التي يزمع الجيش اجلاء سكانها وجمعهم في قرى كبيرة: ام الفحم، وباقة الغربية، وجت. ومع ذلك، انعمت النظر فرأيت ان الاستيطان العبري لهذا القطاع ضروري: انه قطاع رائع بطبيعة ارضه وموقعه الاستراتيجي.»[٦٣] وكان وزير المالية قد اعلن انه سيتم، في المرحلة الاولى، استيطان الاماكن الخالية من العرب فقط. ومع ذلك، جرى كلام في امكان ابعاد العرب عن قراهم لاعتبارات «استراتيجية او اقتصادية» في مرحلة لاحقة.

ومن محضر اللجنة الوزارية للأملاك المتروكة:

وزير الزراعة: (...) يطلب ان يتم في كل حالة (اجلاء قرويين) وفورا تحديد [مكان] توطين ومصدر معيشة العرب من سكان القرية القدامى الموجودين ضمن تخوم اسرائيل. فالأمر ضروري من ناحية العدالة، ومن ناحية استتباب الامن في البلد (...).[٦٤]

وهكذا، فقد قسم عرب اسرائيل الى بضع مجموعات. هرب معظمهم او طرد قبل الحرب وخلالها، وكانوا في مجموعهم اقل من ٦٠٠ ألف نسمة. ومن الذين بقوا، طرد بضعة آلاف من بيوتهم، لكن سمح لمعظمهم بالبقاء حيث يقطنون وأصبحوا من مواطني اسرائيل، وتراوح عددهم بين ١٥٠ ألف نسمة و ١٦٠ ألفا راح يزداد باستمرار. وكان هناك من عبر الحدود خلسة في محاولة للعودة الى بيته. وقد امر بن ــ غوريون بطردهم. لكن أُجيز لآلاف البقاء. كما ان آلافا آخرين تلقوا اذونات في العودة، في اطار خطة جمع شمل العائلات.*

* يحتفظ ارشيف الدولة بعشرات الملفات التي تحتوي معلومات عن سياسة اسرائيل تجاه الاقليات، بما في ذلك معلومات عما يسمى بلغة البيروقراطية «نقل السكان». وبعض هذه الملفات مغلق للبحث، وبعضها «لم يفتح بعد». لكن يمكن لأي كان ان يعرف، في الحقيقة، من البطاقة المرشدة للأرشيف التي تتضمن ــ بين ما تتضمنه ــ تعريفا بهذه الملفات الخاصة بوزارة الاقليات: طرد السكان؛ نقل السكان: بلدة ترشيحا، بلدة اقرت، (الى الرامة)، بلدة اجزم، قرى عربية (عام)، بلدة قومية، عرب الهيب، وعرب =

وفي احدى الليالي، اقتحم بضعة جنود مقهى في حي العجمي بيافا، وحاولوا جر شابة كانت تجالس رفيقها الى خارج المقهى. لقد كانت يهودية، وكان الشاب عربيا. وتطورت الحادثة الى شجار عنيف بين اليهود والعرب. وخصصت صحيفة «هآرتس» مقالها الافتتاحي [لهذه الحادثة]: «ما دام المواطن العبري يعتقد ان الظهور برفقة عربي او تشغيل عربي في معمله هو عمل معيب، فان المواطن العربي سيكون غريبا في دولتنا. والانسان الغريب في الدولة في زمن السلم، يتحول بسهولة الى عدو في زمن الحرب (...). ومن الطبيعي ان يشكل العربي، الذي يندمج في مجتمعنا ويتعلم اللغة العبرية ويتلقى التربية العبرية، جسرا بيننا وبين الاقلية العربية في الدولة والشعوب المجاورة.»[٦٦] لكن لم تقع حوادث كثيرة من هذا النوع؛ اذ ان اغلبية الاسرائيليين لم تتصادق مع العرب، وأغلبية العرب لم «تتصهر» في المجتمع الاسرائيلي. كان بعضهم الى جانب بعض، لكن من دون اتصال تقريبا. ولم يكن العداء وحده هو الذي باعد بينهم، ولا الفوارق في أنماط الحياة والتربية، وانما السلطات ايضا هي التي ارتأت الفصل بينهم. وفي شهر شباط/فبراير ١٩٥٠، حذر موشيه شاريت زملاءه الوزراء قائلا:

«تتزايد الحالات التي لجأ فيها سكان عرب في دولة اسرائيل الى وزراء الحكومة ووزاراتها الرئيسية بشأن مسائل محلية، من دون المرور بالسلطات المعتمدة، اي الحاكم العسكري او ضابط المنطقة المعني بشؤون العرب (...).

«ولهذه الحالات بضعة وجوه: أ ــ ان الكثيرين من المراجعين يعتقدون ان الامر يمكن ان يعود عليهم بالفائدة ويعجل في معالجة شؤونهم؛ ب ــ ان معظم المراجعين يفترض أن بُعد الوزارات الحكومية الرئيسية وعدم إلمامها بالظروف المحلية سيغطيان عدم الدقة المتوخاة في عرض الحقائق؛ ج ــ يوجد بين المراجعين ايضا من لم يرضهم جواب الحاكم العسكري المحلي، وهم لا يذكرون تسلسل الامور هذا لدى لجوئهم الى السلطات المركزية.

«ان لكل المراجعين رغبة واحدة: تجاوز الحكم العسكري هناك، والامتناع عن اجراء اي اتصال به في المسألة موضوع البحث، لأن هذا الحاكم العسكري شخص غير مرغوب فيه ولا يرتاحون اليه.

= النبديات، بلدة المنصورة، القدس، المستعمرة الالمانية، بلدة حواسة، يافا. تدمير قرى عربية: لجنة نقل العرب؛ حيفا: نقل عرب من بيوتهم في وادي النسناس، شكاوى من معاملة الشرطة، تجميع السكان العرب، تدمير بيوت عرب؛ طبرية: تدمير بيوت على ايدي الجيش الاسرائيلي؛ يافا: العيرية (طرد)، المنشية (تدمير بيوت)، اجلاء سكان؛ حكم عسكري: تدمير بيوت وقرى، نقل سكان؛ الناصرة: لاجئون من طبرية، الحاق الاذى بمواطنين. وكذلك هناك معلومات عن طرد بضع مئات من العائلات من ثلاث قرى في الجليل، في محاضر الكنيست، وفي بعض الأحكام الصادرة عن المحكمة العليا.[٦٥]

«ويتضح ان وزارات الحكومة المركزية قد ردت، في حالات عديدة، ردا مباشرا على هؤلاء المراجعين. وأدى الامر الى تعقيدات وصعوبات على الاغلب، لأن الظروف المحلية وموضوع المسألة لم تكن واضحة للوزارات، وان عدم التطابق بين رد الوزارة المركزية وقرار الحكم المحلي من شأنه ان يقوض سلطة الحكم ويفسح المجال للتملص من قبول أحكامه.

«بناء على ذلك، اطلب اليكم اصدار التعليمات كي توافق الوزارات على كل مراجعة مباشرة من قبل عرب من سكان دولة اسرائيل، على ان تستوضح اولا تفاصيل الحالات موضوع البحث من السلطات المحلية ذات الشأن والامتناع عن الاستجابة للمراجعات إلا بعد هذا التوضيح، ومن خلال تنسيق تام مع السلطة المحلية المعتمدة. اذ ان المطلوب فعلا هو عدم الاستجابة اطلاقا لمراجعة مباشرة إلا لتبليغ الجواب النهائي بواسطة الحاكم العسكري او ضابط المنطقة المكلف شؤون العرب.»[٦٧]

كان عزل السكان العرب عن النظام السياسي، والاداري، والاجتماعي، مطلوبا كي تكون المراقبة السياسية المفروضة عليهم ناجعة. وقد لُخصت فيما بعد أهداف الحكم العسكري السياسية، خلال سنواته الاولى، بهذه الكلمات: «سعت سياسة الحكومة (...) لتقسيم السكان العرب الى طوائف ومناطق (...) ان اضفاء مكانة البلدية على قرى عربية من جهة، وأجواء التنافس في انتخابات السلطات المحلية من جهة اخرى، عمقت الانقسام في القرى نفسها. وعمل هذان الأمران: السياسة الطائفية، وزرع الخلاف العائلي في القرى، على منع تبلور السكان العرب في وحدة واحدة (...) وسيطر الحكم العسكري، في تلك الفترة، سيطرة كاملة ومطلقة (...) ومَثَلَ أمام السكان المذهولين ــ المجزَّئين والمنشقين على انفسهم والخائفين ــ ذلك الحكَمَ الجديد المنتصر، الذي لم يكن السكان العرب قد تمكنوا بعد من سبر أغواره. كما مَثَلَ أمامهم تلك القوة العسكرية التي اقامت الحكم الآنف الذكر، وعنوانا رئيسيا ووحيدا لكافة اجهزة الدولة التي عملت في القطاع العربي، بحيث شعر كل مواطن بأنه متعلق، في شؤونه اليومية، بالحاكم العسكري في منطقته. (في تلك الفترة) قاد المجتمع العربي مجموعة من المخاتير، والشيوخ، وزعماء الحمائل والعائلات التي مثلت السكان أمام الحاكم العسكري، فأتاحت له حكم جمهور كامل عن طريق عدد مقلص من الأشخاص (...) وكان عمل الوزارات الحكومية المختلفة في القطاع العربي، في تلك السنوات، غير منتظم وواجهته عقبات عدة، إما بسبب القيود الامنية المتشددة التي فرضت على المناطق الآهلة بالعرب، وإما لأن الوزارات ذاتها لم تكن قد اعدت نفسها بعد للعناية بشؤون العرب. ولهذا السبب، اخذ الحكم العسكري على عاتقه ــ في الواقع ــ مسؤولية القسط الأوفر من المعالجة الحكومية لشؤون المواطنين العرب، وشكل ضابط ارتباط بين هؤلاء السكان

والسلطات. كما ان نظام التصاريح والمناطق المغلقة اوجد اعتمادا مطلقا للمواطن العربي على الحكم العسكري في تلك المجالات المذكورة. ولمقتضى الانتخابات، قام ماباي، بصفته الحزب الحاكم المسؤول مباشرة عن امن الدولة، بتشكيل كتل عربية نصب عليها اشخاصا ينتسبون الى الزعامة التقليدية، لأن مهمتها الاساسية ان تكون جسرا ووسيطا بين السلطات والسكان العرب (...) وبهذه الطريقة تجنب (الحزب) ضرورة بلورة اية ايديولوجية من اجل ناخبيه (العرب)، وضمن عدم تبلور هذه الكتل في كتلة عربية مستقلة (...) وقد اثمرت سياسة التجزئة الطائفية (...) فأوجدت حاجزا، حتى لو كان مصطنعا احيانا، بين قطاعات من السكان العرب، مثل ازمة الثقة بين الطائفة الدرزية وباقي الطوائف العربية. ومكنت تلك السياسة الدولة (...) من منع تبلور الاقلية العربية في كتلة موحدة، كما اتاحت الى حد كبير لقادة كل طائفة متنفسا لتعاطي شؤونها الطائفية عوضا من الشؤون العربية العامة.» *

كانت المصلحة الرسمية ــ الامنية نصب اعين رجالات ماباي كما حددوها، وفي هذا المضمار بذلوا جهدهم في منع الحزب الشيوعي من مزاولة النشاط بين العرب. وكتب مستشار شؤون العرب في مكتب رئيس الحكومة يقول: «ان هؤلاء الذين يريدون الانتقاد والتحريض، اي الشيوعيين، سيجدون بعد الغاء الحكم العسكري او تقليصه، مجالا اوسع وامكانات اكثر للعمل التحريضي والانتقادي.»[٦٩] لكن رجالات ماباي رأوا امامهم ايضا مصلحة حزبهم. وقال فيما بعد احد مساعدي بن ــ غوريون: «لقد ضمن الحكم العسكري أصوات العرب.»[٧٠] وكان يهوشواع (جوش) بالمون (بالمان) من مواليد سنة **١٩١٢**، احد «المستعربين» في الوكالة، مثل إلياهو ساسون ورؤوفين شيلواح، لكنه على عكسهما يعتبر نفسه «رجل ميدان»، وبعد قيام الدولة اصبح مساعدا لوزير الاقليات، باخور شالوم شطريت، وأحد المبادرين الى الغاء هذه الوزارة ليصبح بعد إلغائها مستشار رئيس الحكومة في شؤون العرب. وكُلف مهمة التنسيق بين الوزارات، بما في ذلك تنسيق اعمال الحكم العسكري. وبهذه الصفة بات ذا قوة كبيرة في تقرير مصائر البشر. قال في مقابلة فيما بعد: «علمتني اعمال الشغب سنة **١٩٢٩** ان لدينا خيارين فحسب: إما الاستسلام، واما السيف. واخترت السيف. لم يدهشني فرار العرب. كان ذلك ردة فعل طبيعية. وكان الهاربون افضل القوم: القادة، والمثقفون، والنخبة الاقتصادية. وبقي المتخلفون فقط. لقد اجتهدت لأكون لهم ذئبا

* ان الوثيقة المؤرخة في ايلول/سبتمبر **١٩٥٩** تحت تصنيف امني «سري جدا للمرسل اليه فقط»، تحمل عنوان: «توصيات لمعالجة شؤون الاقلية العربية في اسرائيل»، لكنها لا تحدد هوية كاتبها. وتحتوي توصية رئيسية بضرورة بذل كل الجهود لدمج الاقلية العربية في حياة الدولة، خلافا للسياسة السابقة وبما يتماثل والروح التي انطوت عليها توصية «لجنة توضيح استجلاء العلاقات بالعامل العربي»، التي ألفها ماباي بعد قرار التقسيم.[٦٨]

في ثوب حمل: يد باطشة، لكنها نزيهة امام الخارج. كنت ضد دمج العرب في حياة الدولة، على نقيض الشيوعيين ومابام، وعلى نقيض بعض الاشخاص الطيبين في الهستدروت وماباي ايضا. ان هذا البلد مبني كفسيفساء، جماعات جماعات. كل جماعة تشكل حجرا في الفسيفساء، حدودها مرسومة. اذا شوهت الحدود بين الحجارة شوهت الصورة كلها. هذا ليس حسنا، ومن الافضل ان يكون هناك تطور منفصل. ان الفصل منع العرب من الاندماج في الديمقراطية الاسرائيلية. في اي حال، لم يكن لهم ديمقراطية في السابق، ولا في اي وقت مضى. لم يكن هذا نقصا بالنسبة اليهم. لقد أتاح الفصل قيام نظام حكم ديمقراطي في القطاع اليهودي فقط. انا لم اكن عضوا في ماباي، لكنني اعتقدت ان كارثة ستلحق بالدولة اذا لم يبق بن ـ غوريون في السلطة. ولم تكن سياسة الاقليات تهدف الى جلب أصوات لماباي وانما لسلطة بن ـ غوريون. في اي حال، هكذا كانت نظرتي آنذاك. ولم يقلقني التحريض الشيوعي، ولم يكن الحكم العسكري يهدف الى مكافحته. بل على العكس من ذلك، فقد اعطى وجوده، بحد ذاته، الشيوعيين مادة ممتازة للتحريض. وعندما حاولت وزارة الداخلية التدخل فيما يجري على حساب صلاحيات الحكم العسكري، زعمت ان إلغاء الحكم العسكري سيساعد الشيوعيين. كان ذلك زعما عقيما، يهدف الى منع وزارة الداخلية من ولوج المنطقة، فهم لم يعرفوا كيف يعتنون بالعرب. كانت تلك مسألة مهنية لا سياسية. وماذا عساني اقول لهم، [هل اقول] انهم لا يساوون شيئا؟ لذلك قلت ان هناك خطرا شيوعيا. كان سكان اقرت فاسدين ومناهضين للصهيونية دائما وأبدا، واستحقوا ما جرى لهم. أما سكان كفر برعم فقد كانوا دائما وديين وتعاونوا معنا. وقد تم اجلاؤهم لأن ذلك موافق جدا للجيش. حدث هذا في زمن الحرب، وبعد ذلك اصبحت اؤيد اعادتهم. ويصعب علي شرح سبب عدم اعادتهم، لأن الأمر بات مسألة مبدئية، مشحونة بالعواطف، وغير عقلانية. وخضعت المسألة كلها لمبالغة فاقت كل تصور. ألم يكن هناك يهود انتقلوا من نهاريا الى رامات شارون، ومن رامات شارون الى غفعتايم*؟ فما المشكلة؟ ان القرى التي تم اخلاؤها كانت، في معظمها، شبه مهجورة. ورأينا ان من الافضل اخلاءها تماما. وكانت المشكلة الرئيسية المتسللين العائدين الذين طردنا بضعة آلاف منهم، لكننا لم نفلح في طرد عشرات الآلاف. لقد اخفقنا على هذا الصعيد: كان عدد العرب في الدولة يرتفع باستمرار.»(٧١) **

* مدينة صهيونية تأسست في ١٧ نيسان/ابريل ١٩٢٢ في موقع قرية ظهر سلمة في قضاء يافا. (المحرر)

** مع مرور الوقت تغير فحوى مصطلح المتسللين وأصبح يشار اليهم بالمخربين الذين يعبرون الحدود خلسة للقيام بأعمال نهب وارهاب. وازداد تسلل المخربين، ونشب في اعقابه جدل بشأن العمليات الانتقامية. وفي تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٩، دوّن بن ـ غوريون في مذكراته: «يعقوب (دوري) وموشيه دايان. هل نطبق عقوبات في قرية العويدنا التي تقع في جوار بيت جبرين. من الافضل، في رأيي، ان نتوجه =

كان منع عودة اللاجئين وتشجيع هجرة العرب عسيرين جدا على «لجنة تنسيق الدعاية بين الاقليات» التي عملت برعاية وزارة الاقليات. وكان هدف الرعاية «تعزيز ولاء ابناء الاقليات للحكومة وتسليمهم بالوضع.»

في احدى جلسات اللجنة، اقترح احد المشتركين القيام بدعاية واسعة النطاق للتحسن الذي طرأ على وضع عرب اسرائيل بعد قيام الدولة: اجر العامل العربي [فيها] يفوق اجر العامل في اي بلد من البلاد العربية، وفي المدارس العربية توزع وجبة ساخنة على الاولاد، وأُدخل نظام الخدمات الصحية الى القرى. ورد احد العاملين في مجال الدعاية، فقال: «من الجائز ان تكون دعايتنا ضارة، والويل لنا اذا نجحت، فربما جذبت العرب الى بلدنا فيتسللون اليه بجموعهم الغفيرة لأن حدود البلد مخترقة (...).» وذكر صاحب صحيفة «اليوم» شبه الرسمية انه خصص للقارىء زاوية في صحيفته فأعطي بذلك «مخرجا ومنفذا للأحاسيس المريرة المتراكمة في قلوب الاقليات.» وردوا عليه بقولهم انه يجب عدم خداع العرب: «انهم يعرفون انهم مغبونون. ان عمال المطبعة في صحيفة «اليوم» يتقاضون أجورا اقل من زملائهم اليهود.» ودلّهم احد مسؤولي وزارة الخارجية الذي كان هناك على طريق الحل الوسط، فقال: «ان كشف نصف الحقيقة ليس كذبا.» ثم تحدثوا بعد ذلك عن ميزات الافلام والصور ورسوم الكاريكاتور وعيوبها.(٧٣)

انعكس الجدل بين [سياسة] «اليد القوية» و[سياسة] «اليد اللينة»، بين الهدف القاضي بعزل عرب اسرائيل وبين دمجهم في حياة الدولة، في الصحف، كما انعكس فيها المأزق بين مبادىء سامية وواقع صعب، بين مثل ومصالح. وفي غضون ذلك، كان هناك ارتباك حقيقي ونفاق.

امعنت «صوت الشعب»، الناطقة بلسان الحزب الشيوعي، في الكفاح من اجل حقوق السكان العرب، وكانت حتى وقت قصير جدا تحصر نفسها في الكفاح من اجل حقوق الحزب الشيوعي، نشيطيه ومحازبيه. وواجهت «عال همشمار»، الناطقة باسم [حزب] مابام، مشكلة خاصة. كان الحزب يرفع راية دمج العرب في حياة الدولة، لكن انتماء قسم من رجالات الحكم العسكري الى صفوفه، مثلهم في ذلك مثل العديد من ضباط الجيش الاسرائيلي، [اثر

= أولا الى الفيلق [العربي] ونحذرهم بأسلوب ودي من انهم اذا لم يمنعوا الهجمات على مناطقنا، فاننا سنضطر الى التحرك. اذا لم ينفع ذلك على الاطلاق، فهل يضر؟ موشيه دايان يعتقد انه لن ينفع ولن يضر. سيأتي عرب فلسطينيون من شرق الاردن، وليس هناك ما نتكلم فيه معهم. انهم لم يتحركوا حتى الآن في الحالات التي ضربناهم خلالها (...) لو سألته ماذا كان سيقول اذا جاءنا الفيلق وضرب مستعمرة لنا، لكان رده كما يجب.»(٧٢)

في] ان تتجه الصحيفة نحو الاحتجاج على الوضع الاقتصادي المتدني لعرب اسرائيل، وعلى جور السلطات المدنية بحقهم. وخلافا لـ «كول هعام» (صوت الشعب)، فان «عال همشمار» لم تكثر من الاحتجاج على طرد المتسللين، فقد اقيمت مستعمرات عديدة لـ «هاشومير هاتسعير» ضمن قرى عربية مهجورة. وحتى «حيروت» المعارضة وجدت نفسها امام صعوبات: ان سياسة الحكم العسكري عبرت عن احساس اعضاء الحركة ازاء الاقلية العربية، لكنه كان ــ بتعبير الصحيفة ــ «حكم ماباي». وقاومت الصحيفة، في الاساس، استخدام قوانين الطوارىء الانتدابية. وكانت حركة حيروت، التي اسستها الايتسل، تخشى ان تُستخدم تلك القوانين ضدها.* وفي المقابل، هاجمت «حيروت» الحكومة لأنها لا تتشدد اكثر في سياسة «اليد القوية»، ولأنها لا تعمل بنشاط اكثر لوقف تسلل العرب. وهكذا فعلت صحف العرب، وصحيفة «هآرتس» ايضا التي تساءلت في مقال افتتاحي: «هل ستكون حدودنا مخترقة؟»[٧٥] ومع ذلك، امعنت «هآرتس» في انتقاد استبداد الحكم العسكري كلما مس القانون. واتجهت كل من «دافار» و«هادور»، بطبيعة الحال، نحو تأييد سياسة الحكومة، لكنهما خصصتا صفحاتهما لوجهات نظر كانت سائدة في حزب ماباي ضد الحكم العسكري وغيره. وكتبت «هادور» تقول: يسود الجمهور شعور بأنه كلما بكرنا في الغاء الحكم العسكري والقيود، كان ذلك افضل ليس للسكان العرب فحسب بل للدولة كلها أيضا (...).[٧٦]** لكن صحيفة صغيرة ضئيلة التوزيع اسمها «نير»،*** وهي لسان حال جمعية «ايحود»،**** وريثة «بريت شالوم»، عبرت وحدها بأسلوب راسخ متساوق منطقيا،

---

* قال مناحم بيغن عن قوانين الطوارىء: «ها أنذا اعلن هنا جهارا ان الكنيست سيكون غير جدير باسمه وبمهمته اذا لم ينبذ روث قوانين الطوارىء الجديدة التي طرحها وزير الدفاع لاقرارها. ونحن، رجالات المنظمة العسكرية القومية [الايتسل]، نعلن انه لن تقوم لتلك القوانين النازية قائمة، ولن تكون ولن نعترف بها، وسننتهكها نهارا وليلا، بل سنثير الشعب كله ضدها حتى لو كان علينا ان ندخل السجن.»[٧٤]

** روى موشيه شاريت لأعضاء كتلته ان بضع مئات من العرب في جنوب البلد، طردوا وأجبروا على عبور الحدود. ولاحظ الوزير كما لو كان آسفا: «لا يمكن، بأي حال من الاحوال، ان يتم ترتيب الامور كما فعل شبابنا في الفالوجة.» وأضاف كما لو كانت هذه حقيقة مدنسة: «انني لا اعتقد ان شباب ماباي هم من هذا الطراز.»[٧٧]

*** نير اي الشعلة، وهي مجلة حركة «إيحود». كان من محرريها كورت غرونمان وماركوس ليفنغر. (المحرر)

**** حركة يهودية رفضت تقسيم فلسطين. وتزعمها سنة ١٩٤٢ الحاخام يهودا مغنيس اول رئيس للجامعة العبرية، وضمت في صفوفها الكاتب يسرائيل شاحك وموشيه سميلانسكي. وطالبت باقامة دولة فلسطينية متحدة ثنائية القومية، وبانشاء اتحاد اقتصادي ــ سياسي مع سورية ولبنان والاردن. وقد حظيت هذه الحركة بتأييد ألبرت انشتاين ومارتن بوبر. (المحرر)

عن وجهة نظر انسانية صافية متحررة من القيود ومن الاعتبارات المنفعية. ففي نسختها الاولى طبعت تحت اسمها الشعار التالي: «من اجل الحقيقة، من اجل المحبة، من اجل السلام، من اجل العدالة»، ثم اقلعت عن ذلك فيما بعد.

الفصل الثالث

توزيع الغنائم

مساء الثامن والعشرين من شباط/فبراير، دخل احد جنود الكتيبة **١٦٩** مصادفة مبنى عربيا مهجورا، غير بعيد عن خط التقسيم بين جزئي القدس. اكتشف في الطبقة الأرضية مخزن بضائع يحتوي على كميات ضخمة من الأدوات الزجاجية. وبعد عشرة ايام اوقفت الشرطة في سوق محانيه يهودا جنديين من تلك الكتيبة، وفي حيازتهما رزمة من المخزن نفسه. وقد اسفر التحقيق في القضية عن ملف ضخم، مكتظ بالشهادات والأسماء. *

من الوثائق التي يحتويها الملف، اتفاق بين قائد سرية ومتعهدين التزموا اخلاء البضائع، قانونيا، الى مخازن القيم على املاك العدو، لقاء ٣٠ ٪ من قيمة البضاعة كما هو مألوف. وفي هذه الحالة، وقعوا تعهدا بحسم ١٠ ٪ من قيمتها لحساب صندوق السرية. وقد فسر القائد ذلك، فيما بعد، بأن تجاربه في الأحياء التي احتلت علمته انه لا يمكن السيطرة على الجنود في مثل هذه الحالات. واضطر، بحسب قوله، الى تأمين مكافأة لهم ولو مجرد دخل لصندوق السرية، لأنه خشي، ما لم يحدث ذلك، ان يشكوا في حصوله على منفعة ذاتية من القيم [على املاك الغائبين]. وقد سجل قائد الشرطة العسكرية في القدس، روزينبلات شمو ــ في الملف ــ ما يلي: «هناك الكثير من المبررات للجنود الذين أصروا على مطالبتهم بـ١٠٪ من العائدات، حين وجدوا ان مقاولين يوشكون ان يغتنوا بهذا المقدار وبصورة سهلة كهذه.»[١]

كان النهب والسلب، في اثناء الحرب وبعدها، شائعين جدا. وقال بن ــ غوريون في احدى جلسات الحكومة ان «المفاجأة الوحيدة التي واجهتني، وهي مفاجأة مرة، كانت اكتشاف عيوب خلقية في داخلنا، عيوب لم اشك في وجودها؛ اقصد النهب الجماعي الذي اشترك فيه كل اوساط الييشوف.»[٢] لقد سرق الجنود الذين دخلوا المنازل المتروكة، في المدن والقرى التي احتلوها، كل ما تطاله اليد: منهم من اخذ لنفسه، ومنهم من سرق «من اجل الرفاق»، او «لصندوق السرية»، وهناك من سرق «من اجل نواة [الاستيطان]» او «من اجل المزرعة»: أدوات منزلية، وأموالا نقدية، وجرارات زراعية، وشاحنات، وقطعانا كاملة.

* كان قائد الكتيبة دوف يرمياهو.

وروى الوزير باخور شالوم شطريت لزملائه في اللجنة الوزارية لشؤون الاملاك المتروكة انه زار بعض مناطق الاحتلال ورأى النهب بأم عينيه. وقال «ان الجيش أخرج من اللد وحدها ١٨٠٠ شاحنة محملة ممتلكات.» واعترف وزير المالية، كابلان، بأن «وزارة المالية او القيم على املاك العدو لا يسيطران، في الواقع، على الوضع. والجيش يفعل ما يشاء.» وقال القيم على املاك العدو، دوف شفرير، للوزراء ان قادة الجبهات ونوابهم معنيون بمنع اعمال النهب، «لكن امناء مستودعات الكتائب والفصائل المختلفة ليسوا كذلك.»[٣] أما دوف يوسف، الحاكم العسكري للقدس، فقد كتب لبن ــ غوريون: «ينتشر النهب من جديد (...) ولا يمكنني التحقق من صحة الاخبار التي تصلني كلها، لكن الانطباع الذي تكوّن لديّ هو ان لا رغبة كبيرة لدى القادة المحليين في الاهتمام باعتقال اللصوص ومعاقبتهم (...) انني أتلقى الشكاوى يوميا، وعلى سبيل المثال ارفق نسخة عن الرسالة التي تلقيتها من رئيس (دير) نوتردام دو فرانس. ان ضررا كبيرا قد يلحق بنا من هذا التصرف في هذا الدير. لقد بذلت جل ما استطيع لوقف السرقات التي يقترفها الجنود هنا، لأن لا مجال لوصول المدنيين الى هذا المكان. لكن، كما سترى من الرسالة، تتواصل هذه الاعمال عبر موقف مركزي للجيش. انني عاجز.»[٤] *

تضمن تقرير رسمي كتبه القيم على املاك العدو وصنفه: «سري وشخصي» السطور التالية: «(...) ان الهرب المضطرب لجماهير السكان العرب وترك املاك كثيرة بمئات وآلاف المساكن والمحلات والمخازن والمشاغل، وترك المحاصيل الزراعية في الحقول والفاكهة في البساتين وبيارات وكروم، وذلك خلال فوضى الحرب وفي خطوط الجبهة وفي فترة الانتقال السياسي من حكم الانتداب الى الحكم الاسرائيلي، وفي غياب سلطة مستقرة في كل مجالات الحياة، وضع الييشوف المقاتل والمنتصر أمام إغراء مادي خطر؛ فالاحساس الخلقي لأقلية مهاجمة دافعت عن نفسها وهزمت المهاجمين الكثر، اجاز التمتع بغنائم العدو. ان غرائز الانتقام، والتبرير الخلقي، والاغراء، ضللت الكثيرين. في هذه الظروف ربما كان من شأن عمل حازم الى اقصى حد، من الحكم العسكري والاداري والمدني والقضائي، ان ينقذ ليس الأملاك وحدها بل أفرادا وهيئات كثيرة أيضا من انحطاط خلقي. هذا العمل الحازم لم يتم،

* بعد زمن ابرق يوسف: «الليلة دخل نحو سبعة مسلحين، بلباس عسكري، ساحة مبنى جمعية الشبان المسيحيين (YMCA) وسرقوا ثلاث سيارات جيب تابعة للأمم المتحدة. لقد أسكتوا حرس الشرطة والعريف الذين كانوا يحرسون المكان بقولهم انهم رجال عسكريون ينفذون عملية عسكرية.»[٥] وقد وعد بن ــ غوريون ان يستوضح موشيه دايان، خلال اقامته في القدس، الاجراءات التي يجب اتخاذها ضد مأساة السرقات.[٦] لقد ازعج الموضوع بن ــ غوريون كثيرا. وقبل احتلال الناصرة اصدر تعليمات ليادين: «يجب استخدام مدفع رشاش بلا رحمة ضد اية محاولة نهب يقوم بها جنودنا.»[٧]

وربما لم يكن ممكن التنفيذ في تلك الظروف. فتهاوت الامور في هذا المجال الى منحدر بلا كوابح.»[٨] بعد ايام اماط القيم على املاك العدو اللثام عن السر: «لقد وجد المراقبون معظم البيوت مستباحة وخالية من الاثاث تقريباً.» وكشف في مذكراته: «لم تصل الى المخازن (التابعة للقيم على املاك العدو) ملابس قط، ولا أدوات منزلية أو أدوات مطبخ ولا مجوهرات أو اسرّة، باستثناء فرش وما شابه ذلك (...).» لقد أقفر اكثر من **٥٠** ألف منزل عربي، بينما وصل الى مخازن القيم على املاك العدو **٥٠٩** سجادات فقط. نسب القيم على املاك العدو ذلك كله «الى الغرائز الشريرة وضعف الوعي لدى كثيرين من الييشوف اليهودي، الذين لم يكونوا ليجيزون لأنفسهم في الحياة العادية تصرفا فاسقا ازاء املاك اجنبية.» لقد اجاز الموظف لنفسه [استخلاص] افكار فلسفية: «حقا ان التاريخ يعيد نفسه في كل ما يتعلق بالغريزة الانسانية.» واستطرد قائلا: «جاء في تاريخ شعب اسرائيل ببساطة ووضوح ومن دون اية تورية، النص التالي: «وخان بنو اسرائيل خيانة في الحرام فأخذ عخان بن كرمي بن زبدي بن زارح من سبط يهوذا من الحرام» (يشوع، الاصحاح السابع، الفصل الاول). ولدى تجوالك اليوم في البلد، في القرى والمدن وفي الاماكن التي تم فيها توطين المهاجرين والجنود المسرحين، وفي الوقت الذي ترى فيه الحياة الصاخبة (...) يمتزج فرحك بالحزن، حزن الظل ــ ظل عخان الذي اخذ من الحرام.»[٩] *

---

* بحثت الحكومة خلال جلساتها في اعمال النهب مرات كثيرة. وقد اعلن الوزير شطريت سرقات في يافا وحيفا، وسأل الوزير مردخاي بنطوف عن قافلة غنائم غادرت القدس. أما الوزير تسيزلينغ فقال: «قيل انه حدثت حالات اغتصاب في الرملة. استطيع ان اغفر عمليات الاغتصاب، لكن لن اغفر أعمالا اخرى تبدو لي اكثر خطورة. عندما ندخل مدينة ونسحب بالقوة الخواتم من الايدي والجواهر من الاعناق فهذه قضية بالغة الخطورة (...) كثيرون متهمون بذلك.»[١٠] وكتب عضو الكنيست امين جرجورة، رجل القائمة الديمقراطية للناصرة المرتبطة بماباي، تقريرا جاء فيه: «بعد يومين من احتلال الجش (غوش حلاف) من اعمال صفد، طوق الجيش القرية وفتشها. وفي اثناء التفتيش نهب الجنود بيوت السكان، وسلبوا نحو **٦٠٥** ليرات اسرائيلية وحلى وأشياء ثمينة اخرى. وعندما طالب المسلوبون بايصال استلام أخذوا الى مكان ناء وقتلوا باطلاق النار عليهم. احتج القرويون على هذا العمل امام القائد الحلي، مانو فريدمان، الذي امر باحضار الجثث الى القرية. لقد وجد اصبع احد القتلى مقطوعا: لقد قطع من اجل سرقة خاتم (...).»[١١] وتحفظ في ارشيف الدولة ملفات كثيرة فيها معلومات عن السلب والنهب، بما في ذلك اعمال عصابات اللصوص العربية: بعض هذه الملفات مقفل للتحقيق وبعضها «لم يفتح»، شأنها في ذلك شأن ملفات وزارة الاقليات المتعلقة بطرد السكان من منازلهم. ثمة ما يمكن استنتاجه فعلا من قائمة موجودات الارشيف التي تشابه بين امور اخرى هذه الملفات: عصابات لصوص: كفر برعم؛ تسلل الى قرى الاقليات: قرية اقرت، قرية معليا، قرية فسوطة؛ قوة عسكرية: سرقة املاك عربية متروكة؛ جيش الدفاع الاسرائيلي: احتلال وسرقة دير بيت جمال؛ املاك متروكة: احتفاظ من دون اذن (مزارع الجليل)؛ نهب: قوة عسكرية ــ دير تيرا سانتا؛ نهب: دير، اعتداءات، قائمة بالأغراض المنهوبة؛ نهب: =

ولد شفرير، القيم على املاك العدو، في مدينة تشتسلنيك في اوكرانيا. وهو من نشيطي «هابوعيل هاتسعير» [العامل الفتى] والمركز الزراعي ومشروع الاسكان «نافيه عوفيد». كان في الخمسين من العمر عندما تولى مهمات وظيفته بعد يومين من احتلال الرملة واللد، وكان خاضعا لوزير المالية. كتب فيما بعد: «كان واضحا لي ان طابع القضية التي كلفت توليها يتطلب عملا سريعا وجديا للسيطرة على المنطقة والممتلكات الهائلة الموزعة على مئات القرى والمدن.»[١٣] من اجل ذلك كان عليه ان يرسل رجاله من بيت الى بيت، ومن حانوت الى حانوت، ومن مخزن الى مخزن، ومن مصنع الى مصنع، ومن مقلع حجارة الى آخر، ومن حقل الى حقل، ومن بيارة الى اخرى، وأيضا من مصرف الى مصرف، ومن خزنة الى اخرى، ليحصوا، وليقيسوا، وليزنوا، وليخمنوا، وليستبدلوا أقفال المنازل ونقل ما يمكن نقله الى مخازن محروسة ومحمية، مسجلين بدقة الموجودات وأماكنها، والمجموع نحو **٤٥** ألف مسكن، و **٧٠٠٠** حانوت ومتجر، و **٥٠٠** مشغل وورشة صناعية، وأكثر من **١٠٠٠** مخزن. وكان هناك، في المقابل، ضرورة لمواصلة الحصاد وقطف الزيتون وجمع التبغ وقطف الفاكهة من البيارات، في مساحة تقارب ثلاثة ملايين وربع المليون من الدونمات، مع الحاجة الى العناية بقطاع الحيوانات ــ ماعز، اغنام، دجاج ــ وتسويق الانتاج وجباية ثمنه وايداعه خزينة الدولة؛ كانت هذه مهمة مستحيلة، حتى لو وضعت في تصرف القيم على املاك العدو كتائب من العمال المتخصصين والامناء: كان الجهاز الذي وضع في تصرفه محدودا جدا. وكان العمال الذين نجح في تجنيدهم عديمي الخبرة، في معظمهم، ولم يعرفوا نظم الادارة؛ وبعضهم لم يكن امينا: لقد سمع بن ــ غوريون ان بينهم لصوصا ومحتالين.[١٤] وكان القيم على املاك العدو يواجه مهمة صعبة للغاية، على الرغم من تعاون الجيش مع رجاله، واصراره على منع السلب، لكن الجيش لم يساعده في احيان كثيرة: مرت ساعات، وأحيانا ايام، حتى سُمح للقيم على املاك العدو ورجاله بدخول القرى والمدن المحتلة، وفي كثير من الحالات لم يبق لهم من عمل سوى تسجيل الدمار والنهب. كان هناك مواطنون كثيرون ايضا ممن قاموا بالنهب في حيفا ويافا والقدس. ونجحوا بطريقة او بأخرى في استباق مراقبي القيم على املاك العدو. وكتب ايضا الاديب موشيه سميلانسكي: «لقد استولت على السكان شهوة عارمة من الخطف؛ افراد، جماعات، كيبوتسات، رجال، نساء وأطفال، الجميع انقضوا على

= قرية الرامة ــ قوة عسكرية؛ نهب: قرية دير حنا، دعاوى تعويض من نهب قطعان القرية؛ نهب: عصابات في عكا؛ نهب: يافا؛ نهب: حيفا، اماكن مقدسة للمسيحيين؛ نهب: تخريب في املاك عربية؛ نهب: قرية طمرة ــ ماعز؛ نهب: شفا عمرو ــ غلال؛ نهب بضائع: الرملة، اللد ــ كتيبة **٨٩** (م. دايان). قال عضو الكنيست يوسف لام (ماباي): «لم يتصرف جلنا وقت الحرب، سواء بالنسبة الى الممتلكات او بالنسبة الى الأحياء، بالصورة التي كنا نتوقعها من الشعب اليهودي. ولدينا جميعا ما نخجل منه.»[١٢]

الغنائم: أبواب، ونوافذ، وعتبات، وملابس داخلية، وقرميد، وبلاط، وخردة، وقطع آلات (. . .).»[١٥] وفي الامكان ان نضيف ايضا كراسي مراحيض، ومغاسل، وحنفيات، ومصابيح كهربائية.

خلال زمن غير طويل بدأ القيم على املاك العدو توزيع الممتلكات المصادرة بنفسه. وورد في تقرير شفرير ما يلي: «في البداية تسلم الجيش بضائع ومواد وأعتدة، مباشرة من المحلات في المدن المحتلة (. . .) أما البضائع التي لم يكن الجيش بحاجة اليها فقد طرحت للبيع، حيث باعتها دوائر خاصة انشئت لهذا الغرض وجمعت، بقدر ما تتيحه ظروف الحرب، مهنيين لفروع التجارة الرئيسية. وتشكلت في حيفا حتى نهاية تموز/يوليو لجنة للمبيعات مؤلفة من أفراد مرموقين. كانت اللجنة فعالة جدا في تحديد اسس بيع البضائع. وسعت لتغيير المزاج العام إزاء الأملاك المتروكة. واستنتجت، بعد عدة اشهر، ان ليس في امكان لجنة شعبية الاهتمام اليومي بعمليات البيع (. . . بعد ذلك) اتفقت على اسلوب بيع المنشآت بطريقة العطاءات (المناقصات) وليس بالضرورة لأشخاص يزاولون المهنة نفسها. وبيعت سلع اخرى عن طريق مفاوضات مع رجال التجارة والصناعة طبقا لمهنهم. وكان للجيش، كما ذكر، اولوية في ان ينال كل البضائع والمواد التي يحتاج اليها. وأعطيت بعد الجيش افضلية تسلُّم بضائع مختلفة لوزارات الحكومة، ولمصابي الحرب، ولدوائر الوكالة اليهودية، وللسلطات المحلية، ولمؤسسات عامة مثل «هداسا» وغيرها. لم تبع بضائع لأفراد [للاستعمال الخاص] بل للتجار بطريقة الاعلان الداخلي، من دون اعلانات في الصحف. كانت اقسام المبيعات في الوزارات على اتصال مباشر بمنظمات التجار بحسب الفروع. ان معظم الورش التي كانت مطلوبة للجيش مثل ورش النجارة والحدادة والسمكرة والخراطة وما شابهها، بيعت له. وقدمت عروض لتشغيل الورش الصناعية في أماكن وجودها، بمقدار ما امكن ذلك. أما المصانع التي لم يتوفر مستأجرون لها فقد بيعت بالمزاد غالبا.

«بيع الاثاث: كانت هذه القضية صعبة ومعقدة، واستمرت زمنا طويلا. صادر الجيش من المنازل وتسلم من المخازن مفروشات بعشرات الآلاف من الليرات، للمكاتب وللملاجىء وللأندية وغيرها. وجمعت بقية المفروشات في المخازن. وقررت اللجنة الوزارية (. . .) تنظيم تخمين اسعار المفروشات بواسطة خبراء وتجار وتسليمها الى مشترين مختلفين، بموجب التخمين الذي سيجرى. وفي حال بقي بعض المفروشات بعد البيع العام، سيقرر القيم على املاك العدو طريقة بيعها. لقد تحدد ترتيب مجموعات المشترين على النحو التالي: عائلات مشوهي الحرب، عائلات الجنود، موظفو الحكومة الذين نقلوا من القدس، مواطنون أصيبوا في الحرب، وأخيرا المواطنون العاديون. عمليا، لم يصل البيع الى المجموعة الاخيرة، لأن المجموعات الاولى اشترت المفروشات كلها تقريبا.»

اقترح يوسف يعقوبسون، البستاني وفيما بعد رجل وزارة الدفاع، على بن ـ غوريون ان يأخذ مصنعا لانتاج الاحذية في يافا من اصحابه وأن ينقله الى ملكية مصنع «منعال» في غفعات هشلوشاه. سأل بن ـ غوريون وزير المالية رأيه فقال كابلان انه يجب عدم اخذ ممتلكات خاصة لعرب بقوا في يافا. اعترض بن ـ غوريون عليه: ينبغي لنا ألا نأخذ الممتلكات الموجودة داخل بيوت سكنية. لكن ذلك لا ينطبق على ممتلكات اخرى. أعلم يعقوبسون [بن ـ غوريون] ان الجيش يخلي من يافا يوميا ممتلكات بقيمة ٣٠ ألف ليرة. وأبلغ المحامي نفتالي ليفشيتس من حيفا ان في مصارف حيفا ودائع بقيمة ١,٥ مليون ليرة خاصة بالعرب. فقال بن ـ غوريون: «المصارف مستعدة لتسليم هذه الممتلكات.» وهكذا نالت ايضا مؤسسات الحكم نصيبها من الغنائم.[١٦] كتب وزير الزراعة، تسيزلينغ، الى بن ـ غوريون: «نحن نكرر البحث في جلساتنا، مرة بعد اخرى، في مسائل معالجة الاملاك المتروكة. وتعرب المنضدة [أعضاء الحكومة] كلها عن القلق والمرارة والخجل، ولم نصل الى حل. واذا كنا نتحدث، بصورة عامة، عن هذه الظاهرة من ناحية الفسق الخلقي لجنود ومواطنين الخ، فالاخبار تتكاثر عن عمليات تثبت، طبقا لحجمها وطابعها، انها لا يمكن ان تتم إلا بموجب تعليمات. انني أسأل (. . .) على اي اساس اعطيت التعليمات ـ سمعت انه تأخر تنفيذها ـ لتفكيك محركات ديزل (مضخات) في بيارات عربية (. . .) اذا كان هناك اساس للأخبار التي وصلتني، فان المسؤولية نابعة من مصدر حكومي (. . .) مع ذلك استمر ايضا النهب الشخصي.»[١٧] * ان تسيزلينغ من جانبه سيمثل، كالآخرين، مصالح محددة جدا. لقد اقترح عليه وزير العدل، روزين، التوجه الى المزارع ـ وبينها ايضا مزارع حركته ـ ومطالبتها بالتعاون مع القيم [على املاك الغائبين] طبقا للأنظمة التي نشرت في هذه الاثناء، والتي توجب على كل من يحتفظ بممتلكات متروكة ابلاغ السلطات بذلك خلال اسبوعين.

رد وزير الزراعة، من ابناء عين حرود،** انه «ليس من السهل» عليه التوجه الى المزارع بهذا الشأن. وفي جلسة للجنة الوزارية لشؤون الاملاك المتروكة أوصى تسيزلينغ بعدم اتخاذ اجراءات ضد رجال المزارع الذين «سيتأخرون» في تسجيل الممتلكات خلافا للأنظمة. وتمت الموافقة على توصيته. وقد كلفه زملاؤه الاجتماع الى امانات السر القطرية لمنظمات

---

* ورد في تقرير القيم [على املاك الغائبين]: «ان عملية واسعة الحجم لتفكيك المحركات جرت في كل بلد. نفذت العملية نظرا الى الضرورة الملحة لتجميع كل المحركات الموجودة في مضخات المياه في البيارات المتروكة بسبب السرقات الهائلة، وكي يصبح تشغيلها ممكنا وقت الحاجة.» وفي جلسة الحكومة ايضا تحدث تسيزلينغ عن نهب المضخات في البيارات.[١٨]

** أقيمت مستعمرة عين حرود على أراضي قرية قومية العربية التي تعرضت للتدمير سنة ١٩٤٨. (المحرر)

الاستيطان، والى وزير المالية كابلان، «للتحادث في شأن هذا الموضوع.»[١٩]*

بعد بضعة ايام من احتلال يافا خرج غيورا يوسفتال، المسؤول عن قسم الاستيعاب في الوكالة، لتقدير عدد المهاجرين الذين يمكن توطينهم في المدينة. كان الكثير من شوارع المدينة خاليا من الناس لدى وصوله، والبيوت مهجورة، والحوانيت مقفلة. والاجواء لا تزال مشبعة برائحة الحرب وبشيء من اثر الحياة التي ازدهرت هنا من قبل.[٢٢] كان يوسفتال، «بيكه»، طويل القامة، صارما ومستقيما، تزود بوثائق مختلفة بينها واحدة من القيم على املاك العدو وأخرى من بن ـ غوريون نفسه، اللذين وافقا على تخصيص يافا لاسكان مهاجرين. وقد سجل بن ـ غوريون في مذكراته: «ستكون يافا مدينة يهودية؛ الحرب هي الحرب.»[٢٣] وقد شكل يوسفتال، في مكتبه «لجنة اسكان» كلفها توزيع منازل المدينة على المهاجرين طبقا لمعايير ومقاييس حددها (مسبقا).[٢٤] لكن الوقت لم يكن وقت لجان ومقاييس؛ لقد سقطت بيوت يافا في ايدي الذين وصلوا اليها أولا.

يقول شفرير: «مع تزايد الهجرة في صيف سنة ١٩٤٨، بدأت المؤسسات المعنية بها، وكذلك المهاجرون انفسهم، المطالبة بتحرير أجزاء المدينة التي كانت محتلة والتي لم تخل البضائع، بعد، من مخازنها وحوانيتها، بالاضافة الى الورش والمصانع: في حيفا بدأ مكتب المراقب تسليم مساكن لقسم الاستيعاب التابع للوكالة اليهودية في شهر تموز/يوليو. وكان المقصود ان تُسلَّم المساكن والمتاجر، منطقة بعد منطقة، كلما اخليت البضائع منها. لكن هذا النظام لم يدم، فقد أُرشدت مئات العائلات من المهاجرين الى غزو المساكن، الامر الذي تسبب بفوضى سواء في جمع البضائع او في توزيع المساكن. وفي يافا كان الوضع اسوأ أضعافا؛ فقد تقرر فتح جزء من المدينة في ١٠ ايلول/سبتمبر، وتقرر ايضا توزيع معين للمنازل على قسم الاستيعاب، وعلى مؤسسات الجيش، وعلى موظفي الحكومة الذين نقلوا من القدس، وعلى أبناء المزارع المخلاة الذين أقاموا حتى ذلك الحين في المدارس بتل ابيب، وعلى عائلات جنود. لكن قسم الاستيعاب في تل ابيب خرق النظام ونظم غزوا لمئات العائلات (. . .) قبل الموعد

* افلح الجيش حين وصل شفرير الى بئر السبع، بعد يومين من احتلالها، في ان ينقل من المدينة بضعة جرارات، وترك البعض الآخر في مكانه لينقلها رجال القيم على املاك العدو «للتخزين» في المزارع المجاورة. وذكر شفرير في اللجنة الوزارية: «يجب الافتراض ان وزارة الزراعة لا تريد اخراجها [الجرارات] من منطقة النقب، وستكون هناك حاجة الى توزيعها على المزارع.»[٢٠] وذكر في تقريره أن أدوات وأجهزة زراعية بيعت بموجب توصيات من وزارة الزراعة. وبعد فترة وجيزة اصدر بن ـ غوريون تعليمات «للتحقيق في كل مزارع الجليل الاعلى والجليل الاسفل ـ كيبوتسات، وموشافيم، وموشافوت ـ عن القطعان (بقر، غنم منسي) والممتلكات الأخرى التي اخذت من القرى العربية في ايام الاحتلال وبعده ـ غلال، ومفروشات، وكل أنواع الحاجات ـ وتقديم قائمة مفصلة بها الى وزير الدفاع.»[٢١]

الذي تحدد لفتح المدينة لاستيعاب مواطنين. وكلفت الحكومة لجنة لمعالجة توزيع المساكن في يافا، وعقدت هذه اللجنة جلسات توصلت بعدها الى استنتاجات موثوق بها، لكن ضباطا كُلفوا المساعدة خرقوا النظام مرة اخرى، فسمحوا لمئات عائلات الجنود بغزو المدينة، وهكذا تعرضت يافا لغزوات وغزوات مضادة.»[٢٥] *

وطبقا لما كان مألوفا، من ينجح في وضع سرير في غرفة ما ويمضي ليلة فيها، يسيطر عليها. وذات يوم ظهر أبراهام عامشاليم، ١٩ عاما، في منزل محمد ابو صيرا في حي العجمي. وبعد ان هدد العربي برشاش، اقتحم بهو المنزل. وقدم هذا الشاب الى المحاكمة، حيث شرح للمحكمة انه على وشك الزواج ولا يملك مسكنا. فحكم عليه بالسجن خمسة أيام.[٢٧] وقبل ذلك ببضعة اسابيع، غزا بضع عشرات من الجنود مساكن العرب في حي وادي النسناس وشارع عباس في حيفا. فقد خرجوا في الساعة السادسة فجرا، مدججين بالأسلحة، وأخرجوا السكان بالقوة وألقوا أمتعتهم في الشارع ثم أدخلوا امتعتهم هم. وكان بينهم جنود من مشوهي الحرب. وقد اخرجتهم الشرطة، لكنهم عادوا في المساء فغزوا مساكن اخرى؛ هم ايضا لم يكن لهم مساكن.[٢٨] لم يتوقف العنف على بيوت العرب: فموشيه يوفيطار اخذ مسكنه من القيم على املاك العدو، ومع ذلك بقي يتعرض للازعاج كما روى؛ اشخاص يأتون الى المسكن جماعات من اثنين او ثلاثة، يقدمون انفسهم كموظفين في الوكالة اليهودية، ويطلبون رؤية الغرف، ويعاينون عقد الايجار، ويطرحون اسئلة: كم نسمة تقيم في هذه الغرفة وكم في تلك. عرف يوفيطار انهم ليسوا من موظفي الوكالة. وانتهت زياراتهم، في غير مرة، بالشتائم والتهديدات. خاف يوفيطار: «لا يوجد من اتوجه اليه.» وشكا: «لا يوجد شرطة مدنية، والشرطة العسكرية بعيدة عن هنا.»[٢٩] وكتب القيم على املاك العدو، شفرير، ما يلي: «مساعدة الشرطة محدودة، والشرطة العسكرية كأنها غير موجودة.» وجند شفرير، بموافقة وزارة الشرطة، عدة أفراد من الشرطة على حساب مكتبه.[٣٠]

في الإجمال، سكن المنازل المتروكة بين ١٤٠ ألف مهاجر و ١٦٠ ألفا.[٣١] وسكن المنازل المتروكة في يافا نحو ٤٥ ألف مهاجر، والمدينة السفلى في حيفا نحو ٤٠ ألفا، وعكا نحو ٥ آلاف. كان الشخص الذي كلف اسكان عكا مردخاي ساريد، الذي روى فيها بعد: «انكببنا على احدى الخرائط، وعرفت البيوت التي سأتسلمها. عملت مع مهندسين، وقررنا ما نفعله في كل مسكن. هنا أحواض، وهناك تبييض. هنا تبليط، وهناك مجارير.»[٣٢] لقد نفذت اعمال الترميم على حساب الوكالة اليهودية. وألزم القيم [على املاك الغائبين] اعادة

* نفى قسم الاستيعاب هذه الأمور بشدة. وبحسب قوله، فان وزارة الدفاع هي التي حاولت السيطرة على المنازل التي خصصت للمهاجرين.[٢٦]

الأموال من ايجار المسكن الذي يجبيه من المهاجرين.[33] ويذكر ساريد انه في احد الايام اهتم بسلامة المهاجرين، وأُبلغ انهم «يتدبرون امرهم». اجاب حسنا، فليتدبروا امرهم. وشرح له احد مساعديه معنى ذلك: «انهم يسحبون الطاولات والخزائن من البيوت المتروكة.» وهذا ما سمي عندهم تدبير الامر. «ذهل ساريد كثيرا»، على حد قوله، واستدعى النافذين من المهاجرين وطلب منهم اعادة كل الممتلكات المسروقة. وعلى حد قوله، اعيد «كل شيء تقريبا.»[34] *

أُرسل مردخاي ألكاييم لتنظيم توطين المهاجرين في الرملة. وكانت خطوته الاولى ان جال في المدينة، برفقة عاملين اجتماعيين. ثم نظم بعد ذلك عملية التوطين، بالتعاون مع حاكم المدينة العسكري، في منطقة تلو الاخرى. وروى فيما بعد: «قررنا ان نبدأ بمنطقة معينة؛ لم يكن هناك كهرباء لكن المياه كانت متوفرة. ولم تكن المنازل في حالة سيئة، والترميم لا يحتاج الى وقت طويل. بعد ثلاثة ايام، وصل أوائل المهاجرين ــ ٣٦ عائلة من اصل بلغاري. اتى ألكاييم الرملة من دون جهاز، عدا مساعدين اثنين. وجند رجاله من المهاجرين انفسهم. كانت مهمتهم التجول بين المنازل الخالية، لتسجيل عدد الشقق في كل بيت وتحديد العائلات التي ستسكنها. وعندما وصل المهاجرون كان رجال الكاييم يقودونهم الى الشقق، ويوزعون عليهم الغرف، ويحددون استخدام الخدمات. قال ألكاييم: «ألصق على كل باب اسم العائلة وعدد الغرف التي في عهدتها، كي لا تتمكن من غزو غرف اخرى.» وطبقا لأقواله، اشترى المهاجرون أثاثهم من القيم [على املاك الغائبين] وهناك من حمل معه شيئا ما من خارج البلد. لكن عندما سئل عما اذا كان هناك من سرق أثاث العرب اجاب: «طبعا كانت هناك فوضى غير قليلة. اشتروا وصادروا، وفي اية حال تدبروا انفسهم. ووجدت طلائعهم بقايا اثاث هنا وهناك، في حين لم يجد المتأخرون ما يبحثون عنه.»[37] هناك مهاجرون دخلوا عنوة غرفا لم تكن مخصصة لهم، واضطررنا الى اخلائهم بالقوة، بمساعدة الجيش.

حتى نهاية السنة وزع على المهاجرين في الرملة نحو ٦٠٠ حانوت. لم يكن لدى ألكاييم فكرة عما تحتاج اليه المدينة، وبناء على ذلك سافر الى تل ابيب. وروى فيما بعد: «تجولت في الشوارع، وأعددت قائمة بكل أنواع الحوانيت، وقدرت عدد محلات البقالة التي يجب ان نفتحها، وكذلك الملاحم، وصالونات الحلاقة، والمقاهي.» ووُزعت المحلات، طبقا لقوله، بناء على قرار اللجنة الذي أخذ في الاعتبار الجنود ومشوهي الحرب بصورة خاصة،

* اكد بن ــ غوريون، في احدى جلسات الحكومة، انه على علم بخطة إخلاء عكا من سكانها العرب «لمناسبة اقتراب الجبهة.» وقال ان الحكومة كلها ستضطر الى تقرير تنفيذ الاخلاء.[35] ان قرار اسكان عكا بالمهاجرين اتخذ في اللجنة الوزارية لشؤون الاملاك المتروكة قبل نحو عشرة اسابيع.[36]

لكن بعضها تم تأجيره لمن يستطيع دفع بدل الايجار.[38] وحتى ايار/مايو ١٩٤٩، كان قد اسكن في الرملة نحو ٨٠٠٠ شخص، وفي اللد نحو ٨٠٠٠ شخص. في ايار/مايو ١٩٤٩ ايضا، كان التيار الكهربائي مقطوعا، وكان هناك نقص في المياه، لكن معظم الاحزاب افلح في فتح فروع وأندية له في المدينة. ومن الاملاك المتروكة التي سلمت للمهاجرين ايضا، مشغل لصنع الأزرار، ومعمل للمرطبات، ومصانع لانتاج السجق والثلج والتريكو والمعكرونة.[39]

هذا ما حدث في القدس ايضا؛ ففي نيسان/ابريل تقرر تخصيص ٤٠٠ مسكن لموظفي الحكومة الذين سينقلون الى القدس. لقد منحوا اولوية السكن في البقعة وفي الحي الالماني والحي اليوناني. وتسلم قسم الاستيعاب منازل المصرارة ولفته. وقد عُين شاؤول افيغور، احد مساعدي بن ــ غوريون المقربين، حكما نهائيا في حال الخلاف في الرأي.[40] * وفي القدس ايضا، «دفع مئات الافراد الى غزو» المنازل الفارغة. ارسلهم بيت المهاجرين في البقعة للاستيلاء على مساكن خصصت لموظفي الحكومة وأمثالهم.[41] غزا مئات الأفراد مساكن من تلقاء أنفسهم. وتحفظ في ملفات قسم الاستيعاب أسماء الغزاة والى جانبها توصيات بالسماح لهم بالبقاء في المساكن التي صادروها، كمن نالها قانونيا: «كلاين موشيه: تاريخ الهجرة ١٩٤٩/٧/٢٢، بلد الأصل هنغاريا، عدد الانفس ٤، دخل عنوة في ١٩٤٩/١٢/٢١ المجموعة رقم ١٦٠، قسيمة رقم ٣٠٢، عدد الغرف ٢، تاريخ التوصية ١٩٥٠/١/٢٥؛ عميرام مسعود: هاجر في ١٩٤٩/٣/١، بلد الأصل الجزائر، عدد الانفس ٨، دخل عنوة في ١٩٤٩/٨/٢٣ المجموعة رقم ١١٢، قسيمة رقم ١٣، عدد الغرف ٢، تاريخ التوصية ١٩٥٠/١/٢٤.» ويبدو ان التوصية كانت في الاساس اجراء شكليا.[42] وحذر يتسحاق بن تسفي: «اذا ذهبنا (الى رؤساء الطوائف اليهودية لجمع التبرعات في خارج البلد) سيطرح السؤال ايضا عن كيفية استغلال المساكن العربية التي اخليت. فقد اخلي اكثر من ٤٠٠ ألف مسكن، وأسكن فيها ٧٠ ألفا فقط. قد يفسر هذا كاهمال من جانبنا، فاستغلال الاماكن المتروكة ضروري!»[43]

ان عشرات الآلاف من الاسرائيليين، جنودا ومدنيين، نالوا قسطهم من الغنائم: واحد [صادر] مقعدا وآخر بساطا، واحد [أخذ] آلة حياكة والثاني آلة حصاد، واحد [استولى على] مسكن وآخر [على] كرم زيتون. وبسرعة فائقة، ومن دون صعوبة، ولدت خلال ذلك طبقة ــ بالتأكيد صغيرة جدا ــ من الاغنياء الجدد، والتجار، والسماسرة، والمقاولين، والوسطاء

* لم يرد في وثيقة التوزيع هذه، كما درجت العادة، ذكر للمنازل في حي الطالبية الفاخر التي وزعت على موظفين كبار ومقربين وذوي علاقة على مختلف أنواعهم: موظفي حكومة، قضاة، اساتذة في الجامعة العبرية وأمثالهم.

على أنواعهم، والصناعيين، والزراعيين. هناك من اخذ ما أخذ بالسرقة، وهناك من نال ما نال بالقانون؛ نفذ جزء كبير من الصفقات هذه في مكان ما في المنطقة الحرام ما بين المحظور والمسموح به، ما بين النهب والمصادرة. كانت هناك لجنة لأملاك العرب عينتها قيادة الهاغناه قبل تعيين القيم على املاك العدو. ومع احتلال حيفا وطبرية وصفد ويافا والقدس، عينوا محامين محليين للاشراف على الأمــلاك المتروكة. لقد قرروا تركيز الرقابة في يد واحدة وزيادة نجاعتها نتيجة كثرة الأملاك وتكاثر النهب: في عهد الانتداب ايضا كان في البلد قيّـم، للاشراف على ممتلكات ألمانيه وغيرها. وفي الاشهر الاولى رأوا في القيّـم وصيا ذا مهمة موقتة فقط: كانت وظيفته الحفاظ على الأملاك التي خلفها اللاجئون وصيانتها جيدا الى ان يعودوا وتعاد أملاكهم اليهم. ان انظمة الطوارىء التي استخدمت اساسا لأعمال القيم، قيدت صلاحياته. فكان محظورا عليه بيع الممتلكات التي احتفظ بها، [ويجوز] له فقط تأجيرها لفترة لا تزيد عن خمس سنوات؛ لم ينتزع من اللاجئين حق الملكية. لكنهم، في معظمهم، لم يسمح لهم بالعودة ولم تعتزم اسرائيل ان تعيد اليهم ممتلكاتهم. صحيح ان الدولة اعلنت استعدادها لتعويضهم من ممتلكاتهم، لكن في اطار اتفاق سلام شامل فقط.(٤٤) وقد انشغل دافيد بن ــ غوريون ايضا، قبل انشاء الدولة، بمصير ممتلكات العدو، وقرر آنذاك ان «الممتلكات هي للحكومة.»(٤٥) لقد اهتم رئيس الحكومة كثيرا بطرائق مصادرة حق ملكية الأملاك المتروكة، وأكثر من استدعاء مستشارين قانونيين وخبراء آخرين وبحث معهم في مختلف الاحتمالات. وسجل في مذكراته: «(. . .) ان القانون يقيد الحكومة في الاستخدام الفعال والثابت للممتلكات، لكن الحكومة تتصرف عمليا في الممتلكات كما تشاء من دون اساس قانوني. حتى انها باعت مليون دونم للكيرين كاييمت (الصندوق القومي). في هذه الاثناء عاد بعض العرب وعزموا على رفع دعاوى. واقترح (يعقوب شمشون) شابيرا (مستشار الحكومة القضائي) تغيير قانون الأراضي وادخال بند يجيز للحكومة حق تملك الأمــلاك المتروكة. أما (زالمان) ليفشيتس فاعتقد ان هذا غير جيد ويجب وضع قانون خاص، اذ يجب عدم استخدام قانون للمصادرة، لأن قانونا كهذا يستوجب مدفوعات بحسب أسعار السوق. سألت شابيرا: اذا وضعنا قانون طوارىء (من دون الكنيست)، تنتهي صلاحيته بعد نحو ثلاثة اشهر، ينص على ان القيم على أملاك العدو مخول نقل الأمـلاك المتروكة الى سلطة الاعمار، وستحدد الحكومة سلطة اعمار في وزارة الزراعـة او في وزارة اخرى (وتنقـل الممتلكات فورا) الى هذه السلطة وبعد ثلاثة اشهر يبطل مفعول القانون، لأنه من غير المرغوب فيه اجراء نقاش علني في الكنيست: هل سيكون هناك مفعول قانوني حتى بعد ثلاثة اشهر على النقل؟ اجاب شابيرا نعم. وكلفنا كلا من شابيرا، ودولك (د. هوروفيتس)، وشفرير، وليفشيتس، اعداد مشروع قانون. لقد بدا (للحاضرين) ان من الافضل ان يمر

القانون في الكنيست.»(٤٦) *

بدءا من النصف الثاني لسنة **١٩٤٨** عملت وزارة العدل على صوغ القانون الخاص بأملاك الغائبين، الذي استهدف اشراك القيم على الأملاك في ملكية الممتلكات التي احتفظ بها حتى ذلك الحين كوصي، اي مصادرتها من اصحابها السابقين، وتخويله نقلها الى «سلطة الاعمار» التي كان من المفترض اقامتها لهذه الغاية بقانون آخر. لقد عرَّف مشروع وزارة العدل مصطلح «غائب» بمعناه الحرفي كمن غاب، اي كل من لم يعد موجودا على أراضي الدولة. وعندما ناقشت اللجنة الوزارية مسودة المشروع طلب موشيه شاريت تعديلها، وتعريف الغائب بأنه كل من هجر منزله بعد تاريخ معين (**١٩٤٧/١١/٢٩**) من دون الاهتمام بمكانِ وجوده بعد ذلك. لقد اشار في اثناء ذلك الى آلاف اللاجئين الذين هجروا قراهم وقطنوا في الناصرة: اذا لم يعرّفوا كغائبين فسيكون من الواجب السماح لهم بالعودة الى منازلهم. وطرح شاريت ايضا احتمال ان تحتل اسرائيل مدينة نابلس: كان ذلك، طبقا لأقواله، «احتمالا منطقيا». وبذلك ستعيد [الدولة] الى تخومها آلاف اللاجئين، وسيطلب هؤلاء العودة الى أماكنهم وتسلُّـم الممتلكات التي تركوها. لقد قُبل موقف شاريت، وطبقا لذلك عُدِّل التعريف الوارد في مشروع القانون وشمل كل من ترك «مكان سكنه المألوف» ولو كان لا يزال يقطن في اسرائيل.** بعد فترة وجيزة من تخويل القيم[على املاك الغائبين] صلاحية بيع الاملاك المتروكة لسلطة الاعمار، منحت السلطة ــ بدورها ــ صلاحية بيعها للكيرين كاييمت. لقد نفذت الصفقة بموجب مجموعة من الاتفاقات وقعت بين حكومة اسرائيل وهذه المؤسسات، وبينها وبين نفسها. وبذلك صودر أكثر من مليوني دونم من اصحابها. ان بضعة آلاف من هؤلاء سكنوا في اسرائيل، وعرَّفهم القانون كغائبين. وعلى الرغم من انهم تركوا منازلهم أياما معدودة فقط، عندما انتقلوا الى اقاربهم في القرية المجاورة او في المدينة القريبة، حتى انتهاء المعارك، فقد تم تعريفهم «كغائبين حاضرين». ولم يسمح لمعظمهم بالعودة الى منازلهم، وحتى أولئك اللاجئين الذين سمح لهم بالعودة الى أراضي اسرائيل بقوا غائبين طبقا للقانون، ولم تعد ممتلكاتهم اليهم. لكن سكان قرى المثلث، الذين ضموا الى أراضي اسرائيل في اطار اتفاق الهدنة مع الاردن، لم يعتبروا بصورة عامة غائبين،

---

* بعد نحو اسبوعين، اقترح بن ــ غوريون تخويل الوكالة اليهودية صلاحية مصادرة أراض غير مزروعة من اجل استيطان المهاجرين الجدد.(٤٧)

** بعد زمن كتب شاريت الى سكرتير الحكومة: «علمت الآن ان وزير الاقليات اعلن (. . .) انه يجب، في رأيه، الطعن بقرار اللجنة وطرح القضية في جلسة الحكومة. وبما انه من شبه المؤكد انني لن اتمكن من الاشتراك في جلسة الحكومة التي سيبحث فيها في اعتراض وزير الاقليات بسبب غيابـي عن البلد، اطلب تسجيل اصراري الشديد على التعديل (. . .).» وبقي التعديل كما كان.(٤٨)

واعتبرت أراضيهم التي اصبحت اسرائيلية نتيجة اتفاق الهدنة ممتلكات لهم. أما تلك الاجزاء من أراضيهم التي كانت قد احتلت قبل ضم المثلث، فقد اعتبرت ممتلكات غائبين، ولم يُعد معظمها الى اصحابه. *

تحفظ في احد ملفات مكتب رئيس الحكومة مراسلات بين بعض وزراء الحكومة، يتصدرها طلب تقدم به محام عربي من حيفا، الياس كوسا، الى عضو الكنيست دافيد هكوهين، يطلب فيه معرفة ما هو حكم غائب سمح له بالعودة الى اسرائيل في اطار مشروع جمع الشمل، وبعد عودته وضع يده على ممتلكات لم تكن له قبل هجرته، سواء بطريقة الشراء او بطريقة الوراثة او بأية طريقة اخرى. وقرر وزير العدل روزين ان الغائب يبقى غائبا الى الابد، إلا اذا تسلّم شهادة تثبت انه ليس غائبا، وما دام غائبا فان كل ممتلكاته هي ممتلكات القيم، وليس مهما متى حصل على املاكه وكيف. وقد اعترض وزير الشرطة على هذا التفسير، وبعد ايام عُدِّل القانون كي يتاح ايضا لـ«غائبين حاضرين» تملك ممتلكات جديدة.(٥٠) ومن غرائب القانون ايضا، التي وردت على لسان عضو الكنيست يوحنان بادر من «حيروت» (قوله): «بناء على هذا القانون فان جيش الدفاع الاسرائيلي هو جيش غائبين (. . .) فحكم كل شخص من البلماح خرج الى الحرب بعد ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر او في اليوم نفسه، اي ترك مدينته، هو كحكم الغائب ما لم يتسلم وثيقة تثبت انه ليس غائبا.»(٥١) وجمدت أملاك الوقف الاسلامي، ايضا، كأنها كانت املاك غائبين. لأن املاك الوقف، بحسب الشرع الاسلامي، هي ملك لله: «الله اصبح غائبا!» كتب ذلك الشاعر العربي راشد حسين في احدى قصائده** الاحتجاجية.(٥٢)***

---

* في النصف الثاني من سنة ١٩٥١، قدم تقرير يفيد بأن ٩ قرى من قرى المثلث البالغة ٢٠ قرية، هي قرى متروكة. ويقيم في باقي القرى ٢٠ ألف نسمة تقريبا. ومن اصل ١٠٧ آلاف دونم في المثلث، يعود نحو ٦١ ألف دونم منها الى سكان (حاضرين)، و ٤٦ ألفا الى غائبين ــ بعضهم «غائب حاضر». كما ان ما يقرب من ٢٠ ألف دونم من أراضي الغائبين كان مؤجرا لعرب والباقي ليهود.(٤٩)

** تقول القصيدة: الله اصبح غائبا يا سيدي
صادر إذن حتى بساط المسجد
وبع الكنيسة فهي من أملاكه
وبع المؤذن في المزاد الاسود
حتى يتامانا أبوهم «غائب»
صادر يتامانا إذن يا سيدي
أنا لو عصرتُ رغيف خبزك في يدي
لرأيت منه دمي . . يسيل على يدي. (المحرر)

*** عندما قدم الى الكنيست مشروع قانون أملاك الغائبين، حذر وزير المالية الكنيست من ان عليهم الاحتراس في الكلام: «نحن دولة صغيرة، لكن الاهتمام بها في العالم، بكل ما يجري في داخلها وكل =

في أيلول/سبتمبر ١٩٥١، ارسل القيم [على املاك الغائبين] م. بورات، الذي حل محل دوف شفرير، وثيقة سرية الى وزير المالية كتب فيها: «ان احتفاظنا بممتلكات السكان الشرعيين في البلد الذين يستفيدون، عدا ما ذكر اعلاه، من كل حقوق المواطنية المألوفة، هو مصدر تذمر كبير وغليان دائم في اوساط العرب ذوي العلاقة. ان معظم الشكاوى المقدمة من عرب ضد قسم القرى في دائرتنا هو شكاوى «غائبين» يشاهدون بحسرة غرباء يضعون ايديهم على ممتلكاتهم. ويحاول هؤلاء الغائبون بكل الطرائق اعادة تملك أراضيهم، ويعرضون انفسهم كمستأجرين لهذه الأراضي بايجار مبالغ فيه كثيرا. وبناء على الخط العام الذي تحدد في حينه (. . .)، لم تدرج دائرتنا على تأجير غائبين أراضيهم وذلك رغبة في تثبيت سيطرتنا على الأراضي المكتسبة، ومن هنا مصدر الشكوى والتذمر. ومن الواضح ان هذه السياسة لا تساعد في فرض روح مواطنية جيدة بين العرب الذين أعيدوا. ويتساءل البعض عما اذا كان من واجب الدولة فعلا، بعد ان اعادت عربا معينين او وافقت على تسللهم كأمر واقع، ان تثير استياءهم البالغ وتتركهم عرضة لتحريض سياسي حاد من جانب وسط سياسي معين. في رأيي المتواضع، الجواب سلبي. اي انه يجب ان يكون اتجاه الحكومة هو مطابقة مصطلح غائب بمفهومه القانوني التطبيقي مع مصطلح غائب بمعناه المألوف: غير حاضر. وكما ذكر، يجب ان يكون هذا هو الاتجاه. لكن ما هي امكانات تطبيق هذا الاتجاه. يبدو لي انه في هذا الوقت لا يوجد امكان عملي لتنفيذ الامر، على الاقل بالنسبة الى الممتلكات غير المنقولة. ان عدد الـ«غائبين» الحاضرين يبلغ الآن آلافا عديدة، معظمهم اصحاب املاك غير منقولة. وقد اصبح قسم كبير من هذه الممتلكات يخضع لحقائق منتهية، وفي مقدمها الاستيطان الأمني. ان كل محاولة لتسليم هؤلاء الغائبين ممتلكاتهم ستلحق ضررا بآلاف او بعشرات

= ما يقال فيها، انما هو اهتمام كبير. اننا موجودون كأننا في صالة عرض، حيث عيون العالم شاخصة الينا؛ يتفحصون، يستقصون، يحللون كل خطوة، كل عمل، كل كلمة.» وكرر كابلان التأكيد ان السلطات، سواء في الهند او باكستان، صادرت الاملاك التي تركت: لقد تحدث كمن يوخزه ضميره.(٥٣) وفي تقرير داخلي، ليس للنشر، أشاروا ايضا الى سوابق اخرى: صادرت تركيا ممتلكات الأرمن واليونان، وصادرت بلغاريا ممتلكات اليونان، وصادر العراق ممتلكات الآشوريين، وصادرت تشيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوغسلافيا ممتلكات الاقليات الالمانية.(٥٤) لقد استخدمت صلاحيات الحكم العسكري ايضا لمصادرة أراض: كان الحكم يطرد السكان من منازلهم او يمنعهم من دخول أراضيهم، وبذلك يحرمهم حراثتها. حينذاك كان وزير الزراعة يعلنها «أراضي بور»، اي أراضي لا يزرعها اصحابها. وكان الوزير ينقل هذه الاراضي، بموجب الصلاحيات الممنوحة له، الى آخرين لزراعتها. وهكذا أُبعد مزارعون عرب كثيرون عن أراضيهم، لكن من دون ان يصادر منهم حق ملكيتها. بالاضافة الى ذلك، أتاحت قوانين اخرى مصادرة أراض بطرائق مختلفة مثل: قانون تنظيم الاستيلاء على عقارات في ساعات الطوارىء (١٩٥٠)، وقانون استملاك الأراضي ــ مصادقة الأعمال والتعويض (١٩٥٣)، وغيرهما.

الآلاف من المستوطنين والقاطنين، وكذلك بالمعسكرات والمنشآت العسكرية.»(٥٥)

ومن اجل التخفيف من مرارة الغائبين الحاضرين، اوصى القيم [على املاك الغائبين] بالافراج عن ودائعهم المصرفية على الاقل، وايجاد طريقة لتعويضهم من ممتلكاتهم. ودأب مستشار الحكومة القانوني، ي. ش. شابيرا، طوال الوقت، على التوصية بذلك، على الرغم من انه لم يقع فريسة للأوهام. وقال في احدى الجلسات: «سندفع في النهاية تعويضات وسنعتبر لصوصا ايضا.»(٥٦) وهكذا كان. فقد اقترحت الدولة التعويض على اقلية من اصحاب الممتلكات فقط. ولم تكن مقترحاتها مغرية: قلائل من اصحاب الممتلكات قبلوا التعويض، ولم يعتبروه بصورة عامة تعويضا ملائما.(٥٧) *

عندما ناقش الكنيست اعمال القيم [على املاك الغائبين] ادعى عضو الكنيست يعقوب غيل، عضو الصهيونيين العموميين، ان ٩٠٪ من الأملاك المتروكة سلمت الى اعضاء ماباي. وقال: «ان احزابا اخرى ويهودا أفرادا لا ينتسبون الى اي حزب، مظلومون ولا يستفيدون من اية منفعة من هذه الأملاك.» وأورد عدة امثلة: «طلب مزارعو الخضيرة ارضا اضافية وتفاوضوا مع القيم [على املاك الغائبين]. وفي احد الايام المشرقة، وجد هؤلاء المزارعون ان الكيبوتسات المجاورة استولت على الأرض. وطلب يهود آخرون في هيرتسليا ارضا متروكة بالقرب من المستعمرة. فكان الجواب ان الارض يملكها الوقف [الاسلامي]. والآن يقام على ارض الوقف هذه حي سكني لأعضاء الحزب الحاكم. ان معظم الاراضي المتروكة سلم الى فئة واحدة فقط من سكان الدولة. وقد قدمت استجوابا الى وزير التموين والتقنين: لماذا يوجد في يافا، بالاضافة الى حوانيت المهاجرين الجدد ومشوهي الحرب، محلاّ همشبير وتنوفا [تعاونيتان للمواد الغذائية]؟ فأجابني بأنه لم يفعل ذلك.»

حقا ان القيم على املاك العدو هو الذي فعل ذلك! يقولون بصورة رسمية: كل من يسبق ينال، وكل من يسبق يستطيع ان يحظى بحانوت في يافا، لكن من سبق ومن نال؟ مرة اخرى هذه المسألة تتعلق بالسلطة. كانت تعاونية همشبير تأتي دائما في الوقت الملائم، فلملفاتها الاولوية دائما، ولها سبيل للوصول الى غرف الوزارات في كل مكان ودائما في الوقت الملائم.

* تحفظ في احد ملفات وزارة الخارجية مراسلات تربط احتمال ان تدفع اسرائيل تعويضات للاجئين العرب بامكان دفع ألمانيا تعويضات لليهود بسبب جرائم النازية.(٥٨) وفي مرحلة معينة، جرى الحديث ايضا عن امكان استخدام الممتلكات العربية في ارض ــ اسرائيل رهينة للممتلكات اليهودية في الدول العربية. كان هذا اقتراح ب. ش. شطريت، الذي رفضه مستشار وزارة الخارجية القانوني، فكتب قائلا: «في نظر الدولة التي تتطلع الى اصطباغها بصبغة حضارية، فان فكرة رهائن تعتبر عملا شنيعا.» وعندما اجيز بيع أملاك عربية متروكة، ابرق موفدو مؤسسة الهجرة في العراق محتجين ومستغربين: «وماذا سيكون مصير المنازل التي (يملكها اليهود) هنا؟!»(٥٩)

ليس في يافا فقط، بل في الرملة واللد وأم الفحم والناصرة ايضا. التجارة اليهودية الوحيدة هي التي تمارسها همشبير وتنوفا. والقيم على املاك العدو يفعل ما يشاء في هذه الأملاك لمصلحة الحزب الذي ينتمي اليه ولمصلحة رفاقه وأصدقائه (...) وأصبحت كل الدولة مكتبا سياسيا واحدا.»(٦٠)*

صرف موظفو القيم على املاك العدو جهدا كبيرا في تسوية القضايا التي وصلت الى علمهم. فهم يدققون فيها كأنها وحدها المخالفة للقانون وأنظمة الادارة. كان في ذلك شيء غير مألوف في جو الفسق العام الذي يحيط بهم. وفي نهاية تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٨ كتب السيد أ. انجل، من مكتب القيم على الاملاك المتروكة في القدس، الى قسم الاستيعاب التابع للوكالة يقول: «علمت ان السيد برزيلاي، المسؤول عن اسكان المهاجرين من قبل قسمكم، درج على اخراج أثاث وأمتعة اخرى من منازل متروكة في الحي الألماني كي يسلمها (الى مهاجرين). وعلمت ايضا انه في يوم ٣ تشرين الثاني/نوفمبر اخرج بيانو. وبناء عليه، اطلب من حضرتكم لفت انتباه السيد برزيلاي الى عدم اخراج اية اجهزة او امتعة من مناطق الاحتلال من دون موافقة مسبقة من مكتبي. وأطلب إعلام السيد برزيلاي بأن يقدم، بسرعة، قائمة بالأملاك المتروكة التي اخرجها حتى الآن، مع ذكر اسماء الافراد الذين سلمهم الأملاك وعناوينهم.» وبعد اسبوع، رد قسم رعاية المهاجر على القيم [على املاك الغائبين] بما يلي: «(...) في حديث مع السيد انجل، في مستهل عملنا بمنتصف هذه السنة، لاحظ الزميل المحترم ان على القيم [على املاك الغائبين] ايجاد تسوية للأثاث. ولم يتم اي شيء في هذه القضية. وعلى مر الايام، سطا جنود ومواطنون غير مرة على المنازل التي اصلحت أقفالها، وأخرجوا أثاثا وأمتعة مختلفة. وفي معظم الاحيان فعلوا ذلك في الاضرابات والاعياد، في الوقت الذي لم يكن فيه عمالنا في المكان. وبمقدار ما وصلت هذه الامور الى علمنا، ابلغنا ضباط الحكم العسكري في منطقة الجنوب بذلك. علينا ان نحدد انه لم يخرج اي شخص من

* حتى اعضاء الوكالة (اليهودية) تشاجروا احيانا على تقاسم الغنائم. واشتكى موشيه كول، مسؤول قسم هجرة الشبيبة [بقوله]: «كان في القدس كلية عربية، وأردت ان اقيم مؤسسة للأطفال المرضى. ثم جاء قسم الاستيعاب وأعلن رغبته في انشاء مستعمرة للعجزة هناك وهو صاحب القرار.»(٦١) وتحفظ في احد الملفات قائمة منازل وزعت، كما يبدو، على اساس ائتلافي: «منزل كمأوى اطفال ويزو [منظمة النساء الصهيونيات]؛ بيت كمقر لمنظمة الامهات العاملات؛ غرفة للحزب التقدمي؛ منزلان كمقر لرائدات هبوعيل همزراحي؛ منزل لمدرسة «غيئوليم» ــ التيار العمومي؛ كنيس للطائفة السفارادية.»(٦٢) ووزع وزير المالية على أعضاء الحكومة قائمة مماثلة عن توزيع مقار للأحزاب في يافا.(٦٣)

اعترض الحاخام يعقوب موشيه طوليدانو على توزيع الاملاك المتروكة على اساس حزبي، لأن ذلك يحرم غير الحزبيين وهم، على حد قوله، أبناء الطوائف الشرقية.(٦٤)

رجالنا اية اجهزة او امتعة من مناطق الاحتلال. أما بشأن البيانو، فقد علم برزيلاي في ٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٨، ان بعض المهاجرين ينقل أثاثا، بينه بيانو، من منزل فرانك في الحي الالماني لاخراجه من المنطقة وبيعه في المدينة. وعرقل برزيلاي بتدخله تنفيذ نيتهم، وأدخل البيانو مسكن احد المهاجرين الذي تعزف زوجته على البيانو، للمحافظة عليه. «اننا ننوي استخدام هذا البيانو لحاجات عامة في المؤسسات ـ روضة اطفال، ومدرسة، ونادٍ الخ ـ التي نزمع اقامتها للمهاجرين في الحي الالماني.» وقد مر اسبوع قبل ان يؤكد السيد انجل، مدير مكتب القيم على املاك الغائبين في القدس، تلقي الرسالة ذات الرقم ٢١٨٦/٩١٣١/٢٣/٧٧، وطلب اعلامه بمكان وجود البيانو الذي اخرج من منزل فرانك، وذلك بذكر اسم المهاجر وعنوانه بالضبط. وكتب الموظف: «بما ان البيانو ملك متروك، فانني ارغب في نقله الى مخزني. لن تكون هناك معارضة من جانبي لبيع البيانو المشار اليه اعلاه الى احدى المؤسسات التي اشرتم اليها في كتابكم، بناء على توصية مكتبكم. وبعد اسبوع آخر، اعلن قسم رعاية المهاجر ان البيانو موجود في المنزل رقم ١٢، في الشارع الرئيسي للحي الالماني، وهذا المنزل يحمل الرقم ٨ في ملفات القسم.»(٦٥) *

وزعت الاملاك القروية بطريقة مشابهة لتوزيع الاملاك المتروكة في المدن. وبينما الحرب على اشدها تجول ليفي شكولنيك (اشكول)، رئيس قسم الاستيطان التابع للوكالة اليهودية، في القرى العربية التي افرغت واحتلت. ووجد، على حد قوله، «آثارا لما كان وزال»، منازل مسطوا عليها، منهوبة ومحروقة، والمنظر «يلتقط ويتراكم عبر العينين والانف والرأس والدماغ والدم والقلب (...).» وفي احد أيام النصف الثاني من سنة ١٩٤٨، ذهب اشكول الى القدس يرافقه السائق والى جانبه مساعده رعنان فايتس، نجل يوسف فايتس. ومر اشكول، وهو في طريقه، بالقرب من البرّية، قرية صغيرة على رأس تلة صخرية جنوبي شرقي الرملة المطلة على طريق اللطرون. وعندما لاحظ البيوت الحجرية المتروكة خطر في باله ان يُسكن فيها مهاجرين جددا. وروى فيما بعد: «لم أكن أعرف التفاصيل بعد، لكنني اعتقدت ان المكان المهجور يشكل ايضا حلولا لجمع شملنا.» اوقف [اشكول] السيارة وجال مع فايتس في القرية. وفي أثناء سفرهما الى القدس، وضعا الخطة، وحينما وصلا كان قد حل الظلام. وقال اشكول: «في ذلك المساء بالذات اتصلت بالحركات الاستيطانية، ودعوت المهندسين، وطلبت مشورة ونصحا من سلاح الهندسة، وبدأت تحريك العجلة الكبيرة التي ساعدتنا، في ذلك الشتاء، على تحويل ما يزيد عن ٤٥ قرية متروكة الى مستعمرات تزخر بالحياة من

* تحفظ في ملفات وزارة الاقليات مراسلات مستمرة بين القيم وحارس في احدى القرى المتروكة اعترض على تأجيل دفع اجره. طلب القيم معرفة عدد الاشجار في كرم الزيتون الذي سلم له للمحافظة عليه، وكان عددها ٧٩٠٧ أشجار.(٦٦)

جديد.»(٦٧) *

في النصف الثاني من سنة ١٩٤٨، اعد قسم الاستيطان التابع للوكالة اليهودية قائمة بعشرات القرى العربية، وأوصى بأن يُوطَّن فيها وفي جوارها نوى استيطانية ومهاجرون جدد. كان معظم هذه القرى مهجورا، لكن القليل منها لم يكن فارغا تماما؛ اذ خصص بعضها للتدمير بموجب خطط الاستيطان. وكان مقدرا لأراضيها ان تستخدم للاستيطان الجديد.** لقد اخذ المخططون في الحسبان ايضا أراضي ذات ملكية يهودية. وشددوا في خططهم على ألا تكون اكثرية الاراضي التي ستصادر من العرب زراعية، وعلى ان يبقى منها بعد مصادرتها ما يكفي اعالة القرى العربية التي بقيت [عامرة] ايضا. وجرى التخطيط بتعاون وثيق مع الجيش الاسرائيلي الذي أراد نقاطا معينة، لم يطلب احد الاستيطان فيها. كان الافتراض ان تحصن المستعمرات الجديدة حدود البلد، وتمنع عودة القرويين الذين هربوا وطردوا خلال الحرب وبعدها.(٧٢) ورأى يوسف فايتس، مسؤول الكيرين كاييمت ليسرائيل (الصندوق القومي الاسرائيلي)، في خطط الاستيطان الجديدة استمرارا مباشرا للجهود التي بذلتها الحركة الصهيونية طوال سنين كثيرة، بواسطة الكيرين كاييمت، «لانقاذ» ارض البلد. خلال ذلك اشترى (الكيرين كاييمت) مئات آلاف الدونمات من اصحابها العرب، دونما هنا وآخر هناك. وحتى بعد اعلان الاستقلال واصل الشراء. وكتب فايتس في مذكراته: «أشَّرت على الخرائط الى جانب مساحات أراض من قرية الى قرية، وكنت اتوق الى ابتلاع كل

* في نهاية تشرين الثاني / نوفمبر، قال أيضا لأعضاء المجلس التنفيذي للوكالة اليهودية انه لم يتجاهل احتمال عودة جزء من السكان السابقين الى المناطق المتروكة. وشرح انه «بسبب ان زراعتنا ستكون كثيفة فسيكون ممكنا ايضا تسليمهم مناطق للزراعة.» وعلى حد قوله، لم يكن لديه ميل الى اسكان منازل العرب بالمهاجرين إلا بصورة موقتة فقط، الى ان يبنوا منازل جديدة لهم.(٦٨)

** وجد بين وزراء الحكومة من اشتكى على مسمع بن ـ غوريون من ان الجيش يدمر بعض القرى التي احتلها. وطرح الوزراء شطريت وبنطوف وتسيزلينغ الموضوع في جلسات الحكومة، مرة تلو الأخرى. وقال تسيزلينغ في احدى الجلسات: «بينما كنت اسير في الطرق كانت تصلني شائعات عن تدمير املاك. وأريد ان اعرف من اعطى امر القيام بذلك. كنت في بيسان، وبلغني اشخاص اثق بهم ان القائد العسكري تلقى تعليمات لتدمير المكان (...) انني اقدم حقائق عن قرى رأيتها مدمرة. وشاهدت في عيمك حيفر [وادي الحوارث] قرى عربية لم تدمر خلال القتال، بل تركها سكانها. وهي الآن مدمرة ويجب ان يُستدعى من دمرها للتحقيق معه (...).» وقال بن ـ غوريون: «عندما تتحدث عن بيسان فهذا امر محدد. لكن عندما تقول بصورة عامة ان قرى دمرت، فانني لا استطيع ان ارسل اشخاصا للبحث عن قرى مدمرة.» فقال تسيزلينغ: «من دمر قرية سركس الموجودة في عيمك حيفر؟ في احدى الجلسات السابقة ذكرت اسم (موسى) غولدنبرغ (من سكان بيت ألفا) الذي تحدث عن تعليمات لتدمير (٤٠ قرية) وذكر اسمك. انني لا اعتقد ان ذلك تم باسمك فعلا. انني لا اتكلم الآن في الناحية السياسية، بل في امور تجري تلقائيا. ثمة امر اقره ايضا، وهو انني لن اقبل الواقع الذي يتم تلقائيا.»(٦٩) ليس كل شيء «يجري تلقائيا». في ايلول/سبتمبر، ابلغ بن ـ غوريون الى اعضاء =

شيء.»(٧٣) * وأمضى فايتس معظم وقته متجولا في ارجاء البلد، حيث ألهبت القرى المتروكة خياله: أرهبته في الليل لكونها فارغة ومظلمة. وعندما رآها في النهار، ذات مناظر خلابة، مزهرة وخالية من البشر، خجل ــ على حد قوله ــ لأن اليهود لم يستوطنوها بعد. وكتب: «هذا بلد واسع، والاحساس بالاتساع ينعش القلب.»(٧٦) بعد قليل، قررت الحكومة ان تشجع اسكان المهاجرين في كل القرى المتروكة في الجليل. وورد في قرار الحكومة «ان اللجنة الوزارية لشؤون الأملاك المتروكة ستدرس القضايا المتعلقة بالعرب.»(٧٧)**

بعد بضعة ايام من ذلك، جال رجال مكتب الصحة في احدى القرى المتروكة بضواحي القدس: كان يرافقهم ممثلو الحكم العسكري وممثلو قسم الاستيعاب التابع للوكالة اليهودية. وقد وجد موظفو مصلحة الشؤون الصحية في القرية بعوضا ناقلا للملاريا، فأعلنوا انه قبل ان يصبح اسكان القرية ممكنا يجب رش المنازل بمادة د. د. ت. وتعقيم آبار المياه. كانت هذه مشكلة مالية. واقترح مكتب الصحة الاستعانة بمتطوعين لانجاز العمل. وأكد مكتب الصحة أن العمل سهل جدا، واقترح استعارة قفازات واقية للأشخاص الذين سيقومون بعملية الرش. وقد رد المسؤول عن قطاع القدس بأنه حتى الساعة لا نية في اسكان القرية. لكن ممثلي قسم الاستيطان التابع للوكالة اليهودية الذين جالوا في ارض القرية كتبوا في تقريرهم

= اللجنة الوزارية لشؤون الاملاك المتروكة ان اللواء تسفي ايلون، قائد الجبهة الوسطى، يرى ضرورة «تدمير جزئي» لـ ١٤ قرية عربية. لقد شرح اللواء لرئيس الحكومة ان تدمير القرى مطلوب لأنه «بسبب النقص في الطاقة البشرية للاستيلاء على المنطقة والتحصن في العمق، ثمة حاجة ملحة الى ايجاد قواعد دفاعية في عمق القطاع.» وقال بن ــ غوريون للوزراء: «بما ان هناك صعوبات كبيرة في انعقاد لجان، اطلب منك ابلاغي رأيك مكتوبا. سأنتظر ردك ثلاثة ايام (...) وسيعتبر عدم الرد موافقة.» طلب الوزراء مزيدا من التوضيحات.(٧٠) وفي ايلول/سبتمبر ١٩٤٩، ناقشت الحكومة تدمير المدينة القديمة في طبرية. وخلال ذلك استندوا الى رأي يغئيل يادين في وجوب تدمير المدينة القديمة كلها، عدا الاماكن المقدسة، وذلك لمنع احتمال عودة العرب اليها.(٧١)

* اعتقد بن ــ غوريون ان الأموال تذهب هدرا، وفضل مصادرة الاراضي، ورأى ان استعداد الكيرين كاييمت لدفع ثمنها يرفع سعرها فقط.(٧٤) وقد واصل فايتس الشراء لأنه، بين امور اخرى، خشي ان يفقد الكيرين كاييمت، بأجهزته، مبرر وجوده ويقفل. وكتب بمرارة قائلا: «ان تفكير بن ــ غوريون وكابلان هو ان الدولة فوق الجميع، وليست المنظمة الصهيونية إلا أداة مساعدة، ولذلك ستبقى قائمة طوال الفترة التي ستكون خدماتها فيها ضرورية.»(٧٥)

** في آب/اغسطس ١٩٤٨، بحثت اللجنة الوزارية لشؤون الاملاك المتروكة في اقامة ٦١ مستعمرة جديدة. واقترحت المؤسسات المسؤولة عن الاستيطان الاكتفاء، في هذه الاثناء، باقامة ٣٢ مستعمرة على مساحة ١٢٠ ألف دونم، منها: ٥٨ ألف دونم أراض عربية، ونحو ٢٠ ألف دونم أراض حكومية، ونحو ٢٠ ألف دونم أراض أخرى، خصوصا ألمانية. وفي احد الامكنة أملاك للوقف [الاسلامي]. وهناك ٢٣ ألف دونم أراض يهودية. وأبدى الوزراء رأيهم في مستقبل السكان العرب، وطرحوا مقترحات لترتيب نقلهم قانونيا: لقد وصف وزير الزراعة الترتيبات القانونية بـ «الخرافة».(٧٨)

لدى عودتهم ما يلي:

«(...) لا نملك معطيات عن مساحة الاراضي، اذ لا توجد خرائط دقيقة تظهر مساحة القرية وخراجها. لكن بمقدار ما يمكن ان نحكم من معاينة المكان، فان الاراضي القابلة للاستغلال الزراعي كبيرة، وتبلغ مئات الدونمات من الاراضي الجيدة والملائمة للزراعة. لقد حرث رجال القرية السابقون هذه الاراضي سنين كثيرة، وزرعوا حول البيوت حدائق وأشجارا مثمرة وأشجار زيتون توفر اكتفاء ذاتيا للمستوطنين العتيدين. وفي ضوء المعطيات المذكورة اعلاه، وجدنا انه سيكون من الملائم تقسيم القرية الى نموذجي استيطان، هما: أ ــ حي مع مزرعة مساعدة مبني على مساحة ٥ دونمات، يخصص فيه لكل مستوطن منزل وفناء. قطعة ارض لزراعة الخضروات والأزهار وأشجار الفاكهة. اضافة الى ذلك، سينشىء المستوطنون مزرعة دجاج تتسع لـ ٥٠٠ ــ ١٠٠٠ طير؛ ب ــ سيستخدم وسط القرية لاسكان حرفيين وتطوير ورش ومقالع حجارة، وسوف يعتاش قسم من الحرفيين من عمله في المكان نفسه وفي مدينة القدس ايضا. هذان الشكلان من الاستيطان يمكن ان يستوعبا معا نحو ١٥٠ ــ ٢٠٠ عائلة، اي ما يعادل ٥٠ وحدة مع مزرعة مساعدة، والباقي يكون للسكن فقط. والأبنية بصورة عامة مبنية بشكل اصيل وجميل، ولا تتطلب اصلاحات اساسية. وهناك ايضا بالقرب من كل منزل بئر مياه للاستخدام المنزلي. ان قرب انبوب المياه الرئيسي، الذي يزود القدس، يتيح ايضا تزويدا اضافيا وقت الحاجة. صحيح انه لا توجد مراحيض عصرية، لكن هذا الامر يمكن اصلاحه. يوجد في القرية ايضا مبان عامة، مثل مدرسة ومقر رئيسي للمؤسسات العامة الخ (...).»

في الاسابيع اللاحقة نشب سوء تفاهم بين قسمين من اقسام الوكالة اليهودية، فكل منهما يريد ان يتسلم القرية! لكنهما اتفقا، في كانون الثاني/يناير، على ان يتسلم قسم الاستيعاب [القرية] كي يقيم على ارضها معسكر مهاجرين. لقد اتخذ القرار بذلك في جلسة شارك فيها شاؤول افيغور ايضا. وقيل في المحضر ان موافقة افيغور كموافقة رئيس الحكومة. اذن أقاموا معسكر مهاجرين في القرية. وفي الاسابيع التالية، بحثوا عن مقاول تكون أسعاره ارخص من أسعار شركة سوليل بونيه. وأقنعوا شركة «هميكاشير» للمواصلات بافتتاح خط باصات الى المكان، كما أقنعوا وزارة البريد بأن تربطه بشبكة الهاتف. وطلبوا من رئيس البلدية، دانييل اوستر، المساهمة، فمد انبوب مياه سمكه ٤ إنش. وفي مقابل معسكر المهاجرين، أسكنوا في القرية مستوطنين قادمين من بولندا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا، اعضاء نواة كانت مرتبطة ببوعالي أغودات يسرائيل. وأقامت تعاونية كوبات حوليم الاستهلاكية فرعا لها هناك، كما أقيم كنيس. وأرسلت وزارة المعارف والثقافة تسأل عما اذا كانت هناك حاجة الى صفوف للتدريس. وحتى صيف سنة ١٩٤٩، تمكنوا من حراثة ٢٠ دونما في كرم الزيتون،

وتسويق ٣٠٠ صندوق خوخ قطفوها عن اشجار القرية. وفي المقابل، بدأوا قطف العنب، وقامت مستعمرة جديدة هي غفعات شاؤول ب، دير ياسين سابقا.(٧٩)

قبل ذلك بنحو ١٥ شهرا، هاجم رجال الايتسل وليحي القرية وذبحوا نحو ٢٥٠ من سكانها البالغ عددهم ٤٠٠ ألف، وبينهم نساء وأطفال. أما الباقي، فقد طردوا الى المدينة القديمة بعد ان جالوا بهم في موكب بشوارع القدس. كانت المذبحة في دير ياسين، مثل مذبحة اليهود في الخليل قبل ذلك بعشرين عاما تقريبا، منعطفا في تاريخ النزاع الاسرائيلي ـ العربي، ومن الرموز الشنيعة في كل الحروب.

تُحفظ في احد ملفات مكتب رئيس الحكومة المتعلق باسكان المهاجرين في (مناطق زراعية، رسالة من مارتن بوبر وثلاثة مثقفين آخرين هم: أ. ع. سيمون، ود. و. سنتور، وح. ي. روث، طالبوا فيها بعدم اسكان دير ياسين، او على الاقل تأجيل اسكانها حتى تلتئم الجروح. وكتب الثلاثة: «اننا نعي جيدا ضائقة اخواننا المهاجرين الجدد، الذين وصلوا الى الوطن بعد أعوام كثيرة من التشرد والاقامة في معسكرات العزل ومعسكرات التجميع، وحتى هنا لا يزالون في العراء. علاوة على ذلك، نحن ندرك ونعلم ان حكومة اسرائيل ملزمة بالاهتمام باسكانهم، وتنظيم حياتهم في اسرائيل، بكل ما تستطيع. لكن مع ذلك، نعتقد ان دير ياسين ليست المكان الملائم، او على الاقل لم يحن الأوان بعد لاتخاذ قرار فيما يتعلق بانشاء مستعمرة عبرية فيها. لقد اصبح اسم هذه القرية ذائعا في العالم اليهودي، وفي العالم العربي، وفي العالم كله. لقد قتل في دير ياسين مئات الاشخاص، نساء وأطفال ابرياء. ان قضية دير ياسين وصمة سوداء في شرف الامة العبرية. ان الحركة الصهيونية، وجيش الدفاع الاسرائيلي، وحكومتنا آنذاك (المجلس التنفيذي للوكالة اليهودية)، شعرت جميعا بذلك وأدانت الفعلة الرهيبة بتعبيرات لا تقبل التأويل.

«في حياة كل أمة ودولة هناك أعمال رمزية يجب الامتناع عن القيام بها، وقيم ثقافية يجب المحافظة عليها، فكم بالأحرى بالنسبة الى امة كبيرة وعريقة ودولة صغيرة وفتية. اننا نأمل بأن يتكفل الزمن وأعمال الأخوة البناءة بتضميد ذلك الجرح البليغ الذي لم يلتئم بعد، كما لا تزال محفورة في ذاكرتنا كارثة ١٣ نيسان/ابريل، عندما قُتل رجال القافلة (الصحية) الى جبل المشارف (بعد نحو ٢٤ ساعة من مذبحة دير ياسين). سيأتي الوقت الذي نتمكن فيه من التفكير في عمل ما في دير ياسين؛ عمل يرمز الى طموح شعبنا العادل، والى الأخوة مع الشعب العربي. نحن نقترح منذ الآن عملا كهذا. لكن من الافضل ان نبقي حاليا ارض دير ياسين غير مزروعة، وأن تترك منازلها شاغرة، من ان تدنس بعمل تفوق اهميته الرمزية السلبية جدواه العملية بما لا يقاس. ان اسكان دير ياسين الذي يخرج الى حيز التنفيذ بعد عام فقط من الجريمة، في اطار الاستيطان العادي، سينطوي على نوع من الموافقة، او على الاقل

التسليم بالقتل الجماعي آنذاك. فَلْتَبْقَ دير ياسين بلا اسكان موقتا، وليشكل هجرها رمزا رهيبا ومأساويا للحرب، ونذيرا لشعبنا بأن اية متطلبات عملية وعسكرية لن تبرر أبدا اعمال قتل من هذا النوع اذ لا تريد الامة الاستمتاع به.»(٨٠) *

بعد مرور بضعة اشهر طرح اسم القرية [دير ياسين] في الكنيست أيضا. كان ذلك خلال نقاش بشأن قرار الحكومة السماح لـ ١٠٠ ألف لاجىء بالعودة الى اسرائيل:

يعقوب مريدور (حيروت): لقد عرفت روسيا كيف تحل مشكلة الالمان في منطقة الفولغا زمن الحرب، التي سكنها نحو ٨٠٠ ألف ألماني (...) لقد نقلت [روسيا] هؤلاء الالمان شرقا، الى ما وراء جبال الأورال. اذا وقعت الجولة الثانية، الى اين ننقل الطابور الخامس هذا؟ هل سنتمكن من القيام بعمل كهذا في واقع شاطىء عرضه ١٥ كلم؟ لعلنا نضطر الى اخلاء تل ابيب لارجاعهم والمحافظة عليهم.

توفيق طوبي (ماكي): انت تعد لدير ياسين اخرى!

مريدور: بفضل دير ياسين انتصرنا، سيدي!

أ. بن أليعازر (حيروت): لا تكن حزينا الى هذا الحد.

أ. تسيزلينغ (مابام): لا تتباهى بدير ياسين.

أ. رزيئيل ناؤور (حيروت): لا يوجد ما نخجل به.(٨١) (...)

زالمان آران (مباي): بصفتي عضو كنيست من واجبي ان ارد على العبارات الاعتراضية التي قيلت هنا امس من مقاعد حيروت. كانت العبارة: نحن لا نخجل بدير ياسين.

أ. بن أليعازر: كم دير ياسين نفذتم انتم؟

آران: لمصلحتكم اريد القول انني لا اصدق انكم لا تخجلون بدير ياسين.

بن أليعازر: يجب ألا تستخدم أمرا فعلتموه بأنفسكم.

آران: لا أعرف اننا فعلنا كما فعلنا بدير ياسين.

بن أليعازر: يمكنك ان تسأل وزير الدفاع اذا كنت لا تعرف!

آران: (...) لو تصورت ان دولة اسرائيل ستكون مهيأة [لأمثال] دير ياسين، لما رغبت في ان اكون فيها عربيا فحسب، بل لما رغبت في ان اكون فيها يهوديا.(٨٢)

تحفظ في الارشيف الصهيوني وأرشيف الدولة ملفات كثيرة تتعلق باسكان غفعات شاؤول ب: ان الاسم السابق للقرية مذكور في هذه الملفات بين شولتين من دون رفة جفن

* لم يجب بن ـ غوريون على الرسالة. وقد ارسل بوبر وزملاؤه مذكرة في اثر اخرى، وردّ سكرتيرو رئيس الحكومة بأنه مشغول الى حد انه لا يستطيع ابداء رأيه في رسالتهم.

كما يبدو. حتى الصحافة كتبت تقارير عن اعادة اسكانها مجددا، وكأنها كانت قرية ككل القرى: لقد احتشد هناك بضع مئات من المدعوين الى احتفال تدشين المستعمرة. كان بينهم الوزيران كابلان وشابيرا، بالاضافة الى الحاخامين الرئيسيين ورئيس البلدية. وقد بعث الرئيس حاييم وايزمن برسالة تهنئة؛ كما عزفت الفرقة الموسيقية لمعهد الضرير وقدمت التحية. *

وبين أكوام الورق، التي خلفتها تلك الاشهر، يوميات ورسائل وبرقيات ومذكرات وتقارير ومحاضر وتسجيلات صوتية وأناشيد وكتب ومقالات في الصحف وخطابات في الكنيست. ومن خلال الكلمات التي قالها الدكتور زيراح فيرهافتيغ، عضو الكنيست، خلال النقاش بشأن قانون أملاك الغائبين، تبرز هذه الاسطر كتعبير اصيل عن احساس الكثيرين: «(...) من مثلنا، شعب فقير بالأرض، شعب لم يكن يملك دونما من الارض طوال سنين كثيرة، عرف ويعرف ويجب ان يعرف كيف يقدر هذه الارض. ان كلمة انسان هي من جذر ارض. يقول حكماؤنا رحمهم الله: كل انسان لا ارض له، ليس انسانا. الآن فقط، اذ نملك دولة وأرضا، يمكن ان نسمى امة وانسانا.»[٨٦] ومع قدوم المهاجرين، وعلى الاخص من الدول العربية، تبلور في الصحافة الميل الى تصوير الهجرة كجزء من تبادل سكان، وتبادل أملاك. هؤلاء خرجوا وأولئك جاؤوا، وهم جميعا تركوا ما كان لهم في أماكنه.

وقد سيطر القلق على صحيفة «هآرتس»، كعادتها: «نحن نقف على حافة ازمة خطرة بالنسبة الى الاستيعاب.» وحذرت الصحيفة: «بعد شهر لن يكون في المناطق المتروكة مكان للاسكان.»[٨٧]

* لم يشعر الصحافيون بأي حرج عندما كتبوا تقارير عن اعادة اسكان ٣٥٠ قرية اخرى متروكة. وتعكس التقارير ايمانا صلبا لا يتزعزع بحق الاستيطان وعدالته. ومما كتبته «دافار»: «(...) على وقع خطى جيش الدفاع الاسرائيلي حل [بالسكان العرب] رعب كبير، واقتلعوا من مكان اقامتهم. وفي الطريق الى المثلث هربوا على ظهور الحمير وحملوا جمالهم بالأموال المنقولة. (...) والآن يقيم (في الجمّاسين – هي حي غفعات عامال) ساكنون جدد جاؤوا حديثا عن طريق قبرص: فلول الحرب من معسكرات اوروبا (...) حول طاولة، وبقايا الأثاث المتروك، وأرقام (...).»[٨٣] وكتبت صحيفة «هآرتس»: «قسائم خضر خلابة تحيط اليوم ببيوت القرى المتروكة في ارجاء البلد المختلفة نتيجة نشاط وزارة الزراعة التي تساعد المهاجرين الجدد في انشاء مزارع مساعدة (...).»[٨٤] ومما كتبته «دافار هشفواع» [ملحق «دافار» الاسبوعي]: «(...) انت لن تعرف عقّور. ففي القرية المتروكة استوطن ما يزيد عن ١٠٠٠ لاجىء (...).»[٨٥] ومثل هذا الكلام قيل ايضا عن الاستيطان في دير ياسين. وفيما بعد، نقل معسكر المهاجرين الى سلطة وزارة الصحة التي اقامت فيه مصحا للمرضى النفسانيين. وقد اصبحت القرية التي استوطنت، ضاحية من ضواحي مدينة القدس.

القسم الثاني

بين القدامى والمهاجرين الجدد

الفصل الأول

المليون الأول

بعد ثماني وأربعين ساعة من اعلان الاستقلال، دخلت مرفأ تل ابيب سفينتان، تحمل الاولى اسم «مديناة يسرائيل» (دولة اسرائيل)، والثانية اسم «لنتسحون» (الى النصر). وقد حملتا بضع مئات من المهاجرين.

ان قانون العودة، الذي منح كل يهودي يسكن هنا الحق التلقائي في ان يكون مواطنا في الدولة، لم يُسنّ إلا بعد مرور اكثر من عامين، اي في تموز/يوليو ١٩٥٠. لكن، بعد ايام قليلة من انتهاء الانتداب البريطاني، أُلغي مجلس الدولة الموقت انظمة الكتاب الابيض التي كانت تقيد الهجرة حتى ذلك الحين، وفُتح البلد في وجه كل اليهود،* فجاؤوا في موجة عاتية: وصل في الاشهر الستة الاولى من الاستقلال نحو مئة ألف، وفي سنة ١٩٤٩ وصل اكثر من ربع مليون، فازداد عدد سكان اسرائيل نتيجة ذلك بنسبة ٥٠٪ تقريبا، او بكلمات اخرى اضيف اسرائيلي ثالث، خلال عام ونصف العام، الى كل اثنين من الاسرائيليين الذين كانوا يسكنون البلد عند قيام الدولة. وهكذا كان بين كل ثلاثة اسرائيليين شخص جديد في البلد وغريب أيضا. كانوا غرباء حتى عن بعضهم البعض، اذ انهم جاؤوا من مختلف البلاد،

* جاءت اكبر مجموعة من المهاجرين، سنة ١٩٤٩، من بولندا (نحو ٤٧,٠٠٠)، يليها جنوب افريقيا (نحو ٣٩,٠٠٠)، فاليمن (نحو ٣٥,٠٠٠)، فتركيا (نحو ٢٦,٠٠٠)، فبلغاريا (نحو ٢٠,٠٠٠).[١]

المنطقة الاصلية	١٩٤٩	منذ اقامة الدولة حتى ١٩٥١/٣/٣١
اوروبا الشرقية	١٠٩,٢٦٢	٢٧١,١٨٨
آسيا	٧١,٢٧١	١٦٤,٧٨٧
شمال افريقيا ومصر وليبيا	٣٩,٤٤٢	٧٧,٠٨٣
اوروبا الغربية واميركا ومهاجرون لم تسجل بلادهم الاصلية	١٩,١٦٦	٤٦,٦١٧
المجموع	٢٣٩,١٤١	٥٥٩,٦٧٥

وتحدثوا بمختلف اللغات. حتى انه عندما كانت تنشر في تلك الايام اعلانات في الصحف عن «مطلوب»، كانت العادة ان يشار الى ان اتقان اللغة العبرية هو من الكفاءات المطلوبة. وكان ان وصل مهاجر الى البلد قبيل نهاية السنة، فأوصل تعداد السكان الى مليون. «شيء جيد ان نصبح مليونا» — هلّل ناتان ألترمن ابتهاجا وبالغ في تقدير التحسن الجاري في الاحصاءات: «عندما تحدق وعيناك مغرورقتان/ تنهمر الدمعة. ما الامر؟ لقد قلنا آنفا ان الاحصاءات ليست دائما أمرا جافا...»[٢] لقد كانت الارقام فعلا دراماتيكية جدا.

قبل بضعة اسابيع من اعلان الاستقلال، وضع حزب ماباي سياسة للهجرة والاستيعاب في العامين الاولين من عمر الدولة. ووضعت اللجنة، التي اقيمت لهذه الغاية، ميزانية لاستيعاب ١٥٠ ألف شخص، وكان بين اعضائها من تحدث عن ربع مليون شخص، لكن أحدا منهم لم يخطر في باله ان عددهم سيصل الى ٤٠٠ ألف.[٣] وقد جاء في الخطوط الاساسية للحكومة انها ستضع خطة تطوير للسنوات الاربع القادمة، للتوصل الى مضاعفة عدد السكان. وبناء عليه، كان الهدف القومي يتمثل في احضار ٦٠٠ ألف مهاجر تقريبا خلال اربعة أعوام. وقد تحقق هذا الهدف، لكن عدد المهاجرين الذين جاؤوا في السنة الاولى، ١٩٤٩، كان يزيد بعشرة أضعاف عدد القادمين في السنة الرابعة.[٤] وطبعا، كان الافتراض انه يجب التعجيل في استقدام المهاجرين، خشية ألا يكونوا قادرين على الحضور، او أن يرفضوا القدوم في وقت لاحق. وقد نظمت الدولة والحركة الصهيونية خروج اليهود من اماكن اقامتهم، ومجيئهم الى اسرائيل، في السفن والطائرات، وذلك من دون مطالبتهم، إجمالا، بأن يدفعوا التكاليف التي كانت مرتفعة جدا. وكان خروج اليهود من بعض الدول مرتبطا بخرق القانون المحلي، ومن بعضها الآخر مرتبطا بالخطر على حياتهم، مما استلزم تشغيل الاستخبارات السرية للحركة الصهيونية وللدولة. وكانت دولة اسرائيل في حاجة ماسة اليهم. وكما كتبت احدى الصحف، فان «العديد رأى فيهم لحما للمدافع.»[٥]

وصف ميثاق الاستقلال حق الشعب اليهودي في ان يكون، كأي شعب آخر، في دولة ذات سيادة خاصة به، بأنه حقه الطبيعي. وذكّر الميثاق بالكارثة النازية ايضا قائلا: لقد اسست دولة اسرائيل كي تكون ملجأ لليهود يلوذون به من وجه مضطهديهم. ووصفت اسرائيل بأنها دولة اليهود كلهم، وان هدفها الاساسي تجميع يهود الشتات.[٦] وكتب بن — غوريون: «ليس الشعب اليهودي الذي يسكن فيها إلا نواة الشعب الذي اقيمت من اجله.»[٧] ومن حين الى آخر تحدث بن — غوريون أيضا عن انقاذ يهود الشتات، فقال لمسؤولي وزارة الخارجية في نيسان/ابريل ١٩٤٩: «ان الهجرة تنقذ اليهود من الفناء (...) علينا ان نفعل كل شيء من اجل انقاذهم.» وكان كمن قال ذلك بصورة عارضة، وبين شولتين. وبرز أيضا، بين أمور اخرى كان قد قالها، ان انقاذ اليهود لا يستحوذ على

تفكيره: لم يكن ذلك هدف المجيء بهم الى اسرائيل. لقد رأى بن — غوريون في الهجرة اهم عنصر من عناصر الامن القومي والقوة العسكرية لدولة اسرائيل: هذا هو الجوهر في نظره. فعندما طلب موظفو وزارة الخارجية توجيههم بشأن محادثات لوزان، حدد لهم بن — غوريون مصالح الدولة قائلا: «ان الاساس هو استيعاب المهاجرين، وهذه تشتمل حاجات الدولة التاريخية كافة.» وأوضح ان من شأن الهجرة تعزيز امن الدولة اكثر من اي شيء آخر. «لقد كان في قدرتنا ان نحتل المثلث والجولان والجليل كله، لكن احتلالاتنا هذه ما كانت لتعزز امننا بمقدار ما يعززه استيعاب المهاجرين. وتمنحنا زيادة عدد المهاجرين الى ضعفين او ثلاثة أضعاف المزيد من القوة (...) هذا هو الامر الاهم، وهو الذي يسمو على ما عداه.» وبصورة مشابهة، تحدث في اللقاء نفسه عن الاستيطان: «لقد حظينا حقا باحتلال مناطق، لكن لا قيمة فعلية لها من دون استيطان لها سواء في النقب او الجليل او القدس. ان الاستيطان هو الاحتلال الفعلي.» ولأن الاستيطان كان مرتبطا بالهجرة، فقد قال بن — غوريون: «ان مصير الدولة نفسه يتعلق بالهجرة.» وقال كلاما مشابها في مؤسسات حزبه ايضا. وهنا ايضا شدد على القيمة الامنية للهجرة، ونادرا ما تحدث عن الحاجة الى الانقاذ.[٨] لقد اعتبرت الهجرة احد الأهداف الاساسية لسياسة اسرائيل الخارجية. ونشط مبعوثو اسرائيل الدبلوماسيون وأصدقاؤها، في واشنطن وباريس ولندن، من اجل تمكين اليهود من الخروج من دول شمال افريقيا وليبيا ومصر ومن العراق وايران واليمن. وطرح ممثلوها في اوروبا الشرقية الموضوع بصورة مباشرة. قال مندوب اسرائيل في وارسو يسرائيل برزيلاي، لوزير الخارجية موشيه شاريت: «كنا، وسط توتر متواصل وكثير الازعاج في بعض الاحيان، نجادل ونشرح ونخاطب القلوب جميعا.»[٩] وقد تحادث شاريت نفسه مطولا مع نائب وزير الخارجية السوفياتي، اندريه فيشنسكي، كي يشرح له حاجات اسرائيل في مجال الهجرة.[١٠] وقد وجدت الدولة الفتية، التي كانت لا تزال تدافع عن نفسها في حرب التحرير، قلة في وجه كثرة، عطفا وحسن نية في كل العواصم تقريبا. فهي ارتسمت لدى العالم كدولة ديمقراطية تسعى وراء الخير، وكمأوى للناجين من الكارثة النازية وملجأ للاجئين والمضطهدين من كل الدول. وفي الحقيقة، سجل ممثلو اسرائيل تغييرات مفاجئة وغير متوقعة، وظل عدد من التقويمات التي نقلوها غير دقيق لفترة قصيرة. فقد ورد في تقرير قدمته غولدا مئير الى اعضاء المجلس التنفيذي للوكالة (اليهودية) في كانون الاول/ ديسمبر ١٩٤٨: «ان الانطباع الواضح هو اننا نقترب من نهاية الخروج من دول اوروبا الشرقية.»[١١] لقد اقتربوا، في الواقع، من استئناف الهجرة الجماعية من هناك.* وبعد بضعة اشهر من ذلك، كتب

* حرصت المندوبة مئير، وفق قولها، على ألا تطرح قضية اليهود خلال اتصالاتها الرسمية في موسكو، حتى لا تتلقى جوابا سلبيا يؤثر في سائر دول اوروبا الشرقية ايضا. وكما ذكر يتسحاق رفائيل لرفاقه: «قالت =

المندوب الاسرائيلي رؤوفين من بوخارست في تقرير له، ان نائب وزير الخارجية الروماني يرفض مناقشة الهجرة مع ممثلي الحكومة الاسرائيلية، ويزعم انها شأن روماني داخلي.[١٣] وبعد ذلك، تجددت الاتصالات وسمح بالهجرة.

اندمج جزء من الجهود، التي بذلتها اسرائيل من اجل فتح أبواب الهجرة، في علاقاتها التجارية بدول اوروبا الشرقية. ففي النصف الثاني من ايار/مايو **١٩٤٩**، تم توقيع اتفاق تجاري بين اسرائيل وبولندا، التزمت اسرائيل بموجبه ان تشتري خلال عام واحد بضائع من انتاج بولندي بقيمة **١٦** مليون دولار، تتكون اساسا من منتوجات غذائية وحديد وخشب ومنسوجات ومنتوجات كيماوية وآلات وورق. والتزم البولنديون ان يستوردوا من اسرائيل بضائع بقيمة **٣,٢** ملايين دولار فقط، تتكون من مواس حلاقة ومساويك أسنان وزيوت وخردوات حديدية وما شابه. وقبل بدء المفاوضات، شدد المندوب برزيلاي على العلاقة القائمة بين الاتفاق وامكان هجرة اليهود. وفي تلك الفترة، ادرجت هذه المسألة في جدول اعمال الحكومة البولندية، واختلفت آراء وزرائها في شأنها. وأوضح برزيلاي ان من شأن حسم الجدل ان يتم، بين امور اخرى، على اساس اعتبارات الجدوى الاقتصادية. ولذلك اوصى بعقد اتفاق تجاري يعطي مصالح بولندا الاقتصادية الأولوية. وخلال شهرين من توقيع الاتفاق، سمحت الحكومة البولندية بخروج اليهود، وقبلت طلب اسرائيل السماح لكل مهاجر باخراج مبلغ **١٥٠ ــ ٢٠٠** دولار، بحسب السعر الرسمي الذي يبلغ ثلث السعر في السوق السوداء. وتعهد البولنديون ان يحرروا، عندما يحين الأوان، الاموال التي يتركها اليهود لدى خروجهم، وأعلنوا استعدادهم للتفاوض بشأن دفع تعويضات عن الاملاك اليهودية المجمدة، وذلك كجزء من العلاقات التجارية بين الدولتين. ولقد تعسر على اسرائيل ان تفي بالتزاماتها؛ ففي الاشهر الثمانية الاولى اشترت بضائع بولندية بقيمة **٦** ملايين دولار فقط، وحذرت مفوضية اسرائيل في وارسو من احتمال وقف الهجرة اذا لم يتم التقيد بالاتفاق.[١٤] * وتوصل المفوض برزيلاي، مع ممثلي سلطات وارسو، الى اتفاق على

= غولدا في تقريرها انهم يستمعون الى كل شيء بطيبة خاطر، لكنهم لا يظهرون تفهما لقضية الهجرة. يقولون فليأتوا من اميركا، فهناك يكمن خطر العداء للسامية، وليس في روسيا حيث المساواة في الحقوق.»[١٢]

* في آب/اغسطس **١٩٤٩**، كان تقدير وزارة الخارجية ان الاسباب التي دفعت الحكومة البولندية الى السماح لليهود بالخروج الى اسرائيل ناجمة، في الاساس، عن اعتبارات داخلية: «... الرغبة في انهاء مسألة الهجرة الباعثة على الاثارة مرة والى الابد، والرغبة في وقف نمو الاحزاب في الشارع اليهودي، وفي دمج اليهود الباقين في الحياة الاقتصادية وامتصاصهم وتجذير الشعور بالوطنية الواحدة فيهم، (وطبعا) نشاط المفوض والمفوضية: الدعاية الدائمة انه لا يمكن في بولندا التوصل الى الغاء خصوصية الطابع اليهودي العامة (...) قبل توفير حل ايجابي لليهود الذين يرون في اسرائيل وطنا لهم.» والشيء نفسه =

الاجراءات القضائية والمالية المتعلقة بخروج اليهود، وعلى المسائل التقنية ايضا. فقد تدخل في ادق التفاصيل، بما فيها كل ما يتعلق باصدار جوازات السفر وبالجداول الزمنية للقطارات وما شابه ذلك.[١٦] وعمل ممثلو اسرائيل في عواصم اخرى بطريقة مشابهة: احيانا كدبلوماسيين، وأحيانا اخرى كوكلاء سفر، وفي مراحل معينة كمشترين ايضا: لقد دفعت اسرائيل والمنظمة الصهيونية أموالا طائلة لقاء الموافقة على خروج يهود اوروبا الشرقية.

وقد اختلفت الاجراءات المتعلقة بهذا الموضوع، من فترة الى اخرى ومن بلد الى آخر. فقد ورد في مذكرة بشأن المفاوضات التجارية مع بولندا، ان «(المفوض برزيلاي) رأى ان النموذج الافضل هو اعطاء تسهيلات اقتصادية معينة في اتفاق تجاري، لكن ليس ــ قطعا ــ في صورة تقديم ضريبة على كل فرد، كما هو الامر في دول معينة من الكتلة الشرقية.»[١٧] وفي بلغاريا، دفعت مبالغ عن كل شخص. وكان أفرايم شيلو بين مبعوثي مؤسسة الهجرة الذين نظموا الاتصالات الاولى بالبلغاريين، حتى قبل اعلان الاستقلال، وتذكّر الامر فيما بعد قائلا: «لقد بدأ الامر في بلغراد، فقد نشأت العلاقات، بالتدريج، بين شخص وآخر بمساعدة قادة الجالية اليهودية، في بلغراد اولا، ثم في يوغسلافيا وبعد ذلك في صوفيا؛ كان هذا يعرف مسؤولا في احدى الوزارات، وكان هذا الموظف يعرف موظفا آخر، وهذا عرّفه الى سكرتير ثان او ثالث في احدى السفارات، وهكذا حتى وصلنا رويدا رويدا الى الرجل الملائم. وهناك كنت اقيم بصفة صحافي.»[١٨] كان الرجال الملائمون هم رجال الاستخبارات السرية، ووزارة التجارة الخارجية. لم تفض الصفقة الاولى الى اكثر من تمكيننا من استعمال المرافىء البلغارية لاخراج اليهود من رومانيا. واقترح شيلو استئجار سفن بلغارية وخدمات مرفئية لهذا الغرض. كما اشترى من البلغاريين التجهيزات المطلوبة للسفن. وكان يدفع بالدولارات. وطلب البلغاريون مبلغا آخر قدره **٥٠** دولارا عن كل فرد. واستجاب شيلو لطلبهم. وتم الدفع بالشيكات في براغ، او بواسطة القنصلية البلغارية في زوريخ. وجاءت الاموال من الجوينت [الجباية الموحدة]، منظمة الاعانة اليهودية الكبيرة.* كان كل

= ينطبق على دول اخرى ايضا. لكن كان في بولندا وزن خاص للكارثة: «ان كل الادب البولندي الجيد حول هذا الموضوع هو كالجرح غير الملتئم، وكالخطيئة التي يجب التكفير عنها.»[١٥]

* أسست اللجنة اليهودية الاميركية الموحدة للاعانة، او باختصار جوينت، سنة **١٩١٤** بدمج ثلاث لجان كانت تساعد يهود اوروبا. وفي الحرب العالمية الاولى وفي الحرب العالمية الثانية وبعدها، اقامت الجوينت مطاعم للفقراء، ومدارس، ودور ايتام، ومستشفيات، وملاجىء عجزة، ومشاغل ــ خصوصا في روسيا وبولندا وألمانيا. كما قدمت مساعدات لليهود في ارض ــ اسرائيل. وبلغ ما انفقته في السنوات **١٩٤٥ ــ ١٩٤٩** نحو **٢٦٦** مليون دولار، في مجال اعادة تأهيل لاجئي الكارثة النازية وغيره من المجالات. وبعد ذلك مولت الهجرة، بما فيها الهجرة من شمال افريقيا واليمن. وكانت مداخيل المنظمة تأتي، أساسا، من الجباية في اوساط الجاليات اليهودية في الولايات المتحدة. وتم الاتفاق، فيما بعد، على ان =

شيء رسميا وفي السر. وبعد ذلك، عرض شيلو مبلغ ١٠٠ دولار عن كل فتى يهودي يحصل على ترخيص بالخروج من بلغاريا، ثم عرض بعد ذلك دفع ٣٠٠ دولار عن كل سجين صهيوني يطلق سراحه من السجن ويسمح له بالخروج الى اسرائيل. يقول شيلو: «كان ثمة الكثير من النيات الحسنة، وكان ثمة تعاطف. ليس هنالك شك في ذلك. لكنهم كسبوا من ذلك كثيرا. لقد عملت في هذا الحقل في الفترة الاولى فقط. وبحسب ما اذكر، فاننا دفعنا للبلغاريين في تلك الفترة ثلاثة ملايين دولار تقريبا. ومن ثم جاء آخرون مكاني، واستمروا على المنوال نفسه ودفعوا هم ايضا أموالا. وكان جزء من صفقات الهجرة استمرارا لصفقات السلاح التي تمت في اوروبا الشرقية، وخصوصا في تشيكوسلوفاكيا.» ويتابع شيلو: «كانت الامور معقدة للغاية. كان قسم من الاشخاص يعالج مسألتي السلاح والهجرة في آن، سواء من جانبنا او من جانب الحكومات التي اجرينا محادثات معها. وطبعا، كان الامر ينطوي على عنصر سياسي قام، في معظم الاحيان، على اساس القدرة على ايجاد التعاطف مع قضايانا، وكانت المصلحة المالية في ان نشتري السلاح واليهود سواء بسواء. فقد اعتبر السماح بخروج اليهود بمثابة مساعدة عسكرية، كتعزيز لجيش الدفاع الاسرائيلي في حربه ضد الامبريالية البريطانية.»

وقد حدث ان جرى الدفع، لقاء تراخيص الهجرة، في صورة بضائع وآلات وأجهزة زراعية. كما حدث ان تم بواسطة مستشفيات، ومأوى عجزة اقامتها الجوينت. ولم يتم توقيع عدد من هذه الاتفاقات إلا بعد اشهر طويلة من المساومة الصعبة. وهكذا كانت المفاوضات التي جرت سنة **١٩٤٩** مع الحكومة الهنغارية. فقد طلب الهنغاريون مليوني دولار عن ٢٥ ألف يهودي، اي ثمانين دولارا عن الشخص الواحد. وكان هذا العرض ارخص من عرض الرومانيين الذين طلبوا في ذلك الحين خمسة ملايين دولار عن ٥٠ ألف يهودي، اي مئة دولار عن الشخص الواحد. لكن بعد فترة وجيزة رفع الهنغاريون ايضا السعر، فطلبوا مليون دولار عن ١٠٠٠ يهودي، اي ١٠٠٠ دولار عن الشخص الواحد. كانت اعمار الرجال، الذين عرضوا اخراجهم من بلادهم في مقابل المال، تزيد عن الخمسين، وأعمار النساء تزيد عن الأربعين. وكانت المفاوضات تجري بلغة تجارية، كأن الامر لا يتعلق ببشر: «أ. غال جدا؛ ب ــ رخيص جدا؛ ج ــ البضاعة سيئة جدا.» هكذا ردوا على احد عروض الهنغاريين. واستمر الموضوع شهورا عديدة. وأوصى ايهود ابريئيل، مفوض اسرائيل في براغ، بانهاء

= تتلقى الجوينت نسبة مئوية كبيرة من أموال الجباية اليهودية الموحدة. ونسب الى الجوينت، في فترات مختلفة وفي دول مختلفة، علاقات سرية بحكومة الولايات المتحدة، ووصل الامر الى حد اعتبارها ذراعا لوكالة الاستخبارات الاميركية (سي. آي. إي.) وفيما بعد نشطت الجوينت في البلاد عبر «مؤسسة العناية بالمهاجرين الضعفاء».

المفاوضات بصورة ايجابية. وكتب قائلا: «لقد تملكني تردد قاس طوال الاشهر الاخيرة التي فاوضت خلالها الهنغاريين، لكنني شعرت بأنني ملزم بالعمل على انهاء الموضوع البائس وفق الشروط المعروفة لدينا منذ ثلاثة اشهر (...) توصلنا الى استنتاج مفاده ان الرفض من جانبنا، في هذه المرحلة، سوف يجعل الهنغاريين في حل من الالتزامات كافة، ويؤدي الى سيطرة الجمود وقتا طويلا.»[١٩] وكان ابريئيل يأمل بأن تجر هذه الصفقة في اعقابها صفقات اخرى اكثر سهولة. وترددت الحكومة، لأسباب منها التخوف من اعتبار هذا الثمن المرتفع سابقة، لكن تم الاتفاق في نهاية الامر على ان تدفع الجوينت للهنغاريين مليون دولار لقاء ٣٠٠٠ تصريح خروج، اي ٣٠٠ دولار عن الشخص الواحد. واحتفظ الهنغاريون بحقهم في وضع قائمة المغادرين، لكنهم أضافوا الى الاتفاق مكافأة: اربعين ترخيصا خاصا تعطى لنشيطي الجالية الذين تختارهم المفوضية الاسرائيلية وفق اعتباراتها. وكانت المنظمة الصهيونية غارقة في الفوضى في الاسابيع اللاحقة: تنازع الجميع على المقياس الحزبي الذي يحدد من هم النشيطون الذين سيغادرون. وادعى حزب أغودات يسرائيل، كالمعتاد، ان حقه قد غمط.[٢٠] لقد انبعث من صفقة اليهود رائحة كريهة. فقد كان في قدرة الهنغاريين ان يقولوا انهم باعوهم من اجل تقوية بلدهم، كما كان في امكان رجال الجوينت ان يقولوا انهم دفعوا المال لأسباب انسانية، وكذلك كان في قدرة الاسرائيليين ان يقولوا انهم اشتروهم بروح افتداء الاسرى التقليدي. لكن، كان من الصعب على هنغاريا ان تشرح لمواطنيها لماذا يسمح لليهود فقط بالخروج، وكان من الصعب على الجوينت ان تشرح لمتبرعيها ــ وأغلبيتهم الساحقة في الولايات المتحدة ــ لماذا ترسل هذه الأموال الطائلة عبر الجدار الحديدي بينما الحرب الباردة لا تزال مستمرة. وأراد الاسرائيليون ان يمنعوا الجدل بشأن ما اذا كان من المجدي انفاق مليون دولار على احضار المزيد من المهاجرين، بدلا من انفاقه على تحسين وضع المهاجرين الذين أصبحوا الآن هنا، ويقيمون في المعسكرات الانتقالية. وهكذا، اتفق المتورطون في الصفقة جميعا على الابقاء على سرية تفاصيلها. ونص البند التاسع من اتفاق اسرائيلي ــ هنغاري، مكوّن من اثني عشر بندا، على عدم المحافظة على سرية تفاصيل الاتفاق فحسب، وانما ايضا على وجود الاتفاق بحد ذاته.[٢١]

في الاشهر الاولى من استقلال الدولة، وبينما كانت الحرب في ذروتها، انحسرت اهمية المجلس التنفيذي للوكالة، لكن بدا أن من الصعب على أعضائه ان يتكيّفوا مع الأمر. وقال احدهم: «هذه الدولة ليست دولة اسرائيل فقط، بل دولة اليهود، وهي ملك للصهيونية كلها. ان للصهيونيين الحق في ابداء الرأي لممثليهم الصهيونيين في الحكومة، وهؤلاء ملزمون بالانصياع لهذه التوجيهات.»[٢٢] وطلب احد الاعضاء من زملائه الذين كانوا وزراء في الحكومة ان يستقيلوا فورا من عضوية المجلس التنفيذي للوكالة، كي «لا يبدو ان المنظمة

الصهيونية تتلقى توجيهاتها من حكومة اسرائيل، وإلا فان الامر يغدو كومينتيرن صهيونيا (. . .).»[٢٣] * وحتى بعد اقامة الدولة بثلاثة اشهر، اشتكوا من عدم وضوح سياسة الهجرة. لقد حدثهم ش. ز. شرغاي عن واقعة جرت لسائح يهودي من باريس طلب منه ايداع كفالة مالية تضمن عدم تقديم طلب للاستقرار في البلد. وقال شرغاي: «يجب اعلان ما اذا كانت هناك هجرة حرة (. . .).»[٢٥] وأثار رئيس المجلس التنفيذي، بيرل لوكر، مسألة ما اذا كان مسموحا لاحدى الدول بأن تنظم خروج اشخاص من دولة اخرى.[٢٦] وبصورة مماثلة، كان من الصعب عليهم تقرير من ينظم الهجرة ومن يمولها. ومع مرور الزمن، تبلور الرأي القائل بأن يُعهد الى المنظمة الصهيونية بجلب المهاجرين الى اسرائيل وتمول سفرهم على حسابها، من الجباية [الموحدة] والجوينت. واخذت على عاتقها ايضا تمويل اقامة المهاجرين في المعسكرات الانتقالية. ونشأ جدل بشأن من يمول استيعاب المهاجرين بعد مغادرتهم المعسكرات: اعترف وزير المالية، أليعيزر كابلان، مكرها بأن حكم المهاجر كحكم المواطن. وقال للمجلس التنفيذي للوكالة ان الحكومة لا تستطيع معالجة استيعاب المهاجرين بسبب كلفة الحرب المرتفعة، التي تبلغ «سبعة ملايين في الشهر.»[٢٧] وحذر ليفي اشكول، ايضا، قائلا ان «وضع الحكومة صعب.»[٢٨] وبعد بضعة ايام، ابلغ اشكول الوكالة ان الحكومة مستعدة، في الواقع، لأن تسخر الجهاز الذي تمتلكه من اجل استيعاب المهاجرين، لكن المال غير متوفر.[٢٩] واستمر هذا الجدل زمنا طويلا: لم يكن هنالك من يريد ان يدفع.** كان من المتوقع ان تنشط الوكالة اليهودية في مجال الهجرة كعنصر تنفيذي، غير ان ماضيها كحكومة لدولة في طور التكوين ومكانتها الجديدة كحكومة للشعب اليهودي، ولا سيما قدرتها على تمويل جلب المهاجرين، منحتها تأثيرا ملحوظا في سياسة الهجرة ايضا. كانت الشؤون ذات الاهمية السياسية، مثل المفاوضات مع هنغاريا وغيرها، تحال على الحكومة لبتها. أما حصص الهجرة من كل بلد، فكانت تحددها الوكالة. وفي شباط/فبراير **١٩٤٩** قررت الوكالة، بكامل هيئتها، ان يقتصر عدد المهاجرين في السنة ذاتها على ربع مليون شخص، ووافقت الحكومة على القرار.

مع اعلان الاستقلال، نقلت دائرة الهجرة التابعة للوكالة الى يتسحاق وورفل (فيما بعد

* في هذه الأشهر التكوينية كان جو الانتداب لا يزال يسودهم. وظلوا يقولون، احيانا، فلسطين وهم يعنون البلد. وعندما يتحدثون عن الاستيطان يقولونها بالانكليزية: كولونيزيشن. ويقولون عن تصريح الدخول الى اسرائيل: «سيرتفكيت»، كما في عهد البريطانيين.[٢٤]

** حينما كانت الهجرة الجماعية تقترب من ذروتها بسرعة، اقترح د. يسرائيل غولدشتاين ابقاء المهاجرين على متن السفن وعدم انزالهم منها لبضعة ايام، بقصد الضغط على الحكومة كي تعمل اكثر من اجل استيعاب المهاجرين. وعندما لفتوا نظره الى المعاناة القاسية التي تمثلها مظاهرة من هذا النوع، قال: «انني لا ارى في ذلك اي ضير.» وأضاف: «ان هذا سينشط الحكومة والمتبرعين لصندوق الجباية (. . .).»[٣٠]

رفائيل)، وهو احد نشيطي حركة هبوعيل همزراحي (العامل الشرقي).* وكان رفائيل قبل ذلك يعمل في اطار لجنة القدس، التي اشرفت على الحياة في المدينة خلال فترة الحصار. وقد رأى رفائيل في منصبه الجديد «ارتفاعا في مكانته»، وتخيل نفسه في دائرته «رب عمل يخطب الجميع وده. وبحسب قوله، رأى نفسه مندوبا للحركة التي ينتمي اليها.[٣٢] كان عمره حينها **٣٤** عاما، وكان متزوجا من ابنة الحاخام ميمون، احد قادة الحركة وأحد الوزراء في الحكومة. أدار رفائيل شؤون الهجرة بعزيمة لا تكل، وبقدرة على التنظيم. لقد كان رجلا طموحا. وتحدث فيما بعد: «كثيرا ما اردت النجاح.»[٣٣] واتهمه اعضاء في المجلس التنفيذي للوكالة انه كان يدبر مكائد حزبية. وقال البعض عنه انه غير جدير بالثقة.[٣٤] واكتشفوا بين امور اخرى، ان عدد المهاجرين الذين وصلوا الى اسرائيل كان، في كل شهر تقريبا، اعلى من العدد الذي حصل رفائيل بشأنه على موافقتهم المسبقة. واقترح في ذلك الحين على المجلس التنفيذي للوكالة تهجير **٣٣٠** ألف شخص في السنة نفسها، لكنه قبل ـ مكرها ـ الاكتفاء بربع مليون.[٣٥] وقد سعى لتهجيرهم من دون قيود، وكان [رفائيل] واحدا من الذين يميلون الى الاستهانة بأعباء الاستيعاب، اذ قال ذات مرة: «في رأيي، ليست كارثة أبدا ان يسكن المهاجرون الخيام لفترة معينة.»[٣٦] كان الأمر الاساسي في نظره ان يأتوا، وهكذا كان متلهفا «لتصفية المنافي»، حتى انه رفض اقامة كنس جديدة في العالم: «انني اقول لكم، بصفتي رجلا مرتبطا بالكنيس، انها جريمة ان نبني اليوم في المنافي كنسا سنصفيها غدا.»[٣٧]

تكشف ملفات دائرة الهجرة عن مشروع يشمل العالم من أوروغواي الى بورما، ومن جنوب افريقيا الى كندا، ومن أفغانستان الى ألبانيا. ووثائق الملفات مكتوبة بدزينة من لغات العالم، وهي تنطوي على ملحمة ضخمة. وكلها يشهد على رغبة صادقة في الهجرة، وعلى ضغط كبير مارسه اليهود في كل الدول على المنظمة الصهيونية من اجل التعجيل في هجرتهم. وكان بينهم من أرسلوا الى الوكالة نداءات استغاثة تكاد تكون يائسة، من اجل تخليصهم من الضائقة الاقتصادية والاضطهاد. وقد اقامت الوكالة مكاتب لها في دول عديدة، هي المكاتب الارض ـ اسرائيلية. وعمل مديروها على تسجيل المرشحين للهجرة، وتفحص اوضاعهم، وتنظيم سفرهم، ونقل امتعتهم الى اسرائيل. وتعكس الملفات جهدا تنظيميا بالغ التعقيد. وكان يطلب من مندوبي الهجرة التغلب في كل مكان على صعوبات لا حصر لها، سواء منها الرسمية او البيروقراطية، ومنها ما كانت تنفيذية، ومنها ما كانت سياسية. وواجهوا مشكلات

* كان يرئس الدائرة، قبل ذلك، إلياهو دوفكين (ماباي) وموشيه شابيرا، زعيم حركة هبوعيل همزراحي. ومع اعلان الاستقلال، اصبح شابيرا وزيرا للهجرة والصحة، ثم وزيرا للداخلية ايضا. لكن وزارة الهجرة ألغيت خلال فترة غير طويلة، كان العمل خلالها يتناول اساسا الاجراءات الرسمية المتعلقة بالهجرة، وبعد ذلك تحولت الى شعبة للهجرة والتسجيل في وزارة الداخلية.[٣١]

انسانية لا عدد لها، وحتى مآسي حقيقية. وكان لكلّ مهاجر حكاية. وقد تطلّبت مهمتهم التفاني والشجاعة: فالملفات تشهد على وفاء كان محفوفا بالخطر ــ وحتى خطر الموت. لقد عكست الملفات كلها الكثير جدا من الفوضى وانعدام التنسيق والازدواجية، وتضارب الصلاحيات والنزاعات بين المبعوثين والنشيطين: سواء أكانوا رجال الوكالة، أم ممثلي الاحزاب، ام ممثلي الجهاز السامي الخاضع لسيطرة هبوعيل همزراحي، ام ممثلي الجهاز الاداري للاستيعاب الخاضع لسيطرة ماباي، ام موظفي السفارات الاسرائيلية، ام ضباط الهجرة، ام مبعوثي الهجرة، ام زعماء الجاليات. ويعكس بعض الملفات ايضا اعمال فساد.(٣٨) يقول أفرايم شيلو: «لقد كانت عملية مجنونة جرت في حقبة مجنونة. وعبثا تبحث او تجد في ذلك كله اعتبارا عقلانيا او عملا عقلانيا.»

سعى رفائيل، بعد ان اصبح رئيسا لدائرة الهجرة ببضعة اشهر، لتنظيم علاقته بـ «مؤسسة الهجرة». وكانت المؤسسة خلال فترة الانتداب تعمل على تنظيم التهريب والهعفالاه اي الهجرة غير الشرعية او، باختصار، «الهجرة الثانية». ومع اقامة الدولة، ظلت المؤسسة تعمل كذراع تنفيذية للوكالة. وقد كان مكتبها الرئيسي في باريس، وكان يرئسه يوسف بربال من رامات دافيد الشخصية المركزية في مشروع الهجرة غير الشرعية: فهو الذي نظم سفر سفينة الهجرة غير الشرعية الاولى «فالوس»، وسفن كثيرة غيرها.(٣٩) كان رفائيل يميل الى اعتبار مؤسسة «دائرة الترحيل» مؤسسة خاصة به.(٤٠) لقد نظمت المؤسسة، فعلا، ترحيل المهاجرين بالقطارات والسفن والطائرات، واعترف رجالها بصلاحيات الوكالة في توجيه نشاطاتهم.(٤١) وكما كان الامر قبل اقامة الدولة، استمروا في تدبير نشاطات سرية بواسطة عملاء أرسلوا الى الدول العربية وأوروبا الشرقية وغيرها. كان بينهم من عاد الى مكانه بصورة قانونية، ومنهم من عاد بصورة شبه قانونية، ومنهم من طلب هوية مزورة، ومنهم من عمل سرا بالتعاون مع الجاليات اليهودية او ضد رأيها بمساعدة الحركة الصهيونية حيث هم. وكانوا احيانا من دون رجال اتصال على الاطلاق، وحيدين في مهمتهم ومخلصين للغاية.

أما في الدول التي لم تمنح اليهود حرية الهجرة، فقد نظم مبعوثو المؤسسة خطوط تهريب ليلية في الغابات والمسارب الجبلية، بواسطة قوافل جمال وقوارب مهلهلة من مراكش الى الجزائر، ومن ليبيا الى مالطا، ومن اليمن الى عدن، ومن العراق الى ايران، ومن هنغاريا الى النمسا، ومن الحي الروسي في فيينا الى الحي الاميركي في المدينة؛ كان ضابط الهجرة في النمسا يشك في ان يكون بين القادمين العديد من الجواسيس.(٤٢) فمن بغداد، ابرق مبعوثو المؤسسة قائلين: «علمنا ان القنصلية البريطانية هنا سرقت رموز البث الخاصة بالقنصلية الاميركية. فمنذ الآن وصاعدا، اصبح البريطانيون ينقلون الى الشرطة السرية المحلية كل مسألة تتعلق باليهود يبثها الاميركيون الى الخارج.»(٤٣) وابتداء من آذار/ مارس

١٩٤٩، بدأت مجموعات صغيرة من المهاجرين السوريين واللبنانيين تهرب الى اسرائيل. كانوا ينتقلون من دمشق الى بيروت، ومنها في السيارات الى الحدود الاسرائيلية. كانوا يجتازون الحدود في جوار المطلة، بعد رحلة تستغرق ما بين ساعة وساعة وربع الساعة. وهناك تقرير سري جدا لشرطة اسرائيل، يتضمن تفاصيل لقاء عُقد بناء على طلب المؤسسة، بين مساعد المفتش العام ورئيس الشرطة في لبنان. وقدم الاسرائيلي الى نظيره اقتراحين: أ) تصفية المنظمات الخاصة التي كانت تعمل على تهريب اليهود لقاء مبالغ كبيرة. ب) اقامة لجنة للاجئين تحظى باعتراف شبه رسمي من جانب السلطات اللبنانية، وتدير شؤونها بسرية مطلقة تحت اشراف السلطات اللبنانية. وتجبي هذه اللجنة مبلغا عن كل لاجىء تتولى امره، كـ «ضريبة على كل رأس»، ٢٥ ــ ٣٠ ليرة لبنانية، او بحسب ما تحدد السلطات في بيروت. وسينقل اللاجئون وفقا لكوتا اسبوعية تتراوح بين ١٥٠ و ٢٠٠ شخص. وسيسمح لممثل المؤسسة، الذي سيزود بجواز سفر اجنبي لهذه الغاية، بأن يقيم في لبنان لينظم العملية.(٤٤) وقد عمل مبعوثو المؤسسة في عدد من الدول على اقامة منظمات يهودية للدفاع عن النفس، ودربوا اليهود على استعمال السلاح.(٤٥) واستعانت المؤسسة، مثلها مثل اي جهاز استخبارات سري، بأسماء مستعارة ورموز: فالمبعوث الى غوشن، التي هي مصر، لم يكن يوقع إلا باسمه المستعار «ماكسي». وكان العراق «برمان»، وايران «غولدمان»، وبلغاريا «باروخ»، وهكذا دواليك. وكان في حيازة المبعوثين جهاز اتصال لاسلكي، يتلقى المعلومات احيانا من اذاعة صوت اسرائيل في تل ابيب عبر برنامج ما يطلبه المستمعون من الاغاني العبرية.* واستعانوا بشبكة من المعاونين والمخبرين، تضم مفتشي جمارك وشرطة حدود، ورجال شرطة سرية ومفتشي شرطة، ومحافظين، وضباطا عسكريين، وقناصل دول اجنبية، وحتى وزراء ورؤساء دول. وقد اجتمع احد المبعوثين الى رجل الدولة الهنغاري

* عملت مؤسسة الهجرة بتعاون وثيق مع جهاز الامن العام. وكان بين رجال الجهاز من يراقب المهاجرين قبل مجيئهم.(٤٦) وقد طلب بعض مبعوثي المؤسسة من جهاز الامن العام ابداء الرأي في مرشحين للهجرة، ولا سيما اذا كان يرتاب بأنهم شيوعيون، او بأنهم تعاونوا مع السلطات ضد مصالح يهودية، وحتى اذا كان يشك في انتمائهم الى منظمة «الايتسل».(٤٧) وكانت المؤسسة تتوجه دائما الى جهاز الامن العام قبل ان ترسل مبعوثيها الى خارج البلد، من اجل التحقق من ماضيهم وفهم شخصياتهم. وقد جاء في احد التقارير التي نقلها الجهاز الى المؤسسة: «ان المذكور اعلاه عنيد وطموح، لكنه يفتقر الى المبادرة الشخصية ولا يستطيع العمل إلا وفق تعليمات محددة.» كما اشير، سلبيا، الى ثرثرته: «ان العديد من معارفه وجيرانه يعرف انه رشح للسفر في مهمة الى خارج البلد.» وكان هذا الشخص مردخاي بن بورات، الذي اصبح فيما بعد عضوا في الكنيست ووزيرا في الحكومة. وقد كتب جهاز الامن العام هذا التقرير بناء على طلب المؤسسة قبل ارسال بن بورات الى العراق. وفيما عدا العيبين اللذين وجدا في شخصيته، اشار رجال التحري في الجهاز الى ان بن بورات رجل ثقة ومخلص.(٤٨)

متياس راكوشي، ثم الى حاكم العراق نوري السعيد، واجتمع بعد ذلك الى الشاه الفارسي، وكان ثمة من اجتمع الى آخرين، وذلك كله للحصول على ترخيص لخروج اليهود. وفي كل مكان تقريبا، كان مبعوثو المؤسسة يعرضون الرشوة، وفي كل مكان تقريبا كان ثمة استعداد لقبولها. يقول شلومو زالمان شرغاي: «فتحنا حسابات في مصارف سويسرية للوزراء المغاربة الذين رشوناهم. وكان سلاطين اليمن يريدون دولارات نقدية، وطلب الرومانيون ايضا أموالا نقدية.»[٤٩] وكتب بن ــ غوريون في مذكراته: «ليس في الامكان عمل شيء في رومانيا، من اسفل المراتب الى اعلاها، من دون المال، وحتى الحزب ايضا يطلب المال.»[٥٠] وسمحت الحكومة السويسرية ليهود مصر بالهبوط في أراضيها لفترة وجيزة وهم في طريقهم الى اسرائيل، وذلك بضغط من شركة «سويس اير» التي كانت تقلهم من القاهرة. ونجد في الملاحظات التي كتبها يتسحاق رفائيل: «ان الاستقصاءات الاولى تدل على ان قائد الشرطة في شرق الاردن مستعد، بالتعاون مع زوجة [الملك] عبدالله السوداء التي تمتلك جزءا من شركة السفر «شرق الاردن ــ العراق»، لنقل اليهود من بغداد عبر جسر بنات يعقوب.»[٥١] وكان رئيس الحكومة العراقية، توفيق السويدي، يعمل ايضا مديرا لشركة «عراق تورز».[٥٢] كما ان شركات الملاحة في اوروبا الشرقية عملت هي الاخرى من اجل السماح بالهجرة. وقد جاء في رسالة بعثت بها شركة الملاحة البلغارية، ان الشركة تطلب المواظبة على العلاقات التجارية بها، انطلاقا من «رغبة صادقة في مساهمتنا في نهضة بلدكم.»[٥٣] وكانت اساليب العمل متنوعة جدا. فقد كان الاتصال بوزيرة خارجية رومانيا اليهودية، آنا باوكر، يتم في مرحلة معينة عن طريق صديقتها الطيبة التي كانت تسكن بروكسل. كما تم توجيه صديق صبا سفير الولايات المتحدة في طهران اليه، طالبا منه ممارسة نفوذه على الشاه حتى لا يعيد اللاجئين اليهود الذين عبروا الحدود الايرانية خلسة من العراق. وفي اثناء اقامة يتسحاق رفائيل في وارسو، التقى في الشارع صديق الدراسة الذي اصبح في تلك الاثناء صاحب نفوذ داخل هيئات الامن في بلده.[٥٤]

لم يكن المبعوثون من اسرائيل مجرد مبعوثي انقاذ ولا مبشرين بالخلاص فقط، بل كانوا محترفي دعاية. فقد كتب القنصل الاسرائيلي في وارسو: «لن تأتي يقظة اليهود في بولندا من تلقاء نفسها. بل يجب استنهاض القوى الطليعية وتنظيمها.»[٥٥] وكان هذا الامر ينطبق على اماكن اخرى؛ فقد كتب أفرايم شيلو في تقرير يتعلق بوضع الهجرة من مصر: «في الفترة الاخيرة، ونتيجة تشجيع موجه من رجالنا، بدأ الكثيرون من اليهود يبذلون الجهود للحصول على جوازات سفر اجنبية، بالمال او باثبات ان آباءهم من اصل اجنبي.» وأضاف: «لقد وجه رجالنا الجماهير نحو المغادرة.»[٥٦] وكان التشجيع على الهجرة يتضمن نشاطات اجتماعية وعامة، وتعليم اللغة العبرية، والتأهيل المهني، الخ. وقد جاء في تقرير سري بعث

به ضابط الهجرة في بوخارست الى تل ابيب: «شجعنا الحصول على تراخيص هجرة وطلبات جوازات السفر بواسطة نشيطي الحركة وكل يهودي موثوق به اتصلنا به. وفي ايلول/سبتمبر ١٩٤٩، خصصت الجوينت مبلغ ٣٠ ألف دولار في الشهر لتقديم المساعدة الى يهود رومانيا. وتتولى المفوضية المسؤولية عن مشروع المساعدة. ويستفيد منه نوى حركات الشبيبة، ونشيطو الاحزاب الصهيونية وأعضاؤها، ونشيطو يهود امكن تقديم المساعدة لهم من دون تعريض المشروع والعاملين فيه للخطر، وكذلك الحاخامون والقصابون الذين يراعون القواعد الدينية، والمدارس الدينية وتلاميذ توراة (. . .) ومن اجل حاجات حركتنا (همزراحي ــ هبوعيل همزراحي وبني عقيفا) تسلمت كل شهر (. . .) مبلغ ١٣٠٠ ــ ١٥٠٠ دولار تقريبا. وعلاوة على ذلك، كان يجري باشرافي توزيع ٥٠٠٠ دولار شهريا للحاجات اليهودية الدينية (. . .).»[٥٧] وقد تضمنت الدعاية، التي بثها المبعوثون، الترهيب والترغيب. فكانوا يحذرون اليهود من انهم اذا لم يخرجوا فورا فلن يستطيعوا الخروج فيما بعد. وقالوا لهم ان جهاز الترحيل والعون الذي اقامته الحركة الصهيونية هو في خدمتهم لفترة محددة فقط، وانهم بعد ذلك سيتركون وشأنهم. ويقول أفرايم شيلو: «صحيح اننا شجعنا اليهود على الخروج، واننا حثثناهم. وكنا نؤمن بأنهم اذا لم يخرجوا فورا فسيفوت الأوان. لقد آمنّا بذلك فعلا. وكان بعضنا قد مارس مثل هذا النشاط منذ ايام الكارثة النازية. لذلك، فانه من المفهوم تماما لماذا دفعناهم الى الاستعجال. وعدا ذلك، كانت الدولة في امسّ الحاجة اليهم.» وكان بينهم من تلقى وعودا بحياة سعيدة ورغدة في اسرائيل. «انخدع الناس ببساطة»، كما قال غيورا يوسفتال.[٥٨] واقترح يتسحاق رفائيل، كي يخفي عنهم الحقيقة بشأن صعوبات الاستيعاب في البلد، ان تفرض الرقابة على رسائل المهاجرين التي كانت تخرج من هنا، وهكذا كان. كتب احد المهاجرين من جوهانسبرغ الى امه يقول: «لقد كذبوا علي. اريد ان اعود فورا. اذا لم اعد خلال اسبوع فسأقضي جوعا. رجاء، عزيزتي، اجمعي تبرعات، اطلبي قروضا، اسرقي، ارهني ما لديك. المهم ان تبعثي لي بنقود، وإلا فلن اصمد أسبوعا واحدا (. . .) ان هذا البلد لا رب له.» لم تتلق الام الرسالة قط، فقد حفظت في احد ملفات المؤسسة بعد ان ختم عليها بأحرف كبيرة: «اوقفت لدى الرقابة.»[٥٩] وعندما علم رفائيل ان الحكومة التشيكوسلوفاكية تنظر في امكان السماح لليهود باخراج جزء من ممتلكاتهم معهم، اصدر تعليماته بوقف نشر الخبر ــ «لأن من شأن ذلك اضعاف رغبة اليهود في الهجرة» ــ الى ان يعرفوا ما الذي سيسمح لهم بأخذه معهم.[٦٠] وتلقى احد مبعوثي الحركة في فيينا تعليمات بمساعدة يهود المدينة على الفرار من الحي السوفياتي، حتى لو لم يكونوا يعتزمون الهجرة الى اسرائيل: «اذا كان الوضع السياسي يضغط عليهم ويدفعهم الى مغادرة فيينا، فمن واجبنا استغلال هذا الضغط لدفعهم الى الهجرة الى البلد، وعدم تسهيل الامر عبر نقلهم الى

مخيمات لاجئين في المنطقة التي تسيطر عليها اميركا في النمسا.»(٦١) هكذا كان يفكر آخرون. فقد وزع وزير الخارجية شاريت على اعضاء الحكومة فقرة من رسالة الدكتور ش. أليشيف، ممثل اسرائيل في براغ، جاء فيها: «(...) يتضح ان عددا كبيرا من الاشخاص الذين نجحوا، بأساليب عديدة، في الخروج من هنا عبر الحدود، ظلوا في فيينا ولا يفكرون أبدا في متابعة طريقهم الى اسرائيل. وقد ادى هذا الامر الى صعوبات وارتباك في فيينا، الى درجة انه طُلب منا ــ من هناك ــ وقف العمل الذي كنا نقوم به حتى ذلك الحين. اننا لا نفكر في سماع نصيحتهم، لكن هذا الوضع يتطلب التفكير. صحيح انه اذا توصلنا الى حل يمكّن أناسا كثيرين من الهجرة، فسيكون من الممكن ارسال المهاجرين مباشرة الى المرفأ من دون ان يستطيعوا التوقف. هذا ما فعلوه، وما زالوا يفعلونه في بولندا. لكن ليس من الممكن تجاهل هذه الظاهرة، ويأتي السؤال تلقائيا: هل كان مجديا استثمار جهدنا وكدنا في الفترة الاخيرة، من اجل اناس لا يريدون إلا استغلالنا لمآربهم الشخصية، ولا يمكن احضارهم الى البلد إلا رغما عنهم. من البديهي انني لم اتوصل بعد الى استنتاج سلبي، لكنك لا تجد الكثير من التشجيع على العمل في مثل هذه الظروف.»(٦٢) لم يقل الدبلوماسي الاسرائيلي، اذن، ان على اسرائيل واجبا انسانيا ويهوديا وصهيونيا بانقاذ اليهود من محنتهم، اي في هذه الحالة تهريبهم الى خارج الحدود التشكية، إلا بمقدار ما يخدم هذا العمل مصلحة دولة اسرائيل ويعود عليها بالنفع. وفي غضون ذلك، كان ثمة من يعتقد انه يجب القيام بعمل موجه للتسبب بتأزيم وضع اليهود في اماكن اقامتهم. كتب يتسحاق بن مناحم، الذي هو «غوليفر» والذي اصبح فيما بعد بطل عمليات الانتقام: «لا يمكن ان تتدفق على البلد هجرة واسعة النطاق إلا في ظل المحنة. ان هذه حقيقة مرة، سواء كانت سارة او لم تكن. وعلينا ان ندرس امكان ان نكون نحن الذين يفتعلون المحنة، ومن عناصرها: دوافعها ومسببيها في مختلف المنافي (...) ثمة يهود يجب دفعهم رغما عنهم الى مغادرة اماكن اقامتهم، لأنه لا بد من هز اليهود وايقاظهم من ارتخائهم وسباتهم ــ على حد قول الشاعر: انه لن يستيقظ إلا إذا ايقظه السوط، ولن ينهض إلا اذا انهضه السطو.»(٦٣)* لم يكن التفكير في ذلك غريبا قط، حتى على العاملين في مجال الهجرة. فقد جاء في تقرير لرفائيل: «ان الوضع في ليبيا حاليا ليس سيئا: ثمة خوف من ان يتوقف مصدر الهجرة هذا.»(٦٤) وقال رئيس المجلس التنفيذي للمنظمة الصهيونية، بيرل لوكر، في احدى جلساته: «حتى اليهود الذين لا يرغبون في الذهاب، عليهم ان يهاجروا (...).»(٦٥)

* كُتبت هذه الامور لدى عودته من الولايات المتحدة، حيث كان يقيم هناك الى جانب ضباط آخرين في مهمة بين الجاليات اليهودية. وقد كتب بن ــ غوريون في مقدمة كتابه: «لم تقع يدي على كتب كثيرة، شيقة ومثيرة وتبعث على الاحترام والمفخرة والحزن، مثل هذا الكتاب.»

كان رجال مؤسسة الهجرة الاكثر تطرفا من الجميع. ولا شك في ان مطالبتهم بتسريع الهجرة وزيادتها تأثرت باطلاعهم عن كثب على ضائقة المهاجرين. وعلاوة على ذلك، كانت هناك غيرة صهيونية اسرائيلية تميز بها المبعوثون، وكانت هناك المصلحة التنظيمية للمؤسسة. وتزخر ملفات المؤسسة ودائرة الهجرة بتقارير مروعة عما كان يراه المندوبون في دول عديدة. فقد جاء في احد هذه التقارير: «ان وضع اليهود في «ملح» وفي قرى جبال الاطلس المغربية لا يمكن وصفه أبدا. ولا يمكن لأحد ان يصدق، بحسب ما يسمع ويقرأ، ان مثل هذه الاوضاع موجود حقا في عالمنا. من لم ير عائلات مؤلفة من ثمانية عشر فردا تسكن غرفة مساحتها خمسة امتار، تستعمل كمسكن ومطبخ ومشغل في آن، ومن لم يدخل غرفا يتعلم فيها مئات الصبيان، شبه عراة، عيونهم مريضة، من دون اي امل بمعالجتها، ومن لم يتحدث الى معلم يعتبر السوط اساس نظريته التعليمية، ومن لم يشم الرائحة المميزة للحي بكامله ــ من لم يفعل ذلك لا يستطيع ان يتصور ان انحطاطا من هذا النوع موجود فعلا، وانه يسمح لاخوة في البشرية بأن يعيشوا على هذا النحو (...) ان نسبة وفيات الاطفال هي من اعلى النسب في العالم (...).»(٦٦) ووصلت تقارير مشابهة من دول اخرى. وكانت مطالبتهم بتعجيل الهجرة مطالبة صادقة بالانقاذ؛ لقد كانوا يشعرون بالمسؤولية.

ووصل الامر، في اماكن عدة، الى حد ان مبعوثي المؤسسة حثوا اليهود على الاستعداد للخروج من دون ان يأخذوا في الاعتبار امكانات الاستيعاب، وعندما شاعت عملية الحث هذه استغلوها للضغط على المجلس التنفيذي للوكالة من اجل زيادة الكوتا التي حددها: «نحن لا نستطيع، بأي شكل من الاشكال، ان نعرقل هجرة الذين لديهم تأشيرات سفر، لأنهم باعوا كل شيء وهم على اهبة الرحيل (...).»(٦٧) ولم يكن الامر دائما يتعلق بيهود في امس الحاجة الى الانقاذ، بل على العكس فان ضائقتهم نجمت عن الاستعدادات التي قاموا بها للخروج بتشجيع من المبعوثين من اسرائيل وبالتشاور معهم. ودأب يتسحاق رفائيل على تزويد المجلس التنفيذي للوكالة برسائل من جميع الدول تتضمن نداءات يائسة من اجل الانقاذ. ومثله فعل يوسف بربال، اذ قال لهم: «كان في استطاعتي ان احدثكم لساعات عن اشياء مفزعة.»(٦٨) ولم يكن لدى اعضاء المجلس التنفيذي اية وسيلة كي يعرفوا، بالتأكيد، متى كان ثمة ضرورة حقيقية للانقاذ، ومتى افتعلوا ضرورة كهذه للضغط عليهم في اتجاه زيادة كوتا الهجرة، ومتى لم تكن هناك حقيقة في الصورة التي عرضوها عليهم. وهذا حمّلهم مسؤولية جسيمة.

ان مطالبة بربال بزيادة الهجرة تعبر ايضا عن المصلحة الاقتصادية للمنظمة التي كان على رأسها؛ فهي، مثل منظمات عديدة، تطمح الى التوسع. وكانت تعمل، الى حين استولى يتسحاق رفائيل على المؤسسة، كـ«ملكية خاصة» لحزب ماباي، بحسب تعبيره. وكتب فيما بعد:

«يخيل الي انني لا اكون على خطأ اذا افترضت ان صندوق الحزب قد استفاد كثيرا من الميزانية الكبيرة غير الخاضعة للرقابة.»[٦٩] وهذا الافتراض يقبله العقل، لكن من الصعب اثباته، ومن الصعب دحضه. والواقع، ان رجال المؤسسة كانوا يبذرون ملايين عديدة من دون رقابة. وقد تفحص مراقب الوكالة اعمال المؤسسة في السنوات التي سبقت اقامة الدولة، ووجد ــ بحسب قوله ــ استعدادا كبيرا لمساعدته. لكن دفاتر الحسابات التي قدمت اليه لم تكن تعكس الواقع. وقد عزا المراقب ذلك الى طابع أعمال المؤسسة السري. وبعد عامين من تسلم يتسحاق رفائيل رئاسة دائرة الهجرة، طلب المراقب مجددا ان يدقق في دفاتر حسابات المؤسسة، وقوبل هذه المرة ـ بحسب قوله ــ بتكتيكات العرقلة بقصد التهرب من الرقابة، مما اضطره الى وقفها في نهاية الامر. ويتضح انه كان لدى المؤسسة ما تخفيه في ايام رفائيل ايضا، رجل حزب هبوعيل همزراحي، كما كانت الحال في ايام حزب ماباي.[٧٠] *

نجح مراقب الوكالة في كشف مسألة واحدة على الاقل، وهي انه خلال فترة الهجرة غير الشرعية («الهعفالاه») اشترت مؤسسة الهجرة الثانية عددا من البواخر، وأسست في أوائل سنة **١٩٤٨** شركة «البواخر والسفن المحدودة» لتكون أداة قانونية للاحتفاظ بتلك البواخر. وكانت بواخر هذه الشركة جميعها في يد المؤسسة. وعندما بدأت الهجرة الجماهيرية، في النصف الثاني من سنة **١٩٤٨**، نقل عشرات الآلاف من المهاجرين بواسطة بواخر الشركة. وافترض مراقب الوكالة ان الشركة قد جنت أرباحا كبيرة. ويتضح من أقوال المراقب ان المؤسسة عملت انطلاقا من مصالح تجارية. كانت «الجوينت» تدفع للمؤسسة **٤٠** جنيها استرلينيا اجرة سفر كل مهاجر. وقد تراكمت الاموال حتى بلغت الملايين. وكلما ازداد عدد المهاجرين الذين جرى ترحيلهم، ازدادت أرباح المؤسسة. ولم يكن لدى صندوق الوكالة اليهودية اية سيطرة على هذه الاموال. وكان ثمة أصداء لذلك في جلسات المجلس التنفيذي للوكالة؛ فقد شكا تسفي حرمون قائلا: «انهم ينقلون احيانا مهاجرين بسبب الحاجة الى ملء البواخر فقط.»[٧٢] وقد اتهم المراقب المؤسسة بأنها «تستغل» المهاجرين، وأن أرباحها فاحشة. ومن الأمور التي اتهم المراقب المؤسسة بها، انها تنقل المهاجرين باكتظاظ شديد: «فـي «نغبا» يمكن نقل **٦٠٠ ــ ٧٠٠** شخص، لكنهم ينقلون **١٢٠٠** شخص، ويجري نقل المهاجرين في ظروف غير انسانية، وبالتالي فانهم يجنون أرباحا كبيرة.»[٧٣] وتزخر ملفات المؤسسة بوثائق تشهد على الظروف السيئة التي كانت سائدة في بواخرها. وقد جاء في احدى هذه الوثائق انه «يمكن

* يتضمن التقرير ملاحظة مثيرة للاهتمام تتعلق بمشروع المغادرة؛ فقد وجد المراقب ان حسابات المغادرة كانت منتظمة للغاية: «استنادا الى حساب الوكالة عن الفترة **١٩٤٥ ــ ١٩٤٦**، والى حسابات المغادرة عن الفترة **١٩٤٧ ــ ١٩٤٨**، توصلنا الى مبلغ **٢,٧٧٥,٠٠٠** دولار، وهو ما يشكل مردود مشروع المغادرة منذ تأسيسه حتى انهائه كوحدة مستقلة.»[٧١]

القول ان من الخزي والعار نقل المهاجرين في ظروف كهذه. لو ان شركة غير يهودية قامت بذلك لكنا اطلقنا الصراخ، ويبدو لي ــ بحق ــ انني لست بريئا على الاطلاق. ولدي انطباع بأنني أشارك في شأن غير انساني وغير خلقي على الاطلاق.»[٧٤]

وتصور الوثائق المؤسسة، فعلا، كشركة سفر. ففي الملفات آلاف وعشرات الآلاف من البرقيات عن مواعيد ابحار السفن ومواعيد دخولها الموانىء، وعن أعداد المهاجرين وتكاليف نقلهم. وفي حزيران/يونيو **١٩٤٩**، اشترت المؤسسة اسهم شركة «أل ــ عال» ايضا، وحارت الدائرة المالية التابعة للوكالة في معرفة الاسم الذي سجلت هذه الأسهم به.[٧٥] وكان المجلس التنفيذي للوكالة ينظر الى المؤسسة بارتياب شديد. وطالب يسرائيل غولدشتاين بتصفيتها كليا. واحتج على ان المؤسسة تبدد أموالا كثيرة جدا من دون رقابة. وافترض اعضاء المجلس التنفيذي انه حتى يتسحاق رفائيل لا يسيطر على المؤسسة، خلافا لما كان يزعم. وقال موشيه كول: «انني لا اعتقد ان لرفائيل نفوذا حاسما في مركز القيادة هذا.»[٧٦] وحتى مراسل صحيفة «هآرتس»، موشيه كرمر، كان يرتاب بالمؤسسة: «ان رجال الجهاز الاداري في اوروبا لا ينصاعون لأمر المركز هنا. وقد حصلوا، بطريقة او بأخرى، على أموال كثيرة جدا، ويعملون وفق رأيهم الخاص (. . .) وبحسب مفهومهم، فان منظمة الهجرة تشبه طردا من الرزم إذ ان كل من يكثر من عددها يستحق الثناء (. . .) لقد أقاموا ما يشبه مملكة ذات سيادة خاصة بهم (. . .).»[٧٧] لقد كانت هذه حجة ادارية، وفي الاساس انتقادا لسياسة المؤسسة. ولم يكن فيها تلميح الى اختلاس أموالها. وهذا ما ينطبق على النتائج التي توصل اليها مراقب الوكالة. لم تعمر مؤسسة الهجرة طويلا، وانتهت رسميا في آذار/مارس **١٩٥٢**، في محضر وقعه يتسحاق رفائيل مع اثنين من رجال «مؤسسة المهمات الخاصة» التي اقيمت في تلك الاثناء، هما رؤوفين شيلواح وعقيبا لفينسكي. وكُلِّفت مؤسسة المهمات الخاصة دراسة امكانات الهجرة، وتنظيمها وتنفيذها في الدول العربية، وكذلك [إقامة] «نشاطات سرية للاتصال باليهود وتهجيرهم.» وقد التزمت الوكالة تمويل هذه النشاطات، وظلت سياسة الهجرة منوطة بها.[٧٨] ويقول أفرايم شيلو: «لم تكن سنة **١٩٤٩** سنة جيدة للمؤسسة، فقد انتهت العمليات الكبيرة التي تعود الى فترة «الهعفالاه». وفي الواقع، فان كل ما بقي من عملها هو تنظيم السفر. وكان ذلك محبطا جدا. وسرعان ما أنهوا الامر الواقع، ثم انهوه بعد ذلك بصورة رسمية. لقد شعر رجال المؤسسة بمثل شعور رجال البلماح بعد حلها.» *

(*) تمردت المؤسسة على خطة اغلاقها. وبدا، في مرحلة معينة، ان الموضوع سيؤدي الى ازمة سياسية. وقد تحدث د. ناحوم غولدمان الى دافيد بن ــ غوريون بشأن ذلك، لكن من دون التوصل الى نتيجة.[٧٩] ومنذ ان اقيمت مؤسسة المهمات الخاصة، لم يعد هناك مجال للجهاز السري التابع للوكالة. وقد علم، فيما بعد، ان مندوبي وزارة الدفاع في باريس طمعوا في الممتلكات الكبيرة التي كانت تملكها =

جاؤوا الى هنا لأسباب متعددة. وقد تغيرت الاسباب من وقت الى وقت، ومن بلد الى بلد، ومن جالية الى جالية، ومن شخص الى شخص. وكما كانت الاسباب التي دفعتهم الى المجيء عديدة، كذلك كانت الاسباب التي دفعتهم الى البقاء في اماكنهم او الى الهجرة الى دول اخرى؛ لم يجيئوا جميعا برضاهم. كان بينهم من حقق بهجرته رغبات صهيونية، اذ اعتقد ان كونه يهوديا يجعل من دولة اسرائيل مكانا لاقامته. وكان بينهم من تثقف بروح الايديولوجية الصهيونية في بيوت ذويه، ومنهم من تثقف بهذه الروح في حركات الشبيبة. وكان من تبرعمت هويته الصهيونية او تبلورت او تعززت نتيجة الكارثة النازية، او نتيجة اقامة الدولة، او نتيجة كليهما معا. وكان هناك من توصل الى الحركة الصهيونية، او الى الفكرة الصهيونية فقط، او الى مجرد القرار بالهجرة الى اسرائيل، نتيجة الجهود الدعائية التي بذلتها الحركة الصهيونية في مكان اقامته. لقد بعث ممثلو اسرائيل الدبلوماسيون في اوروبا، ومبعوثو الوكالة اليهودية، بتقارير من كل العواصم تقريبا عن آلاف اليهود الذين يطالبون بالهجرة، والذين هم على اهبة الرحيل. وقد تدفقت الجموع على بوابات بعض مفوضيات اسرائيل، كما تجرأ البعض على ان يتظاهر في الساحات، أمام سفارة الاتحاد السوفياتي في بوخارست.[٨١] وتحدث تقرير من وارسو عن صفوف طويلة تترنح امام شبابيك مكاتب البريد، من اجل ارسال رسائل مسجلة: اناس بعثوا الى المفوضية الاسرائيلية بطلبات للحصول على تأشيرات لدخول البلد، وكانت المفوضية تنوء بعبء عملها.[٨٢] وكان هناك من هاجر لدوافع دينية، اذ حقق بهجرته تطلعات خلاص طوباوية. لكن كان ثمة من انجر وراء الآخرين، وكان ذلك بمثابة عدوى. وثمة أشخاص فعلوا ما فعله أقرباؤهم وأصدقاؤهم ومعارفهم ورؤساء جالياتهم. وكان ان انضموا الى الآخرين مخافة ان يظلوا وحيدين حيث هم. وكان هناك من اضطروا الى الانضمام لأنه لم يعد هنالك مؤسسات تقدم لهم خدمات عامة هم في حاجة اليها، ولم يعد هناك الاحساس بالانتماء والتوحد والأمن التي كانت الجالية توفرها لهم. وهناك أشخاص سئلوا عن ذلك فيما بعد، فلم يستطيعوا تحديد سبب مجيئهم؛ كانوا يقولون: «فعلت ما فعل غيري.»[٨٣] وكان هناك أفراد تركوا بلادهم على عجلة مخافة عدم تمكنهم من الخروج منها فيما بعد.

= مؤسسة الهجرة. وكان ذلك احد الدوافع الى سيطرتهم عليها، لكنهم تأخروا فضاعت الفرصة منهم. وعندما ألغيت مؤسسة الهجرة، نقلت ممتلكاتها الى شركة «تسيم». وقد حدد مراقب الوكالة ان بواخر المؤسسة انتقلت الى «تسيم» بسعر يقل كثيرا عن قيمتها الفعلية. وقدر الفارق بمئات الآلاف من الدولارات، وربما بالملايين. وكانت المؤسسة قد سلمت «تسيم»، قبل ذلك، اجور نقل ضخمة. وعندما تساءل المراقب عن ذلك، قيل له انه جرى توجيه كل شيء لتطوير البحرية العبرية. وأصبح عدد من رؤساء المؤسسة، فيما بعد، مديرين في «تسيم».[٨٠]

كان النظام الستاليني يسيطر على دول اقامتهم بسرعة، وكانوا يتراجعون امامه لأنهم تجار وأرباب عمل، والنظام الجديد يعرض مصادر عيشهم للخطر، فرفضوه لأسباب سياسية وفكرية، وأصبحوا معرضين للملاحقة والقمع. وأراد يهود كثيرون ان يحافظوا على علاقاتهم بأقاربهم خارج البلاد، ولم ينظر النظام الشيوعي الى هذا الامر بعين الرضى. وكان البعض قد غادر البلاد العربية بارادته، وآخرون غادروها بسبب الملاحقة او معاناة العوز حتى الجوع. وكان من غادر اماكن اقامته، سواء في اوروبا او البلاد العربية، لكن لم تكن اسرائيل خياره الاول؛ فلو كان في مستطاعهم لاستقروا في دول اخرى. وكتب القنصل الاسرائيلي في ميونيخ في تقرير له باشمئزاز: «هذا عنصر بعيد عن كل موقف صهيوني فكري، وتفكيرهم ينصب على معايير المال والأرباح.»[٨٤] وكتب احد المندوبين الاسرائيليين في وارسو في تقرير له، عن الخوف الذي يعم يهود بولندا من البطالة وأزمة السكن اللتين تنتظرانهم في البلد، فقال: «ان الخوف والارتباك يدفعان الكثيرين الى تأجيل الهجرة.»[٨٥] وقد وصلت تقارير مشابهة من شمال افريقيا والبلاد العربية.

ان الاسطورة الرسمية، التي جرت تغذيتها في البلد، مالت الى اعتبار الهجرة جزءا من «المعركة الكبرى بشأن تطلع الأجيال الى خلاص اسرائيل.» وهكذا كتب في ميثاق الاستقلال: «لقد حافظ الشعب، بعد ان اجلي عن ارضه بالقوة، على ايمانه بها في بلاد شتاته كلها، ولم يتوقف عن الصلاة والأمل بالعودة الى ارضه وبتجديد حريته السياسية داخلها.» وكان هذا ينطبق، في الغالب، على كل سبعة من مئة يهودي في العالم. أما الآخرون جميعا، فقد ظلوا في اماكن اقامتهم برضاهم، باستثناء يهود الاتحاد السوفياتي. ولم تنجح الحركة الصهيونية اذن في اقناعهم بصواب نهجها. وكان ذلك، من الناحية الفكرية، يبعث على الحيرة الفائقة. فقد مالوا اذن، من اجل تدعيم اسس الصهيونية، الى المبالغة في وصف الأخطار التي تتربص بيهود العالم. ويغذون التقدير القائل بأنهم لا يزالون عرضة لكارثة ابادة. فقد قال بن ـ غوريون: «يمكن ان تحدث مصائب جديدة، لا تقل رهبة عن سابقاتها.»[٨٦] وحذر الكاتب ش. شالوم: «هذه فترة فناء، فترة خطر على الحياة. اننا نواجه مهمة ان نكون كأمة او لا نكون.»[٨٧] وقال يعقوب زروبابل، احد نشيطي حزب مابام وعضو المجلس التنفيذي للوكالة اليهودية: «على المنظمة الصهيونية ان تسرع في تقديم عونها الكامل لملايين الاخوة المعرضين للسلب والنهب ورعب الابادة، وأن تخرجهم من الجحيم، وأن تهجرهم الى ملجئهم القومي الآمن: دولة اسرائيل. هذه هي فريضة الانقاذ.» وتحدث زروبابل عن البلاد العربية قائلا ان سكانها اليهود لم يكونوا معرضين للابادة. وكانت «فريضة الانقاذ» تفرض عمل ما لم يفعلوه ايام كارثة الابادة النازية، اذ قال زروبابل كأنه نادم: «لقد عجزنا عن نجدة ملايين اليهود وانقاذهم في الوقت الملائم، عندما كان ثمة امكان

للانقاذ.»[٨٨] وقد رأى بن ـ غوريون في ذلك مشكلة اسرائيلية، اذ قال: «لآلاف السنوات، كنا شعبا بلا دولة، والآن ثمة خطر ان تكون اسرائيل دولة بلا شعب.»[٨٩] لذلك ارتضت اسرائيل ان تستوعب اليهود جميعا، سواء منهم الاشكناز او المهاجرين من البلاد العربية. وقد وُصف العديد من المهاجرين بتعبير «مسخ»، لكن الكثيرين منهم لم يمسخوا إلا بعد مجيئهم. وكان تحويلهم الى مسخ جزءا من مسار الهجرة نفسه ومن صعوبات الاستيعاب. وهذا ما جرى، سواء للاشكناز او للمهاجرين من البلاد العربية.

الفصل الثاني
الأيدي التي تعمل وتقاتل

حين كادت الهجرة الجماعية تصل الى ذروتها، نسب الى غيورا يوسفتال قول مأثور اصبح مبتذلا لكثرة استخدامه، لكنه ينطوي على بعض من الحقيقة: ان اسرائيل تريد الهجرة، غير ان الاسرائيليين لا يريدون المهاجرين.[١] وهذا صحيح؛ فهم [الاسرائيليون] لم يكونوا يريدون الجميع. قال ليفي اشكول: «ان ارض ـ اسرائيل صغيرة، ولا تستطيع ان تستقبل كل مهووسي يهود العالم.» وعنى اشكول أصحاب الأمراض النفسانية.[٢] حتى ان باقي المرضى والمتقدمين في السن لم يستقبلوا هنا بترحاب. وقال وزير المالية أليعيزر كابلان: «اننا بحاجة الى ايد تعمل وتقاتل.»[٣] لقد رفض البعض المهاجرين الذين ينتمون الى أحزاب معينة، ولم يرد البعض الآخر مهاجرين من بلاد معينة. وكان هناك من قبل بهم اذا أتوا فقط «كرواد»، واستخفوا بهم اذا جاؤوا «كلاجئين». وكان هناك من لم يرغب فيهم على الاطلاق. وانطوى هذا الأمر على توجه غير صهيوني تسربت منه ـ احيانا ـ بين السطور هنا وهناك، لهجة معادية لليهود. كانت نظرة الاسرائيليين الى المهاجرين الجدد شديدة التعقيد، ومشبعة بالتناقضات، ومشحونة بالعواطف، وطافحة بالأفكار المسبقة. وكانت هذه النظرة مترسخة في رؤيتهم لأنفسهم يهودا ومواطنين في الدولة. ويكمن لغز فهم هذه الرؤية في ميل الاسرائيليين الى رفض المنفى والتعالي عليه وازدرائه، وجعل الدولة محور حياتهم. وتحدثوا، انطلاقا من ذلك، عن «تصفية المنافي». حتى ان رئيس مؤسسة الهجرة في الوكالة اليهودية تحدث ذات مرة، بزلة لسان ملفتة للانتباه، عن «تصفية اليهود».[٤] وبالقضاء على المنفى قُضي على نسيج حياة يهودية قديمة، وعلى ثقافات كاملة ايضا. لقد فعلوا ذلك من دون تردد، وكأنهم كانوا وزراء تاريخ، لأن الدولة كانت في نظرهم اهم من يهود العالم.

كانت خطوات المهاجر الجديد الى البلد الاولى تحمله من رصيف المرفأ الى معسكر انتقالي يدعى «شاعر هعلياه» [بوابة الهجرة]. وقبل اعلان الاستقلال، كان الجيش البريطاني يتمركز في هذا المعسكر الذي كان يسمى عندها لوكس هاكادوش. وكانت السلطات تميل الى اعتباره معسكرا للاعتقال. فاتفق المدير العام لوزارة الشرطة مع نظيره في وزارة الهجرة على الترتيبات الامنية: «يجب احاطة المعسكر بجدار اعلى مرتين من الجدار الحالي (...) كما يجب

مد خط هاتفي مباشر بين المعسكر وقوة من الشرطة تتألف من ٦٠ شرطيا كحد ادنى، وأربعة رتباء وضابط واحد.» غير ان هذين المديرين العامين لم يتفقا على مسألة من يراقب الدخول الى المعسكر، ومن يعطي الاذن في دخول المنطقة، ومن الذي يسمح له بالدخول اليه والخروج منه. كان المدير العام للشرطة يعتقد انه يجب ألا يُسمح لأحد بالدخول سوى هيئة العاملين الدائمين.(٥) * وفيما بعد، استبدل الجدار بسور [من الأسلاك الشائكة]وتعززت الحراسة. غير ان الذين أرادوا دخول المعسكر والخروج منه فعلوا ذلك من دون صعوبة؛ فالسور كان مفتوحا، والحراسة غير كافية. وكان بين المتسللين الى داخل المعسكر اقرباء المهاجرين، ومقاولون، وصناعيون، وأصحاب بساتين يبحثون عن عمال بأجور ضئيلة، من دون وساطة مكتب العمل ومن دون حمايته، وصيارفة السوق السوداء وسماسرتها، ولصوص طالت ايديهم امتعة المهاجرين ومعدات الوكالة اليهودية، ومؤسسات عرضت على المهاجرين خدماتها، ورجال بحثوا عن فتيات مهاجرات لتمضية الوقت معهن. وقد وجد القادمون الى المعسكر انفسهم وسط جمهور كبير من الناس، متعدد الالوان، لا مثيل له: كان هناك من جلب معه بذلات مقصوصة، وأخرى مخيطة بحسب ما كان سائدا في اوروبا الوسطى؛ وكان هناك من يتنقل بجلابيب بيض بحسب ما كان مألوفا لدى يهود شمال افريقيا؛ وكان البعض يعتمر قبعات على شكل كاسكيت او «قبعات اللاجئين» كما كان يطلق عليها في البلد؛ وكان البعض الآخر يغطي رأسه بمناديل مطرزة ومزركشة، وطرابيش سود. كان ذلك خليطا متنوعا من أناس بأعمار مختلفة ومن بلاد متعددة، مرتبكين وقلقين، يدورون حول انفسهم في جلبة كبيرة، ويجرّون معهم الحقائب والسلال والصناديق والصرر ومجموعة من الاطفال الرضع وكتائب من الاولاد الذين يصرخون بكل اللغات. كان هناك اشكناز ويهود من الدول العربية. لقد كان الوضع صعبا جدا.

استخدمت السلطات المعسكر من اجل القيام بالاجراءات الشكلية المتعلقة بالهجرة؛ كان موظفو شعبة مراقبة الحدود يدققون في وثائق المهاجر الشخصية، ورجال الجمارك يدققون في أمتعته، وموظفو الوكالة اليهودية يسجلون المعلومات الشخصية عنه، والأطباء يفحصون حالته الصحية: فحص عام لاكتشاف الأمراض الداخلية، وفحص العيون والرئتين، وفحص الجلد والدم لاكتشاف الأمراض الجنسية. وقد وصف صحافي دعي الى مشاهدة اجراءات الفحوصات الطبية بأنها كانت مثل شريط متحرك يعمل كآلة هائلة. وكتب: «يتحول المهاجر الى رقم.»(٧) كانت الفحوصات تجرى على ألف شخص يوميا. ويُلقح الصغار ضد السل. ويمر الجميع بعملية التعقيم: طلب منهم ان يخلعوا ثيابهم ليرشوهم ببودرة الـ د. د. ت. ولقد

* احتج عضو الكنيست يعقوب مريدور على الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمعسكر «كأنه معسكر اعتقال بريطاني او غيره»، ووافقه في الرأي وزير الهجرة شابيرا.(٦)

ظل الكثيرون، بعضهم من الاشكناز والبعض الآخر من الدول العربية، يتذكرون لمدة طويلة عملية التعقيم كتجربة مهينة. أُعدّ «شاعر هعلياه» كي يكون معسكرا انتقاليا لمدة تتراوح بين ثلاثة ايام وأسبوع، لكن كلما كثر عدد القادمين طالت اقامتهم: وكانوا ينتقلون منه الى معسكرات اخرى، وكان بينهم من بقي فيه شهورا عديدة.

قبيل بلوغ الهجرة ذروتها، عرّف شاب في احد المعسكرات عن نفسه بأنه مهاجر من ألمانيا. ولقد جاء في البطاقة التي قدمت الى موظف الوكالة انه يدعى حاييم كلوفشتوك، اعزب، عمره ٢٨ عاما. وكان الموظف يأخذ من المهاجر بطاقته الزرقاء، فينقل التفاصيل منها الى بطاقة بيضاء من الورق المقوى يعطيها الى المهاجر مع ثلاث قسائم: تمنحه إحداها حق الحصول على وجبة غداء، والثانية وجبة عشاء، والثالثة وجبة إفطار لليوم التالي. قال «فن» الموظف بلغة الايديش: «عليك ان تعود الى هنا غدا، وتنتظر دورك في الصف للحصول على قسائم جديدة، وسوف يتكرر هذا كل يوم: لا طعام من دون قسائم.» ثم ارسله الى المخزن حيث أخذوا منه البطاقة البيضاء وطلبوا منه توقيع سجل يثبت حصوله على الامتعة التالية: بطانيات من القطن الرمادي، وغطاء، وقطعة صابون. كانت البطانيات ملطخة ببقع صفر دلالة على انها كانت مستعملة، ومن الواضح انها لم تغسل قبل ان يعاد استخدامها. أما قطعة الصابون، فكانت قاسية وتفوح منها رائحة كريهة. ثم ارسله المسؤولون عن المخزن كي يبحث عن سرير خال.

كان حاييم كلوفشتوك هو الاسم الذي اعطي لـ «آريه غلبلوم»، الصحافي في جريدة «هآرتس»، اذ سمح له رئيس دائرة الاستيعاب في الوكالة، غيورا يوسفتال، بالخضوع لاجراءات الاستيعاب باسم مستعار كواحد من المهاجرين.(٨) ولم يعرف المسؤول عن المخزن كيف يرشد غلبلوم الى وجهته، فقد كان المعسكر يغص بالناس. حمل غلبلوم حقيبته في يد، والامتعة التي حصل عليها في اليد الاخرى، وانصرف. رأى امامه مجموعة من الثكن المغطاة بسقوف من الصفيح والتي كان الجيش البريطاني يستخدمها مخازن للعتاد، وقد نصب عدد من الخيم بالقرب منها. فتح الباب تلو الآخر، وفي كل مكان كان يرى المشهد ذاته: عشرات الاسرّة المرتبة الى جانب بعضها البعض في محاذاة الجدران، وكل سرير يلاصق الآخر، وفي وسطها أكوام من الصرر والصناديق والحقائب. وكانت الثياب وأواني الطعام مبعثرة في كل مكان. كان الكثيرون يرقدون وثيابهم ممزقة؛ يأكلون، او يلعبون الورق، او لا يفعلون شيئا. وقدر غلبلوم عددهم بنحو مائة من الرجال والنساء على الاقل. كانت رائحة العفن البشعة تنتشر في الجو. كما تشاهد، هنا وهناك، حفاضات الاطفال معلقة على الحبل، والأطفال يتراكضون بين الاسرّة ويقولون له في كل قاعة، بست لغات، ان لا مكان له. وفهم، فيما بعد، انهم كانوا يكذبون عليه، لأنهم لم يكونوا يريدون زيادة الازدحام. قالت

له احدى النساء، وكانت في مرحلة حمل متقدمة، ان عليه ان يحتل بالقوة مكانا له. وروى غلبلوم: «مررت بالقرب من خيمتها، كانت تحاول اشعال النار في عيدان من الشجر جمعتها من الهضاب الرملية المحيطة كي تطبخ شيئا لطفلها الرضيع الذي كان ملقى في لفائفه على الارض وهو يصرخ بأعلى صوته. كانت الخيمة الضيقة، المعدة في الاساس لتتسع لشخصين او لثلاثة اشخاص، مكتظة بالفرش ولا مكان للتحرك. وروت المرأة: «وصلنا يوم السبت قبل يومين. كنا اربعمائة شخص، وكان المعسكر ملآنا. ولم يكن فيه مكان واحد لنا. جلسنا هنا في العراء تحت المطر الغزير (...) حتى هبوط الليل، الى ان نصبوا لنا خيما. وكان المطر يتسرب اليها والى الفرش ايضا) (...).» وروت ان الشبان دخلوا احدى القاعات بقوة سواعدهم. وبطريقة ما وجد غلبلوم لنفسه سريرا خاليا في احدى القاعات بالقرب من باب الدخول: «كان الناس يدخلون ويخرجون، وجميعهم من دون استثناء ينسون اغلاق الباب. وبما انني كنت الاقرب، اضطررت الى ان آخذ على عاتقي، من اللحظة الاولى، مهمة البواب. ولم يكن اغلب الداخلين من [نزلاء] قاعتي، فالباب كان يستخدم مدخلا الى القاعة المجاورة ايضا.»

كان العديد من المهاجرين يحمل وجبات الطعام الى قاعات النوم، وكان بعضهم يطبخ بنفسه. كان غلبلوم يذهب الى غرفة الطعام حيث بقايا الطعام الدبقة تملأ الطاولات، والجدران عارية إلا بالقرب من النافذة حيث كانت هناك اعلانات لمباي ومابام وهبوعيل همزراحي، تدعو المهاجرين الى ان يسجلوا انفسهم لدى مندوبي هذه الاحزاب الذين يزورون المعسكر في ايام معينة. ومرت ٣٥ دقيقة تقريبا قبل ان يصل الدور الى غلبلوم. فقدم قسيمة طعامه، وحصل على صحن من الصفيح فيه حساء الخضروات، وعلى صحن آخر مثله يحتوي على قطعة كروية من السمك المملح وشيء آخر، وعلى قطعتين من الخبز وسكين وشوكة، لكن من دون ملعقة. وسأل عن سبب ذلك، لكنه لم يحصل على جواب. ولأنه كان جائعا، فقد تناول طعامه بأصابعه. وفسر ذلك فيما بعد: قالوا له ان المهاجرين اعتادوا سرقة أواني الطعام. وسأل لماذا لا يجعلونهم يوقعون قسيمة تسلُّم هذه الادوات كما يوقعون قسيمة تسلّم البطانيات والاغطية. وكان هناك سبب لذلك: كان مراقبو نظام المعسكرات يظنون ان المهاجرين لن يحرصوا على التمييز بين أواني الاكل المعدة لشرب الحليب، وبين تلك المعدة لأكل اللحم. أعطوهم لوجبة العشاء خمس حبات من الزيتون الاخضر، وقطعة جبن، وخبزا.(٩)

قبيل المساء، تذكر [النزلاء] في قاعة غلبلوم المذبحة الكبرى في احدى مدن يوغسلافيا، التي استمرت ثلاثة ايام: قتل الغزاة الهنغاريون اكثر من ٣٥٠٠ شخص، بينهم نحو ألف يهودي. كان هذا قد جرى في الشتاء. فقد أخرجت عائلات بأكملها من بيوتها، وسيقت في قوافل الى الشارع حتى نهر الدانوب، حيث جردوا من ثيابهم. كان النهر متجمدا، فحفر

الهنغاريون حفرة في الجليد، ودفعوا الناس الى حافتها وأطلقوا النار على ظهورهم، وراحت جثثهم تسقط في النهر. لم يطلقوا النار على الاطفال، بل كانوا يلوحون بهم في الهواء ويتركونهم يتهشمون فوق الجليد. هذا ما قيل خلال تلك الليلة. وفي زاوية اخرى من القاعة نفسها، كان بعضهم يروي لبعض ما جرى في اوشفيتس. كانوا يتحدثون ايضا عما يتوقعونه في البلد. اين سيسكنون، ماذا سيشتغلون، كيف سيتدبرون امورهم. كانوا يتبادلون النصائح التي جمعوها خلال النهار بشأن كيفية الالتفاف على الانظمة واللوائح، وكيف يحتالون على الموظفين. وأتى الليل. يقول غلبلوم: «(...) خلع الجميع تقريبا احذيتهم وجواربهم، وعبقت الغرفة بالرائحة النتنة لعشرات الأحذية والجوارب، وكان ذلك سيبقى هكذا، طبعا، طوال الليل. لا اعلم سبب خوفهم. فتح احدهم النافذة لادخال القليل من الهواء. ربما بسبب خوف مبالغ فيه على الأولاد، وربما كي لا يسبب ذلك مشاجرات لا نهاية لها. فسيكون هناك دائما من يعارض النافذة المفتوحة (...) كان الاولاد الذين لا يزالون في نعومة أظفارهم يجلسون على «النونية» بين جميع الناس، ثم يذهبون الى النوم. أما الاولاد الاكبر سنا، فكانوا يخلعون نصف ثيابهم ثم يرقدون. ويحاول المسنون والمسنات، بدورهم، النوم هنا وهناك يئنون ويبصقون، ولا يغفون، فيعودون مجددا الى الانين من [متاعب] الشيخوخة ومن ضعف حالتهم الصحية. ما زال الكثيرون يتحدثون فوق فرشهم. جماعة من المغاربة يخرجون زجاجة من العرق ويبدأون الشرب. كثيرون يدخنون والدخان يملأ القاعة ويمتزج بالرائحة الكريهة التي تعم المكان، وبرائحة الأجساد التي تتصبب عرقا في القاعة المقفلة النوافذ وذات سقف الصفيح الحار. كانت الوجوه حمراء ساخنة. وقد اصبحت الساعة الحادية عشرة وما زالت المصابيح الكهربائية مضاءة. ولن يكون في الامكان اطفاء النور في قاعتنا إلا بعد وقت طويل، لأن عددا كبيرا من مهاجري افريقيا ما زال يضج ويتمازح طوال ساعة بأكملها، وراء الجدار الحاجز في الجناح الآخر حيث يحتشدون. وقد صودف ان زر الكهرباء الخاص بثلاثة اجنحة موجود عندهم، وبالتالي فان التعتيم وقف عليهم. وفي تلك الاثناء، كانت أصوات الشخير والصفير والأنين، على أنواعه، تنبعث من زوايا مختلفة بلا توقف.

«يخلع الرجال والنساء ثيابهم علنا، وينتقلون بثيابهم الداخلية. خلع احدهم، وكان واقفا امامي، ثيابه حتى بات عاريا تماما. وكان لا يتوقف عن حك جلده. لكن الجميع يخلعون ثيابهم الخارجية فقط، وينامون الليلة تلو الاخرى بالثياب الداخلية نفسها التي يمضون فيها يومهم. لم يشاهد احد تقريبا في ثياب نوم فعلية، باستثناء بعض الفتيات اللواتي اهتدين الى طريقة لتغيير الثياب تحت البطانية. ما زالت المصابيح الكهربائية مضاءة. جلس بعضهم، منذ بداية الليل، بالقرب من الحائط الى يميني، وراح بعض الشبان — بينهم جنود — يتحدثون الى النساء الشابات. وكان واضحا ان الجنود ليسوا من اهل المعسكر. ثم خلعوا ملابسهم

واندسوا في الفرش. ومن دون تردد راحوا يعانقون الشابات. بالقرب منهم امرأة ترضع طفلها، وتشاهد ذلك بلا اهتمام، وبالقرب منها رجل يشخر بهدوء (...) نامت العائلة التركية التي بقربي، وبقيت اتحدث مع العائلة البلغارية التي الى يساري. كان الرجل وزوجته ينامان في السريرين [المتلاصقين]، وبينهما ابنهما الذي يبلغ الثالثة عشرة من العمر. وفي النهاية، تمنى لي الرجل ليلة طيبة ثم حمل ابنه الذي استيقظ في تلك الاثناء، بين يديه ووضعه جانبا واستلقى في فراش زوجته. بعد مرور بضع دقائق، خرج من تحت الغطاء، ثم حمل ابنه واعاده الى مكانه الذي كان مستلقيا فيه طوال الوقت وعيناه تحدقان فيما يجري، ثم أوى الى النوم (...).

«أخيرا، وبعد صراخ، وصراخ، اطفىء النور وأخذت احاول النوم. كانت أصوات قرض الفئران تسمع من تحت الصناديق والرزم. قلبت على جانبي الآخر لكن بسرعة عدت، فقد لمس وجهي تقريبا قدمي جاري اللتين تنبعث منها رائحة كريهة. كانت القاعة تنعم بشبه هدوء، والجميع نياما. وفجأة استيقظت على صوت غريب يشبه المطر. مرت بذهني فكرة استبعدتها فورا؛ فالطقس في الخارج كان صيفا، ومن غير المعقول ان يقضي احد حاجته في القاعة، عدت فغفوت. غير انني ما لبثت ان استيقظت مجددا على الصوت نفسه (...) وعندما ادرت ناظري، رأيت جارتي التركية جالسة بين سريرها وسريري تقضي حاجتها. وفي الواقع، كان عشرات من هؤلاء الناس، وبصورة خاصة النساء، لا يخرجون في الليل الى المرحاض البعيد نسبيا عن السرادق. ولا يستيقظ في الليل الأطفال والشيوخ فقط ليبوّلوا ويبرّزوا داخل الغرفة في أوعية من الصفيح المعدة لذلك، بل يستيقظ ايضا النساء والرجال من كل الاعمار. وكانت هذه الاصوات لا تتوقف طوال الليل (...) فيصبح الجو اكثر اختناقا، ورائحة الأجساد اكثر حدة. وتسمع طوال الوقت، من دون توقف ومن كل صوب، أصوات التغوّط العالية، وتنتشر الروائح الكريهة في فضاء الغرفة. ومع هذا كله كانت معدتي تنقبض، فهي لم تشبع جيدا من العشاء. نمت نوما متقطعا. كان هناك وراء الحاجز طفلة تصرخ، طوال الليل، معمع، معمع. وكما يبدو، تحاول الام ارضاعها، وتمتمت [بكلمات ليست عبرية]. وظلت الطفلة تصرخ (...).

«في الساعة الخامسة صباحا، يبدأ [النزلاء] بالاستيقاظ. والذي يستيقظ يتمشى طبعا ويحدث ضجة، وكأن ليس حوله آخرون ما زالوا نياما (...) انهم لا يغتسلون. ثمة رشاشات مياه ساخنة في عدد من المعسكرات. لكن لم يكن في المعسكرات الاخرى تجهيزات للمياه الساخنة، وكان من غير الممكن، طوال الشتاء، الاستحمام حتى لو رغبوا في ذلك. وهكذا، كانت هناك معسكرات كاملة يعيش فيها الآلاف من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، من غير رشاش ماء واحد ــ ولو رشاش مياه باردة. وفيما لو وجدت غرفة حمام حقيرة، مثل

هذه، لشغلها نزلاء لم يجدوا لأنفسهم مكانا آخر (...). حتى ان الحمامات العادية التي تحتوي على صنابير لغسل الوجه فقط، كانت ملطخة ومتسخة، ناهيك بالنقص في الكماليات مثل مرآة الحلاقة (...) وفي الاماكن التي حاولوا تركيب مراحيض عادية فيها، [لائقة] للبشر، سرعان ما كانت تتسخ في ساعات الصباح فتصبح غير قابلة للاستعمال فيما بعد، وفي اغلب الاحيان كانت تقفل تماما (...). كانت المراحيض، في العديد من المعسكرات، عبارة عن بالوعات مفتوحة تحيط بها اطر من الصفيح، من دون اية تمديدات، ومن دون مياه جارية. كانت هذه البالوعات تطفح وتملأ ما حولها بالروائح الكريهة. ولعدم وجود مكان جديد كان الناس يواصلون الذهاب الى هذه البالوعات، وكان البراز يعلو فيها ويطفو على حافتيها. كانت المراحيض العمومية مفصولة. وأحيانا كانت الغرف معزولة من الجانبين، ومفتوحة من الامام على رواق رئيسي. ولدى دخولك [المراحيض] كنت مضطرا للمرور أمام ابناء جنسك الذين يجلس الواحد منهم قرب الآخر، وفي بعض الأحيان كان هناك من الجنسين. وحتى عندما كانت المراحيض مفصولة بعضها عن بعض بشكل كامل، لم يكن هناك غرفة واحدة يمكنك ان تقفل بابها. وفي احد المعسكرات، لم تكن المراحيض غرفا صغيرة بل غرفا كبيرة جدا، في كل واحدة منها عدد من البالوعات، ويقضي الناس حاجاتهم جنبا الى جنب من دون أي فاصل بينهم. ولم يكن من النادر ان ترى أفراد أسرة واحدة يذهبون لقضاء حاجتهم معا (...).»

فيما بعد، ذهب غلبلوم لتناول الافطار، وكتب: «أعطونا مربى وخبزا. وتدفق الناس من كل أطراف المعسكر على المكتب، يقفون بالصف للحصول على قسائم جديدة للطعام.»

تؤكد محاضر المجلس التنفيذي للوكالة اليهودية، التي فُسح مجال الاطلاع عليها بعد جيل من الزمن، صورة الوضع التي رسمها الصحافي.[١٠] وعندما تسلمت الوكالة معسكرات الجيش البريطاني، وجدت فيها الكثير من الدمار، فلقد حطم جنود جلالة الملكة، بفؤوسهم، الستائر الواقية من الشمس والأبواب قبل ان يذهبوا، وثقبوا المقاعد والمغاسل، ودمروا جدرانا هنا وهناك، وبعض الابنية ايضا. قامت الوكالة اليهودية باصلاح ما يمكن اصلاحه، غير ان وتيرة الهجرة تخطت كل ما اعد مسبقا. لذلك أقاموا، على عجلة، معسكرات انتقال جديدة.

في بداية كانون الثاني/يناير ١٩٤٩، سكن المعسكرات ٢٨ ألف شخص تقريبا. اي واحد من كل اربعة من المهاجرين الذين وصلوا حتى ذلك الحين، وتدبر الثلاثة الباقون امورهم بأنفسهم. وأقام كل مهاجر في المعسكر ما بين اربعة وستة اسابيع. وقبيل نهاية السنة، ارتفع عدد المقيمين في المعسكرات الى ٩٠ ألفا، اي ما يوازي مهاجرَين من كل ثلاثة مهاجرين، وواحدا من كل عشرة اسرائيليين. واستمرت اقامتهم في المعسكر شهورا عدة.

قال موظف دائرة الاستيعاب تسفي حرمون، لاعضاء المجلس التنفيذي للوكالة اليهودية، ان الوضع في المعسكرات لا يطاق، «ولا ابالغ اذا قلت ان ظروف الحياة في مخيمات اللاجئين في ألمانيا بعد الحرب كانت افضل.»(١١)

في شهر آب/اغسطس، حذر يهودا برجينسكي — وهو من موظفي دائرة الاستيعاب ايضا — من ان كميات الغذاء بدأت بالنفاد: «ان عشرة بالمئة من سكان البلد سيعانون الجوع.»(١٢) وبعد ذلك بقليل، قدّم تقريرا عن نقص خطر في الغذاء. وفي الايام الثلاثة الاولى لشهر ايلول/سبتمبر، أعطوا المعسكرات خبزا وحليبا للأطفال فقط. وقلصوا كمية الخضروات الى الثلثين. وفي الاسبوع نفسه، جرت في معسكر المهاجرين في برديس حنا * اول تظاهرة للمهاجرين الجياع.(١٣)

ادت الظروف المادية التي سادت المعسكرات، كالاكتظاظ والنقص في المنشآت الصحية وقلة الطعام الذي لم يلب عادات الاكل لدى الكثيرين من المهاجرين، الى تدهور خطر في وضعهم الصحي، اذ وصل العديدون منهم الى اسرائيل منحرفي الصحة. فمرض عدد منهم، وانتشرت الاوبئة هنا وهناك، ولقي بعضهم حتفه — وبينهم أطفال. لم يكن في المعسكرات عدد كاف من الاطباء والأدوية والمعدات الطبية. وجاء في تقرير رفعه عضو الكنيست الدكتور موشيه سنيه، ومهنته طبيب، الى الكنيست ان بين ٣٧٠ طفلا في معسكر رعنانة ** للمهاجرين، كان هناك ٢٠٠ مريض. وقال انه لم يكن هناك عدد كاف من الاطباء في معسكر برديس حنا في اللد، لفحص الأولاد الذين أحضروا الى العيادة. وذكر سنيه في تقريره ان المستشفيات تستقبل طفلا واحدا من كل اربعة أطفال للمهاجرين الذين يرسلهم الأطباء للمعالجة، اي ان ٧٥٪ من مجموع الأطفال الذين يحتاجون الى العلاج لا تستقبلهم المستشفيات.(١٤) وروى عضو الكنيست يعقوب غيل (الصهيونيون العموميون): «رأيت نقاط استيطان جديدة للمهاجرين، تسكنها مئات العائلات، وتفتقر الى طبيب دائم والى عيادة ملائمة.»(١٥) [وتابع غيل يقول] «ورأيت في المدن والقرى المهجورة مئات المرضى المصابين بأمراض معدية، لا يزالون في بيوتهم، وهم يعرضون صحة عائلاتهم للخطر بسبب نقص العلاج في المستشفيات (. . .) وشاهدت في كوخ في قرية برنديس، الواقعة بالقرب من

* أسس موشاف برديس حنا سنة ١٩٢٩ «جمعية الاستعمار اليهودي» لتوطين مجموعة من العمال الزراعيين. وتوسعت هذه المستعمرة، وضمت اليها مستعمرة «مجد» المجاورة سنة ١٩٣٣. ثم اتحدت بموشاف «كركور» سنة ١٩٦٦. وهي تقع في الجزء الشمالي من السهل الساحلي، على بعد ٧ كلم شمالي شرقي الخضيرة. (المحرر)

** مستعمرة صهيونية في قضاء يافا، تقع على الطريق التي تصل هيرتسليا بكفار سابا. أنشأتها سنة ١٩٢٢ جماعة من المهاجرين الاميركيين على ارض اشترتها «شركة تطوير الأراضي الفلسطينية». (المحرر)

مستعمرة الخضيرة، عائلتين من خمسة أشخاص، بينهم طفل مصاب بالسل يرقد في الفراش نفسه الذي تنام فيه العائلتان.»(١٦) ونشرت احدى الصحف الاسطر التالية عن واقع المعسكرات: «يوم مشرق في معسكر المهاجرين. الأم تنشر الغسيل على الحبل، وبالقرب منها تلعب ابنتها البالغة من العمر ثلاثة أعوام؛ تقطف زهرة بعد زهرة، وتركض هنا وهناك. وفجأة تعثرت الطفلة وسقطت في بركة ماء عميقة. هناك في المعسكر ثلاث برك ماء من مخلفات الجيش البريطاني. لم يكن في الجيش البريطاني أطفال في سن الثالثة. لكن الأطفال كثر في معسكر المهاجرين والبرك مفتوحة. راحت الأم تفتش عن طفلتها، وبعد بضع دقائق انتشلت من البركة فاقدة الحياة. وراح آلاف الناس في المعسكر يصرخون: اسعافات اولية! وتمضي ساعتان قبل ان تصل الاسعافات الاولية. أما الطفلة فقد بقيت في الشمس بالقرب من البركة فاقدة الحياة.» جرى هذا في مخيم للمهاجرين في تنانيا.(١٧) لم يتلق أولاد المعسكرات تعليمهم، ولم يكن فيها حدائق أطفال او مدارس. ومعظم سكان المعسكرات لم يعمل.

تحتوي ملفات مكتب رئيس الحكومة على بضعة تقارير عما جرى في المعسكرات، بينها تقارير كتبها موظفو جمعيات المساعدات الخيرية الاجنبية. وقد جاء في احد هذه التقارير: «من الناحية التاريخية، تعكس المعسكرات في اسرائيل احد الاخفاقات الاكثر سخرية في العالم: يهود يحتفظون بيهود آخرين في معسكرات. ويبدو انهم لم يتعلموا شيئا من المأساة التي مروا بها.»(١٨) لم يعرف احد من سكان هذه المعسكرات الى متى سيبقى مقيما فيها من دون عمل. لذلك، كانوا متهورين ساخطين ومحبطين، واسرائيل ما زالت بلدا غير معروف بالنسبة اليهم؛ فهم لم يتنزهوا في ربوعها، ولم يتعرفوا الى اهلها، ولم يختبروا نمط الحياة فيها عن كثب. فقد كان لقاؤهم الاول بالبلد هو لقاؤهم بالموظفين وتعقيدات البيروقراطية، وباحتيال السماسرة، والسوق السوداء، وألاعيب النشيطين الحزبيين، والمحسوبية. وكانت تلك [الفترة] اشهر قمع واذلال وشكوك الى حد فقدان الثقة بمستقبلهم وبأنفسهم. كانوا يلتقون، في اثناء اقامتهم في المعسكرات، عمالا مخلصين جدا من اصحاب النيات الحسنة، غير ان معظمهم كان عاجزا. قال غيورا يوسفتال: «نحن نحطم الناس ونفسدهم.»(١٩) حتى هو كان عاجزا. وأضاف: «ليس في استطاعتنا ان نفعل شيئا سوى البكاء بصمت.»(٢٠)

تولى يوسفتال مسؤولية ما يجري في المعسكرات، اذ كان رئيس دائرة الاستيعاب في الوكالة اليهودية. ولم يكن قد حذف، بعد، حرف السين الاضافية من وسط اسمه، وكان يلفظه يوزفستال، مثلما اعتادت عائلته ان تلفظ اسمها خلال السنوات الخمسمائة منذ استقرارها في مدينة ألسباخ في جنوب ألمانيا. وهو لم يهاجر الى اسرائيل إلا قبيل الحرب العالمية الثانية. كان، مع زوجته سنتا، من مؤسسي احد الكيبوتسات. جند في الجيش

البريطاني سنة ١٩٤٣، وتولى مسؤولية دائرة الاستيعاب في الوكالة اليهودية سنة ١٩٤٥. ومنذ ذلك الحين، تفرغ للعمل من اجل استيعاب المهاجرين، الذين اتى البعض منهم قانونيا، والبعض الآخر حاول التسلل الى البلد بصورة غير قانونية. وزاول نشاطه بين المهاجرين غير الشرعيين المعتقلين في البلد وفي قبرص، وبين الذين يسكنون معسكرات المشردين. وهو رجل مخلص، وصاحب قدرة تنظيمية. وفي تلك الفترة، بدأت الهجرة الجماعية ولم يكن البلد بعد معدا لاستقبالها. وقد ادرك يوسفتال ذلك، وأمل بأن يصار الى كبح وتيرة الهجرة، غير انه لم يجرؤ على النضال من اجل ذلك، كما لم يكن قويا بما فيه الكفاية. وقد وصفه – فيما بعد – احد معارفه، يسرائيل كيسار، بأنه كان رجلا ضخم البنية، يتأرجح دائما بين وظيفته المهنية كرجل قانون وكخبير بشؤون المجتمع والرخاء، وبين وظيفته السياسية في ماباي، قال كيسار: «لقد تحدثنا عن ذلك اكثر من مرة. كان وضعه في الحزب صعبا. ولكونه متحدرا من اصل اوروبي غربي لم يسمحوا له بالترقي.»(٢١) وعلى الرغم من انه عين، فيما بعد، امينا عاما للحزب ومن ثم وزيرا للعمل، فقد ظل دائما «غرسة غريبة» داخل المؤسسة السياسية التي كان معظم اعضائها من اصل اوروبي شرقي. ولقد حاول، من دون نجاح، ان يتعلم الايديش، لكنه بقي حتى نهاية حياته لا يتكلم العبرية بطلاقة. وبينما كان منصرفا ليلا ونهارا الى تنظيم الاستيعاب، حرص على ان يغرس في أذهان موظفي دائرته شيئا من الاستقامة الانسانية التي حملها معه من ألمانيا، واهتماما صادقا براحة كل فرد، غير ان المهاجرين كانوا كثرا جدا ووصلوا بوتيرة سريعة جدا. وقد تألم يوسفتال لألمهم، وعانى معاناتهم. وأخبر اعضاء المجلس التنفيذي للوكالة اليهودية، مرة، انه كان على وشك الانهيار العصبي.(٢٢)*

في تلك الاثناء واصل اشكول، رئيس دائرة الاستيطان في الوكالة، تنقله في القرى العربية المهجورة. ودعا الى جعل عشرات منها – مثل البرية التي اكتشفها في الطريق الى القدس – مستعمرات للمهاجرين. ولقد اهتم بذلك بالاقدام نفسه الذي ميز «الآباء المؤسسين»: مزيج من التشبث الفكري ونزعة الابداع. ونذر اشكول نفسه للانجاز، وكان لديه ميل الى الاستخفاف بالنظريات، وكأنه كان يبشر بنزعة التنفيذ العملي التي سيطرت على حركته فيما بعد. كان يقول عن نفسه ان حبه كله مكرس للأرض والمياه، وقد كان حقا احد

* كان يوسفتال يعرف مسبقا ما الذي سيحدث. حتى انه قبل قيام الدولة، تحدث عن «الكارثة المتوقعة»، وحذر من حدوث ذلك، لأن «الرجال الكبار» القادرين على استيعاب المهاجرين، لا يعملون من اجل ذلك. فهم مهتمون بالهجرة لا بالاستيعاب. وقصد بذلك دافيد بن – غوريون وغيره، وقال لزملائه: «عندما يقترح بن – غوريون عليّ السفر الى اميركا ولا يعرف ما الذي سأقوم به، فان هذا يدل على ما هو عليه وضعنا.» وتحتوي مذكرات بن – غوريون على تفاصيل تلك الجلسات التي عقدت بحضوره، والتي بُحث خلالها في مشكلة الاستيعاب.(٢٣)

مؤسسي دغانيا «ب» وشركة «مكوروت» [للمياه]. وعلى نهج رجال هذا الوسط الضيق، الذي كان يحيط بدافيد بن – غوريون، كانت له يد في كل عمل وفي كل مسألة، سواء أكانت مالية ام امنية، حزبية ام سياسية. فتوزيع العمل، بحيث يعمل كل انسان في مجال اختصاصه، لم يكن مألوفا لديهم، وعملوا جميعهم تقريبا في كل ما هو مطلوب عمله. كان اشكول يعتبر قوة صاعدة. يتذكره معارفه رجلا متقد الذهن، لكنه غير بارع. وهو ممتلىء «سذاجة» حارّة وفظة ظلت تلازمه كأنه لم يترك منزل ابيه في حياته، اذ كان من عائلة حاخامية من اوكرانيا. كتب [اشكول] يصف جولته الاولى في احدى القرى المهجورة: «شعرت بأننا عندما ندعو: نجنا يا رب من الشدة، سنجد النصيحة والمشورة لتوجيه هذا السيل الهائل من المهاجرين الجدد نحو الحقول التي تستصرخ الايدي العاملة...»(٢٤) وفي نظر يتسحاق كورن، احد اعضاء ماباي، ان ذلك الوقت كان وقتا مباركا. وكتب فيما بعد: «لقد بدا ان العناية الالهية قد زاوجت بين هؤلاء الناس وهذه الأرض.»(٢٥) وكان هناك، استنادا الى كلامه، «استجابة جماعية» من المهاجرين عندما لبوا الدعوة الى الاستيطان، وكان ذلك «شهادة على التوق العميق الى التجدد والتجذر في ارض البلد.»(٢٦) لكن هذا لم يكن دقيقا.

في صباح احد الايام، في منتصف شهر تشرين الاول/اكتوبر، وقف ثلاثة مهاجرين من المغرب، من سكان الضاحية العربية في عكا، ينتظرون بالقرب من محطة باصات ايغد في القدس، وهم: موشيه صباغ، وشمعون اطياس، وشلومو ابو حتسيرا. حملوا معهم أكياسا من السندويشات. وكانوا ينوون الطواف في البلد، فربما وجدوا لهم قرية مهجورة او أرضا خالية لانشاء مستعمرة. كان يرافقهم احد موظفي دائرة الاستيطان في الوكالة اليهودية يدعى أغامي، الذي سجل أحداث ذلك النهار ساعة بعد ساعة كالتالي: «... تركنا القدس في الساعة السابعة وخمسين دقيقة، فوصلنا الى تل ابيب في الساعة التاسعة وخمسين دقيقة، وذهبنا الى منظمة الموشافيم [المستعمرات التعاونية]. لم نجد الرفيق غلعاد، ولا الرفيق أنصار. كان يجلس في غرفتهما يهودي من بلغاريا اسمه بن باسط. سلمته اللائحة التي تتضمن تسع عائلات (نحو خمسين شخصا) من نواة مستعمرة البقعة (...) وصادف ان كان هناك شاب جزائري ومعه خمسون طلبا تقريبا من أرباب عائلات من افريقيا الشمالية يستعدون للذهاب الى الموشاف (...) قدم السيد بن باسط الينا رسائل توصية.» في الساعة الثانية عشرة والنصف تركوا تل ابيب ووصلوا الى عين هود في الساعة الثالثة والنصف. وقال أغامي ان «هذا هو الاسم الجديد لعين حوض*»، وهي قرية عربية كانت في الماضي فوق الهضبة،

* عين حوض قرية عربية تقع على بعد ١٧ كلم جنوبي حيفا. شرد الصهيونيون سكانها ودمروها سنة ١٩٤٨. وفي سنة ١٩٤٩، أقاموا على انقاضها موشاف «عين هود» الذي تحول سنة ١٩٥٣ الى قرية للفنانين. (المحرر)

تبعد عن الطريق مسافة ربع ساعة سيرا على الاقدام. توزعوا بين المنازل المتعددة وتحدثوا الى سكان المحلة. في تلك الاثناء، ذهب أغامي ليحضر شخصا من امانة السر. كان مسؤول المحلة مهاجرا من تونس اسمه ارماند (عمرام). وكان مشغولا، في ذلك الوقت، بايصال صهريج المياه الى القرية، لكن بعد قليل تفرغ للحديث. لم يكن عنده الكثير ليقوله، اذ ان الوكالة اليهودية كانت مزمعة على انزالهم من القرية الى سفح الهضبة، غير بعيد عن الطريق، ليبنوا لهم مستعمرة جديدة. وكتب أغامي: «كانوا يفضلون البقاء في المكان الذي كدوا فيه وعملوا كثيرا طوال عام. وفي رأيهم، ان المنازل العربية افضل وأقوى من المباني الجديدة. لكنهم سيضطرون، كما يبدو، الى الخضوع للوكالة لأنهم مرتبطون بها.» إذ تبلغ المساعدة التي تقدمها الوكالة لكل عضو ٥٠٠ ليرة. وقد انضم احد الشبان من مساعدي ارماند الى الجولة. وتسكن القرية اثنتان وتسعون عائلة، تملك بصورة مشتركة بَقَرتين. كما حصلت كل عائلة على ٢٥ ــ ٢٨ دونما من الارض: ثلاثة دونمات بالقرب من منزلها، والباقي يبعد مسافة ما. شعر الضيوف من القدس بخيبة الامل. وقال أغامي: «لم يعجبهم المكان بسبب المرتفعات والمنحدرات. كانت المياه تنضح من الآبار. وكانت الارض رمادا اكثر مما هي تربة، والمنازل العربية قديمة وبالية.»

في الساعة الخامسة من بعد الظهر، غادروا عين هود الى شمالي عتليت *، مستخدمين «الاوتوستوب». وكانت تلك مستعمرة لم يستكمل بناؤها بعد، وأكثر اهلها من شمال افريقيا، يقيم معظمهم في الخيم اذ كانت تبنى لهم منازل لا تبعد سوى مسافة معينة. كما كانت هناك معدات زراعية ضخمة وجديدة تعمل في المنطقة. ودوّن أغامي اقتراحا: من المفضل للذين يكرسون انفسهم للمستعمرة، وللحياة الزراعية، ان يؤكدوا ان معظم الاعمال الصعبة تقوم بها هنا المعدات الكبيرة لا الفلاح كما في شمال افريقيا.

ذهب سكان القرية لحضور احد الاحتفالات في القرية المهجورة اجزم ** التي اصبحت، فيما بعد، كيرم مهرال، غير ان الضيوف من البقعة التقوا بعض النسوة، وتجاذبوا معهن أطراف الحديث. وصل معظمهن الى البلد قبل خمسة او ستة اشهر. كن راضيات. لقد اعجبت عتليت الشمالية المسافرين من القدس، وقالوا لأغامي: «اذا قمت بالترتيبات المطلوبة فنحن مستعدون للمجيء الى هنا هذا الاسبوع.» وكتب أغامي في تقريره: «تبدو

* قرية عربية صغيرة تقع جنوبي جبل الكرمل. ويبدو من آثارها ان الانسان استوطن منطقة عتليت منذ عصور ما قبل التاريخ. وسنة ١٩٠٣ أنشأ الصهيونيون مستعمرة عتليت في جوار عتليت العربية. (المحرر)

** قرية عربية تقع على بعد ٢٨ كلم جنوبي حيفا. في ٢١ تموز/يوليو ١٩٤٨ قصف الصهيونيون اجزم بقنابل الطائرات، واحتلوها في اليوم التالي وشردوا سكانها ودمروها. وفي سنة ١٩٤٩، أقاموا مكانها موشاف «كيرم مهرال». (المحرر)

الامور هنا عملية بما فيه الكفاية، اذ توجد أراض سهلية وخصبة. وكان السيد صباغ قد عمل، في شبابه، في الزراعة؛ ففحص [الارض] ايضا: يوجد فيها مياه غزيرة وهي قريبة من شاطىء البحر وغير بعيدة عن الطريق، وقريبة من المدينة، ومنازلها جديدة وحديثة، وهي تقع داخل الدولة لا بالقرب من الحدود، ودرجة الحرارة فيها لا تزيد عن تلك التي كانت في مدينة وهران مسقط رأسهم.» وعلى الرغم من ذلك، فهناك شيء ازعجهم. كتب أغامي بحذر: «التعاونية الاستهلاكية تابعة لشخص معين.»

وما لبث ان حل المساء، فغادروا المكان في الساعة السادسة والنصف. لم يكن هناك، حتى في عين هود، اي امكان للمبيت فذهبوا الى معسكر المهاجرين. ويذكر أغامي: «في الساعة السابعة والنصف وصلنا الى برديس حنا. تناولنا وجبة العشاء وبتنا عند عائلة رفائيل أبو حتسيرا.» وكانت عائلته مؤلفة من تسعة أشخاص، وترغب هي ايضا في الذهاب الى الموشاف. ناموا تلك الليلة في الخيام. وقبل ان يستغرقوا في النوم، تجمع عدد من سكان الخيم المجاورة، وحدثهم الضيوف بحماسة عن انطباعاتهم في شمالي عتليت. وأضاف أغامي: «في الساعة السابعة وخمسين دقيقة من اليوم التالي غادرنا المعسكر. قررت مرافقة مضيفي وابنه، الذي يبلغ السابعة عشرة من العمر، لزيارة موشاف قديم ومزدهر، فاخترنا موشاف كفار فيتكين الذي وصلنا اليه في الساعة التاسعة وخمسين دقيقة. تجول بنا امين السر، وحدثنا عن الماضي. هناك ثلاثة ابنية مخصصة للمدرسة، وقاعة مسرح، و ١٢٠٠ رأس بقر، و ١٥٠ مزرعة، ومطحنة حبوب، وأربع آلات لتفقيس البيض. كان الموشاف يرسل الى تل ابيب ٢٠ ألف بيضة يوميا (...) زرنا احدى المزارع النموذجية، والغرف السكنية، ومرافق الراحة. كان هناك براد كهربائي، وآلة غسيل كهربائية، وفي الكثير من المزارع كانت توجد سيارات خاصة.» اهتم الضيوف، بصورة خاصة، بما اذا كان هناك كنيس، فأرشدوهم اليه. وحدثوهم عن الحياة في الموشاف. وسألوا عن وضع العمال الاجراء. وخلال الزيارة، التقوا احد اعضاء المنظمة الصهيونية ويدعى سيمحا. كان اغلبهم من شمال افريقيا، وتم تأهيلهم في كفار فيتكين قبل انشاء موشاف على الحدود بالقرب من قلقيلية * (...).»[٢٧]

تحدث يوسف فرويند، من موشاف حيروت والذي قام بمهمة ارشاد المهاجرين، عن عملية القرعة التي جرت لتوزيع البيوت والاراضي على المهاجرين الأوائل الذين أتوا للاستيطان في يبنه **، وكانوا من اصل بلغاري: «جرت عملية القرعة على البيوت

* مدينة عربية تقع على مسافة ٦ كلم الى الجنوب الغربي من طولكرم، وهي مدينة كنعانية الأصل عرفت في العهد الروماني باسم «كاليكيليا»، وفي عهد المماليك باسم «ناحية الحرم». (المحرر)

** من اكبر القرى العربية في قضاء الرملة، تقوم على انقاض مدينة كنعانية قديمة. وكانت تعرف في العهد الروماني باسم «يامينا». وسماها الفرنجة «ايبيلين». دمرها الصهيونيون سنة ١٩٤٩ وأقاموا على أراضيها مدينة «يبنه». (المحرر)

والأراضي، وسيطر على المستوطنين قبيل اجرائها توتر نفساني! وساد جو من الاحتفال والفرح عندما تجمعوا لسحب الأوراق. وحتى عروقي أنا ارتعشت وكأني التقيت حبيبة شبابي. فكرت مليا، وقلت في نفسي: ان هذا هو التوتر نفسه واليقظة نفسها اللذان سادا عندنا، لدى اجراء القرعة على قطع الارض الاولى في الموشاف الذي سكنت فيه...»[٢٨] لكن أحدا من مسؤولي وزارة الدفاع لم يكن موجودا في يبنه. وبعد مرور بضعة اسابيع على قرعة الأراضي التي جعلت الدموع تترقرق في عيون مستوطنيها كتب [يوسف فرويند]، بعد عودته، الى بن ـ غوريون: «لقد رأيت هناك صورة رهيبة لمئات النساء والأولاد الذين يقفون في ساحة القرية، يحملون الأوعية والمواعين في انتظار السيارة التي ستجلب ماء الشرب وماء الاستعمال من مكان قريب. تنعم قرية يبنه بالمياه الوفيرة، وفيها عشرات الآبار. انني لا ادري منذ متى يستمر هذا الوضع المخيف. غير انني اعلم ان [نهاية الوضع] ليست مسألة يوم او يومين. لقد اخبرني السكان ان مساحات من الاراضي التي زرعها المستوطنون بالخضروات، واعتنوا بها، وبذلوا جهودا كبيرة، هي في طريق التلف بسبب نقص المياه (...).»[٢٩] كانت دائرة الاستيطان تواصل الاحتفاظ ببضعة تقارير متفائلة عما يجري في يبنه: هناك الحمامات الاولى، ومزرعة الدجاج، ومزرعة الخضروات، غير ان الاستيطان الزراعي فشل هناك. فقد هجر المستوطنون الاوائل المكان الذي تحول الى بلدة تعاني الضيق.[٣٠] بعد مرور عام، رفع تقرير الى رئيس الحكومة عن خطورة الوضع في عدد كبير من مستعمرات المهاجرين، فقد شملت البطالة معظم سكان سبع وعشرين مستعمرة: «يسود الجوع بين السكان في هذه المستعمرات.» وقيل: «هناك رجال ونساء وأطفال جياع فعلا الى قطعة خبز.» وأشار موظف حركة الموشافيم، عامي آساف، الذي كتب هذا التقرير، الى ان المستوطنين غير قادرين على دفع ثمن الطعام المخصص لهم والذي ما زال في المخازن. كما لم يملكوا مالا لدفع ثمن الثياب التي أُرسلت اليهم مجانا تقريبا. وأضاف آساف: «اتخوف من أعمال يائسة قد يقدم عليها أناس جياع، وأشخاص ينظرون بألم الى جوع أولادهم.»

أحال بن ـ غوريون رسالة آساف على اشكول وطلب ملاحظاته، فاستشار اشكول غولدا مئير، وزيرة العمل. وفيما بعد حرر رسالة جوابية الى آساف ممهرة باسم بن ـ غوريون: «أ ـ لن تحدث مجاعة في تخومنا (...). ب ـ يتضح ان مستعمرات المهاجرين غير قادرة بعد على توفير قوتها من مزارعها خلال العامين الاول والثاني من اقامة المستعمرة، وهذا الامر مرتبط ـ بصورة رئيسية ـ بوتيرة بناء المرافق الاقتصادية. ان هذه المستعمرات تحتاج، بل تستحق ان تحظى بجزء من أعمال الخارج والأعمال العامة لسد عوزها (...).»[٣١] ولم يكن القصد تحويلهم الى عمال أشغال شاقة، بل الى مزارعين.

كان بعض المهاجرين يذهب الى المستعمرات بصورة طوعية، كما كان قسم منهم يعمل

في الزراعة قبيل وصوله الى اسرائيل. وكان هناك من اخذ على عاتقه قبول نمط حياة جديدة. وكان الكثيرون يذهبون الى المستعمرات بعد ان يقنعهم مبعوثو الوكالة بأن يصبحوا مزارعين. وكان ثمة من أُرسل الى القرية رغما عنه.

يتذكر آرييه (لوفا) إلياف فيما بعد، وهو احد مساعدي ليفي اشكول، مهاجرين رفضوا النزول من الشاحنات، ولاجبارهم على ذلك رفعت قلابات الشاحنات نحو الاعلى الى درجة الانحدار، وكان المهاجرون ينزلقون منها رغما عنهم.[٣٢]

لم تكن قصة مستعمرات المهاجرين الجديدة كلها قصة نجاح؛ فقد كانت بالنسبة الى العديد منهم قصة فشل وألم. فقد كان بين القرى المهجورة قرى غير صالحة للسكن. وكان بعض البيوت، وبينها من كان مبنيا بالطين، على وشك السقوط. ولم تكن هذه البيوت جميعها مزودة بالكهرباء والمياه والمجاري. وهناك منازل بعيدة عن الطريق. ولم تكن أعمال الترميم تكفي دائما، ولا تجري بالوتيرة المطلوبة. أما المساعدة المادية بالمال والمعدات الآلية ومزارع الحيوانات، فلم تف دائما بالحاجات. كذلك لم يكن التسويق منتظما كما يجب، اذ ان الكثيرين من المستوطنين وجدوا صعوبات في التكيف لأنهم لم يفهموا، بين امور اخرى، لماذا عليهم ان يبيعوا انتاجهم بأسعار «تنوفا» [احدى شركات تسويق المنتوجات الزراعية]، في الوقت الذي يستطيعون فيه الحصول على أسعار افضل كثيرا في أسواق المدن وفي السوق السوداء. وواجه العديد من المهاجرين صعوبة في اعتياد المشاركة والمساعدة المتبادلة المطلوبة في الموشاف. وكان جزء من هذه المستعمرات يفتقر الى خدمات صحية، او الى صفوف للتعليم. فأرسلت الوكالة وحركة الموشافيم الى المهاجرين مرشدين لمساعدتهم في خطواتهم الاولى. كان بينهم من لم يسبق له ان عمل في الارشاد، وبالتالي لم يعرف ماذا عليه ان يفعل. وكان منهم من عاد وهو يروي قصصا مخيفة عن تخلف المستوطنين وغرابة أطوارهم. لم تكن لدى العديد من المهاجرين فكرة عن كيفية العمل في الارض التي وضعت في تصرفهم، وكيف يتصرفون في الأبقار والطيور التي حصلوا عليها، اذ أُرسل معظم المهاجرين الى المستعمرات الجديدة من دون تأهيل. شرح دافيد بن ـ غوريون سبب حدوث ذلك، فقال: «درجنا في الماضي على احضار المهاجرين بعد أعوام من الاعداد. وأقمنا في كل دولة مزرعة للرواد، وكنا نحتفظ فيها بالرواد عدة أعوام كي يؤهلوا انفسهم للحياة والعمل واللغة ومعرفة ارض ـ اسرائيل قبل هجرتهم اليها. أما الآن، فاننا نأتي باليهود كما هم، من دون اي اعداد. لا نحتفظ بهم في مزارع الرواد، لضيق الوقت لدينا ولديهم ايضا.»[٣٣]

استقرت عدة آلاف من المهاجرين في الكيبوتسات، وأقامت بضع مئات منهم كيبوتسات جديدة. وبعد مرور فترة من الزمن، جرى جدل في شأن عدد هؤلاء ونسبتهم، لكن هذا الجدل لم ينته. كانت بدايته احدى الملحوظات المتميزة والمثيرة جدا للغضب التي كان

دافيد بن ـ غوريون يطلقها من وقت الى آخر. فعندما لاحظ انه يشعر بـ «الخجل والخزي» لأن الكيبوتسات لم تستوعب عددا اكبر من المهاجرين، سارعت صحيفة «عال همشمار» الى اطلاع قرائها على معلومات حصلت عليها، بحسب قولها، من شعبة الاحصاءات تفيد بأنه منذ قيام الدولة حتى بداية شهر كانون الاول/ديسمبر **١٩٤٩**، تم استيعاب نحو **٢٠** ألف مهاجر في الكيبوتسات. غير ان هناك وثيقة في احد ملفات مكتب رئيس الحكومة، تقول ان عدد المهاجرين الذين استوعبتهم الكيبوتسات لا يصل الى **٩** آلاف.(٣٤) لكن، حتى لو كانت صحيفة [حزب] مابام اليومية صادقة، فان الكيبوتسات لم تستوعب حتى ولا واحدا من كل **٢٠** مهاجرا. أما المستعمرات الزراعية كلها، القديمة منها والجديدة، فقد استوعبت اثنين من كل عشرة مهاجرين، وأقام الثمانية الآخرون في المدن. حتى ان الأمر كان هناك صعبا جدا عليهم.

في الاسبوع الاخير من شهر نيسان/ابريل، تظاهر نحو **٣٠٠** مهاجر خرجوا من الرملة الى شارع اللنبي في تل ابيب، مطالبين بالخبز والعمل. وعندما وصلوا الى شاطىء البحر، حاولوا اقتحام المبنى الذي كانت تشغله سابقا سينما «كيسم»، والذي اصبح مقرا للكنيست. غير ان قوة كبيرة من الشرطة اجبرتهم على التراجع، فتوجهوا الى هكرياه [مكاتب الحكومة] حيث تم التعهد بايجاد العمل لهم.(٣٥) وبعد اسبوعين من ذلك، دخل بضع مئات من المهاجرين مبنى الوكالة في حيفا عنوة، وتسللوا الى دائرة الاستيعاب حيث صبوا جام غضبهم على التجهيزات المكتبية، وطالبوا بالعمل والمسكن. وتعهد اثنان من موظفي الدائرة بنقل مطالبهم الى المسؤولين. وفرقت الشرطة المتظاهرين بقسوة، مما جعل عددا منهم يحتاج الى معالجة طبية، كما ألقي القبض على بعضهم. وكان هناك، بالقرب من نوافذ القنصلية البريطانية، شخص يصور ما يجري.(٣٦) بعد عشرة اسابيع، خرج عشرات المتظاهرين من يافا، ونجحوا في اختراق مداخل الكنيست والوصول الى الساحة. كان البعض منهم مزودا بهراوات. وفي اللحظة الاخيرة، استطاعت الشرطة منعهم من دخول قاعة الاجتماعات، حيث كانت تجري في تلك الساعة مناقشة قانون التعليم الالزامي. وكان رئيس الكنيست، يوسف شبرينتساك، قد وافق قبل اختراقهم المدخل على استقبال وفد منهم، غير انه تراجع عن ذلك وأعلن: «لا نجري مفاوضات مع مقتحمي المداخل.»(٣٧) ووصفت تقارير، نقلت في تلك الاسابيع الى الجلسات المغلقة للمجلس التنفيذي للوكالة، الوضع في المدن المهجورة بأنه «كارثة في المجالات كافة. فلقد عمَّت المجاعة بعضها.»(٣٨) وبعد ثلاثة اشهر، ذكرت احدى عضوات الكنيست انها رأت تقريرا عن الوضع ذكر فيه، بين امور اخرى، ان أولادا هاجموا أولادا آخرين في اثناء ذهابهم الى المدرسة. وكان الهدف من الاعتداء سلب أكياس الطعام التي يحملونها معهم.(٣٩)

في تلك الاثناء، تم في مدن البلد تشييد أحياء سكنية ومنازل من طبقتين، بينها شقق صغيرة من حجرة او حجرتين، و«شرفات» و«أكواخ». كانت نوعية البناء رديئة، ولم تكن المباني كافية. وكانت وزيرة العمل، غولدا مئير، مسؤولة عن البناء العام وهي المعلمة من ميلووكي التي وصلت طفلة اليها من كييف، والتي كرست نفسها للخدمة العامة مباشرة حين وصولها الى اسرائيل، في سنة **١٩٢١**. عملت في مجلس العاملات واللجنة التنفيذية للهستدروت، وفي ماباي والوكالة، وبعد زمن انضمت الى جماعة ضمت بن ـ غوريون: كانت تتدخل، كالآخرين، في كل ما يجري تقريبا، وكان يناديها الجميع غولدا فقط. كانت تعرف كيف تجمع المال من المتبرعين اليهود في الولايات المتحدة، بصورة اساسية؛ فقد كانت شديدة التأثير في الآخرين حتى الرهبة. وهي ليست جميلة غير ان لها سحرها الخاص، تعرف كيف تؤثر في المستمعين بايمانها المتقد وبشعور الالحاح الذي حملته في وجدانها. كان ذلك مزيجا فريدا في نوعه، جمع التفاؤل اليهودي الشديد على غرار «كل شيء سيكون على ما يرام، ويجب ان يكون على ما يرام» والنظرة الاسرائيلية السوداوية جدا على غرار «العالم كله ضدنا، ولا نستطيع الاعتماد إلا على أنفسنا.» وكانت تتمتع بين الآباء المؤسسين بميزة مهمة، وهي إتقانها اللغة الانكليزية. لذلك كلفت مهمات اعلامية، وفيما بعد مهمات دبلوماسية كالمحادثات مع الملك عبدالله. وأُرسلت الى موسكو مندوبة لاسرائيل لدى قيام الدولة. ثم عادت الى البلد بعد انتخابات الكنيست الاول، وانضمت الى الحكومة. كانت امرأة صعبة المراس لكن عاطفية كطفلة، وذكية لكن ذات تفكير غيبي، مستقيمة ساخرة، متشبثة جدا بالنهج الذي اختارته، ومقتنعة تماما بأن لا نهج غيره، وذلك استنادا الى معطيات لم تكن دقيقة في بعض الاحيان. يظهر كل هذا بوضوح من الخطب التي ألقتها في الكنيست الاول عندما كانت وزيرة العمل في الواحدة والخمسين من العمر. تهتم بمواد البناء وأساليب الانتاج، والكميات والتكاليف، غير انها كانت تتحدث عن الخطر والسعادة، عن القوة والسرور، عن البطولة والخطيئة والعار، ودائما بلهجة شديدة الخصوصية والانفعال. وعندما تظاهر المهاجرون العاطلون عن العمل، رأت في ذلك تظاهرة «نظمت لها» لإهانتها، تماما مثل مراسلي الصحف الذين زوروا كلامها بصورة اثيمة لإغاظتها.(٤٠) وقد قالت عندما بررت سياسة الاسكان الحكومية: «عندنا خيار واحد فقط!» فلقد اعتادت ان تفكر بالأسود والابيض.(٤١) وعندما تم الاحتجاج على قرار اسكان عدة آلاف من المهاجرين في أكواخ بدلا من منازل، اجابت بأنها وافقت على اقامة هذه الاكواخ لأنه لم تكن لديها الشجاعة لمعارضة ذلك: «لست بطلة ولست مستعدة للقول عيشوا خمس عائلات او ستا او ثماني في غرفة واحدة، حتى نجد السبيل لأن نبني لكم منزلا من غرفتين، لأني كنت اعرف ان هذا وهم؛ فمثل هذه المنازل لن يبنى لهم بسرعة.»(٤٢)

عندما انتقد عضوا كتلة الصهيونيين العموميين، يوسف سرلين ويسرائيل روكاح، وتيرة البناء ونوعيته الرديئة، ردت عليهما كعادتها بسخرية مريرة: «انني ببساطة أحسد عضو الكنيست سرلين القادر على ان ينتقد أنماط الاسكان المختلفة بصمت وهدوء وسعة صدر. يجب عدم جلب أكواخ للمهاجرين على الاطلاق، وبيوت الاسمنت ليست جيدة، ويستحيل السكن فيها. أما السيد سرلين فلا يعجبه إلا امر واحد. ويجب ان نثني على ذوقه الفني، فهو لا يعجبه إلا البيت المتين والواسع (...) وهناك تنافس بين السيد سرلين وعضو كتلته وعضو الكنيست، روكاح. فالذوق الفني لدى عضو الكنيست، روكاح، اكثر تطورا (...) يقول عضو الكنيست روكاح: لا تكفي غرفة واحدة للعائلة. لن ادخل في جدال بشأن ذلك. اذ ان من الواضح، بالنسبة الي، ان العائلة الواحدة تحتاج، كحد أدنى، الى غرفتين...»(٤٣) غير ان [غولدا مئير] كانت تعرف كيف تبرر السكن في غرفة واحدة: «لا ضير اذا سكنت عائلة من ثلاثة اشخاص، وحتى من اربعة اشخاص، غرفة واحدة (...) نحن نريد ان نوفر سطح بيت لا سقفا ولا طينا وانما كلسا. ويمكن للمهاجر نفسه، مع مرور الوقت، ان يقيم السقف، ويضيف غرفة بعد مرور بضعة اشهر، ثم يضيف مصطبة، ولا ضير في ذلك كله (...).»(٤٤) لقد كانت بوريتانيتها [تزمتها] الاسبارطية بارزة؛ فهي، في جزء منها، نتيجة عقدة النقص، وفي جزء آخر تعبير عن فلسفتها في الحياة وبنية شخصيتها. كانت منازل الاسمنت التي ذكرتها عبارة عن مبان من غرفة واحدة ومطبخ وحمام، تم تركيبها بطريقة آلية مبتكرة جدا، بواسطة آلات ذات انابيب طويلة، أُطلق عليها اسم مدافع غولدا. كتبت صحيفة «هآرتس» التي راقبت المنازل، التي تشبه ألعاب الاطفال في رمال شاطىء البحر: «يرفعون دلوا فوق برميل من الرمل، واذ ببيت آخر يضاف الى سلسلة أحياء اسرائيل السكنية.»(٤٥)

في النصف الاول من السنة، اعلنت وزيرة العمل امام الكنيست انه ستبنى في البلد، حتى نهاية السنة، ٣٠ ألف وحدة سكنية.(٤٦) وبعد ثلاثة اشهر، كانت «سعيدة» في ان تعلن ان المشروع قد تحقق بكامله؛ قالت انه حتى نهاية ايلول/سبتمبر ينتهي بناء ١٥ ألف وحدة سكنية، وحتى نهاية السنة ستبنى ٣٠ ألف وحدة. واستنادا الى كلامها، فان من شأن ذلك ان يسمح باخلاء معسكرات المهاجرين من «أغلب» المقيمين فيها.(٤٧) غير ان سرورها كان سابقا لأوانه؛ فما ان شارفت السنة على الانتهاء حتى وُضعت على مكتبها مذكرة تقول انه منذ البداية لم يتم التحضير لـ ٣٠ ألف وحدة سكنية، وانما لأقل كثيرا من ٢٧ ألفا. ولقد انتهى العمل في اكثر من ١٨ ألفا بقليل، ما يزيد على نصفها أكواخ خشبية. أما عدد المهاجرين الذين سكنوا المعسكرات، فكان في ارتفاع دائم.(٤٨)

في النصف الثاني من شهر نيسان/ابريل، شاع بين زعماء ماباي شعور بأن استيعاب

الهجرة ينهار بسبب النقص في المساكن بصورة اساسية. وقال زالمان آران، سكرتير الحزب: «اننا ندرك ان بيروقراطية تصل الى حد الجريمة تسود [عملية] (...) البناء طوال الوقت.» **وأضاف**: «لا اعرف من المذنب. كنا نعيش أوقاتا طيبة. عندما كان يصل ألف مهاجر شهريا الى البلد، فان هذا كان أمرا عظيما كذلك.» وأبلغ غيورا يوسفتال الى أمانة سر الحزب ان المعسكرات المتوفرة لديه تتسع لـ ٤٠ ألف شخص «بحسب ترتيب انساني الى حد ما.» وفي الواقع، يسكن فيها ٥٠ ألفا الى ٦٠ ألف شخص، نصفهم في الخيم. وحذر آران من نشوء «وضع كارثي» في المعسكرات يهدد الدولة واليهود اجمعين. وتوقع بنحاس لافون، عضو الكنيست وسكرتير الهستدروت، «انفجارا كبيرا». ووصف موظف الوكالة، إلياهو دوفكين، الوضع بأنه «غضب رباني». وطلب اعضاء امانة السر اخلاء عدد من معسكرات الجيش لإسكان المهاجرين فيها، وأن تقام لهم — في الوقت ذاته — أكواخ من الخشب. لكن بن — غوريون بت الامر: على المهاجرين الاكتفاء بالخيم. وتعهد بالبحث في امكانات اسكانهم في بعض معسكرات الجيش الاسرائيلي، لكنه اوضح: «لن نلقي بالجيش الى الخارج (...) في امكان الجيش ان يدمر حكمنا كله اذا ما ألقينا به خارجا.» واعتقد ان الأكواخ التي طلبوا اقامتها للمهاجرين مكلفة جدا. كان موافقا على ان الوضع في المعسكرات خطر وملح جدا، وقبل باقتراح لافون فرض ضريبة خاصة بالاستيعاب، لكن — استنادا الى كلامه — «فان الوضع ليس مخيفا الى هذا الحد بصورة عامة، لذا فلا مجال للرعب. وتعهد بأن يتحدث الى شركات البناء، وبأن يبحث في الموضوع خلال مؤتمر الهستدروت، وبأن يتم التشاور معا والخروج باستنتاجات موحدة. وقال لافون في ثورة فريدة في نوعها: «لا ضرورة للضغط على اي منا في هذا الشأن.» [ووجه كلامه الى بن — غوريون]: «ان كلامك بعيد عن المسألة التي ضجرت منك بسببها.» غير ان بن — غوريون أصر على رأيه: «لا اقبل هذا الدلال: عدم اسكان الناس في الخيم (...) اننا ندللهم. في استطاعة هؤلاء الناس ان يسكنوا الخيم عدة أعوام، وعلى من لا يريد ان يقيم فيها «ألا يأتي هنا.»(٤٩)*

---

* كان البطء الشديد في وتيرة البناء ونوعيته الرديئة ناجمين، في اعتقاد الدكتور غيورا يوسفتال، عن «ألف سبب»، منها النقص في المال، وفي اليد العاملة، وفي مواد البناء، وكذلك نتيجة «ديكتاتورية المقاولين الكبار.»(٥٠) كانت النزاعات مستشرية بين الحكومة والوكالة؛ فقد شعر المجلس التنفيذي للوكالة بأن الحكومة سوف تبعدهم عن كل عمل انجازي «على ان يتخلى كل واحد منا عن الوظائف واحدة تلو الاخرى. في البداية الاستيعاب، ومن ثم الاسكان، وبعد ذلك الاستيطان (...). ونظرا الى انه لم يبق اية وظيفة في مجالات اخرى، فلن يبقى لنا في الواقع ما نفعله. وأنا ارى في هذا خطرا كبيرا.»(٥١) كما كانت هناك نزاعات داخل الوكالة. ففي احدى الجلسات تشاجر اعضاء المجلس التنفيذي، بحدة، بشأن الحزب الذي سيتولى شعبة الاسكان وشركة عميدار [احدى شركات البناء التابعة =

في ٢٧ آذار/ مارس ١٩٥٠ اعلن رئيس المجلس التنفيذي للوكالة، بيرل لوكر، ان لدى ليفي اشكول «اقتراحا ثوريا». وعندما اعطي اشكول حق الكلام اقترح اقامة «حقول مهاجرين» في البلد، بدلا من المعسكرات. وكان يقصد، كما يبدو، ما سموه فيما بعد «معفاروت» [معابر، معسكرات انتقالية]. وقال: «في امكاني القول ان هذا الاسلوب البغيض، فيما يتعلق باقامة معسكرات مهاجرين (...) قد ابتكره احدهم من اجل تدميرنا.»[٥٣] ان الاسباب التي دفعت المجلس التنفيذي للوكالة الى تصفية المعسكرات وجعل المهاجرين يسعون بأنفسهم وراء رزقهم، لم تكن بحاجة الى اي وميض «ثوري». فلقد كان تأمين الطعام لعشرات الآلاف من الناس، والاهتمام بسائر حاجاتهم، مكلفين جدا. ووجدت الوكالة صعوبة في تحمل النفقات. وبعد مرور فترة من الزمن، اتضح ان حياة البطالة في المعسكرات اثرت في معنويات المهاجرين بصورة سيئة. وكتب غيورا يوسفتال الى وزير المالية، أليعيزر كابلان، عن اللامبالاة المتفشية بين سكان المعسكرات: «استرخاء يقتل اية مبادرة، ويعودهم على مد الايادي الى الآخرين.» وحذر من ان الشعور بالكراهية للمؤسسة الحاكمة بدأ يظهر في بعض أوساط المهاجرين. وهناك من يحاول ان يجد له عملا من دون الاستعانة بمكتب العمل المنظم. وقال يوسفتال ان هذا الأمر يؤدي الى خراب المكتب.[٥٤] كما أقلقت حالة المهاجرين المعنوية السياسيين ايضا، ووصف بنحاس لافون سكان المعسكرات بأنهم حملة «الثورة المضادة». واستنادا الى كلامه، «فان مئة ألف شخص كهؤلاء يحتشدون في المعسكرات من دون اي مخرج — وفي استطاعتهم ان يحتشدوا خلال شهر واحد — سيثورون ذات يوم (...) معا.»[٥٥] وبكلام آخر: فان سكان المعسكرات شكلوا خطرا على استقرار النظام. *

بعد فترة من الزمن، بدأ نقل المهاجرين الى قرى العمل. وعندما راحت الوكالة تخلي المعسكرات، دهشت حينما اتضح ان بين المهاجرين من فضل البقاء تحت رعايتها وعلى حسابها

= للهستدروت]. فلقد كان هذا مثل لاتيفونديا [مزرعة كبيرة] جديرة بالتزاحم عليها. «لو كنت عرفت المكانة التي سيحتلها الاسكان في مشكلات الاستيعاب، لما تخليت عنها [شعبة الاسكان] للزميل رفائيل.» هذا ما قاله العضو حرمون، مسؤول دائرة الاستيعاب، عن مسؤول دائرة الهجرة. ولأنه تخلى عنها، والموضوع لم يعد في يده، فلقد كان في امكانه ان يقول: «اهملنا موضوع الاسكان.» كان من المفترض ان تبني الوكالة ٢٠٠٠ وحدة سكنية من مجموع ٣٠ ألف وحدة خططت الحكومة لبنائها، غير ان الوكالة لم تقمها. وأوضحت احدى المذكرات التي قدمت الى مكتب غولدا مئير، ان الوكالة لم تبن [الوحدات المطلوبة] بسبب النقص في الوسائل وقال حرمون: «ليس هناك خيار آخر، اننا نسير في اتجاه اقامة أحياء فقيرة [Slums] وازدحام سكني خانق.»[٥٢]

* تخوف عضو الكنيست زيراح فيرهافتيغ من سكان المعسكرات كما لو كانوا طائفة متوحشة مسجونة في المعتقلات. وقال في الكنيست: «تخيلوا ان يخرج هؤلاء المئة ألف يهودي من المعسكرات يتساءلون: ما هذا؟ انتم تسكنون المنازل وتنظمون حياتكم، ونحن نسكن هنا خيما او نقيم في معتقلات؟ (...).»[٥٦]

فقط، كيلا يضطروا الى مواجهة صعوبات الاستيعاب التي كانت متوقعة في الخارج. وفي مرحلة معينة، حاولت الوكالة التسبب بزيادة الوضع في المعسكرات سوءا لإجبار سكانها على الخروج منها. وبدأت، من جملة اجراءات اخرى، تغلق المطابخ وتمتنع عن توزيع الطعام. وقال احد رؤساء الدائرة، يهودا برجينسكي: «نحن نستخدم، في دائرة الاستيعاب، اسلوب الضغط.» وكان هذا، بحسب كلامه، ضغطا قاسيا. وأوضح: «كان يجب اخراج الشخص من المعسكر، لذلك كنا ندفعه بكل قوة.»[٥٧] اشتغل سكان قرى العمل، وعددهم عشرة آلاف، في التشجير [والعناية] بأشجار الزيتون المهجورة. وتحول جزء من قرى العمل هذه الى مستعمرات، وجزء آخر الى معابر. وأقيمت اكثرية المعابر على أطراف المدن. وخلال عامين، سكنها ٢٥٠ ألف شخص تقريبا. وكلما ارتفع عددهم انخفض عدد سكان المعسكرات. فالحياة في المعبر كانت اكثر احتمالا من الحياة في المعسكر؛ بدأ الناس يعملون، وأولادهم يتعلمون. لكن بعد وقت قصير، تم اسكان المعابر بمهاجرين [جدد] جاؤوا مباشرة من المرفأ. لقد عرفوا المعابر فقط، لكنهم لم يعرفوا ان هناك معسكرات اسوأ كثيرا. عاشوا في فقر مدقع، على هامش المجتمع، يرتبطون بجهاز بيروقراطي وسياسي واقتصادي لم يعمل دائما لمصلحتهم. أقام المهاجرون الأوائل في خيم المعابر. وكان لكل عائلة خيمة واحدة، وفي بعض الاحيان خيمة واحدة لكل عائلتين. وأقاموا، فيما بعد، خيما اكثر ترتيبا سموها «خيم الشعر». ثم انشأوا ابنية من الصفيح — «الاكواخ الصفيحية» — و«الأكواخ الخشبية». لم تكن ابنية السكن موصولة بشبكة المياه او شبكة الكهرباء، بل كانت المياه تصل الى بضع حنفيات يستخدمها المعبر كله. كانت نوعية المياه سيئة، ولم يكن في الامكان شربها إلا بعد غليها. وفي غالب الاحيان، كان تزويد المياه يتوقف. وكانت المعابر مزودة برشاشات عمومية للاستحمام، قذرة، وغالبا معطلة، وبدورات مياه عمومية لم تكن افضل من تلك الموجودة في المعسكرات. كانت الخيم تضاء بمصابيح النفط، ومزودة بمواقد نفط للطبخ، ومدافىء نفطية كذلك. وكانت صفوف [الدراسة] تفتقر الى الطاولات والكراسي والألواح والطباشير والكتب. ويُعلّم في هذه المعابر قدامى الاساتذة، بعضهم من الجيش الاسرائيلي، كمتطوعين لمهمة وطنية تربوية. وكان معظم الاساتذة من المهاجرين الجدد، وبعضهم لا يعرف العبرية. وكانت المستوصفات والمستشفيات تفتقر الى الاطباء والممرضات، والى الأجهزة والأدوية.

ألحق عدد قليل من المعابر بتخوم صلاحيات المدن الكبرى. وكانت النتيجة مستوى متدنيا جدا من الخدمات. وأقيم جزء من هذه المعابر في مناطق بعيدة، قبل ان تنتقل الى هناك مصادر الرزق. وبذلك فرض على سكان المعابر البطالة والتخلف. لقد تم تشغيلهم عمالا في البناء وتعبيد الطرق، وفي خدمات حكومية أو في الهستدروت، وفي التشجير وبساتين الحمضيات والزراعة، وفي وظائف الكيرين كاييمت (الصندوق القومي)، والقيّم على أملاك

الغائبين، وفي الكيبوتسات. ونشطت نتيجة ذلك شركة «سوليل بونيه»، وأصحاب البساتين وبعض الكيبوتسات. كان الأجر الذي تقاضاه سكان المعابر متدنيا، وفي جزء منه مدعوما. لم يكن هناك عمل كاف للجميع. ونتيجة ذلك ازدادت قوة مكاتب العمل، وازدادت معها قوة الموظفين العاملين فيها. وازداد تعسفهم! لأن سكان المعابر كانوا مرتبطين بهم ارتباطا مطلقا. كان عملهم اليومي العادي الوقوف بالصف والشجار على أبواب مكاتب العمل. وتطلب الأمر، مرارا، تدخل الشرطة. وعجّت المعابر جميعها، والتي تجاوز عددها المئة، بالنشيطين الحزبيين. وفي اطار المشاركة بين أحزاب الائتلاف، تقاسم الحزبيون المراكز الرئيسية في المعابر، من الادارة الى الحراسة. ويذكر غيورا يوسفتال: «في فترة الانتخابات سببنا خرابا كبيرا في المعسكرات والمعابر عن طريق الوعود التي لا تستند الى اساس واقعي، وعن طريق الصورة المنحطة لشراء الاصوات.»[٥٨] شكلت الحياة في المعسكرات والمعابر جزءا من مسار هجرة المهاجرين كلهم، سواء منهم من قدم من اوروبا ومن قدم من الدول العربية. وعندما رووا فيما بعد هذه الاحداث، تحدثوا عن الاذلال اكثر كثيرا مما تحدثوا عن الضائقة. وكتب الكاتب سامي ميخائيل: «لقد بكى أبي.»[٥٩]

تساوى عدد المهاجرين، خلال ثلاثة أعوام، مع مجموع عدد السكان الذين كانوا يقيمون في البلد حين قيام الدولة. واستمروا في الوصول، وساد الرأي القائل ان استيعابهم يفرض عليهم التخلي عن خصوصيتهم الثقافية وتبنّي هوية جديدة. وكتب الاديب أهارون أفلفيلد عن شاب مهاجر من بولونيا كان رفاقه يسيئون معاملته، حتى انهم كانوا يضربونه «ضربات قاتلة»، لأنه لم يرد تعريض بشرته للشمس لتصبح سمراء. فأكد لهم انه يحاول، جاهدا، جعل بشرته سمراء، غير انهم قالوا له انه لو أراد ذلك فعلا لتغيرت منذ وقت طويل.[٦٠] وفيما بعد، اعتبرت القدرة على التغير شرطا للقدرة على الاستيعاب في البلد.[٦١] كان هذا هو الرأي الذي ساد المشاركين في حديث جرى بين الأدباء ورئيس الحكومة، كما ساد جو معاد جدا للمنفى. قالت ليئه غولدبرغ: «هذا الشعب قبيح وفقير، ومضطرب من الناحية الخلقية، ومن الصعب ان يحبه المرء.» وأضافت ان على الاديب في اسرائيل، مثل دوستويفسكي وغوركي اللذين لم يخافا القبح والنتانة والانحطاط، ان يكشف في المهاجر الجديد الناجي من الكارثة النازية، صورة الانسان لا صورة الرجل الذي يخفي الدولارات في حزامه فقط. وبحسب كلامها، فان ذلك مهمة تتطلب «جهدا كبيرا».[٦٢]

وقال دافيد بن ـ غوريون: «لو لم يكن هناك أشخاص من الناجين من معسكرات الاعتقال في ألمانيا قاسين وأشرارا وأنانيين، لما استطاعوا النجاة. ان ما مر بهم اقتلع من نفوسهم الجزء الطيب.»[٦٣] *

* ادى رفض الشتات، اكثر من مرة، الى وصف المهاجر بصورة كاريكاتورية معادية للسامية. وقد وصف =

لقد دار هذا الجدل ايضا بشأن «التنظيم» و«الانتقاء». وعندما يقال تنظيم يكون المقصود تخفيض عدد المهاجرين وابطاء وتيرة إحضارهم. لم يتحدث الكثيرون، خلال ذلك، عن وضع اليهود في الشتات، ولا عن محنة الاستيعاب. بل تحدثوا عن مصالح الدولة، وحاجتها الى اليد العاملة، وحدود قدرتها على تمويل إستيعاب المهاجرين. فبن ـ غوريون، الذي عارض اي تقييد للهجرة، اعتاد الحديث عن «معاناة الدولة من صعوبات الاستيعاب.» ووجد، بعد ان حسب الموضوع، انه لو فرض عبء كهذا على الولايات المتحدة، لكان عليها ان تستوعب ٣٠ مليون نسمة في السنة.[٦٨] وكان يجنح الى تجاهل محنة المهاجرين. كان هذا جدلا حادا، واختبارا للشعور الوطني الصهيوني لدى الذين شاركوا فيه. قال عضو المجلس التنفيذي للوكالة، يسرائيل غولدشتاين: «... ان حالة استيعاب الهجرة مقلقة جدا، واذا لم نتمكن من السيطرة على الهجرة بأكملها فقد نستطيع التخفيف منها، الى حد ما، وادخال تعديل واع عليها في الدول التي ليس هناك خطر يتربص باليهود.»[٦٩] أما ش. ز. شرغاي، وهو ايضا عضو في المجلس التنفيذي، فقال: «... لن يوافق شخص واحد في المجلس التنفيذي على ابطاء وتيرة الهجرة.»[٧٠] لم يكن هذا صحيحا. غير ان الذين عرضوا الفكرة خاطروا بأن يظهروا انهزاميين، وغير وطنيين، واقعيين وقليلي الايمان. وذكر موشيه كول: «عندما بدأنا الحرب ضد العرب كان الوضع المالي لشؤون الدفاع اسوأ من وضعنا المالي بالنسبة الى الهجرة. وعلى الرغم من ذلك، فقد تغلبنا على ذلك بمجهود كبير. لذلك، نريد جهدا كبيرا من جانبنا لتنظيم شؤون الهجرة.»[٧١] لقد درجوا، في تلك الفترة، على الاستخفاف بالتخطيط، وكان الارتجال ذا قيمة. وقال بيرل لوكر: «لو عملنا بتخطيط، لما كنا تجرأنا حينئذ على التفكير في استيعاب ١٥ ألف مهاجر (كانوا قد وصلوا حتى تلك الفترة).»[٧٢] وطلب يتسحاق رفائيل ان ينشر كل واحد منهم موقفه في بيان رسمي، وقال: «لا اريد ان يراني الجمهور كمن يقلّص الهجرة.» غير ان بيرل لوكر اجاب بأنه اذا ما نشرت مواقفهم الحقيقية فلسوف توجه الصحف هجومها الى اعضاء معينين.[٧٣] لم يجرؤ الذين رأوا ضرورة تقليص الهجرة على إعلان رأيهم

= آرييه غلبلوم المهاجر النموذجي كالتالي: «انه يهودي قصير القامة، بارز الفكين، والى جانبه زوجته البدينة.»[٦٤] وكتب ناتان ألترمن عن يهودي في بوسطن حظي بـ«اعتزاز جديد» بسبب زيارة دافيد بن ـ غوريون لمدينته؛ صوّر هذا اليهودي كخياط، وطبعا كخياط للألبسة النسائية.[٦٥] وكتب موظف مؤسسة الهجرة، يوسف برفيل، عن اليهود الذين اختاروا البقاء في اوروبا: «أخرجنا ٢١٠٠ شخص (من هنغاريا) وهم موجودون اليوم في النمسا. وفي النمسا اصبح هؤلاء الناس بصيرين، ففي الامكان ممارسة الاعمال التجارية. اعط اليهودي الفرصة فقط، فيغرس جذوره في المكان.»[٦٦] كانت هذه هي اللهجة التي وردت في عدد من تقارير المبعوثين، وهذا ما نقله في تقريره مبعوث مؤسسة الهجرة الى ليبيا: «ان نحو ٣٥٠٠ يهودي لا يفكرون في الهجرة خلال الايام المقبلة (...) اذ سيواصلون ألعاب الروليت وممارسة الاعمال التجارية وأكل اللحم وجمع المال.»[٦٧]

جهارا كي لا تهاجمهم وسائل الاعلام.

ولم يتردد الدكتور غولدشتاين في القول بشجاعة: «اني افهم ان من الصعب البحث في المسألة قبل الانتخابات، لكنني لا افهم لماذا لا نستطيع ان نفعل ذلك الآن (...).»[٧٤] وشيئا فشيئا، ومع استمرار تدفق المهاجرين، انضم آخرون الى رأيه وبينهم ليفي اشكول [الذي اعتبر أنه]: «اذا لم تنظم الهجرة فلسوف تنهار.» وقال: «ان ذلك سيدمر استقلالنا الاجتماعي والاقتصادي (...).»[٧٥] وحذر، بعد مضي فترة من الزمن: «لا تحولونا الى مفلسين، ان هذا يدمر الصهيونية.»[٧٦] وبعد مرور فترة اخرى من الزمن، قال: «ان هجرة كالتي تقترحونها (...) هي انتحار.»[٧٧] وبعد بضعة ايام، قال اشكول: «في الاشهر الثلاثة الاخيرة، رأينا فعلا ملاك الموت أمام أعيننا (...) وأتساءل كيف يمكن ان يكون هناك عدم مسؤولية كهذه في هيئة عامة؟ (...) لو كانت عندنا روح المسؤولية العامة والجدية، لكان من المفروض احالة المسؤولين عن الامر على المحاكمة. كيف استطعنا ان نأتي باليهود، وأن نسكنهم الخيم؟ ان كل شيء عندنا يسير عاديا. والواقع ان اليد اليمنى لا تعرف ما تقوم به اليد اليسرى. لقد استنتجت، آسفا ـ وأعلم ان هناك زملاء طيبين جدا لا يوافقونني في ذلك ـ ان ليست لدينا القوة لتنفيذ ما نقرره (...) اننا على عتبة كارثة؛ فربما تعم المجاعة المعسكرات (...) بسبب عدم وجود المال. ليتنا استطعنا كبح نزواتنا، واللجوء الى معالجة قضية الهجرة بتخطيط. هناك كذا وكذا من المرشحين للهجرة في العالم، فلنضع جدولا زمنيا لـ ٢٤ أو ٣٠ شهرا، ونزيد العدد بهذا المقدار او ذاك، بحيث لا يفنى الغنم ويظل الذئب شبعانا، وبالتالي لا نوظف المال في المطابخ إلا اذا كان لدينا ما يكفي للاسكان ايضا، وبحيث نستطيع ـ بعد عدة اشهر ـ اخراج الناس من المعسكرات واسكانهم المنازل. نحن لا نتصرف بهذه الطريقة، لا بل نحن نبذل كل شيء كي يبقى اليهود في المعسكرات ويأكلون المال (...).»[٧٨]

لم ير الدكتور يسرائيل غولدشتاين في الأمر مسألة نزوات، وانما مسألة سياسة. قال: «قررت الحكومة الهجرة الكبرى غير المقيدة، انطلاقا من الخوف السياسي الذي ساد قبل الانتخابات وبعدها. لم يشأ احد ان يتحمل مسؤولية استيعاب الهجرة.»[٧٩]

وضع المسؤولان عن الاستيعاب، تسفي حرمون وغيورا يوسفتال، محنة المهاجرين في اساس مطالبتهما بالتخفيف من وتيرة جلبهم. كان يوسفتال قريبا من اليأس: «اننا امام حنفية مفتوحة، لا يفكر احد في اقفالها. ويقولون ان هذا هو اعظم عمل صهيوني. نحن موظفي الاستيعاب السيئي الحظ، لسنا بحاجة إلا الى المزيد من الجهد، وعندها سيكون كل شيء على ما يرام (...) اننا نرى المهاجرين لا الهجرة. ونقول ان من الضروري ان يكون هناك سلم تدرج بحسب اعتباراتنا جميعا. وهذا الاعتبار يجب ان يكون سياسيا (...) وليس،

لا سمح الله، الخوف من هروب احد الى اميركا. ان الشخص الذي لا يريد ان يهاجر، انطلاقا من اقتناعه الكامل وارادته الحرة، ثم يهاجر، هو كارثة لأننا نحوله هنا الى كارثة.»[٨٠] وهذا الكلام قد قيل كله في جلسات مغلقة وبسرية مطلقة. أما بالنسبة الى الخارج، فلقد تظاهروا بأن كل شيء يسير على ما يرام.

لم تجرؤ صحيفة «هآرتس» على المطالبة، فورا، بالتقليل من وتيرة الهجرة. ففي البداية، لم تطالب الصحيفة بالتخفيف من وتيرة الهجرة بل بـ «تحسين الاعداد النفساني للمهاجرين» قبل مجيئهم: «يجب ان نشرح لهم مسبقا ان دولة اسرائيل ليست جنة عدن، يوزع فيها الأوز المشوي على الطرقات.»[٨١] وبعد مضي شهرين، قالت [الصحيفة] بصراحة: «لا معنى للتعديل في حجم الهجرة.»[٨٢] وما بين المقالين الاول والثاني، نشر عضو المجلس التنفيذي للوكالة، مئير غروسمان، مقالا في صحيفة «همشكيف» (المراقب)، لسان حال الحركة التصحيحية، كتب فيه: «لقد استخدم، الى حد كبير، التسرع في استقدام المهاجرين، من دون الأخذ في الاعتبار اماكن اسكانهم وما يجري لهم، كذريعة للحاجات العسكرية الخالصة لأمة تعيش حالة حرب. كانت هناك حاجة ماسة الى العنصر البشري، سواء بالنسبة الى القوات المقاتلة او بالنسبة الى عملية البناء (...) علينا ان نحول الهجرة العفوية الى هجرة مخطط لها، ومنظمة، وموجهة في الزمان والمكان. اولا: يجب جلب الرواد الشباب؛ ثانيا: يجب الاسراع في استقدام العناصر المؤهلين ذاتيا، وأن نبني لهم ما يعتمدون عليه كيلا يصبحوا عبئا؛ ثالثا: يجب ملاءمة الهجرة مع الاستيعاب.»[٨٣] وقد شجبت صحف اخرى هذه المقاربة، فكتبت «دافار هشفواع»: «ان جميع المقترحات الجيدة بشأن التخفيف من وتيرة الهجرة، ليست عملية على الاطلاق. ان تخفيف الوتيرة ليس في متناول يدنا، لأن الهجرة تندفع الى البلد من تلقاء ذاتها. حتى لو كان امر التخفيف في متناول يدنا، فان لا حق لنا في القيام بذلك. فلا أحد يعلم ما لدينا من الوقت لنقل اليهود من الدول التي تتربص بهم فيها أخطار رهيبة مع كل اضطراب يحدث في العالم، ولا احد يعرف ما لدينا من الوقت لبناء الدولة وتحصينها كي تستطيع مواجهة اختبار جديد في حال حدوثه.»[٨٤] وكتبت «هتسوفيه» ايضا: «نحن مجبرون على زيادة السكان بأعداد كبيرة، وذلك في اقرب وقت ممكن. ومن دون التوطين ستنهار الدولة (...).»[٨٥] وقال يتسحاق رفائيل امام اعضاء المجلس التنفيذي للوكالة: «اننا نشرف على نهاية مرحلة الهجرة الجماعية. وستواجهنا في المستقبل مشكلة الهجرة بكل حدتها، لكن بصورة مختلفة: من اين نوفر مهاجرين للهجرة.»[٨٦] وأوضح ان خطوط الهجرة مرتبطة بوتيرة خروج اليهود الأوائل الذين يجرون الآخرين. وقال: «ان الهجرة مرتبطة بدرجة حركتها، فكلما كانت اسرع جاء المزيد. والا فانهم يسافرون الى دول اخرى.»[٨٧] وقال بن ـ غوريون للكنيست: «بحسب علمي،

لم تكن هناك منازل ولا عمل لستة آلاف [يهودي] خرجوا من مصر، وعلى الرغم من ذلك فان موسى لم يتردد لحظة واحدة في اخراجهم.»[٨٨] *

وفي مواجهة الجدل بشأن «التنظيم» كان هناك جدل بشأن «الانتقاء، اي بشأن نوعية «المادة البشرية» التي جلبت الى البلد. كتبت احدى الصحف: «ليس سرا ان كان بين المهاجرين مجموعة غير مرغوب فيها على الاطلاق.»[٩٣] وهكذا كانوا يتحدثون ايضا، في جلسات المجلس التنفيذي للوكالة. يقول ناحوم غولدمان: «ان لأية دولة وشعب الحق في حد معين من القسوة. واذا ساعدوا على هجرة الشيوخ وأصحاب العاهات، فيجب تحميل عبء الاحتفاظ بهم لمنظمات اخرى. ولا ارى اية كارثة اذا ما ابقت هذه المنظمات اليهودية على هؤلاء المرضى خارج البلد. ان المراقبة الفعالة للاختيار هي لمصلحة الهجرة، ويجب عدم معارضة ذلك لاعتبارات ايديولوجية.»[٩٤] وفي هذا الموضوع لم يكن يتسحاق رفائيل من المطالبين بالحد الاقصى، وليس كما ادعى فيما بعد في مذكراته، اذ اكد لاعضاء المجلس التنفيذي: «انا اؤيد انتقاء المهاجرين.»[٩٥] واستنادا الى كلامه، وضع عائقا حيث تمكن: «اوقفت ٢٠٠٠ تأشيرة سفر في تونس اعطيت لشيوخ وأصحاب عاهات، وأصدرت أوامر بعدم السماح لهم بالهجرة. وأوقفت ٨٠٠ تأشيرة سفر لشيوخ ومرضى في فرنسا (...)، وكذلك لـ ٥٠٠٠ شخص من اصحاب العاهات في ألمانيا (...).»[٩٦] وقد شغلتهم هذه المشكلة مرات لا حصر لها. والكلام الذي قالوه كان قاسيا جدا في الغالب. وسأل اشكول، عندما كان موشيه كول يشرح كيف كانوا يحررون الأطفال اليهود من ايدي النصارى وينقلونهم الى البلد بواسطة هجرة الشباب: «هل نحن معنيون بتحرير اي طفل في كل سن؟»[٩٧] وقد تقرر «في شهر كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٨ وضع لائحة بالأمراض التي يمنع المصابون بها من الهجرة.»[٩٨] في تلك الاثناء، صدرت الاوامر بايقاف هجرة أصحاب الأمراض المزمنة. واشتكى تسفي حرمون: «انني احتج بشدة على نسبة الشيوخ والمرضى وأصحاب العاهات الذين يأتون (...)، فهم يشكلون ١٨٪.»[٩٩] أما إلياهو دوفكين فقال: «عندما تكون الهجرة فوضوية يهاجر من يجب ألا يهاجر، ويبقى في المنفى من يجب ان

---

* في ماباي تحدثوا عن ذلك ايضا. واتفقوا في اثناء تخطيطهم لسياسة الهجرة والاستيعاب، قبل بضعة اسابيع من اعلان الاستقلال، على ان الهجرة الحرة لا تعني هجرة من دون تخطيط او نظام.[٨٩] وقد عارض ماباي تقييد الهجرة، غير انه ايد «تنظيمها».[٩٠] فلقد كان في ماباي، ايضا، أفراد تخوفوا من ان تتوقف الهجرة خلال اشهر لأنه «لم يعد هناك مكان نأخذ منه.»[٩١] غير ان «هآرتس» تقول في احدى افتتاحياتها: «لم نحارب من اجل فتح الابواب واجبار المهاجرين على العيش دون المستوى الذي من الممكن ان نقيم فيه حضارة انسانية ما. ليس هدف نضالنا ان نسبب في دولة اسرائيل مشكلة لاجئين يهود مشابهة لمشكلة اللاجئين العرب في الدول المجاورة.»[٩٢]

يهاجر. هل كانت هناك فعلا حاجة الى جلب مستعمرة الشيوخ في بلوفدوف بكل سكانها؟ اننا لم نعمل بما فيه الكفاية على اختيار المهاجرين.»[١٠٠] وقصد دوفكين مستعمرة للشيوخ في بلغاريا. وهناك رسائل محفوظة بشأن هذه المسألة، تبادلها مندوب مؤسسة الهجرة في صوفيا، شايكا دان، والمسؤولون عنه. كتب المندوب في احدى رسائله: «لا تخيفونني بموت عجوزين نتيجة المرض. من الجائز ان يمرض ٤٥٠٠ مهاجر عدة مرات منذ الرقابة الطبية التي يخضعون لها حتى الهجرة. ويمكن ان يتوفى شابان أيضا على اليابسة لا ان يموت عجوز على الباخرة فقط (...) ان السلطات لا توافق على بقاء المسنين هنا (...) فاذا بقي المسنون فسيبقى معهم ايضا أبناؤهم وبناتهم، وحينئذ نحكم على هؤلاء بالبقاء هنا الى الابد (...) ومن البديهي اننا نفعل كل شيء من اجل تخفيض عدد المسنين.»[١٠١]

كتب ممثل دائرة الهجرة في روما، ناحوم فكسمان، الى المكتب الارض ـ الاسرائيلي [الفلسطيني] في باريس: «في الفترة الاخيرة بدأ وصول عناصر من غوشان (وهي مصر) يسبب مشكلات اجتماعية وصحية صعبة. ان تدفق المهاجرين ضئيل بصورة عامة، وهم تقريبا لا يوازون العناصر الجيدة والمعافة من الفترة السابقة. وثمة انطباع بأن ذلك ليس مصادفة، بل هناك من يدير الامور ويرسل الينا عددا من المرضى النفسانيين، وأشخاصا أرادت عائلاتهم، كما يبدو، التخلص منهم، وشيوخا طاعنين في السن لا عائلة لهم، وهلم جرا.»[١٠٢] وكتب وزير الهجرة، شابيرا، الى ضباط الهجرة في الخارج ان سياسة الحكومة قائمة فعلا على الارادة المطلقة في إبقاء أبواب الهجرة مفتوحة أمام كل يهودي يرغب في ذلك وقادر عليه. وشدد، مع ذلك، على ان مهمة مبعوثي وزارته هي تشجيع هجرة اليهود القادرين على «المساهمة في بناء الدولة»، والحؤول دون هجرة الذين قد «يعرقلون جهدنا الحربي.»[١٠٣] وفي شهر حزيران/ يونيو، اقترح تسفي حرمون على المجلس التنفيذي للوكالة الاعلان، «بصورة واضحة وصريحة، ان الوكالة غير قادرة على تحمل مسؤولية الحالات الاجتماعية [التي تتطلب المعالجة]، ولذلك فهي ستوقف هجرتها.»[١٠٤] حدث ذلك في الجلسة التي قال فيها ليفي اشكول ان اسرائيل غير قادرة على استيعاب كل المجانين اليهود في العالم. واقترح ابلاغ مكتب ارض ـ اسرائيل في ألمانيا انه، الى حين وصول أوامر جديدة، يجب ايقاف هجرة اصحاب العاهات وكل الذين قد يحتاجون الى معالجة اجتماعية لدى وصولهم الى البلد.[١٠٥] *

جرت مفاوضات مع الجوينت استمرت عدة اشهر، بغرض التخلص من معالجة «الحالات الاجتماعية». وقد أرادوا ان تأخذ الجوينت على عاتقها مهمة التمويل، لكنهم

---

* في المقابل، قال رئيس مؤسسة الهجرة، يوسف برفيل: «يجب اخذ المتشرد والمجنون أيضا.» لكنه شدد على ضرورة ان يكون هؤلاء آخر من يؤخذ.[١٠٦]

ترددوا في اعطاء هذه المنظمة موطىء قدم في اسرائيل. وذكرت أخيرا لجنة خاصة شكلت لهذه الغاية: «من غير المعقول ان تتحمل الوكالة وحكومة اسرائيل وحدهما عبء الاهتمام بالحالات الاجتماعية، حتى عندما يكون المقصود بذلك المهاجرين. هناك حالات ليست من مسؤولية الوكالة، لأنها لا تدخل في نطاق أعمال الاستيعاب والاستيطان العادية، بل تنتمي الى الاعمال الخيرية الانسانية. وفي ضوء هذه النظرة يجب معالجة المشكلة التي في قيد البحث. يجب ان نحدد ان المشكلة هي مسألة يهودية عامة لا مجرد مسألة صهيونية او استيطانية. . .» بكلام آخر: من ليس قادرا على العمل من اجل الدولة، على الدولة ألا تعمل من اجله. لقد كانت هذه وجهة نظر اسرائيلية اكثر مما كانت صهيونية او يهودية. ولاحظ اعضاء اللجنة ذلك فكتبوا: «ان التعليل القائل انه يجب عدم تحويل اسرائيل الى مكان تَجَمُّع المرضى والحالات الاجتماعية، وان مثل هذا التطور ينطوي على خطر على السكان المحليين، ليس مقنعا (. . .) ان اليهودية العالمية لا تفهم وجهة النظر هذه، كما انها لن تغفر كل محاولة لمنع هجرة الأشخاص من هذا النوع الى اسرائيل.» وفي الصيف قررت الحكومة ان من الافضل ان يناط بالجوينت معالجة كل الحالات الاجتماعية بين المهاجرين: اصحاب عاهات، وشيوخ، ومرضى سل، ومرضى نفسانيين.[107]

هناك مجموعات من الناس لم يكن مرغوبا فيها هنا. وبعد تردد كبير وخلافات في الرأي بين الحاخامين والفقهاء، تقرر السماح بهجرة القرائين* من مصر. لكن الحاخام تسفي بيسح برناك، الحاخام الاكبر الاشكنازي للقدس، أفتى [بما يلي]: «حرام علينا ان ندخل جربا معديا كهذا الى كرم اسرائيل.» أما الحاخام عوزيئيل، فقد اوصى بالسماح لهم بالهجرة. وتدخل يتسحاق بن تسفي لمصلحتهم. أما قرار السماح لهم بالهجرة فقد اتخذه، في النهاية، دافيد بن ــ غوريون بنفسه.[108] ويروي المدير العام لوزارة الصحة، د. ي. مئير، انه قرأ «بخوف وانفعال» اعلانا في الصحيفة يقول ان هناك نية لهجرة الفلاشا. وكتب الى غيورا يوسفتال: «آمل بأن يكون هذا الخبر غير صحيح.»[109] بعد مضي عام ونصف العام، كتب مبعوث الوكالة في عدن، ش. شميدت، تقريرا يقول فيه: «قيل

* القراؤون لفظة مشتقة من المقرأ، وهي التوراة. سميت كذلك لأنها كتاب الله المقروء في مقابل الكون كتابه المنظور. والقراؤون يعتبرون التوراة، من دون التلمود، المصدر الوحيد للشريعة. وقيل ان ظهورهم واكب ظهور المسيح فآمنوا به، مخالفين سائر اليهود، باعتباره وليا من أولياء الله لا باعتباره نبيا صاحب شريعة ناسخة لشريعة موسى. لكن جماعة الربانيين (الأحبار) تقول ان ظهور القرائين كان بتأثير تعاليم القرآن والمتكلمين المسلمين، وان القرائين هم معتزلة اليهود الذين أخذوا عن المسلمين القياس والإجماع والاجتهاد ورفضوا التشبيه. وينسبون الى عنان بن داود وبنيامين بن موسى النهاوندي. ومن شيوخهم البارزين هارون بن أليسع. (المحرر)

لي، خلال التحقيق الذي قمت به، ان مسألة الفلاشا ليست بسيطة لأن هؤلاء الناس لا يختلفون كثيرا في سلوكهم عن الأحباش، كما ان الزواج المختلط امر طبيعي بالنسبة اليهم. هناك نسبة مرتفعة منهم من المصابين بأمراض تناسلية (. . .).»[110] وأرسل ممثل دائرة الهجرة في الوكالة في نيويورك، الدكتور س. برنشتاين، الى يتسحاق رفائيل لائحة بأسماء ٣٧٠ يهوديا اميركيا طلبوا الهجرة الى اسرائيل. وأعلنوا انهم يملكون معا ثلاثة ملايين ونصف المليون من الدولارات تقريبا، اي أقل من عشرة آلاف دولار للشخص الواحد. وقدر ممثل دائرة الهجرة في نيويورك ان رأس مالهم هو اكبر كثيرا مما أعلنوا. لكن المسؤولين في القدس بذلوا جهدا في إقناعهم بالبقاء في اميركا. وكتب موظف دائرة الهجرة، ي. فينشتاين: «ان عددا كبيرا منهم لم يكن في سن الشباب. ان الأموال التي يملكونها قليلة جدا. ويجب الحذر، بصورة اساسية، من الأشخاص الذين هم في الخمسين وما فوق والذين لا يملكون مهنة ويأتون كأصحاب مال من النوع المذكور اعلاه، كيلا يصبحوا عبئا على المجتمع في اسرائيل (. . .).» غير ان المندوب في نيويورك لم يتراجع، فكتب اليه الدكتور فينشتاين ثانية: «ان غياب الأحداث والشباب الطليعي من اللائحة امر مقلق جدا. اننا في غنى عن التشديد على حاجة دولتنا الماسة الى قوى فتية وطلائعية، ويجب القيام بنشاط اعلامي واسع وبأعمال لتشجيع الهجرة بين هذه الاوساط.»[111] *

ميز آرييه غلبلوم بين ثلاث مجموعات من المهاجرين: «النخبة»، و«الفقراء»، و«العرب الأفارقة». وكتب عن البلغاريين ان ليس هناك كلمات كافية لوصفهم. أما الأتراك فهم ايضا عنصر جيد، غير انهم اقل ذكاء.[120] هكذا درجوا على الكلام؛ يلصقون وصمات جماعية ويعممون. وقد ارسلت روت كليغر (علياف)، من موظفات مؤسسة الهجرة،

* حتى بعد صدور قانون العودة سنة ١٩٥١، رفضت وزارة الداخلية السماح لمجموعة من النساء المتقدمات في السن بالهجرة من بلغاريا، مما اضطر مستشار الحكومة القانوني الى التدخل، ليوضح انه، بموجب قانون العودة، يجب السماح بدخولهن.[112] كان بين المهاجرين غير المرغوب فيهم: الشيوعيون،[113] وأعضاء ليحي،[114] والأولاد غير المختونين،[115] وأصحاب الزيجات المختلطة،[116] وصحافيون.[117] وفي مقابل ذلك، كان هناك مهاجرون مرغوب فيهم اكثر من غيرهم؛ فقد حصل النشيطون الصهيونيون على حق الأولوية في الهجرة، وعلى سلسلة من التسهيلات في ترتيبات الاستيعاب، بما في ذلك تسهيلات في السكن.[118]

وكان هناك جدل ايديولوجي بشأن ما اذا كان من المرغوب فيه احضار اصحاب الاموال من غير الرواد. وكان هناك من زعم ان هؤلاء لا يساعدونهم على الهجرة لأنهم يخافون ألا يؤيدوا ماباي. وكان هناك ادعاء مضاد بأن أعضاء همزراحي، وهبوعيل همزراحي، يضغطون لزيادة الهجرة لأن المهاجرين في معظمهم، هم من الذين يقومون بواجباتهم الدينية. وقد اتهم الجميع بعضهم البعض بأنهم يستغلون الهجرة من اجل تحقيق مصالحهم الحزبية. وكان هذا صحيحا في الغالب.[119]

لتفقد معسكرات المهاجرين. ولدى عودتها، ارسلت الى مكتب رئيس الحكومة تقريرا عن المهاجرين وميولهم، بحسب الدول التي يأتون منها، جاء فيه: «يفتقر معظم الذين من اصل **اوروبي**، بما في ذلك **رومانيا وهنغاريا**، الى فكرة التطوع. ويميلون الى حياة المدن فقط، ويسعون وراء الرفاهية، ولا يتعلمون اللغة. وقد جلب كل واحد منهم، تقريبا، شيئا معه. حتى ان قسما كبيرا جلب معه الكثير. انهم لا يميلون الى الاستيعاب المنظم، ويتوزع معظمهم على هواه. وهم يرون في الوكالة استمرارا سيئا للجوينت، مع كل ما يترتب على ذلك؛ صاخبون، يشيعون التذمر لمجيئهم الى البلد، وهم اصعب العناصر القابلة للتنظيم والتدريب. انهم عنصر محرض، ومن السهل تحريضه. وهم لا يرون في اسرائيل حاليا هدفا نهائيا. منهم اصحاب مهن من كل الانواع. أما **رجال سنحاي** (الذين هاجروا الى هنا من أوروبا الوسطى)، فهم متمدنون. وقليلون منهم اصحاب مهن، وبعضهم اطباء وأصحاب مهن حرة اخرى. وهم لا يميلون الى شيء آخر باستثناء حياة المدن. يفتقرون الى اية رغبة في ان يستوعبوا بشكل منتج في اطار اقتصادي منظم في البلد. أما **اليوغسلافيون والبلغاريون والتشيكوسلوفاكيون**، فذوو ثقافة عالية جدا، ومنتجون، ويتمتعون بمستوى صحي رفيع. وهم قابلون للاستيعاب الاستيطاني بسهولة، لكنهم يبتعدون عن الاستيعاب في الكيبوتسات، وذلك لمعارضتهم حياة الكيبوتس التي يرون فيها استمرارا للكولخوز. وأغلبهم ذو ميول شيوعية. وقيل لي، في اماكن مختلفة، ان ثمة شكا في انهم يقيمون ما يشبه الحركة السرية الشيوعية. وهم منظمون. وكانت على سبيل المثال وفاة ديميتروف، بالنسبة الى البلغاريين، يوم حزن عميق. وهناك ميول متنامية لدى اليوغسلافيين، معادية لتيتو. وبينهم نسبة مرتفعة من اصحاب المهن المختلفة، بما في ذلك ادباء وأصحاب مهن حرة. وهناك العديد من الزيجات المختلطة بين اليوغسلافيين والتشيكوسلوفاكيين. أما **الهنود**، فذوو مستوى ثقافي متدن، ويعمل معظمهم في المصانع. ويفضلون ان يستوعبوا كعمال او كعاملين في الأرض. أما **السوريون والعراقيون والايرانيون والطرابلسيون** [الليبيون]، فمعظمهم يتكلم العبرية، ويملكون اساسا رياديا وثقافة حركية صهيونية (وبصورة خاصة العراقيون والايرانيون). انهم يتطلعون الى الاستيطان، والى حد ما الى حياة الكيبوتسات. مستواهم الصحي مرتفع بما فيه الكفاية. أما **الأتراك**، فهم عنصر بشري جيد، وذوو مستوى ثقافي عال، ويميلون الى الاستيعاب في اي مكان وفي اي عمل، وقابلون للاستيعاب بسهولة. نظيفون، ومستواهم الصحي مرتفع بما فيه الكفاية. كما ان المستوى العائلي متطور. فنحو ٢٥ ٪ منهم اطفال. **والأفارقة الشماليون**، في معظمهم، مدقعون وحادو الطباع وغير منظمين، [لكنهم] وطنيون. ومنهم نسبة كبيرة ترغب في العمل في الارض. وقلائل هم الذين يعرفون مهنة ما. يواجهون صعوبة في التعلم (...) ومن السهل التأثير فيهم، ومستواهم الثقافي والاجتماعي منخفض. ان ٢٥ ٪ الى

٣٠ ٪ منهم أطفال. وقد جاء اليمنيون كلهم معدمين، لا اقارب لهم (نحو ٦٠ ٪). يعانون من التراخوما والأمراض الجلدية (...) ولدى معظمهم رغبة شديدة في العمل في الارض والاستيطان. ويشكل العمل تطلعهم الاساسي، وهم سريعو الفهم [لكنهم] غير منظمين.»(١٢١)

في نهاية الامر، سُمح للجميع بالهجرة من دون «انتقاء»، ولا «تنظيم» فعلي، حتى ان السياسيين الذين قالوا انه يجب التخفيف من الوتيرة، وجلب «مادة بشرية بناءة» في المرحلة الاولى فقط، لم يجرؤوا على الكفاح من اجل ذلك علنا، كي لا يبدون أشخاصا قليلي الايمان وعديمي الخيال الصهيوني والوطني. لقد كانوا في ورطة: تخوفوا من الهجرة غير المقيدة، وتخوفوا من تقييدها. ولم يكن هذا سهلا؛ فالحاجة الى ايد تعمل وتقاتل تبدو حقيقية وملحة. وكان هناك تقاعس في الانقاذ من أيام الكارثة النازية. لم يجرؤ كثيرون على ان يتحملوا مسؤولية بقاء هؤلاء اليهود او غيرهم في الوقت الحاضر في اماكنهم، لأن هناك خوفا فعليا على مصيرهم. كان هناك خوف من انهم اذا لم يجلبوا فورا، فلن يسمح لهم او انهم لن يرغبوا في الهجرة بعد ذلك. وتبين، فيما بعد، انهم اخطأوا: أثقلت الهجرة الجماعية كثيرا على كاهل الدولة، [وعرقلت] بلورة المجتمع، وحملت الى اسرائيل أشخاصا لم يرغبوا في العيش في البلد منذ البداية، او ان املهم قد خاب فيما وجدوه، بين امور اخرى، نتيجة صعوبات الاستيعاب. وأصبحوا نواة التذمر الاجتماعي، والاحساس بالغبن. ولم يكن معظم المهاجرين معرضين للخطر في بلادهم، وفتح معظم الدول أبواب الهجرة بعد مرور أعوام عديدة. ولقد أخطأ السياسيون في تقدير امزجة الجمهور: منذ بداية سنة **١٩٤٩** اعتقد ثمانية من كل عشرة اسرائيليين انه يجب انتهاج «التخطيط والتنظيم» في جلب المهاجرين، وقالوا انه يجب اعطاء المنتمين الى الحركات الريادية والشباب الزراعي والعمال الحرفيين، حق الافضلية.(١٢٢)

كان المهاجرون، بالنسبة الى اغلبية الجمهور، «قارة مجهولة»، على حد تعبير احدى الصحف، «يعيشون في معسكراتهم، وقراهم، وفي المدن المهجورة، من دون اي اتصال بقدامى اليشوف.»(١٢٣) وعلى حد قول الصحيفة: «استوعب اليشوف القديم كل هجرة سابقة. أما الهجرة الحالية فتستوعب الى جانب اليشوف القديم.»(١٢٤) لقد كان هناك من تحدث، في تلك الفترة، عن «معسكرين»، وعن «شعبين»، وعن «عالمين».(١٢٥)

تخوف مارتن بوبر من الهجرة الجماعية. وتراءى له ان الخلل في الاتصال، بين فئة وأخرى، ينطوي على أخطار رهيبة. وقال: «انني ابحث عن تقاليد مشتركة، لكنني لا أراها. لا ارى إلا حطاما.»(١٢٦) وكتبت روث غروبر، وهي صحافية اميركية، الى بن ـ غوريون ان لامبالاة الجمهور مخيفة: «ناضل اليشوف من اجل الهجرة ونجح. أما الآن، فلا احد يهتم بأهالي المعسكرات الذين ناضلوا من اجلهم، والقلائل الذين يشعرون بالذنب تجاه الوضع في

المعسكرات يقولون: كابدنا العذاب بقدومنا، فليتعذبوا هم ايضا.»[١٢٧] * كانت لامبالاة الجمهور هي نفسها لامبالاة الأوساط الحكومية، بما فيها الجيش الاسرائيلي. وواجهت الوكالة اليهودية صعوبات كثيرة خلال سعيها من اجل الحصول على معسكرات من الجيش لاسكان المهاجرين فيها.[١٣٠] وقد ارسل الجيش الاسرائيلي مجندات وضباطا لمساعدة سكان المعسكرات، وفيما بعد ارسلهم الى المعابر أيضا، غير انه فعل ذلك بأمر صدر اليه وخلافا لمشيئته. قال موظف دائرة الاستيعاب، يهودا برجينسكي: «خلال الفيضان في اللد، عندما وصل معدل الامطار الى ٤٠٠ ملم[٣]، تفاوضنا مع رئيس الحكومة وطلبنا وضع امكانات للانقاذ في تصرفنا. وأردنا ان يضعوا في تصرفنا المطار الموجود في كفار سيركين. قالوا لنا إن هذا غير وارد، إذ هناك جهة ما بحاجة الى المطار، ولا يجوز الكلام في هذا الامر. اقترحوا علينا تل نوف، المحاط من احد الجوانب بالمظليين (...) وأخبرنا المظليون الموجودون في جوار المعسكر قائلين: اننا نضع ألغاما كي نمنع الناس الذي يقيمون في الخيم من الاقتراب منا. فتراجعنا عن الاقتراح.»[١٣١] وكانت لامبالاة الجمهور، في احدى الحالات، هي لامبالاة أعضاء الكيبوتسات. فهناك قصة اليهود الاربعة الذين هربوا عبر الحدود اللبنانية ووصلوا، بعد سير طويل وشاق، الى مشارف مسغاف عام التي رفضت السماح لهم بالدخول. لذا، تابعوا سيرهم على الأقدام أكثر من ساعتين حتى وصلوا الى المنارة التي استقبلتهم بحسب ما نقله المندوب الذي رافقهم، لكنهم حذروهم من انه اذا لم يجدوا من يدفع لهم نفقات ايوائهم، فلن يستقبلوا كمهاجرين في المستقبل.[١٣٢]

في كل مكان تقريبا، كان المزارعون يتذمرون من الأضرار التي سببها المهاجرون الذين خرجوا من معسكراتهم وقطفوا ثمارهم ليأكلوها. وطلب صاحب احد البساتين حماية السلطات، وذلك في سلسلة رسائل بعث بها الى رئيس الحكومة وغيره. وفي هذه الرسائل يصور [صاحب البستان] المهاجرين تارة كطائفة من الغجر وتارة اخرى كسرب من الجراد يقف الرجل امامه عاجزا. وبحسب كلامه، فكر في القاء القنابل عليهم لاخافتهم.[١٣٣] كانت هذه مشكلة العديدين؛ فقد كتب اتحاد الفلاحين الى وزير العدل ما يلي: «لقد وصلت الأمور، هذه السنة، الى حد تخلي بعض الفلاحين عن فلاحة أراضيهم

---

* في الواقع ارسلت حركات الشباب أعضاءها الى المعسكرات. وتعكس النشرات التي كتبوها بعد عودتهم اضطرابا عميقا وغربة كبيرة، وكثيرا من حسن النية ايضا. «كثيرة هي اللحظات التي تقف فيها عاجزا (...)، ويلذعك السؤال: هل تستطيع؟ هل في استطاعتنا ان نوجد شعبا من هذا كله.»[١٢٨] لقد عملت منظمات تطوعية مختلفة في المعسكرات، وعندما اعلنت في البلد حملة «مأوى» لاستيعاب أولاد المعسكرات الموقتة خلال اشهر الشتاء، تسجل عدد من المتطوعين يفوق عدد الأطفال المحتاجين الى مأوى.[١٢٩] وخلال السنة، فرض قرض اجباري لتمويل الاستيعاب.

المتاخمة لمعسكرات المهاجرين، لأنهم لم يروا اية جدوى في توظيف مالهم وطاقتهم، لعلمهم مسبقا انهم لن يحظوا بجني ثمارها (...).»[١٣٤]

في شهر كانون الثاني/يناير ١٩٤٩، توجه المجلس المحلي في رعنانا الى الوكالة اليهودية، طالبا منها عدم توجيه المزيد من المهاجرين الى البلدة. وكتب ب. اوسترفسكي، الذي حمل لقب رئيس المجلس المحلي، الى غيورا يوسفتال: «بعد لقائنا، وبعد تعهدكم تحويل معسكر المهاجرين في رعنانا الى مؤسسة للأطفال او للشباب، ما زلتم تواصلون ارسال المزيد من المهاجرين الجدد من معسكر بيت ليد* وأماكن اخرى الى مجمعات المعسكر وأكواخه [في رعنانا]. وقد وصل امس واليوم عدد من العائلات. من الصعب، والصعب جدا، ان نفهم لماذا تريدون فعلا تدمير رعنانا كلها. ما ذنبها، ولماذا تركزون كل تعنتكم عليها؟ وفي كل يوم تعج مكاتب المجلس بمئات الأشخاص الذين يصرخون طالبين «الخبز والعمل»، ونحن نوزع في كل يوم على مئات العائلات حصص الطعام: والذي لا نريده ان يحدث هو اضطرارنا الى اقفال مكتب المساعدة الاجتماعية المحلي، ودور التربية، وكل المؤسسات الاخرى. وثمة تفكير في ان يتخلى المجلس [عن مهماته] لموظفيه ويسلمونكم الادارة. اننا نطالبكم، صراحة، بايقاف ارساليات المهاجرين الى هنا! لا ترسلوا الينا حتى ولا مهاجرا واحدا! (...) المهم هو ان تنفذوا ما وعدتم، وأن تنقذوا مستعمرة في اسرائيل.»[١٣٥] لقد بات معظم المعابر عبئا على السلطات البلدية الصغيرة التي كان عدد سكان بعضها موازيا لعدد سكان المعابر، او اقل منه. فيسرائيل روكاح (تل ابيب) وأبراهام كريستي (رامات غان) وآبا حوشي (حيفا)، كلهم «رؤساء» [بلديات] يتمتعون بقوة هائلة ولهم نفوذ سياسي، عرفوا كيف يقللون الى حد كبير من عدد المعابر الواقعة ضمن حدود صلاحياتهم الادارية والقانونية.

ذكر المجلس التنفيذي الصهيوني انه قلق من التجميع الكبير للمهاجرين في المدن وضواحيها، وطالب بزيادة الجهود من اجل اجلائهم الى «المستعمرات العاملة.»[١٣٦] وادعت صحيفة «هآرتس» ان المؤسسات لا تبذل جهدا كافيا لتحويل المهاجرين الى مزارعين.[١٣٧] كان هذا هو الرأي السائد، اذ لم يكن هناك خلال هذه الفترة مخزون لليد العاملة في الاستيطان الزراعي، باستثناء بعض منظمات الجنود المسرحين من الخدمة، وهؤلاء لا يشكلون «نواة» للشباب، بل انهم اسرائيليون قلائل من الذين طالبوا بأن يصبحوا مزارعين. لكن، نظر ثمانية اسرائيليين من اصل كل عشرة بقلق الى تدفق المهاجرين على المدن الكبرى. ورأوا في ذلك خطرا على بنية الييشوف الاقتصادية والاجتماعية. وقال نحو ١٠٠ ٪ من الاسرائيليين انه يجب «توجيه» المهاجرين نحو الاستيطان

---

* بلدة عربية تقع على مسافة ١٨ كلم الى الجنوب الشرقي من مدينة طولكرم. وهي تقوم على تل عند الأقدام الغربية لجبال نابلس، وترتفع ٤٣٥ مترا عن سطح البحر. (المحرر)

الزراعي. واعتقد نصف الذين تم استفتاؤهم انه يجب ان يفرض على المهاجرين ممارسة العمل الزراعي.(١٣٨) وأخذ احد البيانات الرسمية للوكالة باقتراح اجبار المهاجرين على اجتياز فترة تأهيل زراعي في احدى المستعمرات، او في «مؤسسة خاصة»، لمدة لا تقل عن عام واحد.(١٣٩) لقد فُسّر رفض المهاجرين القيام بما رفض القيام به الاسرائيليون القدامى أيضا، صلافة ازاء الايديولوجية التي كانت سائدة لدى الكثيرين، وتنكرا لحاجات البلد. واعتبرت احدى الصحف ان قلة عدد المهاجرين المستوعبين في الزراعة «تسبب نقصا في السلع في البلد.»(١٤٠) وحذرت نشرة اعلامية للوكالة من ان المهاجرين الذين يسكنون المدن يسببون نشوء احياء الفقر؛ «احياء للفقر والقذارة والبطالة والآثام والجريمة، قرطاجة جديدة.»(١٤١)

خلال تلك الاشهر، غمر البلد عشرات الآلاف من الجنود المسرحين من الخدمة. وجرى حديث في احدى الجلسات عن ٤٠ ألف جندي سيجري تسريحهم خلال السنة.(١٤٢) وكان قسم منهم من المهاجرين. لقد واجه العديد من الجنود المسرحين صعوبة في التكيف مع عدم اكتراث الناس وانطوائهم. وغيروا، مثل المهاجرين، المنظر البشري العام في الشوارع، وكانوا يخرجون بين الفينة والأخرى في تظاهرات احتجاج على كونهم عاطلين عن العمل، ومن دون مأوى. وتحولت ضائقتهم الى موضوع سياسي، استغل في معركة الانتخابات، كما طرح في الكنيست. وكتب الجندي المسرح اوري افنيري، في يومياته الحربية: «قامت في الجبهة طبقة جديدة من البشر؛ طبقة اوجدت لنفسها أسلوبا، وفلسفة حياة وزعامة.»(١٤٣) ان هذا ينطبق على ألمانيا الويمارية * اكثر مما ينطبق على اسرائيل. وكان بين هؤلاء أفراد نجوا لتوهم من أهوال القتال، وكانوا لا يزالون مصدومين ومضطربين ويتعذبون في قرارة نفوسهم، ويواجهون صعوبة في استعادة وعيهم، ويبحثون عن مكانهم. ولقد كشف استفتاء، جرى بين الجنود قبيل تسريحهم، عن وجود ميل لديهم الى الانقطاع عما قاموا به قبل تعبئتهم، وبدء حياة جديدة. وذكر ثمانية جنود من اصل كل عشرة، انهم لا يميلون الى العودة الى اماكن عملهم السابقة. وذكر اربعة من اصل كل عشرة انهم سيتركون اماكن اقامتهم.(١٤٤)

وقد عرض على الجنود في تل ابيب، كما عرض على المهاجرين، المساعدة النفسانية كي يخففوا عنهم «المخاوف والتردد، وعقد النقص، والاضطرابات في الحياة الزوجية والجنسية.»(١٤٥) وكانت احدى الصحف تنصح، في الباب النسائي الذي تنشره، للقارئات اللواتي يعود أزواجهن من الجبهة ويجدون صعوبة في التكيف مع الحياة العادية، قائلة: «اقبليه كما هو.»(١٤٦) فالمهاجر – الذي وصف لدى مجيئه كانسان من صنع المنفى، ولاجىء،

* اشارة الى جمهورية ويمار. (المحرر)

وعنصر بشري منحط رفض ان يتغير، ورفض الذهاب الى الاستيطان الزراعي وهو يخبىء الدولارات في حزامه – هذا المهاجر ارتسم الآن بصورة ملموسة اكثر، كمنافس. فلقد اعتقد سبعة اسرائيليين من اصل كل عشرة انه يجب تفضيل الجندي المسرح على المهاجر في السكن والعمل.(١٤٧) غير ان المؤسسات لم تهب للمساعدة، فجعلت الجندي المسرح يروح ويجيء، وأجبرته على مواجهة المماطلة البيروقراطية المثبطة للعزيمة؛ فمن اجل مقابلة احد الموظفين، الذين يتلقون طلبات المساعدة، كان على الجندي المسرح المجيء في الساعة الرابعة صباحا. وكانت الصفوف طويلة، بحيث كان هناك من ينام على باب المكتب كي يحجز لنفسه مكانا لليوم التالي.(١٤٨) وقيل لأعضاء امانة سر ماباي، في الصيف، ان هناك جنديا مسرحا من كل اثنين يبحثان عن العمل.(١٤٩) وفي ضوء هذا الواقع، نشأت مواجهات بين جنود ومهاجرين. فكتب احد المهاجرين: «وصلت الى البلد مع عائلتي على متن سفينة مهاجرين بصورة غير شرعية. وقد بقينا في منزل للمهاجرين حتى أمّنت لنا الوكالة منزلا من حجرتين في حي النزهة خلف يافا. وحصلت على عمل، ونحن راضون وممتنون لأننا بعد العذاب والتشريد وصلنا الى هنا مواطنين أحرارا في دولة اسرائيل، التي قامت بفضل الجهود والدماء التي بذلها الرواد وجيش الدفاع الاسرائيلي والييشوف بأسره. وفي احدى الامسيات، اقتحمت بيتنا مجموعة من الجنود بعد ان حطم أفرادها الباب. ثم بدأوا اخراج امتعتنا عاقدين العزم على احتلال احدى الغرفتين من دون اي اذن. وعندما حاولت امي وزوجتي الحامل في شهرها السابع ايقافهم، ضربوهما. وعندما جئت لأعرض عليهم اذن الوكالة في الاقامة في المنزل، والعقد الذي اجريناه مع القيم على الاملاك المتروكة، لم يعترفوا بصلاحية الوكالة ولا بصلاحية الحكومة، وقالوا ان للجيش الحق في التصرف في هذه الامور دون العودة الى هاتين السلطتين (...) ان اعمالا فوضوية كهذه كانت تحدث غالبا في ضاحيتنا (...).»(١٥٠) لقد كان بن – غوريون يميل الى توفير مساكن للجنود، اكثر من ميله الى اسكان المهاجرين.(١٥١)

في سنة ١٩٤٩، كان هناك مسؤول، في احدى وزارات الحكومة، قد اعتاد ان يرسل الى قادة الدولة كل أنواع المقترحات من اجل تحسين الوضع. وعندما اقترب عدد سكان معسكرات المهاجرين من ١٠٠ ألف، كتب الرجل الى ليفي اشكول ان هذه المعسكرات هي «مأوى الكسالى والخاملين»؛ انهم محتالون يستغلون «التهذيب العام» و«حسن الضيافة» اللذين استقبلوا بهما لدى قدومهم. واشتكى من انهم لا يريدون ان يكونوا مواطنين مفيدين في الدولة، وانما يريدون «ان يأكلوا ويشربوا على حساب السيد بن – غوريون.» وقد تلقى بن – غوريون نسخة عن الرسالة، كما تناقلها أفراد طاقم مكتب رئيس الحكومة: وكتب نحميا ارغوف امين سر بن – غوريون، الى زئيف شيريف امين سر الحكومة: «يبدو لي ان هذه الرسالة جديرة

بالقراءة.»[١٥٢] لم ير بن ــ غوريون نفسه الرسالة، غير انه تحدث باللهجة نفسها قبل ان يتلقاها، اذ قال للمشاركين في المؤتمر الثامن لحركة الموشافيم: «يسكن ١٠٠ ألف يهودي في معسكرات المهاجرين، ويأكلون الطعام المقدم كصدقة.»[١٥٣] وبحسب كلامه، لم يكن لهذا اي مبرر. وخلال بضعة اسابيع، طلب بن ــ غوريون درس امكان تعبئة المهاجرين في «كتائب عمل» و«مجموعات» للقيام بأعمال عامة، بما في ذلك اعمال البناء «من اجل المجموع.» كانت هذه فكرة بولشفية واضحة، وان لم تكن الاولى من نوعها. وفي أواخر حرب الاستقلال، اقيم في حيفا لواء العمل العسكري الذي جند أشخاصا للعمل في المرافىء. وكان هناك اقتراح لاقامة «كتيبة عمل من اجل احياء النقب»، وذلك كبادرة حنين الى الماضي؛ الى كتيبة يوسف ترومبلدور التي قامت في البلد سنة ١٩٢٠ عندما كانت النفوس لا تزال في حالة هيجان بعد وعد بلفور وثورة اكتوبر.

فكر بن ــ غوريون في تجنيد المهاجرين الذين تتراوح اعمارهم بين ١٨ و ٤٥ عاما لتشغيلهم، من «دون ربح خاص»، في نظام عسكري او «شبه عسكري»، لأن من شأن ذلك ان يؤدي الى عدم تبذير «المال الوطني»، والى الاحتفاظ بالمهاجرين «بلا عمل» لتنفيذ «أعمال وطنية» من دون مزيد من النفقات. وبحسب كلام بن ــ غوريون، فان كتائب العمل تكسب المهاجرين مهنة، وقدرة على العمل، ومعرفة باللغة العبرية، وكذلك «انطباعا وطنيا». وتصور ان رجال الكتائب الجديدة «سيحصلون على كل حاجاتهم (وكذلك حاجات أبناء عائلاتهم)، بالاضافة الى مبلغ صغير كالذي يتقاضاه الجندي الالزامي.»

شكلت لجنة فدرست الاقتراح بخضوع وخشوع؛ ولم يرفض احد من اعضائها الاقتراح بصورة مطلقة.* غير انهم أشاروا، في تقريرهم النهائي، الى ان الفكرة ستواجه بمعارضة شديدة، سواء من المعارضة او من الائتلاف. ولقد أطلع يوسف ألموغي، من حيفا، أقرانه في اللجنة على المعارضة السياسية التي أثارها لواء العمل العسكري. واحتج اعضاء مابام على اقامة اطار للعمل لا ينتمي اعضاؤه الى نقابة مهنية، ولا يحظون بحمايتها.[١٥٤]

في نهاية الامر، اقترحت اللجنة ان يرسل، في المرحلة الاولى، الى معسكرات العمل المهاجرون الذين في الامكان فقط تجنيدهم بحسب قانون خدمة الدفاع. وطلبت، انطلاقا من ذلك، الحؤول دون «مناقشات لا لزوم لها» في الكنيست. وبتأثير من دائرة الاستيعاب في الوكالة، فكرت اللجنة في مهاجرين معينين يبلغ عددهم ٧٠٠٠ شخص تقريبا. ولقد وصف هؤلاء بأنهم «عنصر مهدم للمعنويات، اذ ان جوهر تأثيرهم في جمهور المخيمات يشكل مصدرا للتحريض السلبي، ولإذكاء النزاعات والاضطرابات.» وذكرت دائرة الاستيعاب ان

(*) اعضاء اللجنة الذين طلب منهم البحث في الاقتراح هم: يهودا ألموغ، ويوسف ألموغي، وحاييم غفاتي، وهيلل دان، وغرشون زايك، وغيورا يوسفتال، وشالوم هكوهين. أما غفاتي فلم يشارك في عملهم.

المقصود هو «عنصر بشري معاد للمجتمع.» وأوصت اللجنة بانزالهم الى النقب، مشيرة «الى ان هذا العنصر قابل جدا للتنقل» مثل حقائب السفر. وعندما اتضح للجنة ان الجيش الاسرائيلي غير قادر على تأمين اليد العاملة المطلوبة ليقيم في المعسكرات «نظاما عسكريا مطلقا»، توصلت الى استنتاج مفاده ان افضل طريقة هي ان يسود المعسكرات «نظام شبه عسكري (...) وذلك عن طريق تشجيع جو الدراسة، والتنافس في العمل، والتخصص المهني، وامكان تنظيم خلايا اجتماعية لنوى استيطانية او تعاونية حرة.» وهذا يعني، في هذه الحالة، [نمطا] يتأرجح بين مستعمرة تأديب للأشغال القسرية وبين معسكر لاعادة التأهيل التربوي. وعندما انهت اللجنة مقترحاتها باقامة المعسكر الاول في ضواحي بئر السبع، ليقيم فيه ٣٠٠٠ مهاجر مجند، قامت في وجهها «المعارضة الشديدة» التي توقعتها. غير ان هذه المعارضة اتت من اتجاه غير متوقع. فلقد كتب ممثل وزارة العمل في اللجنة، شالوم هكوهين، ان الفكرة «فكرة عظيمة»، غير ان وزارة العمل لا تستطيع ان تضيف الى ميزانيتها النفقات المطلوبة من اجل تنفيذ هذه المشاريع، كما انها لا تستطيع ان تتنازل عن اماكن العمل في الطرقات، او في اعمال اخرى في النقب، او في اي مكان آخر، لمصلحة المهاجرين في المعسكرات.»[١٥٥] ولهذا السبب او لغيره، سقطت الفكرة، وهي جديرة بالذكر لكونها تعكس مزاجا.

ومع مجيء المهاجر الذي اوصل عدد سكان البلد الى المليون، نظم المجلس التنفيذي للوكالة مهرجانا جماهيريا احتفاليا في تل ابيب. وتذكر يهودا برجينسكي فيما بعد: «أعلنوا ذلك في الاذاعة. وكانت هناك يافطة، ولبى الدعوة ١٥ شخصا. وخرجنا خجلين.»[١٥٦]

الفصل الثالث

أشخاص بلا أسماء

حذر يتسحاق رفائيل، في احدى جلسات المجلس التنفيذي للوكالة [اليهودية]، زملاءه من انه في حال اصرارهم على طلبهم تقليص حصص الهجرة من أوروبا، فلن تبقى سوى الهجرة من شمال افريقيا، وقال: «ان كل واحد منا متفق في الرأي مع الآخر، على اننا غير مستعدين للاكتفاء بأن تكون تلك هي الهجرة الوحيدة.»[١] وقبل ذلك، زار رفائيل المعسكرات الانتقالية للقادمين من شمال افريقيا في مرسيليا. وقد أبلغ زملاءه ان «العنصر البشري الافريقي ـ الشمالي ليس متميزا كثيرا.»[٢] وفي طريق عودته، عرّج على معسكرات المقتلعين في ألمانيا، الذين اعتبروا، هم ايضا، «عنصرا بشريا سيئا»، وذوي «ميول مهجرية». لكن رفائيل شعر بالارتياح، بحسب قوله، عندما التقاهم: «عليّ ان اقول لكم ان العنصر البشري (في ألمانيا) افضل مما كنت اعتقد، ولا سيما بعد ان وصلت اليها قادما من المعسكرات التابعة لمهاجري شمال افريقيا في مرسيليا.»[٣] وأرسل احد مبعوثي المؤسسة [مؤسسة الهجرة] تقريرا من هناك، قال فيه: «ان المراكشيين أناس متوحشون جدا.»[٤] وخلال بضعة اشهر، اعدت وزارة الخارجية تقريرا وزعته على ممثلي اسرائيل في العالم، لفتت فيه انتباههم الى ان معظم المهاجرين يصل الآن من بلاد الشرق الاوسط. وقيل في التقرير ان عدد السكان، الذين لا ينتمون الى «الطائفة الاشكنازية»، يزداد باستمرار، وسيواصل ازدياده في المستقبل حتى يصل الى ثلث مجموع اليشوف اليهودي. وقالت وزارة الخارجية، محذرة الدبلوماسيين التابعين لها: «سوف تترك هذه الحقيقة بصماتها على جميع مجالات الحياة في الدولة.» والنتيجة هي ان «المحافظة على مستوى اليشوف الثقافي (تتطلب) جلب المهاجرين، بأعداد غفيرة، من البلاد الغربية لا من بلاد الشرق المتخلفة فقط.»[٥] ان الدولة التي استوعبت، بصعوبة بالغة، موجات الهجرة من أوروبا، اصبحت اكثر ترددا أمام القادمين من الدول العربية، اذ استقبلوا بتخوف وعداء. قالت عضو الكنيست شوشانه برسيتس: «انكم تعرفون المهاجرين من هذه الاماكن. انكم تدركون ان لا لغة لنا مشتركة معهم. كما ان مستوانا الثقافي لا يتلاءم ومنزلتهم الثقافية. أما نمط حياتهم فهو نمط حياة العصور الوسطى (...).»[٦] كما ان يوسف فايتس «اعرب في حديث الى يوسف شبرينتساك، عن قلقه على

مستوانا الثقافي بعد الهجرة الكبرى من الشرق. وفعلا، ثمة سبب للقلق لكن ما الفائدة؟ هل يمكن وقفها؟ (...).»[٧] فقد اعترف رئيس دائرة يهود الشرق الاوسط في الوكالة، يعقوب زروبابل: «ربما ان هؤلاء ليسوا هم اليهود انفسهم الذين لنا شأن في قدومهم، لكننا لا نستطيع ان نقول لهم لا تأتوا (...).»[٨] لقد احضروهم عنوة، كأن لا خيار لهم.

وتنبأ بن ـ غوريون في حديث الى مجموعة من الكتاب والأدباء، بأن المهاجرين من الدول العربية سوف يخرجون من صفوفهم بيرل كتسنلسون جديدا، وبحسب قوله: «ان المهاجر من مراكش الذي يبدو متوحشا، والذي لم يقرأ كتابا في حياته ولا حتى [كتاب] «مَلْكيه رابنان» [«الملوك الحكماء»]، ولا يعرف الصلاة أيضا، يخلف وراءه ـ عن دراية او عن عدم دراية ـ ألوهية عمرها آلاف السنين (...).»[٩] لكن، بعد مرور فترة معينة، نشر [بن ـ غوريون] مقالا تضمن ما يلي: «تلاشت الألوهية لدى طوائف يهود الشرق، وتضاءل تأثيرهم في الشعب اليهودي او زال تماما. وخلال مئات السنين الاخيرة يسير يهود اوروبا في مقدم الشعب، سواء من الناحية الكمية او من الناحية النوعية.» ومن اجل ازالة الشكوك من النفوس، أضاف بن ـ غوريون ان المعني هو يهود اوروبا «في الاساس»؛ يهود اوروبا الشرقية. وقد نشر هذا الكلام في الكتاب السنوي للحكومة [الاسرائيلية]، وبذلك بدت الدولة انها تبنت وجهة النظر القائلة ان منزل صعلوك يهودي في بلونسك تبارك بـ «ألوهية». أما منزل طبيب يهودي خريج السوربون، في الجزائر، فلم يتبارك بها.[١٠] وكتب بن ـ غوريون ان يهود اوروبا شكلوا شخصية الشعب اليهودي في العالم بأسره.[١١] لكنهم «لم يمارسوا في البلاد الاسلامية (...)، خلال مئات السنين الأخيرة، سوى دور سلبي في تاريخ الشعب.»[١٢] وبحسب قوله فان الصهيونية كانت، في الاساس، حركة اليهود الغربيين، اي يهود اوروبا وأميركا.[١٣] وقد استند الى مقابلة مردود بيع الشيكل الصهيوني في الولايات المتحدة، وفي اوروبا، وفي البلاد العربية. وكان يهود اوروبا في نظره «المرشحين الأوائل للمواطنية في دولة اسرائيل.»[١٤] وكان ذلك، في نظره، معنى الكارثة النازية الحقيقي: «ان هتلر خرب الدولة اليهودية التي لم ير قدومها اكثر مما اضر باليهود الذين عرفهم وكرههم. فقد دمر عنوان الدولة والقوة الرئيسية والأساسية التي ستبنيها. وقد قامت الدولة ولم تجد الشعب الذي كان ينتظرها.»[١٥] ونظرا الى أنها كانت تفتقر الى الشعب، جلبت يهود البلاد العربية. وقد شبههم بن ـ غوريون بالزنوج الذين أحضروا الى اميركا كعبيد.[١٦] *

---

* تحدث بن ـ غوريون ايضا، في احدى جلسات لجنة الدستور والقانون والقضاء التابعة للكنيست، عن المهاجرين من مراكش ووصفهم بأنهم «وحوش بشرية». لكنه استدرك على الفور انهم لا يختلفون عن الآخرين: «يقال لي ان بينهم لصوصا. انا يهودي بولوني. وسوف اكون راضيا اذا وجد لصوص في اي تجمع يهودي اكثر مما يوجد بين يهود بولونيا.»[١٧] وسجل بن ـ غوريون، بعد حديث الى المدير العام

بعد فترة معينة، منذ ان بدأ عدد القادمين من البلاد العربية يفوق عدد القادمين من اوروبا، دعت مجلة «مغاموت»، التي كانت لا تزال حديثة العهد، خمسة من المثقفين الى مناقشة المشكلة الجديدة، وهم: عقيبا ارنست سيمون، وناتان روتشترايخ، وميشولام غرول، ويوسف بن دافيد (غروس)، وكارل فرنكنشتاين، وجميعهم من مواليد اوروبا الوسطى او الشرقية وكانوا اركان الجامعة العبرية. وكتبوا مقالاتهم، كأساتذة جامعيين جديرين بالاحترام، تحت عناوين مثل: «معيار مطلق»، و«حول كرامة الانسان». وقد ظهر، في نهاية مقال كارل فرنكنشتاين، الجملة التالية: «علينا الالمام بالعقلية البدائية لدى الكثيرين من المهاجرين القادمين من البلاد المتخلفة.» ووافقه أقرانه في الرأي. واقترح فرنكنشتاين انه من اجل فهم عقلية المهاجرين يجدر مقابلتها، اضافة الى امور اخرى، بـ«التعبير البدائي» لدى الاطفال او المتخلفين عقليا او الذين يعانون اضطرابا نفسانيا. وكان يوسف غروس يعتقد ان المهاجرين من البلاد العربية يعانون «تقهقرا نفسانيا»، و«خللا في تطور الذات.» وقد خاض أقرانه نقاشا طويلا في «جوهر البدائية». وعندما لخص محررو «مغاموت» مقالات المشتركين في النقاش، تحدثوا عن «الجدل». وفعلا حصروا بعض الخلافات في الرأي فيما بينهم. ومع مرور الايام، بلورت هذه المقالات إجماعا اشكنازيا، قسم منه ابوي لكنه يسعى لاسداء الخير، وقسم آخر ينطوي على الترفع والاحتقار. وقد برز هنا وهناك احساس بأن الخطر يتربص بالثقافة الأوروبية. وقد اعتبر المشاركون في ندوة «مغاموت» جميعا استيعاب المهاجرين من البلاد العربية مهمة ثقافية؛ فقد اعتقدوا انه لو كان في الامكان تلقين المهاجرين قيم الحضارة الغربية لتلاشت الفوارق، عند ذلك فقط، بين المهاجرين والقدامى، ولتم الدمج بين المنفيين. وقد طلب كارل فرنكنشتاين، فعلا، «احترام الآخرين لأنهم آخرون فحسب.» وحذر ع. أ. سيمون: «ما دمنا نعرف البدائية بتعبيراتها السلبية فقط، فان اليشوف الذي يضطلع اليوم بمهمة استيعاب مئات الآلاف من المهاجرين ذوي العقليات البدائية، مهدد بخطر الانشقاق الى معسكرين، سيبرز الاول بشعوره المتعالي، والثاني بشعوره الدوني (...).» واعتبر سيمون ان من تعبيرات البدائية الايجابية الايمان الديني، والصلاة، و«قوة ردة الفعل العاطفية على ظواهر الخير، والجمال والقدسية»، و«الود الحقيقي في العلاقات

= للشرطة يحزقئيل سوهر، ان من اسباب تكاثر الجريمة الانتقال من الحرب الى السلام، وضائقة الجنود المسرحين، وقدوم المهاجرين. وذكر في هذه النقطة «المراكشيين بصورة خاصة»، لكنه اضاف ان «النشالين، في معظمهم، هم من الاشكناز.»[١٨] وبعد بضع سنوات منذ ذلك الحين، وبعد الاضطرابات في حي وادي الصليب في حيفا، كتب بن - غوريون الى القاضي موشيه عتسيوني: «... ان الخارج على القانون واللص والقواد او القاتل الاشكنازي، لن يستطيع اثارة عطف الطائفة الاشكنازية (لو كانت هناك طائفة كهذه)، كما انه لن يخطر على باله امر كهذا، في حين ان ذلك جائز لدى طائفة بدائية (...).»[١٩]

الشخصية» والتي نسبها الى المتحدرين من البلاد العربية، خلافا لأبناء الحضارة الاوروبية. واعتقد انه يجب ألا يفرض على المهاجرين من البلاد العربية ثقافة غريبة عنهم. وفي كل حال يجب عدم فرضها دفعة واحدة اذا كان لا بد من ذلك، لئلا يقفوا «في فراغ انعدام القيم» الذي يؤدي بهم «الى الافتقار الروحاني والانحرافات الاجتماعية والخلقية، بكل ما يترتب على ذلك من أخطار، لا (عليهم) فحسب وانما على الدولة كلها.» ان أحدا من اعضاء هيئة تحرير «مغاموت» لم يقل رأيه في توزيع الموارد في الدولة الجديدة، ولم يفكر احد منهم في التماثل بين شرائح المجتمع المغبونة وبين المتحدرين من البلاد العربية. وعندما تحدثوا عن «مشكلة الطوائف»، قصدوا «بدائية» الطوائف الشرقية. واتفق الجميع على الحل: يجب انتشال المتحدرين من البلاد العربية من تخلفهم. وافترض الجميع ان هذا هو الحل الذي يقبله المهاجرون انفسهم؛ نظرا الى انهم يرغبون في استيعابهم في البلد فانهم يريدون، بطبيعة الحال، انتشالهم من تخلفهم. وقد اتفق الجميع على ان هذا ما يجب ان تكون عليه سياسة الحكومة.[٢٠]

ان تفحصا كميا وتقويما مضمونيا لما نشرته الصحف يظهران ان نحو نصف مجموع المقالات التي عالجت مسألة المهاجرين قد عرضهم بصورة سلبية، وأن اقل من ٢٠٪ عرضهم بصورة ايجابية.[٢١] وأن المقالات التي كتبت بروح سلبية، في معظمها، تحدثت عن المتحدرين من البلاد العربية. وعندما بدأت الهجرة الجماعية، تحدثت الصحف بلهجة سلبية عن المهاجرين من اوروبا الناجين من الكارثة النازية، «أصحاب نمط حياة مدمر» اعتادوه في معسكرات الجوينت. وجاء في احدى الصحف: «انهم كسالى. لقد اعتادوا العيش على حساب الناس (...) ومع مرور الوقت، سرقوا ٢٠ ألف طبق و١٨ ألف شوكة، والآن يسرقون أكياس المواد الغذائية، حتى ان حراسا مسلحين وضعوا قرب المخازن.»[٢٢] وبعد فترة، كتبت تلك الصحيفة: «ان معظم المستوطنين الجدد، الذين اعتادوا (تدبر امورهم) في الخارج، انتزع أجزاء من المنازل مثل العتبات العليا للنوافذ، والأنابيب، والحنفيات، ونقلها الى السوق في تل ابيب.»[٢٣] ومع مرور الوقت، تضاءل نشر أخبار من هذا النوع، وكثرت بدلا منها الأخبار السلبية عن المتحدرين من البلاد العربية. وقد وصفتهم الصحف بأنهم لا يعرفون المراحيض ولا ورق التواليت، ويزرعون الخضروات تحت اسرتهم، ويخبئون أطفالهم في الصناديق لانقاذهم من الطبيب وأدويته. وفي شهر آذار / مارس ١٩٥١، كتبت صحيفة «هآرتس» عن أحوال مهاجري العراق من سكان المعبرة: «ان الكثيرين من الآباء يرسلون ابناءهم الى السرقة، ويقف المدرسون عاجزين امام هذه الظاهرة. وقالت احدى الفتيات: اذا لم انفذ أوامر والديّ، فانهما يقللان من وجبة طعامي ويضاعفان من ضرباتهما لي (...) ويرتشف الاطفال الخمر من حين الى آخر ويعودونهم الكذب (...).»[٢٤]

نشرت «هآرتس»، قبل قدوم المهاجرين بصورة جماعية، واحدا من اكثر المقالات تحريضا التي ظهرت في اسرائيل، وهو المقال السابع لآرييه غلبلوم. وفيما يلي فقرات منه:

«. . . انها هجرة عنصر لم نشهد مثيلا له في البلد حتى الآن. ويبدو ان هناك فوارق بين القادمين من تريبوليتانيا [ليبيا] ومراكش وتونس والجزائر. لكنني لا استطيع القول انني تمكنت من دراسة جوهر هذه الفروق ــ هذا اذا كانت موجودة. يقال مثلا ان الليبيين والتونسيين «افضل»، وان الجزائريين والمراكشيين «اسوأ». لكن المشكلة واحدة بصورة عامة. (في هذا المجال، فان أحدا من هؤلاء المهاجرين لا يسعده الاعتراف بأنه افريقي: «جو سوي فرانسي» [انا فرنسي] ــ جميعهم فرنسيون من باريس، وكانوا كلهم تقريبا بدرجة كابتن في «ماكيه» * .)

«امامنا شعب بلغت بدائيته الذروة. وتصل ثقافته الى حد الجهل المطبق. والاخطر من ذلك انه يفتقر الى القدرة على استيعاب كل شيء روحاني. وبصورة عامة، فان [مستواهم] لا يفوق المستوى العام للسكان العرب والزنوج والبرابرة في مواطنهم إلا بمقدار بسيط: وفي كل حال، فان مستواهم اقل مما ألفناه لدى عرب ارض ــ اسرائيل في الماضي. وهم يفتقرون، خلافا لليمنيين، الى جذور في اليهودية. وفي مقابل ذلك، فانهم خاضعون تماما للعبة الغرائز البدائية والمتوحشة. كم من الحوادث يكلف تثقيف الافريقيين الذين يقفون في الصف للحصول على الغذاء في غرفة الطعام، من دون ان يقيموا ضجة عامة؟ كان هناك يهودي بلغاري يجادلهم في مكانه في الصف، واذ بأفريقي يستل مدية على الفور ويجدع انفه. وحدث اكثر من مرة ان انقضوا على موظفي الوكالة وأشبعوهم ضربا. وفي اي حال، فان موظفي المعسكر يواجهون خطرا دائما من اعتداءات مشابهة.

«تجد في زوايا مسكن الافريقيين في المعسكر، الاوساخ، ولعبة القمار، وتعاطي الكحول، والزنى. ويعاني الكثيرون منهم أمراض العيون الخطرة، وأمراضا جلدية وجنسية، اضافة الى أعمال السطو والسرقة. ان هذا العنصر غير المتحضر لا يؤمن جانبه، وليس هناك ما يكبح جماحه بصورة «جدية»؛ لا تختفي امتعة المهاجرين فقط، بل المعدات العامة التابعة للمعسكر أيضا. وقد سطوا على احد المعسكرات التي كنت ازورها وأفرغوا المخزن العام. ووقعت في معسكر آخر، مثلا، حادثة قتل عادية. وفي غرفة بالقرب من المستشفى، غسل الحانوتيون ميتا وعندما عادوا من الجنازة لم يجدوا أدوات التنظيف.

«هذه هي الصور الحياتية التي ينقلها الافريقيون الى اماكن اقامتهم. ولا غرابة في ارتفاع موجة الجرائم العامة في الدولة. فلم يعد، في بعض أجزاء القدس، أمان لفتاة او لشاب يخرج وحده الى الشارع بعد غروب الشمس، وكان هذا ايضا قبل تسريح الشبان

---

* المكان الذي كان يتجمع فيه مقاومو الاحتلال الألماني ابان الحرب العالمية الثانية. (المحرر)

الافريقيين من الجيش. وفي هذه المناسبة، اكد لي هؤلاء اكثر من مرة انه «عندما ننتهي من الحرب ضد العرب فسنشن حربا على الاشكناز». وفي احد المعسكرات «وضعوا خطة تمرد» تتضمن الاستيلاء على اسلحة الخفر، وقتل جميع موظفي الوكالة في المعسكر. لكن، لم تكن المشاجرات تحدث في الحالات التي كانت الشرطة تظهر فيها. والأهم من ذلك كله، هناك حقيقة اساسية لا تقل خطورة، وهي النقص في جميع معطيات التكيف مع حياة البلد، ولا سيما الخمول العضال وكراهية العمل. انهم يفتقرون جميعا، من دون استثناء، الى المهن وهم بالتالي مدقعون. وكلهم يقولون لك انهم كانوا «تجارا» في افريقيا. والحقيقة انهم كانوا باعة متجولين. وكلهم يريدون العيش في «المدينة». ماذا يمكن ان نفعل بهم؟ كيف يمكن استيعابهم؟ (. . .) هل ابدينا رأينا فيما سيجري لهذه الدولة اذا كان هؤلاء هم سكانها؟ وفي احد الأيام، سيضاف اليهم المهاجرون من يهود البلاد العربية! ما ستكون وجهة دولة اسرائيل ومستواها بوجود سكان كهؤلاء؟

«من المؤكد ان جميع هؤلاء اليهود يستحقون الهجرة بصورة لا تقل عن الآخرين، ويجب جلبهم واستيعابهم. لكن، اذا لم يتم ذلك بما يتفق والامكانات والمهلة الزمنية، فانهم هم الذين «سيستوعبوننا» لا نحن. ان مأساة هذا الاستيعاب، مع الفارق بينه وبين العنصر البشري السيىء من اوروبا، هي ان أطفالهم يعيشون بلا امل. ان رفع مستواهم العام في اعماق كيانهم الطائفي مسألة أجيال. ولعل لا غرابة في ان السيد بايغن و«حيروت» يطالبان بجلب جميع مئات الآلاف هذه فورا، لأنهما يدركان ان هذه الجماهير الجاهلة هي افضل مادة لهما، وأن هجرة من هذا النوع هي وحدها الكفيلة باصعادهما الى الحكم (. . .).»[٢٥] *

كان قرار مغادرة احدى الدول العربية، في احيان متقاربة، قرارا شخصيا جدا، مثل قرار مغادرة اوروبا؛ فقد كان نتيجة ظروف حياة كل فرد. ولم يكونوا دائما هكذا في كل مكان، كما لم يكونوا جميعا فقراء من «سكان المغاور المظلمة والزنزانات التي يتصاعد منها الدخان»، على حد قول ناتان ألترمن.[٢٩] لم يكونوا جميعا معرضين دائما، وفي كل مكان،

---

* هكذا درجوا على كتابة اسم بيغن في تلك الايام: بايغن لا بيغن. وأعلن رئيس اتحاد مهاجري شمال افريقيا، خلال بضعة اشهر، ان ««حيروت» في مراكش، كما هي في الجزائر، تحتضن جماهير الشعب. وهي تشق لها طرقا بالتدريج وتتوغل في العمق.»[٢٦] وكتب مبعوث الموساد في الجزائر: «ينبغي لنا ان نتذكر ان جابوتنسكي زار الجزائر مرة، ولا تزال زيارته ماثلة في اذهان الكثيرين.»[٢٧] وقال المدير العام لوزارة المالية آنذاك، وحاكم مصرف اسرائيل بعد ذلك، دافيد هوروفيتس، خلال المشاورات السياسية عند بن ــ غوريون: «ان البيشوف في المعسكرات (معسكرات المهاجرين) يشكل شعبا ثانيا، شعبا متمردا، ويعتبرنا اننا نشكل الطبقة الثرية الحاكمة. وهذه مادة من شأنها ان تشتعل، وهي مادة ممتازة بالنسبة الى «حيروت» والشيوعيين. انها مادة ديناميت (. . .). انهم (المهاجرون) يحتلون مكان العرب من نواح عديدة. وقد اصبحت لدينا نظرة خاصة تجاههم: نظرة التفوق.»[٢٨]

للاضطهاد او الملاحقة او التمييز، فهم هاجروا، ايضا، لأسباب عديدة كانت تتغير من حين الى آخر، ومن بلد الى بلد، ومن جالية الى اخرى، ومن شخص الى آخر، كما كانت الحال في اوروبا. وثمة، في احد ملفات الوكالة اليهودية، تقرير محفوظ غير موقع ومكتوب بالانكليزية عن وضع يهود ليبيا. ويعكس التقرير فوارق بارزة بينهم. وقد جاء فيه: «انهم جميعا يراعون الفرائض الدينية، لكن ثمة اختلافا كبيرا، من الناحية الثقافية، بين الذين يتكلمون العربية (وهم يستخدمون في كثير من الأحيان الحروف العربية) وبين الذين يتكلمون الايطالية. وينتمي معظمهم الى المجموعة الاولى. لكن يوجد بينهم ايضا مجموعة ثالثة تتكلم العربية (...).»(٣٠) كانت اغلبيتهم تقطن طرابلس، وبينهم من كان يقطن المدن النائية والقرى. وكانت الاكثرية تزاول التجارة، وبينهم من عمل في الزراعة. ولم يتضرروا جميعا، بالمقدار نفسه، نتيجة الازمة الاقتصادية التي اجتاحت ليبيا.(٣١)

في شباط/فبراير ١٩٤٩، تلقت الوكالة اليهودية في القدس تقريرا عن وضع اليهود في شمال افريقيا الفرنسي. وقد زار يعقوب كراوس، الذي وضع التقرير، الدار البيضاء وغيرها، ومما كتبه: «يعيش (في المدينة) ٨٠ ألف يهودي، يقيم ٥٠ ألفا منهم داخل غيتو. ان الكثافة السكانية في تلك الاحياء مخيفة، والظروف الصحية مريعة، وينتشر مرض السيفليس الوراثي بكثرة، وكذلك مرض التراخوما ومرض جلد الرأس. وفي مدينة تارودنت، التي تقع على مشارف جبل الأطلس، شاهدنا مجتمعا كاملا من دون عيون: من لم يصب بالعمى قد (يُعمى) خلال وقت قصير بسبب درجة التراخوما العالية. ولا مجال لاصلاح هذا الوضع، لأنه لا يوجد أطباء ولا من يهتم بالمعالجة.» لكن كراوس كتب عن يهود الجزائر: «ان اغلبيتهم العظمى تمارس التجارة. ولكونهم تجارا فقد احتلوا، ولا يزالون، منزلة مهمة في الحياة الاقتصادية في البلد (...) وبينهم عدد كبير من الأطباء والمحامين والمدرسين. وهناك بضعة أساتذة في جامعة الجزائر يتمتعون بشهرة عالية (...).»(٣٢) لقد مكث أفرايم شيلو في شمال افريقيا فترة طويلة مبعوثا لمؤسسة الهجرة. ووضع، بدوره، تقريرا عما اسفرت عنه جولته. فقد لاحظ بين اليهود، كما جاء في التقرير، مجموعتين: فهناك اقلية صغيرة تعيش في بيئة عربية معادية، وتتعرض لخطر الموت، وتتفسخ نتيجة «الموت البطيء»، وتعاني النقص في مصدر الرزق والتعليم و«كل متطلبات العيش الانساني الأولية.» وكانت الهجرة الى اسرائيل بالنسبة اليها في منزلة الانقاذ؛ لكن هناك آخرون، كان وضعهم «طبيعيا نسبيا»، وكانت مسألة الهجرة في نظرهم «كما هي في نظر كل جمهور يهودي في كل بلد يعيش فيه سكان يهود بكثافة قبل الحرب العالمية الاخيرة.» وجاء في التقرير ايضا ان «التركيب السكاني والعنصر البشري الذي نستطيع استيعابه من هناك يشبهان، تقريبا، العنصر الذي استوعبناه من بولونيا قبل الحرب.» وافترض شيلو ان ٣٠٪ فقط من يهود تونس والجزائر بحاجة الى

انقاذ: ان نحو ٧٠٪ منهم ينتمون الى مجموعة لم تكن معرضة للخطر. أما الوضع في مراكش، فقد كان اكثر صعوبة: ان ٦٠٪ من مجموع اليهود كانوا بحاجة، على حد قول شيلو، الى الانقاذ، لكنه وصف ٤٠٪ من اليهود في ذلك البلد بأنهم يتمتعون بوضع «طبيعي نسبيا.»(٣٣)

تحتشد في ملفات مؤسسة الهجرة تقارير عن وضع اليهود في تلك الدول. ويتضمن بعضها أوصافا مريعة: «ان وضع اليهود داخل البلد، وخصوصا في كرنيكا (ليبيا)، هو الاصعب. اذ ان العرب يهددون، صراحة، بقتل اليهود بعد ان يتسنم الشيخ السنوسي السلطة. وقد اغتصبت في بلدات صغيرة وقرى كثيرة فتيات يهوديات. ولعل اكثر الحالات تمثيلا لذلك الوضع تلك التي حدثت قبل اسبوعين فقط. فقد تمكنت يهودية من مصراته أراد عربي التزوج بها، من الصعود الى احدى سفننا. وعندما علم عرب المدينة بالأمر طلبوا من اليهود تزويدهم بخمس فتيات أبكار خلال اسبوع. وفي تلك الليلة، هرب من مصراته الى طرابلس اكثر من ٥٠ عائلة يهودية مع بناتها.»(٣٤) وقد وصلت تقارير شبيهة من بلاد اخرى، كاليمن والعراق وسورية ولبنان ومصر. وشملت الملفات تقارير عن جاليات يهودية كانت تعيش في اماكنها في كل بلد من هذه البلاد، في بحبوحة وأمن نسبي، وتقيم علاقات حسن جوار مع البيئة العربية، حتى بعد قيام الدولة وحرب الاستقلال. وقد أفادت تقارير مبعوثي المؤسسة ان ثمة جهات رسمية شجعت خروج اليهود وذهابهم الى اسرائيل من اجل ارهاق اقتصادها ونسيجها الاجتماعي.(٣٥) وكانت هناك جهات اخرى أرادت منع خروج اليهود من اجل عدم تعزيز قوة دولة اسرائيل بالطاقة البشرية.(٣٦) كما كانت هناك جهات رغبت في خروج اليهود لأسباب اقتصادية، وأخرى أرادت الابقاء عليهم للأسباب نفسها أيضا. وفي بعض الحالات، طلبت السلطات الاسراع في خروجهم للحؤول دون الاضطراب والمذابح، وهناك من أراد منع خروجهم من اجل تحريض السكان العرب عليهم وتحويل الانظار عن المشكلات الاخرى.(٣٧) لقد اثر ذلك كله في اعتبارات اليهود بالنسبة الى البقاء في أماكنهم او مغادرتها. وقد غادر بعضهم بصورة تلقائية، سواء هربوا من ضائقة او اضطهاد، او ان البلد (اسرائيل) استهواهم لدوافع صهيونية، او بسبب تطلعات طوباوية الى الخلاص. وجاء بعضهم بفعل تأثير الدعاية التي نشرها مبعوثو الحركة الصهيونية في الاماكن التي كان اليهود يعيشون فيها، وكان بعضهم قد اندفع بين المغادرين من دون ان يعرف سببا لذلك، ومنهم من جاء خلافا لرغبته. لقد ارسلت هيدا غروسمان، من عين همفراتس، الى فرنسا لتدريب الشبان القادمين من شمال افريقيا قبيل هجرتهم الى البلد. وكانت بينهم مجموعة من الشبان من بلدة جبس في مراكش. قالت غروسمان في وقت لاحق: «كان الجميع، مثل سائر ابناء طائفتهم، يرغبون بشدة في الهجرة الى ارض ـ اسرائيل، وكانوا

صادقين في رغبتهم هذه. لكن اكثريتهم كانت تفتقر الى فهم واضح لكل ما يجري حقا. فهم ببساطة امتطوا موجة تأهب اليهود العام لمغادرة مدينتهم، من دون التفكير في اسباب هذه الحركة وعواملها وهدفها. كان الانخراط في الجيش الاسرائيلي، ليصبح الفرد منهم جنديا يهوديا ويخوض حربا انتقامية وحشية ضد العرب، امنيتهم الشخصية المنشودة، وهي نتيجة نشاط منظمة بيتار* كعنصر صهيوني وحيد في معظم فترات شبابهم.»(٣٨)

بدأ الهروب الجماعي من مراكش في اعقاب المذبحة التي وقعت في [مدينة] وجدة، قبيل قيام الدولة. وباع الكثيرون من اليهود امتعتهم او تركوها وراءهم، وعبروا الحدود الى الجزائر. فانبرت لهم الشرطة الفرنسية لتمنعهم من الهروب. وعززت الحراسة على امتداد الحدود والطرق المؤدية اليها. وقد جند الآلاف من رجال الدرك لهذه المهمة. وتم اخضاع كل سيارة وكل قطار للتفتيش. وتم اعتقال اليهود الذين كانوا متوجهين الى الحدود، وضربوا وطردوا وأعيدوا الى منازلهم.

في مستهل سنة **١٩٤٩**، كانت مؤسسة الهجرة تميز بين الهروب الفردي والشخصي وبين الهروب الذي نظمته عصابات من اليهود، وقسم منهم كان ينتمي الى عالم الاجرام، والقسم الآخر من رجال العلاقات العامة الصهيونيين. وقد تم الهروب الفردي، في الاساس، عن طريق ميناء الدار البيضاء. وكان بعض صغار الموظفين يبيع اليهود تأشيرات خروج وجوازات سفر. وكان ثمن هذه الوثائق يتراوح بين **٢٠** و **٣٠** ألف فرنك. وجاء في احد تقارير مؤسسة الهجرة عن الهروب المنظم: «في هذه الاثناء اشتهرت قصة اليهودي ترجمان الذي كان يسلم اليهود الذين رفضوا دفع الثمن المطلوب الى الشرطة. وقد روى لي رئيس جالية فاس ان زعماء العصابة في مدينته يطلبون من الفتيات اليهوديات الراغبات في الهجرة الى البلد ان يسلمن انفسهن لهم ولرجال الشرطة العرب والفرنسيين (...) ان الهروب الى الدار البيضاء بمساعدة الأحزاب، وخصوصا «همزراحي»، يخضع لأساليب فاسدة. ويطلب «همزراحي» **٢٠** ألف فرنك لقاء فيزا، و **٥٠** ألف فرنك لقاء جواز سفر مع فيزا، و **١٠٠** ألف في مقابل هجرة فورية الى البلد من دون الانتظار في المعسكرات في مرسيليا. وكانوا (اعضاء همزراحي) يسعون لجمع مليوني فرنك لتجهيز معسكراتهم في مرسيليا. (...) ويوجد في مختلف انحاء مراكش عشرات الأثرياء اليهود الذين يعتبرون انفسهم «قناصل

---

* بيتار (بريت يوسف ترومبلدور): تنظيم الشباب التابع للصهيونيين التصحيحيين، وبعد ذلك لحركة «حيروت». ويوسف ترومبلدور كان رئيس حركة «هحلوتس» (الرائد) في روسيا، هاجر الى فلسطين وقتل في معركة تل حاي سنة **١٩٢٠**، ومن أهداف هذا التنظيم تثقيف الشبان المنتمين الى حركة «حيروت» بفكرة انشاء اسرائيل الكبرى، او كما يطلق عليها «تكامل الوطن» و«جمع المنفيين». وكان لهذا التنظيم خلال الثلاثينات فروع في ايطاليا وفرنسا وجنوب افريقيا ونيويورك.

اسرائيليين ويتدخلون في مصلحة الافراد كي يحصلوا لهم على تأشيرات المغادرة، كما يقدمون لهم الأموال لتغطية نفقات السفر وبطاقات لمركز «هحلوتس» (الرائد) في مرسيليا. ويستدل، مما سبق ذكره، ان البلبلة والفوضى الرهيبة في مجال الهروب تسببان لنا مشكلات مستعصية...»(٣٩)

كان يقيم في الجزائر، في ذلك الوقت، المبعوث ياني أفيدوف الذي طلب الاسراع في تهجير اللاجئين الذين قدموا اليها من مراكش (ومن تونس) فكتب: «ارسلنا بعض الاشخاص الى مراكش، بصورة خاصة، من اجل وقف التدفق منها. حتى اننا ندفع للمعوزين ثمن تذاكر القطار من حسابنا، كي يعودوا من مدينة الحدود الى أماكن الخروج.» وعلى الرغم من ذلك، فقد واصلوا القدوم بالآلاف. وحذر أفيدوف من ان وجودهم في المدينة يزيد في خطر ان ينفذ العرب ضدهم «مذبحة صغيرة او كبيرة.»(٤٠) وقد اسفرت مفاوضات مضنية وطويلة، جرت في تموز/يوليو **١٩٤٩**، عن اتفاق بين ممثل الوكالة في الرباط جاك غرشوني، وبين حاكم مراكش الفرنسي، يتضمن اربعة بنود لتنظيم الخروج من مراكش الى مرسيليا، «بهدوء» لكن ليس بطرائق سرية بعد الآن.(٤١) وقال يوسف برفيل بافتخار: «يجب اعتبار هذه النهاية انجازا مهما. في تلك الايام التي قاموا فيها علينا من كل جانب، تستحق المؤسسة [الهجرة] الثناء على العمل السياسي الذي بدأ واستمر بلا هوادة طوال فترة طويلة حتى بلغ هذه الدرجة.»(٤٢) أما دائرة الاستيعاب التابعة للوكالة اليهودية فلم تتحمس، وقالت متهمة: «ان تسريع الهجرة تم، الى حد بعيد، بطريقة تنطوي على انعدام المسؤولية. لقد أوجدوا في شمال افريقيا هجرة اصطناعية غير منظمة، ويدفعون الى هجرة عنصر بشري ذي مستوى متدن جدا لجهة استيعابه.»(٤٣) وبعد مرور بضعة اشهر قال احد العاملين في شؤون الاستيعاب، حرمون: «تحدثت الى الناس والى قادة اليهود، وأنا اعلم انه لم تكن في تونس حركة طوباوية. فالطوباوية كانت منظمة.»(٤٤)

كان في شمال افريقيا مبعوثون عملوا على تشجيع الهجرة. وقد ادت اليقظة الصهيونية، فعلا، الى تفاقم وضع اليهود في بعض الاماكن. وكلما تأزم وضعهم ازداد الميل لديهم الى المغادرة. وقد حدث ذلك في بعض البلاد، بصورة او بأخرى. ولعل ابرز هذه الحالات، طبعا، ما حدث في العراق. فبحسب الرواية الرسمية التي تأكدت بعد ذلك عن طريق حكم صدر عن المحكمة، نجمت هجرة اليهود في اطار عملية «عزرا ونحميا» عن «تطلع يهود العراق الى الأرض المقدسة، وعن اضطهاد السلطات العراقية الذي لم يكن محتملا لأنه كان يشتمل على المطاردة، والاعتقال، والشنق، وما الى ذلك.»(٤٥) ان خروج اليهود من العراق اصبح ممكنا عندما قرر البرلمان العراقي السماح لهم بالمغادرة لفترة محدودة، ابتداء من النصف الاول من سنة **١٩٥٠**. وفي الواقع، كان هذا مجرد امر بالطرد؛ فقد اجبر معظم اليهود على

المغادرة وصودرت أملاكهم. وتدل مصادر مختلفة، وبينها تقارير مؤسسة الهجرة، على ان قرار البرلمان العراقي نجم، من بين امور اخرى، عن نشاط الحركة الصهيونية، بمساعدة مبعوثي المؤسسة من اسرائيل. وقد اشتمل هذا النشاط على تهريب اليهود عبر الحدود الايرانية. وتحتوي ملفات المؤسسة، فعلا، على برقيات لا حصر لها، وفيها تفاصيل عن اضطهاد اليهود في العراق. لكن هؤلاء جميعا كانوا متورطين في النشاط الصهيوني السري، او انهم كانوا متهمين بالتورط فيه. وبصورة عامة، لم يرد اي تقرير عن التعرض لليهود بصفتهم يهودا.(٤٦) وفي آذار/مارس ١٩٤٩، عم الجمهور في اسرائيل الصخب لنبأ ورد من العراق، وجاء فيه انه تم اعدام سبعة يهود شنقا بتهمة قيامهم بنشاط صهيوني. وقد نشر هذا الخبر بصورة بارزة، كما نشرت مقالات افتتاحية واحتجاجات عامة، ولا سيما من على منبر الكنيست. غير ان مبعوثي المؤسسة في «برمان» ــ التي يقصد بها العراق ــ بعثوا ببرقية جاء فيها: «لا صحة لنبأ شنق يهود في برمان بسبب ادانتهم بمزاولة نشاط صهيوني، فقد حكم على البعض بالاعدام، لكنهم أصبحوا الآن خارج البلد. وهناك محاكمات كثيرة، لكن معظمها بسبب رسائل تلقاها المحكومون من اسرائيل.»(٤٧) غير ان رؤساء المؤسسة اهتموا بعمل صاخب على مستوى عالمي ضد العراق، من اجل التسريع في اصدار قانون بشأن هجرة اليهود. ولذا، تم صوغ مجموعة من مقترحات عمل تشتمل على: بيان يصدر عن وزير الخارجية في حديث خاص الى المراسلين الاجانب؛ والقيام بالدعاية في الصحف الخارجية؛ وبذل محاولة لافشال القرض الذي طلبه العراق من البنك الدولي؛ والقيام بتظاهرات كبيرة ومهرجانات احتجاج امام مداخل المفوضيات العراقية في العالم؛ وممارسة الضغط لايجاد جو من الشغب حول سفير العراق لدى الامم المتحدة، بما في ذلك التجمع واطلاق هتافات مهينة لدى دخوله المبنى وخروجه منه؛ وبذل محاولة لاجراء اتصال مباشر بالسفير؛ والتوجه الى الامم المتحدة والى السيدة إليانور روزفلت؛ و«اشارة غير رسمية» الى احتمال قيام اسرائيل بانشاء حركة سرية ضد حاكم العراق، نوري السعيد؛ واصدار بيان رسمي عن مفوضيات الولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا في اسرائيل، يقال فيه ان من المتوقع حدوث «تفجرات» من جانب المتحدرين من العراق في اسرائيل ضد العرب في البلد. «ويجب التأكيد ان الحكومة تتخذ بعض التدابير لحماية رعاياها العرب.» هذا ما جاء في الوثيقة، «لكن يجب التلميح الى انه ليس هناك في الواقع امكان للسيطرة على الموقف في حال إلحاق الأذى بالعرب.» كما اقترح ارسال وفد من عرب اسرائيل الى سفراء الدول العظمى في تل ابيب، وحتى الى اجتماع الجامعة العربية في مصر للتحذير من الخطر المتربص بهم في البلد نتيجة اضطهاد اليهود في العراق: كل ذلك لحمل العراق على الشعور بالسأم من اليهود فيه، وبينهم صهيونيون كانوا يريدون الهجرة الى اسرائيل وآخرون كانوا يرغبون في البقاء فيه.(٤٨) وقبيل القرار

الذي اصدره البرلمان العراقي بالسماح لليهود بمغادرة الدولة، وصلت الى مكاتب المؤسسة في تل ابيب برقية من بغداد، جاء فيها: «اننا نواصل نشاطنا العادي في سبيل انضاج القانون بسرعة اكبر، ومحاولة معرفة ما تفكر فيه الحكومة العراقية بشأن كيفية تنفيذه.»*

عندما فتحت أبواب الهجرة، بعد اعلان الاستقلال، تم في البداية ارسال بضعة آلاف من المهاجرين غير الشرعيين الذين جلوا الى قبرص، وخصوصا الناجين من الكارثة النازية الذين كانوا يقيمون في معسكرات المقتلعين في ألمانيا. وكانت محنتهم بارزة أمام الجميع: يهود مراكش أقاموا في بلد بعيد ومحنتهم غريبة. وفي تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٨، قال يتسحاق رفائيل لأعضاء المجلس التنفيذي للوكالة [اليهودية]، انه يجب ان نفضل «طبعا» الهجرة من دول اوروبا الشرقية. وقد علل ذلك بخطر اغلاق أبوابها. أما يهود شمال افريقيا، «والى حد معين» يهود الدول العربية، فكانوا يحظون بالمنزلة الثانية والثالثة في الترتيب.(٥١) وكان المدير العام لوزارة الهجرة، ي. ن. بيخر، يعتقد حقا انه يجب اعطاء يهود الدول العربية الأولوية، لكن لم يكن لوزارته وزن كبير في وضع سلم أولويات الهجرة: فقد تحددت السياسة في الوكالة، ولم يعترض المسؤولون فيها على رأي رفائيل في ان لأوروبا الشرقية الأولوية على الدول العربية.(٥٢) وخلال تلك الاشهر، كانت لا تزال هناك اماكن شاغرة في منازل العرب

---

* في الساعة السابعة تقريبا من مساء ١٤ كانون الثاني/يناير ١٩٥١، ألقيت قنبلة ــ يحتمل أنها كانت قنبلة يدوية ــ في ساحة الكنيس الذي يحمل اسم مسعودا شيمطوف في بغداد. وبعدها، شرع المهاجرون في التوجه الى المطار. وكان في الكنيس، خلال الحادثة، بضع مئات من اليهود. وقتل اربعة اشخاص، بينهم صبي يبلغ من العمر ١٢ عاما، وجرح نحو ٢٠ شخصا. ولم تكن هذه اول حادثة اعتداء على تجمعات يهودية في العراق، لكنها كانت اكثر شهرة لأسباب يعود بعضها الى الشائعة القوية التي ذكرت ان الذين قاموا بهذا العمل هم مبعوثو المؤسسة، بهدف ترويع اليهود وحملهم على الهجرة الى اسرائيل. وقد طاردت الشائعة، في الاساس، احد مبعوثي المؤسسة، مردخاي بن بورات، الذي اصبح فيما بعد وزيرا في الحكومة. ومما يلفت الانتباه ان الشائعة ولدت فعلا، عندما روّجها مرارا وتكرارا المتحدرون من العراق، ومنهم من لم يستبعد مثل هذا العمل على الاطلاق. ففي اي حال، رفع بن بورات سنة ١٩٨١ دعوى قضائية ضد الصحافي باروخ نادل. وبعد نقاش طويل توصلا الى اتفاق جاء فيه ان نادل تأثر بالأخبار المغرضة الصادرة عن السلطات العراقية، وانه يعتذر عما كتبه. وقد ورد في الحكم الذي اصدرته المحكمة، ان «مبعوثي اسرائيل الذين نشطوا في العراق، سواء الذين قدموا من اسرائيل او النشيطون المحليون، أنجزوا عملهم باخلاص من دون شائبة، معرضين حياتهم للخطر.»(٤٩) وحتى بعد كل ذلك، بقيت القضية بمثابة لغز: ليس من المعروف بالضبط من تعرض ليهود العراق، ولماذا. لكن عندما فتحت ملفات مؤسسة الهجرة لمقتضى التحقيق، وجد فيها بين امور اخرى المراسلات بين مبعوثي المؤسسة في بغداد والمسؤولين عنهم في تل ابيب، وكانت تحتوي على تقارير عن الاعتداء على الكنيس. ويتضح من تبادل البرقيات، ظاهريا، ان مبعوثي المؤسسة في بغداد والمسؤولين عنهم في تل ابيب لم يعرفوا من نفذ هذا الاعتداء.(٥٠)

المهجورة، وقد سلمت جميعها الى المهاجرين من اوروبا الذين بكروا في القدوم. والى ان وصل المهاجرون من الدول العربية كان معظم المنازل قد اصبح مشغولا. ان اعطاء الهجرة من اوروبا الاولوية ادى، اذن، الى تعميق الهوة الطائفية التي كانت قائمة في البلد منذ ايام الانتداب. وعندما جالت روت كليغر في المعابر في مهمة كلفها اياها رئيس الحكومة، التقت مجموعة من مهاجري شمال افريقيا. وقد حدث ذلك خلال النصف الاول من سنة ١٩٤٩: لقد وصلوا حديثا، وما زال البلد وأهله غرباء عنهم. لكنهم، على حد قول كليغر، أصبحوا مستائين «وتتملكهم مشاعر الدونية والاحساس بالتمييز.»(٥٣) لقد تبنوا مشاعر الغبن التي كانت سائدة بين الشرقيين والقدامى المتحدرين من اليمن. وقد جلب الكثيرون منهم الاحساس بالغبن معهم. وفعلا، بدأ التمييز ضدهم حتى قبل قدومهم.

ولم يتم اعداد معظم القادمين من شمال افريقيا للهجرة الى اسرائيل. فقد كانت البلاد العربية خارج مجال نشاط الحركة الصهيونية تقريبا، سواء بسبب الأخطار او بسبب الغربة التي أحس بها قادتها ازاء ما بدا، في نظرهم، محيطا بدائيا. وقد ادرك مبعوثو الوكالة القلائل، الذين كانوا يقيمون في شمال افريقيا، الخطر المترتب على ذلك وحذروا منه، لكن أحدا لم يستجب لهم. وحذر يوسف برفيل من ان «النشاط في شمال افريقيا سوف يمنى بالفشل بسبب نقص المبعوثين الدائمين للعمل في التهريب من هناك.»(٥٤) وقد كتب المبعوث موشيه رابينوفيتس ان «الهجرة، بتركيبها ووضعها الحالي من دون اعداد وتنظيم، ستزج بأرض – اسرائيل في وضع صعب لا يطاق.» وتابع محذرا انه سينشأ في البلد، مع الوقت، «غيتو مراكشي.»(٥٥) وقد كتب مبعوث آخر الى شاؤول أفيغور: «يوجد اليوم تمييز. تمييز فظ. انه يبدأ في شمال افريقيا.» وكان يقصد قلة المبعوثين، والميزانية الضئيلة التي خصصت لأعمال الاعداد هناك. وكتب يقول: «ان المشكلة مشكلة اسرائيلية. فهل ستتكون هنا في وقت ما كتلتان عنصريتان، ام سيقوم شعب واحد...»(٥٦) وكان بن – غوريون يميل الى اتهام قادة الطوائف انفسهم: «منذ سنوات طلبت من الشرقيين ان يقدموا شبانا مؤهلين لنرسلهم الى بلاد الشرق، من اجل العمل بين ابناء الطائفة السفارادية، ولا سيما بين الشبيبة، لاعدادهم للهجرة، وكذلك اعداد شبان للاعتناء بالمهاجرين في البلد. غير ان طلبي هذا لم يلق اية استجابة (...).»(٥٧) وكانت هذه، طبعا، ذريعة مفضوحة. فقد كان في الوكالة من يعتقد انه يجب ارسال مبعوثين اشكناز فقط الى شمال افريقيا. وقال بن – غوريون: «غادر الآن ثلاثة شبان شرقيين. وفي رأي دوفكين ان ذلك كان خطأ: الاشكنازي وحده هو الذي يحظى بالاحترام.»(٥٨)

انطوى تنظيم الهجرة على خلل كبير؛ فقد كانت الظروف غير انسانية. لقد ارسلت ايريس لويس الى شمال افريقيا في شباط/فبراير ١٩٤٩، وبعد عودتها قدمت تقريرا الى

الوكالة عن المعسكر الانتقالي في الجزائر جاء فيه: «يعيش في شارع صغير وراء المدارس في مبنى جمعية جميع اليهود اصدقاء – أليانس – أشخاص في ازدحام شديد كالحيوانات. ويجلس البعض في اسفل السلالم وفي قمتها وأمتعتهم في ايديهم: يمارسون حياتهم، ويعدون الطعام، ويموتون من الامراض، ويتناسلون ويموتون، رجالا ونساء، شبانا وشيوخا، كلهم بعضهم مع بعض. ويقطن اكثر من ٥٠ شخصا في غرفة تتراوح مساحتها بين اربعة وخمسة امتار مربعة.»(٥٩) وقد كتب احد أطباء المعسكرات في مرسيليا الى دائرة الهجرة في البلد يقول: «يحضر المهاجرون من شمال افريقيا الى مرسيليا، وهم معدمون، ومن دون ملابس تقريبا. ولا يتلقون اي طعام طوال السفر في السفينة من شمال افريقيا الى مرسيليا، والذي يستغرق ثلاثة أيام. ان الظروف في السفينة سيئة جدا. فالمهاجرون يفترشون الأرض ليناموا من دون اغطية ومن دون حد ادنى من الثياب التي تتلاءم وأحوال الطقس. وفي يوم ٢٣ كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٨، توفي طفل على متن السفينة خلال السفر من شمال افريقيا الى مرسيليا. وقد جزمت السلطات الصحية الفرنسية بأن الطفل توفي نتيجة البرد والجوع. انني اطلب الاتصال بالجهات المعتمدة لاصلاح هذا الوضع (...) هناك نقص كبير في البطانيات في معسكري غراند ارنس ومزراع ب (في مرسيليا). وينام المهاجرون في أكواخ من الباطون ذات سقوف خشبية، على اسرة عسكرية، ومن دون فرش سوى بطانية واحدة. ونتيجة الظروف السكنية السيئة وانخفاض مستوى التغذية في المدة الاخيرة، حدثت ١٢ حالة وفاة بين أطفال هذه المعسكرات (...). وهناك نقص كبير في الصابون والثياب (...) انني لا افهم لماذا توزع الملابس على المهاجرين في دول اوروبا جميعا، في حين لا يوزع اي شيء على جماعة شمال افريقيا (...).»(٦٠)

وقد وصفت المرشدة هيدا غروسمان الاقتلاع والهجرة من زاوية نفسانية: «كان جميع الشبان ينتمون الى عائلات كثيرة الاولاد، وتسببت الهجرة بين ابناء الطائفة كلها بتشتيت العائلات، وفك الروابط. ان الحنين والشوق الى ابناء العائلات، والقلق على مصيرهم، تنغص حياة جمهورنا بصورة دائمة، وسببت في البداية ممارسات هستيرية، وبكاء وصراخا في الليل. وكان شبان بلدة جبس، بصورة عامة، اكثر هدوءا وانضباطا بالنسبة الى هذه التأثيرات، مع ان عناءهم وتوترهم كانا كبيرين (...) ومع مرور الوقت، وجد الشبان صديقات، لكن هذه العلاقة الودية كانت عابرة. وحظي كل شاب وصديقته بكنية الأخ والأخت، وكان المربون يلقبون بالآباء. وقد انطوت هذه الروابط بين ابناء الجنس الواحد على مظاهر المحبة الجسدية القريبة جدا من الشذوذ الجنسي، الذي تعتبر جذوره بديهية داخل شبكة العلاقات بين الجنسين لدى هذه الطوائف. وكانت هناك ايضا ظواهر النضوج الكامل والعلاقات الفاسدة. وسوف تسبب هذه المسألة، طبعا، المزيد من التعقيدات في البلد، عندما

يصبح هناك عدد ضئيل من الفتيات فقط، وخلل في العلاقات الجنسية بين أبناء الطوائف الشرقية جميعا. ولم تكن في مجموعة جبس التابعة لنا، مثلا، اية فتاة.»[٦١] لقد كان بعض فقرات تقرير المرشدة من عين همفراتس وصفا انثروبولوجيا لقبيلة معزولة نائية، اذ عكست الكثير من التعاطف والرغبة الصادقة، في المساعدة، كما انها عكست ايضا غربة شديدة. ووصف مبعوث الوكالة في ليبيا، هـ. ارتسيالي، اليهود الذين التقاهم كأنه تاجر خيل: «ان أجسامهم رشيقة، ومظاهرهم جميلة، لكن من الصعب عليّ تمييزهم من النموذج العربي الاصيل.»[٦٢] وقد دفعـ.. ظروف المغادرة والسفر والاقامة في المعسكرات الانتقالية في مرسيليا، ممثلي الاتحاد الصهيوني في مراكش الى اصدار التعليمات الى مبعوثي مؤسسة الهجرة، كي يقلعوا عن الدعاية التي تدعو اليهود الى مغادرة شمال افريقيا بجميع الوسائل والطرائق. وطلبوا من المبعوثين الانصراف الى أعمال الاعداد والتأهيل بدلا من الدعاية. وبعد مضي عام واحد، علم ان ثمة انخفاضا كبيرا في عدد الخارجين من شمال افريقيا، وذلك نتيجة الاخبار التي تحدثت عن صعوبات الاستيعاب في البلد. «ان الامر الاول البارز اليوم هو انعدام الرغبة في الهجرة»، هذا ما كتبه احد مبعوثي الوكالة بعد ان زار المعسكرات الانتقالية في مرسيليا. وكانت هذه، على حد قوله، ظاهرة جماعية: «يجب اخذ هؤلاء الناس الآن بالقوة واصعادهم الى السفينة.»[٦٣]

كان بين المهاجرين من شمال افريقيا وسائر البلاد العربية كثيرون ممن لم يجلبوا معهم المعطيات التي كانوا بحاجة اليها من اجل التنافس الحر على منزلتهم في المجتمع الاسرائيلي، غير ان مكانة آلاف كثيرة منهم تدهورت الى هامش المجتمع، وهم لا يزالون خارج البلد. وكان بين المقيمين في المدن المراكشية جاليات كاملة اقتلعت من قراها، بعضها بسبب نزول الجيش الاميركي في مراكش خلال الحرب العالمية الثانية. وكان أفراد هذه الجاليات يمارسون أعمال البيع بالتجول، وكذلك أعمال الزنى والجريمة. وقد شغلوا أحياء كاملة من الضواحي الفقيرة في المدن. ووجدت هيدا غروسمان بين ابناء الشبيبة الذين دربتهم، شبانا ترعرعوا في بيوت الأيتام، وذكرتها مشكلاتهم بالوصف الذي استخدمه المربي السوفياتي مكرينكو، والكاتب البريطاني تشارلز ديكنز. وكانت في صفوفهم عصابات من اللصوص والمدمنين على الخمر. كتبت غروسمان: «انهم سيشكلون في البلد مشكلة جسيمة لجهة الاعتناء بهم وتقديم المساعدة الاجتماعية لهم.»[٦٤] ووصل الكثيرون من المهاجرين الى اسرائيل بمبادرة أقاربهم، وحتى بمبادرة زعماء جالياتهم الذين أرادوا التخلص منهم لأنهم كانوا شيوخا، ومرضى، وفي اوضاع اجتماعية اخرى. وكلما كانوا قريبين من الثقافة الفرنسية، وأصحاب ثقافة ومهن، وبعيدين عن التقاليد، تضاءلت الرغبة عندهم في الهجرة الى البلد وفضلوا الاقامة في فرنسا. وحتى لو كانوا لا ينتمون الى الشيوخ والمرضى والمحتاجين الى المساعدات

الاجتماعية، وحتى لو قاوموا الاقتلاع من اماكنهم بصورة او بأخرى وواجهوا صعوبات الهجرة، فان ثقافتهم لم تكن هي الثقافة الاوروبية التي أرادت اسرائيل ان تتبناها. ان الكثيرين منهم لم يعرفوا القراءة والكتابة بأية لغة. كما ان الكثيرين منهم لم يحملوا معهم سوى الحد الادنى من الثقافة، وفي معظم الاحيان الثقافة التوراتية فقط. وقد حضر الكثيرون منهم من دون اية كفاءة مهنية. وكانوا جميعا يفتقرون الى علاقات في الاماكن المتيسرة لهم في البلد، اذ لم يجدوا في اجهزة المؤسسة الحاكمة أقارب او معارف. ولم يتقنوا اللغة العبرية، وكانوا غرباء عن عقلية المؤسسة البيروقراطية. وجلبوا معهم تقاليد جوالية ــ ابوية لم تكن تعرف المبادرة الفردية. لقد شحذت غربتهم التصور الذي تكون عنهم بأنهم بدائيون. وأدى هذا التصور، بالتالي، الى تعميق غربتهم.[٦٥] وتلقى الكثيرون من المتحدرين من اوروبا الدعم من أقربائهم ومعارفهم الذين وصلوا قبلهم، ومن الأقرباء في الخارج. وحصل الكثيرون منهم، بعد ذلك، على تعويضات من ألمانيا. ونتيجة ذلك، ازدادت الهوة بينهم وبين المتحدرين من البلاد العربية.

كان الاحساس بالغبن قاسيا جدا، ومؤلما جدا منذ البداية. وكتب يوسف امويال، وهو اسكافي من يافا، الى رئيس الحكومة بن ــ غوريون قائلا: «اشعر بأني ربيب للأمة الاسرائيلية.»[٦٦] وسوف يأتي وقت يزعم فيه البعض انه قد تم التخطيط لذلك كله مسبقا، بما يشبه «المؤامرة الاشكنازية» التي ترمي الى تخليد غبنهم ومنزلتهم المتدنية في المجتمع. ويشتمل احد ملفات دائرة الهجرة على وثيقة فريدة في نوعها، مكتوبة بأحرف طباعية صغيرة على قطعة من الكرتون. ولم يضع صاحبها اسمه عليها، غير انه ذكر انه طبيب عمل نحو عام ونصف العام في معسكرات الانتقال الخاصة بالمتحدرين من شمال افريقيا في مرسيليا. وقد عرض هذا الطبيب تاريخ اليهود في شمال افريقيا ووضعهم، ووصف ببراعة شعرية الممارسات اليومية في معسكرات مرسيليا. وانهى مؤلفه هذا بقوله ان المهاجرين من شمال افريقيا سيزودون اسرائيل بالعمل الرخيص، «العمل غير الماهر» على حد قوله، بدلا من العامل العربي الذي كان يوفر هذا العمل حتى حرب الاستقلال. ان مستوى معيشة اليهودي الشمال افريقي لم يكن اعلى من مستوى الفلاح العربي. وقال هذا الرجل شارحا: سيكون مستواهم في البلد اعلى مما كان عليه، حتى لو ظل دون المستوى المعيشي الاوروبي الذي يتمتع به الاشكناز. ان المهاجر من شمال افريقيا سيتكيف اذن، من دون اية صعوبة، مع وضعه وسوف ينافس بنجاح «العامل الابيض». ولم يتجاهل المسؤولون في دائرة الهجرة هذه الوثيقة، ومن المحتمل ان يكون تفسير وجودها هو التالي: اصدر شخص ما تعليمات بنسخها على آلة كاتبة مرة ومرتين وثلاثا، بنسخ كثيرة. وبعد ذلك وجد من حرر هذا الكلام، ربما لمقتضى نشره مطبوعا. وقد حسّن المحرر الكلام المكتوب وهذّبه، وغيّر تركيب الجمل

واستبدل كلمة بأخرى هنا وهناك. لقد حذف المحرر الفقرة التي تتحدث عن [العامل] غير الماهر والفلاح المراكشي، اذ ربما اعتقد ان امامه فكرة سخيفة، او حساسة جدا يجب عدم تدوينها.[٦٧] في اي حال، لم تكن هذه فكرة غريبة تماما؛ اذ ان محاضر سرية باللغة الانكليزية دونت كلاما قاله رئيس المجلس التنفيذي للوكالة، بيرل لوكر، للسياسي والمليونير اليهودي من الولايات المتحدة هنري مورغنتاو في تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٨، جاء فيه: «في رأينا ان اليهود السفاراديين واليمنيين سيضطرون الى اخذ نصيب كبير جدا في بناء البلد. وعلينا احضارهم الى هنا من اجل انقاذهم، ومن اجل توفير العنصر البشري اللازم لبناء البلد.»[٦٨] *

لقد أوكلوا اليهم القسم الاصعب والاقل كسبا من بناء البلد، في المناطق الجبلية في الجليل ويهودا. أما الاراضي الخصبة والصالحة للزراعة، في السهل الساحلي والجنوب، فأعطيت للمهاجرين من اوروبا. لكن كان هناك بعض الشواذ؛ فقد اقيمت ضاحية على شاطىء الكرمل للمهاجرين من تونس ومراكش والجزائر. وأقيمت ضاحية رنتية ** بالقرب من بيتح تكفا *** لمهاجري مراكش، وغير ذلك. وأقيمت في جبال الجليل والنقب بضع مستعمرات للمهاجرين من اوروبا. غير ان معظم «قطع الأراضي الجيدة» لم يسلم الى المهاجرين من البلاد العربية. وقال آريبه إليـاف: «ان هذا لم يحدث نتيجة مؤامرة اشكنازية بل لأن أشخاصا، مثل شموئيل دايان، ويعقوب اوري، وتسفي يهودا، وغيرهم من الذين اشتغلوا في حركة المستعمرات، بحثوا عن الأشخاص القريبين منهم في العقلية والنظرة الى الحياة والمنشأ. ولم تكن لهم لغة مشتركة مع الآخرين. كان هذا طبيعيا جدا؛ كان الآخرون غرباء بالنسبة اليهم. وكانوا مدركين، طبعا، للفوارق في النوعية بين قطع الأراضي المختلفة، وحرصوا على الحصول على الأراضي الجيدة. وكان هذا في الاساس صراعا سياسيا، وغالبا ما كان صراعا صعبا جدا. وأعطيت افضل قطع الاراضي، بصورة عامة، الى الكيبوتسات وحركة المستعمرات. أما هبوعيل همزراحي والحركات الاستيطانية الاخرى، فأخذت الباقي. وعندما كانوا ينجحون في الحصول على قطعة ارض جيدة كانوا يوطنونها، طبعا، بأناس جيدين وفق فهمهم. وانطلقوا يبحثون بين المهاجرين عن نوى استيطانية تتمتع بحد اقصى

* هذا ما فعلوه في الماضي، عندما جلبوا يهودا من اليمن ليحلوا مكان العامل العربي في اطار الصراع من اجل احتلال العمل العبري.[٦٩]

** قرية عربية تقع على بعد ١٨ كلم شرقي يافا. احتلها الصهيونيون سنة ١٩٤٨ ودمروها، ثم أقاموا على انقاضها، سنة ١٩٤٩، مستعمرة ريناتيا. (المحرر)

*** مدينة صهيونية من مدن قضاء يافا. كانت تعرف باسم «ملبس». وهي تقع على بعد ١١ كلم شمالي شرقي يافا، وتعتبر جزءا من التجمع الحضري ليافا ــ تل ابيب. وتعد من اقدم المستعمرات الزراعية الصهيونية، اذ بدأ إنشاؤها في ٨ آب/اغسطس ١٨٧٨. (المحرر)

من احتمالات النجاح. كما أخذوا في الاعتبار احتمال ان يعطي المستوطنون حزب ماباي أصواتهم. وهذا ما حدث فعلا. لكن ليس نتيجة نية سيئة.»[٧٠] * وأدرك يوسف فايتس انه «يمكن استصلاح الجبال بتوطينها باليهود البسطاء، عمال الارض. وكلما اكثروا من العمل فيها اكتشفوا جدواها الاقتصادية، وذلك بالعمل البسيط في كل زاوية وبالقرب من كل صخرة. ان الزارعين عندنا الذين يسجدون للآلة، لن ينجحوا في ذلك. ومن هنا الثورة الكبرى في تاريخ الاستيطان. لم يعد الكيبوتس والكيبوتسا وموشاف هعوفديم تشكل عنصرا لتطوير استيطاننا المكثف إلا في الاراضي المروية. وحتى هناك سيتكيف العامل الاكثر بساطة. ويبـدو ان يهـود اليمن والعـراق ومراكش هم الـذين سيغـزون الصحـراء ويحيـون الارض.»[٧١] وعلى حد قول فايتس، كان من الصعب ايجاد ابناء كيبوتسات يوافقون على الذهاب الى الجبل لاستيطانه. وعندما تحدث، بعد فترة معينة، الى يوسف شبرينتساك الذي اعرب له عن تخوفه من ان يسبب المهاجرون من الدول العربية تدهور اسرائيل الحضاري، كتب فايتس: «صحيح ان هناك مجالا للقلق، لكن (. . .) اليمنيين يعملون!»[٧٢]**

كان قادة ماباي مدركين للانغلاق الاشكنازي الذي تميز به حزبهم. وقال بن ــ غوريون متذمرا: «ليست هناك لغة مشتركة معهم. «لا عبرية، ولا ايديش.»[٧٤] لقد بحثوا عن سبل لتوغل نفوذهم بين «الآخرين». ولهذا انشأوا دائرة خاصة بالطوائف الشرقية، لكنهم واجهوا الكثيرين من الأغراب، حتى انهم احتاروا في الفئة التي سيشملها مجال عمل الدائرة الجديدة: «سفاراديين» فقط، ام المتحدرين من بلغاريا ايضا، ام جميع المتحدرين من البلاد العربية ــ بمن في ذلك المتحدرون من اليمن ــ ام من الافضل انشاء دائرة خاصة بشؤون اليمنيين. وقد علق زالمان آران بلهجة ممزوجة بالدعابة والقلق قائلا: «انني اخشى الكلام في قضية أبناء الطوائف الشرقية، لأننا ربما سنضطر بعد قليل، مع الهجرة المتزايدة، الى الكلام في شأن الطوائف الاشكنازية.»[٧٥] وعندما بُحث في تأليف الحكومة الاولى، كان من

* خلال الفترة الاولى حاولوا انشاء مستعمرات مختلطة، يقطنها متحدرون من اوروبا والبلاد العربية. وبعد ذلك أقلعوا عن هذا التوجه.

** قال وزير الخارجية موشيه شاريت، لنائب وزير الخارجية السوفياتي فيشنسكي، ما يخالف هذا: «ثمة بلاد، وهنا تحدثت عن بلاد شمال افريقيا، ليس اليهود فيها مضطرين جميعا الى الهجرة. انها ليست مسألة عدد الأشخاص، بل نوعيتهم. ان مهمتنا في البلد مهمة طلائعية، ونحن بحاجة الى أشخاص ذوي قابلية معينة للمرونة. اننا مهتمون كثيرا بجلب يهود مراكش الى البلد، ونبذل في هذا السبيل جهودا كبيرة. لكننا لا نستطيع الاعتماد على يهود مراكش كي يبنوا البلد وحدهم، لأنهم غير مؤهلين لذلك. اننا لا نعرف حتى الآن ما سيواجهنا: اية هزائم عسكرية وسياسية متوقعة لنا. لذلك، فاننا بحاجة الى أشخاص قادرين على الصمود امام كل صعوبة، ويتمتعون بقدرة على الاحتمال. انك تعرف انه بالنسبة الى بناء البلد، في الوقت الحاضر، فان يهود اوروبا الشرقية هم ملح ارضنا (. . .).»[٧٣]

الواضح للجميع ان اعضاءها سيكونون من الاشكناز. وذكر زئيف شيريف: «احد عشر وزيرا في الحكومة، هذا هو العدد المطلوب. واذا كان لا بد من وزير سفارادي، فسيكون فيها اثنا عشر وزيرا.» وقال دافيد ريمز: «يجب ايجاد منصب للوزير السفارادي، وهذا ليس سهلا (...). قد يصاب الوزير السفارادي بغرور شديد (...).» لقد تحدثوا عن قائمة السفاراديين الذين نافسوهم في الانتخابات. وكان زالمان آران يعتقد ان مصالح الدولة تتطلب ضم وزير سفارادي الى الحكومة، لكن رأيه لم يكن مقبولا من الجميع. وقال احد اعضاء مكتب ماباي: «اذا دخل وزير سفارادي الحكومة فاننا سنعزز هذه العصابة الطائفية لعشرات السنين. اننا لسنا بحاجة الى ذلك على الاطلاق!.»[٧٦] وكان زالمان آران يعرف اكثر منه ان: «المراكشيين سيذهبون الى حيروت»، وحذر من ان «الطوائف الشرقية هي قاعدة حيروت.»[٧٧] ومنذ بداية شهر شباط/ فبراير **١٩٤٩**؛ عرف ايضا السبب: «(في ضواحي تل ابيب) صوتوا لحيروت انتقاما من الحزب، بسبب الأخطاء التي ارتكبها خلال جيل كامل.»[٧٨]*

وابتداء من شهر ايلول/سبتمبر **١٩٤٩**، سمح ليهود بولونيا بالمغادرة والهجرة الى اسرائيل طوال عام واحد. وبحسب تقديرات مختلفة، توقعوا وصول ما بين **١٥** و**٢٥** ألفا منهم. وكان عدد المقيمين في المعسكرات الانتقالية، في تلك الاثناء، يقترب من **١٠٠** ألف اكثر من نصفهم قادمون من البلاد العربية. **

وقبيل نهاية السنة، ساد المجلس التنفيذي للوكالة رأي مفاده ان المهاجرين الجدد من بولونيا يستحقون شروط استيعاب افضل من شروط استيعاب الذين حضروا قبلهم. وقيل: «ان هناك أشخاصا ذوو منزلة مرموقة، ولتجنيبهم عناء المعسكرات يجب وضعهم في فنادق، وبعد ذلك

---

* اعتقد آران ان على الحكومة الجديدة ان تبذل جهدا كبيرا لاصلاح وضع أبناء الطوائف الشرقية، وذلك «تكفيرا عن أخطاء كثيرة جدا ارتكبها الشق الاشكنازي في اليشوف.» وقصد الاصلاح الاقتصادي والتربوي.[٧٩]

** ان سبعة من كل عشرة مهاجرين كانوا يقيمون في شباط/فبراير **١٩٥٠** في معسكرات المهاجرين قدموا من البلاد العربية، اي اكثر قليلا من نسبتهم الى المهاجرين. وفي أواخر تلك السنة كان قد اصبح في البلد اكثر من **٥٠** معبرا [معسكرا انتقاليا] وقرية عمالية يقيم فيها ثمانية من اصل كل عشرة مهاجرين قدموا من البلاد العربية. وقد وضع في المعابر المهاجرون الذين لم يتدبروا امورهم بأنفسهم. ان الاجور المنخفضة التي كانوا يتقاضونها، والأشغال الموقتة التي كانت تعرض عليهم، وغربتهم الثقافية، وافتقارهم الى المؤهلات المهنية، وانعدام الفرص لامتلاك مثل هذه المؤهلات، واعتمادهم على موظفي مكاتب العمل ورجال الأحزاب السياسية ـ هذه الامور كلها جعلت المقيمين في المعابر يتبلورون في شريحة طبقية بارزة، لها هوية طائفية واضحة. وفي كانون الثاني/يناير **١٩٥٣**، كتبت دائرة الهجرة الى الوكالة اليهودية في القدس: «ان معظم العائلات الاوروبية غادر المعابر منذ زمن بعيد، وان اكثر من **٩٠**٪ من سكان هذه المعابر هم من ابناء الطوائف الشرقية.»[٨٠]

يمكن اخلاء معسكر كامل لوضعهم فيه في ظروف مريحة. وفي موازاة ذلك، بُحث في طرائق تسريع بناء الأحياء السكنية الدائمة، خارج الدور، [بحيث يكون] قسم منها داخل المنازل التي خصصت منذ البداية للمهاجرين من البلاد العربية. وفي غضون ذلك، بحثوا عن ميزانيات خاصة لمساعدتهم في تمويل ثمن المنازل، كما فكروا في جباية خاصة في الخارج. وتكلم اعضاء المجلس التنفيذي للوكالة في موضوع «تفضيل» المهاجرين الجدد من بولونيا، وتحدث بعضهم عن حقهم في الحصول على «امتيازات خاصة». وقد ذكّر احدهم زملاءه بقوله: «ينتمي قسم كبير منا الى العشيرة نفسها.»[٨١] وقد ناقشوا ذلك، فعلا، وكانت الآراء متباينة. ومن الذين أيدوا تفضيل المهاجرين من بولونيا، برز يتسحاق غرينبويم (قائمة مستقلة)، ويتسحاق رفائيل (هبوعيل همزراحي). وبرز بين المعارضين: ليفي اشكول (ماباي)، وتسفي حرمون (مابام). كما ان ش. ز. شرغاي (هبوعيل همزراحي)، وموشيه كول (التقدميون)، نظرا الى هذه المسألة بعدم ارتياح. لقد أدركوا جميعا ان تفضيل المهاجرين من بولونيا عمل مرفوض، لذا قرروا طمسه والمحافظة عليه بسرية مطلقة.

وهكذا تكلموا:

إلياهو دوفكين: (...) علينا منح هؤلاء المهاجرين امتيازات، وأنا لا أخاف هذه الكلمة...

ليفي اشكول: (...) اذا كنا نقيم معسكرات لسكان يبلغ تعدادهم **١٠٠** ألف نسمة، وبينهم مهاجرون كثيرون من بولونيا، ثم نعطي الاشكناز امتيازات فجأة، فلن يكون من الصعب تخيل الضجة التي ستقوم: «من اجل الاشكناز يوجد كل شيء!».

(...)

تسفي حرمون: (...) اذا كانت القضية هي منح الامتيازات خلال الاستيعاب، فاني اخشى ألا يبقى منا احد في قيد الحياة (...) أيمكنكم ان تتخيلوا معنى حصول **٢٠** ألف شخص على ترتيب خاص؟ (...)

ثم اتفق الجميع على تأليف لجنة لدراسة الموضوع.[٨٢]

وبعد مرور شهرين:

ي. غرينبويم: (...) ستكون هناك حاجة الى إعداد فندق لـ **٨٠٠** شخص، من اجل استقبال أوائل القادمين من بولونيا في نهاية شهر تشرين الثاني/نوفمبر. وعلينا الاسراع في هذا الموضوع كي لا تحدث مفاجأة، وكي لا يضطر أشخاص محترمون الى الذهاب الى المعسكرات. فبين المهاجرين أشخاص ذوو منزلة كهذه، وسوف تحدث فضيحة اذا ما اضطررنا الى ارسالهم الى المخيمات.

أ. دوفكين: (...) ثمة حاجة هنا الى جهد خارق لتسهيل استيعاب هؤلاء الناس. انني

لا ارى ضيرا فيما اذا استأجرت اللجنة العامة فندقا لترتيب اقامة هؤلاء المهاجرين (. . .). ان الهجرة من بولونيا متوقفة على استيعاب المهاجرين الأوائل. واذا فشلنا في الاستيعاب، فسيتوقف هؤلاء الاشخاص عن القدوم (. . .) وسوف يشكل هذا ضربة للحركة الصهيونية كلها.

م. غروسمان: اعتقد ان علينا ان نعمل كل ما في وسعنا للمساعدة في استيعاب مهاجري بولونيا. لكنني اعارض ان تكون المبادرة الرسمية في يد المجلس التنفيذي [للوكالة]. ان أحدا في الخارج لن يفهم ذلك. ومع الاحترام كله ليهود بولونيا، فان هذا الامر لن يكون مفهوما. لماذا نعتني فجأة بهؤلاء اليهود اكثر من غيرهم. فهذا سينشر وسيتم تعيين عضو مجلس تنفيذي خاص. ماذا بشأن يهود ألمانيا، ومراكش، وتونس، وطرابلس، وسائر اليهود؟ انني مع الرأي القائل اننا نقرر هنا في الداخل ما نقرر، لكن يجب ألا يعين المجلس التنفيذي السيد غرينبويم مفوضا له. انه شخصية مهمة ومقبولة لدى يهود بولونيا، وسوف ينجز ما سيكلف به. اننا سنساعده جميعا. انني لا اريد ان يعرف العالم كله اننا نأخذ على عاتقنا فجأة ايلاء هذا الموضوع العناية (. . .) يمكن انشاء لجنة عامة ليهود بولونيا، على ان يشترك فيها السيد غرينبويم، لكن لا بصفته مفوضا للمجلس التنفيذي. انني أتخيل سلفا عناوين الصحف، ومستعد (لرصد) أموال لهذا العمل، لكن من دون اي نشر لأن النشر سيضر بنا. انني لا ارى اية ضرورة له (. . .).

ب. لوكر: اننا، في الحقيقة، نؤيد جميعا هذا العمل. والسؤال هو هل سننجزه [بتفويض] رسمي من المجلس التنفيذي ام لا (. . .).

ي. غرينبويم: (. . .) بالنسبة الى النشر تستطيعون الاعتماد علي للحؤول دونه.

ويقررون: «ستقام لجنة عامة لمعالجة استيعاب يهود بولونيا. وسيشترك السيد غرينبويم في اللجنة بموافقة المجلس التنفيذي. على ان يبلغه، من حين الى آخر، سير العمل. وبالنسبة الى الخارج، سيقوم السيد غرينبويم بهذا العمل بصفته احد قادة يهود بولونيا.»(٨٣)

بعد مرور اسبوع، بحث المجلس التنفيذي في تخصيص معسكر خاص ليقيم فيه المهاجرون من بولونيا، وفيه غرفة خاصة لكل عائلة، خلافا لقاعات النوم الكبرى التي وصفها آريه غلبلوم. وقد تعهدت دائرة الاستيعاب تنظيم اقامة ٢٠٠٠ مهاجر من بولونيا بهذه الشروط، غير ان يتسحاق غرينبويم طلب توسيع هذا الترتيب كي يشمل القادمين جميعا. لكن مسؤولي الاستيعاب رفضوا ذلك.

ي. غرينبويم: (. . .) هذا يعني انه ستكون هناك، ابتداء من شهر شباط/فبراير، حاجة الى ادخال مهاجري بولونيا في كوخ واحد فيه ٢٠ ــ ٣٠ سريرا، الواحد منها الى جانب

الآخر، وستنام العائلات جميعها سوية، العائلة بالقرب من الاخرى. . . وسوف تسبب اشاعة هذا الامر انطباعا سيئا جدا (. . .).

يتسحاق رفائيل: ان مهاجري بولونيا لا يشبهون مهاجري البلاد الاخرى. ان مهاجري البلاد الاخرى، الذين يأتون اليوم بناء على طلبنا، لم يرغبوا في الهجرة منذ وقت طويل وقد أجلوا هجرتهم. ولهذا السبب، ليست لنا اية التزامات نحوهم، في حين ان يهود بولونيا لم يتمكّنوا من الهجرة لأنها لم تكن متاحة لهم (. . .). واذا أعفينا يهود بولونيا من المعسكرات ومنحناهم الاولوية في السكن، فسينظمون انفسهم في البلد بسهولة اكثر من المقيمين في المعسكرات من الطوائف الشرقية، لأن بينهم اصحاب مهن يحتاج اقتصاد البلد اليهم. وسيعود هذا الامر بالنفع على الاقتصاد بأسره. لذلك، اقترح منحهم الاولوية في السكن. ان يهود بولونيا قادمون من ظروف معيشية جيدة. ولذا، فان حياة المعسكر بالنسبة اليهم اصعب كثيرا مما هي بالنسبة الى يهود اليمن الذين يعتبرون المعسكر في نظرهم عملية انقاذ. ولهذا السبب ارى ان هناك أسبابا كافية لتفضيل يهود بولونيا. ويجب ان يكون التفضيل في اتجاهين: أ ــ يجب منح يهود بولونيا الاولوية في المساكن المتوفرة. ب ــ اذا كان ذلك مستحيلا، فانني اؤيد اقتراح السيد غرينبويم بأن نوفر لهم ظروفا افضل في المخيمات (. . .). ويمكن اقامة صندوق اقتراض خاص للاسكان، يتم تمويله من مساعدات الاقارب ومن أموال يجلبها القادمون معهم. ان هذه الفئة من المهاجرين لا تشبه مهاجري اليمن. فاليهودي البولوني عندما يحصل على قروض يعلم ان عليه سدادها (. . .)

ي. برجينسكي: (. . .) ثمة احتمال ان يتوفر لدينا معسكر واحد، وهو معسكر عتليت الذي يقيم فيه الآن يمنيون. سنخرجهم وندفع بهم الى مكان ما، وعندها سيكون هناك معسكر لـ ٣ ــ ٤ آلاف نسمة (مع ان حالته ليست مريحة كما يطلب غرينبويم) بازدحام، كما هي الحال في سائر المعسكرات (. . .). حرصنا على حجز (احتياط) ٢٠٠ ــ ٣٠٠ (شقة)، [ايجار الواحدة] ٢٠٠ ليرة. سنأخذ هذه المنازل التي وزعت على القادمين من شمال افريقيا واليمن ونقدمها الى البولونيين. وسنحتاج لهذا الغرض الى مبلغ ٣٠٠ × ٢٠٠ ليرة. والمشكلة هي اذا كان في الامكان جمع هذا المبلغ (. . .).

إلياهو دوفكين: (. . .) قررنا تفضيل يهود بولونيا. وقرارنا صائب (. . .)، (لكن) حق الاولوية هو للمهاجرين الأوائل الذين سيحضرون. انني لا التزم العمل ذاته للأواخر. وكان هدفنا ان يرسل الأوائل تحية الى بولونيا يقولون فيها ان الوضع ليس مريعا كثيرا في البلد (. . .). انني لست ملزما بمثل هذا العمل لكل ١٠ آلاف يحضرون (. . .). أما الذين سيحضرون بعد ذلك، فلا ضير في ان يعيشوا وضعا يشبه وضع سائر

المهاجرين (. . .).

ي. غرينبويم: (. . .) بدلا من زج يهود بولونيا في مثل هذا الوضع، اعتقد ان من الافضل زج يهود تركيا ويهود ليبيا. وهذا لن يكون إجحافا. عليكم ان تعلموا ان أولئك الناس هم من النخبة. فقد كان لكل عائلة منهم منزل مكوّن من ٣ ـ ٤ غرف، منزل ألماني، وأثاث ألماني، وجميع وسائل الراحة التي تتمتع بها مدينة ألمانية (. . .) يحضر أطباء من بولونيا (. . .) أَدخِلْ طبيبا كهذا الى بيت ليد، او برديس حنا، وانظر بعد ذلك ما سيفكر فيه، وكيف سيشعر في قرارة نفسه!

وتقرر تكليف ليفي اشكول، ويتسحاق غرينبويم، ومفوض دائرة الهجرة، «البحث عن وسائل» لاسكان يهود بولونيا، «بروح المقترحات التي عرضت في الجلسة.»[٨٤] *

سجلت الصحافية الاميركية روث غروبر سبقا صحافيا مثيرا في تلك السنة، اذ كان في اسرائيل سر معروف من الكثيرين، غير ان الرقابة العسكرية سمحت، كما كان شأنها في أحيان كثيرة، باذاعته بعد ان نشر في الخارج فقط. وفي ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٩، اصبح الأمر معروفا من الجميع: «اخرج عشرات الآلاف من اليهود بصورة دراماتيكية من اليمن الى عدن، ومنها أرسلوا الى اسرائيل جوا.»[٨٨] وأطلق على هذه العملية الاسم الاسطوري «البساط السحري». لقد فضل المهاجرون وصف قدومهم بتشبيه مكرائي ** : «على اجنحة النسور.» *** أقام يهود اليمن في موطنهم منذ آلاف السنين منذ عهد التوراة.

---

* كان إ. دوفكين وب. لوكر ينتسبان الى ماباي. وكان يهودا برجينسكي يمثل مابام، ومئير غروسمان يمثل التصحيحيين. وقد اصر مفوض اسرائيل في وارسو يسرائيل برزيلاي، من جانبه، على منح المهاجرين من بولونيا ظروفا خاصة. وطرحت مقترحاته في الحكومة ورفضت.[٨٥] وقد ايد دافيد بن ـ غوريون في البداية رأي غرينبويم، لكن بعد فترة معينة غير رأيه، وكتب في ذلك الحين: «لا يجوز التمييز بين مهاجر وآخر. ليس هناك سبب لمنح يهود بولونيا اية ميزة. فمن لا يرغب في الحضور، عليه ألا يحضر. ان من يهاجر الى البلد لا يقدم خدمة لشعب اسرائيل (. . .).»[٨٦] غير ان تقرير لجنة شؤون الهجرة من بولونيا تضمن سلسلة من الظروف المفضلة التي اعطيت للمهاجرين من بولونيا في المعسكرات، وفي الضواحي السكنية، وكذلك الهبات والقروض ـ وقسم منها كان من حساب الدولة. وتم ذلك كله وفقا للأمور التي تم الاتفاق عليها في جلسات المجلس التنفيذي للوكالة.[٨٧]

** مكرائي: كتاب تفسير التوراة. (المحرر)

*** دعيت روث غروبر الى الانضمام الى احدى الرحلات الجوية من اليمن كضيفة على الجوينت. وفي وقت لاحق، جرت مناقشة فيما اذا كانت هذه الدعوة «للنشر» او مجرد «خلفية». وقد نشر تقريرها في «نيويورك هيرالد تريبيون». وكان هذا ابرز خبر نشر حتى ذلك الحين، لكنه لم يكن الخبر الاول. ففي آذار/مارس، علم في اسرائيل بقدوم دفعة اولى من المهاجرين من عدن، حتى انه ذكر اسم الشركة التي اقلتهم بطائراتها من نوع «سكاي ماستر» و«ألاسكا».[٨٩] وفي ايار/مايو، أفادت وكالة الانباء، ساتا، =

وحتى بداية تهجيرهم في اطار عملية «البساط السحري»، كان يقيم في البلد [اسرائيل] بضعة آلاف من يهود اليمن، قدر يتسحاق بن تسفي عددهم سنة ١٩٤٩ بنحو ٣٥ ألفا.[٩٥] فقد وصل الأوائل منهم في ثمانينات القرن الماضي، قبيل قدوم البيلوييم* من اوروبا الشرقية.[٩٦] كذلك وصل بضعة آلاف منهم خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها. وعندما نشبت حرب الاستقلال وقامت الدولة، منعت السلطات البريطانية المتحدرين من اليمن في سن التعبئة العسكرية من مغادرة مستعمرة العرش، عدن، وكذلك الحال بالنسبة الى الذين جلوا الى قبرص. وكانت المفاوضات الخاصة بالغاء هذا المنع من المهمات الدبلوماسية الاولى التي اضطلعت بها الدولة. وبعد مضي فترة معينة، ألغي المنع فعلا. وبالاضافة الى موافقة البريطانيين، كانت هناك حاجة الى موافقة الامام ومجموعة من السلطات، حكام المحافظات داخل أراضي المحمية البريطانية. وقد اجتمع ممثل المؤتمر اليهودي العالمي ليئون كوبوفيتسكي، الى ممثل الامام في عدن، محمد جبلي، وبحث معه في هذا الامر. وقد شرح له الرجل ان منع خروج اليهود كان بتأثير الجامعة العربية. ومع ذلك ابدى اهتماما بتقدم المفاوضات في رودس. وأخيرا وعد بالسفر للاجتماع الى الامام، والتأثير فيه واقناعه. وبعد توقيع اتفاق الهدنة بين اسرائيل ومصر بوقت قصير، سمح الامام فعلا بخروج اليهود.[٩٧] وكانت موافقته هذه مفاجأة، اذ كان التوقع في القدس ان هذه الموافقة مرتبطة بالمجاعة التي اجتاحت اليمن خلال تلك الفترة، ففضل الامام ان يغادر اليهود البلد ويتركوا له أملاكهم. وبحسب المصدر نفسه، كان الملك يتخوف من تحول التفجرات ضد اليهود الى اضطرابات لا تسمح له بالاحتفاظ بزمام الحكم. وبحسب معلومات وصلت الى القدس،

= ان الامام اليمني سمح بهجرة اليهود الى اسرائيل، وسارع يتسحاق رفائيل الى الاحتجاج على هذا الخبر.[٩٠] وقبل بضعة ايام من نشر خبر غروبر، تحدثت صحيفة «تايمز» اللندنية عن الهجرة من اليمن.[٩١] وفي اي حال، لم يكن في الامكان اخفاء جماهير مهاجري اليمن عن الأنظار. ونشرت الوكالة اليهودية، لدى قدومهم، اعلانات كبيرة في الصحف طلبت فيها التبرع بالثياب، «كسوة الشتاء للمهاجرين من الشرق الاوسط.» وعلم الجميع من هم المقصودون. وقد لمّح دافيد بن ـ غوريون الى الهجرة من اليمن في خطاب بدأه في ٧ تشرين الثاني/ نوفمبر واستكمله في اليوم التالي، بعد نشر الخبر؛ وكأن رئيس الحكومة فوجىء بالنشر.[٩٢] وقد أشاد رئيس الحكومة برؤساء تحرير الصحف الذين خضعوا للرقابة. واحتجت صحيفة «هآرتس» على منع النشر.[٩٣] من جهة اخرى، احتج مبعوث الوكالة في اليمن، يوسف تسادوق، على الاخبار التي نشرتها الصحف في البلد، لأنها عرضت مهمته للخطر بحسب قوله. وكان يقصد الخبر الذي نشرته صحيفة «دافار» والذي نقلته عن راديو رام الله، وهكذا وصل، بحسب قوله، الى مسامع الامام نفسه.[٩٤]

* البيلوييم: الأحرف الاولى لعبارة «بيت يعقوب لخو فينيليخا» [يا بيت يعقوب انهضوا لنذهب (الى فلسطين).] وكانت هذه العبارة شعار منظمة شبيبة يهودية روسية اخذ اعضاؤها يهاجرون الى فلسطين منذ سنة ١٨٨٢.

عارض شقيق الامام خروج اليهود وسفرهم الى اسرائيل لاعتبارات سياسية؛ فخلال تلك الفترة وصل الى اليمن لاجئون فلسطينيون.[٩٨] لقد درّت هجرة اليهود أموالا كثيرة على السلطات. فبالاضافة الى الاملاك التي أصبحت في حيازتها، لجأت الى جباية أموال نقدية مثل: «رسوم حماية»، و«ضرائب انتقال»، و«ضرائب على الفرد»، ورشوة بسيطة، وهدايا بأنواعها.

لقد سمح السلطان العواذلي باستخدام مطار «موكيريس»، شرط ان يغادر قسم من اليهود بالسيارات، عبر المنطقة التي يحكمها السلطان الفضلي وبموافقته، كي لا يكون هذا قادرا على تحريض سائر السلاطين ضده بسبب سفر اليهود الى اسرائيل. ووصف المبعوث يوسف تسادوق السلطان بأنه شاب حكيم. وجاء في تقرير له: «لدى افتراقنا قدمت له هدايا، بينها بطانيات وسجاد تركت عنده أثرا بالغا.»[٩٩] وقد أراد شريف البحرين ان يترك داخل تخوم سلطانه نحو ٢٠٠٠ يهودي ليفي بتعاليم القرآن فيصبح حاميا لليهود. وقد قيل له ان الهجرة الى ارض ـ اسرائيل هي فريضة دينية ايضا، لكنه اصر على ابقاء بضعة رجال مسنين على الاقل. وفي بعض الاماكن، لم يسمح لليهود بالمغادرة قبل ان يعلّموا الشبان المحليين صنعتهم كصيّاغ فضة وذهب. وكان يوسف تسادوق، ابن الطائفة اليمنية ورجل مابام، يقيم في اليمن مبعوثا لدائرة يهود الشرق الاوسط في الوكالة. وكانت التقارير التي ارسلها من هناك، على ورق رسائل باللون الازرق مثل مغامرات ألف ليلة وليلة. فقد كتب مرة: «لحقت بنا بالقرب من الحدود سيارتان تحملان الهاربين. وقال لي احد السائقين، وكان يعرفني، ان الشرطة تطاردهم. فأمرت السائق، على الفور، ان يحول طريق الجيب الى تلة مكسوة بالأشجار. وقد اخفيت سيارة الجيب بفروع الأشجار، واضطجع سائقها ومساعده على مسافة معينة منها، أما انا فدخلت مغارة. وعلى الرغم من خوفي من مكان اقامتي الجديد، والتخيلات الغريبة التي ارتسمت في مخيلتي بأشكال وألوان مختلفة، فقد صمدت اربع ساعات متواصلة من دون اية حركة تقريبا... ولسوء حظي تعطل دولاب الجيب على مقربة من حدود اليمن بالضبط. وبعد جهود لقيادتها كما هي، اضطررت الى الركض حتى حدود دولة الهبوشي، حيث وجدت الشيخ السيف فطلبت منه الحماية. وبعد ان منحني الحماية، اقمت عنده حتى وصلت سيارة الجيب بعد اصلاحها، فواصلت السير حتى المعسكر، في منتصف ليل امس تقريبا. وقد استطعت هذه المرة نقل ٣٠ ليرة ذهبية لليهود...»[١٠٠]

عندما علم يهود اليمن باعلان الاستقلال، مرت بهم موجة من يقظة طوباوية شهدوا مثلها في الماضي ايضا. وقد استنتج بعضهم من خبر اقامة حكومة بن ـ غوريون ان مملكة داود قد قامت. وكان بينهم مدقعون، وبعضهم يعاني الاضطهاد والتمييز، وكان بينهم من اعتبر سفره الى اسرائيل انقاذا لحياته. لكن كان منهم من عاش في موطنه برخاء وسكينة،

مزارعون، وصياغ، وأصحاب حرف، وتجار. وفي اليمن ايضا كانت هناك ضرورة لتشجيع اليهود على المغادرة، وهناك «نظموا» حنين المسيح. وقد وزع يوسف تسادوق، بواسطة مبعوثين عرب، رسائل خلاص بين جاليات اليهود دعا أفرادها فيها الى مغادرة اماكنهم وأرشدهم الى كيفية الوصول الى عدن. وفي احدى رسائله الى القدس، حث المسؤولين عنه على ارسال المزيد من المبعوثين «موقظي النيام ومنقذي الضعفاء.»[١٠١] وخلال المراحل الاولى، أبلغ يتسحاق رفائيل المجلس التنفيذي للوكالة ان من الصعب جدا التغلب على تدفق المهاجرين، وأن مبعوثَين أدخلا الى اليمن بمخاطرة كبيرة من اجل التأثير في اليهود كيلا يذهبوا جماعات كبيرة، اذ لا يمكن تهجيرهم دفعة واحدة.[١٠٢] لكن بعد مرور عام، عندما خف التدفق، كشف رفائيل النقاب عن ان مبعوثين عربا استؤجروا «لحث» اليهود الباقين على الخروج.[١٠٣] ولم يبلغهم كيف «تم حثهم». لقد طلب مبعوث الوكالة في عدن، شلومو شميدت، الموافقة من اجل التوجه الى السلطات اليمنية بطلب اصدار امر بطرد اليهود الذين بقوا هناك.[١٠٤]

روى يوسف تسادوق في وقت لاحق: «ان منظر [طائرة] السكاي ماستر، الناصعة البياض، يبعث السرور في قلوب المهاجرين. انهم يحملقون من بعيد وعيونهم تشع بالحبور. وخلال ثماني ساعات، سيطيرون ويصلون الى البلد على «حمار المسيح الطائر». لم يتملكوا انفسهم من شدة السعادة والحماسة. فقد انتظروا هذا الوقت وصلّوا من اجله ألفي عام. وأصابتهم حظوة كبيرة، لم يحظ بها آباؤهم وأجدادهم الذين قضوا في المنفى ونفوسهم تواقة الى الخلاص.»[١٠٥] لقد شوهدوا في اشرطة الأخبار السينمائية وهم يهبطون من الطائرات، يجثون على ارض المطار ويقبلون الأرض المقدسة. «انهم جميعا مفعمون بفرحة الحضور الى البلد»، هذا ما قالته روت كليغر في تقريرها الى رئيس الحكومة.[١٠٦] ووضع الدكتور يوسف مئير، وهو طبيب اسرائيلي كان يقيم في عدن مع طبيبين آخرين، تقريرا داخليا بعد عودته وصف فيه دخول المهاجرين معسكر «غيئولا»* الانتقالي في عدن كالتالي: «... وصلت ١٥ شاحنة في داخلها ٣١٣ جسدا عاريا او شبه عار، سواء من القيظ، او مراعاة للعادة، او بسبب النقص في الثياب. يجلسون باكتظاظ، قذرين، أجسادهم ملآنة بالجروح، والوجوه تشخص بهم وتصمت. وحتى بعد إلقاء التحية كان من الصعب التحدث اليهم، سواء بسبب الاعياء ـ يقولون انهم في تجوال منذ ١٥ يوما ـ او بسبب اللامبالاة، او بسبب التفجع، او بسبب الخوف مما هم مقبلون عليه. وقد سألنا البعض عما اذا كنا من الانكليز على الرغم من اننا كنا نتكلم العبرية، وحرصنا على الاقتراب منهم. بدأ انزالهم من السيارات، الواحد تلو الآخر، بصمت وهمس وبطء وهدوء تام. حتى انك لا تكاد تسمع

* غيئولا تعني الخلاص. (المحرر)

بكاء طفل. والصورة شبيهة بقطيع من الغنم يقاد من الحقل قبيل المساء ويسير بطيئا، الرأس وراء الآخر، حتى يصل الى الحظيرة ــ هذه الأجمة المظلمة يكتظون فيها. في الليلة الاولى يحصلون على الخبز والماء والتمر؛ الليلة الاولى لقاء تاريخي بين عنصر عبري عتيق وعناصر يهودية من اوروبا والشرق الاوسط. ولا تبدو على وجوههم اية ملامح من السعادة، او اية علامة انفعال، او اية دلالة على الشعور بالخلاص وانتهاء المحن كافة. انني اقول بفظاظة: أناس لهم ملامح حيوانية ونعرف انهم يتمتعون بمستوى عال جدا من الذكاء والقدرة العقلية (. . .) .»[١٠٧]

كان معسكر «غيئولا» قد اقيم كمعسكر انتقالي من اجل ٥٠٠ شخص. وقد وجد الاطباء القادمون من اسرائيل فيه ١٢ ألفا، يفترشون رمال الصحراء، من دون خيم. وقال مئير «انهم غداة وصولهم يغسلونهم بقليل من الماء الشحيح الذي كان متيسرا في المعسكر، ثم يحصلون على قطع من الحصير ويصبحون مواطنين في المعسكر. وفي النهار يتجمعون أمام مكاتب التسجيل، والعيادة الطبية، وأماكن توزيع المؤن والثياب. أما الباقون فيتجمعون حول حجيرات صغيرة، يطهون فيها طعامهم. وفي المساء ينامون على الرمل بالآلاف، شيوخا وأطفالا(. . .)!»وقال مئير ان «الاكثر حضارة» بينهم، وهم سكان صنعاء، مزودون بطباخات الكاز. وكتب الطبيب كلمة حضارة بين شولتين. ولم يكن في المكان اي مطبخ او غرفة طعام او خدمات. وذكر مئير: «كانوا يقضون حاجاتهم داخل المعسكر او بالقرب منه.» وافترض انه لو كان هناك مراحيض لما استخدمها هؤلاء الناس. وفي بعض الاحيان، كانت تهب عاصفة رملية على المعسكر، وفي احيان اخرى كانت تهطل أمطار غزيرة، «وكان جميع اللاجئين يغرقون بالماء هم وأغراضهم.»[١٠٨] وبحسب قول الدكتور مئير، لم يكن احد يعرف بالضبط عدد المرضى الذين كانوا في المعسكر ومكان وجودهم. وذكر في تقريره: «كان بعضهم يتمكن من الوصول الى العيادة، للحصول على ضمادة او حقنة بنيسيلين. وآخرون يلفظون أنفاسهم في أماكنهم، ولا سيما المسنّون والمسنّات.» ونساء يلدن أطفالهن على الرمل، «ولا تتمكن الممرضة من الوصول إلا لقطع السرّة.» وعندما تأتي النساء الى العيادة او غرفة المرضى كن يضطجعن على الأرض مرهقات، غير مباليات، وأطفالهن بالقرب منهن، «من دون فرح ومن دون هياج.» ويموت ما بين خمسة وثمانية من كل عشرة أطفال في اليمن خلال الولادة او بعدها بقليل. وقال مئير: «هل يصدق ان الموت، في نظرهم، امر عادي ومألوف؟ ومن هنا ينبع الخطر الاكبر، انه بالنسبة اليهم لا يكفي معاينة المرضى وشفاؤهم، بل يجب البحث عنهم والعثور عليهم بين الآلاف الكثيرة.» فالموتى يدفنون في الرمال، «ولا تسمع اي نحيب»، كما قال الطبيب. *

* كان الدكتور يوسف مئير هو المدير العام لوزارة الصحة. واستنتج انه يجب نقل هؤلاء الناس الى اسرائيل =

ألحقت صدمة الاقتلاع والهجرة بهم أضرارا هائلة. فعند وصولهم الى معسكر «غيئولا»، بعد رحلة شاقة في الصحراء، كان يطلب منهم في أحيان كثيرة انتزاع ملابسهم واحراقها للقضاء على الآفات والأمراض. وكانوا يتلقون ملابس غريبة عنهم بدلا منها. وقد أُحضر قسم من هذه الملابس من اسرائيل بزي اوروبي لم يلبسوا مثله في حياتهم. وكانت بعض النساء يشعرن بأنهن عاريات عندما يرتدين الفساتين التي اعطيت لهن، اذ كن يرتدين، في مواطنهن، سراويل تحت الفساتين ملوّنة ومشدودة حتى الاقدام، للمحافظة على حشمتهن. لم تحصل بعض النساء على سراويل جديدة بدلا من تلك التي أحرقت. وعندما يقترب منهن رجل غريب، في المعسكر، كن يسارعن الى الركوع وأطراف فساتينهن تلامس الرمل، لاخفاء سيقانهن من شدة الخجل. وعندما يصل المهاجرون الى المعسكر، يقال لهم انهم لا يستطيعون الزواج من نساء صغيرات في السن، ولا يستطيعون الزواج من اكثر من امرأة واحدة، كما جرت العادة عندهم. وبحسب العرف السائد في اليمن، كانت الفتيات اليتيمات يوضعن في عهدة الامام او السلطان، فيزوجهن معيلو الجالية من يهود لانقاذهن من الدمار. وقد حاول البعض، عندما كانوا لا يزالون في عدن، ان يدخل في روعهن، دفعة واحدة، ان منزلة الامرأة في اسرائيل مساوية لمنزلة الرجل. ووجد بعض الموظفين الذين سجلوا امتعتهم الشخصية، صعوبة في فهم اسمائهم: وعلى الفور أعطيت لهم اسماء جديدة، اكثر سهولة للتسجيل.[١١١] وقبل اصعادهم الى الطائرات فصلت عنهم امتعتهم التي شملت، اضافة الى امتعة اخرى، كتب توراة قديمة، وأدوات صلاة، وحلى، ومطرّزات، وقطعا ذهبية وفضية. وعندما طلب منهم مغادرة اليمن، تم تشجيعهم على ان يأخذوا معهم «جميع الممتلكات الروحية والتاريخية الاغلى ثمنا، وكتبا من جميع الأنواع ولا سيما القديمة والمخطوطات، والملابس والحلى بأنواعها، سواء أكانت املاكا خاصة ام عامة.» وتم التأكيد لهم ان امتعتهم سترسل وراءهم بالسفينة. وقد اختفى قسم من الامتعة في الطريق، وقسم آخر وصل الى حوانيت التحف الاثرية والهدايا الخاصة بالسيّاح. وعندما زار يتسحاق بن تسفي عدن، دخل مخازن الشحن وفتح بعض الصناديق وفتشها. وقال فيما بعد ان «الهدف كان التحقق من وجود اشياء قيّمة يمكن شراؤها بعد ذلك لمعهد أبحاث جاليات اسرائيل في

= بأسرع ما يمكن. ومن المستحسن نقلهم دفعة واحدة، بمئة طائرة. وخلال تلك السنة، زار عدن أشخاص آخرون. وأمضى وزير الخارجية، موشيه شاريت، ليلة عيد الفصح في المعسكر. كما سمح لبعض الصحافيين بزيارة عدن، مثل مراسل «كول يسرائيل» [اذاعة اسرائيل]، شلومو برار، الذي وضع بعد ذلك كتابا شيقا تحدث فيه عن تنظيم الرحلات من عدن بواسطة شركة اميركية صغيرة ومغامرة.[١٠٩] وتحفظ في ملفات الوكالة [اليهودية] شكاوى قاسية عن معاملة بعض المسؤولين عن المعسكر للمهاجرين، اذ ضربوهم اكثر من مرة.[١١٠]

الشرق الاوسط التابع للجامعة، التي أرأسها، في سبيل البحث والنشر.»[١١٢] ولم يكن من الممكن التعرف على قسم من الكتب المقدسة إلا بعد وصولها. وقد وصف بعضها بأنه ملك الجالية، ووزع على الكنس في مستعمرات مهاجري اليمن.* وقد عرضت عليهم الصور التي اخذت في الطائرات خلال رحلتهم التي استغرقت ثماني ساعات من عالم الى آخر، ومن عصر الى آخر، وكانوا يلوذون بالصمت خوفا. وكتب احد الضيوف بعد ان زار معسكراتهم في البلد: «حتى لو كانت أسنانهم ستقتلع من أفواههم، لم يكونوا قادرين على المقاومة.»[١١٦]

خلال الاشهر الثمانية عشر، الواقعة ما بين ايار/مايو ١٩٤٨ وكانون الاول/ديسمبر ١٩٤٩، قدم الى اسرائيل نحو ٣٥ ألف مهاجر من اليمن. وفي السنة التالية، قدم نحو ٩ آلاف. وقد أحضرتهم ثلاث طائرات في رحلات يومية، ونفذت ما مجموعه نحو ٤٥٠ رحلة.[١١٧] ومرت الطائرات فوق البحر الاحمر والنقب. وكلفت العملية نحو ٤ ملايين من الدولارات.** وكان ذلك، في نظر بن ـ غوريون، خروجا جديدا من مصر. وقد سجل في مذكراته اليومية: «لن تؤخرهم اية مسألة اقتصادية او صعوبة مالية.»[١١٩] وقال في الكنيست: «لا نستطيع تأخير الخروج [خروج اليهود] من اليمن الى ان يصبح السيد بيغن رئيسا للحكومة»؛ ودُونت في المحاضر بين شولتين كلمة «ضحك».[١٢٠] لكنهم لم يضحكوا في الغرف المغلقة، فقد تجادلوا بشأن وتيرة الهجرة من اليمن، وفكر البعض جديا فيما اذا كان يجب احضارهم. وقال يتسحاق غرينبويم: «لماذا العمل على إلغاء المهجر في اليمن، وتهجير أناس يلحقون بنا الضرر اكثر مما يفيدوننا. وفي حال تهجير ٧٠٪ من مرضى اليمن، فاننا سنلحق الضرر بأنفسنا وبهم، ولن يجني اي منا اية فائدة. اننا نؤذيهم لأننا نجلبهم الى بيئة غريبة عنهم، وهم سيفسدون هنا. هل نستطيع تحمل هجرة ٧٠٪ مرضى؟»[١٢١]

قبل بضعة اشهر من ذلك، قال ليفي اشكول انه «لا يخشى» احضار

* اقترنت الهجرة بأعمال فساد كثيرة. وقد كشفت تفاصيل ذلك في تقارير الرقابة وفي سلسلة من التحقيقات في شأن سرقة امتعة المهاجرين وغيرها.[١١٣] وقد تنافس مبعوثو الوكالة في عدن فيما بينهم، وكانوا يدبرون المكائد الكثيرة ضد بعضهم. وهناك، في اقصى العالم، كانوا يروجون [الدعاية] لأحزابهم بين المهاجرين الذين لم يعرفوا عما كان هؤلاء يتحدثون.[١١٤] وفي احد الملفات حفظت بطاقة مرسلة من الدكتور يعقوب فاينشتاين الى شلومو شميدت، وكلاهما من اعضاء «همزراحي»، كان مكتوبا عليها: «الرجاء اعطاء الحاخام بديحي مبلغا صغيرا كمصروف جيب كل شهر.»[١١٥]

** اقترح يتسحاق رفائيل على بن ـ غوريون، في ايار/مايو ١٩٤٩، نقل يهود اليمن بالسفن الى ايلات، لأن نقل كل شخص عن طريق الجو يكلف ٨٧ دولارا، وبالسفينة ٣٠ دولارا. وسوف يبرر قدومهم الى ايلات شق الطريق الى بئر السبع. وقدر رفائيل ان تشارك الجوينت في نفقات شق الطريق. وقد وافق بن ـ غوريون على هذا الاقتراح، لكنه لم يسفر عن شيء.[١١٨]

يهود اليمن، لأنهم «عنصر كادح».[١٢٢] لكنه اجتمع في ايلول / سبتمبر الى غيورا يوسفتال كي يستشيره: «ما العمل باليمنيين؟» وبحسب قوله، لم تكن لديه اية فكرة عما يمكن تشغيلهم.[١٢٣] وبعد فترة من الوقت، قال اشكول لأقرانه انه مستعد «لتأجيل» الهجرة من عدن.[١٢٤] وقد حدث ذلك عندما قيل عن وضع معسكرات المهاجرين بأنه «مريع». فقد قال المسؤول في دائرة الاستيعاب، يهودا برجينسكي، لأعضاء المجلس التنفيذي: «لم نجهز لهم (للمهاجرين من اليمن) معسكرات ولا مساكن. ماذا افعل الآن؟ انني اقيم في هذه الأثناء سياجا من الاسلاك، واحتفظ بهم كالحيوانات في حالة من الخداع البصري.»[١٢٥] ولم يصدق اعضاء المجلس التقارير بشأن ضرورة انقاذ يهود اليمن. وقال إلياهو دوفكين: «انني لا ارى اية كارثة في ان يقيم أشخاص في عدن.» أما موشيه كول، فقد شكك في ان الانكليز يساعدون في ترحيل اليمنيين «من اجل التسبب بانهيارنا.»[١٢٦] وقد مثل يتسحاق رفائيل في هذا النقاش معارضي «التنظيم»، وقال مطمئنا أقرانه في المجلس التنفيذي للوكالة: لم يكن بين المهاجرين من اليمن مرضى كثيرون، ملمحا الى ان المرضى سيموتون في الطريق.[١٢٧]

كتبت «دافار هشفواع» انهم «سبط عجيب، اكثر أسباط اسرائيل شاعرية، وتتدفق وجوههم بالجمال العبري القديم، وقلوبهم مفعمة بالايمان الصادق والحب الشديد للأرض المقدسة.» وأضاف: «انهم جميعا صهيونيون حقا.» وأشاد بهم ايضا ناتان ألترمن مقلدا لكنتهم.[١٢٨] ويعتبر تراثهم الشعبي تراثا توراتيا. وكان بن ـ غوريون يريد [حضور] المهاجرين من اليمن، شأنهم في ذلك شأن سائر المهاجرين، لدعم الدولة وجيشها، لكنه كشف عن حساسية خارقة ازاء محنتهم، فكتب في مذكراته: «الاطفال يموتون كالذباب. علينا انقاذهم. صحيح ان نسبة الوفيات عالية هنا ايضا، لكن يوجد هنا علاج اكثر فعالية وأكثر صدقا.»[١٢٩] وبعد مضي بضعة اسابيع، قال: اذا كتب عليهم الموت فمن الافضل لهم ان يموتوا هنا.[١٣٠] وقد عادهم في المستشفيات في تل هشومير؛ «هذه احدى اكثر الصور هولا التي رأيتها في حياتي.» وقال بعد ذلك في خطاب فريد في نوعه اذ ادلى به في الكنيست، اذ كان مفعما على غير عادته بعاطفة جياشة ويهودية جدا: «اضطجع الأطفال والرضع الذين يشبهون الهياكل العظمية اكثر مما يشبهون الأحياء في جناح خصصه الجيش لأطفال اليمن. وكانوا يفتقرون الى القدرة على البكاء، ويفتقر بعضهم الى القوة لابتلاع الطعام. ويشع من عيونهم فقط نور الحياة، والعيون عيون أطفال يهود، أطفال أعزاء. ويعالجهم أطباء وممرضات يهود باخلاص، ومحبة. وفي تلك اللحظة بالذات ادركت معنى «ابتهجوا برعدة»؛ ارتعدت وتأثرت بالمنظر الرهيب والعظيم. اجل، هذه هي امتحانات المحن قبل مجيء المسيح.»[١٣١] لكن لم تكن نظرة بن ـ غوريون الى المهاجرين من اليمن قاطعة هي ايضا؛

فالى جانب الود الذي اظهره تجاههم، كان لديه احساس بالغربة والتردد والرغبة في تغييرهم. وقد كتب عن ذلك في رسالة طويلة بعث بها الى رئيس هيئة الاركان يغئيل يادين: «ان استيعاب هؤلاء القوم، من الناحيتين الثقافية والاقتصادية، اكثر سهولة من استيعاب قوم آخرين. فهم يحبون العمل، ولا يتهافتون على المدينة. وهم متمكنون من اللغة العبرية وتوراة اسرائيل (بالنسبة الى الرجال على الاقل). لكنهم يشكلون، من جهة اخرى، المشكلة الأصعب؛ اذ انهم بعيدون عنا مسافة ٢٠٠٠ عام وأكثر، ويفتقرون الى صميم المفاهيم الحضارية الاساسية الابتدائية (ناهيك بالثقافية). وهم ينظرون الى الأطفال والمرأة نظرة الرجل البدائي، اي ان قواها الجسدية خائرة. ولا يهتمون بالحاجات الصحية الاولوية. فقد ظلوا آلاف السنين يعيشون في احد اكثر المنافي ظلمة وحقارة، في نظام اكثر بدائية من اي نظام ديني واقطاعي عادي. وانتقالهم الى البلد هو ثورة لا يضاهيها ثورة في الحياة البشرية؛ انها لثورة انسانية عميقة لا سطحية مثل الثورة السياسية. ان القيم الانسانية جميعا تتغير تغيرا اساسيا.»(١٣٢)

وقد طلب بن ـ غوريون تحسين المستوى الصحي وقواعد النظافة بين مهاجري اليمن، بما في ذلك توفير الرعاية للأطفال، و«استخدام المراحيض»، وتغذية افضل، «وملابس وأحذية صحية»، وما شابه ذلك. وأراد ان يشرك الجيش الاسرائيلي في ذلك. لكنه أراد ايضا تغيير عاداتهم وثقافتهم الحياتية. وكتب: «ان الأب اليمني لا يهتم بأطفاله وعائلته كاهتمامنا نحن.» ثم اضاف: «انه غير معتاد إطعام ابنه وإشباعه قبل أن يأكل هو نفسه.» وقد زار [بن ـ غوريون] أحد الصفوف، خلال تدريس التوراة، ولاحظ ان «هذا ما كانوا يدرسونه (...) في الهند قبل اختراع الكتابة.» وأدرك ان ابناء المهاجرين اليمنيين يحفظون التلمود عن ظهر قلب، بصورة تلقائية، من دون فهمه. وكتب الى يادين: «لا يمكن الغاء ذلك بمجرد اصدار امر. يجب فهم عقلية اليمني واحترام عاداته، لكن يجب تغييرها بالحسنى والقدوة.» وبالصيغة نفسها كتب عن ان «الهوة المريعة» بين الرجال والنساء «يجب ردمها بصبر ومحبة كبيرة»، من دون المساس بمشاعرهم وعاداتهم «اكثر من اللازم.» وبعد فترة معينة قال بن ـ غوريون في الكنيست ان هدف الحكومة هو تلقين المهاجر من اليمن أنماط الحياة الاسرائيلية الى ان ينسى من اين اتى، «كما نسيتُ انني بولوني.»(١٣٣) ووزعت نشرة دائرة الهجرة في الوكالة تحذيرا جاء فيه: «علينا ألا نجعلهم ينزلون الى مستوى الحطابين وسقاة الماء وماسحي الاحذية، وانما تمكينهم من بلوغ حياة انتاجية (...) ان الطائفة اليمنية تتميز بسهولة الفهم والذكاء الفطري والاجتهاد. وهي قادرة على رفع مستواها وتطوير مستعمرات مزدهرة ذات سكان أصحاء اذا وظفنا فيها قوى كثيرة، واذا ما عرفنا كيف نرشدها، واذا ما رافق المستوطنين مدرسون وأطباء وممرضات ومرشدون يحبونهم ويساعدونهم في تلقي مفاهيم

ثقافية جديدة.»* غير ان احد المرشدين وقع باسمه الشخصي [ما يلي]: «سنظهر امام المهاجر (من اليمن) كما نحن على حقيقتنا، من دون تزييف ومن دون التخلي عن ذاتنا. واذا كان نهجنا غريبا عن [المهاجر] ومؤلما، فيجب عدم تغييره. وعلى المهاجر ان يناضل. ان مثل هذا النضال الداخلي يغني الانسان.»(١٣٤)

تم اسكان معظم مهاجري اليمن، في البداية، في اربعة معسكرات: عتليت، وهو اقدم معسكر للمهاجرين؛ وروش هعاين** الذي اقيم سنة ١٩٤٩ لاستيعاب مهاجري اليمن خاصة، وهو يحتوي على اربعة معسكرات صغيرة؛ وعين شيمر، الذي اقيم في آب/اغسطس؛ وبيت ليد (ب) الذي اقيم، لمهاجري اليمن، في ايلول/سبتمبر ١٩٤٩ بالقرب من معسكرات اخرى في بيت ليد (باردسيا). وكانت هذه المعسكرات تتكون من الخيم. في رأس العين سكنت ثماني عائلات في كل خيمة. ونصبت الخيم على الأرض، من دون ارضية اسمنت ومن دون قنوات لتصريف المياه.(١٣٥) وفي أواخر سنة ١٩٥٠، اصبح المتحدرون من اليمن اكبر طائفة بين سكان المعابر، اذ بلغت نسبتهم ٤٠٪ منهم.(١٣٦) وقبل قيام الدولة، اقيمت ثلاث مستعمرات للمتحدرين من اليمن: أليشيف (١٩٣٣)، وغيئوليم (١٩٣٦، وتم توطينها بالمهاجرين من اليمن سنة ١٩٤٥)، وغيئولي تيمان (١٩٤٧). كما اقيمت بعض الضواحي في المدن للمتحدرين من اليمن، مثل: شعرايم، وكفار مرموراك. وشكل مهاجرو «البساط السحري» ما نسبته نحو ٦,٥٪ من مجموع المهاجرين خلال الأعوام الخمسة الاولى من قيام الدولة، غير ان نسبتهم في المستعمرات الزراعية بلغت ٢٤٪.(١٣٧) ان اكثر من ٣٤ ألفا من مجموع ٤٩ ألفا جاؤوا بواسطة «البساط السحري»، وجدوا مصدر معيشتهم في الزراعة، اي ما نسبته نحو ٧٠٪ منهم. وعمل قسم منهم في الزراعة عندما كان في اليمن. واعتبر قسم آخر الزراعة جزءا من الرؤيا الطوباوية لاحياء الصحارى في الأرض المقدسة. ومنهم من عمل في الزراعة لعدم وجود أشغال اخرى، خلافا لرغبة قسم منهم. وقد اعتبروا عمالا لا يأبهون لمزاولة الأعمال الشاقة. وكان بينهم من مارس التجارة او الصياغة في المدن اليمنية: اذ ان تحويلهم الى عمال زراعيين مرهون بانخفاض منزلتهم الاجتماعية. وخلال الفترة ما بين أيار/مايو ١٩٤٩ وآب/اغسطس ١٩٥٣، اقيمت ٥٧ مستعمرة زراعية للمهاجرين من اليمن، اقيم معظمها في سنة ١٩٤٩،

* ان صورة الطلبات المختلفة، التي بعثوا بها الى السلطات والى مكاتب الشؤون الاجتماعية وغيرها، تدل على انهم حافظوا على ثقافتهم القديمة اضافة الى امور اخرى. فبعضها كان مكتوبا باليد بطريقة فنية، وبعضها الآخر كان مكتوبا بحروف تلمودية بالغة الجمال.

** هي بلدة راس العين العربية. تقع غربي جنين وتعرف باسم برطعة. وأطلق عليها اسم «راس العين» و«وادي المية» لغزارة المياه في أراضيها. (المحرر)

ولم يصمد منها سوى **٣٩** مستعمرة.[١٣٨] ان واحدة من كل ثلاث مستعمرات خاصة بمهاجري اليمن أقيمت في منطقة جبلية، كما ان قسما من المستعمرات الاخرى انشىء لهم في مناطق جغرافية وعرة.[١٣٩] وقد أنشىء قسم من هذه المستعمرات، في البداية، كقرى عمل. واستُخدم الكثيرون من المهاجرين عمالا. قالت احدى الصحف: «يعمل اليمنيون (في تمهيد الارض وزراعة الطماطم) لأن عمل عضو الكيبوتس اكثر قيمة من غيره.» وجاء في صحيفة اخرى عن العمال العرب: «يعمل المهاجرون الجدد من اليمن (في الكيبوتس)، حتى انهم يتقاضون اجور العرب لا اجور اليهود.»[١٤٠] وقد احتج عضو الكنيست زخاريا غلوسكا على هذا الامر، وعلى سلسلة طويلة من أعمال التمييز الاخرى في مجال السكن، والخدمات الدينية، والتوظيف في وزارات الحكومة، والحصول على الدعم للعائلات المتعددة الأولاد: درجوا، في ذلك الحين، على تقديم الدعم حتى الطفل الثالث. وأشار غلوسكا الى التمييز في مجال رعاية الجنود المسرحين، حتى على صعيد البرامج الاذاعية: أراد الاستماع الى المزيد من اغاني اليمن. وقال غلوسكا ان البرامج التي كانت تذاع للمستمعين اليمنيين ويعدها «خبراء اشكناز»، لا تثير سوى السخرية. وبحسب قوله انه ميز بين نوعين من المهاجرين: «النوع الاول من اهل الحسب والنسب، وهو مدلل كأنه اقتلع من على موائد الملوك، وهم يخافون على هذا النوع من اصابته، لا قدر الله، بضربة شمس شديدة الحرارة؛ والنوع الثاني مثقل بالمشكلات والعذاب، حتى انه يفتقر الى بصيص من الأمل بامكان تغير وضعه نحو الاحسن في دولة اسرائيل.»[١٤١] *

لم تواظب الصحف على المديح الذي كانت تغدقه على القادمين بواسطة «البساط السحري». وأقلعت السلطات عن ذلك ايضا. وعندما وصفت احدى الصحف «نهر المياه القذرة الذي يمر وسط المعبر»، كان رد الوكالة ان هناك «نوعا معينا» من سكان المعابر يصعب ترويضه عل ظروف صحية؛ وكان المقصود بذلك مهاجري اليمن. ومع ذلك، وعدت الوكالة ان تدأب على بناء مراحيض بالقرب من المباني السكنية لتعويد هؤلاء الناس على استخدامها.[١٤٣] وفي ايلول/سبتمبر **١٩٤٩**، عارض سكان ايفين يهودا ضم ضاحية

* لقد عرف [النوع الثاني] كيف يكافح، على الرغم من ان اتحاد اليمنيين، الذي ينتمي اليه، لم يكن قد اصبح فعالا في استيعاب المهاجرين. وأقرت لجنة الكنيست الاول علاوة مالية مقدارها **١٥** ليرة تضاف الى رواتب اعضاء الكنيست المتزوجين. وثار جدل، خلال المناقشة، بشأن ما اذا كان ذلك يسري على اعضاء الكنيست المتزوجين بامرأتين. فقد طالب غلوسكا بدفع علاوة مضاعفة لهم. وعندما قيل له ان هذا مناف للأخلاق، اوضح ان التوراة لا تمنع تعدد الزوجات، وان الطائفة اليمنية لا تعترف بالحرم الذي فرضه الحاخام غرشوم على تعدد الزوجات. وتابع غلوسكا: «اعتقد ان الامر المنافي للأخلاق هو ان تكون امرأة واحدة في المنزل، وأخريات خارجه.» وقد قُبل موقفه، فحصل اعضاء الكنيست المتزوجون امرأتين على علاوة مضاعفة على رواتبهم.[١٤٢]

اليمنيين التي قامت بالقرب من بلدتهم الى مجال سلطتها، وقد وعد وزير الداخلية بالعمل للتأثير فيهم واقناعهم بالموافقة.[١٤٤]

خلال النصف الثاني من سنة **١٩٥٣** كلف بن ـ غوريون زالمان آران، ويسرائيل يشعياهو، وقاديش لوز، دراسة الوضع في مستعمرات مهاجري اليمن، بعد مرور نحو خمسة أعوام على تأسيسها. وقد وضعوا تقريرا قالوا فيه ان الاماكن التي تجولوا فيها تبدو «جميعها» مستعمرات ستصل «عاجلا ام آجلا» الى رسوخها الزراعي. وبحسب قولهم، لم يصادفوا «مظاهر او أعمالا» من الغبن قائمة على الطائفية. وتابعوا شارحين: «ان المستوطنين من الطوائف الاشكنازية يحققون نجاحا اكبر بسبب ما يتمتعون به من المبادرة، ومن مستوى مهني، ومن قدرة على التكيف، تلك الصفات التي تمنحهم، بطريقة موضوعية، امكانات اكثر سهولة لترتيب امورهم في الداخل والخارج.» وصاغت اللجنة استنتاجاتها بحذر شديد. وأشارت في نهايتها فقط، وكأن الكلام بين شولتين، الى «حالة اليأس التي تجرف ايمانهم (المستوطنين) ايضا بالمستقبل.» وعكست الملاحظات التي سجلها اعضاء اللجنة، خلال زياراتهم للمستوطنين، حالة الفقر والعوز والاهمال التي تصل الى درجة الانحلال، ومن اسباب ذلك ان السلطات لم تساعدهم. لقد كانت مئات العائلات عاطلة عن العمل مدة طويلة، لأن العمل لم يكن متوفرا، ولأن دائرة الاستيطان التابعة للوكالة اعتقدت ان من واجب وزارة العمل الاهتمام بهم. وقد ردت وزارة العمل ان دائرة الاستيطان تتحمل مسؤولية ذلك. ولم تنفذ التنمية الزراعية وفقا للخطة، فأصبحت المنازل التي اقيمت قبل عام او عامين متصدعة. ولم تكن هناك وسائل نقل، ولم تتخذ تدابير لنقل المنتوجات الزراعية، ولم يكن المرشدون الزراعيون الذين أرسلوا لمساعدة المستوطنين على مستوى كاف من الكفاءة. ونظرا الى ان المستوطنين يفتقرون الى مصادر العيش والدخل فانهم لم يدفعوا الضرائب، وبالتالي قطعت عنهم الخدمات الطبية. كما انه لم يكن هناك اي نشاط ثقافي. ان الكثيرين من الشبان من المستوطنين هجروا اماكنهم، ولم يبق سوى الشيوخ. وقد هجر الكثيرون منهم بسبب خوفهم من المتسللين العرب الذين كانوا يأتون من وراء الحدود؛ ومن هؤلاء المتسللين سكان القرى التي شغلها الآن المهاجرون. وأكدت اللجنة «ان عبء الحراسة في المستعمرات الحدودية يقوض طاقة العمل وحالة المستوطنين النفسانية. وقد تقوضت، في نهاية الأمر، حالة الامن هناك. ويتضح ان اي تدبير مرض لا بد من ان يتم بواسطة تقديم مساعدة معينة من قوات امن الدولة.» ويتضح ان أحدا لم يعط رأيه في هذا الامر قبل ذلك.[١٤٥] وبعد مرور اكثر من عشرة أعوام، اعترفت وزارة الشؤون الاجتماعية بأن المعونات التي قدمتها الى مهاجري اليمن كانت معونات الى «متخلفين بدائيين لا حول ولا قوة لهم.» واعتبرت عاداتهم غير مقبولة، إما لأنها ضارة وإما لأنها لم تكن اوروبية. وقد مارس المرشدون ضغطا باستمرار

كي يغيروا أنماط حياتهم، وعملوا ضد السلطة الأدبية للأب والمدرس. وكان قسم من هؤلاء المرشدين ينشطون كمبعوثين لأحزابهم.* وكان لماباي محازبون يمنيون خاصون به. لكنه لم يتمكن من جذبهم الى صفوفه. وقد قال دافيد هكوهين: «ليس من السهل الوجود بين الدروز واليمنيين.» لكنه لم ير سببا للقلق فقال: «ان بن ـ غوريون، في رأيهم، هو الجهة المقررة.»(١٤٧) غير ان بن ـ غوريون كان له رأي مختلف، فقال ان اليمنيين سيعطون ليحي [احدى المنظمات الارهابية السرية] أصواتهم، وتنبأ في مذكراته بأن ذلك سيتم «بفضل غيئولا كوهين» ـ على حد تفسيره.(١٤٨) **

خلال النصف الاول من شهر نيسان/ابريل ١٩٥٠، طلب اتحاد اليمنيين من وزير الشرطة، باخور شالوم شطريت، تدخله الشخصي «نظرا الى ان الأمور تبدو لنا غريبة.» فقد روى له الاتحاد قصة رفائيل يحيى، مناظر من معسكر المهاجرين، شيمر (أ)، وهو أب لرضيع عمره خمسة اشهر. وجاء في الرسالة الى الوزير: «خلال شهر تشرى ٥٧٧٩ (١٩٤٩) مرض الرضيع ونقل من دار المهاجرين للعلاج بأمر من الطبيب. ومنذ ذلك الحين، اختفت آثار الرضيع وفشلت جميع جهود الوالد في البحث عنه حتى اليوم.» وعرض اتحاد اليمنيين ايضا تفاصيل حادثة ثانية شبيهة بالأولى: مرضت رضيعة عمرها اربعة اشهر، ونقلت من المعسكر للعلاج. ومنذ ذلك الحين، اختفت آثارها. ولم يسارع وزير الشرطة الى الرد. وبعد مضي

---

* جاء في دراسة عن معسكر المهاجرين في رأس العين، الذي تحول بعد ذلك الى مستعمرة، ان: «تقليص النشاط الاجتماعي والثقافي بالاكراه، والعمل ضد السلطة الادبية، وانعدام الفرصة الاقتصادية، والاعتماد على موظفين خارجيين، ادت كلها (. . .) الى عدوانية في المسلك وضعف جسدي. اذ ان فصل الأطفال عن عائلاتهم، بسبب المرض او الاهمال، اضعف سلطة الوالدين وعزز تعلقهم [بأطفالهم].»(١٤٦)

** عارض يسرائيل يشعياهو، وهو نشيط حزبي منضبط اصبح مع الوقت وزيرا في الحكومة ورئيسا للكنيست، هذا الرأي بشدة: «من واجبي الشخصي والعام أن أُبدّد نهائيا الأسطورة القائلة ان الايتسل هي اليمنيون، وان اليمنيين هم الايتسل. انها لخرافة، وأعتقد انها من نسج خيال شرقي (. . .) ان كل شخص يشدد في كلامه على حرف (ح) وأسمر الوجه يعتبر، لسبب ما، انه من رجال الايتسل.»(١٤٩) غير ان مجموعة من النشيطين الحزبيين، من اعضاء ماباي، كتبت في كانون الاول/ديسمبر ١٩٤٨ الى اللجنة المركزية للحزب: «لم يسبق ان شهدنا أياما كان فيها وضعنا، وضع حزب عمال ارض ـ اسرائيل، متدهورا في الشارع اليمني، في ارض ـ اسرائيل، كما هو اليوم. ان هذا الوضع هو نتيجة مباشرة للتشويه الذي أصاب نهج الحزب والهستدروت، وأنماط عملهما بين اليمنيين، وأنماط عمل هؤلاء في الحزب والهستدروت.»(١٥٠) فقد أشار تحليل نتائج انتخابات الكنيست في المستعمرات الزراعية التي يقطنها يمنيون، وكذلك في المستعمرة المدينية روش هعاين، الى دعم كبير لماباي. وقد استخلص دوف لويتن، الذي حلل النتائج، ان استيعاب المهاجرين «بواسطة العصرنة» كان فعالا للمدى القصير والمتوسط فحسب، وليس للمدى الطويل.(١٥١)

اسبوع، ارسل اليمنيون مذكرة ولم يتلقوا اي رد. وبعد مرور اسبوعين، بعثوا برسالة ثالثة: «تأكد لنا مرة اخرى، نتيجة التحريات المختلفة التي قمنا بها في دور المهاجرين في روش هعاين، ان بعض المرضى يختفون، وربما يموتون ويدفنون من دون أن يعلم أحد متى وأين. إننا نقف مشدوهين أمام هذا الوضع، حتى انه لا يوجد من يفسر لنا سير الأمور هنا.»(١٥٢) ولم يعط [وزير الشرطة] اي تفسير حقيقي على الاطلاق يزيل الشك من كل قلب؛ فقد بقيت القضية غامضة ومحزنة كما كانت في بدايتها، وهي تبعث على الحزن اكثر من جميع قضايا الهجرات الجماعية، اذ ان مئات الأطفال انتزعوا من والديهم و«اختفوا». وبعد ذلك بنحو عشرين عاما، اصبح مهاجرو اليمن قوما «لا تكاد تتعرف على أسمائهم»، على حد قول رفائيل. وأصبحت لهم الآن ولأولادهم أسماء [جديدة]. وقد سجلت أسماؤهم في المؤسسة الأمنية، وبعثت اليهم السلطات بأوامر للامتثال للخدمة الاجبارية في الجيش الاسرائيلي: ان بعض المئات من الذين تلقوا الأوامر اعتبرهم ذووهم أمواتا منذ ان فقدوا، وهم في طور الرضاعة. وهكذا اصبحت الآن هذه القصص فضيحة عامة.* وعندما طرحت هذه القضية في الكنيست، ألفت الحكومة لجنة للتحقيق فيها، «اذ باتت تطارد الدولة في صورة شائعات»، كما جاء في تقرير اللجنة.(١٥٤) وبحسب تلك الشائعات، فان أطفال المهاجرين الذين «اختفوا»، او بعضهم على الاقل، سلّموا لأشخاص في البلد وخارج البلد تبنوهم لقاء المال. وقالت اللجنة في مقدمة نتائج التحقيق، انه «لا عجب» في ان أطفالا كثيرين من مهاجري اليمن اختفوا. وقد عزت اللجنة هذا الامر الى الظروف السيئة التي كانت سائدة في معسكرات اللاجئين في عدن واسرائيل، والى حالة الأطفال الصحية المتدنية، الامر الذي اوجب فصلهم عن ذويهم وبالتالي اهمالهم التام الى درجة الفوضى التي كانت تسود تدابير رعاية المهاجرين، بما في ذلك صعوبات تسجيل اسمائهم ومتابعة مكان وجودهم.**

---

* حدث هذا بعد تحقيق نشره يوسف تسوريئيل في صحيفة «معاريف».(١٥٣)

** وجدت اللجنة صعوبة في بلورة موقفها من القضية؛ فبعد ان جزمت بأن «لا غرابة» في أن الاطفال قد اختفوا، وصفت اختفاءهم كظاهرة «مذهلة». وقالت، في الصفحة التالية من التقرير، انه نظرا الى حقيقة ان عدد المهاجرين من اليمن بلغ ٧٠ ألف شخص، فان عدد الأطفال الذين اختفوا «ليس مفاجئا». وفي هذا السياق، فضلت اللجنة ان تذكر عددا يفوق كثيرا عدد القادمين بواسطة «البساط السحري». وقد أشار دوف لويتن، من جامعة بار ـ ايلان، الى خلل اساسي في عمل اللجنة، اذ جزمت بأن الأطفال «اختفوا» نتيجة الفوضى الادارية التي سادت في تلك الايام، وهذا اعتقاد معقول. لكن عندما جزمت بأن معظم الأطفال توفي فضلت الاستناد الى شهادات وفاة ودفن، متجاهلة امكان كون سجلات الوفاة والدفن غير دقيقة، ومن المحتمل ان تكون قد زورت في ظل تلك الفوضى الادارية. ولم تفتح اللجنة القبور لتتحقق من الجثث المدفونة فيها. وفي ذلك السياق، ذكر لويتن الطفلة براخا دافيدوفيتس من كريات شمونة [الخالصة] التي توفيت سنة ١٩٥١، ودفنت من دون السماح لوالديها =

حققت اللجنة في **٣٤٢** شكوى قدمها آباء «اختفى» أطفالهم، معظمهم من اليمن، والباقي من بلاد عربية اخرى، وسجلت شكوى واحدة من بلغاريا. وقد قال الآباء ان أبناءهم أُخذوا للعلاج او للنقاهة في دور الحضانة، وعندما حضروا لأخذهم قيل لهم انهم نقلوا الى اماكن اخرى، فأخذوا يتراكضون من مؤسسة الى اخرى، يبحثون عن أطفالهم لكنهم يصطدمون في كل مكان بعراقيل بيروقراطية، حتى يئسوا وعادوا الى خيامهم، لا حول ولا قوة لهم. وبعد تحريات سرية استمرت عامين تقريبا، استطاعت اللجنة العثور على **٣١٦** شهادة وفاة، وعدد اقل من شهادات الدفن. ووجدت اللجنة اربعة مفقودين أحياء، ولم تتمكن من العثور على اثنين وعشرين منهم؛ الكثيرون منهم كانوا موجودين في حضانة روش هعاين، ولم يعثر على سجلات هذه المؤسسة. وحققت اللجنة في الشائعات القائلة ان الأطفال أرسلوا الى الخارج للتبني لكنها، بحسب ما جاء في تقريرها، «لم تتوصل الى اية نتائج.» ومع ذلك، أشارت الى ان المعلومات التي توفرت لديها بررت «ظاهريا» التحقيق خارج البلد. وقد قدمت اللجنة تقريرا بذلك الى وزيري العدل والشرطة، وأوصت باجراء تحقيق كهذا. وبعد مرور بعض الوقت، دفنت المسألة ونسيت.

بعد نحو عشرة اشهر من بدء رحلات «البساط السحري» من اليمن، علقت في شوارع تل ابيب منشورات اختتمت بسؤال احتجاج: «هل سيعتبر اخواننا اليمنيون مواطنين؟» وقد أثار المنشور قصة سالم يعقوب الجرفي، الذي قتله رجال الامن بطلق ناري خلال شجار في قاعة الطعام في المعسكر. وبعد قليل شاع ان الرجل قتل لأنه أراد مراعاة الشعائر الدينية في المعسكر. وقد حمل المنشور الذي ألصق في الشوارع توقيع «معسكر اليهود المؤمنين.»(١٥٥) وقد وجد المهاجرون من اليمن، الذين كانوا محور المواجهة بين القدامى والمهاجرين الجدد، وبين المتحدرين من أوروبا والمتحدرين من البلاد العربية، انفسهم الآن في محور المواجهة بين العلمانيين والمتدينين.

= بمشاهدة جثتها. غير انهما أصرا على اخراج الجثة من القبر، واخضاعها للتشريح، فاتضح ان الجثة كانت جثة طفلة اخرى. ولذا لم يتم ازالة الشك في ان أطفال اليمن سلموا فعلا للتبني او بيعوا في البلد او خارجه.

القِسْمُ الثّالِث

بينَ المتدَيّنين والعِلمانيّين

الفصل الأول
لكل ربه

خلال النصف الثاني من سنة ١٩٤٩، قرر ناحوم ليفين ان يأخذ على عاتقه تعليم الأطفال في معسكرات المهاجرين، على الرغم من ان تعليم الأطفال لم يكن من اختصاصه، اذ كان يتولى حتى ذلك الحين تدريس اللغة العبرية للناضجين.* ولم يعلم الدكتور باروخ بن يهودا، مدير شعبة التعليم في الوزارة، باقامة المدارس في المعسكرات. وذات يوم ـ قال مستذكرا ـ حضر شخص وأبلغه انه شاهد في المعسكر لافتة كتب عليها: مدرسة لاطفال المهاجرين. وضاق بن يهودا ذرعا، لكنه لم يعترض وقال: «سعدت بالفرصة التي أتاحت لنا الانصراف الى الشؤون الاخرى.» وفي أواخر تلك السنة، بلغ عدد الأطفال في معسكرات المهاجرين من اليمن نحو ٧٠٠٠ طفل، كانوا جميعا يتسكعون في المعسكرات من دون اي عمل، ولم يتعلموا. وقال بن يهودا: «لم يخطر على بال احد أننا ملزمون بالاعتناء بهؤلاء الناس.» وكان أطفال المعسكرات، على حد قوله، خارج نطاق مسؤوليته لأن المعسكرات كانت «منطقة مغلقة تسيطر عليها الوكالة.» وقال بن يهودا انه كان شائعا، آنذاك، اعتقاد مفاده ان المهاجر الجديد لا يبدأ حياته كاسرائيلي إلا بعد خروجه من المعسكر الانتقالي. وما دام موجودا هناك، برعاية الوكالة، بدا ان مسار هجرته مستمر، او انه لم يصل الى البلد بعد. واعترف بن يهودا: «من الجائز ان أحدا ارتكب خطأ هنا.»[٢] لقد كان مربيا قديما ذائع الصيت، ينتمي الى كلية «هيرتسليا»، واستطاع ان يسيطر خلال الاشهر الاولى بعد الاستقلال على جهاز التعليم كله، لأن زالمان شازار لم يصبح اول وزير للتربية إلا في آذار/مارس ١٩٤٩. واعتقد بن يهودا انه هو الذي يستحق هذا المنصب لا شازار، وكان يعتقد على الدوام انه لو كان عضوا في ماباي لحظي به.[٣]

---

* كان لقب هذا الرجل، كما كان هو نفسه، موضوع خلاف. فلقد درج على تعريف نفسه بأنه مدير دائرة التربية في وزارة الثقافة والتعليم. لكن في اطار الخلاف على الصلاحيات الداخلية في الوزارة، زعم البعض ان هذه الدائرة لم يكن لها وجود قط. وقد وصفته لجنة فرومكين بأنه مدير دائرة تدريس اللغة والاستيعاب الثقافي للمهاجرين.[١]

عملت دائرة ناحوم ليفين من دون تنسيق مع شعبة بن يهودا؛ فالرجلان لم يكونا على وفاق. ولم تكن الدائرة مستعدة لفتح صفوف تعليم للأطفال، اذ لم يكن العاملون فيها مؤهلين، ولم يرغبوا فيه. وكان عدد الأطفال في المعسكرات يتصاعد من يوم الى آخر، في حين طال مكوثهم في المعسكرات، وكان لا بد من ان تعتني جهة ما بتعليمهم. وقال ليفين: «اخذنا على عاتقنا هذا العبء لأننا لم نستطع مشاهدة عذاب الأطفال وآبائهم.» وقد اشتكى في رسالة بعث بها الى شازار، من ان هذا العمل الاضافي يثقل على ميزانيته، وطلب احالته على شعبة التعليم التي يديرها بن يهودا. وقد ردوا عليه بأنه على حق، غير انهم لم يسارعوا الى الاستجابة،[٤] اذ كانت لديهم هموم اخرى. ومما كان يبعث على الارتياح، ان امر [التعليم في المعسكرات] قد نُظّم موقتا، وتم تكليف [ناحوم ليفين] به، موقتا أيضا، مما مكن من اغلاق المعسكرات أمام المدرسين الذين ينتمون الى التيارات الدينية؛ اذ كان ثمة افتراض ان هؤلاء سيدخلون نفوذ الأحزاب الدينية الى المعسكرات. وكانت المدارس التي وضعت تحت اشراف شعبة بن يهودا مفتوحة لمدرسي التعليم الديني أيضا. وقد طلب معظم مهاجري اليمن منح أولادهم تعليما دينيا؛ فقد كان هذا الامر بديهيا في نظرهم، لأنهم لم يعرفوا شيئا آخر. غير ان ليفين اعتقد بطريقة مغايرة: «لديهم [ايمان] كاف بالقدس العليا وأكثر. وسجل في مذكراته: «ينبغي لنا ان نضيف اليهم القدس السفلى.»[٥] ولم يكن يقصد تجريد المهاجرين ايمانهم، وكتب: «لا مصلحة لنا في ان نشرح لهم ان الله غير موجود، ليصلّوا كما يحلو لهم.» لكن الدين ارتسم، في نظره، عنصرا مفرقا. وهو سعى لما يوحد. وعندما رسم خطوطا لتنظيم التربية في معسكرات مهاجري اليمن، وضع له هدفا «ان يدخل في ذهنهم اسس الحضارة ومعرفة العالم.» فقد قصد واقعا اسرائيليا علمانيا. وأضاف يقول: «ثمة حاجة الى اعلام سياسي لئلا يقع المهاجرون في الضلال. وكانت بعض اسس الحضارة التي أراد ان يلقّنها للمهاجرين عناصر كفر في نظرهم، غير ان ليفين الذي أنكر عليهم تراثهم، لم يشأ الاعتراف بذلك. وقد اثار الاعلام السياسي، الذي جلبه معه الى المعسكرات، حفيظة نشيطي الأحزاب الدينية، حتى ان احدهم، دافيد تسفي بينكس، حاول ان يدفع الخلافات في الرأي الى مواجهة شاملة بين المتدينين والعلمانيين، وهدد قائلا: «لنشن حربا اهلية، بالدماء الفعلية.» وتصاعدت في الجو رائحة صراع ثقافي عابقة.[٦]

كان ليفين مربيا نزيها، مفعما بالنيات الحسنة، يميل الى مماثلة الرؤيا الصهيونية ببرنامج ماباي الايديولوجي. وكان يحلم، طوال حياته، ويشاهد في حلمه «عقلية اسرائيلية» بـ«الروح الحقيقية» لدولة اسرائيل، وهي روح «حركة العمل الرائعة.» ودوّن ذلك كله في مذكراته. وقد أراد مرة ان يتكلم في ذلك، خلال محاضرة علنية ألقاها، لكنه فضل الاحتفاظ بأفكاره لنفسه. وقد احتفظت ارملته بمسودة تلك المحاضرة، التي كتب فيها ليفين السطور التالية ثم

شطبها: «يجب، أولا وقبل اي شيء، اطلاع جماهير المهاجرين حين حضورهم الى البلد، على القاعدة المشتركة (وهي) القوة الروحية التي أنشأتها أساسا، وربما وحدها، حركة العمل. وهي اليوم من نصيب المجموع ونصيب الدولة، وانتخابات الكنيست الاول تثبت ذلك. هذه هي ارادة الشعب الذي يقيم في صهيون (. . .) وعلى من لا يهتم بذلك ولا يريده، ان ينتظر حتى الانتخابات المقبلة، الكنيست الثاني، فربما حالفه الحظ (. . .).»[٧] كانت هذه روح التربية التي أشاعها ليفين عندما كان منسق الأعمال التربوية في معسكرات المهاجرين غير الشرعيين في قبرص، ومعسكرات المقتلعين الناجين من الكارثة النازية في اوروبا. وكانت هذه روح التربية التي سادت المهاجرين، اذ كان وحده تقريبا مكلفا تربيتهم لمدة عامين تقريبا.

وقد وجد بين أوراق ليفين منهاج التعليم الذي طبقه في المعسكرات: يتعلم الأطفال ثلاث ساعات في الصباح الباكر بعد الرياضة والصلاة ووجبة الافطار. ثم يتناولون وجبة الغداء ويعملون بعدها في حديقة الازهار، ويمارسون الألعاب الرياضية والنشاطات الاجتماعية المختلفة، ومنها «محادثة مع حاخام الطائفة.» وقبيل المساء، خصصت لهم ساعة واحدة للصلاة. وخصصت ست ساعات في الاسبوع لتعليم العبرية، وخمس ساعات للحساب، وأربع ساعات للتوراة، وثلاث ساعات لـ«الوطن»، اي ما مجموعه ١٨ ساعة في الاسبوع. وأضاف برنامج آخر (ثلاثون ساعة تعليم في الاسبوع) ساعتين الى تعليم التوراة، وساعة واحدة الى تعليم دروس عن «الوطن»، وساعة واحدة الى الحساب. أما باقي الساعات التي اضيفت، فانها خصصت لتدريس «تاريخ شعبنا»، والجغرافيا العامة، والأناشيد، والحرف، والرياضة. ولم تتضمن مناهج ليفين، باستثناء دروس التوراة، اية تعاليم دينية. وقيل في البرنامج انه يجب تعليم الناشئة التوراة «وفق الاسلوب التقليدي، الذي اعتادوه في الحيدر* ودراسة التلمود والتوراة.» ويتضح مما يلي ان ما قصد اليه كان غير ذلك: «يجب تقديم التوراة من ناحية العناصر الارض ـ اسرائيلية التي تهمنا في الوقت الحاضر. وبالتالي، يجب عدم الاكتفاء بتفسير النص او بشرح تاريخي بسيط، بل يجب تحويل ما يحكى ويوصف الى صورة حية عن الواقع الاسرائيلي في بلد [الطفل]، وابراز العناصر التي تلقن المعلومات عن البلد وطبيعته وكل ما فيه.» وقد تم ارشاد المدرسين الى ان يستعينوا، لهذا الغرض، بخرائط وصور.[٨] ودوّن ليفين في احدى صفحات مذكراته: «اذا تساءلت ما هي عظمة فترة النهضة من الناحية القومية، وما سرها العميق، فجوابي هو: حررنا إصحاحات التوراة من بلاغتها، وأعدنا اليها مضمونها الجوهري والفعلي: ـ ستة ايام تعمل ـ وأحببت ـ وتسير في سبيل الحق ـ وتنشد الحرية في الارض لكل قاطنيها ـ كانت هذه عناصر فلسفية حاولنا تحقيقها في الاستيطان العامل خاصة، وحركة العمل عامة.» وأصدر ليفين تعليماته الى

* الحيدر: الغرفة. وهي المدرسة الدينية الابتدائية او ما يشبه الكتّاب. (المحرر)

العاملين في دائرته بضرورة ان يضم التعليم، في الصفوف الابتدائية، معلومات عن تاريخ الصهيونية والحركة الطلائعية. وقال مؤكدا: «ينبغي لنا ان نزرع في قلوب أبناء المهاجرين حب العمل اليدوي عامة، والعمل الزراعي خاصة.» ولذا، يجب تخصيص ساعات عمل في الحديقة، وساعات اخرى للعمل الحرفي، والتطريز، والخياطة، والتجليد، والنجارة. وتضمن البرنامج ارشادات للمدرسين للاحتفال باستقبال ايام السبت بصورة دائمة، وباليوم الاول من كل شهر والأعياد، لكن في «الصفوف التوراتية» فقط التي أزمعوا على اقامتها «في بعض المعسكرات، وفق حاجات كل منها.» وقد أُرشد المدرسون الى تكريس اهتمامات خاصة بالصلوات والطقوس. وشدد البرنامج على اخضاع هذه الصفوف لأنظمة المدرسة كلها، «في كل شيء.» وأُنشئت، في نهاية الامر، صفوف توراتية قليلة.

كان ليفين رجلا نحيفا، ومتجهم الوجه قليلا، يميل شعره الى البياض ويتهدل على جانبي رأسه مثل بن ـ غوريون. ويذكره معارفه انه لم يكن يتمتع بروح الدعابة [لكنه] يجيش بالعاطفة. وهو موظف جدير، ومدرس كفيّ، ومثقف بوهيمي. ينتمي الى عائلة اشكنازية من بخارى. وما ان هاجر الى البلد سنة ١٩٢٢، عندما كان في الحادية والعشرين من العمر، حتى تمكّن من الاشتراك في مؤتمرات صهيونية مختلفة. وعمل، في البداية، عامل بناء في البلد، ثم درس في كلية المعلمين في القدس. وفي أوائل الثلاثينات، درس في جامعة برلين وأنشأ دارا ثقافية يهودية. وبعد بضعة اشهر من استيلاء النازيين على السلطة، عاد الى البلد وتولّى تنسيق النشاطات الثقافية لاتحاد مهاجري ألمانيا. ثم انضم الى دائرة التربية التابعة للفاعاد ليئومي.* وتذكره سكرتيرته، برونيا بندك، بعد مرور السنين، انه كان ينتقل في الباص من مستعمرة الى اخرى، كي يوسع شبكة الدروس المسائية لتعليم اللغة العبرية التي انشأها. وقد ادرك رؤساء البلديات والمجالس المحلية وأمناء المجالس العمالية انه لن يتركهم يرتاحون إلا بعد ان يؤسسوا صفوفا كهذه في أماكنهم. وبالطريقة نفسها، عرف كيف يلاحق أغنياء البلد بلا هوادة ليوافقوا على دعم صندوق التبرعات، «ميل لتربوت» (ملّيم للتربية): تعهد كل واحد منهم ان يخصص مليما واحدا كل يوم، وثلاثة قروش في الشهر، من اجل تمويل نشاطات دائرة التربية.(٩)

احتفظت السيدة بندك بدفترين اخضرين، دونت فيهما بدقة ملخصا للرسائل التي كتبها ليفين: لقد كدّ كثيرا حتى حصل على القروش التي وعد بها، ووضع مناهج تعليم وكتب تدريس. وفي سنة ١٩٤٩ كان بين الذين أقاموا معهد «عتسيون» في القدس، الذي يعتبر اول مدرسة من نوعها لتدريس اللغة العبرية، والتي سميت باسمه بعد وفاته.

وكما قال ليفين، فانه كان حائرا في تلقين المهاجرين الجدد، ولا سيما مهاجري اليمن،

* المجلس الوطني. (المحرر)

«روح الدولة» من دون المساس بـ «تقاليد الأجيال». وقال شارحا انه وجد تناقضا بين هذه وتلك: «ان هذه المشكلة فريدة في نوعها. كنت اعرف هؤلاء القوم من قبل، لكني تقربت منهم اكثر فأكثر بحكم عملي. انهم قوم أصيلون جدا، وربما الاكثر اصالة بين أسباط اسرائيل. يجمعون بين اليقظة والعاطفة والبراءة. لكن على الرغم من ذلك، فان سبط اليمنيين بدائي جدا، ولم ار قط بدائية كهذه. وأقول بأوضح صورة: لن تكون لديكم اية وسيلة، ولن يكون لدينا اي سبيل، ولن يكون للدولة اية طريقة سوى ربطهم بدولة اسرائيل. لا طريقة اخرى متوفرة لنا. والسؤال: ما هو الجسر الذي سنعبر بواسطته الى اليمنيين وسيعبرون هم بواسطته الينا. وانطلاقا من معرفة الامور عن كثب، اقول ان هذا الجسر هو سحر الدولة (...) وهناك لغة واحدة فقط يفهمونها ويقبلونها، حتى انها تستهويهم، وهي لغة الدولة. انهم سعيدون بقدومهم الى دولة اسرائيل. وعندما اقف امامهم ــ وفعلت ذلك اكثر من مرة ــ أمثل أمامهم والدولة على شفتي. وعندها لا اشعر بأي حاجز بيني وبينهم. اقول: ان جسر الدولة هو الجسر الوحيد الذي لم يخيب الامل، وفي امكانه ان يحول اليمنيين الى مواطني الدولة (...) وأخيرا، ارى من واجبنا وواجب الدولة عدم الابقاء على المنفي في منفاه، بل يجب جعله شريكا وفيا في الثورة الاسرائيلية الكبرى، العظيمة والرائعة التي حدثت، وتعبيراتها هي دولة اسرائيل ومشروعها.»(١٠) كان ليفين يتشاور، من حين الى آخر، مع أقرانه في كيفية الحؤول دون «اختطاف الأطفال» الى الدراسة في المؤسسات الدينية. وشغلته هذه المشكلة بما لا تقل ــ وربما تزيد بسبب حجمها ــ عن نشاط الحزب الشيوعي في المعسكرات: لم يكن [هذا الحزب] محظورا بل كان «حزبا شرعيا» ــ هكذا دون في مذكراته. وقد نسب الى المؤسسات التربوية التوراتية، في مقابل ذلك، «أهدافا تتعارض أحيانا مع مصالح الدولة.»(١١) وعندما تحدث الى مدربي الشباب عن السماح للمهاجرين بالصلاة كما يحلو لهم، كان يقصد في البداية أمرا آخر؛ انه يطرح هذه النقطة «لأنها قد تفشلنا، وبالتالي سيسلم الشباب الى من لا يرغب في ان يسلم اليه.» حتى انه فضل شطب هذه الجملة من مسودة المحاضرة.(١٢) ودوّن في مذكراته، انه يجب اخراج الشباب من اطار «هحيدر» (الصف)، ويجب فصلهم عن ذويهم؛ كان هذا هو الاساس لاقامة معسكرات خاصة بالشباب، الى جانب معسكرات المهاجرين. وشرح ليفين: ان التأثير في الفتيان اسهل من التأثير في الناضجين، ومن الاسهل حملهم على «تغيير قيمهم». وأمل بأن يتبنوا «عقلية اسرائيلية» عندما يحين وقت ذلك، وعندها يمكن تلقينها لذويهم. ومن يدري، ربما يقتلعون من افئدتهم العقائد التافهة التي حملوها معهم من الصحراء.

روى موشيه يحيئيل يتسحاق ليفي، وهو حاخام يمني كهل ومحترم، كيف تم ذلك، بمرور الايام، في معسكر عين شيمر. وكان المنسّق التربوي في ذلك المعسكر هو يحيئيل أهارون

ٱلدَّمْعْ. وذات يوم، قال ألدمع للمهاجرين انه تقرر فتح معسكر للشباب، وتذكر الحاخام بعد فترة من الزمن: «سألنا ما معنى معسكر شباب؟ فقال فتياننا في سن ما بين ١٤ و١٨ عاما. قلنا لا يجوز ان يكون الفتيان مع الفتيات. فعندما يكون أمام الدارس نزعة الشر، لا يستطيع ان يتعلم. قال: سنجري ترتيبا لفصل الفتيان عن الفتيات. لقد جمع [سكان] المعسكر كلهم وخاطبهم قائلا ان هذا سيكون معسكرا للشباب: سيصلّون في الصباح، وبعد ذلك يتناولون الطعام، ثم يحضرون لتعلم العبرية، والأرقام (الحساب) لساعتين، وبعد ذلك يذهبون الى العمل في الحقل، ثم يتعلمون سائر أساليب التقوية (الرياضية)، وبعد ذلك يصلّون صلاة الغروب، ويذهبون الى الطعام. وفي المساء، يحضرون لتعلم الأناشيد. لقد وافقوا على ذلك. فأدخلوا أبناءهم المعسكر، وقالوا ان لا مجال لفصل الفتيان عن الفتيات، إلا بعد البناء [بناء الصفوف]. وشرعوا يدرسون في غرفة واحدة: الفتيان في جانب، والفتيات في الجانب الآخر. جاء الجمهور، آباء الفتيان، الى المحكمة يصرخون: اننا لم نقبل وضعا كهذا، ان يسير أبناؤنا في ركاب تربية سيئة. حتى انهم لم يحافظوا على بقية ما اتفقنا عليه، لا توراة ولا صلاة. ذهبت الى مئير (ابن شقيقه، وهو اقدم منه في البلد وأحد المدربين في المعسكر)، وتداولت الأمر معه. فقال ان هذا غير صحيح. ذهبت فوجدتهم في غرفة واحدة. اخرج [مئير] الفتيات وطلب اليهن الحضور بعد الظهر ليتعلمن: الفتيات فقط. وقال ذوو الفتيان الذين أخذوا الى الرقص انهم لا يريدون معسكر شباب. ومعسكر الشباب قائم، لكن الكثيرين من الآباء أخرجوا الفتيان. ولم يبق سوى اليتامى.» لم يعارض [الحاخام]، حتى انه فرح عندما بدأ تصوير أفلام في المعسكر لأنهم قالوا له، كما ذكر هو، ليطلعوا الجمهور «كيف نحارب». وبعد ذلك، كشف انهم خدعوه، لأنهم أظهروا «النساء والرجال يعانق بعضهم بعضا» ــ على حد قوله. وقد أثار الرقص وتصوير الأفلام حفيظة ذوي الأطفال في المعسكرات، لا بسبب «الرذائل» التي شاهدوها فيها فحسب، بل لأنهم «يجذبون الفتيان الى السينما» ايضا. واشتكى الحاخام الاكبر في تل ابيب، ايسر يهودا اونترمان: «يأخذون الفتيان والفتيات الى الرقص، وهم يتمردون على آبائهم.» وكتب ليفين في مذكراته: فعلا، كان هذا هو المبتغى. لكن اهل المعسكر أجابوا بأن الأفلام كانت أفلام الكيرين كاييمت. وعلى حد قولهم، ان كل شيء بدأ عندما نظموا لقاء بين فتيان المعسكر وفتيان كفار فيتكين، «شبان ارض ــ اسرائيليون متعلمون ومنظمون»، على حد قول مدير المعسكر في عين شيمر وهو يردد «أناشيد ارض ــ اسرائيلية، أناشيد عمل وبطولة.» وفعلا، حضر فتيان وفتيات بسراويل قصيرة، وعلموا فتيان المعسكر الرقص. وقال المدير، يعقوب طراختنبرغ: «اذا كان الرقص رذيلة، فقد كانت هناك رذيلة.» وبدا عليه شعور بالاهانة: خدم في كتيبة العمل، ومن مثله يعرف: «بفضل الرقص وصلنا الى دولة اسرائيل.»[١٣]

ذات يوم دخل صف المدرّسة غيتا لانداو مدرب المعسكر في بئر يعقوب، ناتان ميموني، ولما كان الدرس في ذروته، استأذن في ابلاغ التلميذات أمسية رقص شعبي في النادي. وقد عارضت المدرّسة، اذ لم تكن راضية عن مناخ الحرية في النادي، ومنعت تلميذاتها من تمضية وقتهن فيه. وأصر ميموني على رأيه مؤكدا لها انه يمثل دائرة التربية، وأنه ليس ممثلا لأي حزب او تيار. لكن عبثا. ويوم السبت التالي ــ روى بعد ذلك ــ ظهر في كنيس المعسكر اثنان من نشيطي أغودات يسرائيل وحذرا المصلين من النادي. ووصفا ميموني، بحسب قوله، بأنه رجل «هشومير هتسعير» [الحارس الفتى]. وخلال ذلك الاسبوع، نظمت غيتا لانداو «حفل ابتهاج بالسبت»، خاصا بالشبان والشابات. واعتبر ميموني هذا الحفل «عملا مضادا». وبقيت القضية محفوظة في الرسائل، فزعم ميموني بعد ذلك، انه بينما كان يناقش لانداو، بحضور التلميذات، قالت المدرّسة فجأة ان تيودور هيرتسل هو، في نظرها، «عمل غريب». وبسبب هذه الملاحظة، استدعاها ناحوم ليفين للتحقيق، ودوّن ما دار بينهما:

ليفين: ان الجملة التي قيلت عن هيرتسل والتي ذكرت في شهادة ميموني، هي شكوى قاسية وخطرة ضدك. فاذا كنت تعترفين بقولها فلا علاقة بيننا ولا يمكنك العمل بين ظهرانينا. واذا كنت لا تعترفين فسنعين لجنة تحقيق.

لانداو: قلت ولن أتراجع عن رأيي، الذي هو رأي الكثيرين في دولة اسرائيل، لكنني لم اقصد القول ان هيرتسل هو عمل غريب، بل كل هذه العبادة المتعلقة بنقل عظامه هي عمل غريب.

ليفين: ان وظيفة الدولة، في مقابل وظيفة الأحزاب، هي العمل لتوحيد القلوب لا للتفرقة (...). وعليك ألا تنسي انك ممثلة الدولة في بئر يعقوب. وبالتالي، عليك العمل وفق تعليمات الدولة وروحها (...). ولا يحق لمرشد الشباب ان ينشط بين تلميذاتك من دون موافقتك [لكني] متأكد من انك لن تفلحي في عزلهن ومنعهن من الاشتراك في نشاطات الشبان العامة في المعسكر (...).

لكن، من سوء الحظ، ان كان والد غيتا لانداو حاخام بني براك،* ومنه علم الحاخام الاكبر، عوزيئيل، بالقصة فبعث برسالة الى ليفين المعذب، الذي اضطر الى التأكيد، للمرة التي لا يعرف احد رقمها، ان النادي في بئر يعقوب ومرشده لا يقومان، معاذ الله، بنشاط

(*) او بني براق. وهي مدينة صهيونية اسستها، سنة ١٩٢٤، مجموعة من الصهيونيين البولونيين في السهل الساحلي على بعد ٥ كلم شمالي شرقي تل ابيب. وأقيمت حول قلعة بناها الصليبيون لحماية مدينة يافا. وقد أنشئت هذه المدينة على أراضي قرية «الخيرية» العربية التي تعرف باسم «بن برق» أيضا. (المحرر)

معاد للدين، بل يثقفان الشبيبة بـ«ثقافة صهيونية لاحزبية.»(١٤) لكن [ليفين] لم يشق طريقه بسهولة بين «روح الدولة» و«تقاليد الاجيال».

ومع مرور الايام، روى أفيتار ليفين ان والده كان «مرتبطا بسرّته» بتقاليد اسرائيل. لم يراع الفرائض الدينية، لكن شموع السبت تشعل في دارته، وكان من مرددي الصلاة في الكنيس ليلة «كول ندري.»*(١٥) وأكد ليفين، في رسالة بعث بها الى زالمان شازار، انه ليس رجلا متدينا لكنه جزم بأن نظرته الى الدين والتقاليد هي «نظرة احترام».(١٦) وزعم ان العمل التربوي في معسكرات اليمنيين يتسم «بطابع ديني صرف.» وقال: ان نحو نصف المدرّسين الذين استخدمتهم دائرته هو من المتدينين. وقد بذلت الدائرة كل ما في وسعها لتمكين المهاجرين من تأدية الطقوس؛ فأرسلت الى المعسكرات كذا وكذا لوازم الصلاة، وكذا وكذا قصص الفصح، وكذا وكذا مواثيق استر، وما شابه ذلك.(١٧) لكن ذلك كله ادى – في رأيه – الى تعميق ما يفرق، وأضعف كل ما يوحّد. فقد آمن بأن الوحدة تكمن في العمل الرسمي الطلائعي. وتحمّل مسؤولية جسيمة، وبذل كل ما هو قادر عليه، وبفضله وحده وبفضل رجال دائرته منح أطفال المعسكر ثقافة ما، وان لم تكن للجميع، لكن للكثيرين. لكنهم تراجعوا، وان لم يكن الجميع، عن نظريته الخاصة بالعمل الطلائعي الرسمي وتمسكوا بالتقاليد. وقد وجد ليفين صعوبة في فهم ذلك.

اشتكى مهاجرون كثيرون من «الاكراه الديني»، وعمدوا الى سلسلة طويلة من الأعمال، منها ما ارتكب بسوء نية، ومنها ما تم ببراءة. وكانت هذه الاعمال، في نظرهم، تهديدا لحقهم وقدرتهم على ممارسة الفرائض الدينية بحسب عاداتهم. وكانت هذه، في الأغلب، أعمالا روتينية يومية، لا أحكاما جائرة: حدث ذلك مرة بسبب أثاث اخذ من كوخ الكنيس ونقل الى معسكر الشباب، ومرة بسبب ساعة [دراسية] كانت مخصصة للصلاة لكنها استبدلت بدرس رياضة. ومرة لأن مرشدا اخرج تلاميذه في نزهة السبت بالقرب من بستان، وعرض عليهم قطف البرتقال. ومرة بسبب خلاف نشب بين منسق النشاط التربوي والحاخام. لكن، بعيد هبوط «البساط السحري» الاول في اسرائيل، انتشرت شائعة في البلد تقول: يطلب من مهاجري اليمن لدى وصولهم الى المعسكرات الانتقالية قص سوالفهم كما يسمونها «العلامات الفارقة»، التي تدل على انهم يهود، وان من يرفض يجبرونه على قصها. وقد سارع وزير التربية، شازار، الذي تخلى هو ايضا عن اسمه السابق، روفشوف، الى الذهاب الى معسكر المهاجرين في بيت ليد كي يتفحص بنفسه حقيقة هذه الشائعة الرهيبة. وقيل له ان نحو ١٢ شابا طلب منهم ازالة سوالفهم، واضطرت بضع فتيات الى قص ضفائرهن لأسباب صحية. وقد امر طبيب المعسكر بذلك خطيا وبكلمات بسيطة: «في جميع

* احد الطقوس الدينية. (المحرر)

الحالات التي تقر فيها الممرضة وجود مرض جلدي معد، فاننا نجد انفسنا مضطرين الى قص الشعر من دون مراعاة لجميع الاعتبارات الدينية. وهذا يعني ان القص يشمل ايضا السوالف، والا لا يمكن التغلب على العدوى.»(١٨) وقدر ان ٦٠٪ من الأطفال في بعض المعسكرات، وربما اكثر، مصابون بأمراض كهذه. وقد قبل شازار هذا التفسير لكن اتضح، بعد ذلك، انه ضلل؛ اذ طبقت ازالة السوالف في بعض المعسكرات كنهج.

أثارت هذه القضية ضجة كبيرة. ومن اجل ارضاء وزراء الجبهة الدينية قررت الحكومة تعيين لجنة تحقيق. وكان بعض نتائجها موضع شك، لكن اعضاء اللجنة سمعوا، عندما زاروا معسكرات المهاجرين، قصصا تمزق القلب. فهناك قصة فتى ارسل الى صالون الحلاقة فور وصوله الى المعسكر. ويتذكر عمه ذلك فيما بعد: «جاء ليقص شعره، وقال انه يريد قص شعره لا سوالفه. وقيل له انت لست بحاجة الى سالفين فجرى قصهما من دون استئذانه، وكان [الفتى] يبكي.» وروى شاب آخر، رفض الافصاح عن اسمه خوفا من التعرض له، كيف انهم أزالوا له سالفيه بالقوة: «واحد امسك بي، والآخر قصهما.» وشهد شاؤول شرعبي، من معسكر الشباب في بيت ليد: «... ذهبت المرشدة الى المعسكر (ب)، وأحضرت معها حلاقا وقالت: احلق للأولاد. قلت ما عدا السالفين، فقالت: لا حاجة بأرض – اسرائيل الى سوالف. وتركوا لنا ضفيرة صغيرة حول الرأس. لم أر آفات وأمراضا (...) قلت هذا ممنوع، فقالت هذا مسموح.» وروى سعاديا يهودا أبراهام، التلميذ في صف المرشدة تسيبورا زهافي، قائلا: «احضرت تسيبورا حلاقا من المعسكر (ب) وقالت: على كل من يريد الذهاب في نزهة ان يقص سالفيه. وقصوا سوالف خمسة أولاد. أما أنا فلم يكن عندي شعر، ولم يقصوا لي سوى السالفين. وقالت لي تسيبورا: اذا لم تقص فسأطردك (...).»(١٩) واعترفت زهافي بأنها أحضرت الحلاق، لكنها زعمت انها فعلت ذلك لأسباب صحية. وردا على سؤال اكدت ان الأطفال لم يعرضوا على طبيب او ممرضة لفحصهم. وزعمت المرشدة انها لم تهدد الأطفال، ولم تحاول اقناعهم والتأثير فيهم كي يحلقوا. كما ان مرشدين آخرين أنكروا ذلك. غير ان لجنة فرومكين استمعت الى الكثيرين من الشبان الذين قالوا جميعا ان سوالفهم حلقت من دون رغبتهم. وقد سمعوا في احدى مؤسسات الأطفال يضيفون الى بَرَكة الطعام جملة من عندهم: «فليعاقب الرحمن تسيبورا.» ويبدو ان صلاتهم استجيبت؛ ففي أعقاب نشر نتائج اللجنة اقيلت زهافي من عملها.

عيّن بن – غوريون، قبل نشر استنتاجات لجنة فرومكين، لجنة تحقيق جديدة، من اجل بت شكاوى وصلت اليه من مستعمرة عمقة في الجليل الغربي. وكانت هذه المستعمرة قد أقيمت قبل بضعة اشهر من ذلك التاريخ، لمهاجري اليمن. وقد احتجوا [السكان] على منع دخول مدرسين متدينين الى المستعمرة، وحاولوا طرد من فيها، وشاغبوا على دروس

التوراة في المستعمرة. ومن الوسائل التي استخدموها، القيام بتمرين وهمي على الاستنفار مصحوب باطلاق عيارات نارية، وغير ذلك. وتصدرت هذه القضية عناوين الصحف، حتى ان الكنيست بحث فيها. وقد برر المشرف الرئيسي على العاملين، يعقوب هلبرين، ما جرى في المستعمرة بأنه كان متفرعا من حركة المستعمرات التي يسيطر عليها ماباي، وكتب: «ان كل انحراف عن خط المنظمة يدمر حياة المستعمرة ويعرقل مسيرة حياتها العامة والثقافية.»[٢٠] وبعد مرور عام تقريبا، شكلت لجنة تحقيق ثالثة من الوزيرين ي. م. ليفين، وغولدا مئير. واستمع الاثنان الى شكاوى عن مسلك بعض رجال الجيش الذين أرسلوا لمساعدة اليمنيين في معسكر جسير. وأفاد بعض الشهادات: «(...) في اليوم الاول لقدوم الجيش، توجه الي الطبيب قائلا انه اصدر تعليمات بقص جميع اللحى والسوالف بسبب القمل (...). وفي اليوم الثالث، كان هنا العقيد كفرشتيك وقال لي انه سيرسل الينا مدرسا. فقلت له اننا ننتمي الى التيار التربوي الخاص بأغودات يسرائيل. وردّ علي بقوله انه لا يعترف بذلك، فالجيش يسيطر هنا وليس في الجيش تيارات (...) وقد استدعى الجنود النساء الى غرفة خلع الثياب، ونزع احدهم ثيابهن فأصبحن عاريات وباكيات. ثم رشوهن (بمادة د. د. ت.) (...) يقول الضابط الكبير: كم من الأولاد عندكم؟ عند كل واحد أربعة، او خمسة أبناء. انكم لستم بحاجة الى الكثير من الأولاد. قلنا ما العمل في ذهابنا الى النساء اللواتي يحملن ويلدن الأطفال. قال: اقذفوا المني على الارض. قلنا هذا لا يجوز. قال: قولوا للجمعية الاستهلاكية كي تصنع لكم اغطية مطاطية واقية. قلنا هذا لا يجوز. قال: انتم مجبرون على القيام بذلك. قلنا: كان لدى ابينا يعقوب اثنا عشر سبطا. قال: هل انتم مثل ابينا يعقوب الذي كان عنده أملاك وفيرة؟ فأنتم لا تملكون ما تعتاشون منه. لا حاجة بكم الى الكثير من الاولاد. قلنا لم يكن الطوفان إلا من اجل القضاء على النسل (...).»* وأقر ناحوم ليفين، لدى مثوله امام لجنة فرومكين، بأن بين المتدينين والعلمانيين في المعسكرات «ضغينة اخوة»، لكنه زعم ان مصدرها يرجع الى «شر الانقسام» الذي روّجه بين المهاجرين «محرضون ودعاويون دينيون معادون للصهيونية» ــ وكان يعني رجال أغودات يسرائيل.[٢٣] ولقد بلغ الغليان في المعسكرات شأوه عندما اعتقلت شرطة المعسكر في عين شيمر شابين من المدرسة الدينية من

* اكدت غولدا مئير الى الشهود الذين مثلوا امام اللجنة، ان الحكومة ستدافع عنهم [المهاجرين] في وجه المساس بمشاعرهم الدينية، لكنها لم تمتنع عن التقدير بأنهم اذا حافظوا على نظافتهم فلن تكون هناك ضرورة لحلق ذقونهم وقص سوالفهم: «حتى بحسب التوراة، اذا اردتم الحفاظ عليها، فعليكم ان تكونوا نظيفين.»[٢١] كما احتج سكان رأس العين على عدم وجود حوض ماء في محلتهم. وأمرت ادارة المعسكر بارسال النساء الى حوض في بيتح تكفا. غير ان النساء امتنعن عن الاغتسال بسبب احتشامهن وتجنب السفر معا في باص. ونتيجة ذلك، بقي الرجال مفصولين عن نسائهم.[٢٢]

بني براك يوزعان منشورا على المهاجرين. ومما جاء فيه: «يريدون انتزاع الايمان من قلوبكم، [وحرمانكم] من ممارسة الفرائض. يريدون ابعاد أولادكم الأبرياء والأنقياء، وتثقيفهم بتدنيس السبت، وتعويدهم اكل الطعام المحرم، وعدم ممارسة الصلاة، وعدم اعتمار القلانس.» ودعا المنشور الى انتخاب لجنة في كل معسكر من اجل المحافظة على الدين، ووعد: «ان يقف الى جانبكم عشرات الألوف من اليهود المؤمنين، ولا تبيعوا روحكم لقاء رغيف من الخبز.» وقد اعتبر المقدّم أهارون حيتر ــ ييشي وهو رجل قضاء، والعقيد نحميا أرغوف سكرتير رئيس الحكومة العسكري، هذه الجمل «دعوة الى التمرد.» وأوفد بن ــ غوريون هذين الرجلين الى معسكر عين شيمر في اثر حادثة عنف وقعت في ١٤ شباط/فبراير ١٩٥٠. ونحو الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر اليوم نفسه، ظهر رجلان من بني براك وتجولا بين المهاجرين. وطلب مدير المعسكر منهما التعريف عن نفسيهما. وعندما رفضا، استدعى شرطيا. وفي تقرير رفعاه الى بن ــ غوريون عرض حيتر ــ ييشي وأرغوف ما حدث على النحو التالي: بينما كان الشرطي يحقق مع الغريبيْن في مكتب المدير، تجمع في المكان جمهور غاضب هتف مطالبا باطلاق «الحاخاميْن». وأبلغ الموفديْن بن ــ غوريون انه تجمهر عند مدخل الكوخ نحو خمسين او ستين شخصا، في حين ان وزير الشرطة، باخور شالوم شطريت، أبلغ الكنيست انهم كانوا نحو ١٠٠٠ شخص.[٢٤] وفي اية حال، كان الصخب يزداد لحظة بعد اخرى. وباءت جهود الشرطي، والمدير، وأحد كهول الطائفة، وحتى جهود احد الشابين من تلاميذ المدرسة الدينية لتهدئة الأجواء، بالفشل. وصلى الشابان صلاة العصر، وهما واقفان عند مدخل المكتب. وقد ساهمت صلاتهما في تهدئة الجمهور، لكن عندما اوشكت الصلاة على نهايتها تجدد الهياج. وراح بعض الأشخاص يقذف المكتب بالحجارة. وخرج زعيم الطائفة الكهل، موشيه يحيئيل يتسحاق ليفي، الى المدخل مهدئا الجمهور. لكنهم قذفوه، بدوره، بالحجارة، ولم ينج إلا بعد ان سحبه المدير الى الداخل، وقد اصيب المدير نفسه بحجر في جبينه. وكذلك رُجم رجال الشرطة الثلاثة التابعون للمعسكر، وأصيب احدهم برأسه. وقد استمر الاضطراب وقتا طويلا. وعندما راح المتظاهرون الهائجون يقتلعون قضبان الحديد من داخل مشاتل ١٥ شباط [يوم التشجير، وهو التاريخ العبري] وصل رجال الشرطة وفرقوهم بالقوة، وأطلقوا الرصاص في الهواء.

قدم الضابطان اللذان أرسلهما بن ــ غوريون الى معسكر عين شيمر تقريرا لدى عودتهما، قالا فيه انهما أبلغا المهاجرين، باسم [بن ــ غوريون]، ما يلي: «أ ــ ان كل شخص في دولة اسرائيل حر في ان يختار لنفسه نمط حياته، ويربي أولاده وفق نهجه. ب ــ لن تتحمل دولة اسرائيل أعمال العنف، وكل محاولة لحل المشكلات الاجتماعية وغيرها، بالاستفزازات او بخرق النظام، سيقضى عليها.» ويعبر المحضر الذي سجل خلال هذا

الاجتماع عن أقوال الضابطين بالكلمات التالية: «ان لبن ـ غوريون نظرة خاصة اليكم، أنتم معشر اليمنيين (. . .)، ولن ينهي مهمته إلا بعد ان يحضر كل يهودي يمني الى البلد (. . .) اننا جميعا يهود. (. . .) وليُرَبّ كل واحد أولاده كما يشاء، وفق أساليب التوراة والتقاليد (. . .) ولا يجوز قتل اليهود (. . .). وقال بن ـ غوريون ان من يرفع يده [ضد الآخرين]، سيذهب الى السجن، وأنتم يا عقلاء الطائفة، ستكونون مسؤولين.» وأراد عقلاء الطائفة ان يرسلوا الى بن ـ غوريون «سلاما وتحيات»، ووعدوا قائلين: «سنستجيب لرغبته.»[٢٥] * غير ان الغليان في المعسكر لم يهدأ، وامتد الى معسكر بيت ليد والى المعسكرات الاخرى، وانتقل من المعسكرات الى السياسة، وكان صراعا على تطويع المهاجرين اجتماعيا للانخراط في العمل السياسي: سعى ماباي وراءهم، وكذلك الأحزاب الدينية. وقال زالمان آران: «عندما نقول انه يجب المحافظة على التربية الدينية، ومراعاة الطقوس الدينية في الطعام، واحترام السبت. . . الخ، فهذا لا يعني انه يجب اسناد معالجة التربية الى أشخاص دينيين، اذ اننا عندما نسند ذلك الى أشخاص دينيين (. . .) فانه يتحول الى احتكار سياسي. وهناك شائعات تقول ان الحكومة تسير في طريق تسليم هذا الامر الى ايد دينية فقط. ان الحزب لا يستطيع قبول هذا الاجراء.»[٢٨] واعتقد يتسحاق رفائيل، احد نشيطي هبوعيل همزراحي، ان الصراع سيقرر مستقبل الأحزاب الدينية السياسي: «اذا خسرنا هذه المعركة ـ لا قدر الله ـ واذا لم تحدث معجزات، فسنضيع جميعا.»[٢٩] واذا لم يتعاون المهاجرون انفسهم في ذلك كله، فان الافتراض هو انهم لا يفهمون مغزى الأمور.

توصلت الأحزاب في المنظمة الصهيونية، خلال الثلاثينات، الى تسوية بشأن توزيع تصاريح الهجرة وفق دليل حزبي متفق عليه؛ فقد حصل كل حزب على كمية معينة من «الشهادات» كي يجلب بواسطتها مهاجرين اعتقد انهم من أنصاره. وبالطريقة نفسها وزعوا، وفق دليل حزبي، موارد الاستيعاب والاستيطان.

وقد وضعت «اتفاقات الدليل» الأساس للتعاون الائتلافي بين ماباي وهمزراحي بأشكال التعاون كلها، «في حلف تاريخي»، بقي قائما ومتواصلا طوال سير الصراع بشأن اقامة الدولة، وخلال السنوات الاثنتين والثلاثين الاولى لوجودها حتى الانقلاب السياسي سنة **١٩٧٧**. وفي سنة **١٩٤٣**، تعطلت «طريقة الدليل»؛ فخلال تلك السنة وصل عن طريق طهران نحو ألف

* سارع بن ـ غوريون، في ضوء التقرير الذي رفعه اليه الضابطان، قبل بضعة اشهر من إنهاء لجنة فرومكين أعمالها، الى الكتابة الى الوزيرين ميمون وليفين: «اتضح لي ان لا اساس لروايات الاغتصاب والاكراه وقص السوالف (. . .).»[٢٦] كما كتب الى السيدة براخا تدهار، وهي مرشدة في معسكر رأس العين. وقد ابلغه الضابطان اللذان ارسلهما الى المعسكر، على حد قوله «بحماسة وضجر»، أعمالها الجيدة في المعسكر. وكتب اليها رئيس الحكومة ليشكرها على هذا «العمل المبارك.»[٢٧]

طفل تم انقاذهم من أهوال الكارثة النازية في عملية انقاذ دراماتيكية من دون اتفاق مسبق على تعيين المؤسسات التي تتولى تربيتهم. وقد التف نشيطو التيارات المختلفة، الدينية والعلمانية، حول الاطفال لدى وصولهم وتنازعوهم من يد الى اخرى، ومن تيار الى آخر. وكان التنافس على أطفال طهران باكورة الخلاف على التربية في معسكرات المهاجرين. كما ان الهجرات الجماعية التي تمت من دون شهادات، عطلت اتفاقات الدليل، وتركت المهاجرين عرضة للتنافس العنيف بين نشيطي الأحزاب والتيارات.

كان جهاز التربية الاسرائيلي موزعا على اربعة تيارات حزبية، تبلورت بالتدريج خلال جيل. وكان تياران منها علمانيين، تعلم في مدارسهما خلال السنة الدراسية **١٩٤٩** نحو **٧٥**٪ من مجموع التلاميذ، والآخران دينيين. وقد عكس هذا التوزيع المكانة الخاصة للأحزاب؛ اذ ادخلت نفوذها في كل مجال من مجالات الحياة تقريبا، كما عكس قوة التوتر الايديولوجي الذي كان سائدا في البلد آنذاك. وحتى اقامة الدولة، كان الناس متعلقين بالأحزاب للحصول على خدمات كثيرة لم يرغبوا، او لم يستطيعوا الحصول عليها من السلطات. ولذا حصلوا على الأشغال من مكاتب العمل الحزبية، وعلى العلاج الطبي من صناديق المرضى الحزبية، وعلى السكن من شركات بناء أقامتها الأحزاب او انشئت في اطار الحركات الاستيطانية التابعة لها. وكانت الأحزاب تملك مشاريع صناعية وصحفا يومية. وكانت عندها شبكات تسويق، ودور نشر، وتعاونيات للنقل، وفرق مسرحية، ومصارف، وفرق كرة قدم، وحركات شبيبة، ونواد للكهول، ومنظمات نسائية. وحتى اقامة الدولة، كانت لهذه الأحزاب منظمات عسكرية. وكانت التربية، ايضا، احدى الخدمات التي كانت الأحزاب توفرها لأعضائها، كأداة للمحافظة على صلتها بهم، ووسيلة لنقل معتقداتها الى الجيل التالي من أنصارها. وكانت تدرس في مدارس كثيرة، اذن، المواد التي أرادت الأحزاب تدريسها. وكان جهاز التربية متعددا جدا، ومتنوعا كثيرا. وكان كل تيار متنوعا في داخله ايضا. ففي مدارس التيار العمومي كان التلاميذ يتعلمون السير في نهج أحزاب المركز الليبرالية، وبينها الصهيونيون العموميون، او السير في نهج أحزاب اليمين التصحيحي، ومنها حركة حيروت لاحقا. وكان هذا التيار خاضعا رسميا للوكالة اليهودية التي موّلت نفقاته. وفي مدارس التيار العمالي، تعلم التلاميذ اعتناق نهج ماباي ومابام، وهنا وهناك نهج الحزب الشيوعي. وكان هذا التيار خاضعا للهستدروت. وكان احد التيارين الدينيين مرتبطا بحركة همزراحي، والثاني بأغودات يسرائيل.

نشأ تيار التربية العمومي خلال «حرب اللغات»، التي وقعت في البلد ابتداء من سنة **١٩١٣**، ووضع البنية التحتية للتربية العبرية الحديثة.[٣٠] وقد وضع له قادته منحى يلائم حاجات جميع أبناء الييشوف وأمانيهم، «مصنع ينتج روح الامة» بروح القومية الليبرالية التي

راحت ابتداء من نهاية القرن السابق تنتشر في أوساط الطبقة المتوسطة في اوروبا. وقد تميز التيار العمومي بأنه ينمي «قدسية الصهيونية، وقدسية التطلع الى تربية موحدة» في مواجهة التيارات المتنافسة التي دعت الى «قدسية الدين وقدسية الرؤيا الاجتماعية.» وكان يتعلم في مدارس التيار العمومي، خلال السنة الدراسية ١٩٤٨/١٩٤٩، نحو ٤٠٪ من مجموع التلاميذ. كما تعلم فيها، في السنة السابقة، نحو ٥٠٪. وكانت روح التعليم تختلف من مدرسة الى اخرى، وتتغير احيانا من صف الى آخر. وكان قسم من الآباء، والكثيرون من المدرسين، أعضاء في الهستدروت. لكن التلميذ الذي يتعلم في هذا التيار كان، في الأغلب، ابن موظف او ابن مدرّس او ابن تاجر او ابن صاحب مهنة. أما اذا كان يعيش في احدى المستعمرات فقد كان ابن فلاح، يقرأ والداه صحيفة «هبوكر».* ومن الجائز انهما يقرآن صحيفة «هآرتس»، او انهما اشتريا لابنهما صحيفة «هآرتس شلانو» [بلادنا]. واذا انتمى التلميذ الى احدى حركات الشبيبة فلا بد من ان تكون، بطبيعة الحال، حركة كشفية. ومع مرور الايام، عندما ينتقل الى مدرسة ثانوية، سيكون من أوائل تلاميذ جيله الذين سيتعاطون التدخين، ويرتدون القمصان المرقطة، ويخرجون لتمضية الوقت في «حفلات الصالونات» كما كانت توصف آنذاك، حيث يرقصون «رقصات الصالونات». ويخرج مع أقرانه من التلاميذ للمتعة مع الفتيات.

وكان مألوفا في هذا التيار ان يخاطب التلميذ مربـي صفه بـ «ايها المعلم» او «معلمي»، ومن الجائز ان يخاطبه باسم عائلته مسبوقا بـ «ادون» او «مار» [سيد، او جناب]. ويذكرونه في غيابه باسم عائلته فقط. وكان يتناهى الى سمع المعلم طرائق التدريس المبتكرة التي طبقت في مدارس التيار العمالي، لكن لم يكن يميل الى تطبيقها في صفه، بل يطلب احترامه كمدرس ولا يتوقع ان يحبوه كصديق. وكانت حصته محاضرة مرتجلة، ولم يشجع تلاميذه على العمل الذاتي، باستثناء الدروس المنزلية التي يكلفهم إياها. فهو يطلب منهم حفظ أمثولتهم، ولا يحب الاسئلة الانتقادية. وكان يحرص على تعليم تلاميذه المواظبة والاجتهاد، والانضباط والتوفير، والنظام والطاعة، واحترام الام والأب، والانصياع للقانون وحب الوطن؛ فقد كان وطنيا جدا في آرائه.

أما في مدارس التيار العمالي، فقد كان التلاميذ يخاطبون أساتذتهم بأسمائهم الاولى، وفي بعض الأحيان بألقاب التودد. وكان التيار العمالي هو الاكثر ابتكارا، اذ تطور ابتداء من العشرينات، وعكس التطلع الى مجتمع جديد قائم على العمل العبري من دون استغلال، وعلى المساواة الطبقية والمساعدة المتبادلة. وكان مدرسو هذا التيار يستمدون استلهامهم التعليمي من مبادىء التربية المتبعة في الاتحاد السوفياتي، ومن أساليب التربية المبتكرة التي

* صحيفة ناطقة باسم الصهيونيين العموميين آنذاك. (المحرر)

كانت تطبق في ذلك الحين في الولايات المتحدة. فالعمل الجسدي، ولا سيما العمل الزراعي، كان يعتبر في التيار العمالي قيمة خلقية واجتماعية وشخصية، على نهج أ. د. غوردون، لكن «دور التربية» التابعة لهذا التيار كانت موجودة في المدن ايضا. وخلال السنة الدراسية ١٩٤٨/١٩٤٩، تعلم في مدارس التيار العمالي نحو ٣٠٪ من مجموع التلاميذ، وكانت نسبتهم تزداد سنة بعد اخرى. فقد كانوا يحصلون من اساتذتهم على وعي طبقي: اعتبرت «الوحدة الوطنية» التي دعا اليها التيار العمومي هنا خدعة هدفها فرض سيطرة «الروح البورجوازية» على الطبقة العمالية من اجل حرمانها من «الكفاح لتحريرها.»

نقل التدريس في مدارس التيار العمالي مركز الثقل من المعلم الى التلميذ. ولم تكن الدروس مقتصرة على محاضرات المدرس، بل كان التشديد ـ بدلا منها ـ مقتصرا على القاء التلاميذ أنفسهم محاضرات، وعلى «تركيب جمل»، و«مشاريع» و«منتديات» وأعمال كتابية. وذلك كله في اطار «موضوعات» محددة. وخصص لكل موضوع وقت معين. وكانت المدرسة تشجع التلاميذ على الالتحاق بـ «جمعية الأولاد»، التي منحتها المدرسة مقدارا كبيرا من الاستقلال الذاتي في تحديد أعمالها اليومية، ولا سيما في الكيبوتسات والمدارس الداخلية. وكانت المدارس تشجع التلاميذ على الالتحاق بحركات الشبيبة التابعة لحزبـي ماباي ومابام، وتشجع حركات الشبيبة على المشاركة في أعمال المدرسة. تكلموا [التلاميذ] في موضوع التمييز ضد الزنوج في اميركا، وأنشدوا أناشيد شعبية روسية، ونظروا الى الموسيقى ورقصات «الصالونات» كأعمال مفسدة ومسيئة الى الاخلاق. وفي كل صباح، كان تلاميذ مدارس التيار العمومي يتجمعون في الساحات لتكريم رفع علم الدولة، وتلاميذ المدارس الدينية يؤدون صلاة الصباح، وتلاميذ مدارس التيار العمالي ينشدون نشيد الهستدروت الذي تقول لازمته: «تقول روت/ هستدروت/ هـ ـهسـ ـتد ـروت!!!.» وفي الاول من ايار/مايو، كانوا يرفعون أعلاما حمراء، وينشدون نشيد «الانترناسيونال». وحملت هذه الممارسة وزراء الصهيونيين العموميين، سنة ١٩٥٣، على الانسحاب من الحكومة موقتا. وقد أكثر المعلمون في التيار العمالي من الحديث مع التلاميذ عن القضايا السياسية التي كانت تطرح في الأخبار، ودرجوا على ان يربطوا بالأحداث اليومية مواد التدريس، وبينها تعليم التوراة أيضا.

في سنة ١٩٢٠، قرر المجلس التنفيذي الصهيوني، الذي اجتمع في لندن، ان يعهد بالتربية الدينية العبرية الى همزراحي. وكانت مدارس همزراحي تكثر من اعطاء الدروس الدينية وتربي في التلاميذ حرصهم على المحافظة على الفرائض. وتعلم الفتيان والفتيات في [مدارس] منفصلة. وكان الفتيان يعتمرون قلانس سوداء او قبعات حريرية [كتب عليها] «ولد ـ طيب ـ القدس»: لم تكن القبعات المطرزة معروفة آنذاك. وكانت أساليب التعليم محافظة جدا، وتتوخى الانضباط، وفي بعض المدارس بطريقة العقاب ضربا. وقد استشهد

يعقوب حزان، احد قادة مابام، بكتاب تعليم ديني لا يكشف لقرائه ان اصل الانسان قرد. غير ان بعض مدارس همزراحي انفتح على التأثيرات الخارجية، وأخذ مع الوقت يعطي دروسا مشتركة للبنين والبنات، لأن آباء التلاميذ في هذا التيار اعتبروا ما اطلق عليه لاحقا «متدينون عصريون»، متميزين عن الجمهور المتدين. ولأنهم ينتمون، بحسب نشأتهم الاجتماعية، الى آباء التلاميذ في التيار العمومي، أرادوا ان يلقّنوا أبناءهم شيئا مما تعلموه هناك بتردد وتحفظ شديد في البداية. لكن بالمقدار الذي يميزهم بصورة متزايدة عن تلاميذ مدارس أغودات يسرائيل. كما اختلفت مدارس همزراحي بعضها عن بعض؛ فقد كان بعضها يضـمّن مناهج التعليم موضوعات دراسية عامة اكثر من المدارس الاخرى. لكنها، جميعها، تعلم بالعبرية وتثقف التلاميذ بروح صهيونية. وفي سنة ١٩٤٩، كان يتعلم في [مدارس] تيار همزراحي نحو ٢٠ ٪ من أبناء اسرائيل، وكانت نسبتهم تتضاءل سنة بعد اخرى.

حرصت مدارس أغودات يسرائيل على انغلاقها، في محاولة للمحافظة على نمط حياة اليشوف القديم في البلد، وواقع البلدة اليهودية في اوروبا الشرقية. وكانت هناك فوارق بين مدارس أغودات يسرائيل ومدارس بوعالي أغودات يسرائيل. بيد ان هذه وتلك خصصت مناهج التعليم للموضوعات الدينية، وضمنتها القليل من الموضوعات العامة، مثل الكتابة والرياضيات. وكان أطفال الحيدر وأولاد التلمود والتوراة يرتدون سراويل سوداء كآبائهم، والفتيات يرتدين التنانير الطويلة لتغطية ركبهن كأمهاتهن، وكن يتعلمن الصلاة والخياطة. وكانت الدروس تعطى عادة بلغة الايديش، ويثقف التلاميذ بأن الحركة الصهيونية حركة ارتداد وكفر. وبعد اقامة الدولة، اصبحت المدارس المتديّنة تيارا تربويا معترفا به. فقد كان يتعلم نحو ٥ ٪ من أطفال اسرائيل، سنة ١٩٤٩، في [مدارس] تيار التربية التابع لأغودات يسرائيل. وارتفعت نسبتهم رويدا رويدا، وتضاعفت مع مرور السنين على حساب همزراحي كما يبدو.

كان معظم التلاميذ في [مدارس] التيارين العلمانيين الكبيرين، بنينا وبنات، من آباء غير دينيين. ولم يكن لدى معظم المدرسين في هذين التيارين ميل الى غرس مشاعر معادية للدين في نفوس التلاميذ، غير ان هؤلاء لم يربوا على المحافظة على الفرائض. لكنهم حرصوا في التيار العمومي، حقا، على تقريب التلميذ من التراث الوطني اليهودي، في حين كانت التوراة في مركز الصدارة. لكن جرى تقليص تعليم التوراة شفهيا حتى الحد الادنى. ولم تتضمن المناهج الصلوات والدروس الدينية الاخرى، كما ان القيمين على التيار العمالي لم يتنكروا للتراث اليهودي، لكنهم شددوا على جوانبه التاريخية وجعلوا عبارتيه: «لا تقتل» و «حطموا سيوفهم» تراثا اجتماعيا انسانيا. وكان يوم السبت مثل يوم راحة للعامل، وعيد الفصح كعيد للحرية، وعيد الاسابيع كعيد للثمار الاولى، وما شابه ذلك. وبتأثير مابام،

ولا سيما في كيبوتساته، وبتأثير ماباي ايضا وفي مدارسه، علموا التلاميذ الوقوف ضد الاكليركية والاكراه اللذين ينسبان الى برامج الأحزاب الدينية، لكنهم لم يثيروا التلاميذ كثيرا ضد الافساد والرجعية في الدين نفسه. وقد قال عضو الكنيست يسرائيل غوري، احد قادة ماباي، ذات مرة انه لا يخاف الرجل الديني، بل رجال الدين؛ وكان يقصد نشيطي الأحزاب الدينية.[٣١] هذا هو الاحساس الذي كان يلقن لتلاميذ مدارس التيار العمالي.

كان ممثلو التيارات الاربعة جميعا يتهمون بعضهم البعض بـ«خطف الأطفال» من تيار الى آخر. وفعلا، كلهم «خطفوا»، مستخدمين وسائل الاكراه والاغراء. وقد استعان «العموميون»، لهذا الغرض، بالأجهزة البلدية التي يسيطرون عليها في بعض المدن الكبرى. أما «العمال» فاستعانوا بالمجالس العمالية، والمتدينون بأجهزة الخدمات الدينية، وكانوا جميعا يوزعون حصص الطعام [الآتي] من اميركا. وبعد اقامة الدولة شرعوا يتنافسون بشأن أطفال المهاجرين، فأخذ ممثلو الأحزاب الدينية يتجولون بين المهاجرين لجمع تواقيعهم على عرائض تطالب باقامة مدارس دينية في اماكنهم. أما موفدو الأحزاب العلمانية فكانوا يجمعون التواقيع على مطالب معاكسة. كلهم جمع تواقيع مهاجرين على عرائض لا يعرفون قراءتها، وجميعهم زور تواقيع.

كتب شمعون سعاديا القصة التالية خطيا، لكن يمكن ان يكون وقّعها عنوة: «نحن، ٢٢ عائلة من مهاجري اليمن، كنا جميعا اعضاء هبوعيل همزراحي. حضر الينا منسق مكتب العمل، وأبلغنا انه في حال عدم استعادة بطاقات هبوعيل همزراحي فلن يسمح لنا بدخول المنازل، وسنبقى في الاكواخ وسيحضر آخرون بدلا منا. وقد خضعت الاكثرية لهذا التهديد وأعطته بطاقات عضوية هبوعيل همزراحي، ودفع الى كل واحد ١٥٠ قرشا. لكن البعض لم يخضع لهذا التهديد، وكنت انا بينهم. وهو[منسق مكتب العمل] يملك ضدي وسائل اخرى تتمثل في الحاق الغبن بي في العمل. وفي بداية عملي، ارسلني الى البناء، كما يحق لصاحب عائلة مثلي ومعيلها الوحيد. وبعد ذلك انتزعني من عمل البناء، وأرسلني الى العمل في مشتل. ثم اخرجني منه وأرسلني الى بستان للعمل في القطاف نصف يوم فقط. وكنت في بعض الاحيان عاطلا عن العمل تماما، في حين كان يرسل آخرين الى المشتل، حتى انه ارسل اثنين من عائلة واحدة. وعندما سألته هل هذا عدل، اجاب: اذهب واعمل اذن حيثما يوجد توراة. وبذلك غمز من قناتي، لأنني ما زلت عضوا في هبوعيل همزراحي. كما انه هدد بأنه في حال عدم ارسال الأطفال الى مدرسة الهستدروت، فلن يمنح عملا.»

قدم عضو الكنيست زيراح فيرهافتيغ استجوابين موجهين الى وزير التربية، تضمنا التفاصيل التالية:

«أ ــ يتعلم في المدرسة الدينية في عين كارم نحو ٤٠ فتى وفتاة من ابناء الطائفة اليمنية

الى جانب تلاميذ غيرهم. وفي يوم السبت، زار كنيس اليمنيين في عين كارم مندوبو اتحاد العمال العام، وأثروا في الآباء اليمنيين لنقل أبنائهم الى مدرسة العمال. وقيل للآباء انه لدى الحصول على العمل فسيميَّز الذين يرسلون أبناءهم الى دار التربية من الذين يرسلونهم الى مدرسة همزراحي. وبعد هذا الحديث التأثيري نقل الآباء أبناءهم الى دار التربية.

«ب ـ جاء مندوب مستعمرة ترشيحا وقدم الى ممثل [حركة] «هعوفيد هداتي» رسالة وقعها معظم اعضاء المستعمرة، طالبوا فيها بتعليم ديني لأبنائهم. وبعد ان علم مرشد القرية بهذا المطلب، طلب من مندوب المستعمرة اعادة الرسالة. غير ان اعضاء المستعمرة رفضوا ذلك. لكن بعد تهديدات المرشد لجأوا الى ممثل هعوفيد هداتي، وشرحوا له انهم قد يعانون اقتصاديا اذا لم يتراجعوا عن موقفهم هذا. وقد اعيدت الرسالة. وتوجد في تلك المحلة الآن مدرسة غير دينية.»[٣٢]

احتجت صحيفة «هتسوفيه» على «اصطياد الأطفال»، وجزمت بأن: «جميع الوسائل مباحة»، وقالت: «يجب ان تستمر المعركة من اجل مصير الطفل بكل قوة (...) ويجب ألا يباح أطفال اسرائيل لصيادي البشر من نشيطي التربية العلمانية.» وأوردت «هتسوفيه» في مقال آخر، قصة حدثت، بحسب قولها، في بيت داغون * : «وعد المدرّس اليساري وموظفان تابعان للوكالة اليهودية بتقديم دونمين من الارض، وقرض بقيمة ١٥٠ ليرة، لكل من يدخل أولاده في مدرسة تابعة للتيار العمالي.» وقالت: «ان سكرتيري [أحزاب] اليسار يجوعون اليهود لاجبارهم على تسليم الأطفال للتربية العلمانية.» وزعمت ان نشيطي الهستدروت يهددون المهاجرين الجدد بارسالهم الى النقب ــ اذا لم يسجلوا أولادهم في مدارس التيار العمالي.[٣٣] أما صحيفة «دافار»، فقد اوردت هي ايضا اتهاماتها كما يلي:

● تحضر الى معسكر المهاجرين الانتقالي كل صباح سيارات الأوساط الدينية، وفيها مجموعات من الأشخاص، فتخطف الأطفال وتنقلهم الى مدارسها في رحوفوت.**

● حضرت مؤخرا الى مدرسة الهستدروت في رعنانا ب (للمهاجرين) سيارات الجبهة الدينية، وأخرجت بالقوة وبوسائل التحريض ٢٣ طفلا كانوا قد التحقوا بالمدرسة قبل شهرين ونقلوهم الى مكان آخر.

---

* مستعمرة اقيمت مكان القرية العربية بيت دجن، وتقع على بعد ١٠ كلم جنوبي شرقي يافا. وكانت بيت دجن مدينة كنعانية قديمة تدعى «بيت داغون» نسبة الى الاله «داغون». وعرفت في عهد سنحاريب الأشوري (٧٠٥ ــ ٦٨١ ق.م.) باسم بيت دجانا، وفي العهد الروماني باسم كافار داجو. احتلها الصهيونيون في ٢٨ نيسان/ابريل ١٩٤٨. (المحرر)

** مدينة صهيونية من مدن قضاء الرملة، أسسها في ٥ آذار/مارس ١٨٩٠ مزارعون بولونيون فوق رقعة منبسطة من السهل الساحلي. ويعني اسمها «المكان الرحب». وتدعى ديران ايضا. (المحرر)

● يظهر في الأحياء السكنية التابعة للمهاجرين رجال الجبهة الدينية، ويوزعون الكتب والكراريس ووجبات الطعام والثياب، لاغراء المهاجرين بالانضمام اليهم. ويقولون للآباء ان مدارس العمال تطعم الأطفال اللحوم الفاسدة والمحرمة دينيا، في حين انه معروف ان المدارس في أحياء المهاجرين لا تقدم طعاما دسما، بسبب النقص في قاعات الطعام.[٣٤]*

اعترف قانون التعليم الاجباري بالتيارات الاربعة كلها، وطلب من الآباء اختيار واحد منها. وعندما نوقش، خلال النصف الثاني من سنة ١٩٤٩، مشروع القانون طالب البعض، مثل بن ــ غوريون، بالغاء نظام التيارات واتباع نظام تربوي رسمي موحد، خاضع للدولة بدلا من الأحزاب. وكان موقفهم هذا يتفق، طبعا، مع مفهومهم لحكم الدولة الشامل بروح شعار «من طبقة الى شعب» الذي استرشدوا به منذ الثلاثينات. وقد امل ماباي، كحزب حاكم، بأن تتحول الفلسفة التربوية والسياسية لحركة العمل الى فلسفة تحدد روح التربية كلها. وقد لاقى ماباي، في هذا الشأن، تأييدا في المعسكر المدني. قال يسرائيل روكاح (الصهيونيون العموميون): «اعطونا مدرسة الدولة ليتعلم فيها أبناء اسرائيل بغض النظر عن مكانة آبائهم.»[٣٧] وكان التيار التربوي العمومي قريبا بروحه من رؤية ماباي الى حكم الدولة أكثر من قربه من رؤية المتدينين ومابام. وتساءل يزهار هراري (التقدميون): «ألا يقول التيار العمالي لتلاميذه انه كان هناك يهودي عظيم اسمه سيدنا موسى؟ أولن يقول تيار همزراحي لتلاميذه انه كان هناك يهودي عظيم اسمه كارل ماركس؟»[٣٨] وحذر ممثل السفاراديم إلياهو أليشر، ببعض الجدية وبما يقتضيه العنوان الصحافي: «غدا سيقوم ثلاثون من المنادين بمذهب العري، ويطالبون بتيار خاص بهم في الييشوف. سنضطر الى اعطائهم ذلك لأن هذا ما يتطلع اليه وزير التربية: ان يحصل كل طفل على التربية التي يريدها والده.»[٣٩] لقد وافق الناطقون باسم التيارات جميعا على إلغاء التيارات، واشترط كل واحد منهم ان يكون تياره هو التيار الموحد. وفي غضون ذلك برز ممثلو مابام والمتدينين،

---

* في حزيران/يونيو، أحال بن ــ غوريون على أليميلخ آفنر شكوى تلقاها في لجنة الخارجية والامن التابعة للكنيست، من عضو الكنيست يوسف سابير (الصهيونيون العموميون) جاء فيها: «استدعى الحاكم العسكري في عكا مدير المدرسة العمومية فيها ونصح له باغلاق المدرسة ومغادرة المدينة لأن لا مكان فيها لمدرسة عمومية وانما لمدرسة التيار العمالي فقط.» وأورد سابير تفاصيل مشابهة عن الحاكم العسكري في بئر السبع.

وقد اعتذر مسؤول الحكم العسكري في عكا عن الكلام الذي قاله في حديث «خاص تماما»، على حد قوله. وزعم مسؤول الحكم العسكري في بئر السبع ان لا مبرر لفتح مدرسة عمومية اخرى في المدينة، لكنه قال انه اشترط لفتحها الحصول على موافقة وزارة التربية.[٣٥] وفي كانون الثاني/يناير ١٩٥٠، كتب عضو الكنيست د. ت. بينكس الى بن ــ غوريون طالبا تدخله للحؤول دون التعرض للتعليم في المدرسة الدينية في كفار غلبواع [قرية فقوعة] وزخرون يعقوب [قرية زمارين].[٣٦]

كممثلين للأقليات. فقد قالت فايغا ايلانيت (مابام): «ان للتربية الموحدة احتمالا واحدا: ان تكون تربية عمالية وطلائعية اشتراكية لأطفال العمال وأطفال الشعب.»(٤٠) وقال ي. م. ليفين (أغودات يسرائيل): «من ناحية الرؤيا، من المؤكد ان هذا امل كل يهودي، وجميعنا نتطلع الى اليوم الذي سنصبح فيه شعبا واحدا ذا تربية واحدة.» وكان يقصد التربية بروح الله المقدس اسمه. لكن نظرا الى معرفته بأن ليس هناك امل بتطبيقها، حذر الحاخام الكنيست: «لا تمسّوا مسيحي، فهذه مبادىء ربانية.»(٤١) كانت تلك مواجهة مشحونة بالعواطف لم تترك مجالا للمهادنة. وأعلن زعيم أغودات يسرائيل: «اننا مستعدون للتضحية بأنفسنا في سبيل تربيتنا.» وقالت دفورا نيتسر من تيار ماباي التربوي: «هذا هو ديننا وبهذا نؤمن!»(٤٢) وهكذا واصلوا تربية أولادهم، كل باسم ربه. وكان نقاش ايديولوجي وصراع قوة بشأن صورة الدولة بين وجهات نظر مختلفة ومفاهيم متناقضة، بين اتجاه نحو الوحدة الرسمية وبين الحاجة الى التعددية، بين الأكثرية والأقلية. وأدرك آحاد هعام * ذلك قبل سنوات كثيرة، فكتب في مقالة بعنوان «نهضة الروح»: «نظرا الى ان المثقفين لا يستطيعون التخلي عن التربية التي يبتغونها، فعلينا ارضاء الاورثوذكس. وهؤلاء الآخرون لا يستطيعون، حقا، التخلي عما يؤمنون به، فهل يتوقف على ذلك بقاء ذلك البنيان القديم الذي يضحون بأنفسهم من أجله (...).»

بعد بضعة أيام من اصدار تشريع قانون التعليم الاجباري في الكنيست، في ايلول/سبتمبر ١٩٤٩، طلب المشرفون على التيارات [التربوية] ان تفتح أمامهم المدارس في معسكرات المهاجرين.(٤٣) ووافق الجميع، فعلا، على ان لا مجال لنشاط ممثلي جميع التيارات في كل معسكر. ووافق الجميع على تقاسم تربية المهاجرين، لكنهم لم يعرفوا كيف سيفعلون ذلك. وكان افتراضهم ان مهاجري اليمن بحاجة الى تربية دينية. واقترحوا، بالتالي، ان تكون جميع المدارس في معسكرات اليمنيين دينية. ولم يتمكنوا من الاتفاق على الجهة التي ستديرها وتشرف عليها: التياران الدينيان، ام تيار ديني واحد ينشأ ككتلة مشتركة. كذلك لم يتمكن ممثلو التيارين الدينيين من التوصل الى اتفاق. أما ممثلو التيارين الآخرين (العلمانيين) فلم يرغبوا في الابقاء على معسكرات اليمنيين تحت نفوذ الأوائل وحدهم. واقترحوا بعد ذلك كتلة دينية واحدة، من التيارين الدينيين، توضع تحت اشراف التيارات الاربعة مجتمعة. وقد قبل ممثلو التيارين الدينيين هذه الفكرة، لكنهم طلبوا ان يكون ممثلو

* اسمه الأصلي: آشر تسفي غينزبرغ، وهو احد ابرز الفلاسفة الصهيونيين. كان يوقع مقالاته باسم «آحاد هعام» أي «احد العوام» او «شخص عادي». ولد سنة ١٨٥٦ وانتقل سنة ١٨٨٦ الى مدينة أوديسا حيث انضم الى منظمة «أحباء صهيون». أسس جمعية «بني موسى» لتقوية الروح القومية بين اليهود. وتوفي سنة ١٩٢٧. (المحرر)

التيارين العلمانيين الذين سيشتركون في الاشراف الموحد، متدينين. ثم اثير السؤال عما اذا كان يكفي ان يكونوا «دينيين» ام عليهم ان يكونوا ايضا «ورعين ومحافظين على الفرائض.» وفي مرحلة معينة، اقترح البعض الاستعانة بالحاخامية الرئيسية لحل المشكلة المتعلقة بمعسكرات المهاجرين من اليمن. وتداولوا شأن التربية في سائر المعسكرات، وطرحوا جميع الامكانات الواحد تلو الآخر: كتلة دينية واحدة كما في معسكرات اليمنيين، ام تياران دينيان؟ كتلة علمانية واحدة ام تياران علمانيان؟ كتلة دينية وتياران علمانيان، ام كتلة علمانية وتياران دينيان؟ واقترح البعض الاكتفاء بتيار واحد ذي نهج واحد، في المبنى نفسه او في مبان منفصلة، او تخصيص ساعات معينة للتعليم التوراتي. وقد ساوموا في عدد الساعات، لكنهم لم يتوصلوا الى اي اتفاق.

كان ثمة سؤال رئيسي بقي بلا جواب، وهو كيف يعدون التيار العلماني؟ وأعلن المشرف على التيار العمالي: «لن نوافق، في اي حال من الاحوال، على ان نأخذ على عاتقنا صفة غير ديني.» وأعلن المشرف على التيار العمومي، على الفور، ان التيار الذي يمثله لن يوافق على ذلك. وشرعوا يبحثون عن الكلمات الصحيحة لعرض التيارين العلمانيين امام المهاجرين، من دون التصريح بأنهما تياران علمانيان، لأنهم خافوا ان يرفض المهاجرون ارسال أبنائهم اليهما. وناقشوا مسألة المعلمين: هل يجوز ان يعلم معلم علماني أولادا في مدرسة دينية، وماذا عليه ان يفعل كي يعترفوا به رجلا دينيا. وما داموا لا يعرفون كيف يواصلون التقدم، فانهم كانوا يعودون الى لغة القانون. ثم يقترحون تعميم جميع التيارات على كل المعسكرات، ويعودون الى الاتفاق على ان المهاجرين لا يعرفون كيف يختارون بين التيارات، وانه يجب ايجاد حل آخر. وفي مرحلة معينة، تعقدت القضية اكثر فأكثر عندما اسست كتلة «هعوفيد هداتي» في الهستدروت مدرسة خاصة بها أطلقت عليها اسم «هبشاط هداتي» (التفسير الديني). وقد ابتكر دافيد ريمز، الذي اصبح بعد فترة وجيزة وزيرا للتعليم والثقافة، هذا الاسم. وحتى ذلك الحين، كان الجميع متفقا على ان الاحزاب الدينية تحتكر التربية الدينية، وعلى ان تقوم تربية دينية مقربة من ماباي. وقد اختلفوا فيما اذا كان الهدف هو تيار [رئيسي] او تيار فرعي او نهج، واختلفوا فيما اذا كان المقصود حقا تربية «دينية» ام «تقليدية» فحسب؛ فقد اعتبر ممثلو التيارات الدينية «هبشاط» منافسة غير نزيهة وعملية خداع. وقد نوقش ذلك كله بجدية بالغة وبتفاصيل دقيقة، في البداية ضمن الأطر المختلفة لوزارة التعليم والثقافة، وبعد ذلك حول طاولة الحكومة. وظهرت وزارة التربية عبر محاضر تلك الجلسات ككونفدرالية بين وحدات متنازعة ومتنافسة نشطت من دون تنسيق بينها. وبدا المشرفون على التيارات كنشيطين ـ عملاء سياسيين اكثر من كونهم مربين؛ فقد تكلموا في مصطلحات فن التعليم، لكنهم مارسوا اسلوب السياسة وفشلوا، لأنهم كانوا صغار العقول وهواة، ولأن

الخلاف كان عميقا جدا. وبعد فترة وجيزة، انتقلت شؤون التربية الى ايدي نشيطين امتهنوا السياسة.

كان د. ت. بينكس، في حينه، برلمانيا يتمتع بمواهب كثيرة، وخبيرا اقتصاديا، ورجل قانون. وقد اختاره مراسلو الكنيست الأول «رجل السنة» بالنسبة اليهم. واعتبروا ان له فضلا في الهيبة الشديدة التي كانت تتمتع بها اللجنة المالية التي كان يرئسها. وقد رأس بينكس، قبل ذلك، «لجنة اللجان» التي وضعت اساس نظام الكنيست، وكان قبل ذلك من الذين وضعوا صيغة مرسوم الحكم والقضاء. وقبل هذا ايضا اشترك في وضع صيغة ميثاق الاستقلال. ويذكره يعقوب جيمس روزنتال، اقدم المراسلين البرلمانيين، انه كان رجلا انيقا، وتل ابيبي صميما، ومحبا للحياة، ولبقا في الكلام، وصاحب ذكاء يهودي وفطنة ذهنية خليقة برجل فيينا [عاصمة النمسا] ودقة بروسية ممزوجة كلها بعضها ببعض.(٤٤) وكأن بينكس ولد للعمل السياسي في همزراحي. كان والده الذي احضره الى فيينا من المجر، وهو طفل يبلغ من العمر ثمانية أعوام، احد مؤسسي همزراحي في النمسا، وانخرط بينكس خلال سنوات معدودة في نشاط شبيبة همزراحي. وبعد فترة وجيزة، اصبح مندوبا في المؤتمرات وعضوا في ادارات جمعيات وروابط ومنظمات مختلفة. درس الحقوق في جامعة فيينا، وعمل في مصرف والده. وبعد هجرته الى البلد، سنة ١٩٢٥، وكان له من العمر ثلاثون عاما، عين مديرا لمصرف همزراحي في تل ابيب. وكان نشاطه العام مضمون حياته: خلال عام من هجرته، تزوج الابنة المتبناة للحاخام يعقوب بيرمن من القدس، والذي كان احد قادة همزراحي. والى ان اصبح بينكس عضو كنيست، عمل في نحو دزينة من المؤسسات، من شركة قديشا الى مجلس أمناء التخنيون. وكان يتقاضى راتبه من خزينة بلدية تل ابيب. أدار لأعوام كثيرة دائرة التربية التابعة للبلدية، ثم انتخب نائبا لرئيس البلدية. وكان عضوا في أسيفات هنفحاريم* وفي فاعد ليئومي (المجلس القومي). عرف الجميع ما كان يتطلع اليه؛ فقد أراد ان يصبح وزيرا في حكومة اسرائيل. وبعد اقامة الدولة كان الحاخام ي. ل. فيشمن (ميمون) ممثل همزراحي في الحكومة يتولى وزارة الاديان، فقرر بينكس تنحيته.** وكان بينكس وميمون يكره احدهما الآخر لأسباب شخصية، وكانا يمثلان وجهات نظر متباينة ازاء شؤون الدين والدولة، وقضايا اجتماعية، ومسألة النزاع الاسرائيلي ـ العربي. فكانت مواقف بينكس اكثر

* جمعية المنتخبين، او البرلمان عشية اعلان دولة اسرائيل. (المحرر)

** اعتقد بن ـ غوريون ان الجبهة الدينية سترسل بينكس ممثلا لها الى الحكومة التي ألفها بعد انتخابات الكنيست الاول، لكنه اخطأ وسجل في مذكراته: «حضر الحاخام (مئير) برلين (بار ـ ايلان، زعيم همزراحي). فاجأني الحاخام فيشمن ببقائه في الحكومة، وليس بينكس كما اعتقدت (...) وبعد ذلك، حضر قادة الجبهة الدينية. وقد استاء بينكس كثيرا عندما سمع ان الحاخام برلين عين فيشمن عضوا في الحكومة.»(٤٥)

تطرفا من مواقف ميمون، وأكثر يمينية وصقرية جدا.* واستغل بينكس الخلاف على التربية في معسكرات المهاجرين لتحصين موقفه داخل همزراحي. وكان متمرسا في جميع حيل السياسة ومكائدها، وكان في تقديره انه سيزداد قوة كلما اتخذ مواقف اكثر تطرفا، وأن الجميع سيعلم ان هذه حربه، وناحوم ليفين عدوه. وفي احدى جلسات لجنة الشؤون التربوية التابعة للكنيست، قدم بينكس استجوابا هذا نصه: «اذا ما اشرنا ببساطة الى العمل الذي انجز في معسكرات المهاجرين فيمكن ان نشير اليه بأنه اكراه ضميري ومحاكم تفتيش ضد دين اسرائيل (...) انني اعلم انه انجز عمل هدام ضد دين اسرائيل. وأقول انه لم يسبق ان كان هناك مثل هذا الوضع من الاكراه، واستغلال وضع اهل المعسكرات البائس. وهناك محاولات لاخراجهم عن دينهم ومعتقداتهم. وقد ناقش الكنيست اول امس الميثاق ضد ابادة شعب. انني اقول بمسؤولية كاملة ان نشاط السيد ناحوم ليفين ومساعديه هو قتل تربوي وديني (...).»(٤٦) وتحدث آخرون بمنتهى الحدة: «ينظرون الى الطوائف الشرقية كأنها بهائم وحيوانات.» وقال الحاخام بتسلائيل كوهين، احد اعضاء همزراحي، مشتكيا: «يضربونهم ويهينونهم، كل ذلك لأن الجهاز لا يتحمل أشخاصا دينيين.»(٤٧) وقد وصفت صحيفة «هتسوفيه» معسكرات المهاجرين بأنها «منطقة احتلال لماباي.»(٤٨) وأما د. ت. بينكس، فقد تجاوزهم جميعا وقال في الكنيست: «أحتفظ بحقائق ستبرهن ان المعسكرات هي معسكرات اكراه أطلقوا عليها اسم كتسائيم.»(٤٩) و«كتسائيم» كانت معسكرات التجمع النازية. وقد بادر بينكس الى تشجيع أعمال الاحتجاج في البلد وخارجه، أيضا، مثل اقامة مهرجانات شعبية [واصدار] فتاوى بالمحرمات الدينية. وكان يحث اعضاء حركته، طوال الوقت، على مواصلة الكفاح «بلا هوادة» من اجل حل الائتلاف الحكومي، آملا بأن يحتل مكان ميمون في الحكومة المقبلة. وفي مرحلة معينة كاد ينجح في عزل «هبشاط هداتي» عن اطار الهستدروت ودمجه في تيار ديني موحد. وكان هذا فعلا «انقلابا مصغرا» لم يكن ناجحا، لكنه نزل على ماباي كالصدمة. وكتبت احدى الصحف ان ذلك كان اكثر التكتيكات براعة في تاريخ الدولة.(٥٠)

أثار الاستجواب في شأن محاكم التفتيش الذي طرحه بينكس صدى كبيرا في الخارج، وأجبر وزير التربية، شازار، على التدخل في القضية، من غير طيبة خاطر؛ كان من السهل ان يتغلب مشرفو التيارات التربوية على خلافات الرأي بينهم. وأدرك شازار، طبعا، ان قانون التعليم الاجباري يلزمه بفتح معسكرات المهاجرين امام التيارات كافة، لكنه كان يميل الى الاستخفاف بقضايا القانون والمسائل الاجرائية، وكان الجميع يسمونه ر. زالمان. وكان شازار

(*) قال جيمس روزنتال، متذكرا، ان بينكس درج على مصادقة مناحم بيغن. وكانا يتبادلان الاقتباسات التلمودية باللاتينية، وكان روزنتال يترجم لمن كان يحيط بهما في مقصف الكنيست.

من أنصار حبد،* وخطيبا لامعا، «يخطب في اي موضوع يتسنى له حتى يتعب نفسه.»** وقد حاول توجيه النزاع على التربية في معسكرات المهاجرين بأساليب الحسنى، لكنه اخفق. وتوصل الى تسوية مع المتدينين، بيد ان زملاءه في ماباي اعتقدوا انه تمادى مع المتدينين الذين رفضوا الشروط التي اخذها على عاتقه. وحدث هذا مرة ومرتين وثلاثا وأربع مرات: الوزير يجري محادثات ويتفق على شروط، ثم يعيده حزبه الى المفاوضات من جديد؛ كان هذا محزنا. لقد غضب زعماء ماباي. وحذر يسرائيل غوري من «الابتزاز الكبير» الذي دبروه، بحسب قوله، في اللجنة المركزية لهمزراحي. وصاح قائلا: «هذه مذبحة. ان اية خطوة تتخذ من الآن وصاعدا نحو التنازلات ستكون ضياعا!». وقال بافا ايدلسون: «علينا اخذ الحيطة مسبقا، والا فسنسلم أولادنا لمروّضي الحيوانات.» وقد تخوف زالمان آران من «مهادنة الآراء الجنونية». وغضبوا من تعيين لجنة فرومكين وتشكيلها. وقال لهم زالمان شازار ان بن ـ غوريون قرر بنفسه تشكيل اللجنة، من دون اخذ مشورة زملائه، وذلك بعد ما قاله الحاخام ميمون في احدى جلسات الحكومة من ان «الأطفال يُحوّلون عن دينهم.» وقبل تشكيل لجنة فرومكين، اعلن بن ـ غوريون انه اذا تبين ان اتهامات المتدينين صحيحة، فسيستقيل من منصبه.[٥٢] وقال آران: «باستثناء زميلنا (عضو الكنيست) يتسحاق بن تسفي، فانها (اللجنة) مكونة من عناصر بورجوازية دينية.» أما شازار فقال: «في البداية كان في اللجنة اثنان من زملائنا، لكن نظرا الى عدم وجود اي ممثل للطائفة السفارادية في اللجنة، ونظرا الى اشاعة شطريت لفضيحة طلب ضم سفارادي، استبدل رفيقنا بـ (عضو الكنيست أبراهام) ألمليح (عالم اللغة وزعيم الطائفة السفارادية في القدس).» وقد تعلم جميع اعضاء اللجنة، منذ حداثتهم، في الحيدر (الصف)؛ في حيدر موسع او في مدرسة دينية. وكان اثنان منهم حاخامين، عضوي الكنيست كالمان كهانا و أ.ح. ساغ، وكلاهما من الجبهة الدينية. وشرح شازار لزملائه أسباب الازمة: «علم اعضاء الجبهة اننا ننوي توسيع الائتلاف، وهذا يعني اعادة تنظيم الحقائب وتوزيعها، بما في ذلك حقيبة الداخلية. وعندها قررت الجبهة الدينية تنظيم «حملة صليبية» يقودها رجال الدين من اجل المحافظة على وضع

* اختصار للكلمات العبرية الثلاث التي تعني: حكمة، تبصر، عقل. وتنتمي حبد الى الحسيديم، وهم طائفة من اليهود المتدينين في عهد الهيكل الثاني. (المحرر)

** كتب عنه عزريئيل كارليباخ: «لم يكن ر. زالمان بحاجة الى وظيفة او سلطة او وزارة، وانما كان بحاجة الى بعض الأوفياء يلتفون حوله ويشدون آذانهم نحو كل ما ينطق به امامهم: خواطر وأفكار تختمر في ذهنه. وهؤلاء يساعدونه في سبك الكلمات في خواطر فكرية مجردة تتفاعل في داخله ويتوقعون خلاصهم من الحاخام، وهو يخاطبهم، وهو المتضلع من الكلام الذي يلقى صدى لدى الحسيديم ثم يعود ليلهب خياله، وليجول في أبعاد الزمان والمكان، ثم ينزل الى أعماق الذكريات المنسية، ثم يحلق في أعالي الرؤية المستقبلية، وهو يجد متعة في ذلك، كما يستمتع به الحسيديم...»[٥١]

الدين.» غير ان ناحوم ليفين، الذي حضر بدوره الجلسة، عرض الأمور في سياق اوسع: «ان الحرب التي اعلنتها الجبهة الدينية على مشروعنا التربوي في المعسكرات، ما هي إلا بداية انقضاض على جميع مشاريع الدولة التربوية. وهذه الحرب ليست من اجل الدين، بل من اجل التأثير السياسي في الهجرة وفي صورة دولة اسرائيل في المستقبل.»*

عندما تفاقمت الأزمة، انتزع بن ـ غوريون المفاوضات من يد شازار، وأدارها بنفسه في محادثات مباشرة مع وزراء الجبهة الدينية الثلاثة: ي.م. ليفين، وميمون، وشابيرا. فقد قاربوا القضية بموضوعية شديدة، كما عرفوا كيف يفعلون ذلك مرارا متجاهلين التناقضات الايديولوجية والنظريات المتضاربة، بهدف الحؤول دون تعميق الثغرة بين المتدينين والعلمانيين، والمحافظة على سلامة المشاركة الائتلافية. وقد ساهم الحاخام ليفين في الجهد المشترك، بابدائه ملاحظة تقول ان لا اهمية كبيرة لسوالف مهاجري اليمن. وقال أمام لجنة فرومكين: «يمكن ان يكون الانسان يهوديا من دون سوالف، ويهوديا غير متدين وله سوالف.»[٥٤] فهو نفسه أطال سالفيه، لكنه درج على جمعهما تحت قلنسوته. وفي ايام الجمعة والأعياد، فقط، كان يدليهما على كتفيه. وقد بذل بن ـ غوريون جهدا كبيرا في ان يظهر فهمه لمطالب المتدينين وحتى التعاطف معها مخالفا، بطريقة واضحة، الاتجاه المعادي للدين الذي ساد قادة حزبه. فالرسائل التي بعث بها الى الوزراء المتدينين كانت تنم عن تساهل وتقدير. وكتب ذات مرة الى «الصديقين الحاخامين» ميمون وليفين: «ان الدين ـ حتى بالنسبة الى يهودي حر في آرائه مثلي ـ هو امر سام. وكل يهودي لا يقدر اليهودية بهذه الصورة او تلك، يبرهن على انه غريب عن التاريخ اليهودي.»[٥٥] وقبل ذلك، كتب الى ميمون عن تهديدات د. ت. بينكس بشن حرب اهلية: «انزعجت (...) عندما قرأت هذا الكلام المريع الذي تؤكده صحيفة («هتسوفيه»).» وبحسب قوله، انه لم يتخوف من الحرب الاهلية، «بيد انني اخشى ان الامر الذي أردنا تحاشي وقوعه ـ حرب الدين ـ لا بد آتٍ. وفي رأيي ان هذا سيكون كارثة على الدولة.» وحاول جاهدا اقناع ميمون بأن هذا الصراع لن يعود على الدين ايضا بالخير. جاء ذلك في رسالة من ست صفحات أراد فيها بن ـ غوريون، بين امور اخرى، ان يفرض على الجبهة الدينية حزم أمرها بالبقاء في الحكومة او الانسحاب منها: اذا

* لم يطعن احد من الحاضرين، وبينهم وزير التربية شازار، في اشتراك الموظف الحكومي ليفين في جلسة ادارة كتلة ماباي في الكنيست. وسجل ليفين في المحضر وثيقة طويلة تتضمن موقفه المبدئي من القضية: «ان كل محاولة لجلب التيارات [التربوية] الى معسكرات المهاجرين، ستؤدي الى انشقاق والى حرب ثقافية في المعسكرات (...). ومن الناحية القومية والحركية معا، يجب صيانة وحدة المشروع التربوي في المعسكرات.» وعلى الرغم من المصلحة الحركية التي ذكرها ليفين، فقد زعم انه منع التيار العمالي من دخول المعسكرات. وتحدث عن جهوده الرامية الى فتح مدارس دينية، لكنه زعم انه وفر الخدمات الدينية لكل من طلبها.[٥٣]

كنا طائفة سيئة وأخطأنا كما يصفوننا ــ فينبغي لكم عدم الجلوس معنا في حكومة واحدة.»

ومع ذلك حرص بن ــ غوريون حرصا شديدا على اضفاء طابع ودي على طلبه: «تسنى لي العمل معك على اقامة الدولة وبنائها، وعرفتك يهوديا عزيزا، جادا، ووفيا، ورفيقا، وصديقا ايضا. ولن يكون من السهل علي الافتراق عنك وعن رفاقك، مهما حدث على الصعيد السياسي. لن تتغير صورتك في نظري، كما ان تقديري الشخصي لك لن يقل.»[٥٦] وبعد مضي اسبوع، كتب بن ــ غوريون الى قادة حزبه: «ان كل تربية ستنظمها الدولة (وآمل بأن تكون التربية كلها في المستقبل القريب في يد الدولة) ستمنح اليهود المتدينين امكان [اقامة] مدرسة دينية (...) لكن لا بد من ان يكون واضحا ان المدرسة الدينية لن تكون كذلك في نظري شخصيا، او في نظر اليهود الورعين الآخرين، وانما هي مدرسة دينية في نظر اليهودي المتدين. ولذا (...) ينبغي للمتدينين الذين يريدون مدرسة دينية ان يحددوا الشروط التي تجعل المدرسة مدرسة دينية. ولا يستطيع احد التدخل في ذلك بشرط بديهي، وهو ان تحدد الدولة، من غير تدخل غريب، موضوعات التعليم الاجبارية، وشروط العقل السليم، وغيرها.»[٥٧] *

اصطدمت المفاوضات مع وزراء الجبهة بالصعوبات نفسها التي واجهها قبل ذلك المشرفون على التيارات [التربوية] في وزارة التعليم والثقافة، ومن هذه الصعوبات الاختلاف على الاسم الذي سيطلق على كتلة التربية العلمانية. وفي تلك الاثناء، ازداد الغليان في المعسكرات، ووقعت حوادث في عين شيمر وبيت ليد. وفي شباط/فبراير ١٩٥٠، امتنع وزراء الجبهة عن حضور جلسات الحكومة. ولم يكن موشيه شابيرا متحمسا لمقاطعتها، لكنه انساق وراء زميليه، وهذان انساقا وراء أصحاب المواقف الاكثر تطرفا من مواقفه: ي. م. ليفين انساق وراء ناطوري كارتا، وي. ل. ميمون انساق وراء بينكس. وكان بن ــ غوريون مريضا في تلك الايام، لكن بعد تماثله للشفاء استدعى شابيرا وأبلغه، بعبارات صريحة، ان على وزراء الجبهة الاختيار بين امرين: إما العودة الى حضور جلسات الحكومة وفق مبدأ المسؤولية الجماعية، وإما الانسحاب منها. وكان لا يزال هناك تناحر على هذه المسألة. لكن في غضون بضعة اسابيع عاد الوزراء المتدينون الى الحكومة، وتم التوصل الى الاتفاق التالي: يتم في معسكرات مهاجري اليمن تطبيق التربية الدينية فقط، ويتولى ممثلو التيارات الاربعة، وكلهم أشخاص متدينون، الاشراف عليها بصورة مشتركة. أما في باقي

* رفض بن ــ غوريون ايضا حق الأحزاب الدينية في احتكار التربية الدينية. وشجع الهستدروت على اقامة مدارس دينية خاصة بها ضمن اطار التيار العمالي. واقترح ان يعين فيها مدراء يمينيون متدينون، «اذا وجد مثل هؤلاء.» لكنه جزم في كل حال: «ان عدم انشاء مدرسة دينية افضل من ان يلازم هذا الامر محاباة او اي صنف من صنوف الخداع.»[٥٨]

المعسكرات، فيتم تطبيق نهجين [تربويين] يكون احدهما دينيا. ويبدو انهم تخلوا عن الجهد الرامي الى ايجاد اسم ما للنهج «الآخر». وكان من المفروض تطبيق النهجين في مبان منفردة: ان كل مشكلة قد تنشأ ولا تجد لها حلا على مستوى المراتب الدنيا، تحال من اجل بتها على لجنة وزارية متكافئة، على ان يكون اثنان من اعضائها علمانيين واثنان دينيين. وبذلك فتحت المعسكرات أمام التربية الحزبية الدينية، وحصل الوزراء الدينيون، في الواقع، على حق الفيتو في حال نشوب خلافات في الرأي. ولتكون التسوية قانونية تم تعديل قانون التعليم الاجباري وتقرر، ببساطة، ألا تنطبق ترتيبات التسجيل بحسب التيارات داخل المعسكرات، وكأنها موجودة في مناطق خارجة عن نطاق التشريع العام.

لم تعمر هذه التسوية طويلا، لأنه عندما شرع في نقل المهاجرين من المعسكرات الى المعابر اثيرت القضية، من جديد، نسخة ثانية عن النزاع بشأن التربية في المعسكرات. كما ان ذلك النزاع كان نسخة ثانية عن النزاع بشأن تربية أولاد طهران. وجزم ماباي آنذاك بأن الاتفاق على تنظيم شؤون التربية في المعسكرات لا يسري على المعابر. وجزم المتدينون بأن ما ينطبق على المعابر ينطبق على المعسكرات. وأتاح اعتماد سكان المعابر على مكاتب العمل الهستدروتية لماباي التأثير فيهم، وحتى اجبارهم على ارسال أولادهم الى [مدارس] التيار العمالي، واقترح بالتالي فتح المعابر أمام المنافسة الحرة بين التيارات كافة. وفضل المتدينون، طبعا، الترتيب الذي طبق في المعسكرات، والذي ضمنوا بموجبه لأنفسهم جزءا من التأثير في المهاجرين. وكانوا يعلمون، هم ايضا، مدى قوة الجهاز الذي نظم حياة المهاجرين. «لا بد من ان يكون الجهاز دينيا، حتى ان موظف الصحة العامة يجب ان يكون دينيا»، هذا ما اكده الحاخام بتسلائيل كوهين لدى مثوله امام لجنة فرومكين. وأوضح: «ينبغي للأحزاب الدينية ان تكون عنوانا لشؤون الدين، مثلما ينبغي للهستدروت ان يكون عنوانا لشؤون العمال.»[٥٩] وهكذا كان الشجار بينهم سجالا. وفي تلك الاثناء، تعطل الكثيرون من الأطفال عن الدراسة. وفي غضون ذلك، برز مربيان دينيان تم زجهما في هذه المعمعة مكرهين، وهما على قدر كبير من العلم والدراية. وبعد قليل سئما المكائد السياسية، وعادا الى العمل الاكاديمي. كان الأول ثوريا، أصيلا، لامعا، مثيرا جدا للغضب، صائب الهدف، ثم اصبح معزولا عندما اصبح كهلا؛ انه البروفيسور يشعياهو ليبوفيتس. وكان زميله رجل المؤسسة الحاكمة، متزنا، معتدلا ومحترما جدا، وهو البروفيسور أفرايم أليميلخ اورباخ. وكان ليبوفيتس عضوا في [حركة] «هعوفيد هداتي» (العامل الديني)، لكنه استقال عندما حاول ماباي السيطرة على «هبشاط هداتي» التابعة له. وقال بعد مرور بضع سنوات: «كانت هذه قضية مخزية. لقد خاض ماباي صراعا للحصول على غنائم، وكذلك المتدينون. وتصرفوا كأصحاب الاسهم الذين يريدون السيطرة على مصرف ما.»[٦٠] واستقال اورباخ، رجل

همزراحي، ومدير قسم التربية في معسكرات المهاجرين، احتجاجا على نية ماباي تطبيق نظام التيارات في المعابر. وتذكر فيما بعد: «لقد رأيت ان ذلك لا يحتمل. لم تكن هناك ألواح ولا طباشير، ولا حتى كراس ومناضد. كان التلاميذ يجلسون على الرمال. ولم يكن هناك مدرسون. انني لا اتهمهم اليوم بأنه لم يكن عندهم اكثر من ذلك، وبأنه كانت عندهم هموم اخرى، علاوة على التربية، لكن يبدو لي انهم انصرفوا الى مؤامراتهم الحزبية اكثر مما انصرفوا الى اي موضوع آخر، وهذا ما جعلني اسأم القضية كلها.»(٦١)

في تشرين الاول/اكتوبر ١٩٥٠، استقالت الحكومة بسبب الوضع الاقتصادي وسياسة التقشف، وحاولت الأحزاب الدينية ان تربط بهذه الازمة النزاع على التربية في المعابر. لكن خلال اسبوعين أُلفت حكومة جديدة وبقي النزاع على التربية على حاله، ثم تفاقم وأدى خلال اربعة اشهر الى اسقاط حكومة بن – غوريون الثانية. وجرت انتخابات جديدة. وخلال عامين، تم سن قانون التربية الرسمية الذي كان يفترض فيه ان يلغي نظام التيارات. وكان التيار العمالي قد اصبح في ذلك الوقت اكبر تيار، وظن القيمون عليه انه هو الذي سيعين نهج التربية الرسمي الموحد كله. وعلى الرغم من دمج مدارس التيار العمالي في مدارس التيار العمومي، فانه تم بذلك القضاء على نهج التربية الصهيونية – الاشتراكية في المدن. وبدأ التيار العمالي يتفسخ قبل الغائه رسميا، كلما ازداد اتساعا وكلما تعززت الدعوة في اطاره الى تبني نظرية بن – غوريون بشأن التعليم الرسمي. وخلال السنوات الاولى لاستقلال الدولة، استوعب التيار العمالي الكثيرين من أولاد المهاجرين، وذلك خلافا لرغبة آبائهم: كان نهج أ. د. غوردون غريبا عنهم ورفضه الكثيرون منهم، لأنهم تمسكوا بتقاليد الدين. وحاول ماباي اشباع رغبات المتدينين بواسطة «هبشاط هداتي»، وبهذه الطريقة تشوهت خصوصيته الفكرية. وكلما اتسع التيار العمالي ازدادت الحاجة الى استخدام المزيد من المعلمين. كان الكثيرون منهم غرباء عنه، وغير مبالين بنهجه. ونتيجة ذلك فقدت المدارس «العملية» خصوصيتها التعليمية. حتى انها لم تعد تختلف، في الواقع، عن المدارس العمومية. وقد دمج قانون التربية الرسمي التيارين العلمانيين في تيار واحد، بعد ان رسخ فيه النهج العمومي. وبقيت المدارس الدينية كما كانت في السابق ترشح التلاميذ. غير ان تبعيتها الادارية تغيرت قليلا، مع ان التربية الدينية بقيت في يد همزراحي، ثم المفدال بعد ذلك ضمن اطار وزارة التربية.

طوال ذلك الوقت، وبينما الصراع على التربية في معسكرات المهاجرين لا يزال يثير النفوس، واصلت لجنة فرومكين تحقيقها. وفي ايار/مايو ١٩٥٠، قررت ان تكليف ناحوم ليفين ورجاله [شؤون] التربية هو «خطأ فاحش». وقالت اللجنة انها لم تجد في المعسكرات «حربا محسوبة بالدين.» ولذا، «لم يكن هناك مبرر» لمقابلة عمل ليفين ورجاله باضطهاد محاكم

التفتيش. وكان هدفهم تسريع عملية تكيف المهاجرين مع واقع البلد، لكن خطأهم الاساسي هو انهم «قاسوا عليهم [على المهاجرين] ما يقيسونه على انفسهم، او ما يقيسونه على المهاجرين من البلاد الاوروبية.» وذكرت اللجنة، في هذا السياق، المهاجرين من اليمن وطرابلس [الغرب] ومراكش، وجزمت بأن ليفين ورجاله ازعجوهم في صلواتهم بصورة منهجية، وشاغبوا عليهم في تعلم التوراة والمحافظة على يوم السبت، وحثوهم في حالات عديدة على ازالة سوالفهم. وقد اقتبس تقرير اللجنة أقوال شهود كثيرين وكلهم كرروا الجملة التي قيلت لهم مرارا وهي، على حد قولهم: «لا ضرورة للسوالف في ارض – اسرائيل.» وكانت نتائج التحقيق متوقعة. قالت عضو الكنيست فايغا ايلانيت من مابام: «اننا لا نثق بهذه اللجنة الحكومية، لأنها عينت منذ البداية لتكون لجنة مصالحة الكتلة الدينية لا لكشف الحقيقة ذاتها.»(٦٢) وأكد الحاخام كهانا عضو اللجنة، في وقت لاحق، انهم «فهموا غايتنا.»(٦٣) كان جاد فرومكين، رئيس اللجنة، نجل احد مؤسسي ضاحية اليمنيين الذين قدموا خلال الهجرة الاولى في كفار هشيلواح بالقرب من القدس. وقد عمل خلال فترة الانتداب البريطاني قاضيا في المحكمة العليا. وبعد اقامة الدولة، لم يدع الى مواصلة عمله هذا.* وذكر كهانا: «انتظر الجميع من فرومكين ان يبرهن الآن على خضوعه لمباي. انني اعتقد ان تعيينه رئيسا للجنة التحقيق في وضع المعسكرات كان من المفترض ان يشكل، بالنسبة اليه، اختبار ولاء. ويسعدني انه لم يأبه لذلك.» كان يسرائيل يشعياهو سكرتيرا للجنة. وقال كهانا: «تغلغل يشعياهو بين المهاجرين الجدد من اليمن، ساعيا لاخضاعهم لسيطرة ماباي. اننا لم نستسغ تعيينه سكرتيرا للجنة، لكني سعيد بأن تأثيره كان ضئيلا.» وبعد ظهر كل نهار، كان اعضاء اللجنة يوقفون عملهم لتأدية صلاة ما بعد الظهر (منحاه).

(*) في أوائل شهر شباط/فبراير ١٩٤٩، عين بن – غوريون «لجنة استقصاء فخرية» من: مئير برلين، ويتسحاق بن تسفي، وأبراهام غرانوبسكي (غرانوت)، من اجل تفحص تهمة الرشوة التي وجهت الى فرومكين. وكثيرا ما كان وزير العدل، روزين، يزعج بن – غوريون في هذه القضية. وقد سجل رئيس الحكومة هذه الامور في مذكراته بلهجة تنم عن السأم قليلا. ويبدو ان هذه القضية لم تحظ باهتمامه بصورة خاصة. وفي شهر آب/اغسطس، كتب الى روزين: «لا مصلحة عامة في مواصلة التمحيص في ماضي السيد فرومكين الذي لم يعد مرشحا لوظيفة قاض، وتتطلب هذه المسألة الآن انهاءها بصورة انسانية لا رسمية.» وقد صاغ الملخص التالي: «كان لدى وزير العدل، ف. روزين، اساس كاف لعدم توصية الحكومة بتعيين فرومكين في المحكمة العليا. ويجب اعتبار الاستقصاء الذي أجراه أعضاء اللجنة الخمسة، بهدف النظر في المزاعم القائمة بين وزير العدل والسيد ج. فرومكين، بأنه نهائي ولو انه غير كامل. وسيقترح رئيس الحكومة تعيين السيد ف. في وظيفة فخرية في احدى اللجان الحكومية الملائمة.» وبعد بضعة ايام من ذلك، وافقت الحكومة على هذا التلخيص. وكتب بن – غوريون الى فرومكين عن تعيينه المتوقع في احدى اللجان الحكومية.(٦٤)

وأضاف كهانا: «كانت هذه لجنة جيدة وموضوعية جدا.»

انتظر ناحوم ليفين نتائج التحقيق بهدوء تام. ولم يكن عنده شك في ان اللجنة ستبرئه من كل تهمة. وكان رجلا ساذجا، آمن ببراءته، ولم يخطر على باله ان حزبه ماباي سيظلمه. وفي احد الايام، وخلال الافطار، سمع في الاذاعة ان وزير التربية «وافق على استقالته.» وصعب عليه تصديق ما سمعت اذناه، وكان من السذاجة انه اعتقد ان الاذاعة قد اخطأت. لكن بعد مرور فترة، اتضح له ان هذا هو نهجهم في طرده. ويتذكر افيتار ليفين: «ذهب والدي الى بن ـ غوريون، وقال له هذا الاخير ان على شخص ما ان يستقيل، لكن لن يكون ملائما اقالة وزير التربية. كان والدي عضوا في ماباي، وفيا ومطيعا، حتى انه وافق على ذلك من دون معارضة. واقترح عليه بن ـ غوريون تعيينه ضابط تربية رئيسيا، بدلا من أهارون زئيف. غير ان والدي وزئيف كانا صديقين، فلم يشأ تنحية زئيف بسببه. ولذا، فانه تنازل عن ذلك. لقد آلمه التقرير كثيرا، وآلمه بصورة اساسية ان بن تسفي ايد ذلك. واظن انه لم يتعاف من ذلك حتى آخر حياته.» ومع ليفين تمت تنحية منسق الشؤون التربوية في معسكر عين شيمر، ي. أ. ألْدَمَعْ وتسيبورا زهافي من معسكر بيت ليد. وحاول زملاؤه في الحزب وفي العمل مساعدته: كتبوا رسائل تضامن، وبادروا الى نشر مقالات متعاطفة في «دافار»، وتكلموا مع اعضاء كنيست، وأعلن موظفو قسم التربية الاضراب احتجاجا على تقرير اللجنة وتضامنا مع ليفين، وطالبوا باجراء تحقيق جديد. واستقبل بن ـ غوريون احدهم: يوسف شيكد للتحادث معه. وقال له ان ليفين مظلوم ويجب تبرئته. واستمع اليه بن ـ غوريون، لكنه لم يسأل إلا عن المكان الذي شاهده فيه في الماضي. وروى شيكد فيما بعد: «لقد استغرق مني ذلك وقتا طويلا. حاولنا ان نتذكر: ربما في هذه اللجنة، وربما في لجنة اخرى. انتقلنا من لجنة الى اخرى، وأخيرنا تذكرنا. ان ذلك كان في لجنة غير حزبية في حيفا. وقال بن ـ غوريون: (اوه، هذا هو). كان هذا كل شيء. وبالنسبة الى ليفين، لم يعد [بن ـ غوريون] بشيء.»[٦٥] وفي الكنيست، اشاد بن ـ غوريون «بالاخلاص الرائع لجميع العاملين في المعسكرات، وخصوصا العاملات.» غير ان «استقالة» ليفين بقيت قائمة.[٦٦] ودوّن ليفين سلسلة من الملاحظات بشأن ما ورد في تقرير اللجنة، منها: «ان التقرير لا يذكر أبدا الوثيقة التي وقعها ١٤ مدرسا من جمعية المدرسين في عين شيمر، يفندون فيها بالحاح شديد مسألة قص السوالف (...) هل اخذت اللجنة في حسبانها امكان نشوء ظواهر الاشكنزة [من كلمة اشكناز] لدى الفتيان اليمنيين، وامكان تكيف بعض مهاجري اليمن الجدد مع مناهج البلد، بواسطة أقاربهم الذين أصبحوا اشكنازا منذ ذلك الحين، عندما زاروهم في منازلهم (...) وثمة برهان لا يرقى اليه الشك على ان موظفي التربية كانت لهم يد في هذه الأعمال البغيضة. واذا كان لبعضهم يد في هذه المسألة، فهل ثبت انه اعتمد، في

هذا الشأن، أسلوبا مدبرا؟»[٦٧] وتذكرت ارملته، دانيا ليفين، فيما بعد: «كان الأطفال اليمنيون يقصون سوالفهم من تلقاء انفسهم، لأنهم أرادوا ان يظهروا اشكنازا. وقد شاهدت مرة فتى يمنيا قص سالفيه بقطعة من الزجاج.»[٦٨] لقد عبر ليفين عن ألمه في مذكراته: «لست ادري كم حالة في التاريخ جرى خلالها اضطهاد الانسان قبل حالتي... هل القتل النفساني اهون من القتل الجسماني؟» ودوّن ليفين في دفتر صغير للعناوين، بصورة خفية تقريبا، ما يلي: «ان الرجل الذي وثقت به كثيرا بصورة خاصة، والذي لم اعتبره ممثلا لأكثر الفترات روعة بل ممثلا للضمير، هو الذي أساء الي كثيرا...»

في الحقيقة، لم يعد بن ـ غوريون بشيء. لكن عندما قرأ تقرير فرومكين شعر بعدم الارتياح لأنه يعارض، بين امور اخرى، الاستنتاجات التي توصل اليها الضابطان اللذان ارسلهما قبل ذلك الى المعسكرات. ولذا، ارسل الوثيقة [التقرير] الى المحامي يعقوب شمشون شابيرا، مستشار الحكومة القانوني السابق، للنظر فيها ودراستها. وذكر بن ـ غوريون: «ان مجرد قراءة التقرير تثير الكثير من الاستغراب. هناك شهادة مبنية على شائعة، وهناك نظرة مسبقة الى الشهود من جهة، ونظرة معاكسة اليهم من جهة اخرى. وهناك فارق كبير بين التقرير والاستنتاجات.»[٦٩] * وقد رد عليه شابيرا بفتوى قانونية استنتاجها الاساسي: «اعتقد ان كل اطار قانوني [سينظر] في استئناف الحكم المتعلق بالتقرير وبالاستنتاجات، سيحكم عليه بالالغاء والحفظ»، اذ ان ناحوم ليفين كان بين أوائل الشهود الذين مثلوا امام لجنة التحقيق. ومثل بعده عشرات الشهود من دون حضوره. وكان على ألسنتهم تهم كثيرة، بيد ان اللجنة لم تستدع ليفين للادلاء بشهادة ثانية، للرد على هذه التهم. وقد علم بالكثير منها اول مرة خلال قراءته التقرير نفسه. وأكثرت اللجنة من اسناد بعض الاستنتاجات الى أقوال الشهود الذين سمعوا مضمون شهاداتهم من الآخرين. وقد تجاوزت صلاحياتها بانصرافها الى تعاطي التربية في تجمعات المهاجرين السكنية، وليس في المعسكرات فحسب.[٧١] وفي تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٠، كتبت دانيا ليفين الى بن ـ غوريون: «وعدت بانهاء هذه القضية المؤلمة وغير العادلة بعد عودة ناحوم الى البلد. وطلبت منك، راجية، الوفاء بوعدك. لقد توعكت صحة ناحوم ليفين، كما كانت معنوياته منهارة جدا. فأرجو منك ان تفعل ما تستطيعه لتسوية أمورنا.» لقد طلبت تبرئة، ووظيفة. وكان من المفترض ان يبقى طلبها، بحسب قولها، سرا بينها وبين رئيس الحكومة: لم يعرف زوجها به، كما كتبت. وبعد مرور بضعة اشهر، كتب ليفين نفسه الى بن ـ غوريون طالبا منه تبرئة ساحته علنا من منبر الكنيست.[٧٢] غير ان مستشار الحكومة القانوني، حاييم كوهين،

* حمل ذلك كله الحكومة على ان تقرر انها توافق على استنتاجات التقرير بمجموعها فقط. وهي لم تتبن جميع استنتاجات التقرير، لكنها لم تجد من الشجاعة ما يكفي لترفضها صراحة.[٧٠]

الذي لم يكن قد اصبح في تلك الايام قاضيا ليبراليا، نصح لبن – غوريون بالاقلاع عن هذه القضية، باعتبار ان ما حدث قد حدث. وقال كوهين: «على الرغم من ان الحكومة لم تقل صراحة انها توافق على ان كل ما ورد في تقرير لجنة التحقيق ساري المفعول، فانها تصرفت في الواقع بحسب هذا التقرير. والموافقة على امر بالأفعال اكثر خطورة من الموافقة عليه بالكلام. واذا بدا هذا الامر في نظرك الآن خطأ، فليس في رأيي مجال لمحاولة تصحيح هذا الخطأ ببيان اصبح توقيته وعلته عديمي الفائدة بعد وقوع الحدث.»(٧٣) لم يكن المستشار القانوني كوهين سعيدا برجوع رئيس الحكومة الى المحامي شابيرا، احد قادة ماباي. واقتضى الاستنتاج الذي توصل اليه شابيرا، ظاهريا، تشكيل لجنة تحقيق جديدة. وهذا يعني وقوع ازمة ائتلافية جديدة. وكانت نصيحة كوهين اكثر يسرا، فوافق عليها بن – غوريون. ويذكر افيتار ليفين: «لو تسلم والدي رسالة تبرئة من بن – غوريون لمات سعيدا.» لقد توفي سنة ١٩٥٩، وهو مستاء ومنسي. ويبدو انه لم يعرف قط بالرسائل المتبادلة بين بن – غوريون وشابيرا وكوهين. وقال شابيرا بعد مرور ثلاثين عاما: «لم تكن هذه لجنة، بل كان هناك جلجلة.»(٧٤) وذكر الحاخام كالمان كهانا: «ان اية لجنة تحقيق هي امر فريد في نوعه؛ انها غير ملزمة بالتقيد بالقواعد التي تلتزمها اية محكمة. انني لم اطلع على فتوى شابيرا، حتى انها لم تكن موجودة في الأرشيف. قد يكون صادقا من الناحية القانونية، لكنني لم اطلع ايضا على مذكرات ليفين وملاحظاته المدونة لأنها لم تكن موجودة، وهي تثبت من دون شك ان ليفين كان يزمع ان يفرض على المهاجرين الجدد ان يصبحوا اسرائيليين غير متدينين. ويتبين اننا حتى لو لم نكن على حق في ذلك الحين، استنادا الى المادة التي اطلعت عليها، فاننا تصرفنا بحق في ضوء المادة المتوفرة الآن، ويبدو انه كان عندنا حس سليم. ولم يدرك ليفين ان حركة الهجرة الانسانية كانت مختلفة تماما عن حركة الهجرة التي احضرته، فأراد ان يفرض عليها ما لم يكن فيها.» *

---

* عبر نظرة الى الوراء، ترددت على لسان الحاخام ملاحظة بالغة الأهمية: «انني اتهم نهج ليفين التربوي بأنه لم ينتزع من المهاجرين، من ابناء الطوائف الشرقية، التقاليد الدينية فحسب بل انتزع منهم هويتهم الطائفية والحضارية أيضا. لكنني اتهم انفسنا في هذا الشأن. كما ان التربية الدينية لم تعرف كيف تقدر الحضارة التي جلبها هؤلاء القوم من اليمن ومراكش وتركيا، بل أفسدناهم لأننا فرضنا عليهم تربيتنا الدينية. كان هناك أطفال من اليمن يحفظون إصحاحات كاملة [من التوراة]. وكنت مدرسا للغة العبرية، وعلمتهم كأنهم لم يعرفوا العبرية، لمجرد ان لفظهم كان مختلفا عن لفظي. وماذا علمتهم؟ علمتهم ان والدي اشترى جَدْيا. لقد افسدتهم. واليوم اعتقد ان هذا ادى الى كارثة، لا للمهاجرين فحسب بل للدولة بأسرها.» وقال الدكتور باروخ بن يهودا متذكرا: «من الذي افسد، وماذا افسد؟ ازمة؟ لم تكن هناك اية ازمة! وما كان قائما انما هو مشروع وَعَدَ بأنه لن يبقى ولد واحد بلا تعليم. وليس هناك في العالم بأسره مشروع تربوي شبيه له في حجمه وفي عدد الأطفال الذين وصلوا. وقد وصل منهم =

كان هذا ايضا الخاتمة: الى جانب ما انيط بها «بت جميع التهم بشأن الاكراه الديني في المعسكرات»، كان من المطلوب من لجنة فرومكين استقصاء «حملات التشهير في الصحف وتحديد المسؤولين عنها»، وكذلك «استقصاء مصادر الدعاية في الخارج بشأن هذه التهم المذكورة.» وقال شازار للجنة انه «لا يجوز اطلاع العالم الواسع، ولا حتى يهود المهجر، على هذه القضية»، كما لو كانت سرا رهيبا يمكن اخفاؤه. ومن اجل ازالة كل شك عالق في النفوس، استساغت اللجنة ان تقرر بصراحة: «يجب عدم اعتبار هذه المطالب انها تنم عن نية للعمل ضد دولة اسرائيل.» ومما حققت فيه اللجنة، الجهات التي بادرت الى عقد مؤتمرات احتجاج نظمتها أوساط متدينة في نيويورك. ومن اجل تثبيت «تهمة» ان هذه المؤتمرات نظمت من القدس، طلبت اللجنة ان توضع في تصرفها برقيات في هذا الشأن، تبادلتها القدس ونيويورك. وكانت هناك حاجة الى مراجعة رئيس الحكومة واصدار امر خاص موقع من وزير الاتصالات والبريد، لرفع السرية عن تلك البرقيات. وعندما سلمت البرقيات الى اللجنة، وجد بعضها ممهورا بتوقيع دافيد بن – غوريون نفسه، وهي رد «الكتلة الدينية في نيويورك» التي خاطبت رئيس الحكومة محتجة على «الفضيحة العالمية» التي وقعت، على حد قولها، في المعسكرات. ورد بن – غوريون: «تسلمت برقيتكم وأطلعت الحكومة كلها على مضمونها. ان أحدا منا لا ينكر على اي يهودي، حيثما كان، حقه في ابداء الرأي والاعراب عن الانتقادات بشأن قضايا دولة اسرائيل. لكن، مما يدعو الى الاستهجان انكم اتخذتم قرارا بشأن قضية خطرة غير معروفة منكم وأصدرتم الحكم من دون الاستماع الى المحكوم عليه، خلافا لمذهب اسرائيل. ولا احد في الحكومة يعرف مصدر المعلومات التي تستندون اليها. انني مشمئز، بصورة خاصة، من التهديد المستهجن الذي تخاطبون به حكومة اسرائيل.

«ان دولة اسرائيل جمهورية ديمقراطية، تقوم على اساس الحرية، وحرية الضمير، وحرية الدين، وتتقرر جميع شؤونها بناء على قرار اكثرية مواطنيها وحسن درايتهم. وكونوا واثقين من اننا لن نفعل شيئا تحت ضغط التهديدات، اذا لم يكن هذا الشيء عادلا وضروريا بحد ذاته. واذا كنتم ترغبون في التأثير المباشر في توجه دولة اسرائيل ومعاضدة تيار ما بيننا، فان اكثر الوسائل نجاعة هي ان تحضروا الينا، انتم والذين تتكلمون باسمهم، وتستوطنوا في البلد. انني اؤكد لكم ان كل واحد منا سيسعد بحضوركم.»(٧٥)

من دون قصد، وفي سياق الموضوع الاساسي الذي طرح للنقاش، تم التطرق ايضا الى علاقة الاسرائيليين بيهود الشتات، صهيونيين وغير صهيونيين، وهذه احدى المسائل الاساسية لوجود بلد ذي سيادة. ان دولة اسرائيل لم تختبر حتى ذلك الحين ضغوطا من هذا

= المزيد، فأقيم لهم فورا جهاز تربوي رائع من العدم، وذلك في ذروة ضائقة اقتصادية، وفي خضم صراع سياسي وتهديد عسكري من الخارج لصميم وجود الدولة. هـذا ما حدث.»

النوع، ولم تعرف كيف تتصدى لها. وقد جربت لجنة التحقيق هذه القاعدة: «تعتقد اللجنة ان ليهود المنفى الحق في ان يظهروا اهتماما بما يجري في الدولة، باستثناء الأمور المتعلقة باسرائيل ككل، وبمقدار عدم بلوغ الأمر درجة التدخل في شؤون الدولة الداخلية. ويستطيعون ان يتوجهوا الى حكومة اسرائيل بمقترحات ومطالب ملائمة.»(٧٦) هذا كان، طبعا، صيغة عمومية جدا لم تساعد كثيرا في توضيح المشكلة. وفي كل حال، فان الاحتجاجات من الخارج ازعجت الحكومة، ودفعتها الى ايجاد تسوية للنزاع، تحاشيا لتعريض نشاط الجباية اليهودية للخطر. وكان من أهداف تعيين اللجنة ارضاء أوساط المتدينين في الخارج.

عالجت اللجنة ما نشرته الصحافة، كما لو كان عليها ان تكشف النقاب عن مؤامرة خيانية. وقد وافق أعضاؤها، بتردد، على التفسير القائل ان النقاش بشأن التربية الدينية في المعسكرات يثير اهتمام وسائل الاعلام في العالم حتى من دون ان يحرضها احد على التدخل في هذا النقاش. وقد اضطر اعضاء اللجنة الى بذل جهد معين كي يدركوا ان المراسلين الأجانب حصلوا بصورة قانونية على المعلومات التي نشروها: حتى ان كشف [المعلومات] في الصحف العالمية كان بالنسبة الى الدولة الفتية رؤيا جديدة. وحرصت اللجنة على ان تشرح «ان مصدر الدعاية في الخارج، بشأن التهم الخاصة بالاكراه الديني، لا بد من البحث عنه لدى الأوساط الدينية في الدولة والصحف الاسرائيلية. وقد اعطيت الاشارة لذلك عن طريق استجواب في لجنة التربية التابعة للكنيست.»(٧٧) وطرح هذا الاستجواب د. ت. بينكس. ولم يتراجع بينكس عن كلامه، لكن بعد مضي عام رأى ضرورة لشرحه: «لم تكن لي اية مصلحة في استخدام الكلمة الاجنبية: محاكم التفتيش. لقد استخدمتها فقط بغضب لا حدود له، وألم ومهانة لا يقاسان، ... شعرت بها من القصص التي سمعتها عن الأعمال في المعسكرات. ولم اجد تعبيرا آخر. واذا كانوا قد أجبروا، فعلا، الطفل المتدين على تلقي التعليم الحر، فانني اقول ان هذا عمل من أعمال محاكم التفتيش.»(٧٨) *

قبل ان يقدم بينكس ذلك الاستجواب ببضعة ايام، سئل عن رأيه في موضوع آخر: موضوع سير السيارات ايام السبت. وقال للكنيست: «لو كان في امكاننا ذلك، لمنعنا هذه الحركة. وما كنا سنسمح بالسير إلا (...) لنقل المرضى، ولأغراض امنية، وانقاذ أرواح بشرية.»(٨٠) وكان على وشك التوصل الى ذلك. ان الخطوات التي اتخذها ازاء النزاع بشأن

* كان معظم المزاعم التي طرحت منذ ايام «البساط السحري» مماثلا، بصورة او بأخرى، للمزاعم التي قيلت ايام الهجرة التي تدفقت على البلد في أواخر الحرب العالمية الثانية. وانخرطت تلك المزاعم، بصورة شبيهة، في الخصومات الحزبية. وفي سنة ١٩٤٤، احتج نشيطو الأحزاب الدينية على محاولة اجبار المهاجرين على قص سوالفهم، وكان الرجل الذي كشف ذلك د. ت. بينكس أيضا.(٧٩)

التربية، ليست هي التي جعلت منه وزيرا للتجارة والصناعة، كما امل عندما استقالت الحكومة اول مرة بسبب سياسة التقشف. لكنه عندما غير موقفه فجأة وأخذ يؤيد سياسة «التعليم الرسمي» التي انتهجها دافيد بن ـ غوريون، ضم الى حكومة [بن ـ غوريون] بعد انتخابات الكنيست الثاني وأصبح وزيرا للمواصلات بدلا من ميمون وزير الاديان الطاعن في السن، الذي كان يمثل همزراحي حتى ذلك الحين. واستطاع بينكس أخيرا تنحيته. وقد حدث ذلك خلال شهر تشرين الاول/اكتوبر ١٩٥١. وفي الصيف التالي، قررت الحكومة فرض قيود على حركة السيارات بسبب صعوبة تمويل الوقود. وقد تم وقف سير السيارات الخاصة وسيارات الاجرة يومين في الاسبوع، وحدد بينكس في اللوائح يوم السبت كأحد يومي وقف سير السيارات الخاصة. وأثارت هذه اللوائح غضبا شديدا عليه، فعاد الحديث عن الاكراه الديني، لكن هذه المرة بتعليمات تختلف عن التعليمات السابقة، وعاد الحديث ايضا عن «العصيان» وعن «حرب اهلية».

وذات مساء، عندما وصل بينكس الى منزله، كمن له بعض الأشخاص وألقوا عليه قنبلة يدوية لارهابه. وقد اعتقلت الشرطة رجلين متهمين هما: شلتيئيل بن يائير، وعاموس كينان، الصحافي الذي كان ينشر في تلك الايام زاوية ساخرة محبوبة في صحيفة «هآرتس». وقد قدم كلاهما الى المحاكمة بتهمة محاولة اغتيال الوزير احتجاجا على لوائح السبت. غير ان ساحتهما برئت بسبب عدم وجود الادلة، ولم يكن بينكس في قيد الحياة آنذاك. وعلى الرغم من انه لم يصب بأذى في محاولة الاغتيال، وعرف كعادته كيف يكوّن رصيدا سياسيا كبيرا خلال حفلة التهنئة التي اقيمت له بمناسبة «المعجزة»، فانه بعد مرور شهرين، وبعد بضع ساعات من قوله لنائبه انه لا يريد الموت في الحرب، فارق الحياة ووجدت جثته في غرفته في فندق الملك داود في القدس.

الفصل الثاني
الصراع على السبت

في ٢٨ أيار/مايو ١٩٤٩، خلال سبت سفر العدد *، اجتمع سكان زخرون موشيه في كنيس حيّهم في القدس احتجاجا على فتح دور السينما شبابيك التذاكر ومباشرة العرض الاول قبل انصرام السبت. وكانت المشكلة قد اثيرت، في تلك الاسابيع، نتيجة تطبيق التوقيت الصيفي. كان بين المجتمعين الحاخام الاكبر عوزيئيل، وعضو الكنيست الحاخام أبراهام حاييم تسوبنر ساغ ايضا، وغيرهما من الحاخامين الاجلاء وكبار علماء التوراة من امثالهما. لعن المجتمعون أصحاب دور السينما، وكالوا لهم الشتائم بكل ما عرفوه من عبارات التجديف والشتيمة، ووصفوهم بأنهم من سعاة الربح الخسيس الذي يعز عليهم اكثر من السبت. وبدا ان الذين نظموا الاجتماع لم يقصدوا تسيير الجمهور في تظاهرة، لكن في اليوم ذاته وزع أعضاء ناطوري كارتا بيانا باسمهم، دعوا فيه الى «عمل شيء ما» لمنع تدنيس السبت في دور السينما. ولم يسمح احد من المتكلمين في اجتماع زخرون موشيه لنفسه بأن يطالب الجمهور بأقل مما طلبته ناطوري كارتا، كيلا يعتبر أفرادها حماة للسبت اكثر منهم. ولذلك، دعا المتكلمون الى التظاهر، وتوجه الجمهور الى دار سينما «اديسون» المجاورة. وكان زخرون موشيه، في يوم من الايام، حيا راقيا لأبناء الطبقة المتوسطة المثقفة؛ وبات يسكنه في هذا الوقت المتدينون الغيورون. وشهدت دار سينما «اديسون» اياما افضل كثيرا، وكان لمسرحها في احد الأيام فرصة استضافة آرثر توسكانيني. وكانت الدار، مساء ذلك السبت، على وشك البدء بعرض فيلم من بطولة غريغوري بيك.

كانت قوات الشرطة متأهبة مسبقا. وقال قائد شرطة القدس في شهادته: «تلقيت أنباء تفيد ان المتدينين على وشك تأزيم الأمور هذا السبت.»(١) وبدأت أعمال الشغب الساعة السادسة والثلث تقريبا: كان العرض الاول على وشك ان يبدأ في الساعة السابعة والربع، بينما ينتهي السبت في الساعة الثامنة وأربع دقائق. وأبلغ ضابط الشرطة الذي حضر الى المكان على رأس بضع عشرات من رجاله، الجمهور ان القانون لا يحظر بيع تذاكر السينما يوم

* السفر الرابع من «العهد القديم». (المحرر)

السبت، ولذلك عليه ان يحمي شباك التذاكر، لكنه تطوع لتنظيم لقاء بين ثلاثة من قادة التظاهرة وصاحب دار السينما الذي يدعى زيلبرشتاين. وروى هذا الشخص، فيما بعد، فقال: «طلبوا مني اقفال شباك التذاكر وعدم فتح أبواب الصالة قبل الثامنة. فوافقت على ذلك حقنا للدماء. لكن، بينما كانوا يتفاوضون معي، اقدم المتظاهرون على خلع باب شباك التذاكر الحديدي.» ان ما حدث في تلك اللحظات بقي موضوع خلاف. وقال الحاخام موشيه غليكمان باروش: «عندما وصل الجمهور الى مقربة من سينما اديسون وشاهد بيع التذاكر في يوم السبت نفسه، راح يحتج بهدوء، ويهتف [بكلمة] «السبت». وتسلق احد الشبان الجدار وراح يقرأ مقاطع من التوراة. وفورا انهال عليه رجال الشرطة بالهراوات وأنزلوه عن الجدار وأشبعوه ضربا. وتوسلت الى الشرطة انني سأبذل جهدي لتهدئة الجمهور وجعله يقف بعيدا للتعبير عن احتجاجه. ولم يستمع رجال الشرطة اليّ. امتشقوا الهراوات وضربوا. واستخدم آخرون قبضات اليد.» وقال قائد الشرطة، شيف: «ثار الجمهور على رجال الشرطة وتحدوهم؛ فقد وجهوا الشتائم اليهم، ودفعوهم ورشقوهم بالحجارة، وحطموا الزجاج، وحاولوا في لحظة معينة اقتحام الصالة.»

عندما علم المتظاهرون ان صاحب دار السينما أجّل العرض الاول الى حين انصرام السبت، واصلوا مسيرتهم الى سينما «عيدن»، حيث كانت على وشك عرض كوميديا موسيقية بلغة الايديش، واسمها «المعزوفة اليهودية». كانت الساعة تقارب السابعة عندما فتحت «عيدن» شباك التذاكر. وكان الرواد يقفون في الصف. وما ان وصل المتظاهرون، حتى نشب عراك بالايدي. تذكر احد الجرحى ويدعى غوستاف ليندنر قائلا: «امسكني احد المتعصبين من عنقي وشرع في خنقي، بينما راح الثاني يدفعني. وقعت ارضا وصدمني دولاب سيارة كانت تمر من هناك في تلك اللحظة، فكسرت يدي نتيجة ذلك.» وعندما تسلل المتظاهرون الى باحة دار السينما وظهر خطر اقتحامهم القاعة، انقض عليهم رجال الشرطة بالهراوات واتجهوا نحوهم، الى الرصيف، بسياراتهم لتفريقهم. وقال أبراهام شاطوف: «راح رجال الشرطة يضربون يمنة ويسرة بلا رحمة، وبخشونة، وبسفالة ووحشية. وبدا المكان آنذاك ساحة قتال. لقد ضرب الناس حتى الاغماء...» وقال الحاخام باروش: «... لم يستطع احد ان يصدق ان شرطة يهودية في دولة اسرائيل ستتصرف مع الجمهور المتدين بهذه الوحشية. وناشدتُ رجال الشرطة ثانية انني سأبذل جهدا لتهدئة الجمهور، وفجأة بدأ احد رجال الشرطة اطلاق النار.» كان هذا شرطي السير المدعو يهوشواع دفاش، وكان في ذلك الوقت يقوم بدورية عادية على دراجته النارية. وعندما وصل الى مكان اعمال الشغب، اقتحم بدراجته النارية الجمهور، ونجح في الاقتراب أمتارا معدودة قبل ان يقطع الناس عليه طريقه ويحيطون به لينهالوا على رأسه ضربا. وشعر دفاش بأن حياته في خطر، فشهر مسدسه وأطلق النار.

لكن لم يصب احد لحسن الحظ. غير ان اطلاق النار أثار ذعرا كبيرا. واتضح، غداة اليوم التالي، ان عدوى الهيجان انتقلت الى زعماء الجبهة الدينية أيضا. وأمرت الحكومة سكرتيرها بالتحقيق فيما جرى بغية استرضائهم. وقد أعاد السكرتير زئيف شيريف تسجيل كل ما جرى بصورة دقيقة ومفصلة. وعكست المادة التي تضمنتها الشهادات التي جمعها واقعا يأسر القلب لمدينة صغيرة، فريدة بين كل المدن، كانت لتوها قد قسمت شطرين. وهذه [المدينة] المقدسة بالنسبة الى الملايين، والتي تقع في قلب الصراع على ارض ــ اسرائيل، والتي فكروا مليا في مستقبلها في كل مكان في العالم، كانت غارقة في خلافاتها.

ولد قائد الشرطة، شيف، في ريشون لتسيون *. وكان معلما، ومستشرقا، وسكرتيرا خاصا لموشيه شاريت. كما كان تحريا وجاسوسا، يمضي أيامه في مهمات سرية، وعرف مغامرات لا تعد ولا تحصى. كان شديد التعصب للقدس؛ فأمثاله جعلوا من المدينة ما صارت عليه، متعددة الألوان ويلفها السحر. وقد جاهد شيف كثيرا لتحقيق سلام بين حماة السبت وأصحاب دور السينما. وتشهد الرسائل التي كتبها على أنه قام بمهمته بلباقة؛ فقد حل، للحظة، ضيفا على عالم غريب غير مألوف يختلف كثيرا عن رتابة الشرطة الكئيبة. وقد كتب الى منظمة حماة السبت يقول: «لن أوافق أبدا على استخدام هذا الموضوع المقدس ذريعة لخرق النظام وللاكراه.» واقترح عليهم القيام بعمل ذي صبغة احتفالية، وذلك بأن يتوجهوا الى المجلس البلدي «او حتى الى حضرة رئيس البلدية نفسه» للتدخل في النزاع والعمل، «بالترغيب والاقناع، على حمل أصحاب دور السينما على الاقلاع عن تدنيس يوم السبت وعن الاساءة الى المشاعر المقدسة للكثيرين من الناس الطيبين، كما يليق بهذا الكنز الغالي والمقدس.» وكان رئيس البلدية، دانييل اوستر، رجل قانون من مواليد غاليسيا، ورجل أعمال ونشيطا في مجال الخدمة العامة. وهو من مؤسسي ضاحية رحافيا، ومعتد بنفسه، ويحبه اليهود والعرب. وقد اخذ على عاتقه مهمة هذه الوساطة، شأنه في ذلك شأن حاكم اللواء أ. بيرغمن. وبعث له بيرغمان بملاحظة عن ملخص احد الاجتماعات، اتضح منها ان مفوضي هيئة الحاخامين، التابعة لأغودات يسرائيل، وافقوا على تأجيل موعد العرض الاول في مطلع السبت من الساعة السابعة والربع الى الساعة السابعة والنصف، حتى لو بدأ السبت بعد الساعة الثامنة، شرط ان تباع التذاكر يوم الجمعة. ورد أصحاب دور السينما: لكن ليس في القدس، لأنها مدينة لا كسائر المدن، وسكانها لا كسائر الاسرائيليين. وعلى دار السينما ان تبدأ العرض في وقت مبكر حتى يستطيع سكان القدس حضور العرض الثاني، لأنهم ينامون

* مدينة صهيونية وأول مستعمرة اسستها منظمة البيلو في فلسطين في موقع عيون قارة العربية سنة ١٨٨٢. وكان سكانها من الصهيونيين المهاجرين من روسيا. وهي تقع جنوبي شرقي تل ابيب وتبعد عنها ١٥ كلم. (المحرر)

في وقت مبكر ولأن باصات النقل تتوقف عن العمل بين الأحياء المعزولة بعضها عن بعض. ولم يخطر في البال احتمال الاكتفاء بعرض واحد فقط في مطلع السبت، اذ خسر أصحاب دور السينما نتيجة تقسيم المدينة خلال الحرب، جمهور المشاهدين القادمين من أحياء المدينة الشرقية، وهم لا يستطيعون خسارة المزيد؛ فقد كانت تذاكر عروض يوم الأحد تباع، عامة، للجمهور المسيحي. كما ان سكان القدس لن يشتروا أيام الجمعة تذاكر لعروض يوم السبت، لأنهم يقررون دائما الذهاب الى السينما في اللحظة الاخيرة. هذه هي عادتهم. وتذمر صاحب سينما «تسيون»، يسرائيل غوت: «ليس من السهل اجراء اي تغيير لدى سكان القدس.» ومن مثل السيد غوت يعرف ما يقول؛ فهو قديم العهد في هذا الحقل، منذ ايام الصور المتحركة. وكان [سكان] القدس، في تلك الايام، يفكرون بمفاهيم انتدابية: مسؤول اللواء سمي «حاكم لواء» في بعض الوثائق، والشرطي سمي «سرجنت». وكانت الشرطة تنسخ تقريرها الرسمي عن أحداث ذلك اليوم على ظهر استمارة من بقايا استمارات موجودة في مستودعاتها منذ أيام البريطانيين، [وتسجل] طلبا لتجديد رخصة دراجة.

وقبل يوم واحد من صدور امر الحكومة باجراء تحقيق في سلوك الشرطة، كتب المدير العام للشرطة، يحزقئيل سوهر، الى الوزير شالوم شطريت: «سأكون ممتنا لك اذا وافقت على لفت انتباه رئيس الحكومة الى ان تشكيل لجنة تحقيق كهذه قد يوجد وضعا مستحيلا في الشرطة، اذ لن يكون في وسع قادة الألوية تنفيذ ما يكلفون به للمحافظة على القانون والنظام، لأن سيف لجنة التحقيق سيكون مسلطا دائما فوق رؤوسهم.» ورد شطريت بكلمة واحدة فقط. فقد سجل على ظهر رسالة المدير العام وبالحبر الاحمر كعادته، عبارة: «للحفظ». وسجلت لجنة شيريف، فيما بعد، ان بعض رجال الشرطة بالغ في استخدام القوة ضد المتظاهرين. وبعد مرور فترة وجيزة، كتب شطريت الى المدير العام [للشرطة] طالبا منه «اصدار الأوامر الى الشرطة، بصفتها حامية النظام العام، للتأثير في أصحاب دور السينما كي يمتنعوا عن بيع التذاكر قبل انصرام السبت، لأن من الافضل لهم تجنب اثارة غضب الجمهور عليهم في الوقت الذي ينتظر قانون عيزر موافقة وزير الداخلية، وهو القانون الذي سيكون على الشرطة تطبيقه بعد الموافقة عليه.» ورد سوهر بأن الشرطة حاولت مرارا التأثير في أصحاب دور السينما، لكنها لم تنجح: «يكفينا واجب تنفيذ القانون، وعلى الغيورين على حرمة السبت توجيه ضغطهم الى المؤسسات التشريعية من اجل اصدار القانون في اسرع وقت.» وكتب شطريت بحبره الاحمر قائلا: «ليس هذا جوابا. فهل حاولت الشرطة التأثير في الاتجاه الذي كتبت بصدده بعد تسلمك كتابي؟!» فقد كان شطريت عرضة لضغط شديد، بحسب اقواله، من الجهات المتدينة. وفي هذه الاثناء، كان فصل الصيف على وشك الانتهاء. وقد كتب له حاكم اللواء في القدس، ش. ب. يشعياهو، مذكرة جاء فيها:

«لا تعمد الى تقديم الساعة في الصيف المقبل، فتحل بذلك المشكلة برمتها.» *

في سنة ١٩٤٩، كان الناس لا يزالون يسافرون أيام السبت عبر ضاحية مئاه شعاريم في اتجاه «بوابة مندلبوم، بوابة المرور بين الشطر الاسرائيلي من المدينة والشطر الاردني. واعتبر سكان الضاحية المتدينة الأمر استفزازا لا يطاق ومساسا فعليا بنمط حياتهم، ولذلك تظاهروا. ** ولم تكن غايتهم الدفاع عن مصلحتهم كجماعة فحسب. فتدنيس حرمة السبت «جهارا» كان، في نظرهم، امرا اشد خطورة من انتهاك حرية الفرد. وقال الحاخام ساغ: «ان على من يدنس حرمة يوم السبت علانية ان يعرف انه يطعن اليهودي الغيور على حرمة السبت طعنات خنجر. ان الأملاك العامة هي ملك لي ولك، ومحظور عليك منعي استنشاق الهواء في الأملاك العامة التي انا شريك فيها.»(٤) ان صيانة حرمة السبت كانت، طبعا، فرضا من فرائض التوراة، ووصية من الوصايا العشر، وتدنيسها يهدد بانزال عقاب مروع بالمدينة كما جاء في سفر ارميا: «فاني أشعل نارا في أبوابها فتأكل قصور أورشليم ولا تنطفىء.» (ارميا: ١٧ ــ ٢٧). كانوا يؤمنون بأن دينهم يفرض عليهم معاقبة مرتكبي المخالفة. وقد جزم البعض «بأن من يثبت عليه الدليل، فانه يستحق الضرب.» كان الصراع على السبت، اذن، فرضا من صلب الفرائض الدينية، والى حد اللجوء الى العنف. وقد رفضت الشرطة القبول بذلك. وقال باخور شالوم شطريت: «اساء هؤلاء الاشخاص الى الجميع، يهودا كانوا ام غير يهود (. . .) وقد اخذت الاساءة شكلا لا يليق بأناس متحضرين: البصق في الوجوه، والرشق بالحجارة، ونثر الزجاج. ووصل الأمر الى حد الاساءة الى القناصل وأعضاء الامم المتحدة (. . .).» وقال الحاخام ليفين: «لماذا لا تفهمون غيرتنا على الوضع الديني في البلد، على حرمة السبت التي ثقفنا بها أنبياؤنا منذ آلاف السنين. وعندما يخرج اليهود، رجالا

---

* سجلت الشرطة، في السنة التالية، عشر تظاهرات من اجل السبت. كما سجلت ١٥ تظاهرة في سنة ١٩٥٤، و ١٩ تظاهرة في سنة ١٩٥٦، ادت احداها الى تشكيل لجنة تحقيق مرة اخرى، لأن احد المتظاهرين ــ ويدعى بنحاس سيغلوف ــ قتل خلالها وأصبح بذلك احد شهداء الصراع.(٢)

** اشتكى عضو الكنيست م.د. ليفنشتاين (أغودات يسرائيل) في استجواب وجهه الى بن ــ غوريون، إقدام أشخاص يرتدون بزات الجيش الاسرائيلي على القاء قنبلة على احد الكنس في شارع مئاه شعاريم. حدث ذلك يوم سبت. فقد تعمد الجنود، بحسب قوله، الاساءة الى مشاعر المصلين. وقال بن ــ غوريون ان الامر يتعلق بسيارة كانت تنقل مواد غذائية الى احد المواقع على الحدود. «ولدى وصولها الى نقطة قريبة من الموقع هاجمتها مجموعة من المواطنين الذين انطلقوا من بيوت [المهاجرين] المجريين ونادوا القائد بـ «هتلر» والجنود بـ «النازيين». ثم انقضوا على السيارة، وحطموا العتاد العسكري فيها. وقد تصرف قائد الفصيلة بأعصاب باردة، فحاول ان يشرح للجمهرة الهائجة مهمة الرحلة لكنه لم يفلح، فأضاء مصباحا يبث دخانا. وقد مكّنه ذلك من مواصلة السير خلف ستار من الدخان.» وانشغلت الحكومة مرة تلو الاخرى، بترتيبات المواصلات في القدس.(٣)

وأولادا، الى الشارع ويشاهدون تدنيس السبت علانية، يصرخون بلوعة باسم السبت، بصوت اسرائيل النافذ الذي يتعالى من حناجرهم. فها هو بالضبط المكان الصحيح لوجود شرطة اسرائيل كي تضرب [الناس] الى حد سفك الدماء.» وقال شطريت: «لم يكتفوا بالهتاف للسبت، بل تسلقوا الشرفات ورشقوا الحجارة من هناك، ودخلوا البيوت. فحطموا الزجاج وألقوا به الى الشارع (. . .) وأصيب لنا خمسة من رجال الشرطة. ولدينا شهادات طبية على ذلك. بعضهم عُضّت ايديهم وآذانهم ومزقت سترات البعض. ماذا كان على الشرطة ان تفعله؟ ماذا لو ان الامر كان معكوسا؟ لقد تظاهر الشيوعيون مرة، فلماذا لم تقولوا حينها ان الضرب ممنوع؟ فقد ضربنا آنذاك ايضا.» وقال ليفين: «لماذا لا تفهمون اننا نعتبر يوم السبت من وجود الشعب اليهودي، ونرى في انتهاك حرمة السبت الغاء للدولة وتدميرا للشعب؟ (. . .) اعلموا اننا نضحي بحياتنا في سبيله.»(٥)

عكست أقوال الحاخام كربا حقيقيا، لأن دولة اسرائيل سمحت لمواطنيها بانتهاك حرمة السبت، سواء في مجال الحرية الفردية او في مجال الحرية العامة. ولقد انتهكتها هي بنفسها ايضا، بتشغيلها شبكات المياه والكهرباء ومعامل صناعية مختلفة، وبث البرامج الاذاعية، وتشغيل شبكة الهاتف، والقيام بالاتصالات الدبلوماسية، اضافة الى تحريك جهاز الشرطة والجيش. وطبعا، يستطيع المتدينون ان يناضلوا، وقد فعلوا ذلك، لكنهم يعرفون ايضا ان اسرائيل لن تكون دولة شريعة، وليس في قدرتها ذلك: ان اغلبية الاسرائيليين لا تريد ذلك، كما ان فرائض الشريعة لا تتيح ذلك لأنها تتعارض ومتطلبات الحياة في الدولة. كانت تلك مشكلة صعبة. ورأى يشعياهو ليبوفيتس ان على اسرائيل كي تصبح دولة شريعة، ان تخضع الشريعة لحاجاتها. وكان، في هذه الاثناء، يفكر في احياء تعديل قوانين الشريعة كي تسمح للعامة وللدولة بما لا تسمح به للفرد. مثل سماحها للدولة بالقتل وتحريمه على الفرد.(٦) ومع مرور السنين، تم تعديل بعض الاجتهادات في قوانين الشريعة، كتلك التي وضعها الحاخام غورين في الجيش، وطوروا بعض الابتكارات التكنولوجية التي أتاحت توفير متطلبات الحياة العصرية من دون المساس بالفرائض الدينية. لكن المشكلة الاساسية بقيت بلا حل؛ فأصحاب الغيرة على الفرائض الدينية لم يجدوا مصلحهم الكبير، ولم يتحقق التوفيق بين قوانين الشريعة ومتطلبات الدولة. وكان هناك من تكيفوا مع الواقع، من دون ان يعرفوا انهم يتساهلون مع ضميرهم وعقيدتهم، سواء كانوا «تقليديين» او «متدينين عصريين»، او غيرهم. وكان هناك من رفض التساهل.

وكان المتطرفون جميعهم ينتمون الى ناطوري كارتا «حماة المدينة»: القدس. وهم جماعة صغيرة متعصبة دينيا، انشقت عن أغودات يسرائيل في النصف الثاني من الثلاثينات، ورفضت قيام الدولة من الاساس. وقد كافح اعضاء ناطوري كارتا ضد الحركة الصهيونية

التي كانت، في نظرهم، حركة ملحدة وهرطوقية لأنها انتهكت العهود الثلاثة التي قطعها اليهود للرب قبل خروجهم الى المنفى كيلا يسببوا الالم للأغيار الذين يقيمون بينهم،وكيلا يحاولوا احتلال اسرائيل بالقوة او استعجال الامور. واعتقدوا ان اعلان الاستقلال نقض اسس قوانين الشريعة، ولذلك رفضوا الاعتراف بالدولة وبقوانينها، حتى انهم أعلنوا انهم لن يهبوا للدفاع عنها لو تعرضت للاعتداء. وكتب عمرام بلوي، الحاخام الاشقر الذي قادهم قيادة هوجاء في تلك الايام، ان رفضهم الذهاب الى الحرب يمكن ان يؤدي الى اخضاع الدولة، لكنه قال أيضا: «ها اننا نرتضي ذلك لأنفسنا منذ البداية وقبل نشوب اي حرب. ونحن نعلن اننا هنا نخضع من دون شروط (...)» وأعلن بلوي استعداد ناطوري كارتا لقبول «سلطة ورعاية اية امة توافق عليها الامم المتحدة، سلطة جميع الامم مجتمعة ورعايتها، لأننا بسبب ذلك وضعتنا العناية الالهية في المنفى. وقد سلك آباؤنا هذا الطريق طوال عهد الشتات حتى اليوم. وهكذا نريد نحن ايضا ان نسلك طريق حياتنا حتى (...) تحين الساعة التي تتطلع نحوها كل عيون [بني] اسرائيل (...).» وطلب بلوي، في البرقية التي بعث بها الى الأمين العام للأمم المتحدة في تموز/يوليو ١٩٤٩، وضع القدس تحت وصاية دولية، واصدار «جوازات الامم المتحدة» للمتدينين اليهود الذي يرغبون في ذلك. وأعلن استعداد ناطوري كارتا لمغادرة القدس الى اي مكان آخر يستطيع أفرادها العيش فيه بموجب التوراة والشريعة. كانت غيرة ناطوري كارتا صادقة، ومتماسكة، ووفية لنفسها، من دون مساومات، ومن دون ارتباكات، ومن دون لف ودوران. وقد ظلت ناطوري كارتا اقلية صغيرة ضمن المعسكر الديني، لكن كان لها تأثير بارز في أغودات يسرائيل، وبالتالي في شبكة العلاقات بين المتدينين والعلمانيين بكاملها، لأن أغودات يسرائيل لم تستطع تجاهلهم واضطرت مرارا الى الانجرار وراء تطرفهم. وقد رفضت أغودات يسرائيل في حينه الصهيونية، لكن جهات فيها باشرت التعاون مع مؤسسات اليشوف في النصف الثاني من الثلاثينات، بعد صعود هتلر الى السلطة في ألمانيا، وفي أعقاب الأحداث الدامية التي وقعت في البلد. ولهذا السبب انسحبت ناطوري كارتا من الحركة، ودأبت منذ ذلك الحين على مهاجمتها بغضب عظيم، واطلاق النعوت الرهيبة على دورها في الحكم الصهيوني. وكتبت ناطوري كارتا في احد بياناتها تقول: «تزعم الأغودات انها جاءت لتنقذ التوراة والدين، لكن هذا كله كذب وافعالها تصفعها على الوجه. ان كل أفعالها مخالفة للتوراة والفرائض الدينية وقوانين اسرائيل. وما مجلس حكماء التوراة (وهو المجلس الاعلى لأغودات يسرائيل) سوى ممسحة لأقدامها تحركه دائما وفق رغبتها ومراميها فحسب (...).»[٧] كان هناك الكثير من السياسة في هذه الحرب التي تعود جذورها الى الخلاف بين الحاخام كوك والحاخام زوننفيلد، وبين الحاخامية الكبرى والطائفة المتدينة، وبين القدس ووارسو وفرانكفورت، وبين

الحسيديم * والمعارضين، وبين الحاخامين الذين يحملون ألقاب سيدنا ومعلمنا ومرشدنا [لقب حاخام حركة الحسيديم] وبين رؤساء اليشيفا [المدارس الدينية] أصحاب الطباع الفظة، بالاضافة الى الكثير من الخلافات التي أثارت الارثوذكسية اللاصهيونية في ارض ـ اسرائيل وأوروبا منذ سنين عديدة: والغريب لا يفهم ذلك. لقد كانت أغودات يسرائيل العالمية، منذ بدايتها، منظمة تعددية ذات بنية اتحادية شاملة. وقد خيم على مؤتمرها التأسيسي، الذي عقد في مدينة كتوفيتس سنة ١٩١٢، التخوف من تصاعد نفوذ الحركات العلمانية الثورية، وضمنها الحركة الصهيونية. وقد تذمر أحد مؤرخي أغودات يسرائيل قائلا «ان فرانكفورت وبرلين وهامبورغ، بل كوفنا وكراكاو، ووارسو وليمبرغ، وسائر المجتمعات اليهودية في اوروبا الشرقية، التي كانت مقدسة طوال مئات السنين، امتلأت فجأة بجحور الالحاد العدائية والهرطوقية التي هزّت اسس الحياة اليهودية التاريخية. وراحت الدوريات والكتب والكراريس تتكاثر كالفطريات بعد المطر، وكانت مفعمة بالكراهية لنمط الحياة اليهودية....» وهكذا اعتبرت أغودات يسرائيل نفسها كمن صمد في وجه عملية البحث عن هوية يهودية جديدة، كانت في نظرها عدوانا علمانيا.

ليس من السهل ان نجد أساس التعاون بين بلاط الأسياد والمعلمين والمرشدين ورؤساء المدارس الدينية اليهودية [اليشيفا] المنافسين في اوروبا الشرقية، وكذلك بينهم وبين الارثوذكسية الألمانية الجديدة التي اتبعت نهج الحاخام شموت رابا هيرش ونهج «التوراة والأخلاق». كما ان السيد المعلم ماغور، شدد في المجمع الكبير الاول، وهو الدولية الدينية للنشيطين والحاخامين، على ان الممارسات تختلف بحسب الدول المختلفة: «فما يصح في هذه الدولة لا يصح في دولة اخرى، بل يمكن ان يكون فيها سما زعافا...». وأكدت تلك الممارسات ان لكل مكان عاداته، ولكل نهر مجراه. وفي البلد ايضا كانوا منظمين جماعات جماعات، وكتلا كتلا، يبجلون يهودا ماتوا منذ زمن بعيد: طشفين، سديغورا، بيرشبورغ، لوديك، طوردا ـ أسماء من عالم اصبح قفرا. كانوا في أغودات يسرائيل يمثلون الواقعية السياسية، ولم يمثلوا مرة المعسكرات المتعارضة التي كانت تتنازع جيلا بعد جيل. وقد حافظوا

* الحسيدية بمعنى التقوى. وقيل ان صحيح الاسم هو الحصيدية، مشتق من الحصيد بالآرامية والعربية، وهو أسافل الزرع التي تبقى ولا يتمكن منها المنجل. والحصيديون هم البقية الصالحة التي لم تتمكن منها ديانات الأغراب وعاداتهم ولم تصرفهم عن عبادة الله على ملة اليهود. اذن، الحسيدية مذهب في الباطنية اليهودية، أسسه بعل شيمطوف (١٧٠٠ ـ ١٧٦٠) الذي كان يمارس الطب على طريقة المشعوذين مدعيا معرفة أسرار الاسم الأعظم. ودعا الى ان العالم هو من فيوض الله، وهو موجود في مخلوقاته كلها، ولم يكن في القديم إلا الله، لكنه انسحب على نفسه، اي حجب بعض أنواره فترك فراغا حلت فيه مخلوقاته. (المحرر)

على نزاعاتهم هنا ايضا في اسرائيل، كأنهم لا يزالون في القدس الليثوانية * ومع الوقت، اسفرت الاعلانات الاتهامية التي كانت الكتل اليهودية المتدينة المنشقة تلصقها على جدران البيوت للنيل من بعضها البعض، وما كتبته من كراريس عن النزاع، عن نفائس في ادب المناظرة الممتعة بصورة لا مثيل لها: من يعاني فعلا ألم الجدل يعرف وحده كيف يشهر بالآخرين بحماسة شاعرية. لقد شهروا بناطوري كارتا كما شهرت هي بهم.

أتى الحاخام يتسحاق (ايتسيا) مئير ليفين الى البلد سنة ١٩٤٠. وكان لا يزال مهاجرا جديدا تقريبا، عندما اقيمت الدولة. وهو لم يكن متمكنا من العبرية الاسرائيلية لدى وصوله. كما لم يتقنها خلال ولايته في الكنيست، ولا عندما كان وزيرا للشؤون الاجتماعية في الحكومة، اذ كان يتكلمها بلكنة اشكنازية. وكانت خطاباته مشكولة بالحركات ليستطيع قراءتها وليفهمه من يستمع اليه. ولد ليفين سنة ١٨٩٤ في جورا كلواريا، وهي مدينة للحسيديم معروفة قريبة من وارسو، سكنها يهود ونبذها يهود آخرون. كان جده حاخاما يلقب بالسيد المعلم والمرشد، وانتقل لقبه بعد وفاته الى ابنه، وهو عم ليفين الذي ما لبث ان اصبح صهره ايضا: اذ زوجه الحاخام السيد المعلم ابنته ماتيل. وكان ليفين آنذاك، في الخامسة عشرة من العمر. وبعد ان استقر في بلاط عمه لبضع سنوات، حط رحاله في وارسو حيث انصرف الى الأعمال التجارية والمصرفية والنشاط العام. وكان ليفين من مؤسسي أغودات يسرائيل البولونية وزعيمها. كان رجلا نشيطا، ومتبصرا، وواحدا من كبار أعداء الحركة الصهيونية. ومع نشوب الحرب العالمية الثانية، نجح أنصار غور في نيويورك في ترتيب خروج الحاخام وأفراد عائلته من بولندا المحتلة بتأشيرة مرور ايطالية. وكان ليفين بينهم. وورث ليفين زعامة حركة أغودات يسرائيل بعد وفاة زعيمي الحركة في البلد موشيه بلفي ويتسحاق بروير، الواحد تلو الآخر، خلال فترة قصيرة.

كانت ناطوري كارتا تتهم ليفين بأنه قال يوما: ويا للهول، ان دولة اسرائيل هي «بوابة الخلاص»، خطوة اولى على طريق المسيح؛ فقد كان ذلك كفرا في نظرهم. ونفت أغودات يسرائيل ذلك، وأعلنت دائرة الدعاية فيها: «ان كل هذا الكلام هو كلام افتراء وخسة، قائم على الكذب الرخيص والمقيت.»(٨) ان أغودات يسرائيل ملتزمة بالهجرة الى اسرائيل عبر التطلع نحو اقامة الييشوف اليهودي ذي الاستقلال الذاتي الديني التربوي. لكنها، خلافا للحركة الصهيونية، لا ترفض المنفى كمبدأ، ولا تؤمن بأن اسرائيل تستطيع ان تضمن الامن المادي لشعب اسرائيل. ومثلما فعلت ناطوري كارتا، شنت أغودات يسرائيل الحرب على الحركة الصهيونية بسبب السمة العلمانية التي وعدت [الحركة] باضفائها على الكيان القومي في اسرائيل. واعترف مرة الزعيم النشيط لبوعالي أغودات يسرائيل، بنيامين

* هذا يعني في الادبيات العبرية المقاطعات المتحدة. (المحرر)

مينتس، بأنه «ربما» كان ممكنا اعتبار دولة اسرائيل «بداية لبداية الخلاص»، لكن ليس الحاخام ليفين.(٩) زار ليفين اسرائيل في الثلاثينات. وأثار احد الكيبوتسات التي شاهدها في نفسه احساسا بالشفقة، بينما اثار — كما قال — لقاؤه ممثلي همزراحي احساسا بالغضب. وعندما عاد الى دياره في وارسو، كتب يقول: «يشاهد أفراد همزراحي الخراب والدمار اللذين احدثتهما الصهيونية العلمانية والقومية المناهضة للدين في النفوس في اسرائيل. كيف تبعد [الصهيونية] الكثير من الشباب عن التوراة واليهودية وتجردها من كل مضمون يهودي وتقبل الأمر بصمت، ثم تعتبر نفسها حزبا دينيا وتتعاون مع أطراف مناهضة للدين. انهم يعملون مع المناهضين للدين، الذين يدمرون اليهودية، بمحبة وأخوة عوضا من محاربتهم. انهم يطلقون سهامهم ضد المتدينين الذين يدافعون عن انفسهم بحجة مسايرة الواقع وضرورة بناء البلد قبل كل شيء. اي واقع يقصدون مسايرته؟ ما هذا الواقع القائم اليوم الذي يقول لك افعل هذا ثم يقول لك في الغد افعل ذاك؟ هل يسمى هذا بناء ام دمارا؟ هل يمكن بناء ارض — اسرائيل على أنقاض اليهودية والتوراة؟»(١٠)

هاجمت أغودات يسرائيل همزراحي بالحماسة نفسها التي هاجمتهم بها ناطوري كارتا. وكما انجرفت هي وراء ناطوري كارتا، انجرف أفراد بوعالي أغودات يسرائيل وراءها، وأفراد همزراحي وراءهم، وانجرف وراء هؤلاء بوعالي همزراحي. وكان يطل من خلف كتفي كل رجل سياسي متدين، رجل سياسي متدين اكثر تطرفا منه، محاولا املاء مواقفه عليه.* وقد شكل هذا الامر دينامية العلاقات بين المتدينين والعلمانيين؛ فقد تحددت مواقف المتدينين بتأثير المتطرفين بينهم، ومواقف العلمانيين بتأثير المعتدلين وربما بتأثير اللامبالين فقط.

ومع اشتداد التوتر بين المتدينين والعلمانيين، حذر البعض من سفك الدماء. وقال عضو الكنيست عاري جابوتنسكي (حيروت)، ابن زعيم التصحيحيين: «نشأ، في مواجهة معسكر ناطوري كارتا المتأهب والزاخر بالغضب الرباني، معسكر ثان للملحدين العدائيين، لا يقل تعصبا.»(١١) لم يكن هذا صحيحا؛ اذ لم يكن هناك قط ملحدون ولا متعصبون حقيقيون.

في احد ايام السبت في أواخر العشرينات، كان ثلاثة شبان يجلسون على مقعد في شارع اللنبي في تل ابيب، يتحدثون ويدخنون السجائر، عندما مر بهم يهودي متدين ونبههم الى

* ظهرت براعم اليهودية الصهيونية ايضا في فترة الهجرة الاولى، لكن منظمة همزراحي لم تتشكل قبل سنة ١٩٢٠، وبمبادرة الحاخام يعقوب راينز. وكلمة مزراحي هي الحروف الاولى من كلمتي مركز روحاني. وكانت هذه الحركة منذ البداية حركة دينية قومية صهيونية. ومع مرور الوقت، تشكلت داخلها كتلة التوراة والعمل ذات الصبغة «اليسارية»، وعرفت ببوعالي همزراحي [عمال المزراحي]، مثل [حزب] بوعالي أغودات يسرائيل الذي نشأ داخل أغودات يسرائيل.

الأمر. أطفأ اثنان منهم لفافتيهما ورفض الثالث قائلا: «لكنني لست يهوديا.» كان هذا هو اوريئيل هالبرين الذي عرف فيما بعد باسم يوناتان راطوش، الشاعر ومبشر حركة الكنعانيين. وقال راطوش بعد مرور عدة سنوات: «لم يكن ذلك الرجل يعرف ما اذا كان عليه ان يقبل كلامي ام لا، وربما لم تكن الأمور واضحة بالنسبة الي أنا ايضا. من الواضح انني لم اكن قط متدينا. كما انني لا احترم الدين (. . .).»[١٢] وقد مثل راطوش و«الشباب العبري» التابع له، او «الكنعانيون»، كما اسماهم خصومهم وكما دعوا انفسهم فيما بعد، الموقف الاكثر مناهضة للدين والذي تبلور في اسرائيل في وقت من الاوقات. لكنهم، وهم الذين اعتبروا انفسهم عبرانيين لا يهودا، كافحوا ضد الصهيونية اكثر مما كافحوا ضد الديانة اليهودية، ووجدوا انفسهم في مفارقة كونهم قريبين من موقف متعصبي ناطوري كارتا المناهض للصهيونية. وكان راطوش مقربا من حركة جابوتنسكي، والايتسل، وليحي، وبريت هابريونيم.* كان «الكنعاني» يميز «الطائفة اليهودية»، اي طائفة المؤمنين بالديانة اليهودية والملتزمين بفرائضها، من «الامة العبرية»، وهي الامة في «ارض الفرات» التي تشمل، بحسب مفهوم الكنعانيين، المسيحيين والمسلمين والدروز وغيرهم ايضا. وقد اعتقد راطوش، وكان لا يزال شابا، ان «المشكلة اليهودية» ستحل نفسها بنفسها: «ان المسألة هي مسألة وقت فحسب، الى حين زوال أفراد مئاه شعاريم، اليهود السود. (. . .) انك لن تجد تجمعا بشريا إلا فيه جماعات متخلفة، من قطاعات معوزة: ان نسبتهم العددية لا تزيد ولا تنقص مبدئيا.» وأظهر راطوش ميلا الى الاستخفاف بتأثير المتدينين، عندما كتب عن «قوزاق ما قبل مجيء المسيح» سنة ١٩٤٩: «انهم اقلية لا اهمية لها في البلد، اقلية تافهة، هرمة، متخلفة وبدائية، تتضاءل بصورة متزايدة. ولذلك وصل الامر بهم الى الحلم بغيتوات ريفية للمحافظة على وجودهم.» وزعم راطوش، فعلا، انه يعاملهم بـ«الاحترام الذي يليق بالغرباء.» وجزم قائلا: «اننا نثور ضد اليهودية عندما يتعلق الأمر بفرض قيمها علينا فقط.» واذا كان صحيحا ان اليهودية طائفة مثل النصرانية، وأن العبرانيين امة مثل الفرنسيين، ففي الامكان ان يكون هناك في الارض الممتدة بين سواحل البحر المتوسط وأنهار العراق، أي «ارض الفرات»، مكان للعبري ابن الديانة اليهودية أيضا، مثله في ذلك مثل العبري المسلم او العبري المسيحي والعبري الدرزي والعبري الشركسي، ومثلهم مثل الفرنسي الكاثوليكي. لم تكن الحركة الكنعانية، اذن، حركة ملحدة: في ارض الفرات كان هناك مكان للمؤمنين أيضا.

اعتبر اكثرية الاسرائيليين انفسهم يهودا، ولو انهم لم يعرفوا معنى الأمر. وكانت هذه مشكلة تعود بدايتها الى القرن السابق، عندما احجم اليهود عن تعريف هويتهم كيهود

* تحالف الارهابيين. وهذه الكلمة مستمدة من الارهابيين اليهود الذين نشطوا ضد الرومان. (المحرر)

باليهودية، وطلبوا هوية يهودية جديدة. لقد اربكهم ذلك في كل يوم وفي كل بلد، كما اربكهم في اسرائيل. وكان مطلب «فصل الدين عن الدولة» الموقف الاكثر «مناهضة للدين» الذي عرض في الكنيست بصورة منقطعة النظير. وقد طلب عاري جابوتنسكي، احد كبار محاربي الدين، ذات مرة من مقصف الكنيست ان يقدم له شطيرة بلحم الخنزير. لكن حتى جابوتنسكي نفسه لم يرفض الدين ذاته؛ فقد ايد فكرة انشاء «مجلس كنسي» يعنى بشؤون الدين، وتجمع ميزانيته من ضرائب تجبى من المؤمنين. وقال في الكنيست: «اعتقد ان للديانة اليهودية مهمات، مهمات كبيرة ومهمة جدا، وانني واثق من ان احدى مهمات الديانة اليهودية هي تهويد العالم. واعتقد ان مهمة الدين ليست تهويد مؤسسات دولة اسرائيل، وانما نقل فكرة اليهودية والاخلاق اليهودية الى العالم كله.»[١٣]

كان يتسحاق غرينبويم يعتبر احد محاربي الدين أيضا. وكان صحافيا ونشيطا سياسيا من قادة اليهودية الصهيونية في بولونيا، ومن اكبر خصوم ليفين هناك. وكان عضوا في مجلس النواب البولوني وحارب ضد فرض إغلاق الحوانيت والمعامل أيام الآحاد بسبب الخسارة المضاعفة التي سيسببها هذا النظام لليهود الذين يراعون حرمة السبت. وبعد سنوات، حارب ضد الطابع الكاثوليكي لقسم الولاء الذي يؤديه الرئيس البولوني. وعندما هاجر الى اسرائيل سنة ١٩٣٣، حمل معه موقفا معاديا للاكليركية، وحاربها هنا كما حاربها هناك. ولم يكن هناك من طلب فصل الدين عن الدولة بمثل لهفته الكبيرة، لكنه هو ايضا لم يحارب الدين بحد ذاته.

مثّل أحزاب الجبهة الدينية الموحدة ١٦ عضوا فقط من اعضاء الكنيست الاول. لكن معظم ممثلي الاحزاب العلمانية كانوا قد تلقوا، منذ حداثة سنهم، تربية دينية من هذا القبيل او ذاك؛ فقد مر الكثيرون منهم بانقلاب داخلي في مرحلة معينة، ثاروا على ماضيهم اليهودي، وكان هذا انقلابا مثيرا للاهتمام من الناحية الفكرية، لكنه لم يكن انقلابا كاملا: حتى تلك القلة التي اعتبرت نفسها ملحدة، ظلت محتفظة بشيء من المعرفة التي اكتسبتها في طفولتها. فهم لم يرغبوا، وربما لم يستطيعوا سلخ انفسهم عن الدين كليا. وبذل الكثيرون منهم جهدا للتأكيد، في كل مناسبة، انهم يحترمون الدين وأنهم قريبون منه بطرائقهم الخاصة.* وقال

* عندما اختتم شمشما آرام، من مابام، خطابه الحاد عن حق الترخيص بتربية الخنازير في اسرائيل لبيع لحومها في السوق، توقف للحظة حيث كان يجلس كالمان كهانا، من بوعالي أغودات يسرائيل، وقال له: «لا تقلق، لن تجد هذا الشيء عندي في البيت. لا بل تستطيع ان تتناول الطعام عندي.» ذلك ما رواه كهانا. أما موشيه سنيه، فلم يرغب في تأييد اقتراح بحظر تربية الخنازير وبيع لحومها، كما انه رفض ان يمتنع عن التصويت، لكنه استجاب لطلب الحاخام كهانا فغاب عن القاعة عندما حانت ساعة التصويت. وهكذا، لم يكن العلمانيون علمانيين تماما، كما لم تكن السياسة التي مارسوها سياسة علمانية تماما.[١٤]

شموئيل دايان، من نهلال،* وهو والد موشيه دايان: «يحسد الكثيرون من المتدينين احيانا لأن الانسان يقف في وقت من الاوقات عاجزا، يشعر بالتفاهة امام القدر والقدرة الالهية.» وروى دايان للكنيست عن تجربة دينية عميقة «تركت آثارها في كيانه» عندما كان يزور مرة كنيسة في روما: «في وسط الصمت العميق والظلمة السائدة، ركعت امرأة وصبية تذرفان الدموع أمام الرب الاعلى (...).» وقال دايان ان انصراف الانسان الى ربه هو في اظهار الاحساس الطاهر المثير للاهتمام. وكان دايان يخشى ضياعنا: «اقلقتنا الهوة التي تفصل السبط اليهودي الصغير، الذي ولد على هذه الارض جاهلا الدين والاخلاق ولا يعرف اي شيء عن المنفى، عن الذي يتعرف على اشقائه اليهود بواسطة معلم او كتاب فحسب. عندما يشاهد أولادنا مستوطنين أوائل من كفار حسيديم في نهلال بلباسهم الطويل وسوالفهم المدلاة، يجدونهم غرباء وبعيدين. وقد اعتصر شيء ما القلب لمرأى لقاء كهذا، وشعرنا برهبة.»(١٥)

ساور هذا الاحساس كيبوتسات هشومير هتسعير ايضا. وتبلور فيها، في العشرينات والثلاثينات، نمط من العيش كاد يكون علمانيا تماما. كان الناس بعيدين جدا عن اليهودية، ومنهم من اعتبر نفسه ملحدا. لكن، باستثناء حالات منفردة، دأبوا على ختان أبنائهم من دون اكراه، لأنهم حافظوا هم ايضا على رابطة ما باليهودية، ولو انها رابطة واهية. وفي الخمسينات، في اعقاب الكارثة النازية وقيام الدولة وحرب الاستقلال والهجرة الجماعية، فقدت مستعمرات هشومير هتسعير شيئا فشيئا خاصيتها العلمانية. ووجدت، مع الوقت، سبلا خاصة بها لربط اليهودية بقيمها ونمط حياتها. وقد تذمر يعقوب حزان من رجال الدين في اسرائيل لأنهم، كما قال، مثل كل زعماء الدين في العالم: «يفتقرون الى اي احساس لفهم الآخرين، والى اي احساس انساني تجاه من ليس مثلهم.» والاستنتاج هو: «لا يوجد حل وسط معكم.»(١٦) لكن سكان مشمار هعيمك أبدوا رأيهم، ايضا، في مسألة كيفية تقريب أبنائهم من حقيقة «وجود المنفى»؛ فقد كتبوا عن ذلك في كتاب اليوبيل الخاص بمؤسستهم التربوية سنة ١٩٤٨.(١٧)

في آذار/مارس ١٩٥١، أنشئت في القدس «رابطة منع الاكراه الديني في اسرائيل.» ووصف الاعلان التأسيسي إنشاءها كـ«نتيجة للخوف الذي سيطر على طبقات واسعة من الجمهور ازاء رغبة منظمات وأحزاب وشخصيات دينية في الهيمنة على حياة الفرد والمجموع، واعرابها علانية عن النية في مواصلة الاكراه الديني وحتى تصعيده، نتيجة الخوف من عصابات الارهاب التي لا تتردد في ارتكاب أعمال العنف.» وفي تلك الاشهر، اجتاحت موجة أعمال

* قرية عربية في مرج ابن عامر تبعد ١٣ كلم عن مدينة الناصرة، أقام الصهيونيون مستعمرة نهلال فوق أراضيها. (المحرر)

العنف القدس، على يد متعصبي ناطوري كارتا وعدد من شباب أغودات يسرائيل الذين انجروا وراءهم.* وقالت «الرابطة» ان أعمالها موجهة، «في الاساس»، ضد سن التشريعات الدينية في الكنيست، لكنها حذرت: «اننا لا نعتبر انفسنا في حل من الرد على محاولات الاكراه الديني بالقوة.» لكن لم تحدث، في الواقع، اية عملية عنف تقريبا ضد المتدينين. وكانت عملية التفجير بالقرب من بيت بنكاس ظاهرة شاذة. ونظمت مئاه شعاريم، في أيام سبت، رحلات ذات طابع تظاهري، شاركت فيها السيارات والدراجات النارية، وأدت تظاهرات المتدينين الى عراك بالايدي مع العلمانيين. لكن هذا كله كان نادرا جدا.

* تعرض هؤلاء لمكتبة لم تكن تروقهم، اذ اعتبروا البضاعة المعروضة للبيع «ادبا بذيئا». كما أضرموا النار في ملحمة تبيع لحم الخنزير، ومن ثم بدأوا يعتدون بانتظام على السيارات التي تشاهد متنقلة ايام السبت؛ كانوا يتذكرون أرقامها بواسطة أرقام صفحات كتب الصلاة التي بين ايديهم، وخلال الاسبوع ذاته يقومون بتخريب هذه السيارات. فقد أحرقوا نحو عشرين منها. وخلال النصف الثاني من سنة ١٩٤٩، او في مطلع سنة ١٩٥٠، رفع تقرير الى دافيد بن-غوريون وضعته اجهزة الامن، على ما يبدو، ويتناول منظمة المنبهين ليوم السبت جاء فيه: «قبل بضع سنوات، لم يكن لهذه المنظمة اي لون سياسي، والذين انضموا اليها جاؤوا من اوساط الييشوف القديم كافة. وفي السنوات الاخيرة، ازداد نفوذ ناطوري كارتا داخل منظمة المنبهين ليوم السبت.»(١٨) وفي ١٤ ايار/مايو ١٩٥١، كان الكنيست يستعد لمناقشة مسألة تجنيد النساء في الجيش الاسرائيلي. وقد زعم وزير الشرطة باخور شالوم شطريت، فيما بعد، ان مجموعة من المتدينين كانت قد خططت لقطع التيار الكهربائي خلال المناقشة والقاء قنبلة صوتية من شرفة الجمهور في الكنيست الى داخل قاعة الجلسة الملتئمة بقصد التخويف. وكشف الوزير هوية هؤلاء المتدينين الذين ينتمون، كما قال، الى حركة سرية تطلق على نفسها اسم «بريت هاكنائيم» [حلف المتعصبين]. وكانت اجهزة الامن قد علمت بأمر هذه المجموعة لأن لديها مخبرا فيها.(١٩) وعلم رئيس الكنيست يوسف شبرينتساك، منذ البداية، بخطة الاعتداء فسارع الى انهاء الجلسة خلافا لرأي جهاز الامن العام الذي كان يأمل باعتقال المتآمرين خلال تنفيذهم العملية. واعتقل نحو ٤٠ متدينا بينهم امرأة واحدة. وكما قال وزير الشرطة، وجدت في حيازتهم ثلاثة مسدسات، ورشاش ستن، وبعض القنابل اليدوية، وكمية من الرصاص، وقذيفتان من صنع يدوي. ونقل الموقوفون الى معسكر الاعتقال في الياجور، وهو الجملة، حيث تعرضوا لمعاملة سيئة وللإذلال. وعندما شاعت هذه القضية طغت الفضيحة على الأعمال الارهابية التي قام بها المتدينون، وعلى تلك التي كانوا يزمعون القيام بها. وبحسب أقوال شطريت: لنفرض احترام حرمة السبت في البلدة بالقوة بواسطة المجموع في بادىء الامر، ومن ثم بواسطة الفرد.(٢٠) وعين الكنيست لجنة تحقيق برلمانية كانت الاولى والوحيدة من نوعها، انتقدت بشدة معاملة الشرطة للموقوفين. وعرف احدهم، فعلا، كيف يجعل من اعتقاله نقطة انطلاق لاحتراف مهنة السياسة التي وصل فيها الى الذروة بتولي قيادة حركته؛ كان هذا هو شلومو لورنتس. لقد ضخمت اجهزة الامن كثيرا «خطر العمل السري» المتربص، زعما، في نشاط المتدينين. حدث ذلك قبيل انتخابات الكنيست بوقت قصير جدا في ايار/ مايو ١٩٥٣، اذ اعتقلت الشرطة شابين من المتدينين بتهمة التخطيط لوضع عبوة ناسفة عند مدخل وزارة التربية احتجاجا على قانون التعليم الرسمي.

وكان ان انضم بعض نشيطي الرابطة الى أوساط اليسار السياسي، بعضهم جاء من المركز وبعضهم شخصيات يمينية بارزة. وقد عملوا معا لهذه القضية وحدها. وذكر اعلان تأسيس الرابطة: «اننا جميعا نوحد الفكرة الواحدة والوحيدة. ان شؤون الدين والعقيدة هي مسألة شخصية تخص الانسان وحده.» وكان بين الأعضاء أساتذة جامعات، ومحامون، وصحافيون، بالاضافة الى شخصيات غير عادية، مثل عاري جابوتنسكي، ويتسحاق غرينبويم، ويوناتان راطوش وشقيقه النشيط، وعوزي اورنان الذي عمل سكرتيرا للرابطة. وقد حرصوا على الاشارة الى انهم لم يأتوا لمحاربة الدين او رجاله، بل على العكس من ذلك زعموا انهم يحترمون كل معتقد ديني ويؤيدون الارادة الحرة لكل انسان متدين لممارسة فرائض دينه وتقاليده. «بديهي ان التدخين يوم السبت في تخوم مئاه شعاريم تحديدا ليس أمرا ملحا.» هذا ما قاله رئيس الرابطة البروفسور شالوم غولدمان، في جلسة خاصة لـ«لجنة سلام» خاصة، اقيمت في القدس من اجل تخفيف حدة التوتر الذي كان سائدا بين المتدينين والعلمانيين في أعقاب افتتاح «موعادون هاماريف» [نادي الخصومة]. ورأى غولدمان ان نادي الشبيبة هذا يقع قريبا جدا من مئاه شعاريم فعلا. بل اعتبر فكرة اغلاق طريق مئاه شعاريم امام حركة النقل أيام السبت فكرة محقة. لقد قالوا ان حربهم موجهة ضد هدف فرض «نمط حياة القرون الوسطى» على من ينحصر كل مبتغاهم في العيش والسلوك بحسب ما تمليه عليهم ضمائرهم. وجاء في بيان اصدروه للجمهور الديني: «اننا لا نعترضكم في تأدية صلواتكم وفي تناول الكاشير [طعام معد وفق الشريعة اليهودية] وفي التحصيل في اليشيفا كما تبتغون، فلا تعترضونا. احترموا حرمة السبت في بيوتكم، ودعوا كل انسان يتصرف بحسب ما يملي عليه ضميره.»[٢١]

لقد نشروا بيانات في الصحف، ووزعوا مناشير، وظهروا في اجتماعات، وأقاموا علاقات بالصحافة، وسعوا ما سمحت لهم به قدرتهم المحدودة ليكون لهم نفوذ لدى رجال السياسة ورؤساء البلديات وموظفي الادارة الحكومية. وقد نسبوا اليهم بضعة انتصارات صغيرة، لتشجيعهم على مواصلة طريقهم. وهناك قصة زوجين أرادا الزواج؛ كانت [الامرأة] مطلقة، واسم [الرجل] كوهين. وقد رفض الحاخامون عقد زواجهما، ولم يعيروا اهتماما لمزاعم آربيه لايسنر، الذي أضاف الى اسمه الاجنبي اسم كوهين لانه أراد لنفسه اسما عبريا عندما هاجر الى البلد في اطار هجرة الشبيبة، ولم يعرف اسما اكثر عبرية من هذا الاسم. لم يصدقه الحاخامون، ولجأوا الى اسلوب المماطلة. فاهتمت الرابطة بالموضوع، وزعمت في نشرتها انها هددت فعلا بتحويل القضية الى فضيحة عامة. وكان ان دعي الاثنان الى مجلس الطائفة، حيث عقد قرانهما وفقا للأصول الدينية والقانونية. وقد تباهت الرابطة بانتصارات اخرى، ورفعت سلسلة من المطالب الى محكمة العدل العليا للنظر فيها: العمل بالزواج

المدني، وتشغيل وسائل النقل العام، وعرض الافلام السينمائية أيام السبت، واستيراد اللحوم ذات النوعية الجيدة والسعر الرخيص، حتى لو لم تكن كاشير، وتشغيل الأفران أيام عيد الفصح [عند اليهود]، وتأمين المواد الغذائية للجنود الذين يريدون ذلك في يوم الغفران، وما شابه. لقد خلفوا وراءهم بعض الرواسب من الوعي العلماني، وصنعوا شيئا ما من اجل ان يبقى الكفاح ضد الاكراه الديني قضية ثابتة في السياسة الاسرائيلية، لكن الكثير [من مطالبهم] لم يتحقق، وكان ان تلاشوا في النهاية. لقد جاؤوا متأخرين منذ البداية؛ فالموقف من فصل الدين عن الدولة كان قد حسم قبل ان يهبوا الى العمل بوقت طويل. هذا، بالاضافة الى امر آخر أيضا، وهو ان الارتباط الوثيق بين الديانة اليهودية والحس القومي اليهودي والفرائض العملية الكثيرة التي فرضتها اليهودية على الفردوعلى الجمهور كله، جعل من فصل الدين عن الدولة ومنع الاكراه الديني، بأية صورة من الصور، موضوعا يمكن ان ينفذ كنتيجة لاخضاع المتدينين للعلمانيين فقط. ولم تكن أغلبية الاسرائيليين ترغب في ذلك. وردا على تظاهرات السبت قرب دور السينما في القدس، نشر المجلس العمالي في المدينة اعلانا عاما كبيرا مطبوعا باللون الأحمر حذر بأن «كل من يمس قوانين الدولة او كل من يخالف دستورها سيواجه مقاومة شديدة.» وقال الاعلان: «لتسقط الدعاية الاثيمة التي تقوم بها قوى السوء في اليشوف، ولتسقط المحاولات المجرمة من اجل فرض نظام ديني على اليشوف. وسيتجند العمال ضد هذه المكائد، ومعهم القوى التقدمية، لأنهم الاغلبية الساحقة من سكان القدس.»[٢٢] لكن عندما دعت كل من رابطة منع الاكراه الديني، وحركة «الكنعانيين»، وماكي [الحزب الشيوعي الاسرائيلي]، ومابام، الى التظاهر ضد القوانين الخاصة بيوم السبت — وبينها انظمة ايام التعطيل التي وضعها الوزير بينكس — استجاب بضع مئات فقط وليس الالوف. لقد انتهك الاسرائيليون انظمة بينكس هذه الى ان تم إلغاؤها، لكنهم لم يتظاهروا ضدها. وخرجوا الى الشواطىء للسباحة ايام السبت، ولم يناضلوا من اجل تشغيل وسائل النقل العام أيام السبت. وكانوا يندفعون الى مشاهدة مباريات كرة القدم، لكنهم لم يثوروا ضد حظر فتح دور السينما في مطلع أيام السبت. هذا هو، اذن، الفارق الاساسي بين هؤلاء وأولئك: المحافظون على حرمة الفرائض الدينية ناضلوا من أجل أنماط حياتهم، والعلمانيون لم يجنحوا الى النضال من أجل أنماط حياتهم. ولم تتشدد اكثريتهم حيال مراعاة الفرائض الدينية. وبهذا المعنى لم تكن دينية. لكنهم جميعا لم ينسلخوا كيهود عن اليهودية، واعتبروا انفسهم جميعا مرتبطين بالتراث اليهودي فاحتفظوا بنمط حياتهم، ولو وفق بعض الفرائض الدينية. قال عاري جابوتنسكي: «اننا اعتدنا منذ أيام الطفولة ان ننظر الى الدين نظرة معينة؛ انها نظرة كل واحد منا الى جدته التي تشعل الشموع أيام السبت، والى جده الذي يذهب الى الكنيس.»[٢٣] وهذه هي الارضية التي جعلت التعايش ممكنا.

قبل قرار الامم المتحدة في ١٩ تشرين الثاني / نوفمبر، كانت أغودات يسرائيل تعارض اقامة دولة يهودية، لكنها لم تجاهر بمعارضتها هذه.(٢٤) وكان هناك في اوساط الحركة من قدم أفكارا بديلة: اطالة امد الانتداب، اقامة اتحاد يهودي عربي، خطة لتقسيم البلد الى كانتونات مع منح الطائفة المتدينة حقوق الحكم الذاتي، الخ. اي شيء في نظرهم كان افضل من دولة يهودية تنتهك فرائض الشريعة. وأوصى كل حكماء التوراة الحركة بتجنب التعبير عن رأيها علانية، لا ايجابا ولا سلبا، خشية ان يتشكل «خطر على العامة من الناس وعلى الفرد»، كيلا «يحمّلونا نحن مسؤولية شعب اليهود المتدينين ضد اقامة الدولة وعرقلتها.» وعلى الرغم من انهم كانوا يعلمون ان الدولة التي ستقوم لن تحكم بموجب التوراة، فقد بذلوا ما في وسعهم للتأثير في طابعها.
وفي تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٦، عقد الحاخام ليفين اجتماعا مع موشيه شاريت وأليعيزر كابلان. غير ان هذين الاثنين وعداه باستقلالية التربية الدينية وتثبيت السبت كيوم راحة رسمية فقط. واستمرت المفاوضات عدة اشهر. وكان بن ــ غوريون وكثيرون غيره يتدخلون في المداولات، وكان بينهم المتدينون والعلمانيون. وكان موشيه سنيه احد هؤلاء، الذي اصبح شيوعيا فيما بعد على الرغم من انه تعلم في شبابه في «الحيدر» [المدرسة الدينية الابتدائية]. وسعى عشية اقامة الدولة، عندما كان لا يزال قائد القيادة القطرية لـ «الهاغناه»، للتقليل من الخلافات في وحدة البيشوف الى الحد الادنى. وفي حزيران/يونيو ١٩٤٧، مكثت في القدس لجنة اونسكوب *، وهي لجنة التحقيق التابعة للأمم المتحدة، التي ادت توصياتها الى قرار التقسيم واقامة الدولة. وبطبيعة الحال، كان زعماء الوكالة [اليهودية] مهتمين بأن يظهر البيشوف اليهودي كجبهة موحدة أمام اللجنة، وطلبوا منع ممثلي اليهودية الارثوذكسية من التعبير أمام اللجنة عن معارضتهم اقامة الدولة. وقبل ايام معدودة من مثول الحاخام ليفين امام اللجنة التقى، مع بعض زملائه، بن ــ غوريون وطلب ضمانات بأن تنفذ الدولة العتيدة سلسلة من المطالب التي تقدموا بها. ورد بن ــ غوريون بأن «دستور الدولة ستنظمه الجمعية الوطنية التشريعية. والى حين تنظيم هذا الدستور، لن يكون في الامكان ضمان اي شيء مسبقا.» غير ان وفد المتدينين لم يتنازل عن موقفه، وطلب عدم العمل بالزواج المدني، والمحافظة على حرمة السبت والكشيروت، واستقلالية التعليم، وحرية المعتقد الديني. ويشير المطلب الاخير الى الخوف العميق الذي كان يتملكهم ازاء اتجاه الحكم اليهودي العلماني. وقد وعد بن ــ غوريون بدرس هذه الامور. وذكر ليفين: «لقد قال كلاما جميلا، لكنه في الواقع لم يعط اي جواب ملزم.»

* اللجنة الخاصة للأمم المتحدة بشأن فلسطين. (المحرر)

وفي الأيام التالية، ركزوا [زعماء الوكالة اليهودية] على رسالة موجهة من المجلس التنفيذي الى أغودات يسرائيل، يناقشون كل جملة فيها ويزنون كل كلمة. وحرصوا، في الصيغة النهائية للرسالة، على الاشارة الى ان المجلس التنفيذي للوكالة غير مخوّل ان يضع مسبقا دستور الدولة اليهودية التي ستقوم، كما أكدوا ان الدولة لن تحظى باعتراف الامم المتحدة اذا كانت دولة خاضعة للسلطة الدينية. «ومن الواضح انه سيكون من الضروري ضمان المساواة الكاملة في الحقوق لكل المواطنين، سلفا، وانعدام الاكراه او التمييز في شؤون الدين او في شؤون اخرى.» كما كانت هناك امور مماثلة في المقدمة، لكنهم في النهاية تعهدوا بما يلي:

«أ ــ يوم السبت: من الواضح ان يكون يوم الراحة في دولة يهودية هو يوم السبت، على ان يسمح للمسيحيين والمنتمين الى ديانة اخرى بالتعطيل في يوم عطلتهم الاسبوعي.

ب ــ الكشيروت: يجب اتخاذ التدابير اللازمة كافة لتوفير طعام الكاشير في كل مطبخ رسمي مخصص لليهود.

ج ــ الاحوال المدنية: ان كل اعضاء المجلس التنفيذي [للوكالة اليهودية] يقدرون جدية المشكلة وصعوبتها الكبيرة، وسوف تعمل جميع الهيئات التي يمثلها المجلس التنفيذي كل ما في وسعها في هذا الشأن لتلبية الحاجة الماسة الى المحافظة على سلامة الدين، ولمنع انقسام الشعب اليهودي الى قسمين معاذ الله.

د ــ التعليم: سيتم ضمان استقلالية كاملة لكل تيار في مجال التعليم (وبالمناسبة، فان هذا النظام معمول به الآن ايضا، في المنظمة الصهيونية وفي كنيست اسرائيل). ولن يتعرض الحكم للمعتقد الديني وللضمير الديني لأية فئة في اسرائيل. وان الدولة، كما هو معلوم، ستحدد الحد الادنى من حصص التعليم الالزامي: اللغة العبرية، والتاريخ، والعلوم، وما شابه ذلك، وستشرف على انجاز هذا الحد الادنى، لكنها ستعطي كل تيار الحرية الكاملة في ادارة دفة التعليم بحسب معتقده، وستتجنب اي مساس بالضمير الديني.»

ووقع بن ــ غوريون الوثيقة بنفسه. ووقع الى يمين توقيعه الحاخام ي. ل. فيشمان ميمون كضمان بألا يتراجع عن تعهداته، ووقع الى يسار توقيعه يتسحاق غرينبويم كضمان بأن الجهات الاكثر تطرفا في مناهضة الاكليركية قد ايدت ما هو مدوّن، ولن تجبره على التراجع عن تعهداته. ولم يضمن البند الاول حظر انتهاك حرمة السبت، كما لم يضمن البند الثاني حظر المواد الغذائية غير المحللة دينيا. أما البند الثالث فقد كان مبهما، ولو انه اعطى أساسا للافتراض ان دولة اسرائيل لن تعمل بالزواج المدني. كذلك أعطى البند الرابع أساسا للافتراض انه سيكون ممكنا التوصل الى اتفاق في شأن المسائل التربوية. وفي الحصيلة النهائية، فان الرسالة [الوثيقة] عبرت عن نية طيبة واستعداد لمسايرة المتدينين. وقد عرفت هذه الوثيقة،

فيما بعد، كأساس للوضع الراهن في شؤون الدين، لكنها كانت في حقيقة الامر مجرد خطوة اولى، أساسا للتفاوض.* وقبل انصرام السنة عشية حرب الاستقلال، اعلنت التعبئة العامة في البلد. وبناء على طلب أغودات يسرائيل آنذاك، وحتى قبل اقامة جيش الدفاع الاسرائيلي، تمت الوافقة على اعفاء النساء المتدينات من الخدمة [العسكرية]، مما يعد سابقة واضافة اولى الى «الوضع الراهن».

وقبل ان تنضم أغودات يسرائيل الى الحكومة التي ألفها بن ـ غوريون بعد انتخابات الكنيست الاول، كانت هناك فعلا حاجة الى مفاوضات جديدة. وسجل بن ـ غوريون في مذكراته: «جاءني (عضو الكنيست مئير دافيد) ليفنشتاين من أغودات [يسرائيل]، قبل قرارها [الحركة] الانضمام الى الحكومة. وقد أراد ان يعرف ماذا قصدت بكلامي عن مساواة المرأة، وما اذا كانت التعهدات التي أعطاها فيشمان وغرينبويم وأنا في حينه بشأن يوم السبت والكشيروت وقوانين الأحوال الشخصية، سارية المفعول. قلت له ان مساواة المرأة تعني كل حقوق الرجل في الشؤون الدنيوية: الارث، والملكية، وحق الادلاء بالشهادة، وما شابه ذلك. ولن نتعرض لشؤون الأحوال الشخصية والأحكام التلمودية. لكنه سأل ما اذا كانت (الجمعية التأسيسية او الكنيست) ستستمزج رأي حكماء التوراة قبل ان تتخذ قرارا بصدد مسألة جوهرية. وقد اجبت بلا مطلقة. سيتم انتخاب حاخامين، يجلسون في الداخل ويبدون رأيهم، وتقرر الاكثرية.»(٢٥) وبعد مرور شهر، تحدث الى الحاخامين ميمون وليفين، والى موشيه شابيرا، عن الصيغة النهائية لخطوط الحكومة الاساسية. «انهم يوافقون على الفقرة القائلة ان الحكومة هي التي ستوفر حاجات الدين، لكنهم لا يريدون في نهاية الفقرة (عبارة) (ولكنها ستمنع الاكراه الديني)، قلت ان عليهم الاختيار: فإما محوها كلها وإما قبولها كلها.»(٢٦) وقرروا قبولها كلها.(٢٧) ومضى شهر آخر انكب خلاله بن ـ غوريون على كتابة رسالة جديدة، كان من المفروض ان يبعث بها الى الحاخام ليفين. وبكلام آخر: لقد تراجع عن تعهداته المتعلقة بالسبت والكشيروت. وأضاف ان الدولة ستلبي حاجات الدين العامة، وستمنع الاكراه في شؤون الدين. وقد اجريت مفاوضات في شأن صيغة هذه الرسالة ايضا، ووضعت صيغتان على الاقل قبل الموافقة على الصيغة التالية: «ستضمن [الدولة] حرية الدين وحرية الضمير، وهذا يعني ان كل مواطن في الدولة يستطيع ان يصون، بحسب طريقته، شعائر دينه. ولن يكون هناك اي اكراه من جانب الحكومة في هذا المجال. كذلك، ستضمن لكل فرد حرية الضمير للعمل بحسب معتقده الشخصي شرط ألا يمس ذلك قوانين الدولة وحقوق الآخرين. وان وضع المرأة القانوني في دولة اسرائيل سيكون مساويا في كل الشؤون المدنية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والتربوية، لحقوق الرجل. وهذه

* عندما مثل الحاخام ليفين أمام لجنة اونسكوب لم يؤيد اقامة الدولة اليهودية، لكنه حاذر معارضة اقامتها.

المساواة ستكون ملزمة للمحاكم الدينية اليهودية ايضا، التي تصدر أحكاما في مسائل الأحوال الشخصية، والارث، والنفقة الزوجية، وغيرها. ولن تتقدم الحكومة بقانون للزواج المدني والطلاق المدني في الدولة، وستعمل وفق القانون الساري في هذه المسألة. وان التيارات المختلفة في المجال التربوي ستتمتع من الآن فصاعدا بمكانتها المستقلة في جهاز التعليم الحكومي، بما يتفق والفصل السابع من برنامج الحكومة الذي اقره الكنيست (...).»(٢٨) لم يكن ذلك تحسينا كبيرا قياسا بالكتاب السابق، حتى ان مادة حرية الدين والمعتقد كانت تراجعا في نظر المتدينين. ولم يساورهم الخوف، في تلك الاشهر، من ان تفرض الحكومة عليهم انتهاك أحكام الهلاخا [الشريعة اليهودية]. كانوا يريدون من الحكومة ان تفرض على جميع الاسرائيليين التزامها. لكنهم وافقوا، فيما بعد، على اعفاء النساء المتدينات من الخدمة في الجيش الاسرائيلي؛ وبذلك تنازلت المؤسسة العلمانية عن مبدأ توزيع العبء الامني بالتساوي على كل مواطني اسرائيل، وعن مبدأ المساواة بين النساء والرجال، واعترفت ـ كما يبدو ـ بالعيوب الخلقية التي نسبها المتدينون الى الجيش الاسرائيلي. وقبل انتهاء السنة، جاء وفد من اعضاء هبوعيل همزراحي الى بن ـ غوريون، وطلب منه تشكيل وحدات خاصة في الجيش الاسرائيلي للجنود المتدينين. كما طلب منه ان يحتفظ بعدد من الوظائف في وزارة الدفاع للموظفين المتدينين. ورفض بن ـ غوريون الطلبين. وقال: «قلت لهم [أ] ـ ان جيشنا سيبقى موحدا، بمنأى عن التيارات؛ ب ـ ومن اجل وحدته سنلزم الجميع بالكشيروت؛ ج ـ سنضفي جوا يهوديا على يوم السبت؛ د ـ سنعلم الاحترام المتبادل بحيث لا يسخر جندي لا يؤدي الصلاة من جندي يحمل كتاب الصلاة.»(٢٩)

واستمر الصراع على السبت، في هذه الاثناء، في كل مكان في البلد تقريبا؛ فقد ثابر حاخامو الأحياء، ونشيطو المجالس الدينية، وممثلو الأحزاب الدينية في المجالس المحلية والبلديات، على تسجيل كل حادثة انتهاك علني لحرمة السبت علموا بحدوثها، وعملوا على وضع حد لها. ومع مرور الزمن، تحول هذا النشاط الى عمل منهجي، عميق ومنسق في مركز قطري: «كان المجلس العام من اجل السبت» ينشط في وزارة الاديان في القدس. وركز جهوده على التجمعات السكنية. وكان هدفه اضفاء الطابع الديني العميق على أنماط الحياة في الدولة كلها. وكان نشيطو المجلس ينتسبون، عامة، الى اوساط همزراحي. واستند نشاطهم الى قوانين مكملة محلية، كالقانون الذي سن في تل ابيب سنة ١٩٣٧، وكان الاول من نوعه. غير ان البلدية لم تكن صارمة في تطبيقه فاقترح المحافظون على حرمة السبت تجنيد تلامذة المدارس الدينية لهذا الغرض، بحيث يكونون مثل «رجال شرطة السبت.» لم يحاول المجلس [العام] من اجل السبت فرض [حرمة] السبت في المجال الشخصي، كما لم يحاول ان يفرضه خلافا للقانون. لكن في الأماكن التي كانت تفتقر الى قوانين مكملة ملائمة، عمل نشيطو

المجلس من اجل استصدار مثل هذه القوانين، وعملوا في الوقت ذاته على التشدد في تطبيق نصوص القوانين السارية وفرضها، وذلك على مستوى محلي محدود، بالاتصال الشخصي اليومي، ومن دون انقطاع. وبين قضية وأخرى، ومع مرور الوقت، برز نفوذهم المتراكم في كل مكان. وبعد فترة وجيزة، قدم المجلس تقريرا عن ٣٠٠ حادثة عالجها في عشرات الأمكنة السكنية، بمعدل حادثتين في الاسبوع. ووقع نحو ربع هذه الحوادث في وسائل النقل العام: الباصات التي تسير داخل المدن وبينها، وفي القطار وطائرات «أل ــ عال». وتضمنت نشرة المجلس الصادرة في أيلول/سبتمبر ١٩٥٢، ما يلي: «بعدما اتضح ان ادارة «أل ــ عال» لا تلتزم ما تعهدته شفهيا وكتابة بعدم تنظيم رحلات جوية أيام السبت، وجّه مكتب المجلس احتجاجا الى وزارة المواصلات على رحلات طائرات «أل ــ عال» الجوية أيام السبت وطلب وقفها.» وقد ردت الوزارة على المجلس بما كانت قد اجابت به الحاخام كالمان كهانا من قبل: ان «أل ــ عال» لا تسيّر رحلات جوية أيام السبت إلا «في حالات الضرورة.» وان ربع الحوادث التي عالجها المجلس حدث في صالات دور السينما، وفي المسرح وأماكن اللهو في امسيات السبت. كما ان ربع هذه الحوادث على علاقة ما بمسألة العمل أيام السبت في المصانع، والباقي بمجالات اخرى مختلفة: باعة متجولين، حوانيت، مطاعم، وما شابه ذلك.

حاول رؤساء البلديات الذين لم يكن وضعهم متوقفا على المشاركة الائتلافية مع ممثلي الأحزاب الدينية، مقاومة نشيطي المجلس. فلم يسارعوا الى الدفع الى سن القانون الخاص بيوم السبت، ولم يتشددوا في تطبيقه. ولأن وزارة الداخلية لم تكن في يد الوزير شابيرا، وهو عضو هبوعيل همزراحي، فقد حظي رؤساء البلديات المعارضون بالدعم: كان الوزراء غرينبويم وروكاح ثم بار ــ يهودا، يميلون الى عرقلة اقرار القوانين المكملة لفرض يوم السبت. ولم يرغب قادة الشرطة المحلية في مساعدة نشيطي السبت. وبناء عليه، بعث مدير المجلس، موشيه رايخ، بارشاداته الى أعضاء المجلس عن كيفية تقديم شكوى جزائية مفصّلة. وكتب رايخ: «لا يحق لقائد الشرطة رفض هذا الطلب المعلّل، اذا كان لا يريد التورط في جنحة اهانة المحكمة.» وأضاف: «اذا تصرفتم وفق تلك التعليمات تماما، فان المعالجة الكاملة لدعاويكم على منتهكي حرمة السبت تصبح مضمونة عندئذ (. . .) وتنجحون، بعون الله، في لجم المخالفين، حتى لو لم يكن لجما كاملا. فقد تضمنون لجما جزئيا في اية حال (. . .).»[٣٠]

في سنة ١٩٤٩، صاغت منظمة «بريت هاشابات» [رابطة السبت]، التي كانت من المبادرين الى تظاهرات السبت في القدس، ومن زعمائها الحاخامان الاكبران، [مشروع] قانون السبت الأساسي الذي أملت بتحويله الى قانون داخلي في القدس، ومن ثم الى قانون دولة طبعا. لكنها لم تفلح في ذلك. وقد احتوى ذلك الاقتراح على ما يلي: «يحظر في أيام السبت والأعياد تشغيل المواصلات، سواء السيارات او العربات او اية وسيلة نقل اخرى.

وتغلق محطة الاذاعة في القدس أيام السبت والأعياد. أما الاعمال التي تعتبر انتهاكا للسبت وتسري عليها الغرامة والعقوبة الحكوميتان، فانها مفصلة كما يلي: ممارسة اي عمل او حرفة مثل: اشعال النور، وايقاد النار، والتدخين، واسماع أصوات الآلات والأجهزة وأدوات التنبيه. أما النشاطات المنظمة المختلفة، مثل الاجتماعات المهنية، والمؤتمرات، والحفلات، والافراح، والعروض المسرحية، والمعارض، وجميع نشاطات الرياضة والتنظيم وما شابهها، فمسموح بها بعد موافقة لجنة السبت فقط (. . .) وتعين البلدية نصف عدد أعضاء لجنة السبت، بينما ينتدب الحاخامان الاكبران النصف الآخر. ويجب ان يكون الأشخاص الذين يعينون اعضاء في اللجنة من الذين يراعون حرمة السبت في حياتهم الخاصة ايضا (. . .) وكل شخص لا ينصاع للأنظمة التي تضعها لجنة السبت سيتعرض لدفع غرامة تصل الى ١٠٠ ليرة (مائة ليرة)، او للسجن مدة تصل الى ثلاثة اشهر، او للعقوبتين معا.»[٣١] كان هذا اذن [التدبير] المثالي. وأقر مجلس الدولة الموقت ان يوم السبت وأعياد اسرائيل أيام راحة، لكنه لم يحدد ما هو مسموح به وما هو محظور، كما انه لم يحدد انظمة معاقبة المخالفين. وعينت خطوط الحكومة الاساسية السبت وأعياد اسرائيل أيام الراحة الثابتة لليهود. وبعد مضي فترة قصيرة، بوشر العمل في سن قانون ساعات العمل والراحة. وكان هذا قانونا اجتماعيا يهدف الى حماية الاجراء وضمان حقوقهم في يوم الراحة. ولم يستند الى تعليلات توراتية، ولذلك أثار معارضة المتدينين. وقد اثارت المادة ١٢ بالذات حفيظتهم لأنها سمحت بالعمل يوم السبت لا للدفاع عن امن الدولة فحسب، بل لمنع «الاضرار الكبير بالاقتصاد» ايضا. وحتى أولئك المتدينين الذين اعترفوا بضرورة السماح بأعمال معينة ايام السبت، كانوا يفضلون لو ان القانون لا يذكر ذلك صراحة. فقد أرادوا ان تكلف الحاخامية الرئيسية مهمة منح الاذونات، لا اللجنة الوزارية، واشتكوا كون القانون يقيد عمل اليهود والاجراء فقط، وليس عمل العرب اوذوي الاعمال الحرة. وقال ي. م. ليفين: «اعتقد ان علينا ان نعد، في بادىء الامر، قانون السبت قبل ان نناقش قانون ساعات العمل والراحة، على الرغم من اننا لا نحتاج حقا الى قانون سبت جديد، اذ لدينا قانون سبت منذ حصولنا على التوراة وحتى قبل ذلك. لكن (فيما لو كان هناك قانون سبت رسمي) ستجتهد الدولة، قدر الامكان، لفرض هذا الامر الابدي.»[٣٢] * وفي الكنيست الاول، جرى نقاش بشأن السبت اكثر مما نوقش اي موضوع ديني آخر، بما في ذلك التعليم وتجنيد النساء والدستور: لماذا يجبر المهاجرون الذين

* لم يقر قانون السبت قط، على الرغم من محاولات متكررة لتمريره في الكنيست بأشكال مختلفة، وعلى الرغم من وعد دافيد بن ــ غوريون الصريح بأن يسن قانون السبت في اسرائيل. لكن في سنة ١٩٦٩، عدل قانون ساعات العمل والراحة، وفرض ايضا على العاملين المستقلين والتعاونيات، والحوانيت والمشاغل وأماكن التسلية. وأصبح هذا، في الواقع، قانون السبت.

يصلون الى البلد يوم السبت على الانتظار على ظهر السفينة، الى حين انصرامه ولا يباشرون استيعابهم فورا؟ (الجواب: لضمان راحة السبت لعمال المرفأ، كقانون، ومن اجل عدم المساس بالمهاجرين الذين يحافظون على الفرائض الدينية.)[٣٣] لماذا يوجد في [جهاز] الشرطة تمييز ضد الذين يراعون حرمة السبت؟ (الجواب: ليس هناك تمييز. بل هناك امر بالمحافظة على حرمة السبت في سلك الشرطة. وبما ان على الشرطي الذي يقوم بمهماته ان يكون حليقا بصورة نظيفة، فيجب اصدار التعليمات الى رجال الشرطة المتدينين بحلاقة ذقونهم عشية السبت، عند المساء، عوضا عن [نهار] السبت، ليظهروا حليقين في هذا اليوم.)[٣٤] لماذا عقدت يوم السبت جلسة لجنة الهدنة الاسرائيلية ــ الاردنية؟ (الجواب: ان سفارات اسرائيل مغلقة يوم السبت، وهناك تعليمات ثابتة بالامتناع عن اجراء اية اتصالات دبلوماسية ايام السبت. وان لجنة الهدنة تعمل كاستمرار للحرب، ولذلك تنطبق عليها أحكام الحرب.)[٣٥] هل يعرف السيد بن ــ غوريون ان في بئر السبع، مهد اليهودية، حيث الاتصال مجددا بأبينا ابراهيم، يعمل جنود من خارج البلد أيام السبت في بناء دار للسينما؟ (الجواب: اعطيت الأوامر بالتحقيق في الأمر ووقف كل أعمال البناء أيام السبت، اذ لا يوجد في هذه الحالة ضرورة حربية. أما وصف بئر السبع مهدا لليهودية فأمر مشكوك فيه.)[٣٦] لقد صان الحكم، اذن، روح الكتاب الذي وجهته الوكالة الى أغودات يسرائيل.

كان على ليفين ان يشير طوال الوقت الى انجازات حزبه ليحافظ على مكانة هذا الحزب في أوساط الجمهور المتدين، لكن كان عليه من اجل ان ينجز شيئا ما ان يدعي دائما ان الجمهور المتدين مغبون: لقد تطلب ذلك مقدارا من البهلوانية. وأفصح مرة فقال: «كان علينا، لدواع تكتيـة فقط، ان نشير ليلا ونهارا، الى التمييز والاضطهاد اللذين يمارسان ضدنا، وأن نتجاهل كل الانجازات الأخرى.» وقد بذل رجال [ليفين] جهدهم في تبرير وجوده في الحكومة الصهيونية. وكتبوا مرة في كراس خاص وزعوه على جمهورهم: «هل يتوقف انتهاك حرمة السبت اذا خرج الحاخام ليفين من الحكومة؟ هل يحظرون التدخين يوم السبت حينئذ؟ هل يصونون السبت في كل مدن اسرائيل ومستعمراتها؟ وكيف كان الامر قبل انشاء الدولة وقبل ان يصبح ليفين وزيرا؟ هل كانت الكيبوتسات تحافظ على حرمة السبت آنذاك؟» وفي تموز/يوليو ١٩٤٩، بعث الحاخام ليفين بكتاب اعتذار طويل الى الحاخام يعقوب روزنهايم في نيويورك، اكد فيه: «ما كنا لننجز شيئا من دون الوزراء الدينيين في الحكومة.» وسجل بالتفصيل سلسلة طويلة من الانجازات، بينها ميزانية كبيرة خصصت للتعليم الديني. وأضاف ليفين: «لا يمكن ان نتصور كيف كنا سنتدبر امورنا من دون هذا الدعم الحكومي.» ووضع احد حكماء التوراة، مئير كيرليتز، بين يديه كتابا يتضمن اثباتا وتذكيرا بحقيقة ان

أغودات يسرائيل كانت تبحث في كل دولة وجدت فيها عن «شفيع» عمل من اجل مصلحة اليهود المتدينين في أوساط الحكومة. وكتب كيرليتز يقول: «اذا كان هناك امكان لادخال شفيع كهذا في حكومة اسرائيل، فيجب عمل ذلك من دون تردد.»[٣٧] وكان بعض الشفعاء يمثلون أغودات يسرائيل في بعض البرلمانات، مثل البرلمان البولوني. ومع تأسيس منظمة الأمم المتحدة ارسلت [أغودات يسرائيل] وفدا من الشفعاء لم يستدع [الى البلد] حتى عند اقامة الدولة. وكان الحاخام ليفين عضوا في اليودنرات ــ وهو مجلس اليهود الذي انشأه النازيون بعد احتلال وارسو في الحرب العالمية الثانية ــ اذ كان شفيعا لليهود المتدينين. وكانت أغودات يسرائيل تميل الى عرض علاقاتها بحكومة اسرائيل أيضا كمجهود شفاعة في بلاط الطاغية.

كان ليفين، وفق نهجه، سياسيا براغماتيا، ومتبصرا يتقن التمييز بين المرغوب فيه والممكن، ويعرف كيف يتخلص من أغلال التعاليم التي كانت تلزمه وفق عقيدته. تعلم، في احاديث حميمة متواصلة مع دافيد بن ــ غوريون، ان يظهر انفتاحا كبيرا على وجهة النظر الصهيونية، ولم يكن هذا مخالفا لموقف ناطوري كارتا فحسب بل لرأي حكماء التوراة وقادة حركته الروحيين ايضا. وكانت الرسائل التي بعث بها ليفين الى بن ــ غوريون، تعرب عن الاعتراف بالجميل. وكتب له مرة قائلا: «تعلمت خلال الفترة التي كانت لي فيها فرصة العمل معك، ان اقدر محبتك واخلاصك لشعب اسرائيل، وللدولة، وللقيم اليهودية. وانني ارى فيك الرجل الذي يسعى، في كل الاحوال، للأصالة اليهوديـة (وهذه الأصالة، في نظري، جلية وقائمة) (. . .) ان اليهود المتدينين يطلبون الحد الاقصى، وهو ادارة شؤون الدولة بموجب قوانين التوراة. لكن ما دام هذا المطلب غير قابل للتحقيق فانه يوجد برنامج حد ادنى للدفاع عن مصلحة اليهود المتدينين في اسرائيل، وان مشاركتنا في الحكومة الائتلافية الحالية كانت ممكنة لأنها ضمنت الحد الادنى من مطالبنا. (. . .).»[٣٨]

وظهر يوم ١٤ أيار/مايو ١٩٤٨، نوقشت الصيغة النهائية لميثاق الاستقلال، الذي كانوا على وشك اعلانه في غضون بضع ساعات في احتفال اعلان اقامة الدولة. وقد طلب قائد هبوعيل همزراحي، موشيه شابيرا، ذكر «اله اسرائيل» في الميثاق، لكن ممثلي مابام عارضوا ذلك. ولولا توقفهم عن هذا الجدال في الوقت الملائم، لكانوا اضطروا الى تأجيل اعلان الاستقلال على الارجح؛ فقد كان ذلك اليوم الجمعة، وكانوا قد اتفقوا على اختتام حفل التوقيع قبل بدء السبت. وثار جدل بشأن التالي ايضا: طلب [حزب] مابام البدء بتوقيع ميثاق الاستقلال في منتصف الليل، مع انتهاء الانتداب، ورأى الجميع في هذا الطلب مشاكسة مناهضة للدين فتجاهلوه. ومع ذلك ادرك الجميع ان لا مجال للتوصل الى صيغة متفق عليها لميثاق الاستقلال ما لم يخصص فيها مكان لله تعالى ايضا. واتفقوا في النهاية على ان يوقعوا الميثاق «في ضوء الايمان بصخرة اسرائيل (الله).» وبارك بن ــ غوريون هذا الحل الوسط، الذي اعتبره «حلا

وسطا جيدا لزمالة يهودية.» وقال ان يوما سيأتي لن يجد فيه صعوبة ليشرح لأولاده، «غير الاتقياء»، لماذا وقّع هذه الجملة بنفس مطمئنة وضمير نقي. وقال لأعضاء ادارة الشعب ان كل هذا الجدل «ليس عمليـا» اذ يجب، على عتبة الاستقلال، الاحتراس جدا من التصلب في مناقشات من هذا النوع.(٣٩) وبنفس مطمئنة وبضمير نقي خول الحاخام ميمون تلاوة «ستبهحيانو»* خلال الاحتفال، لكنه جلس حاسر الرأس وقت الصلاة، وربما بنفس مطمئنة وضمير نقي ايضا. وبعد مضي تلك الأيام، لم يجد اية صعوبة في القول ان على دولة اسرائيل ان تعتمد على نفسها وعلى «أبانا الذي في السماوات.» وكان الحاخام ميمون ممتنا جدا لذلك.(٤٠) كان بن ـ غوريون يقدر ميمون، كما كان ميمون يقدره بدوره. وعندما طرده الأتراك مع يتسحاق بن تسفي وغيره ساعدهم الحاخام ميمون حتى وصلوا الى اميركا. وكانت تقف وراءه منذ ذلك الوقت حركة قائمة على اسس متينة. كان يهوى قراءة الكتب بشغف، وكان صهيونيا متعصبا، من سجناء اللطرون. وكانت شقيقته عيدا عضو كنيست تمثل ماباي. ودرج على مقاطعة خطاباتها بعبارات اعتراضية، وكانت تحتج قائلة: «انني اطلب من اخي المثقف ألا يقاطعني.» قال له يتسحاق رفائيل، صهر الحاخام، في احد احاديثهم: «لولا بن ـ غوريون لكان حصولنا على دولة في أيامنا مشكوكا فيه كثيرا.» وقال رفائيل: «اننا نؤمن بأن الدولة هبة من السماء، فهل اختار الله سبحانه وتعالى لنفسه رسولا يهوديا يدنس السبت ولا يحافظ على وصايا التوراة؟» واستغرق ميمون في تفكير عميق، ثم لاحظ قائلا: «انها لأعجوبة ان بن ـ غوريون ليس يهوديا يلتزم التوراة، لأنه لو كان كذلك لآمنوا خطأ بأنه المسيح المنتظر، والمسيح المنتظر لم يأت بعد.»(٤١)

زعم موشيه شابيرا أيضا، وهو احد وزراء الجبهة الدينية والذي اصبح بعد فترة وجيزة زعيما لهمزراحي، ان بن ـ غوريون فضل أغودات يسرائيل على حركتـه، لأن أغودات يسرائيل اتجهت الى الانطواء على النفس والاكتفاء بالدفاع عن أفرادها، بينما ناضلت [حركة] همزراحي من اجل تطبيق الدين في جميع مجالات الحياة العامة في الدولة.(٤٢) لكن شابيرا، ايضا، عرف كيف يقيم علاقات موضوعية ـ وودية ايضا فيما بعد ـ مع بن ـ غوريون، كانت بدايتها في فترة النضال ضد البريطانيين: لقد درج بن ـ غوريون وموشيه سنيه، آنذاك، على اشراك شابيرا في بعض القرارات الحاسمة التي اتخذاها. كما ان شابيرا، وهو خريج كلية الحاخامين التي اسسها الحاخام عزريئيل هيلدسهايمر في برلين، عرف كيف يجد الجسر الذي يصل بين عالم يهود اوروبا الشرقية الذي عرفه وهو لا يزال تلميذا في مدرسة دينية في غرودنا، وبين عالم اليهودية الارثوذكسية في ألمانيا، وبينهما وبين ثقافة العالم الغربي ووجهات نظر الحركة الصهيونية. وكان شابيرا عاملا اجتماعيا في شبابه، ما لبث ان تحول الى السياسة

* صلاة الشكر التي يخاطب فيها اليهود الله الذي أحياهم حتى هذا اليوم وصان وجودهم. (المحرر)

لتصبح مهنته الاساسية، في البدء، اليد اليمنى للحاخام مئير بار ـ ايلان، وكان معتدلا في آرائه السياسية، وكانت قيادته ذات ايحاء سلطوي، وكان ذا شخصية تكاد تكون كاريزماتية، ويشبه مظهره شخصية الجنتلمان في فيلم من انتاج هوليود الحديث. وكتب اليه بن ـ غوريون، بمناسبة بلوغه سن الخمسين، قائلا: «لا استطيع ان اقول انني لم اسبب لك الضيق مرة، وربما فعلت انت ايضا الشيء نفسه من حين الى آخر، ولا توجد ضمانة مطلقة بألا يتكرر هذا الامر من حين الى آخر. لكن يبدو لي ان الخلافات في الرأي في مسائل مختلفة، من حين الى آخر، اظهرت القاسم المشترك الاساسي الموحد، الفكري والملهم، الذي وُضع في اساس مجتمعنا وعملنا المشترك.»(٤٣) وعلى هذا النحو ايضا، كتب بن ـ غوريون الى وزيري الجبهة الدينية الآخرين، ميمون وليفين: «انني استطيع ان اضمن لكما انه على الرغم من كل الخلافات في الرأي بيننا وبينكما بشأن مسائل روحية ـ وهي ليست قليلة الشأن ـ فان هناك مسألة اخرى لا خلاف في الرأي عليها، وهي انه لا يجوز ان يكون هناك اي اكراه او تخريب مناهض للدين (كما انني اعتقد ان الاكراه الديني غير جائز).»(٤٤) وكان قد كتب، قبل ذلك، ان الحكومة عملت من اجل الطابع اليهودي في الييشوف وفي الجيش وفي البلد، «اكثر مما فعلته المنظمات الدينية اليهودية كلها، بما فيها همزراحي وأغودات يسرائيل في شتات المنفى كله.» وبناء عليه، فقد ادرك انه لا يمكن ان تكون هناك حكومة مؤاتية اكثر لاتجاهات المتدينين في حكومته. وكتب قائلا: «هذه الحكومة لم تأخذ على عاتقها تحويل دولة اسرائيل الى دولة خاضعة للسلطة الدينية، لذلك لا يمكن فرض شولحان عغول* على يديها بل العكس: لقد اعلنت هذه الحكومة (بمشاركتكم) انه لن يكون هناك اكراه في مسائل الدين. لكنني لا ارى ان هناك حكومة بديلة تكون اكثر تفهما لمشاعركم الدينية ومشاعر الآخرين، وتكون متمسكة بقيم اليهودية الى هذا الحد (ليس بالضرورة بحسب صيغة همزراحي او أغودات يسرائيل) اكثر من هذه الحكومة.»(٤٥)

كان الوزراء الدينيون يميلون الى الاقرار بذلك. وكتب الحاخام ميمون قائلا: «ان مناهجنا تختلف في كثير من الشؤون الكبرى والصغرى، لكن المسائل التي تربطنا وتقودنا لمصلحة ما هو مشترك بيننا، كثيرة. واحداها هي، من دون شك، النظر الى الامور عبر مرآة الاستقامة والتقويم الموضوعي للمسائل المتنازع عليها (. . .).»(٤٦) واستطاع ان يضيف رؤية سياسية جدا، متبصرة وبراغماتية وباردة ونابعة من خوف حقيقي صادق ازاء خطر ان تؤدي الحرب التربوية الى «شق الشعب اليهودي الى شعبين»، كما قال الحاخام ليفين، «وتسبب شرخا عميقا لن يكون في وسعنا لحمه فيما بعد.»(٤٧)

* اي الطاولة المستديرة التي يجتمع الخصوم حولها للبحث عن حل وسط. أما المعنى الديني عند اليهود فهو مجموعة الشرائع الدينية التي تتضمن الأحكام التي يتقيد بها اليهودي المتدين. (المحرر)

ولم يكن بن ــ غوريون رجلا متدينا. غير انه، قبل وقت قصير من افتتاح الجلسة الاولى للجمعية التأسيسية، اي الكنيست، استجاب لطلب الحاخام مئير بار ــ ايلان، فذهب الى كنيس «ياشورون» في القدس للاستماع الى صلاة الشكر. وسجل في مذكراته، فيما بعد، قائلا: «كانت هذه اول مرة اذهب فيها الى كنيس في اسرائيل وقت الصلاة.»(٤٨) كان قد مضى اكثر من اربعين عاما على وصوله الى البلد. وكان ينفر من الفرائض اليهودية وواقع اليهود في المنفى. كان يبحث عن جذوره في التوراة، وكان يميل نحو الربط بين الدولة ككيان سياسي منظم ذي سيادة وبين القومية العبرانية التوراتية. وقد كتب مرة: «ان خلود اسرائيل يتميز باثنتين: دولة اسرائيل، والتوراة.»(٤٩) ووجد بن ــ غوريون، بين ما وجده في كتاب الكتب هذا، تأكيدا على الأخلاق النبوية التي نسبها الى دولة اسرائيل. ولم يكن بن ــ غوريون واسع العلم؛ فاستخدامه الوافر للتوراة لم يكن استخداما عميقا كثيرا. وقد أثار تسييس الكتاب [المقدس] وجعله يبدو حقيقة قائمة، غضب أوساط متدينة درج على الدخول في جدل معها، وكأنه أراد «اثارة حفيظتها» بالتقليل من قيمة الميشنا * والتلمود وأحكام الحاخامين. وقال، فيما بعد: «انني لا اعير التلمود اهمية، ولا استطيع ان اضع التلمود في مرتبة واحدة مع التوراة.» ** كانت «لهجة الايديش» البولندية متحكمة فيه الى حد ما، ولم يستطع تخفيفها على الرغم من محاولاته التخلص منها. وكان، كالآخرين، يحتفظ هو أيضا، في ذاكرته، بشيء ما من المعرفة المكتسبة في عهد الطفولة. لكن الاعتبار السياسي ومسؤولية الدولة لا العاطفة اليهودية، هما اللذان وجّهاه عندما ازمع على ان يضع اساس التعايش بين المتدينين

---

* مجموعة القوانين التي تشكل أساس التلمود. (المحرر)

** سئل بن ــ غوريون في ذلك الحديث عما اذا كان يؤمن بالله، فأجاب: «السؤال هو من هو الله. اليهود، معظم اليهود، يتصورونه رجلا عجوزا ذا لحية طويلة، يجلس على مقعد وثير، ويعتقدون ان الله تحدث الى موسى. انا لا اؤمن بأن الله تحدث الى موسى. لقد سمع موسى صوت انسان في قلبه، وبذلك عرف ان عليه ان يفعل ما فعل. بيد انني لا اؤمن بوجود قوى مادية فحسب في العالم. لقد قرأت نظرية داروين، ووجدت فيها الكثير من المنطق. لكنني لا استطيع ان افترض ــ وقد سألت في هذا الشأن احد كبار رجال العلم ــ ان هذا الدماغ هو عملية طبيعية فحسب. كيف كان ممكنا بعملية طبيعية ان يتوصل دماغ نيوتن الى نظريته تلك، او الى نظرية داروين او آينشتاين او اي اكتشاف آخر. هناك ما هو اسمى من ذلك. اسمى من القوى المادية. وقد سألت نيلز بوهر [عالم فيزيائي دانماركي] السؤال التالي: أيوجد فرق بين عمليات الدماغ الطبيعية وعمليات الطاولة الطبيعية؟ فأجابني: الدماغ يفكر. لماذا نفترض ان الكون لا يفكر؟ لا يمكن ان نفترض ان الكون لا يفكر، وانني لا اقول ان في العالم عمليات طبيعية فحسب. عندما كنت في السويد ارسلوني لمشاهدة آلة تقيس جزءا من مليون من الثانية. جزءا من مليون من الثانية؟! كيف يفعلون ذلك؟! عندئذ فسروا لي ان هناك بكرة اولى، ثم بكرة ثانية، وشعاعا ضوئيا، ثم بكرة اخرى. لا: انني لا اقول انه لا يوجد سيد لكل هذا. لا يمكن لكل هذا ان يكون عملية طبيعية فحسب.»(٥٠)

والعلمانيين. وقال عضو الكنيست مناحم باروش فيما بعد، مثمنا: «لقد اعطانا بن ــ غوريون اكثر من اي شخص آخر، لأنه كان يدرك اننا سنضطر الى مغادرة البلد اذا لم تهتم الدولة بنا، ولم يكن يريد ان يحدث ذلك.»(٥١) لقد ادرك ان حاجات المتدينين من مطالب تربوية وخدمات دينية وغيرها، مثلا، هي متطلبات رسمية في نهاية الامر. وأدرك ان على الدولة ان تمولها من ميزانيتها. وتصبح الدولة، عندما تتكفل بتمويل [متطلبات] الدين، مصدر الصلاحيات فيما يتعلق بالحقوق الدينية. قال مرة ليشعياهو ليبوفيتس: «انني اريد ان تتولى الدولة بنفسها شؤون الدين.» واعتبر هذا المثقف الساخط ذلك «تعهيرا للدين ولاشباع مصالح سلطوية وحزبية وفئوية وشخصية.»(٥٢) لقد فعل بن ــ غوريون الكثير من اجل ان يشارك المتدينون في الحكم، لكن ليس لدواع تفيد الائتلاف الحكومي فحسب؛ فقد كان على ثقة بأن اشراكهم في المسؤولية سيلجمهم ويخفف من حدة التوتر بينهم وبين العلمانيين. ولهذا السبب ايضا رفض مطلب فصل الدين عن الدولة.

كتب مرة من دون رغبة في ذلك، قائلا: «ان وجود حزب ديني بحد ذاته مسألة تنطوي، عن دراية او عدم دراية، على ارادة فرض قوانين الدين والتقاليد الحاخامية في الدولة. ان الحزب الديني غير مستعد او مهيأ لمنح الآخرين حرية الدين والمعتقد التي يطالب بها لنفسه.»(٥٣) كان ذلك القول واقعيا جدا؛ اذ انطوى على اعتراف بعدم وجود «انسجام» بين المتدينين والعلمانيين. وعجز الجميع عن ادراك ذلك. وقدر الدكتور زيراح فيرهافتيغ، بعد سنوات، ان بن ــ غوريون «كان يبغض اليهودية» على الرغم من انه أشاد به ايضا، لأنه عرف كيف «يغوص في عمق البسيكولوجية الدينية» اكثر مما فعل غيره. واستعاد فيرهافتيغ كلاما كان قد صدر عن حانان روفيم، عضو مابام وأحد زملائه في الكنيست الاول، وجاء فيه: «يوجد في اسرائيل الآن قانون يسمح بالسفر يوم السبت لمن يرغب في ذلك، ولا نفرض على من لا يرغب في السفر واجب ان يفعل ذلك.» وكان هذا ايضا هو لسان حال اعضاء رابطة منع الاكراه الديني: لا تعترضونا، فلا نعترضكم. وقال فيرهافتيغ: «حسبوا اننا نستطيع ان نكون قانعين، ما داموا لا يفرضون علينا واجب السفر يوم السبت. لم يفهموا قط المقصود بذلك. اعتقدوا ان هناك انسجاما بيننا وبينهم. وأدرك بن ــ غوريون ان لا أساس لهذا الأمر. وزعم عن حق اننا لسنا على استعداد للتنازل، لكنه فهم اننا لا نستطيع ان نتنازل.»(٥٤) وقد حدد كالمان كهانا ذلك لبن ــ غوريون بالكلمات التالية: «لن تكون مصيبة بالنسبة اليك اذا كان ابنك متدينا. أما بالنسبة الي فانها مصيبة اذا لم يكن ابني متدينا.»(٥٥) وفعلا، فهم بن ــ غوريون ايضا ان المتدينين مهيؤون لبعض التنازلات وسيكونون على استعداد لتنفيذها بشروط معينة.

وعندما وضع بن ــ غوريون الاساس العملي للتعاون بين المتدينين والعلمانيين، كان

يعتبر الصراع الفكري بينهما أمرا لا لزوم له. لم يتجاهله، ولم يحاول اخفاءه او طمسه، لكنه رأى فيه خطرا كبيرا. وكتب قائلا: «ليس من الضروري ان نحسم، في زمننا، مسائل تتعلق بالآراء والمعتقدات لأننا سنبقى مختلفين في شأنها وقتا طويلا. ان من شأن الجدل الذي لا هوادة فيه بشأن مكانة الدين في الدولة او محاولات الاكراه في شؤون الدين، ان يكون مادة متفجرة على صعيد الوطن، وأن يعيق في احسن الاحوال مسار الالتحام الداخلي الذي هو ضرورة حيوية وشرط مسبق لبقاء الدولة.»[٥٦] وقال لأفراد حزبه ان هذا الجدل «مجرد حماقة.»[٥٧] وكان ذلك، في حقيقة الامر، احدى المناقشات الاكثر اهمية التي جرت في الكنيست وتقرر في ختامها، في النصف الاول من سنة ١٩٥٠، عدم وضع دستور للدولة بل الاكتفاء بقوانين اساسية. وبقيت الحقوق المدنية، في هذه الاثناء، من دون حماية قانونية كافية. ربما كان هذا هو المقصود. وفي اية حال، لو انهم تولوا وضع صيغة دستور، لكان عليهم الحسم بين حقيقة وأخرى، الواحدة في مواجهة الاخرى، وعلى نقيض لها غير قابل للمساومة. وقال احد أعضاء الكنيست من ماباي: «انني، كاشتراكي وكانسان غير مؤمن، لا استطيع ان اوافق، بأي شكل من الاشكال، على برنامج يتضمن مبدأ دينيا.» ورد احد اعضاء أغودات يسرائيل قائلا: «فقط من اجل التوراة المكتوبة وتقاليد السلطة المستقلة في حياة اسرائيل.» وقد رفض الحاخام ي. م. ليفين الجدل بشأن الدستور بسبب التعليلات وتقريبا بتلك الكلمات التي استخدمها بن ـ غوريون.[٥٨] اذن، فقد قرروا ألا يحسموا الامر، وبقوا بلا دستور، لكن الثورة التي تحدثوا عنها لم تنفجر.

القسم الرابع

بين الحلم والروتين

الفصل الأوّل

يسار - يمين

في صباح الرابع من أيار/مايو ١٩٤٩، استكملت في تل ابيب التحضيرات الاخيرة لاقامة العرض العسكري، الذي تحدد موعده بعد الظهر، بمناسبة مرور عام واحد على استقلال الدولة. لـمّـع الجنود احذيتهم وأبازيم احزمتهم، ودق النجارون المسامير الاخيرة في منصة الضيوف الخشبية التي اقيمت في زاوية شارعي بن ــ يهودا وايدلسون، وكان ارتفاعها يوازي ارتفاع منزل من طبقة واحدة. وزينها عمال البلدية بالأعلام ووضعوا عليها المقاعد، وأحاطها رجال الشرطة بالحبال. وخلال تلك السنة، كثرت الاحتفالات. فقد اقيمت في كل مدينة وفي كل مستعمرة مهرجانات وعروض متعددة الأنواع، وسارت مواكب الشباب والعمال والممرضات ورجال الشرطة، يوم الهاغناه، ويوم الحادي عشر من آذار/مارس، ويوم سلاح الفرسان، ويوم تحرير حيفا، والأول من ايار/مايو. وقد احتشد في تل ابيب، في يوم العامل، نحو ٤٠ ألف شخص، احضر معظمهم برحلات منظمة. وكان من المفروض ان يكون عرض يوم الاستقلال الأكثر روعة. فقد أثار توقعات كثيرة: كانت ليلة الاحتفالات التي سبقته مخيبة للآمال. فقد طافت جماهير غفيرة في شوارع المدن، لكنها وجدت صعوبة في العثور على متنفس لسعادتها. فلم تكن منصات التسلية منصات [حقيقية] وانما شاحنات مفتوحة. كذلك لم تكن التسلية تسلية إذ لم تعمل مكبرات الصوت، وكانت أدوات الزينة النارية بضعة صواريخ حقيرة. «تساءل الكثيرون ما العمل؟ كيف يحتفلون؟» وقال مراسل «هآرتس» في حيفا: «لم يرو المتعطشون الى الفرح الحقيقي، الداخلي، عطشهم.»[1]

وكان قد وصل الى تل ابيب، حتى الظهر، نحو ٣٠٠ ألف نسمة، اي نحو ثلث سكان البلد. وتدفقت الآلاف منهم في اتجاه منصة الضيوف بطوفان هائل، يحطمون السياجات، يمزقونها او يقطعونها بالسكاكين، ويتدفقون عبر ساحات المنازل والممرات التي بينها. وكان منهم من قفز من سطح الى آخر. واشتد الزحام لحظة بعد اخرى حتى الاختناق، وكان رجال الشرطة والمنظمون عاجزين. وفي تلك الاثناء، فتح شارع بن ــ يهودا أمام حركة السيارات، وربما نسوا اغلاقه من البداية، ويمكن ان يكون قد أُغلق امام حركة السير لكن السائقين لم يتقيدوا بذلك. في اي حال، اختلطت الكتلة البشرية بزحام حركة هائل. وبعد قليل

تحولت الجلبة الى شجار جماعي بالأيدي. وأخذ الرجال يتصارعون بقبضاتهم، والنساء بأظفارهن، وتصارع هؤلاء وأولئك بسواعدهم. وظهر بين المتشاجرين أصحاب التذاكر لمنصة الشرف: وزراء، وأعضاء المجلس التنفيذي للوكالة [اليهودية]، وأعضاء كنيست، ودبلوماسيون أجانب. وشوهد احد القضاة يقفز فوق الحاجز، وأحد السفراء يقفز فوق المقاعد. وحينما تمكنوا من الوصول الى المنصة، وجدوا أماكنهم مشغولة. فقد جلس ضابط كبير في مكان زوجة السفير ورفض اخلاءه، واحتل احد القناصل مكان زوجة الوزير الذي حاول المدير العام لوزارته ان يهب لمساعدته، غير ان القنصل كان اقوى منه. وأخذ الجميع يصرخون ويشتمون ويلوحون بتذاكر الدخول، وكانت الحرارة والرطوبة لا تحتملان. وطوال ذلك الوقت، كان رئيس هيئة الأركان [يعقوب] دوري يجلس على المنصة، وينتظر حضور رئيس الحكومة دافيد بن ـ غوريون. فقد تأخر بن ـ غوريون في منزله الكائن في احد الشوارع المجاورة؛ اذ كان يتلقى تقارير متواصلة عما يجري. وعندما تم التوضيح له انه لا يمكن اخلاء مدرج العرض من الجماهير إلا باستخدام قوة كبيرة، اوفد رسولا الى رئيس هيئة الأركان ليبلغه ان العرض لن يتم. ودوّن في مذكراته في وقت لاحق: «توقف الاحتفال».(٢) *

في اليوم التالي كتب رئيس تحرير «معاريف»، عزريئيل كارليباخ، ان الناس بكوا كالأطفال، وكانت هذه دموع خيبة الأمل المريرة والغضب والخجل. وتحدث «عن العار، والانطباع الذي نشأ في الخارج، وعن هذه الترتيبات وفشلها، وعن هذه التظاهرة التي عكست عجزنا في يوم قوتنا.» لكن كانت لديه فكرة عزاء واحدة، فكتب: «ربما ان الفشل عكس جمالا معينا ساميا.» وتابع رئيس التحرير جازما: «ومما يشرفنا ويبعث على فخرنا، انه لم يكن في الامكان اقامة العرض لسبب في غاية السخافة؛» ففي ألمانيا ـ هتلر ما كان من الممكن ان يحدث هذا. «أما عندنا، فان جوهر الاحتفال يتجلى في ان الشعب هو الذي ملأ الطريق لا الجيش.» كان هذا، في نظره، أمرا رمزيا جدا: «فشل العرض حقا لأننا اردنا، صادقين، عرضا عسكريا. لكن مع ذلك كله فنحن... يهود.»(٤) وبعد فترة وجيزة، في ذكرى وفاة هيرتسل في العشرين من تموز [الشهر العبري]، احتُفل أيضا بـ«يوم الجيش» في عرض عسكري كشف عزيمة ونظاما مثاليا؛ فقد بدا المنتصبون من حرس الشرف جنودا من فولاذ، وتدلت على صدورهم أشرطة جلدية، وكان الضيوف يجلسون في منصة الشرف مبتهجين ومتألقين جدا، واعتمرت النساء القبعات المزركشة كأنهن ضيوف سباقات الخيل عند

* اشارت لجنة تحقيق استوضحت أسباب الفشل، بعد مرور فترة من الزمن، الى تقصير وخلل في التخطيط. وأوصى اعضاؤها: يغئيل يادين، ويعقوب شمشون شابيرا، ويسرائيل روكاح، باقالة بعض المسؤولين عن تنظيم العرض. وكتبت «هآرتس»: «ان قسما كبيرا من الفشل يجب ان يعزى الى عدم خبرتهم. فمن نظم في البيشوف عروضا [عسكرية] في ظروف كهذه؟»(٣)

إسكوت. وقد ارتأى آنذاك رئيس تحرير «يديعوت احرونوت»، هيرتسل روزينبلوم، مشاكسة منافسه في «معاريف»، فكتب: «كان الحاقدون علينا يطلقون على النظام اليهودي عبارة عدم القدرة اليهودية على الانضباط، وضحك أعداؤنا وهم يشيرون الى جماهير اسرائيل المبلبلة وبلغ الامر بهم درجة [الاعتقاد] ان اليهود انفسهم أخذوا يؤمنون بتفاهتهم. وقد اتضح للجميع، امس، ان هذا كذب (...) وما ساد امس في العرض، على المنصة وفي الشوارع، يستحق ان يشكل قدوة للأغيار. وسمعت احد الملحقين الأجانب يهمس في أذن زميله: ان هذا بلا شك الجيش الاوروبي الوحيد في الشرق.»(٥)

واذا كان هناك فعلا ملحق كهذا، وقال ما قاله عن تهذيب او عن عدم معرفة، فان الجيش الاسرائيلي كان يمر خلال ذلك الوقت بعملية تفكيك واعادة تنظيم. وكان بن ـ غوريون يميل الى الاعتقاد ان الجيش لم يقم بعد قط. فقال لقادة ماباي في صيف سنة ١٩٤٩: «اننا نقدم الآن على تنظيم جيش دولة اسرائيل. وحتى الآن لم ننجز ذلك. فقد اقمنا قوة مقاتلة لصد العرب. ونحن على وشك اقامة جيش، ونظام وقانون عسكريين.»(٦) وبعد مرور بضعة اشهر، اقيمت بنية الجيش في المراحل الاولى، وكتب: «ينبغي لنا ان نبدأ كل شيء تقريبا من البداية.»(٧) ولم يكن رئيس الحكومة راضيا عن المستوى القتالي، ولا عن نوعية العتاد او مستوى التدريب، وقال جازما: «لن نواجه مرة اخرى الوسائل والأساليب والقوات التي كانت سائدة في السنة الماضية.»(٨) وكان يشكو أمورا متعددة، منها الخلل في الانضباط خلال الحرب وبعدها. ودوّن في اعقاب حديث أجراه مع حاييم لاسكوف ومردخاي مكليف: «ان الوضع في الجيش سيىء جدا. لا تصدر أوامر، وليس في هيئة الاركان قرار نهائي.»(٩) وكان يسود الجيش الاسرائيلي، اضافة الى الخسائر الجسيمة والاخفاقات في المعارك وأعمال النهب والاغتصاب والقتل، التي وقعت خلال الحرب، تبذير واهمال وتقاعس عام. وذكر بن ـ غوريون: «هناك في تل ليتفنسكي (تل هشومير) معسكر تدريب لنحو ١٢٠٠ شخص. وتبلغ الطاقة البشرية للمدربين ٥٠٠ شخص!(١٠) (...) ولا توجد حراسة على المطارات. وقبل اسبوع دخل في السادسة صباحا شخص غريب مطار هيرتسليا وأحرق طائرة، ثم حلّق واختفى (...)»(١١) وقد ازعجته حوادث الطرق التي سببها السائقون العسكريون وكذلك الأنباء التي وصلت اليه عن ان «ضباطا ومدربين يستخدمون الكلام النابي والشتائم في مخاطبة مرؤوسيهم (ضباط صغار او رقباء او أنفار).» وعندما علم ذلك، بعث برسالة «شخصية وخاصة» الى حاييم لاسكوف جاء فيها: «يجدر بالشعب اليهودي ألا يصاب بعدوى هذا النوع من الروح العسكرية (...) ويجب اقتلاع هذه الظاهرة من جذورها. انني واثق من ان الأمر ينطوي على غطرسة مزيفة. هناك من يعتقد ان الكلام النابي رمز للحزم العسكري الصريح، لكن ذلك ينطوي على

عمل غير حضاري. واذا لم نستطع ان نكون قدوة في المعلومات المهنية، فاننا نستطيع ان نكون على الاقل، وعلينا ان نكون قدوة في مسلكنا الانساني (...).»[١٢]

وصف بن ـ غوريون الجيش الاسرائيلي بأنه «قوة طلائعية تثقيفية، باني شعب ومنقذ للصحراء (...) انه مصنع لرواد الأمة، والأداة التربوية لدمج الجاليات وتوحيدها وارتقائها التربوي.»[١٣] غير انه قال ايضا، في جلسة مغلقة مع قادة حزبه: «ينطوي مضمون قيام الجيش على خطر: خطر على الدولة، وخطر على الديمقراطية، لأن هذا [الجيش] مكون من أشخاص يمتلكون قوة. ان ٢٠ ألف رجل مسلح اقوى من مليونين غير مسلحين. واذا كان في الدولة ٢٠ ألف شخص [مهيئون] ليحكموا سيطرتهم، ومستعدون للسيطرة، فانهم قادرون على السيطرة على ١٠ ملايين غير مسلحين، وهؤلاء سيكونون عاجزين تماما.» وعلى حد قوله، كانت هذه ولا تزال مؤامرة مناحم بيغن: «انني لا اعتقد ان بيغن قد تاب. هذا مخطط بيغن، و(موشيه) سنيه (مابام)، وهذا مخطط (شموئيل) ميكونيس (ماكي).» وقد تمادى بن ـ غوريون في هذه النقطة وفي وصف خطر قيام مابام بالسيطرة على السلطة بواسطة كتائب الجيش الموالية له. كان هذا، على حد قوله، خطرا فعليا؛ لقد نجم عن غياب تقاليد الحكم الرسمي، وعن القوة العاطفية للخلافات في الرأي. وقال: «ان المناقشات عندنا ليست مناقشات متفاوتة بين أشخاص عاديين، وانما بين متعصبين.»[١٤] * وكي يكون الجيش وفيا للدولة وخاضعا لكل حكومة منتخبة، أراده بن ـ غوريون جيشا فوق السياسة، جيش وحدة وطنية. وعندما تفاوض لتأليف حكومته، اكد انها سترتكز على ائتلاف «من دون حيروت، ومن دون ماكي [الحزب الشيوعي الاسرائيلي].» وأراد ان يقيم الجيش على أساس اجماع اوسع. وقال لقادة حزبه: «ان جيشا بلا رؤيا، وجيشا بلا صورة خلقية، ومن دون ان يكون القادة قدوة ـ ان جيشا كهذا لن تقوم له قائمة في دولة اسرائيل. لكن الرؤيا والصورة الخلقية والقيم الريادية ليست من شؤون بعض الأحزاب، وانما من شؤون الأحزاب كلها، ابتداء بالايتسل [المنظمة العسكرية القومية] وانتهاء بالشيوعيين.»[١٥] وفي غضون ذلك، منع بن ـ غوريون مزاولة كل نشاط سياسي، وأمر بالقضاء على ما سماه ـ بتأثير بنية جهاز التربية ـ «التيارات الحزبية» في الجيش: كما في جهاز التربية، لم يقصد إحياء اسس نزعة حكم الدولة فحسب، وانما ايضا القضاء على نفوذ مابام وزيادة نفوذ ماباي.

---

* لاحظ بن ـ غوريون ان العقلية الفردية للانسان في اسرائيل ستعرقل، في الواقع، محاولة القيام بانقلاب عسكري في البلد: «انني واثق من ان شبابنا ليس مثل الشباب في ألمانيا؛ فقد كان في ألمانيا ٥ ملايين شيوعي و٧ ملايين اشتراكي. ثم جاءت عصابة من المغامرين وقالت: نحن السلطة، وبقي الشيوعيون والاشتراكيون صامتين. أما عندنا، اذا اخذ موشيه سنيه كتيبة، خلافا لارادة الدولة وخلافا لقرارات الكنيست وقرارات الحكومة، وقادها الى تل ابيب للاستيلاء على هكرياه [مكاتب الحكومة]، فان بعض الشبان لن يطيعوه.»

وقبل ذلك ببضعة اشهر، في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٨، امر بن ـ غوريون بحل قيادة البلماح ونقل مهماتها الى هيئة الاركان العامة للجيش الاسرائيلي. وعرّف بن ـ غوريون البلماح بأنها منظمة كتلوية حزبية، في حين عرّفها مابام بأنها وحدة عسكرية طلائعية، تعمل بتوجيه من الهستدروت وحركة العمل. وكان هذا، في جوهره، فارقا لفظيا. فقد كان رجال البلماح ينتمون، في معظمهم، الى الكيبوتس الموحد، وكانوا متعاطفين مع مابام.* وقد عرقل الواقع الخاص، الذي طوّره رجال البلماح في وحداتهم، انخراطهم في الاطار العسكري المؤسسي للدولة. وارتاب بن ـ غوريون، وكان على حق الى حد ما، بوجود رجال من البلماح سيفضلون الانصياع لتعليمات حزبهم بدلا من الانصياع لتعليمات هيئة الأركان العامة. وكان ذلك صراعا طويلا ومؤلما، ومواجهة بين وجهات نظر ومصالح حزبية، ومذاهب قتالية وأنماط حياة، منها السياسي ومنها النفساني. وقد رد بن ـ غوريون على رسالة احد الجنود، ربابوت شمرياهو رقم ٤١٦٦٣: «انني اوافقك الرأي في انه يجب الاحتفاظ بألوية البلماح. لكن ليس واضحا لي الميزة الخاصة في ذلك. لقد درست هذا الأمر يوما كاملا، بحضور قادة البلماح في ناعان** (نحو ٦٠ رجلا)، وطلبت منهم ان يوضحوا لي ما هي الميزة الايديولوجية، والسياسية، والمهنية، والتقنية، والحزبية، ولم احصل على جواب معتمد ومقنع. فمن الواضح لي ان ثمة صفات مهمة وفريدة في نوعها يتصف بها قدامى البلماح ـ هؤلاء الذين وُجدوا قبل التعبئة العامة ـ لكنني لست واثقا من ان هناك فارقا جوهريا بين المجندين الجدد والذين دخلوا ألوية البلماح وبين الذين التحقوا بالألوية الاخرى. انني اعرف الكثيرين في ألوية اخرى لهم ارتباط وثيق بقيم سامية طلائعية وبالاستيطان الزراعي، واللغة العبرية، وباحترام القيم الروحية، وبجرأة ادبية وغيرها، وأعرف الكثيرين في البلماح ممن يفتقرون الى ارتباط خاص بهذه القيم.»[١٨]

وقع بن ـ غوريون رسالة موجهة الى رئيس هيئة الاركان، يأمره فيها «بتوجيه تحذير الى اللواء يغآل آلون من ان لا حق له، كضابط في الجيش، في التهجم على أوامر عسكرية، كما فعل في مجلس الكيبوتس. واذا تكرر هذا الامر فيجب استدعاؤه الى محكمة انضباطية.»[١٩] وفي بداية شهر كانون الثاني/يناير، استبدل آلون بزته العسكرية بثياب

---

* ان واحدا من كل ثلاثة شبان اقترعوا لمابام في انتخابات الكنيست الاول، كان جنديا، في مقابل واحد من كل خمسة شبان أيدوا ماباي.[١٦] وبعد مرور بضعة اشهر، تفحص بن ـ غوريون التركيب الحزبي لستة ألوية عسكرية، «فتبين ان بين ٣٦ ضابطا برتبة عالية هناك ١٩ من مابام، و٥ من ماباي، و٩ غير حزبيين، و٢ من أنصار مابام، وواحد من هبوعيل همزراحي.»[١٧]

** مستعمرة صهيونية نشأت سنة ١٩٣٠ في ظاهر قرية «النعاني». والنعاني قرية عربية تبعد ٨ كلم جنوبي غربي الرملة، وتقع في بقعة منبسطة من السهل الساحلي، وفيها تل الملاط الذي قامت عليه بلدة «جبثون» الكنعانية. (المحرر)

مدنية، وألقى خطابا في اجتماع انتخابي عقده حزب مابام في تل ابيب. واقتبست الصحافة من كلامه ما معناه ان ماباي يسعى لوقف القتال على الجبهة الجنوبية من اجل الحصول على أصوات الجنود وذويهم، لكنه يعرض بعمله هذا امن الدولة للخطر.(٢٠) * وبعد ظهر السبت التالي، عقد ماباي اجتماعا انتخابيا في كلطا، التي اصبحت فيما بعد حتسريم، وكان الخطيب الرئيسي فيه موشيه شاريت. وبينما كان [شاريت] يلقي خطابه، حلقت فجأة ثلاث طائرات تابعة لسلاح الجو على علو منخفض فوق المجتمعين، مبتلعة كلام وزير الخارجية بضجيج محركاتها، ثم كررت التحليق عشر مرات تقريبا. وذكر بن ـ غوريون: «ثمة اساس قوي للارتياب هنا بأن ذلك كان عملا مفتعلا ومتعمدا من اجل الشغب على الاجتماع. وينبغي لنا ان نستوضح، فورا، من هم الطيارون الذين حلقوا، ومن اصدر الأمر اليهم بالتحليق على علو منخفض فوق الاجتماع مرات عديدة، ولأي غرض اعطي هذا الامر. واذا اتضح ان هناك أساسا للارتياب بأن ذلك كان عملا متعمدا من اجل الشغب على الاجتماع، فيجب محاكمة المتهمين.»(٢٢) ** وبعد مرور بضعة اشهر، استدعى بن ـ غوريون يسرائيل غاليلي، احد قادة مابام ورئيس القيادة القطرية للهاغناه سابقا، وسمع منه كلاما خطرا. ودوّن بعد ذلك في مذكراته: «استدعيت يسرائيل غاليلي كي يشرح لي، اذا شاء، ما هي التناقضات الفكرية والسياسية او غيرها التي تستوجب ان نكون في حزبين؟ فقال انه سيشرح ذلك في وقت آخر. وبدلا من ذلك حدثني عما يعرفه عن الوضع المضطرب في الجيش، والتبذير، والتهافت على المهن، والسعي وراء الشهرة، والتنافس في الرتب. فالجيدون لا يريدون البقاء (...) لا يوجد رضا، وهناك عدم تقدير. وهناك تأثير ايضا للعامل الحزبي. لقد سمّمت العلاقات (...) وثمة من يريد ترك [الجيش] لاعتبارات حزبية. وهناك محسوبية سياسية. لقد وافق (حاييم) لاسكوف على قبول ٨٠ ضابطا لاعتبارات حزبية. انهم لا يؤمنون بهذا الجيش: عقد اجتماع لبعض ضباط جبهة أ؛ خيبة امل للجميع، لا احترام لهيئة الاركان.»(٢٤) *** وخلال النصف الثاني من شهر تموز/يوليو، جمع

* كان [آلون]، ذو خصلة الشعر، رجل البلماح المبجل. وكان له من العمر آنذاك **٣١** عاما. وتنبأ له الجميع بمستقبل عظيم. ومع انه لم يعرف هذا [التنبؤ] في ذلك الحين، فان مستقبله بات مضمونا. فقد حملته البلماح الى ذروة حياته. وبكر بن ـ غوريون في ملاحظة بعض خصائص آلون كرجل سياسة. وفي أعقاب نقاش بشأن حل البلماح، دوّن رئيس الحكومة في مذكراته: «ان يغآل آلون رجل مراوغ بارز استطاع ان يعبر عن رأيه في هذه المسألة من دون ان يترك مجالا للقول انه غير متفق معي في الرأي، ومن دون ان يكون في الامكان اتهامه بأنه يختلف مع رفاقه في الحزب.»(٢١)

** حتى ان رئيس تحرير مجلة «بماحانيه»، موشيه شمير، أثار غضب بن ـ غوريون بسبب كاريكاتور نشره في المجلة تعقيبا على حل البلماح. غير ان بن ـ غوريون امر بتنحيته.(٢٣)

*** بعد مرور بضعة أيام، سأل بن ـ غوريون لاسكوف عما اذا كان خبر تعيين ضباط في مناصبهم بسبب =

بن ـ غوريون بضع مئات من الضباط من رتبة ملازم فما فوق لنقاش عام بشأن قواعد تنظيم الجيش وطابعه. وشجع بن ـ غوريون الحاضرين على التعبير عن أفكارهم بحرية. وقد هاجمه بعضهم بشدة، «منهم بأدب ومنهم بصورة اخرى»، بسبب ما وصفه بتطهير الجيش من السياسة، والقضاء على نفوذ مابام؛ وكان هذا لقاء قاسيا.(٢٦)

دعا قادة البلماح، بمناسبة مرور عام على حلها، في تشرين الاول/اكتوبر **١٩٤٩**، الى اجتماع وداعي كبير لمقاتليها: كان بضع مئات منهم لا يزالون في ذلك الحين يخدمون في الجيش الاسرائيلي. وسمح لهم بن ـ غوريون بحضور الاجتماع، لكنه تراجع بعد ذلك ومنعهم الحضور، مفترضا ان مابام يريد تظاهرة قوة ضد الحكومة. وقد أوقع امر المنع هذا قدامى البلماح في معضلة خطرة. وروى يتسحاق رابين فيما بعد: «ارتبكت كثيرا. لا يوجد ضابط يخالف أمرا، (لكن) حضوري اجتماعا لوداع مقاتلين أشقاء كان في نظري مسألة ضميرية، وحتى حاجة نفسية عميقة.» وقرر رابين حضور الاجتماع مخالفا الأمر. وقبل ذلك ببضع ساعات، استدعى بن ـ غوريون رابين ليطلعه على بعض حوادث اطلاق النار التي وقعت في تلك الايام في بيت جبرين. وجرى هذا اللقاء في منزل رئيس الحكومة في تل ابيب. وكان بن ـ غوريون مرتاحا جدا، ومتفرغا لحديث عام امتد ساعة كاملة. وقال رابين: «الساعات تمر والوقت ينفد، وأنا أرتدي بزتي العسكرية، وكان علي ارتداء ملابس مدنية كي لا اظهر في اجتماع البلماح بلباس عسكري. انني اجلس على الشوك.» وأخيرا تجرأ على ان يوجه الى بن ـ غوريون سؤالا صريحا: «لماذا تضعني وزملائي، الذين بقينا في الجيش، في وضع حرج: بين الرغبة في المحافظة على الانضباط، وبين واجب الزمالة واخوة السلاح والمشاركة الكبرى مع رجال قطعنا معهم شوطا طويلا. لماذا تلزمنا قسرا ومن دون خيار بالأخذ بواحد من قرارين سيئين: حضور الاجتماع ومخالفة الانضباط، او عدم الحضور ومخالفة قاعدة الزمالة المقدسة، الامر الذي يعتبر خيانة لرفيقك؟!» لم يجب بن ـ غوريون. وبدلا من ذلك دعا رابين الى تناول العشاء. وارتاب رابين بأن يكون [بن ـ غوريون] قد أراد من ذلك تأخيره حتى انتهاء الاجتماع. غير انه شكر رئيس الحكومة وسارع الى الالتحاق برفاقه. وروى فيما بعد: «تأخرت، والنظرات التي رمقتني اثبتت ما كان سيحدث لو نجح بن ـ غوريون في اشراكي في عشائه (...).»(٢٧)

حضر [الاجتماع] بضع مئات من الضباط والجنود، مخالفين الأمر. واعتبر بن ـ غوريون ذلك عملا «اسوأ من ألتالينا»،* على الرغم من ان تنظيم [الاجتماع] تم بمزيد

= ولائهم لماباي صحيحا، فقال لاسكوف: «ان هذا، في حالات كثيرة، لصحيح. وفي حالات كثيرة غير صحيح.»(٢٥)

* الباخرة التي استأجرها بيغن لنقل كمية كبيرة من الأسلحة وعدد من المتطوعين. وعندما وصلت الى =

من المهارة والفهم التكتي. وقد اعتبر اجتماع البلماح الوداعي، كما اعتبرت سفينة الأسلحة للالايتسل، محاولة «لتدعيم منظمة عسكرية غير مرتبطة بالجيش، وتعويد شبانها تفضيل امر الحزب على امر الجيش، والتأكيد ان الدولة لا تستطيع ان تفعل شيئا ضد هذا الامر.» وقد رأى بن ــ غوريون ان الضباط الذين حضروا الاجتماع «نكثوا بقسمهم، واذا لم يتخذ اي اجراء ضدهم فسيكون ذلك خيانة لرسالة الدولة.» وراح يغلي من الغضب، ونوى ان يقترح على الحكومة محاكمة كل ضابط من رتبة ملازم وما فوق، ومطالبة المحكمة بالغاء رتبته واصدار أحكام سجن بحقه.[٢٨] وقد حاول مساعدوه تهدئته، وقالوا له بجرأة انه اخطأ عندما منعهم من حضور الاجتماع، بعد ان سمح بذلك سابقا، ونصحوا له بضبط النفس. ولم يرغب وزراء الحكومة، كذلك، في التورط في هذه القضية؛ فقد قرروا انه يكفي تأنيب الذين حضروا الاجتماع، إلا اذا اتضح انهم خالفوا المنع معتبرين ان لأمر مابام الاولوية على امر الجيش.[٢٩] وقال رابين: «كنت اول من حوكم أمام رئيس هيئة الاركان: هل حضرت اجتماع البلماح؟ اجل. هل تلقيت الامر الذي يحظر حضور اجتماع البلماح؟ أجل. هل تعلم انك خالفت أمرا بحضورك [الاجتماع]؟ نعم اعرف. هل عندك أقوال اخرى؟ شرحت تعليلاتي كما فصلتها أمام بن ــ غوريون. جلس دوري من دون حركة: حُكم عليك بتأنيب من جانب رئيس هيئة الاركان. وسوف يدون التأنيب في ملفك الشخصي. انك عائد الى منصبك. ثم ألقى [دوري] خطابا عن ضرورة ترسيخ الانضباط في الجيش... وخرجت مرتاحا.»[٣٠] بقي رابين في الجيش، وكذلك أعضاء آخرون من البلماح. لكن أُقيل بعض كبار الضباط المقربين من مابام. وانسحب البعض الآخر، ومنهم: يتسحاق ساديه الاسطوري نفسه. وقد درس بن ــ غوريون المسألة فوجد انه حتى بعد حل ثلاثة ألوية من مجموع ستة اقيمت خلال حرب الاستقلال، فسيبقى في قمة قيادة الجيش الاسرائيلي بعض من أعضاء مابام والمتعاطفين معه.[٣١] وقد حثه قادة ماباي على التقليل من عددهم، وقالوا متذمرين: «ان الضباط ليسوا من جماعتنا.» واعتبروا ذلك «خطرا كبيرا على الدولة.» وبعد فترة، تأهب الحزب لاعداد بضع مئات من أعضاء «كوادره» كي ينخرطوا في نظام التدريب في الجيش الاسرائيلي.[٣٢]

اكثر بن ــ غوريون، الى جانب التدابير التي اتخذها لتطهير الجيش من رجال مابام، من الانصراف خلال تلك الاشهر الى معالجة خطط اعادة تنظيم الجيش.* وكانت صفحات

= تل ابيب يوم ٢٠ حزيران/يونيو ١٩٤٨، وبعد أن نزل المهاجرون المتطوعون، امر بن ــ غوريون بقصفها فاحترقت وقتل فيها ١٥ شخصا. وأدت هذه الحادثة الى حل «الأرغون» حلا نهائيا. (المحرر)

* كان العقيد يسرائيل بار بين الضباط الذين وقعوا في حيرة، خلال تلك الاشهر، فيما يتعلق بقدرتهم على مواصلة الخدمة في الجيش. وفي ايلول/سبتمبر ١٩٤٩، قال لبن ــ غوريون انه عضو في مابام وانه كان =

مذكراته تعج بالاحصاءات الرقمية: ألوية، وسرايا كوادر، وتكاليف. وفي تموز/يوليو، كان قادرا على اطلاع قادة حزبه على الخطوط العامة للخطة التي يستغرق تنفيذها، في تقديره، مدة تتراوح بين ثمانية اشهر وتسعة. وأعلمهم: «سنقيم حدا ادنى من الجيش الدائم، مع حد اقصى من جيش الاحتياط المدرب والمسلح.» وسمى نظام الاحتياط آنذاك «عتودوت» (القوات المساندة). وفكر بن ــ غوريون في خدمة الزامية لفترة ثلاثة أعوام، ثم تساهل فوافق على عامين، يخصص العام الاول منها للتدريب الزراعي، والثاني للتدريب العسكري. وعلاوة على الخدمة الالزامية، فكر في تطويع «قوات متخصصة مهنيا وعلميا» تخدم في الجيش ما بين ثلاثة أعوام وخمسة، او الى «مدى الحياة».[٣٥]

وأمل بن ــ غوريون بأنه سيكون قادرا على خفض عدد الذين يخدمون في الجيش الاسرائيلي حتى ٢٠ ألف رجل. ولم يكن هذا سهلا. وكتب في أواخر حزيران/يونيو: «حاولت مرة اخرى تركيب جيش، وتوصلت الى عدد يقارب ٢٥ ألفا.»[٣٦] وفي بداية السنة، كان الجيش الاسرائيلي يضم ١٠٠ ألف رجل تقريبا. وفي مرحلة معينة، تبنى بن ــ غوريون خطة تقضي بخفض عددهم بالتدريج. واستنادا الى معطيات هذه الخطة، تم اعداد ميزانية، لكن اتضح ان هذه المعطيات متفائلة جدا. وذكر بن ــ غوريون: «ان شهر آذار/مارس ١٩٥٠ لن ينتهي بـ ٢٤,٣٠٠ رجل في الجيش بل بـ ٣١ ألفا. وشهر شباط/فبراير بـ ٣٤,٥٠٠ (بدلا من ٢٤,٣٠٠)، وشهر كانون الثاني/يناير بـ ٣٦,٥٠٠ (بدلا من ٢١,٨٥٠)، وكانون الاول/ديسمبر ١٩٤٩ بـ ٣٦,٥٠٠ (بدلا من ٣٢,٩٠٠)، وتشرين الثاني/نوفمبر بـ ٣٧ ألفا (بدلا من ٣٤,١٠٠)، وتشرين الاول/ اكتوبر بـ ٣٨,٨٠٠ (بدلا من ٣٥,٦٠٠)، وأيلول/سبتمبر بـ ٤٦,٥٠٠ (بدلا من ٣٨ ألفا).» واستندت الأرقام العالية الى معطيات اعدها يعقوب دوري ومردخاي مكليف. أما الأرقام المنخفضة، التي كان بن ــ غوريون يأنس اليها، فقد عكست ما وصفه في مذكراته بـ «خطة فريد.»[٣٧]

وكشف بن ــ غوريون أن [صاحب الخطة] هو «فريد هاريس»، وعندما سئل عن ذلك في لجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست، اكد ان هذا الاسم ليس اسمه الحقيقي: «فريد

= ينتمي، سابقا، الى [حزب] «شوتسبوند» اليساري في النمسا. وسأل عما اذا كان في امكانه البقاء في الجيش، فأجابه بن ــ غوريون بأن عضويته في مابام ليست عيبا، لكنه حذره: «ان من سيعمل في الجيش لا يستطيع التشاور مع حزبه في الشؤون العسكرية، ولا يطلع حزبه على معلومات، ولا يتلقى منه اية تعليمات.» وقال بار لبن ــ غوريون انه موافق على ذلك.[٣٣] وبعد ذلك ببضعة أسابيع، كتب الى بن ــ غوريون قائلا له انه يفكر في الاستقالة من الجيش لأن المقربين من وزير الدفاع يشككون في ولائه. لكن بن ــ غوريون أكد له: «ليس لديك اي أساس للتخوف من تشكك احد.» ومن الجائز انه لم يكن في تلك الأيام اي سبب للشك.[٣٤] وفيما بعد حكم على بار بالسجن ١٥ عاما بتهمة التجسس لمصلحة الاتحاد السوفياتي.

هاريس هو اسم مستعار مثل صديقه دافيد ماركوس، الذي غير اسمه الى (ميكي) ستون. انه مواطن اميركي، وهو مثل ماركوس وسائر المتطوعين من اميركا، لم يطلب منه أداء قسم الولاء لجيش الدفاع الاسرائيلي.» وفي رسالة بعث بها الى يتسحاق بن أهارون، احد قادة مابام، كتب بن ـ غوريون: «قدم هاريس العون الى رئيس شعبة العمليات، التي كلفته وضع خطة النيران والتحصينات في جميع المواقع [العسكرية] في البلد. كما ساعد شعبة التدريب، واشترك في دورات وامتحانات. وأنا ألجأ اليه، من وقت الى آخر، طالبا مشورته ورأيه في مسائل عسكرية مختلفة. واني اقدر معلوماته وخبرته والمامه بالشؤون العسكرية. وبحسب علمي، ليس في البلد رجل يفوقه في هذه الشؤون.»(٣٨) وكان بن ـ غوريون يستدعيه من حين الى آخر كي يشترك في جلسات الأركان العامة. وكان يكثر من لقاء هذا الرجل. ويتبين من مذكراته انه وافق على بعض نصائحه. وفي أوائل كانون الثاني/يناير ١٩٤٩، نقل عن الاميركي ،سلسلة من العيوب التي وجدها في الجيش الاسرائيلي، ومنها: تبديد في الطاقة البشرية، وعيوب ادارية، وأخرى تتعلق بشراء الاسلحة وأجهزة المخابرات والامن الميداني. وشجعه بن ـ غوريون على ان يقدم له تقديراته خطيا، مرفقة بتوصيات لتحسين الوضع. ثم نقل عنه سلسلة من التقديرات الشخصية في شأن قيادة الجيش: «لا يوجد ضابط واحد من قادة الجبهات يلائم منصبه. ان افضل جندي هو حاييم (لاسكوف)، ثم يليه بن دونكلمان، وموتكا (مكليف). ويحتاج هذا الاخير الى ثقافة وتدريب. قادة الالوية: (ناحوم غولان) شبيغل، جيد؛ كوخ (شمعون أفيدان) جندي جيد (وعندما قلت انه حذر اكثر من اللازم، لم يوافق على ذلك. فهو جريء كما يدعي)؛ (يتسحاق) فوندك غير ملائم؛ موشيه دايان ممتاز وواعد جدا، لكنه يحتاج هو ايضا الى مزيد من التدريب؛ جيمس (ميخائيل بن ـ غال) جندي، لكنه ليس قائدا من النخبة؛ يغئيل يادين لامع، لكنه يعتمد اكثر من اللازم على الارتجال، ولا يفكر بما فيه الكفاية وحتى النهاية؛ بريتس عيست افضل خبير مدفعي وجندي مهم، لكنه يعاني بعض العقد.»(٣٩)

عند نشوب الحرب، وصل الى البلد بضعة آلاف من المتطوعين من الخارج، قسم منهم يهود والقسم الآخر ينتمي الى شعوب اخرى. لقد قدموا من بلاد كثيرة، وجاء معظمهم تعاطفا مع النضال الصهيوني، لكن كان بينهم أيضا مغامرون ومنحرفون من مختلف الأنواع. وكان بينهم أصحاب خبرة عسكرية اكتسبوها من خدمتهم في جيوش الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا وجنوب افريقيا، والجيش السوفياتي، وجيوش اخرى. وكان بينهم من قدم العون الكبير الى «الهاغناه» والجيش الاسرائيلي، ومنهم مشاة وبحارة وطيارون. وكان اكثرهم شهرة الكولونيل اليهودي الاميركي دافيد ماركوس الذي قتل بعد اربعة اشهر من وصوله. وكان آنذاك قائد جبهة القدس برتبة لواء. أما بن دونكلمان، وهو ضابط يهودي من كندا، فكان في

البلد قائد اللواء السابع الذي احتل الناصرة ووصل حتى ضفتي الليطاني في لبنان.

أما الرجل الذي فاق، في رأي بن ـ غوريون، كل خبير عسكري عرفه، فلم يُعرف قط باسمه الحقيقي بل بلقبه: فريد هاريس؛ هكذا عرفوه في قيادة الجيش الاسرائيلي.* أما اسمه الحقيقي فهو فريد غرونيخ، ابن عائلة مهاجرة من النمسا ومن مواليد نيويورك. وهو خبير جيولوجي وفق دراسته الاكاديمية، وجندي بحسب ميوله وممارسته. كان عمره عند وصوله الى البلد، بعد بضعة أسابيع من اعلان الاستقلال، ٣٢ عاما. وقبل حضوره بوقت قصير ترك الجيش الاميركي وهو برتبة كولونيل. وكان قد أُلحق خلال الحرب العالمية الثانية بقيادة داويت ايزنهاور، كضابط اركان واضطلع بمهمات استخبارية.(٤٠) وروى فيما بعد: «شجعني رجلان على الحضور الى هنا، هما: دافيد ماركوس، وتيدي كوليك. وقالا لي انه يمكن الاستعانة بخبرتي. ولم يقولا لي ما العمل الذي سيناط بي تحديدا. كنت عازبا، ومسرّحا من الجيش للتو، ولم اكن قد عرفت بعد ما سأفعل تماما، اذ ان الاقتراح الذي تلقيته بالقدوم ومساعدة الجيش الاسرائيلي استهواني كثيرا. وكنت وفق نهجي صهيونيا مثل الجميع. وبوصولي، خلال النصف الثاني من حزيران/يونيو ١٩٤٨، كان ميكي (ماركوس) قد فارق الحياة. وكان ينتظرني في اللد نحميا أرغوف، فأخذني مباشرة الى بن ـ غوريون الذي كان قد علم بقدومي لكنه لم يعرف بالضبط ماذا سيفعل بي. ارسلني الى مساعدة موشيه دايان في فحص نظام المواقع على امتداد خطوط التقسيم في القدس. ونظمت لهم دورة استطلاع. وبعد ذلك تم الاتفاق على ان أساعد حاييم لاسكوف. ورافقته في كل مكان ذهب اليه، بما في ذلك شعبة التدريب. وشاهدت على الفور ان هذا الجيش لا يساوي شيئا من الناحية المهنية، اذ كان كل شيء في غاية الارتجال، وقتل عدد كبير من الجنود من دون غاية، ولو كان هذا الجيش منظما كما يجب لما قتلوا. وفهمت ان لدي ما أساهم به في كل ما يتعلق بتنظيم الجيش، وأدرك بن ـ غوريون ذلك.»

تحدث [هاريس] الى بن ـ غوريون عن نظام الطاقة البشرية وأنظمة الاسلحة وبرامج التدريب، كما تحدث عن حقوق المواطن كجندي وحقوق الجندي كمواطن. لقد تحدثا عن جوهر الانضباط العسكري، وعن قانون القضاء العسكري. وكان بن ـ غوريون يكثر، كما قال، من البحث معه في العيوب التي وجدها في الجيش وحدثه عما شاهده: فظائع الاحتلال في قرية الجش، بما في ذلك قتل المدنيين، وطرد المواطنين من الرامة، خلافا للوعود التي اعطيت لهم قبل استسلامهم. «اهمال صارخ» في معركة الفالوجة: «قلت لبن ـ غوريون ان هذه [العيوب] ستؤدي بنا الى ورطة. وقد ادت الى ذلك فعلا.» ودرج بن ـ غوريون على

* لم يتطرق محررو مذكرات دافيد بن ـ غوريون، حتى بعد مضي خمسة وثلاثين عاما، الى اسم الرجل واشاروا الى ان المقصود هو لقب.

جره الى أحاديث طويلة عن مزايا المذاهب العسكرية وعيوبها، ووظائف الجيش كعنصر تثقيفي. وقد رافقه عندما انطلق الى المواجهة الكبرى مع ضباط البلماح في تل هشومير، والى الكنيست ليستشيره خلال مناقشة قانون الخدمة العسكرية. وأشركه، قبل ذلك، في مشاورات صوغ القانون. وقال غرونيخ فيما بعد: «لقد اخطأ بن ـ غوريون عندما اخذني الى الاجتماع بأعضاء البلماح. لقد كان ذلك خطأ فاحشا. جلست في الصف الامامي، وبدوت كالبقرة الحمراء، وكنت ارمز في نظرهم الى كل ما كانوا يمقتونه.» وحاول غرونيخ، قبل مغادرته البلد، اقناع بن ـ غوريون بأن يأمر بالغاء الحكم العسكري: اعتقد ان الحكم العسكري يناقض روح الشعب اليهودي، وهو ضار ولا لزوم له. ولم يقبل بن ـ غوريون، بتأثير من يادين خاصة، رأيه هذا. وذكر غرونيخ: «ان حضوري هنا لم يعجب يادين. فالخلافات في الرأي بيننا كانت في المجال المهني، لكنه ربما اعتبرني منافسا له. لقد حذرت بن ـ غوريون من ان عليه عدم الاعتماد على يادين اكثر من اللزوم. وخلال خدمتي في الجيش الاميركي عرفت بعض كبار الجنرالات، ولاحظت ان يادين ليس جنرالا كبيرا. وسألني بن ـ غوريون عن رأيي في امكان تعيين يادين رئيسا للأركان، فرفضت الفكرة. وفي احد الايام، خابرني بن ـ غوريون هاتفيا من طبرية بأنه قرر تعيين يادين رئيسا للأركان، فأدركت انه لم يعد لدي ما افعله من الآن وصاعدا. وعدت الى الوطن.»

عندما كان غرونيخ لا يزال في اسرائيل، سكن غرفة مستأجرة في شارع هيركون في تل ابيب. ولم يكشف اسمه الحقيقي حتى لصاحبة المنزل. وخلال جولاته في الجبهات وحضوره جلسات الأركان العامة، كان يرتدي ثياب الكاكي من دون نياشين ومن دون شارات الرتب. وكان يعتمر قبعة، تتدلى على جبينه من الطراز الاميركي. كان يتكلم الانكليزية، وخلال جلسات الأركان العامة يترجمون أقواله. وعلموا في كل لواء وجبهة انه يتردد على بن ـ غوريون؛ ولم يعرفوا اكثر من ذلك. وكان البعض يقدر خبرته ومواهبه، لكن الكثيرين كانوا يرمقونه بنظرة عداء وارتياب. وخلال فترة وجيزة شاع تكهن بأنه موجود في البلد في مهمة من البنتاغون، او من اجهزة الولايات المتحدة السرية، كمستشار وعميل في الوقت ذاته. واعتقد البعض انه جاسوس. وارتاب قادة البلماح من انه حضر كي يجر اسرائيل الى نظام الولايات المتحدة الاستراتيجي. وقال غرونيخ: «لم اكن جاسوسا ولا عميلا، لكنني املت ـ بالتأكيد ـ نتيجة للنصائح التي قدمتها الى بن ـ غوريون، بتنظيم الجيش الاسرائيلي وتدريبه كي يكون مهيأ للانخراط في المستقبل في النظام الاستراتيجي الشامل للولايات المتحدة؛ آمنت بأن هذا سيخدم مصالح الولايات المتحدة واسرائيل في آن، لأن [اسرائيل] لن تصمد وحدها، اذ لم يكن لها مكان في الكتلة السوفياتية ولا يمكن الاعتماد على فرنسا. ولم تكن ألمانيا الغربية قائمة، واعتبرت بريطانيا عدوة فبقيت الولايات المتحدة.»

بقي سر وجود [هاريس] في اسرائيل قائما عاما واحدا. وفي تموز/يوليو ١٩٤٩، عندما كان الاستياء من حل البلماح في ذروته، بعث يتسحاق بن أهارون، عضو لجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست، باستجواب ليس للنشر الى دافيد بن ـ غوريون، وطلب منه ان يعرف ما اذا كان صحيحا ان «فريد هاريس» يعمل فعلا مستشارا عسكريا رئيسيا لوزير الدفاع ولرئيس هيئة الاركان، وهل صحيح ان لا سر يحوم حوله. وأكد بن ـ غوريون هذا الخبر، ومما كتبه: «انني مضطر الى الاعراب عن اسفي الشديد لهذه المحاولة الرامية الى نبذ (من دون ان يستخدم عبارة اكثر اصابة للهدف) جندي يهودي لمجرد انه ولد في اميركا (. . .) وبالنسبة الي، ليس عندي اي أساس للشك في اخلاص فريد هاريس، بل انني على العكس اقدره وأقدر خدماته، وأنظر بقلق شديد الى المحاولة التي بذلها بعض المقربين منك في الجيش لرفض مساعدة أشخاص ذنبهم الوحيد، بحسب ما اعرف، انهم يعرفون اكثر من الذين يحاولون نبش العيوب فيهم.» وعلى حد قول بن ـ غوريون ان كل ما كتبه بن أهارون عن «هاريس»، كان يمكن ان يكتبه عن دافيد ماركوس: «انني لا ارى اي فارق جوهري بين هذين الرجلين، سوى ان احدهما استشهد ولم يعد في قيد الحياة ولا ضرورة لنبش عيوبه.» وقد غضب بن ـ غوريون كثيرا، وكتب الى بن أهارون: «انني قلق جدا من السبل الحربية التي ينتهجها بعض رفاقك في الجيش. ويبدو لي انكم لا ترون المنحدر الخطر التي تتدهور اليه الأمور. ومن الواضح انكم لن تكونوا وحدكم الذين ستعانون نتيجة ذلك، وانما الدولة كلها والحركة الطلائعية بأسرها. فاذا كان هذا عزاء لكم، حسنا. أما بالنسبة الي، فهذا لا ينطوي على اي عزاء. ولو كنت اعرف انكم الوحيدون الذين سيعانون من ذلك، لما كان لدي اي عزاء اذ ذاك. انني ارى في مضمون رسالتك ومصادرها ان الحواجز اختُرقت كلها وأزيلت جميع الكوابح في الحرب ضد كل من لا يحظى برضى (مابام).»[٤١]

بعد ذلك ببضعة أيام، تسربت القضية الى صحيفة الحزب الشيوعي «كول هعام». واستخلصت الصحيفة من المعلومات القليلة التي حصلت عليها ان «الجنرال هاريس» قدم الى البلد كي «يربط جيشنا بعجلة عدوان الاستعماريين الاميركيين، ويتحرى شروط اقامة قواعد عسكرية على أراضي دولتنا.»[٤٢] * وهكذا زج غرونيخ في صميم النقاش بشأن اتجاه

* اتُهمت الصحيفة قبيل آخر السنة، في سياق آخر، بالتشهير لاتهامها بن ـ غوريون بالخيانة. وفي اطار جهودها لتثبيت هذه التهمة، ذكر المتهمون ان الانسحاب من العريش جاء نتيجة الرضوخ لضغط اميركي، وكذلك لوجود «هاريس» في اسرائيل. واستجوب محامي الدفاع عن المتهمين بن ـ غوريون نفسه: «ألا يشكل وجود ضابط تجسس اجنبي في القيادة العليا للجيش الاسرائيلي وتسليم معلومات عسكرية سرية بهذه الطريقة الى دولة عظمى اجنبية خيانة وطنية؟» لكن الشاهد بن ـ غوريون رفض الاجابة، وقررت المحكمة ان وجود «هاريس» في اسرائيل ليس دليلا على ان رئيس الحكومة خان شعبه.[٤٣]

اسرائيل نحو واشنطن او موسكو. وكان هذا جدلا عقيما كغيره، ومشحونا بالعواطف والحجج الايديولوجية. وزعم بن أهارون ان وجود الضابط الاميركي في اسرائيل يناقض التزام الحكومة المحافظة على خط حيادي في الحرب الباردة بين الدولتين العظميين. وقال بن ـ غوريون: «انني عضو في حكومة صهيونية، وأنا نفسي صهيوني. وما زلت اعتقد انني جزء من شعب اسرائيل، وان هذه الدولة اقيمت من اجل شعب اسرائيل كله. ولكل يهودي حصة في هذه الدولة. ويبدو لي ان الاستعباد الروحي للاتجاه المعادي لأميركا يتمادى كثيرا اذا كان ينبذ يهود اميركا ايضا.»(٤٤) وبعد ذلك ببضعة أيام، نشر بن أهارون مقالا في صحيفة حزبه، «عال همشمار»، اكد فيه: «ان دولة اسرائيل تمر الآن بمسار حاد، يتمثل في تحويل الجيش الاسرائيلي الى جيش مبني وفق اسلوب الجيشين البريطاني والاميركي. ان اعادة التنظيم لا تكلفنا مبالغ مالية هائلة فحسب، بل تسبب ايضا فقدان قوى قيادية ممتازة وظواهر خطرة جدا. ان اعادة التنظيم هذه ليست ضرورة امنية، ولا تمليها مصلحة الدولة، وانما اعتبارات سياسية دولية والرغبة في منع مابام من ان يشكل عنصرا مؤثرا في الجيش ومحو بقايا تقاليد الهاغناه والبلماح وروحهما من صفوفه.»(٤٥) لقد رفض مابام انظمة الانضباط الجديدة. فقد اعتبرها مخالفة لروح البلماح التطوعية. وعلى حد قول يسرائيل غاليلي انه قلق من فقدان «الفكرة الطلائعية» في الجيش الاسرائيلي.(٤٦)

بعد مرور خمسة وثلاثين عاما، زعم غرونيخ ان وزارة الخارجية الاميركية لم تكن تعرف أعماله في البلد. وقال انه اجتمع مرة واحدة الى السفير مكدونالد في حفلة كوكتيل، وقدم نفسه باسمه الحقيقي زاعما انه صحافي. وعلى حد قوله، ان سنوات عديدة مرت قبل ان يعرف السفير ان غرونيخ هو هاريس. وعندما انكشفت هويته، استدعي غرونيخ الى واشنطن وأُنب على نشاطه في الجيش الاسرائيلي من دون اذن ومن دون تنسيق مع الملحق العسكري في سفارة بلده في تل ابيب. وأكد، مع ذلك، انه كان هناك في عاصمة الولايات المتحدة أشخاص يعرفون نشاطه، وبينهم بعض رؤساء الاستخبارات الاميركية. وخلال ١٨ شهرا من اقامته في البلد، سافر الى الولايات المتحدة مرتين، في محاولة للتأثير في الادارة الاميركية واقناعها بارسال مجموعة من المستشارين العسكريين الى اسرائيل. وفي غضون ذلك، اقنع احد معارفه، الميجر جنرال رالف سميث، بأن يرئس هذه المجموعة. ووافق سميث مشترطا حصوله على اذن من رئيس هيئة الأركان الاميركي، لوتون كولينز. وقد تحدث سميث في هذا الشأن الى كولينز فكان الجواب سلبيا. وقبل ذلك، تحدث تيدي كوليك عن هذا الموضوع الى بن ـ غوريون، غير ان هذا الاخير لم يكن متحمسا. ودوّن في مذكراته: «كان عندي شك فيما اذا كان من المجدي احضار جنرال اميركي الى هنا كي يساعد في تنظيم الجيش.»(٤٧) وبعد مرور يومين، بلور موقفا قاطعا في شأن هذه المسألة بعد مشاورات مع

شاريت وغولدا مئير: «اعربت عن رأيي الرافض رفضا قاطعا لدعوة جنرال اميركي. اننا لا نستطيع ان نكشف بأنفسنا جميع الأسرار لجندي اميركي، وسوف تصل هذه الأسرار الى الانكليز وربما الى العرب. فمن المفضل الاكتفاء باليهود الأوفياء فقط، وارسال الشبان الى الخارج للدراسة.»(٤٨) وذكر غرونيخ: «اعتقد ان العجوز [بن ـ غوريون] كان سيوافق، في نهاية الامر، على هذه الفكرة لو حصلنا على ضوء اخضر من واشنطن. فقد كان يرغب كثيرا في التدخل الاميركي.» وبعد مرور عام على احضار غرونيخ اليه للمرة الاولى، سأل بن ـ غوريون حاييم لاسكوف رأيه فيه فأجاب: «انه يعرف الكثير، وبمقدار ما يعرف ماركوس، لكنه يقل عن ماركوس بالمعنى النفساني.» وتساءل بن ـ غوريون: «هل هو مخلص؟» فأجاب لاسكوف: «اجل، ما دامت اسرائيل والولايات المتحدة على علاقات ودية.»(٤٩) وقال يتسحاق بن أهارون، بعد مرور خمسة وثلاثين عاما: «كان دافيد ماركوس هو ايضا كولونيل اميركي، لكنه كان محبوبا وانسانا دمثا ويحب الناس، وهو مقاتل بكل معنى الكلمة ومن رجال البلماح. أما فريد هاريس، فكان شخصية غامضة، جاء في مهمة خفية وخطرة. ويمكن ان تكون جهات في واشنطن قد عارضت مهمته في اسرائيل، وأخرى شجعته على القدوم. وأن تكون جهات في البلد قد سعت لجر الجيش الاسرائيلي الى الانخراط الكامل في نظام الولايات المتحدة الاستراتيجي وفي اتجاهاتها العدوانية الاستعمارية. فكانت القضية كلها مثيرة للاشمئزاز.»(٥٠) ويقول تيدي كوليك، بعد مرور خمسة وثلاثين عاما: «حضر فريد ليساعدنا، وقام هنا بعمل ممتاز. وكانت مأساته انه لم يُقتل مثل ميكي ماركوس، ولو قتل لتذكره الجميع آنذاك كبطل اعظم كثيرا [من ماركوس].»(٥١) *

ان قدرة الدول الصغرى على البقاء على الحياد، وامتناعها عن الانحياز الى احدى الكتلتين، يتلاشيان كلما احتدمت الحرب الباردة. فقد واجهت اسرائيل مرارا قرارا صعبا، لم يكن مرهونا بخلافات في الرأي بين أحزاب اليسار وأحزاب الوسط واليمين فحسب، بل أيضا بارتباك داخل ماباي نفسه. وقد ايد الاتحاد السوفياتي، في حينه، دولة اسرائيل. كما ان خطب اندريه غروميكو التي ايدت ذلك بعثت الدفء في قلب كل شخص في البلد. وباعت دول اوروبا الشرقية الى اسرائيل قسما كبيرا من السلاح الذي استخدمته في حرب الاستقلال، وفتحت أبوابها أمام خروج المهاجرين ممن هم في سن الجندية. وعزز ذلك قوة الجيش الاسرائيلي. غير ان مئات الآلاف من اليهود لم يكونوا قد خرجوا بعد. كانت موسكو عاصمة الاشتراكية، وكان التعاطف مع الاتحاد السوفياتي في عهد ستالين ينطوي على اشكالات، لكن هذا التعاطف كان بالنسبة الى ماباي اختبارا لمناعته الايديولوجية. وانجر الحزب في هذا

* انصرف غرونيخ، بعد عودته الى الولايات المتحدة، الى أعمال السينما. وبعد ثلاثين عاما، استعان به كوليك رئيس البلدية [بلدية القدس]. فكان غرونيخ من المبادرين الى الأعمال السينمائية في القدس.

الصدد وراء مابام الذي انجر وراء ماكي.* وفي مواجهة الحماسة الايديولوجية، كانت هناك براغماتية بن ـ غوريون الرسمية. وقد مارست الولايات المتحدة ضغوطا شديدة على اسرائيل، وطلبت منها ـ بل فرضت عليها في بعض الاحيان ـ التنازل عن امور اعتبرتها اسرائيل حيوية. وقد كان يقيم في الولايات المتحدة اكبر جالية يهودية وأغناها في العالم، وفيها مستودع حيوي للمساعدات الاقتصادية والدعم السياسي. وكان بن ـ غوريون يجنح الى توجيه الاهانة الى يهود اميركا لأنهم لا يهاجرون الى اسرائيل، لكنه فضل عدم اجبارهم على التنكر للدولة بسبب توجهات نظامها الاشتراكية وارتباطاتها بدول الكتلة الشيوعية. وورد في الخطوط الاساسية للحكومة الاولى ان سياسة اسرائيل الخارجية ستكون قائمة، بين امور اخرى، على الصداقة مع جميع الدول المحبة للسلام، «ولا سيما الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي.»[٥٤] وبعد مرور بضعة اشهر، حاول بن ـ غوريون قيادة الدولة بحذر شديد. فقد بعث برسالة الى وزير الخارجية، شاريت، يرشده فيها الى [ضرورة] تأييد السلام والتعاون بين العالم الديمقراطي والدول الشيوعية. وجزم قائلا: «ان اسرائيل تتجنب الانضمام الى الحرب الباردة، بسبب قضايا الدول الحيوية والامل بامكان تحقيق السلام.» وأضاف ان «الكتلة الديمقراطية» لا تضمن مصالح اسرائيل الحيوية في مجالات الهجرة، والامن، والحدود، ومشكلة القدس، والعلاقات بالجيران. لكنه لم يستبعد، في حال هاجم «النظام التوليتاري» الديمقراطية، اشتراك اسرائيل في الدفاع عنها. وحسمت المسألة من الناحية الفكرية: «ان دولة اسرائيل ليست سلبية ولا حيادية في المناقشات الكبرى في العالم؛ فهي، في النقاش الايديولوجي، ديمقراطية ومعادية للشيوعية.»[٥٥]**

شجعت الولايات المتحدة اسرائيل على الانخراط في دائرة نفوذها. وفي غضون ذلك، سعت لتعزيز قوة ماباي. وقبل انتخابات الكنيست الاولى ببضعة ايام، اعلن المصرف الاميركي للاستيراد والتصدير انه مستعد لاقراض اسرائيل ١٠٠ مليون دولار اميركي، لتمويل استيعاب المهاجرين ومجموعة من مشاريع التنمية. وكان هذا مبلغا كبيرا جدا في تلك الايام، وحيويا كالهواء للتنفس. وكانت المفاوضات في شأن القرض قد بدأت قبل مدة. فقد

* سعى ماكي لاقامة نظام شيوعي في اسرائيل على غرار نظام ستالين. وأراد مابام اشتراكية ديمقراطية. وهذا مدوّن في محاضر الكنيست على لسان يعقوب حزان: «ان الاتحاد السوفياتي بالنسبة الينا (...) هو وطننا الثاني (...).»[٥٢] وفي اول ايار/ مايو ١٩٤٩، وعدت غولدا مئير ان يقوم النظام الاشتراكي ـ في مفهوم ماباي ـ خلال عام، حتى الاول من ايار/ مايو المقبل.[٥٣]

** بعد مرور بضعة أسابيع، وصف بن ـ غوريون الصراع بين ماباي ومابام كصراع «بين الاشتراكية الصهيونية والشعبة اليهودية في الحزب الشيوعي السوفياتي، سواء على الصعيد اليهودي او على الصعيد الدولي.»[٥٦]

سعى حاييم وايزمن وأليعيزر كابلان وموشيه شاريت وآخرون وراء هذا القرض، بيد ان توقيت اعلانه، عشية الانتخابات، هدف الى تمكين ماباي من الاشارة الى انجاز فعلي والاساءة الى توجه مابام الموالي للسوفيات. وكان ممثل الولايات المتحدة في اسرائيل ـ وسفيرها فيها بعد ـ جيمس مكدونالد، هو الذي بادر الى هذا التدخل في شؤون اسرائيل الداخلية استنادا الى تقديره ان ماباي لن يحصل في الانتخابات على جميع الاصوات اللازمة لمواجهة «نشاط مابام التخريبي الموالي للسوفيات.» وحذر هذا الدبلوماسي، في رسالة بعث بها الى جورج مارشال وزير الخارجية، من ان «السوفيات يخططون لمناورات انتخابية خاصة بهم»، وطلب اطلاع الرئيس ترومان على فحوى هذه الرسالة. وأضاف ان «الاتحاد السوفياتي يحظى في اسرائيل بتعاطف عام واسع.» ووصف ماباي بأنه حزب موال للغرب، ويؤمن بنظام يضمن الحريات السياسية والعدالة الاقتصادية والاجتماعية على غرار الغرب. ومن اجل تعزيز قوته، اوصى مكدونالد بأن تعلن الولايات المتحدة قبل الانتخابات اعترافا «قانونيا» كاملا باسرائيل، او الموافقة على القرض على الاقل. وحذر الدبلوماسي من «ان مابام يؤمن، بدوره، بالحاجة الى الحصول على القرض، لكنه سيقاوم كل قيد سياسي مشروط بالحصول عليه. أما من ناحية ماباي، فمن المهم جدا ان يؤكد البيان ان القرض غير مرهون بأية التزامات سياسية.»[٥٧]* وبعد مرور ثلاثة اشهر، اوصى مدير مكتب شؤون الشرق الاوسط وافريقيا في وزارة الخارجية الاميركية بأن تستجيب الولايات المتحدة لطلب آخر وصل في تلك الاثناء من تل ابيب. فقد طلبت اسرائيل الآن تدريب بعض ضباط الجيش الاسرائيلي في صفوف الجيش الاميركي. وكتب رجل وزارة الخارجية الاميركية ان الاستجابة للطلب ستؤدي الى تعميق ارتباط اسرائيل بالغرب.[٥٩]**

خلال النصف الثاني من سنة ١٩٥٠، بلغ التوتر بين الكتلتين ذروة لم يُشهد لها مثيل من قبل. فقد نشبت حرب كوريا، ووقفت اسرائيل الى جانب الولايات المتحدة بصورة مكشوفة. وكان الاتحاد السوفياتي قد غير موقفه الودي من اسرائيل، وبدأ التقرب من الدول العربية. وفي الواقع، بدأت اسرائيل تنخرط في دائرة النفوذ الاميركي قبل وقت طويل من اعترافها بذلك، غير ان بعض المؤيدين لحيادها ـ ومنهم وزير الخارجية شاريت والمسؤولون في وزارته ـ لم يصروا على ذلك على الفور. كان ذلك قرارا حاسما ومهما، لكنه لم يتخذ في اطار

* وفعلا، فسر منتقدو القرض الاميركي ذلك بأنه محاولة ترمي الى ربط اسرائيل بمصالح الولايات المتحدة. وقال موشيه سنيه (مابام): «المحطة الاولى هي مساعدات، والمحطة الثانية استعباد، والمحطة الثالثة كتلة وقواعد، ومن ثم تصبح الطريق مفتوحة أمام المحطة الاخيرة: حرب عالمية.»[٥٨]

** بعث سفير الولايات المتحدة في لندن بتقويم سري جدا الى واشنطن، جاء فيه ان مناحم بيغن قد يعطي الاتحاد السوفياتي نفوذا في اسرائيل، بسبب عدائها المشترك لبريطانيا، ولأسباب اخرى.[٦٠]

حكومي معتمد، بل جاء نتيجة ظروف وخطوات اتخذها المتنفذون الذين أحاطوا بدافيد بن ـ غوريون، بناء على موقفه الذي كان مواليا لأميركا اكثر من كونه حياديا. وكان هذا الموقف أساسا لطلب الحصول على مساعدات عسكرية من الولايات المتحدة. وعلى هذا الاساس، جاء فريد غرونيخ. وكان تيدي كوليك، الذي ارسله الى اسرائيل، يعمل مفوضا لاسرائيل لدى واشنطن. وكان نجل احد الموظفين في امبراطورية عائلة روتشيلد المصرفية النمساوية من مؤسسي كيبوتس عين ـ غيف، لكنه لم يقم فيه وقتا طويلا. وبعد فترة وجيزة تولى القيام ببعض المهمات: يسافر من بلد الى آخر، من ثري الى آخر، ومن صاحب نفوذ الى صاحب نفوذ، ويحملهم على الاشتراك في جهد دؤوب لدعم قضايا الحركة الصهيونية والدولة، مستخدما كفاءته في توجيه كلامه الى النقطة الحساسة في قلب كل واحد منهم، يخاطبهم كند بين أنداد: مليونير بين اصحاب الملايين، ورجل سياسة بين رجال السياسة، وذواقة فن بين متذوقيه، كله سحر وجاذبية وبهجة وصدق، وذو لهجة لاذعة، ويملأ نشاطه الدنيا بصفته راعيا للأدب والفن في فيينا وابن القرن الماضي. وقدر بن ـ غوريون حصافته وكفاءته التنفيذية البراغماتية. وأقام كوليك، خلال مكوثه في واشنطن، علاقات صداقة وثقة وتعاون ببعض رؤساء اجهزة الولايات المتحدة السرية. وكان غرضه تعميق تورط هذه الاجهزة في شؤون اسرائيل، وبالتالي التزام الولايات المتحدة واهتمامها بمساعدة اسرائيل. *

لم يقم حزب العمال الموحد ـ مابام ـ إلا في كانون الثاني/يناير ١٩٤٨؛ فقد ارتكز على هشومير هتسعير، ولا سيما في مزارع الكيبوتس القطري. والتحقت به هتنوعاه لأحدوت هعفوداه [الحركة من اجل العمل الموحد]، التي كانت قاعدة قوته الاساسية موجودة في الكيبوتس الموحد، وعمال المدن الكبرى ولا سيما في تل ابيب. وقبل ذلك ببضعة أعوام، انسحب اعضاء احدوت هعفوداه من حزب ماباي.(٦٢) وبعد تأليف الحكومة الموقتة، انضم اليها اثنان من وزراء مابام هما: مردخاي بنطوف وأهارون تسيزلينغ. وبتأثير الحرب، حاول الجميع تسوية خلافاتهم. غير ان محاضر جلسات الحكومة الموقتة دلت على ان وزيري مابام كانا يتخذان، في احيان متقاربة، مواقف معارضة صريحة، وأدى حل البلماح الى ذروة التوتر بين الحزبين العماليين. والى جانب خلافات الرأي العاطفية والايديولوجية والسياسية ـ بما في ذلك مسائل المفاوضات مع الدول العربية والتوجه الى الكتل العظمى ـ كان هناك

---

* كان هناك في اسرائيل، خلال تلك الفترة، العديد من الخبراء والمستشارين الاميركيين في مجالات متعددة. وبعد مرور فترة وجيزة، انشأت حكومة الولايات المتحدة صندوقا خاصا كي تنشر في بعض الدول، وبينها اسرائيل، كتبا ومؤلفات وأفلاما وأشرطة اميركية، لمجابهة الدعاية التي تدفقت على البلد من وراء الستار الحديدي. وكان تيدي كوليك متورطا في ذلك ايضا. كانت كلها مراحل اولى في مسار أمركة المجتمع الاسرائيلي.(٦١)

مناقشات اخرى؛ فقد طالب مابام بتأميم صناعات الدولة الاساسية، وتفضيل القطاع الهستدروتي ـ الكيبوتسي بهدف تحويل اسرائيل، بالتدريج، الى دولة اشتراكية. وبذل ماباي جهودا لتشجيع المبادرة الفردية والاستثمارات المالية الفردية من الخارج. ونظم مابام تظاهرات عمالية طالبت برفع اجور العمال، ولم يسارع ماباي الى الاستجابة لهذا المطلب، وظل متمسكا بحسابات مؤشر [التضخم] وتوزيع الأرباح وحصص الانتاج. كما طالب مابام بوضع دستور لكن ماباي عرقل ذلك. ورفض مابام التساهل الذي ميز موقف ماباي من مطالب الأحزاب الدينية. وقد لاح في الافق الخلاف الأعمق والأكثر ايلاما ازاء مسألة العلاقات بين اسرائيل وألمانيا الغربية. فقد كانت المفاوضات في شأن اتفاق التعويضات قد بدأت، وطلبت الحكومة البحث في امكان انشاء علاقات تجارية بين الدولتين.(٦٣) كان ذلك في البداية موضوعا من موضوعات النقاش في شأن التوجه الى الكتل العظمى، وبدا انخراط جمهورية [ألمانيا] الاتحادية، بزعامة كونراد اديناور، في نظام نفوذ الكتلة الغربية ـ من وجهة نظر اليسار الاسرائيلي ـ تحالفا بين الاستعمار الاميركي والنازية الجديدة الالمانية. * ادى ذلك كله الى تدهور العلاقات بين مابام ومباي، الامر الذي زاد في صعوبة المفاوضات الائتلافية بينهما بعد

---

* ظهر، خلال المراحل الاولى للتداول في شأن العلاقات بألمانيا، خطاب واحد ومقال واحد. كان الخطاب هو الذي ادلى به عضو الكنيست حاييم لانداو (حيروت) وحث فيه الحكومة على مطالبة ألمانيا بدفع تعويضات، وهذا يخالف طبعا التعصب الذي ميز، لمدة طويلة، معارضة حيروت لاتفاق التعويضات. وبلغ الأمر حد تحريض المتظاهرين على الذهاب الى مبنى الكنيست ورجمه بالحجارة.(٦٤) وكان المقال هو الذي نشره رئيس تحرير «هآرتس»، غرشوم شوكن، وطالب فيه بسن قانون يمنع كل اسرائيلي من الاقامة في ألمانيا او حتى دخول أراضيها إلا في مهمة قومية ومن اجل قضية محددة. وكان القانون الذي اقترحه يقضي بمنع كل اتصال اجتماعي بين مواطني اسرائيل ومواطني ألمانيا، بما في ذلك الاتصال العفوي، مثل اللقاءات في الفنادق خارج ألمانيا.(٦٥) وكان وعي الكارثة النازية ووسائل تخليدها لا تزال، خلال تلك الأيام، في مرحلة التطور. اذ عكست كراهية وتطلعا الى الانتقام، ولم تكن قد تحولت بعد الى اسطورة رسمية بطولية. وجاء في «يديعوت احرونوت»: «علينا ان ندخل في اذهان أطفالنا منذ نعومة أظفارهم، ونسلهم من بعدهم، الكراهية ازاء الالمان. ان الانتقام لا بد آت، وهو حتما آت عندما تتعزز قوتنا.»(٦٦) وقد اربكت هذه القضية الاسرائيليين الأوائل، ولم يعرفوا كيف يتصرفون، اذ أثارت كل اشارة الى اية علاقة بين اسرائيل وألمانيا، ولا سيما زيارات الألمان لاسرائيل، ردات فعل غاضبة في الصحافة. لكن عندما عرّج هيلمار شاخط، احد الوزراء في حكومة أدولف هتلر، على مطار اللد حيث حطت طائرته لفترة وجيزة، استُصرخ في شأن الاقتصاد العالمي. وقبل ايجاد وسائل التخليد الصحيحة، قام في البلد جماعة اسمها بوخنفالد. وفيما بعد تغير اسمها الى نيتسر سراني. وفي سنة ١٩٤٩، ظهرت في الصحف اعلانات تبرز «الأقزام السبعة من [معسكر] اوشفيتس»: شقيقين وخمس شقيقات، من مواليد هنغاريا، نجوا من الكارثة النازية. وتجول الأقزام في البلد في مهرجانات راقصة وغنائية. وفي المقابل، بحث الكنيست في سن قوانين تمنع ابادة شعب، وقانون لمحاكمة النازيين وأعوانهم.

انتخابات الكنيست الاول. وعندما باشر بن ـ غوريون المفاوضات حدد ثلاثة مبادىء ترتكز عليها خطوط حكومته الاساسية: «١ ـ المسؤولية الجماعية في السلطة والمعارضة معا، خلافا لما حدث مع مابام (في الحكومة الموقتة)؛ ٢ ـ سياسية خارجية تقوم على تحالف يهودي ـ عربي، وصداقة مع الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، ودعم الامم المتحدة، وعدم الانحياز الى اي من الكتل المتنازعة؛ ٣ ـ اكثرية عمالية في الحكومة.» وكان بن ـ غوريون يكثر من التدخل في المفاوضات الائتلافية، محاولا اشراك مابام والصهيونيين العموميين في حكومته. وفي غضون ذلك، ميز بين ائتلافين: ضيق وواسع؛ «الواسع: نحن، ومابام، والمتدينون، والتقدميون، والصهيونيون العموميون (وربما السفارادي ايضا). والضيق: أ ـ نحن ومابام والتقدميون. ب ـ نحن والمتدينون والتقدميون.» وقد واجه التركيبة الضيقة، اذن، السؤال [التالي]: مابام ام الجبهة الدينية.[٦٧] * وكان مابام شديد الرغبة في الاشتراك في الحكومة؛ ففي البداية حلم بقيام «هيمنة عمالية.»[٧٠] ولو اتفق الحزبان لحصلا على اكثرية ٦٥ صوتا من أصوات اعضاء الكنيست. [ولو اتفقا] مع ممثلي القائمة العربية التابعة لماباي، لحصلا على اكثرية ٦٧ صوتا. وكان هناك في مابام من رغب كثيرا في هذه المشاركة. وقد تكررت هذه الرغبة مرات لا تحصى في جلسات اللجنة المركزية، والمكتب [السياسي] والكتلة [النيابية] في الكنيست. وراح الجميع يتباكى على «الوحدة العمالية»، وعلى «التضامن الفكري بين حزبين شقيقين.»

لم يكن لماباي مصلحة في دعم سلطته بتأييد مابام؛ فقد كان نهج حزب العمال الموحد في طريق يساري جدا، وكان الثمن الذي طلبه بدل اشتراكه في الحكومة عاليا جدا. وقد طلب خلال المفاوضات، الى جانب امور اخرى، حقيبة الدفاع.[٧١] وضمنت مشاركة الجبهة الدينية لماباي، في المقابل، مكان المهيمن في الحكومة، واتجه المتدينون الى حصر مطالبهم في الشؤون الدينية. ولم يطلبوا اكثر مما كانوا سيحصلون عليه لو لم يؤيدوا الحكومة، اذ كان الخلاف بين المتدينين والعلمانيين اشد خطورة، في نظر بن ـ غوريون، من الخلاف بين ماباي ومابام. وهكذا، بقي مابام في المعارضة، وتبنى مع مرور الوقت مواقف راديكالية جدا، كان بعضها غير بعيد عن مواقف الشيوعيين. وتطورت العداوة بين الحزبين، بعد فترة وجيزة، الى ممارسة يومية في بعض مزارع الكيبوتس الموحد، وعكرت العلاقات بين سكانها. وبعد مرور عام او عامين، بلغ الانقسام في الكيبوتسات ذروته، ووصل الى حد الافتراق، والعداء

* بدأت حساباته [حسابات بن ـ غوريون] الائتلافية قبل الانتخابات.[٦٨] وسمح لنفسه، عشية الانتخابات، بالتسلية: دوّن على احدى البطاقات نتائج الانتخابات المتوقعة، وأودعها مساعده نحميا أرغوف خزنة وزارة الدفاع، ثم أعادها اليه بعد الانتخابات. وسجل بن ـ غوريون باعتزاز: «لقد تحققت جميع تكهناتي باستثناء واحدة؛ فقد حصل مابام على اقل كثيرا مما تكهنت.»[٦٩]

العميق بين رفاق في الحياة، بما في ذلك فراق الزوج وزوجته. وبرزت الشقوق الاولى منذ أواخر سنة ١٩٤٩ وبداية سنة ١٩٥٠.

درس ماباي، في موازاة المفاوضات مع مابام، امكان اشراك «الصهيونيين العموميين» في الحكومة، فقد اشتركوا في الحكومة الموقتة. وكان اشتراكهم في الائتلاف، على غرار اشراك الجبهة الدينية، يعزل حركة حيروت في جناح المعارضة اليميني. ولم يجد ماباي، ولا الصهيونيون العموميون، صعوبة في ردم الهوة الفكرية والعاطفية التي فرقت بين «العمال» و«أصحاب البيوت». وفي مقابل ذلك، لم يستطيعوا الوصول الى حل وسط بشأن توزيع الحقائب. فلقد طلب الصهيونيون العموميون اكثر مما وافق ماباي على اعطائهم، وفي النهاية بقوا هم ايضا، مثل مابام، في المعارضة حتى ذلك الحين.[٧٢] ومثل اعضاء مابام، اعد الصهيونيون العموميون انفسهم لمعارضة مناضلة؛ ففرضوا على الحكومة مرارا حربا قاسية جدا، لكنهم لم ينسوا قط، في قرارة نفوسهم، امكان تجدد المشاركة بينهم وبين ماباي في يوم من الايام. وهذا ما حدث.

كان الوضع يختلف بالنسبة الى حيروت وماكي؛ فقد فرض عليهما العزل ـ لا يمسهما احد ـ في مكان ما على الحدود الشرعية. كان الحزب الشيوعي صغيرا جدا، وكان ثلاثة من ممثليه الاربعة حديثي السن لا تتجاوز أعمارهم الثلاثين. وكان احدهم عربيا. ولم تكن الغاية من شعار «من دون حيروت ومن دون ماكي» هي اخراج ماكي من صفوف المرشحين للمشاركة الائتلافية. بل كان عدم اشراكه في الحكومة أمرا بديهيا؛ كانت الغاية من هذا الشعار نبذ حيروت، وبالتالي فرض صورة ماكي الكريهة عليه. وعندما قامت الدولة، طلب بعض قادة الحركة التصحيحية من دافيد بن ـ غوريون اشراكهم في الحكومة الموقتة. وقال شمعون يونتيشمن، احد نشيطي الحركة التصحيحية، والذي اجرى اتصالات في الماضي بحركة العمل أيضا، لبن ـ غوريون انه في حال دعوة التصحيحيين الى الاشتراك في الحكومة، فسيرسلون مناحم بيغن لتمثيلهم فيها كأحد وزرائها. ورد عليه بن ـ غوريون انه ينبغي للتصحيحيين ان «يتغيروا» اولا.[٧٣] وبعد مرور ثلاثة اشهر، تحدث بن ـ غوريون في هذا الموضوع الى نشيط تصحيحي آخر هو آرييه ألتمان. واشتكى من ان التصحيحيين لم يتغيروا. وهدد بقمعهم في حال تمردهم على الحكومة. وقال بن ـ غوريون محذرا: «في بلد صغير، كل شيء معروف تقريبا. وتخطىء الايتسل في تقديرها ان «الليبراليين النباتيين» وحدهم يقفون ضدها.» وقال انه لا يريد القتال، لكن «اذا اقتضت الضرورة، فان رجال الايتسل سيُقمعون بشدة ولن يرفعوا رؤوسهم.»[٧٤]

اعلنت الحركات السرية التصحيحية استعدادها لحل نفسها والانخراط في الجيش الاسرائيلي، لكن كان لدى بن ـ غوريون بعض الأسباب الوجيهة لعدم تصديقها. فقد

صدر التهديد بقمع التصحيحيين بشدة بعد «قضية ألتالينا» بشهرين، وبعد ستة اسابيع من اغتيالهم للكونت برنادوت. وكانت «ألتالينا»، على حد قول بن ـ غوريون، «محاولة لسحق الجيش واغتيال الدولة.»(٧٥) ووصف اغتيال برنادوت بأنه عمل مخيف ومخجل.(٧٦) ان هاتين القضيتين احيتا، من جديد، صورة الحركات السرية التصحيحية كعصابات ارهاب، اذ ان الخطب الحماسية الشوفينية، التي ألقاها مناحم بيغن في ساحات المدن ــ محاطا بشبان بيتار بثياب الحركة، بعثت صورته، من جديد، كدكتاتور حركة فاشية. ولم تكن سنة ١٩٤٩ سنة جيدة في عمل مناحم بيغن السياسي. فلم تحصل حركة حيروت، التي قامت قبيل انتخابات الكنيست الاول، إلا على ١٤ مقعدا في الكنيست. وكانت هذه نتيجة مخيبة للآمال. وكتب يوحنان بادر: «لقد انتصرت قوتنا الضاربة على بريطانيا، اذ ان الحق كله معنا، ولا توجد اية جهة اخرى تسعى لخدمة الشعب بمقدار من الصدق كما خدمناه نحن أيام العمل السري.»(٧٧) وراحت حيروت تتأهب، مكرهة، للجلوس في [صفوف] المعارضة مدة طويلة. وذكر بيغن: «ان مسؤوليتنا جسيمة، وسنعمل كل ما في وسعنا.»(٧٨) وكان بيغن، آنذاك، في السادسة والثلاثين من عمره. ولد في براستليتوبسك، وكان يعرّف نفسه بأنه صحافي. وخدم سابقا كجندي بلا رتبة في الجيش البولوني الحر بقيادة الجنرال اندرس، ثم [اصبح] قائد الايتسل. وخلال تلك الاشهر، عمل الكثير كي يزيل عن نفسه وعن حركته الصورة التي التصقت بهما نتيجة الأعمال الارهابية التي قامت بها الايتسل. فقد ظهر في الكنيست كجنتلمان وقور، يحافظ دائما على هندامه وطريقة كلامه: «حضرة الرئيس، المجلس الموقر.» وكان يُكثر استخدام القواعد القانونية، ويتألق بسرد المقدمات اللاتينية. وبعد فترة وجيزة حلق شاربه.*

* قال بيغن في ايلول / سبتمبر ١٩٤٨، لأعضاء سكرتارية حركته، انه يجب بذل كل جهد لانشاء علاقات سليمة بحكومة بن ـ غوريون، من دون تشويه الطابع المعارض للحركة. وأضاف: «قررنا ايضا مزاولة أعمال الاستيعاب والاستيطان. ويجب اقامة علاقات بمؤسسات الوكالة.»(٧٩) وتجلى الجهد الذي بذل للتخلص من الصورة الارهابية التي التصقت بالحركة، في التعليمات التي بعث بها رئيس مكتب الحركة الاعلامي، شموئيل تمير، الى فروعها، والتي يحظر فيها إلصاق منشورات على واجهات المحال التجارية كما جرت العادة خلال فترة العمل السري. وقال: «يجب الصاق المنشورات، بالدرجة الاولى، على ألواح الاعلانات التابعة للبلديات. ويكتسب هذا الامر اهمية في تأكيد طابع حركتنا الشرعي.»(٨٠) وقد بذل حزب ماباي كل ما في وسعه كي يعرقل انخراط حيروت في العمل البرلماني القانوني، وكان من الصعب على قادته ان يصدقوا ان الحركة قد خرجت فعلا من العمل السري الى العلني. وفي نيسان/ابريل ١٩٤٩، سجل بن ـ غوريون مضمون تقرير وضعه ايسر هارئيل: «تزمع الحركة السرية على اغتيال (عبدالله) التل (...) ونسف أسوار القدس.»(٨١) وبعد مضي نصف عام، ورد في تقرير لهارئيل ان حيروت تنوي اقامة «حركة سرية صغيرة» في الجيش ايضا.(٨٢)

كان مناحم بيغن يُكثر السفر، وكان يحظى في كل مكان يذهب اليه باحترام يفوق الاحترام الذي يحظى به في اسرائيل. وفي غضون ذلك تمادى في السفر حتى وصل الى قصر خوان بيرون، دكتاتور الارجنتين. ولم يُكثر القاء الخطب من منصة الكنيست، بل حرص على التحدث في قضايا تحتل العناوين الرئيسية. انه متألق بهالة السياسي والمؤرخ. رجل دولة وغير حزبي ويفيض بالعظمة. كان يحظى بتقدير رجاله، وباعجاب المتدينين وأبناء الطوائف الشرقية. وكان يمثل الاعتزاز بالنفس، والافتخار القومي، والبديل لـ «انهزامية» الحكومة التي ادى «تساهلها»، على حد قوله، الى ضياع نصف البلد. وقال في أعقاب اتفاق الهدنة مع الاردن: «نتوقع ان نشهد اعمال سفك دماء رهيبة. ان هذا ليس خطأ تكتيا، ولا غلطة استراتيجية، بل جريمة تاريخية، وعلينا المطالبة بمحاسبة القيمين على السياسة الخارجية على الفشل الذي سببوه لشعبنا.»(٨٣)

وبينما كان لا يزال منبوذا كالمجذوم، لم تكن لأعماله ولمضامين خطبه سوى اهمية قليلة، مثل خطب أقرانه، لكن كان لها نصيب في بلورة أنماط الديمقراطية البرلمانية في اسرائيل. كان ذلك محبطا ولم يكن سهلا؛ فقد كان البعض في ماباي يميل نحو التماثل بين حزبه والدولة، ويعتبر مكافحة سلطة الحزب عملا يمس الدولة نفسها. قال مرة الأمين العام للحزب، زالمان آران، في احدى جلسات الأمانة العامة: «ان حزبنا هو حزب غير عادي. ان الحزب هو الهستدروت، وهو الدولة، وهو الوكالة، وهو كل شيء!»(٨٤) وجاء في احد أعداد «دافار هشفواع»: «ان اقامة الدولة أثارت، كما يبدو، وهما خطرا (...) اذ بات من المسموح لنا بأن نبدأ حربا داخلية من اجل السلطة كما هي عند كل شعب وفي كل بلد آخر، بغض النظر عن طابع السلطة في اسرائيل التي ستصبح، بعد سنوات عديدة، من دون حكم وانما خدمة في وظيفة صعبة ومعقدة.»(٨٥) وقد ادرك بيغن وأقرانه ان لا سلطة بلا حكم.*

* شعر بن ـ غوريون وقادة حزبه بالتزام حقيقي نحو مراعاة قيود الحكم الديمقراطي وسلطة القانون، لكنهم كانوا يميلون في أحيان عديدة الى ان يعطوا «مصلحة الدولة»، و«اعتبارات امنية»، و«مصلحة الحركة» أيضا، تفسيرا من عندهم. وكانت تبرز هنا وهناك، في ظل بن ـ غوريون المهيب، اتجاهات شبه استبدادية. وقد طالبت اسبوعية «دافار هشفواع»، مرة، بمنع «فنانين متوسطين ومبتدئين» من مغادرة الدولة خشية المساس بسمعة الفن الاسرائيلي في المنفى، والاساءة الى هيبة الدولة. وأوردت الأسبوعية: «ليس في قدرة الدولة، التي مارست الرقابة على جميع مجالات الحياة، لمصلحتها ومصلحتنا، الحرص على عدم ترك الفن مجرد حقل مشاع يؤمه كل من يريد الحراثة فيه.»(٨٦) وحذرت الاسبوعية من «النقد المبالغ فيه» لما يجري في الدولة، خشية ان تسوء سمعة الدولة وتستنزف قواها في الخارج. وكتبت: «يجب ان نظهر في العالم كشعب دولة، وعلينا ان نتعلم كيف نعيش كشعب دولة.»(٨٧) وكان بن ـ غوريون يجنح نحو مطالبة الصحف، أيضا، بالاشتراك في المسؤولية الرسمية. وكتب الى رئيس تحرير «هآرتس»، غرشوم شوكن: «ان الصحافي ــ اذا لم يكن أجيرا عاديا يبيع نفسه لمن يشتري ــ هو مُثقِّف الجمهور =

اعتقد رئيس الكنيست، يوسف شبرينتساك، ان رجال حيروت يتقنون دورهم في المعارضة، وتحدث الى زملائه في سكرتارية حزب ماباي، فقال: «لن يحدث أبدا ان يتكلموا في امور يجهلونها. في بعض الاحيان يتكلمون، عن سابق تعمد واصرار، بصورة مزيفة، لكن معدة سلفا. فهؤلاء رجال مرموقون، وشبان، وينبضون بالحيوية، وليس لهم الآن قضية اخرى، ولا يعيشون في الحركة السرية، يعرفون متى يعرقلون ويشاغبون ويفشلون الغير.»[٩٢]

ان السياسة تنتج عداء شديدا: «لقد كرهونا»، هذا ما كتبه يوحنان بادر فيما بعد، وأضاف: «انهم ذئاب.»[٩٣] وكان هذا حقا شعورا متبادلا؛ فقد قال مناحم بيغن ان اسرائيل «تُحكَم من داخل قبو من القذارة.»[٩٤] وبينما كان [رجال حيروت] يصنعون مستقبلا جيدا، كان باديا ان قضايا انتقالهم [من العمل السري الى العمل العلني] تثير فيهم حساسية حقيقية. وقد جرت في الكنيست مناقشات صاخبة في شأن معركة اللطرون الفاشلة، وضرب فندق الملك داود، وحل البلماح، وقضية السفينة ألتالينا، واغتيال أرلوزوروف، ومذبحة دير ياسين. وكانت [هذه المناقشات] زائدة كثيرا عن اللزوم. وقد تم توضيح بعض هذه القضايا، في الوقت ذاته، في المحاكم. كانت «محاكمة عكا»، محاكمة ناتان فريدمان ـ يالين ومتتياهو شموئيليفتس وغيرهما، في الواقع، محاكمة حركة ليحي السرية برمتها، ومحاكمة رئيس جهاز الاستخبارات التابع للهاغناه (شاي)، ايسر بئيري، الذي امر باعدام مئير طوفيانسكي بتهمة التجسس، بعد تحقيق سريع معه في محكمة ميدانية كانت اختبارا لسيادة القانون. وكذلك التحقيق الطويل في تعذيب عضو الحزب الشيوعي، سيوما ميرونيافسكي، حتى الموت على ايدي رجال شرطة يهود، كانت تستخدمهم شعبة التحري البريطانية، لكنهم انتقلوا بعد قيام الدولة الى الخدمة في شرطة اسرائيل. كانت جميع هذه الأمور اختبارا لقدرة الاسرائيليين الأوائل واستعدادهم للتعايش في دولة قانون ديمقراطية. لقد أرادوا ذلك ونجحوا فيه، وكان هذا انجازهم الاكبر في السنة الاولى. كان العنف الكلامي، الشفهي والخطي، والذي بلغ حد الهستيريا احيانا، وصمة عار لصورة السياسة. ومن المفارقات ان هذا العنف ربما كان احد العوامل التي حالت دون العنف الجسدي، وكان مثل البخار الذي انطلق من

= ومرشده.» واحتج رئيس الحكومة على ان قسما كبيرا، «وكبيرا جدا»، من رجال الاعلام «لا يؤدي واجبه في هذا الوقت العصيب.»[٨٨] وعلى حد قوله، ان الدعوى التي بادر الى رفعها ضد صحيفة «كول هعام» كانت تهدف الى تصفيتها.[٨٩] وكان رئيس الاستخبارات، ايسر هارئيل، يكثر الاهتمام بالتحريات السياسية. وقد استخدمت الرقابة العسكرية، مرارا، لمنع نشر أخبار لا يرضى عنها ماباي، بما في ذلك نشيد عن حل البلماح وضعه ناتان ألترمن: طلب يتسحاق بن أهارون تسجيل ذلك في محاضر الكنيست.[٩٠] وقال بن ـ غوريون عن الاضرابات «غير المبررة» في الخدمات العامة: «أرى هذا الامر اشد خطورة من الحرب، او من محاولات القيام بانقلاب مصغر وما الى ذلك.»[٩١]

مرجله وتبدد.* لكن، إضافة الى الخصومات اليومية وما بدا في ذلك الحين عداء أبديا بين ابناء النور وأبناء الظلام، وافق معظم الاسرائيليين على الأهداف الأساسية للصهيونية، وشعروا بالتزام شديد جدا ـ بلغ أحيانا حد الانغلاق ـ تجاه وحدة اليهود التي تعززت اكثر فأكثر بتأثير الكارثة النازية، والنضال من اجل اقامة الدولة وحرب الاستقلال. وقد تعلمت السياسة الاسرائيلية كثيرا من ممارسة العمل الصهيوني خلال خمسين عاما. وتعلم الحكم الاسرائيلي الكثير من سنوات الحكم البريطاني. وكانت الحركة الصهيونية وحكومة الانتداب متشبثتين بالتقليد الديمقراطي البرلماني.

لم يكن هناك، من هذه الناحية، اكثر تعبيرا عن رمز الاجماع الوطني من حاييم وايزمن، رئيس الدولة الاول وزعيم الصهيونيين والمحب لانكلترا بصورة صريحة. وقد فقد وايزمن، لـمّا اصبح رئيس اسرائيل، نفوذه السياسي وبشاشة وجهه. واعتزل في منزله في رحوفوت، مستاء من بن ـ غوريون لأنه عزله عن زعامته بسبب النهج الصقري المؤمن بمذهب الفعالية الذي فرضه [بن ـ غوريون] على الدولة؛ اذ ان نهج وايزمن كان اكثر تساهلا. وكتب يوسف فايتس في مذكراته، بعد عودته من زيارة الرئيس: «كان مكتئبا هناك في غرفته وفي نظراته.»[٩٥] وبعد فترة وجيزة، زاره مرة اخرى ودوّن ما يلي: «سألته عن أحواله فقال: لا بأس، لكنه كان يتألم. وسألته عن السبب، فأجاب: الدولة.»[٩٦] لقد لقبوه بـ «منفي رحوفوت». ووجد صعوبة فائقة في التكيف مع منفاه، واضطهده بن ـ غوريون بلا شفقة، اذ كان يتقن ذلك، وقيد صلاحياته وأبعده تماما عن العمل السياسي. وكتب بن ـ غوريون في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٨: «انني ارى ان الدكتور وايزمن يزمع على ارسال برقية الى الرئيس ترومان بشأن التزود بالأسلحة. ثمة رغبة في لفت انتباه رئيس مجلس الدولة انه لا يستطيع ان يتداول، مع رئيس الولايات المتحدة، أمرا يتعلق بدولة اسرائيل من دون علم الحكومة. فهذا امر خطر وجدي، ومن المجدي عدم التسبب باحراج الدكتور وايزمن ذي النية الطيبة طبعا. لكن عليه ان يتذكر انه يعيش في دولة اسرائيل، وفيها حكومة مسؤولة عن العلاقات بالدول الاخرى.»[٩٧] لم يفترض وايزمن ان يقوم في اسرائيل نظام رئاسي على غرار نظام الولايات المتحدة، لكنه امل بالحصول على بعض صلاحيات الرئيس توماس ماسريك على الاقل. وفي غضون ذلك، أراد ان يسمح له بالاطلاع على محاضر

* في ١٢ ايلول/سبتمبر ١٩٤٩ حضر شاب، اسمه أبراهام تسفاتي، الى جناح الكنيست المخصص للجمهور، وأخرج من ثنايا معطفه رشيشا من طراز ستن وسدده الى طاولة الحكومة؛ وكان رئيس الحكومة هناك مع بعض الوزراء. واستطاع مراقب النظام، تسفي تسيغلر، ان يصده جانبا قبل ان يضغط على الزناد ببضع ثوان. لقد أراد تسفاتي معاقبة حكومة اسرائيل لأنها لم تستجب لمشروعه باقامة معبد لمنظمة الأمم المتحدة.

جلسات الحكومة، لكنه اضطر الى الاكتفاء بتقرير شفهي من سكرتير الحكومة. وبعد قليل، شرعت صحيفة «هآرتس» في نشر مذكراته، في حلقات، وهي في غاية الاهمية وتنطوي على الحكمة والدعابة المنضبطة. وعرض وايزمن، في احد فصول مذكراته، قضية علاقاته المتأزمة ببن ـ غوريون، لكنه لم ينشر هذا الفصل بتأثير مقربيه.(٩٨)

قبيل نهاية السنة، احتفل بعيد ميلاد الرئيس الـ ٧٥، فأقيمت مجموعة احتفالات رسمية وكأنه ملك او رمز. هكذا، وبمزيج من اليقظة القومية، والاحتفال العسكري، و«المولد» الصهيوني، احضرت الى المدفن عظام تيودور هيرتسل بما يشبه الجنازة الرسمية. وقد خصصت الصحف لهذا الحدث صفحات كاملة وعناوين رئيسية. وخصصت «معاريف» لهذه الواقعة عنوانا ضخما من ثلاث كلمات: «ها قد جاء». وفي اليوم التالي، بدت الصفحة الاولى من الصحيفة كملصق اعلانات، تغطيه صورة واحدة هي صورة النعش في اللد، وعنوان يقول: «اول اتصال بأرض الوطن، العناية الالهية تحيط به، وفي العلى السماء الزرقاء والورع يلتحف سطح الارض.» وأضافت الصحيفة: الى قرائها الذين لم يستوعبوا رسالة الاستمرارية بين المتنبي والبلد، عنوانا يقول «هيرتسل يعود الينا.»(٩٩) ولم يكن باقي الصحف اكثر انضباطا.*

كان واحد من كل عضوين في الكنيست الأول مندوبا في المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين الذي عقد في بازل سنة ١٩٤٦. وكان واحد من كل ثلاثة أعضاء كنيست [عضوا] في جمعية المنتخبين (الرابعة)، وهي المؤسسة العليا المنتخبة لليشوف اليهودي في البلد خلال

* عالجت الصحف كلها هذه الواقعة بورع، وحرصت على عدم الاسهاب في الكلام عن أبناء عائلة المتنبي. والى جانب نعشه دفن في القدس والداه وشقيقاته: السيدة هيرتسل. غير ان الأبناء لم يُذكروا، وكأنهم لم يكونوا موجودين قط، كي لا تلحق المآسي التي حدثت لعائلة المتنبي العار بنبوءته. وفي أيلول/سبتمبر ١٩٤٩، بعث دافيد بن ـ غوريون بشيك قيمته ١٠٠ ليرة الى السيدة بلوما كلاين في منزل هيرتسل في تل ابيب، تشجيعا وتقديرا لها على انجابها عشرة أبناء وتربيتهم: «اننا نعتز بعائلة متنبينا السياسي العظيم، التي انجبت أما عبرية مثلك ستفخر بها الأجيال القادمة كرمز للبطولة الأمومية.»(١٠٠)
وقبل احضار النعش ـ وكيف يمكن ان يحدث ذلك ـ دار جدل صاخب يتعلق بالسؤال: اين يجب دفنه: في القدس ام في حيفا؟ وقد انطلق النقاش من فقرة وردت في كتاب هيرتسل «التويلاند» وذكرها يوسف ليفي، بطل الرواية: «وبموتي أرقدوني رجاء الى جانب فيشر، صديقي العزيز، هناك عاليا في مدافن جبل الكرمل الذي يطل على بلدي وبحري العزيزين.» هل كانت هذه وصية هيرتسل؟ لقد ترك وصية، لكن لم يطلب فيها سوى ان يدفنوه في ارض ـ اسرائيل. وجرى نقاش، اذن، وبحماسة كما هو مألوف. وهذا عمل يقع ايضا بين النبوءة وروتين الحياة اليومية. لقد اهين يتسحاق غرينبويم الذي عهد اليه احضار النعش من فيينا، اذ لم تنتظره عند وصوله مع النعش الى اللد سيارة فخمة لنقله الى القدس. وطالب غرينبويم في جلسة المجلس التنفيذي للوكالة برد الاعتبار اليه لاهانته.(١٠١)

عهد الانتداب. وشكل أعضاء الكنيست الاول هيئة متجانسة جدا؛ فقد كانوا جميعا من الرجال، باستثناء ١١ امرأة. وقد ولد سبعة من كل عشرة في اوروبا الشرقية، ومعظمهم من روسيا او بولونيا. ومعظمهم نشيطون سياسيا، وموظفون، او محامون. وتراوحت أعمار اكثريتهم بين الخمسين والستين عاما. وبقي حزب ماباي الاشتراكي الديمقراطي يسيطر على مؤسسات الييشوف أعواما عديدة، وقاد زعماؤه النضال ضد البريطانيين، والتحركات التي سبقت قيام الدولة وحرب الاستقلال.

وقد شكل هؤلاء جميعا عناصر الاستمرار والاستقرار الديمقراطيين التي قام عليها النظام، وكأنه لم تحدث ثورة. [وكتب] بن ـ غوريون: «انني اكره النزعة المحافظة لدى رفاقي الثوريين. . .»(١٠٢)

وكتب دافيد هوروفيتس عن ذلك:

«كان ابناء الهجرة الثانية يتباهون بانجازاتهم ويتشبثون، بغيرة شديدة، بالتقاليد التي انشأوها بعمل قاس، وكد، ومكابدة، ونضال. لكن نزعتهم المحافظة المتعصبة كانت غير محتملة أحيانا في نظر من أراد الاضافة والتجديد والاصلاح. وقد نشأت هنا نخبة «ماي فلاور» (زهرة أيار) اسرائيلية، وكانت سلطتها الادبية كبيرة ثم تحولت الى زمرة مغلقة، ليس على أشخاص جدد فحسب وانما على أفكار جديدة أيضا. وانضم الى هذه النخبة في وقت متأخر، بقوة الحتمية البيولوجية، رجال الهجرة الثالثة. كما انضم اليها، في وقت لاحق، أبناء «جيل الاستمرار»، من الصابرا الذين ولدوا في البلد وصعدوا سلم النشاط العام، ولا سيما في صفوف الهاغناه والجيش: موشيه دايان، ويغآل آلون، وغيرهما. وكان اخلاص هذه الزمرة للأفكار التي سارت عليها منذ شبابها، من دون حدود. وكانت محافظة في ثوريتها، تميل نحو الانغلاق امام الرياح التي تهب من العالم الواسع.

«هكذا نشأت وتبلورت في البلد مؤسسة غريبة وفريدة في نوعها، جمعت تقاليد الـ «حيدر» والـ «ييشيفا» التي كانت سائدة في الموشاف في روسيا، او في المدن الصغيرة في بولونيا وغلتسيا، مع البشرى الاجتماعية والروح التآمرية للحركة الثورية الروسية، ولا سيما في صيغتها الشعبية الاجتماعية ـ الثورية، التي هي ثمرة تقاليد النرودنايا فوليا * . وأضيفت الى ذلك تجارب الماضي القريب، الذي تخلله عمل شاق في الطرقات، وتجفيف المستنقعات، والاستيطان، والضائقة التي لم يكن من الممكن التغلب عليها إلا بقوة الاصرار العنيد. ان احتلال العمل، والدفاع، والنضال، والبناء، والنهضة القومية، والرؤيا الاجتماعية، شكلت

(*) تعني «ارادة الشعب». وهي منظمة سرية نشأت سنة ١٨٧٩، ولجأت الى الارهاب الفردي ضد القيصرية. اغتالت القيصر ألكسندر الثاني في ١ آذار/مارس ١٨٨١. وقد زالت هذه المنظمة في نهاية القرن التاسع عشر. (المحرر)

جميعها جذور نشوء مؤسسة الهجرة الثانية والثالثة الوحيدة والفريدة.

«وكان في امكان التوتر الذي احاط بعمل هذه الجماعة ونشاطها، في جميع اجهزة الحكم، ان يحطم انسانا ضعيفا، او من لم يكن معتادا العمل ساعات غير محدودة، او غير معتاد القلق الدائم واليقظة ليلا ونهارا وسلسلة الأحداث التي تجري بسرعة وبصورة فجائية مذهلة. وساهم الاحساس بالمسؤولية التاريخية الملقاة على عاتق هؤلاء الناس، والتجربة الوحيدة التي استمرت أجيالا ولم يكن لها صنو ولا نظير، في نشوء هذا التوتر. وقد حاول مرة طبيب نفساني مشهور في البلد، اختبر الناس وأطباعهم، ان يبرهن لي ان العوامل العقلانية ليست هي المؤثرة هنا فحسب بل أيضا ما وصفه بالادمان على التوتر، مثل الادمان على المخدرات المسكرة؛ اذ ان الشخص المدمن لا يستطيع العيش من دون ان يكون في توتر مستمر ومنصرفا الى عمله ووظيفته ومهماته وانجازاته واخفاقاته بلا حدود، لأن هذه بالنسبة الى [العوامل العقلانية] مثل اكسير الحياة. وفي هذا الوضع الغريب، فسر الكثيرون تشبث أبناء هذا الجيل بدورهم بأنه التشبث الذي ادى حقا الى اغلاق قنوات التعاقب أمام الشباب الذي يتطلع الى مواقع المسؤولية، والذي ادى الى اصابة الحكم بالشيخوخة. وفي اية حال، كانت وتيرة العمل في الحكومة وفي المراتب العليا في الجهاز مذهلة، اذ لم يبق هناك مجال تقريبا للحياة الخاصة الشخصية. ان القومية المتعصبة، والأسطورة الاجتماعية، ومناخ العمل السري، اضفت كلها على هذه المؤسسة جوا فريدا في نوعه ــ جو البيوريتانية [التزمت]، والبطولة والعزم ــ ثوريا في مضمونه الايديولوجي، لكنه محافظ في أنماط العمل والفكر.»[١٠٣]

كفل بن ــ غوريون نفسه، طبعا، استمرارية النظام واستقراره، وكان رمزا لهما: كان هذا الرجل ذو خصلة الشعر البيضاء، والمولود في بلوتسك في بولونيا، في الثالثة والستين من عمره آنذاك، مخلفا وراءه سنوات عديدة من الزعامة. وقد مكنته زعامته وقوته السياسيتان من القدرة على اتخاذ القرارات الحاسمة والاقدام على ذلك. وكان الاشخاص المحيطون به يميلون الى النظر اليه كمصدر لكل سلطة، فهو الذي يحدد السوابق، ويضع القيم: وحيد جيله. وكان البعض يميل الى مطابقته مع مسيرة التاريخ.*

وقد عكست مذكراته، ورسائله، وغيرها من المواد التوثيقية، تدخله في ادق تفاصيل

---

* يشهد على قوة شخصية بن ــ غوريون الكاريزماتية، اضافة الى امور اخرى، الحادثة العابرة التالية: في نيسان/ابريل ١٩٤٩، اجرى مشاورات سياسية قبيل المحادثات في لوزان. ويتبين من محضر الجلسة انه انسحب منها قبل انتهائها. وبعد انصرافه، نشب جدال طويل بين الحاضرين بشأن ما كان رئيس الحكومة يعنيه بالكلام الذي قاله؛ فقد فسر البعض موقفه بنمط واحد، وفسره البعض الآخر بنمط مختلف، فهؤلاء يستندون الى كلمة ما، وأولئك يستندون الى كلمة اخرى. وكان موشيه شاريت بين الحاضرين، وكذلك موشيه دايان ورؤوفين شيلواح والياهو ساسون، وآخرون.[١٠٤]

القرارات الحاسمة القومية الرئيسية، وكذلك في قضايا اخرى لا تحصى. ويوم الجمعة، ١١ آذار/مارس ١٩٤٩، كان احد تلك الايام. وجاء في مذكراته: «هذا الصباح خابرني هاتفيا يعقوب (دوري)، وقال اننا سنرفع هذه الليلة، في الساعة الثانية عشرة، علمنا فوق مياه خليج البحر الاحمر. وصلنا الى ايلات (...) هل وصل دور المثلث الشمالي؟ المحادثات في رودس ستقرر الكثير (...) يجب التخطيط لاستيعاب ٨٠٠ ألف مهاجر خلال ٤ سنوات. كم يلزم من المصانع في حال تطوير فروع صناعية؟ ما هي مساحات الاراضي التي سنستوطنها؟ وما هي المبالغ المطلوبة، والمعدات الناقصة والواردات والصادرات. ربما يستطيع (يتسحاق) غرينبويم اعداد قائمة عامة كهذه (...) يجب استيضاح كل مجلس مديني ومحلي عن مشاريعه التنموية التي لا تحتاج الى مساعدة مالية من الحكومة، وتلك التي تحتاج الى هذه المساعدات. ما هي حالة المعدات في المصانع؟ ربما يجب التجديد والتطوير. وما هي الصناعات التي يجب نقلها الى القدس (...) يجب شق الطريق من بئر السبع الى الجنوب عبر البحر الميت (...) وهناك مشروع لضخ مياه البحر الميت ونقلها مباشرة الى البحر الابيض المتوسط (...) ويجب اقامة لجان للعمال على اساس خطة الحكومة في شأن التدريب المهني، وتحسين ظروف المعيشة، وتطوير الانتاج وتحسينه، وسن تشريعات العمل (...) ويجب ايجاد الوقت اللازم [لكل ذلك]! كيف يمكن تدبر الامور خلال ٢٤ ساعة في اليوم؟! سأضطر الى تحديد جدول زمني متشدد: لشؤون وزارة الدفاع (اجتماع مع هيئة الاركان، ومع موظفي الوزارة الرئيسيين، ومع سلاح البحرية، وسلاح الجو)؛ للتخطيط الشامل (لقاءات مع وزارات المالية، والعمل، والزراعة والصناعة والتقنين)؛ للتنسيق مع وزارات الحكومة؛ للاتصال بالعمال، وبالعاملين في التربية، وبقيادة الجيش، والقيام بزيارات للمصانع والمستعمرات، واستقبال الناس، وقراءة التقارير، والكتابة. ثمة حاجة الى رجال اتصال: بالوزارات (تقارير اسبوعية، على الاقل، عما يجري في كل وزارة)؛ وفيما يتعلق بوضع العمل (تقارير دائمة، ٢ ــ ٣ تقارير في الاسبوع عن حالة العمل والنقص في العمل)، والاسكان (التنفيذ، والاستعدادات، والحاجات)، والاستيطان، والعرب، وحالة الصناعة، والاموال، والمجلس العلمي، والصناعة العسكرية، وحالة التموين، والشرطة والامن الداخلي، والشؤون الخارجية (المحادثات مع الدول العربية، والاتصال بالدولتين العظميين: روسيا وأميركا ودول الشرق والغرب، والاتصال بالوكالة وبتجمعات اليهود في المنفى وبالطلائع وبحركة العمال)، والصحافة الاسرائيلية، اليهودية والعامة. * ويجب الاقدام على وضع مجموعة من القوانين:

---

* يبدو انه ليس مصادفة عدم ذكر مؤسسات ماباي في هذه القائمة: اذ لم يُكثر بن ــ غوريون مزاولة النشاط الحزبي. بل كان يقلل الظهور في جلسات مؤسسات الحزب المركزية، وكان ظهوره هناك في كل مرة في منزلة الحدث. وقد تم تقليص دور مؤسسات الحزب في اتخاذ القرارات الحاسمة بعد اقامة الدولة.

[١ ـ] في شأن المساواة المدنية، والحرية الدينية، وحرّية الضمير، واللغة، والثقافة والتربية، ومساواة المرأة، وحرية التنظيم والتعبير، وحق الانتخاب العام؛ ٢ ـ قانون التعبئة العامة؛ ٣ ـ تأميم مصادر المياه، والثروات الطبيعية، والأراضي القاحلة؛ ٤ ـ مراقبة الاستيراد والاسعار؛ ٥ ـ الضرائب التصاعدية، وضرائب الميراث والتحسين؛ ٦ ـ تشجيع النسل؛ ٧ ـ التعليم العام الاجباري؛ ٨ ـ رد الاعتبار الى الجنود؛ ٩ ـ قوانين العمل؛ ١٠ ـ قبول موظفين.

«جاء عندي هيلل دان ودافيد هكوهين، لمعرفة دور [شركة] سوليل بونيه في الدولة (...) فطلبت ان يحضرا لي: ١ ـ وصفا لمصانع سوليل بونيه: المعدات والانتاج، وعدد العاملين، وشروط العمل، ورؤوس الأموال؛ ٢ ـ المعدات اللازمة للبناء والاعمال العامة: حجم العمل، وعدد العمال، وشروط العمل، والأموال؛ ٣ ـ المعدات المزمع شراؤها، والتي سبق شراؤها من الخارج (...).»[١٠٥]*

في أواخر شهر آذار/مارس ١٩٤٩، ومرة اخرى خلال منتصف تشرين الاول/اكتوبر، انصرف بن ـ غوريون الى محادثات طويلة مع عشرات الكتاب والأدباء، وقال لهم: «ان الحكومة تريد ان تتعلم منكم.»[١٠٨] كانوا مجموعة محترمة جدا من الذين يبحثون عن الطريق والقيم الاساسية، ويكابدون ارباكا في شأن هويتهم.** ويقتبس من المحضر:

* تتضمن مذكراته صفحات كاملة لا تشتمل إلا على معطيات إحصائية. وقد ثابر على نسخها وتدوينها يوميا بخط يده في دفاتر مدرسية، ساعات طويلة طبعا. كان يكثر التدوين في مذكراته خلال اجتماعاته الى الناس، وخلال الجلسات. وكلما ملأ دفترا ارفقه بفهرست موضوعات. ويضاف الى ذلك مئات الرسائل التي كتبها عن كل قضية تقريبا. وحينما كانت حرب الاستقلال في ذروتها، بعث برسالة الى رئيس تحرير صحيفة «هدور» [الجيل] بعد ان قرأ مقالا عن أمثال ايزوفوس في الصحيفة. وقد احصى فيه سبعة أخطاء وصحّحها بدقة، ابتداء بلفظ اسم صاحب الامثال. «كان اسمه ايسوفوس لا ايزوفوس.» وكتب أيضا: «لقد كان يونانيا لا يانكيا [اميركيا].»[١٠٦] وكتب الى الطفلة روني بارون من تل ابيب، انه لو كانت عنده سيارة خاصة لرغب في اخذها الى الحديقة يوميا وإعادتها الى منزلها، ولأنه وزير للدفاع فانه لا يستطيع تلبية طلبها بالسماح لعمها بأخذها في سيارته العسكرية «لأن هذه السيارة ملك الشعب والدولة.»[١٠٧] وكان مئات المواطنين يتلقون منه مثل هذه الرسائل، وغيرها.

** الحاضرون بحسب الترتيب الابجدي: يعقوب اورلاند، رفائيل أليعاز، ناتان ألترمن، بروفيسور مارتن بوبر، يهودا بورلا، بروفيسور شموئيل هوغو بيرغمن، أفرايم برويدا، أبراهام برويدس، آشر براش، ليئه غولدبرغ، حاييم غوري، بنيامين غلائي، يتسحاق غرينبويم، اوري تسفي غرينبرغ، بروفيسور بن ـ تسيون دينبورغ (دينور)، الدكتور ي. هوروفيتس، حاييم هزاز، أفيغدور همئيري، تسفي فلسفسكي، عزرا زوسمان، يسرائيل زمورا، مردخاي طافيف، شموئيل يفنيئيلي، س. يزهار (سميلانسكي)، راحيل كتسنلسون ـ شازار، يتسحاق لامدان، ماتي ميغد، يعقوب فيخمان، أندا فينكرفيلد، د. ش. فرلمان، يعقوب كوفيلبيتس، غرشون شوفمن، ناتان شاحام، أليعيزر شتاينمن، يتسحاق =

بروفيسور ش. هـ. بيرغمن: (...) قيل هنا اننا نعيش وضعا صعبا بسبب الهجرة الواسعة التي علينا ان نكوّن منها شعبا. انني اعتقد ان الصعوبة داخل المعسكر لا تقل خطورة عن الصعوبة خارجه. اي ان الصعوبة السائدة بيننا وبين المهاجرين الجدد لا تقل خطورة عن الصعوبة السائدة بيننا وبين أنفسنا. وحسبي اننا نعيش ازمة قيم قاسية، ازمة فكرية صعبة (...) ان الصهيونية منحت شعب اسرائيل، ذلك الشعب الاسرائيلي الذي عزل عن جذوره الروحية، مضمونا ورسالة حياة. لقد جاءت الصهيونية وملأت الفراغ الذي تكون لدى شعب اسرائيل، وبفضلها تمكن من الصمود، روحيا، لبضعة أجيال، لأنه كان أمامه هدف يتطلع اليه، وقد تحقق هذا الهدف في مرحلته الاولى والمهمة. والآن يعود مرة اخرى السؤال: ما هي اليهودية، وما هو مضمونها! وما هي الدولة اليهودية؟ (...) وأنا ارى أمامي خطرا رهيبا. انني أشاهد، بين جيلنا الثاني، خطر انحسار النزعة الانسانية وفقدان القيم الانسانية بين الشبان. انني ارى ميلا نحو كراهية الأجانب، وانغلاقا ما ازاء الداخل، وهذا الانغلاق نتيجة نفسانية وتاريخية واجتماعية للكارثة النازية وكل ما مر بنا. ان هذه النتيجة نفسها رهيبة. اذهبوا وسيروا في شوارع القدس او في شوارع الكولونية [المستعمرة الألمانية] وانظروا كيف محيت أسماء جميع الشركات المكتوبة بحروف لاتينية على اللافتات. وهذا دليل رهيب على انغلاق شبابنا داخل نفسه الذي لا يعرف السبب الذي قاتل من اجله الرجال الذين أسسوا هذه الدولة، وما هي القيم الانسانية العظيمة التي كانت ماثلة أمام أنظارهم (...) وخلال هذه السنة، تم تخفيض [ساعات] تعليم اللغة الانكليزية في المدارس الشعبية. ولنفترض ان ذلك اتخذ كتدبير موقت بسبب النقص في طاقم التعليم، غير انني اعتبر ذلك ميلا نحو قطع العلاقات بيننا وبين العالم الكبير. وبدلا من ان نوجد هنا مناخا عبريا يكون، في الوقت نفسه، انسانيا ويعزز العلاقات بالعالم الكبير (ولا يهمني اذا علّمنا شبابنا اللغة الروسية او الانكليزية او الألمانية كي يعرفوا عن العالم الكبير)، فاننا سننمي ميلا معاكسا (...).

أليعيزر شتاينمن: (...) السؤال هو: ماذا ننقل من اليهودية الى داخل [الروح] الاسرائيلية؟ ما هي في نظرنا الثروات الحيوية وما هي الامور التافهة: ما هو المهم وما هو التافه، وما هو القديم الذي نضحي من اجله وما هو الذي لا يستحق هذه التضحية؟ (...) اننا هائمون جدا، وتواقون الى معرفة صورة بنيتنا الجديدة. وما هو المَعْلم الاسرائيلي

= شيلو، ش. شالوم، أبراهام شلونسكي، موشيه شمير، دافيد شمعوني. كما حضر الوزراء: ي. ل. ميمون، بنحاس روزين، دافيد ريمز، زالمان شازار. وغاب شاي عغنون.

الجديد والراسخ الذي من شأنه ان يتبلور في داخلنا، وما هي نظرتنا الى حضارة اسرائيل، وما هو ارتباطنا بحضارة الاغيار، والى اي مدى يحق لنا الابتعاد عن مصادرنا من غير ان نخاف المخاطرة بذاتيتنا وحتى بصميم وجودنا؟ (. . .).

حاييم غوري: (. . .) في فندق هشارون في هيرتسليا، وصل التبجح الاسرائيلي الفتي الى حفلات المتعة المكلفة، بطريقة التقاليد «الدولية» التي تنمو على هذه الارض، في الوقت الذي يقف فيه جنود الجبهة والدولة وراء المتاريس في مواجهة النيران، ويعيشون حياة تقشف قاسية، سواء من ناحية الخبز او الثياب او المأوى (. . .) ينبغي لنا ان نقدم هنا حضارة اشتراكية تنهل من أعماق هذه الارض؛ حضارة تنمو في الورشة الكبرى، ورشة إحياء الصحارى والبناء والقتال من اجل افضل ملذات هذه القطعة من الأرض ومناظرها (. . .). *

عكست لقاءات الأدباء برئيس الحكومة بعض مشكلات أساسية في شأن الوجود الرسمي في البلد، بين النبوءة والروتين اليومي. لكن لم يصدر عنها سوى صدى ضعيف ازاء التفجر الأدبي الذي انبثق من حرب ١٩٤٩، وازاء المواجهات القيمية والفكرية والسياسية والشخصية ايضا التي حدثت خلال تلك الاشهر؛ فقد نشبت من حين الى آخر حروب ثقافية. وخلال الاشهر التي سبقت الحرب، وخلال الحرب وفي أعقابها، امتلأ البلد

---

* اقترح، خلال النقاش، ضرورة تدخل الأدباء ورجال الفكر في تكوين المجتمع، بما في ذلك اقتراح إقامة «مجتمع علماء تشريعي» لرجال الفكر ــ يوازي الكنيست ــ ليكون بالنسبة الى الشعب «كشمس مضيئة.» وخلال اللقاء الثاني، دار ايضا النقاش التالي: قال ي. غرينبويم: «لقد جاء المسيح لكنه، في حقيقة الامر، لم يأت بعد. اصبح عندنا دولة من دون مسيح (انني استخدم كلمة مسيح كي اصف خلاصنا بكامله). لقد أثارت الدولة اليهودية في نفوس الناس القادمين من اليمن ومراكش وشمال افريقيا، عندما بدأت الهجرة الى البلد، تأملات وآمالا بأن المسيح قد جاء. وها قد هاجروا الى البلد، والمسيح غير موجود (. . .).» وقال ش. يفنيئيلي: «لقد جاءت أيام المسيح. وتتجسد أيام المسيح في نفس كل واحد من هؤلاء الذين استشهدوا، وفي نفس كل واحد من المقاتلين الذين بقوا في قيد الحياة، ولدى الحكومة، ونظام الحكم المستقل برمته. (. . .).» ورد عليهما بن ــ غوريون: «انني اقول ان المسيح لم يأت بعد، ولا اتمنى قدومه. ففي اللحظة التي سيأتي فيها لن يبقى مسيحا. وعندما ستجدون عنوان المسيح في دليل الهاتف، لن يبقى مسيحا بعد ذلك. ان عظمة المسيح تكمن في ان عنوانه غير معروف، ومن المستحيل الوصول اليه. ولا نعرف اية سيارة يستقل، او اذا كان يستقل سيارة، او انه يمتطي حمارا، او يطير على اجنحة النسور. لكن هناك حاجة الى مسيح لا يأتي، لأن أيام المسيح اهم من المسيح، والشعب اليهودي يعيش أيام المسيح، وهذا هو احد أسباب وجود الشعب اليهودي.» لقد وضع بن ــ غوريون، بنفسه، قائمة الحضور النهائية. وخلال وقت وجيز ــ وكيف يكون الأمر غير ذلك ــ نشبت فضيحة بسبب دعوة البعض، وعدم دعوة البعض الآخر. واضطر بن ــ غوريون الى ارسال رسائل اعتذار الى يوسف اريخا ورؤوفين افينوعام غروسمان.(١٠٩)

بالصحف والمجلات والنشريات المتنوعة. وكانت تعقد في كل يوم أمسيات شعرية، ومنابر ادبية شفهية، وندوات ادبية. وصدرت كتب وروايات ومجموعات شعرية اصيلة، بيع منها آلاف النسخ. وعرضت على الخشبات مسرحيات اصلية وكانت القاعات ملأنة. لقد نشأ جيل جديد من الأدباء: «أدباء ١٩٤٨». وتكلم الجميع في «آفاق جديدة»، لكنهم لم يكونوا ثوريين ولا حتى متمردين، لأنهم تماثلوا مع تطلعات الصهيونية ونضالاتها. وكان بعضهم يعتبر نفسه شريكا في قيم آبائه، الذين قدموا الى البلد ليبنوه وبينوا انفسهم كرواد. وهم، مثل آبائهم، انتموا الى حركة العمل، او تثقفوا على ذلك في بيوت ذويهم وفي مدارس التيار العمالي وحركات الشبيبة. وانطوى ذلك على بعض الرضوخ والتطلع الى الماضي. وقال ايهود بن عيزر: «نستطيع ان نجد في ادب جيل البلماح وحرب التحرير، ولا سيما عند س. يزهار، الاختلاف بين الايديولوجية الصهيونية الاشتراكية والتربية في احضان الخلق الصهيوني الساذج، وبين الصدام الدامي والحسم في ميدان القتال بين الشعبين في البلد. والأزمة نفسانية وخلقية معا. لقد سببت حرب التحرير كآبة في نفوس جيلها: مواجهة القتل والأعمال الوحشية من الطرفين، اذ اختفى عالم الطفولة في ارض ــ اسرائيل، وانعدمت القدرة على «الانسجام» مع اسرائيل جديدة. أما الحياة اليومية المقبلة فبانت الآن هي الايام العادية و«انفراط الانظمة». وبرز لدى ابن البلد شعور بالغربة أيضا تجاه المنظر العام والـمَعْلم البشري في ارض ــ اسرائيل اللذين تغيرا بعد الاحتلال، وتجاه هروب العرب وموجات الهجرة الجماعية والبناء الحثيث المجرد من كل ذرة من الرومانسية (. . .) ولا عجب من ان هناك علاقة بين ادب حرب التحرير وبين أحداث الماضي وحنين كتّابه الى عالم الطفولة، ارض ــ اسرائيل الصغيرة وأيام الانتداب، وذلك الشعور بالمتعة والدلال «بأننا سنبقى الى الأبد أطفالا متحررين من الواقع»، ولن نكبر مثل أبطال يزهار (. . .) ان اسباب التفجع تعود الى التوق الى مهد الطفولة، والى النظرة الثنائية الى التكافؤ مع العرب. ان العرب هم العدو، لكنهم هم ايضا الذين صانوا ارض ــ اسرائيل «الحقيقية»؛ ارض التوراة والرومانسية التوراتية الصهيونية التي رأت حياة الثورة في صورة العرب والعكس.»

وجد بن عيزر الاحساس بالغربة والفارق بين العالم الذي سبق الحرب وبين ذلك الذي سيأتي بعدها، في روايته «خربة خزعة»، من قصص يزهار، ١٩٤٩: «طبعا، والا ماذا؟ على العكس! كيف لم اتكهن مسبقا. ان خربة خزعة ملكٌ لنا. ثمة مسائل تتعلق بالاسكان ومشكلات الاستيعاب! ونِعْم [ذلك كله]! سنسكن ونستوعب، وسنفتح [تعاونية] استهلاكية، وسنقيم دار تربية، وربما كنيسا أيضا. ستكون هنا أيضا أحزاب، تتنافس في امور عدة. سيحرثون الحقول، وسيزرعون، وسيحصدون، وسيقومون بأعمال عظيمة. فلتحيا خزعة العبرية! من يخطر على باله ان خربة خزعة كانت موجودة يوما، حيث طردنا [اهلها]

وورثناها. جئنا[اليها]، اطلقنا النار وحرقنا وفجرنا وصدينا ودفعنا وأجلينا... يا للشيطان، ماذا نحن فاعلون في هذا المكان.»[١١٠]

كتبوا بأسلوب شديد التجانس، كما لو كانوا لا يزالون «جنودا كئيبين في الصف» وموضوع كتابهم الأساسي: «الصابرا»؛ انه المقاتل الشاب، والمقدام، والأصيل، والمستعد للموت من اجل الدفاع عن الوطن وعن حياة «الولدنة» التي كانت تنتظره. وهو مستعد للقتل لكنه يبكي هذا القتل الذي فرض عليه، وهو صديق وفي، منقطع عن ماضيه، متحرر من تعقيدات حياة المنفى، ومن الشكوك المزعجة، ومتحرر في اساس الأمر من الانتقادات الفعلية، وهو فظ تجاه الخارج وحساس في داخله. تداعب الريح ذؤابة شعره عندما يركب سيارة الجيب، كما لو انه احد رعاة البقر على صهوة جواده في احدى قصص الغرب. وفي هذه القصص، كما في الأدب الروسي الذي ترجم الى العبرية ونشأوا عليه، عرضوا بطلهم بصورة ايجابية كرائد وبانٍ في ملحمة شبه توثيقية موضوعها الشعب والبلد، وليس البطل الفرد. كتبوا وفكروا بضمير الجمع المتكلم، وأبدعوا روايات جماعية تعبيرا عن مجتمع يتطلع الى المجموع لا الى الفرد. لقد ترعرعوا على ايدي «مكتبة العمال» وأبراهام شلونسكي العظيم، لكن الخلق الجماعي الذي نما كان خلق [الشاعر] ألترمن. وكتب غرشون شيكد، احد اعضاء اسرة الجامعة العبرية: «صوّر ألترمن في أشعاره الاجماع الوطني للييشوف اليهودي في ارض ــ اسرائيل (...) وأضفى عليه أبعادا ميتافيزيقية، وانسانية (...) هؤلاء الذين «ساروا في الحقول» وكراهيتهم مقيتة، عاشوا على خط النهاية، وأقسموا يمين الولاء لهذه القيم، حتى أصبحوا طبق الفضة للواقع القومي(...) لقد اجتثت جذور هذا الجيل الدينية، ولم يعد له ارتباط ذو دلالة (حتى الخمسينات) بالماضي اليهودي وواقع المنفى، لكنه استبدل ذلك كله بأسطورة وضعت برنامجا من القيم العلمانية تتجاوز الحياة والموت، كما تبلور ذلك في سعادة الفقراء (عند ألترمن).»[١١١]

عندما كتب ناتان ألترمن [قصيدة] «على هذه»، التي تدور أحداثها حول مقتل مواطنين عرب على يد جنود الجيش الاسرائيلي، اصدر بن ــ غوريون تعليماته بتوزيع القصيدة على وحدات الجيش كافة. واعتبر شموئيل هوغو بيرغمن ذلك «شهادة رائعة على حرية النقاش السائدة عندنا.»[١١٢] لكن «طهارة السلاح» كانت من القيم التي تشكلت منها روح ألترمن الجماعية، على غرار [وصية] «لا تقتل» من الوصايا العشر. ولذا، لم تكن [قصيدة] «على هذه» بحاجة الى «حرية نقاش» كي توزع في الجيش. لقد صدرت «خربة خزعة» عن «مكتبة العمال» البارزة، كأنها قصة بطولة كسائر القصص. وفي أوائل السنة، عرض مسرح «هبيما» مسرحية كتبها يغآل موسنزون واسمها «في أراضي النقب القاحلة»، وتحكي عن كيبوتس نيغبا خلال

الحرب. وكتب ناقد «دافار هشفواع» المسرحي، ي. م. نايمن، انه نسي للحظات انه كان يجلس في المسرح، وشعر بأنه في مكان مقدس يطغى عليه الورع «وكأن المسرح ولد من جديد (...) لقد أعاد الينا الرجاء والرؤيا.» وكتب [نايمن] أيضا ان الفضل في ذلك لا يعود الى «التمثيل العظيم» الذي ادته حانا روبينا وأهارون ماسكين فقط، بل يعود أساسا الى كاتب المسرحية، «وهو من مواليد البلد، ومن الصابرا، قروي يسير بخطى واثقة ويقول نحن هنا!.» وأضاف ان الاتصال بأرض الوطن هو الذي اجترح المعجزة.[١١٣] لقد جذبت المسرحية، فعلا، جمهورا كبيرا، وتحدث الجميع عنها كحدث كبير. لكن باروخ كورتسويل لم يشاهد المسرحية، اذ ان قراءتها كانت كافية في نظره. ولم يجد فيها سوى «أنانية عاطفية» واثارة كبيرة: «ساعة تاريخية لمرة واحدة في تاريخ الشعب، حدث لم نستوعب أبعاده بعد، اخلاص وتضحية لم يصلا الى ينابيعهما. شيء عظيم، غير عقلاني، ولا يزال ينتظر تعبيرا لمرة واحدة، غير عادي، منقذ. وقد احتل الابتذال الثرثار ذلك كله بهجوم خاطف، وأقام لنفسه نصبا تذكاريا رمزا للانتصار (...).» وأبدى كورتسويل دهشته من نجاح المسرحية: «ان الجمهور متحمس لأنه وجد دعما لمفهومه السطحي القاطع للأحداث التي لم يصل الجمهور الى فهم مغزاها الحقيقي بعد. وكما ان الجمهور يهرب من الكتاب الجيد والمتعمق الى الفيلم الخفيف الذي تم انتاجه على صورته وتكوينه السطحي، كذلك يتمتع بالتماثل بين تكوينه المبتذل والخيالي وبين التكوين التاريخي الذي يتوازى مع مفهومه.» لم يمتدح كورتسويل أدباء ١٩٤٨، لأنهم كانوا يميلون الى تجاهل العلاقة التاريخية بين «الآلاف الذين ماتوا هنا وبين الملايين الذين ماتوا هناك»، وهم ضحايا الكارثة النازية. وكان ناتان شاحام، في نظره، مجرد «متبجح صغير ومدلل وصفر مضخم، وكتابته عقيمة.»[١١٤] لكن المؤسسة الادبية وفرت مكانا أيضا لكتابات شبان ولناقديهم، وكذلك لأدباء من أبناء الجيل السابق. وكان النقاش الحقيقي يدور بين رجال المؤسسة وبين ادب آخر كتب بتأثير الحرب، وهو متشكك، وبعضه عدمي ومعاد للصهيونية و«غير يهودي» كعادته. لقد نما هذا الادب داخل حركة «الكنعانيين»، وعلى هوامشها، ووضع أمام بعض المسلمات التي كانت الاساس الفكري للمجتمع في اسرائيل وقيمه، علامة استفهام مثل: تعريف اليهودية ككيان قومي.[١١٥] وقد صاغ يوناتان راطوش، زعيم «الكنعانيين»، في سنة ١٩٤٩ الخيار التالي: «يمكن ان تقوم [امة] عبرية جديدة، امة فتية، وقوية، وعظيمة، ومنقذة للوطن، بلد الفرات، سوية مع مجموع سكانه (من يهود ومسيحيين ومسلمين ودروز وآخرين). ويمكن ان تقوم أيضا دولة يهودية في الأرض المقدسة من الشتات اليهودي، نسخة ثانية عن الهيكل الثاني، وحدة منغلقة على نفسها، مدينة بوجودها للغير، جالسة على السلاح والمال داخل عالم معاد (...)، معتمدة على طوائف الشتات بأنواعها، تتوسل منها دعم الدول العظمى شبه

المجاني (. . .).»[116]* وأصدر الكنعانيون مجلة خاصة بهم هي مجلة «آلف» («رمز بداية القوة والمجد»). وحاولوا تنظيم «خلايا» وضعوا لها راية خاصة، مذهبة وبنفسجية وزرقاء. وكانوا في بعض الاحيان يعقدون الاجتماعات، وينشرون البيانات، ويوزعون المناشير. وكانت شوفينيتهم العبرية تتضمن عناصر فاشية صريحة، بيد ان الحركة لم تجد لها زعيما سياسيا، ولم تطور اية قوة تنظيمية. ولم تستطع إلا جذب القلائل؛ فقد اعتبر جميع الاسرائيليين انفسهم يهودا وصهيونيين. غير ان الفلسفة الكنعانية كانت اكثر من فضول عقلاني، اذ ان وميضا من أفكارها وجد طريقه الى الشعر والادب، والى الصحف أحيانا؛ لم تكن فلسفة بعضهم غريبة عن فلسفة بن ـ غوريون.

وكان بن ـ غوريون، مثل الكنعانيين، يميل الى وضع ارض ـ اسرائيل في مركز الواقع القومي أيضا. فكتب متجاهلا الثقافة اليهودية التي ازدهرت خارج البلد: «تكونت هنا شخصية الشعب التاريخية.» وانجذب، مثل الكنعانيين، الى عهد التوراة وهو، على حد تعبيره، «اعظم عهود تاريخ اسرائيل وأكثرها غنى وجلالا.» وأراد ان يربط الصهيونية أيضا بـ «تاريخ العبري الاول». وعلى حد قوله، ان الهجرات الصهيونية الاولى من اوروبا الشرقية اوجدت «نمطا انسانيا جديدا»، وهو «مخلوق مقدام، هدفه في الحياة العمل والحراسة (. . .) الأمر الذي لم يكن موجودا لدى الشعب اليهودي في جميع المنافي.»[118] وقال، خلال حديثه الأول الى الأدباء: «ان هذه الامة تبنى من حطام أسباط، وثمة ضرورة لصهر المخلوق اليهودي المشتت في العالم، الذي سيعود الى البلد، في بوتقة الاستقلال وفي اطار الحياة الرسمية. وهناك ضرورة لبلورة طابع عبري وأسلوب عبري لم يكونا قائمين في السابق، ولم يكن في الامكان اقامتها في المنفى في وسط شعب مجرد من الوطن والاستقلال والحرية القومية.»[119]**

---

* في الواقع، ايد الكنعانيون «هعليا» [الهجرة بالمعنى الديني]، اوكما يسمونها «ههجيراه» [الهجرة بالمعنى العام]، واعتبروها «حلا نهائيا لمشكلة اليهود.» وفي رأيهم، ان البلد يحتاج الى مزيد من السكان، لكنهم اشترطوا لقدومهم عدم «افساد طابعنا القومي، العبري.» ويجب، بالتالي، عدم تدمير اقتصاد البلد، «ولا يجوز ان يقوض هذا الامر ـ ولو لفترة وجيزة ـ قوة الدولة.» ومن اجل الحؤول دون ذلك، كان على الدولة ان تستوعب القادمين «استيعابا اقتصاديا، وتدمجهم دمجا ثقافيا.» واقترح الكنعانيون عدم منح «الاغراب» [صفة] مواطنين في الدولة قبل ان يلموا باللغة العبرية، ولو بالحد الادنى: «ثلاثمائة كلمة ـ كل بحسب مهنته»، ويجروا حديثا بسيطا بلغة البلد. وافترض الكنعانيون ان المهاجرين هم أبناء جيل انتقالي، وأن أبناءهم وأحفادهم هم فقط الذين ينتمون الى الامة العبرية.[117]

** هكذا فكر الكثيرون: خلال الثمانية عشر شهرا بين اقامة الدولة وكانون الاول/ديسمبر ١٩٤٩، قرر نحو ٢٠ ألفا من الاسرائيليين الأوائل استبدال أسمائهم بأسماء عبرية، محاولين بهذه الطريقة ان ينزعوا عنهم هوية المنفى. وقد بدأت هذه الظاهرة خلال الهجرات الاولى، لكنها بلغت شأوها سنة ١٩٤٩. =

اثقلت العناصر الكنعانية في فلسفة بن ـ غوريون، وفي مقدمها ميله الى رفض المنفى، كثيرا على العلاقات بين الدولة وشتات اليهود في العالم. ولم يستطع بن ـ غوريون، ولم يكن راغبا في قطع علاقة الدولة بالجاليات اليهودية في الخارج، لكن العلاقات بها كانت معقدة وزاخرة بالتناقضات. وقال جازما: «القضايا موجودة في البلد. ولو كان هناك عشرة من أمثال هيرتسل لما استطاعوا تغيير ذلك.»[121] وخلال النصف الثاني من سنة ١٩٤٩، وضع بن ـ غوريون سلسلة من القواعد الأساسية لتنظيم علاقات الدولة بشتات اليهود، وتحديدا بيهود الولايات المتحدة. فقال: «ان الحكم في دولة اسرائيل حكر عليها.» وجزم قائلا: «لا يستطيع اي يهودي في المنفى، سواء أكان صهيونيا ام غير صهيوني، الاشتراك فيه [في الحكم]. ان الدولة ذات سيادة، وارادة سكانها هي وحدها التي تحدد نظام الحكم فيها، ودستورها وحكومتها (. . .) وفي مقابل ذلك، لا تمثل الدولة الشعب اليهودي في العالم، ولا يحق لحكومة اسرائيل ان تتحدث باسم يهود العالم (. . .)، وليس لأي يهودي في دولة اسرائيل حق [التدخل] في الشؤون اليهودية، او ان يفوق حقه حق اليهودي في البلاد الاخرى.»[122]

استوعب مراقب المنظمة الصهيونية الدكتور اميل شموراك، وهو رجل مستقيم، الكلام الواضح الذي سمعه من بن ـ غوريون، فاقترح ان تعيد دولة اسرائيل الى المنظمة الصهيونية جميع الأموال التي حصلت عليها منها لتمويل حرب الاستقلال، وذلك باستيعاب المهاجرين. وسارع بن ـ غوريون الى اطلاعه على غلطه: فقال: «ان دولة اسرائيل ليست شغل سكانها فقط. وليس بنا، نحن يهود ارض ـ اسرائيل، اية حاجة الى الجلوس في ترشيحا*، وتربيخا**،

= وقد شجع بن ـ غوريون هذه الظاهرة مستخدما، بين امور اخرى، خاتما اسود، وأمر ان تُدمغ كل رسالة عسكرية تدعو كل جندي الى استبدال اسمه. وفي حالات معينة، اشترط بن ـ غوريون، للترفيه في الجيش وفي الخدمة العامة، تغيير الاسم.[120]

وعندما تقرر ان يعهد الى بلدية تل ابيب بالمسؤولية البلدية عن مدينة يافا، جرى نقاش بشأن الاسم الذي سيطلق عليها؛ فاقترح البعض اسم يافو، وزعموا ان هذا هو الاسم التوراتي، وكان بن ـ غوريون بينهم. واقترح البعض الآخر تل ابيب، بصفته الاسم الصهيوني. وقد عكس هذا النقاش، أيضا، الارتباك في الهوية. ثم توصلوا الى حل وسط، متفقين على اسم يافا ـ تل ابيب، لكن الصهيونيين انتصروا في النهاية، «وأصبح الاسم تل ابيب ـ يافا.»

* بلدة عربية تقع على مسافة ٢٧ كلم شمالي شرقي عكا. وقد دمر الصهيونيون، خلال حرب ١٩٤٨، معظم البلدة بالطائرات، فهاجر معظم سكانها وبقي القليلون منهم على الرغم من الاحتلال. وقد انشأ الصهيونيون مستعمرة «معوناه» في الطرف الشمالي للبلدة. (المحرر)

** قرية عربية تقع شمالي شرقي عكا. كانت من أعمال صور في العهد العثماني، الى أن ألحقت بفلسطين سنة ١٩٢٣. وقد دمرها الصهيونيون سنة ١٩٤٨، وأجبروا سكانها على الرحيل الى لبنان، وأقاموا مكانها مستعمرة «شومراه». (المحرر)

وسعسع*، وأبو فريج، وأم الفحم**، وايلات***، وعين جدي، كي ندافع عن انفسنا. اننا نقيم في تل ابيب وحيفا، وهذا يكفينا بالتأكيد.»[١٢٣] قاد التفسير الاسرائيلي، الذي أطلق على الصهيونية، الى اتساع الفجوة بين الاسرائيليين واليهود. حتى ان التشديد الذي وضع في البلد على الزراعة، كقيمة انسانية وخلقية، عكس ميلا صريحا معاديا للمنفى، مثل الميل الكنعاني، لكنه لم يعكس الواقع. وكان الأديب يهودا بورلا يميل الى مماثلة التكوين القومي كله بالعمل في الارض. وقد نشرت الوكالة اليهودية في احد منشوراتها: «من الواضح بصورة كافية ان التنمية الزراعية وحدها، بحجوم كبيرة، يمكن ان تشكل أساسا سليما للوطن، وتحديدا **من اجل اقامة الوطن**. وبعد اقامة الوطن سيبنى الشعب، بطبيعة الحال. وقد حرم الشعب اليهودي، في بلاد المنفى، الحق والسعادة في رضاعة حليب الارض، والارتباط بها بروابط نفسانية. لقد تجول اليهودي في جميع بلاد العالم غريبا ومنبوذا، مكرها ومضطهدا، مشوه الروح وكئيبا. وكان الشعب اليهودي بأسره كرجل مريض ذي عاهة وغير طبيعي، ولذا كانت امنيته الكبيرة ان يستقر قسم كبير منه في ارض الوطن، ويرتبط بالعمل في الارض قلبا وروحا، لأن ليس من ميزة رائعة تمنحه شفاء قوميا، وبساطة شعبية، وطبيعة بشرية، مثل العمل في الارض.»[١٢٤]

شرح بن ـ غوريون للكنيست انه، وفق رأي خبراء عسكريين استشارهم، ومنهم «خبراء مهمون من الخارج»، لن يقوم جيش فعال في البلد اذا لم يحصل الشبان ـ ولا سيما المهاجرون منهم ـ على تعليم زراعي في البداية، «يجذرهم في حياة الوطن.»[١٢٥] واستخلص من كلامه احدى المسلمات: ان الذين يزاولون الزراعة «يتجذرون في الوطن» اكثر من المقيمين في المدينة. وتحدث بن ـ غوريون عن المستعمرات الزراعية الحدودية عبر مفهوم امني معين. لكن، بالاضافة الى ذلك، كان هناك مفهوم فلسفي: الاسرائيلي المثالي هو الفلاح الذي يستوطن الأرض، ويتحرر من عقد «القلق» التي نسبت الى الحياة في البلدة اليهودية في المنفى. كما ان المدارس كرست وقتا طويلا لتقريب الأطفال من الواقع الزراعي، كما خصصت كتب التعليم لذلك فصولا واسعة. وقد جاء،

* قرية عربية تقع على بعد ١٥ كلم الى الشمال من صفد. فيها آثار من العصر البرونزي. احتلها الصهيونيون سنة ١٩٤٨، وأنشأوا على بقعتها مستعمرة «ساسا». (المحرر)

** سميت بذلك نسبة الى الفحم الخشبي الذي كانت تنتجه بكثرة لانتشار الغابات حولها. وهي قرية عربية تبعد ٤١ كلم عن حيفا. وهي اكبر قرية في فلسطين المحتلة منذ سنة ١٩٤٨. صادر الصهيونيون جميع أراضيها الواقعة في مرج ابن عامر، وأقاموا عليها مستعمرة «مي عمي». (المحرر)

*** مدينة صهيونية أقيمت في موقع ام رشرش العربي على الرأس الشمالي الغربي لخليج العقبة. وإيلات اسم لمدينة ادومية قديمة كانت تقع على الخليج قرب مدينة العقبة الحالية. وأطلق عليها الأنباط اسم «أيلة». ثم دعيت العقبة، الى ان انشأ الصهيونيون ميناء ايلات سنة ١٩٥١. (المحرر)

بعد وقت وجيز، في كتاب القراءة الشائع جدا بقلم ن. غبريئيلي وب. افيفي، كدرس تعليمي عن «الأب»، ما يلي: «لم تشاهد تمار والدها في الصباح. فقد كان في الحقل.»[١٢٦] كان الأب لا يزال عند الظهر أيضا في الحقل. «عندما اكبر سأصبح فلاحا»، هذا ما كتب أيضا في ذلك الكتاب كنظم شعري لموضوع تدريسي. عندما اكبر «سأبني منزلا صغيرا في القرية.»[١٢٧] «لقد شاهد يوسي أخاه شلومو يحرث الحقل. وفي المساء اقترب منه وهمس في اذنه: شلومو، انا اريد ان احرث ايضا.»[١٢٨] وقد احتوت صفحة من كل خمس صفحات في ذلك الكتاب، مادة مشابهة وفق المنهاج الدراسي الرسمي. *

ارسل الأطفال مرة في السنة، يوم ١٦ شباط [بحسب التقويم العبري]، الى حدائق المدارس لزراعة الأرض وحراثتها. وكانوا يؤخذون لزراعة الاشجار.** وفي عيد الاسابيع، كانوا يضعون على رؤوسهم أكاليل الزهور ويسيرونهم في مواكب، وهم يحملون الثمار والخضروات التي أحضروها من منازلهم لهذا الغرض. وفي الغالب، كانوا يفضلون وضعها في السلال. وكانت المعلمات ينقرن على «الدفوف» الى جانب المواكب. وعندما فرضت في شهر شباط/فبراير ضريبة الكماليات على الآلات الموسيقية، تذكر البعض ان يعين في اللائحة ان الدفوف، و[آلات] الاكورديون، والناي، ستكون معفية من الضرائب لتحاشي الاساءة الى «الأغاني الشعبية» ورقصاتها، وكلها من فولكلور اوروبا الشرقية الريفي. كانت المدن تمثل، في هذه التقاليد، التفسخ والفساد. وكانت تل ابيب في ظل حكم الصهيونيين العموميين. وخرج الكثيرون من قادة الدولة من الكيبوتسات، وفي أية حال اعتبروا انفسهم مرتبطين بـ«الاستيطان العامل»، كما دعوه، وكأنهم لم يعملوا في المدن أيضا. وكانت النتيجة ان ميزانيات كبيرة جدا أُغدقت على التنمية

* نشرت «دافار هشفواع» وصفا، في تلك الأيام، لأمثولة الفتوة الاسرائيلية هذه: «بدأ أطفالنا يذهبون الى حديقة الأطفال. وبعد سنوات قليلة سيتعلمون في المدرسة. انهم يركبون الدراجات، ويذهبون الى «الحركة»، ويتنزهون في البلد، ويمارسون الرياضة، ويستحمون في البحر. انهم يخضعون لامتحانات، وقد وصلوا الى أداء فرائض الشعب. لقد ذهب أولادنا الى الجهاد وانتصروا على العدو. والكثيرون منهم يذهبون الى الاستيطان، وليكثر من أمثالهم في اسرائيل.»[١٢٩] يجب ألا يكون التوجه الى مهنة اكاديمية، ولا الى عمل مهني آخر، وانما الى الاستيطان الزراعي.

** كان الاندفاع نحو التحريج من مشاريع التطوير المهمة في البلد، كما كان احدى الأفكار التي تملكت بن ـ غوريون، في بعض الاحيان، وتشبث بها: استدعى في احد الايام رئيس الكيرين كاييمت، يوسف فايتس، وأمره بغرس مليار شجرة خلال السنوات العشر المقبلة. وخشي فايتس ان يكون رئيس الحكومة يهزأ به، وتساءل عما اذا كان قد فقد صوابه.[١٣٠] وبعد مضي فترة وجيزة، استدعاه مرة اخرى وسأله عما اذا كان يمكن نقل ارزة من لبنان عمرها ٥٠٠٠ سنة، «منذ عهد ابينا ابراهيم»، كي يغرسها على جبل هيرتسل، وبذلك يحقق نبوءة حزقيال في الاصحاح الحادي والثلاثين. وأجابه فايتس بأنه يستحيل القيام بذلك. فرد بن ـ غوريون: كل شيء ممكن، حتى لو كلف الامر ٥٠ ألف ليرة.[١٣١]

الزراعية، وأهمل تطوير المدن. لكن عبثا، فضلت الأكثرية الحاسمة من الاسرائيليين الاقامة في المدن «مهجّرة»، كما كانت في الماضي.

كانت تل ابيب، في تلك الايام، مدينة صغيرة تجذب محبي السكن في المدن. وبعد جريمة قتل وقعت في مكان ليس بعيدا عن حديقة مثير، اخذ البعض يتحدث عن «موجة من الجرائم الجنسية»، كما هي الحال في نيويورك. لكن عندما سرقت سيارة السيد كوهين، نشر اعلان جاء فيه: «لقد سرقت سيارة السيد كوهين.»[١٣٢] تعلموا الرقص عند البروفسور ليئون في شارع شنكين، وكانوا يقدرون شوبان. وفي احدى المرات، عندما اصبح في الامكان اتقان رقصات الفالس، نشروا اعلانا بشأن ذلك في احدى الصحف.[١٣٣] وعندما عرضت للبيع «منازل فخمة»، كان سكان مدينة الصالونات هذه يقصدون الى منازل مكونة من غرفة او غرفة ونصف غرفة في شارع جورج إليوت والضاحية، وكانوا يصلحون جوارب النايلون الممزقة لأنه لم يكن في الامكان الحصول على جوارب جديدة؛ لقد كان ذلك احد ملامح التقشف.

الفصل الثاني

سمك فيليه مع كل شيء

بعيد اعلان الاستقلال، كان ثمة تقديرات ان تمويل الاستيعاب الكامل لكل مهاجر يتطلب مبلغا يتراوح بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ دولار، وفقا لطرائق مختلفة في احتساب المبلغ. وهكذا، فقد كان هناك حاجة، سنة ١٩٤٩، الى مبلغ يتراوح بين ٤٥٠ و ٦٥٠ مليون دولار لاستيعاب ٢٣٠ ألف مهاجر. ويقول دافيد هوروفيتس: «لم يكن هذا المبلغ متوفرا لدينا، ولم يكن ثمة اي امكان لجمعه.»[١] وفي السنة المالية ١٩٤٩/١٩٥٠، انفقت الحكومة ١٧٥ مليون ليرة تقريبا، اي ما يعادل نحو ٧٠٠ مليون دولار، اذ كان سعر الليرة الواحدة يساوي اربعة دولارات.[٢] * ووصل العجز في ميزان المدفوعات الى ٢٢٠ مليون دولار سنة ١٩٤٩، وارتفع في السنة التالية الى ٢٨٢ مليونا.** وخلال السنة، وصل الى اسرائيل نحو ٣٢٠ مليون دولار، كان ثلثها تقريبا تبرعات من يهود الولايات المتحدة، والباقي قروضا. وأدت المفاوضات المتواصلة مع الحكومة البريطانية الى اعتاق فوائض الجنيه الاسترليني، التي كانت قد جمدت في لندن في الحرب العالمية الثانية، ومن ضمنها أموال الوكالة اليهودية

* في ايلول/سبتمبر ١٩٤٩، خفضت بريطانيا قيمة الجنيه الاسترليني. وكان سعر الليرة قبل التخفيض، ٤ دولارات تقريبا، ووصل بعد التخفيض الى ٣ دولارات تقريبا. وكانت قيمة الليرة الاسرائيلية مرتبطة (حتى سنة ١٩٥٢) بالجنيه الاسترليني. ولذا انخفضت قيمتها هي الاخرى.

يقول بن ـ غوريون: «(اعلمني وزير المالية)، كابلان، ان لديه أمرا ملحا، وأنه يجب دعوة الحكومة الى عقد جلسة طارئة. واجتمعت الحكومة في التاسعة والنصف (...) وأعلمتنا انكلترا انها خفضت سعر الجنيه الاسترليني الى ٢,٨ دولار. واقترح كابلان ودوليك (دافيد هوروفيتس) عدم اتخاذ اي قرار في الوقت الراهن، لأنهما يريدان ان يقترحا، بعد المزيد من البحث، خفضها [الليرة الاسرائيلية] الى ٢,٤ دولار. واقترحتُ ان نقرر فورا خفضها الى ٢,٨ دولار، وإلا حدثت بلبلة وبدأت المضاربة. وقد ايد ذلك جميع أعضاء الحكومة، ما عدا كابلان.»[٣]

** كان نحو ٣٠٪ من المواد المستوردة منتوجات استهلاكية مصنعة، والباقي مواد خاما ووقودا ومنتوجات استثمارية مصنعة نهائيا. وبلغت قيمة الصادرات نحو ٤٠ مليون دولار فقط سنة ١٩٤٩. وكانت صادرات اسرائيل الاساسية ـ وهي الحمضيات والألماس المصقول ـ تمثل اكثر من ٨٠٪ من مجموع الصادرات سنة ١٩٤٩.[٤]

و«كيرين هايسود» [الصندوق التأسيسي] و«هاكيرين هاكييمت» [الصندوق القومي]، والهستدروت، والمصرف البريطاني ــ الفلسطيني، الذي غدا فيما بعد مصرف لئومي ليسرائيل (المصرف الاهلي الاسرائيلي). وخصص ٢٥ ٪ تقريبا من ميزانية نفقات الحكومة لتمويل الحاجات الامنية. وبكلام آخر، فان ميزانية النفقات بكاملها كانت، منذ البداية، اقل كثيرا من المبلغ المطلوب لاستيعاب الهجرة فقط. وعدا ذلك، كانت ثمة ضرورة لتوفير السكن والعمل لعشرات الآلاف من الجنود المسرحين من الخدمة، وكان اربعة عشر اسرائيليا، من كل مئة، عاطلين عن العمل ــ وضمنهم المهاجرون الجدد. ووصلت نسبة البطالة بين الاسرائيليين القدامى الى ١٠ ٪. وذكر هوروفيتس: «ان موجات الهجرة والمشكلات الاقتصادية فرضت نفسها علينا بشدة، حتى كادت تقصم ظهر جميع من أُلقيتْ على كاهلهم مسؤولية مصير استيعاب الهجرة.»[٥] لقد استوطن البلد مهاجرون قبل اعلان الاستقلال، لكن العديدين منهم جلبوا معهم رؤوس أموال وأدوات انتاج وخبرة مهنية وثقافة. أما معظم المهاجرين الذين وصلوا بعد اعلان الاستقلال، فقد كانوا في فاقة شديدة، وكان مستوى ثقافتهم ادنى من مستوى ثقافة الاسرائيليين القدامى. وهكذا، وقع العبء الاساسي المرتبط باستيعابهم على عاتق الجمهور، بواسطة الحكومة والوكالة. كانت هناك ضرورة، في المدى المباشر، لتمويل احضار المهاجرين الى اسرائيل، وتأمين حاجاتهم كافة: الاسكان (في المعسكرات)، والطعام، والثياب، والخدمات الطبية. وفي المدى الطويل، كانت هنالك ضرورة لاسكان دائم ــ زراعي ومديني ــ وايجاد مصادر رزق، واقامة شبكة تعليمية، وما شابه ذلك. ان جزءا من الاستثمار العام اللازم لتمويل الاستيعاب، وأساسا لتمويل الاستيطان والاسكان، مولته الحكومة بوسائل تضخمية تمثلت، غالبا، في اصدار الأوراق النقدية. وفي المقابل، تم تطبيق برنامج التقشف، الذي تضمن رقابة شديدة على الأسعار، وتقنين استهلاك المواد الغذائية والخدمات والمواد الخام والنقد الاجنبي. وقد هدف البرنامج الى ضمان حد أدنى من المعايير الاستهلاكية للسكان كافة، القدامى والمهاجرين الجدد سواء بسواء.

نُسخت انظمة التقشف، في الجزء الكبير منها، عن انظمة التقنين التي طبقت في بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية، ومنها استعير اسمها الذي ابتكره عالم اللغة رؤوفين ألقلعي. وقد روى ألقلعي، لاحقا، انه في اثناء عمله في مكتب الصحافة التابع لحكومة الانتداب، أراد ترجمة عبرية لكلمة اوسترتي (التقشف) الانكليزية. والى ان اعتمد استعمال كلمة «تسينع»، فانه فكر في كلمات «بشتوت»، «كيفد»، «كفيدوت»، «كفيداه»، «يوشر»، «يشروت»، «عنفاه»، واستشار الشاعر أبراهام شلونسكي وغيره.[٦] وقد قدم الشاعر وعضو الكنيست اوري تسفي غرينبرغ اقتراحا خاصا به، هو «دحكوت شيل حلوتسيم»

(إدقاع الطلائعيين). كان غرينبرغ يؤيد برنامج التقشف، وطلب ان ينظر اليه انه «دستور للحياة مدى عمرنا.»[٧] وقالت غولدا مئير، ايضا، من دون مواربة كعهدها: «ليس هناك خيار آخر. فلا يمكن التملص من مواجهة الحسم في الأمر البسيط التالي: إما تقنين الهجرة وإما تقنين في المأكل والملبس.» وعرفت غولدا ان تشحن هذا النقاش الاقتصادي بشحنة عاطفية كبيرة، حين قالت امام الكنيست: «ان كل ما هو مطلوب منا هو اقل من الفوضوية، حتى لا نبدد الثروة التي من اجلها قضى أعزاؤنا. فهم لم يقضوا من اجل البحبوحة، وانما من اجل الدولة ومن اجل هجرة كبيرة.»[٨] وردت المعارضة عليها: «لكن الشعب جائع!» وذهب مناحيم بيغن الى حد الزعم ان التقشف يهدد امن الدولة، اذ ان فتياننا جائعين لا يمكن ان يصبحوا «مقاتلين ذوي مناعة جسدية.» وصرخ: «انكم تنشئون لنا جيلا من ذوي العاهات.»[٩] ولم يبق الشعب جائعا، وانما طلب منه الاكتفاء بسمك الفيليه ومسحوق البيض اللذين كانا يقدمان له بعد انتظار متواصل في طوابير طويلة، لقاء قسائم. وكانت الطوابير والقسائم تتلف الأعصاب. وهددت سياسة التقشف بسيطرة دكتاتورية اقتصادية في البلد، لكنها بدت هبة من السماء لكل سمسار وبيروقراطي؛ لقد تصارعوا حتى الرمق الاخير، حائرين، بين التعليمات والانظمة والأوامر، في متاهة رهيبة من الترخيص والرقابة: لقد ضل السمسار او البيروقراطي، سواء بسواء، طريقه فيها.

جزم «وزير التقشف»، دوف يوسف، بأن الرقابة لا يمكن ان تنجح ضد رغبة الشعب بكامله. وذكر في غضون ذلك «فترة الجفاف» في الولايات المتحدة: «ان الشعب (الاميركي) لم يرد هذا الامر، ووصلت الأمور الى حد ان الحكومة كانت مضطرة الى الغاء هذا القانون، مع انه كان قانونا جيدا، فيه مصلحة الشعب، ويهدف الى منع الحاق الضرر به.»[١٠] ولم يكن الاسرائيليون يريدون ان يفرض عليهم دوف يوسف ما فيه مصلحتهم، على الرغم من انجازاته، ولم يغفر لهم دوف يوسف ذلك طوال حياته: «كانوا يريدون لحما» ــ هذا ما اشار اليه باشمئزاز بارد.[١١] لقد ولدت خطة التقشف، مثل خطط كثيرة غيرها، كحل وسط بين الأحزاب والنشيطين الاجتماعيين.[١٢] ان الجدل الذي اثير كان ينطوي، ايضا، على صراع قيم وارتباك حقيقي في شأن المسائل الاساسية ووجهات نظر متناقضة. وأعلن دافيد بن ــ غوريون في احدى هذه المناقشات: «ان دولة اسرائيل ليست دولة رأسمالية. ان اقل من نصف عمالها يعملون في الاقتصاد الرأسمالي. وهذه الدولة ليست دولة اشتراكية، لأنه يوجد في الدولة مبادرة خاصة ــ تشجعها الحكومة وتنميها ــ وقطاع خاص قائم على رأس المال الخاص، وعلى العمل المأجور.»[١٣] كما ان باقي الذين شاركوا في الجدل في شأن التقشف كثيرا ما ربطوا حججهم بتعليلات ايديولوجية كهذه وغيرها، اذ كان هذا هو الاسلوب في تلك الفترة، وكانت هذه هي ايضا طريقة التفكير. لقد عبرت خطة

التقشف عن مقدار من التزمت، وعن الكثير من التهديد لوضع أصحاب المتاجر ولكل ما كانوا يمثلونه، وعن ايمان يكاد يكون صوفيا بقدرة البيروقراطية على حل المشكلات. يقول دوف يوسف: «عندما خفت حدة المعارك، ادركت الحكومة انه لا يمكن تنفيذ المهمة التاريخية لجيلنا ـ اي جمع يهود الشتات ـ إلا بجهود وتضحيات جسيمة من جانب طبقات المجتمع الاسرائيلي كافة. ولذلك تقررت سياسة التقشف: تأمين الغذاء للجميع، وفرض الرقابة على الاسعار، وخفضها قدر الامكان. ومن دون ان نفعل ذلك، لا يستطيع البلد ان يوفر مصادر دخل بالعملة الاجنبية التي كان بحاجة ماسة اليها من اجل بعث الحياة في زراعتنا وصناعتنا.»[١٤]

كان خطاب التقشف الاول لدوف يوسف، في نيسان/ابريل ١٩٤٩، مثيرا جدا للاهتمام، مثلما الوزير نفسه. وفيما بعد، لاحظ يوحنان بادر ـ وهو اقتصادي ينتمي الى حيروت وبرلماني ثاقب الفكر ـ ان اعضاء الكنيست الذين استمعوا الى الخطاب لم يستوعبوا مغزاه على الفور.[١٥] وقد سبقه بن ـ غوريون فعلا ببيان درامي تحدث فيه عن «الصعوبات الجسيمة والتهديدات» المتوقعة للدولة خلال اقدامها على تحقيق المهمات الثلاث التي امامها، دفعة واحدة، وكل واحدة منها «لا تكاد تُحتمل»: الأمن، واستيعاب الهجرة، والحفاظ على مستوى معيشة لائق.[١٦] لقد بدت النغمة الهادفة، التي كانت تميز كلام دوف يوسف، انها مأخوذة من نغمة التشدد التي برزت في تصريح بن ـ غوريون وطمست الانطباع الذي خلفه البيان: «... لقد تحددت قائمة اغذية عقلانية ومتقشفة لتوضع، وحدها، في تصرف الجمهور (...) لن نسمح بانتاج الكماليات إلا لأغراض التصدير. وسنتوقف عن استيراد الكماليات من الخارج (...). سيكون كل الاستيراد مرهونا بتراخيص من وزارة التموين والتقنين. وسيلزم المستوردون بعدم بيع بضائعهم إلا لتجار الجملة الذين تحددهم وزارة التموين والتقنين. وسيرتبط بكل تاجر جملة عدد معين من تجار المفرق، ولا يسمح له ببيع بضائعه إلا لهم (...) وسيرتبط بكل تاجر مفرق عدد من المستهلكين لا يسمح لهم بالشراء إلا منه، وفق دفاتر قسائم توزع على السكان جميعا (...) وسيكون المستهلك ملزما بأن يسلم القسائم المطلوبة بدل المواد الاستهلاكية، وسيكون على تاجر المفرق ان يسلم وزارة التموين والتقنين هذه القسائم (...).»[١٧]

كان دوف يوسف الرجل الملائم لتنظيم التقنين والاشراف على تنفيذه؛ فقد كان يؤمن تماما بنظام التقنين، ولم يتردد في ان يربطه باسمه، الى حد ان اسمه اصبح رديفا للذم والسخرية، وأصبح هو ـ دوف يوسف ـ يستقطب الكراهية والازدراء. وقد قدر انه دعي الى العمل في حكومة بن ـ غوريون الاولى نتيجة المحاولة التي قام بها في فرض التوفير والتقنين لوقت الطوارىء خلال الفترة التي كان فيها حاكما عسكريا للقدس المحاصرة في اثناء حرب

الاستقلال. لقد قدره الكثيرون في مهمته هذه، لكن لم يحبه إلا القليلون. ذلك بأن المحامي الذي ولد في مونتريال في كندا كان يوحي بالانغلاق، والاستبداد في الرأي، والبرودة: شخصية انتدابية، يرتدي دائما بذة داكنة من القماش الثقيل؛ وكأن البريطانيين نسوا ان يأخذوه معهم عندما غادروا ارض ـ اسرائيل. لم يكن له صنو في الدقة، وكان مولعا بالشكليات ومستقيما وفظا كالشوك. وقد وصفه معارفه بأنه رقيق، يحب الفن والموسيقى. ويميل مرارا الى اضفاء مسحة من الدعابة على كلامه. وكانت سريرته دائما على شيء من التجهم، شاحبا، يفتقر الى سرعة البديهة والبهجة. وعندما كان فتى عمره تسع سنوات* ـ كان اسمه حينئذ برنارد جوزيف ـ وكان والداه قد جاءا من لتوانيا، اشترك في مؤتمر صهيوني كندا وأسس هناك منظمة «يهودا الفتى»، وهي منظمة قطرية للشباب الصهيوني.[١٨] وكان في الحرب العالمية الاولى من الذين جندوا المتطوعين للكتائب العبرية، وفي سنة ١٩١٩ تطوع في احدى كتائب جيش الجنرال أللنبي، الذي احتل البلد من الاتراك. ومنذ ان انهى دراسة المحاماة في جامعة ماكغيل فلوال،** سنة ١٩٢١، وكان حينذاك في الثانية والعشرين، استقر في القدس وتزوج غولدي هوفمان، صديقة الصبا في مونتريال والتي اصبحت فيما بعد شخصية اجتماعية ناشطة. وحقق جوزيف نجاحا باهرا في مهنته، وتبوأ مكانة بين محامي القمة، كما غادر الى لندن للحصول على لقب دكتور في الاقتصاد والعلوم السياسية. وفي أوائل الثلاثينات، انضم الى حزب ماباي وأصبح المستشار القانوني للمجلس التنفيذي للوكالة والقائم بأعمال مدير الدائرة السياسية، موشيه شاريت. وفي الحرب العالمية الثانية، كان من الذين جندوا المتطوعين للفرقة [اليهودية]، وفي «السبت الاسود» كان بين معتقلي اللطرون. وبعد اطلاقه، غادر الى نيويورك للمساعدة في حشد الدعم لقرار التقسيم. وكان، عشية اقامة الدولة، من الذين وضعوا البنية التحتية القانونية للادارة الرسمية المستقلة. وقد قتلت ابنته ليلى خلال خدمتها في صفوف البلماح. وقد سماه الصحافيون «يوسف همشبير»،*** لكنه لم يعمل في مجال «بيع المواد الغذائية» قط. لقد اخذت الحكومة على عاتقها تحديد أنواع البضائع المستوردة من الخارج وكمياتها وأسعارها، وأخذت على عاتقها وعلى حسابها القيام بجزء كبير من الاستيراد، خصوصا استيراد المواد الخام والمنتوجات الغذائية. وتحملت مسؤولية تنظيم النقل والتخزين، وتنفيذهما، وتمويلهما. وكانت تبيع البضاعة، وفق اعتباراتها، للمزارعين وأرباب الصناعة. وحددت، وفق اعتباراتها وبواسطة الأوامر التي كانت تنشرها من حين الى آخر، ما [يجب ان] يزرعه المزارعون وبأي

* هكذا في الاصل العبري. (المحرر)

** لعل المقصود جامعة ماكغيل في مونتريال. (المحرر)

*** نسبة الى شركة التسويق الكبرى في اسرائيل. (المحرر)

كميات وأسعار، وهي التي حددت ما تنتجه الصناعة وكمياته وأسعاره، وتولت بنفسها جزءا من الانتاج. وهكذا تولت الحكومة، في آذار/مارس ١٩٤٩، ملكية الدقيق والبذور، وتقلصت مهمة صاحب المطحنة الى مجرد الطحن لقاء تكاليف الطحن، وعملت الحكومة كمشتر ورب عمل في آن. ومن اجل جعل سعر دقيق القمح رخيصا، فقد بيع مباشرة الى الافران، من دون وساطة تجار الجملة.(١٩) ومن اجل اختصار فترة الخبز وزيادة الانتاج، بوشر اعتبارا من ايلول/سبتمبر ١٩٤٩ خبز ارغفة من نوع واحد مستديرة الشكل. ومنذ ذلك الحين، اكل الاسرائيليون «خبزا اسود» ــ ارغفة مستديرة ــ وكل شيء بأمر.(٢٠) وأخذت الحكومة على عاتقها تحديد البائع، والمشتري، والكميات، والأسعار، والوكلاء، وتجار الجملة، وتجار المفرق. وحددت من يشتري وممن، ومنعتهم الشراء من الآخرين: حوانيت بقالة، بائعي خضروات، قصابين، بائعي الألبان، محلات بيع السمك والطيور. وكانت كل عائلة وكل فرد يرتبط بحوانيت معينة قرب أماكن اقامته، ولم يكن في امكانه الحصول على المواد الغذائية المقننة إلا من هذه الحوانيت. وكان أصحاب المتاجر وبائعو الخضروات والقصابون مسؤولين عن توزيع دفاتر القسائم وفق قوائم اسمية. وكانت صفحات الدفاتر مقسمة الى مربعات تمثل «القسائم» وفي داخل كل منها رقم. ان توزيع الدفاتر، وكذلك واجب الحرص على المربعات الملائمة منها، لدى بيع الحصص المقننة، جعلا كل صاحب حانوت وكل قصاب وكل بائع خضروات، وكيلا رسميا له قسط في الجهاز الحكومي، وكل زبون مرتبط به. وقد انيط ايضا، فيما بعد، بأصحاب المطاعم والفنادق جمع القسائم من نزلائهم، سواء كانوا اسرائيليين او سائحين. وكانت حصص المواد الغذائية التي خصصت للبيع تحدد من حين الى آخر، وكانت تحدد مرارا في اليوم وفقا للموجودات، مع محاولة الحفاظ على كمية طفيفة من السعرات الحرارية، اي نحو ٢٦٠٠ في اليوم. وكانت مواعيد التوزيع تنشر في الصحف: «بدأ توزيع الجزر في منطقة ٨ (تل ابيب). الحصة ٢٥٠ غراما للشخص. السعر ٩٥ مليما للكيلوغرام. القسيمة ــ صفحة نون رقم ٢٤.»(٢١)

ضايق النقص [في المواد] الجمهور كله، ووقع العبء اليومي في الأساس على النساء، اذ تجلى ــ اكثر من اي امر آخر ــ في وقوفهن في الدور. وكتبت الصحافية شولاميت ليف آري: «في معظم الحوانيت (الخاصة ببيع الخضروات) في المدينة التي لا تحمل لافتات مكتوب عليها تنوفا او تانا،* لم يكن في وسعك تقريبا الحصول على سلعة طازجة في الصباح. وفي طبيعة الحال، كانت ربة البيت تضطر الى الانتظار حتى ساعات ما بعد الظهر كي تنجز مشترياتها. وبسبب هذه الكثافة في الشراء، في منتصف النهار، نشأ الازدحام وطالت

* اسمان لشركتي تسويق الخضروات والألبان. (المحرر)

الطوابير. ونظرا الى ان السلع التي كانت خاضعة للرقابة تصدر الى السوق بكميات ضئيلة، والى ان الاعلانات الرسمية كانت تعلن عدة مرات في الأسبوع، عن يوم واحد لانفاق ٢٠٠ غرام من الجزر، وفي اليوم التالي ربع كيلوغرام من الموز، الخ، وهكذا دواليك ــ كانت المرأة تضطر الى المجيء الى الحانوت عدة مرات في الاسبوع، على الرغم من ان أحوال الطقس الشتوية كانت تتيح الاحتفاظ بالفاكهة والخضروات لمدة اسبوع كامل من دون ان تفسد. ان التردد على الحانوت مرات عديدة، في اسبوع واحد، شكل عنصرا ضاغطا على زحمة الطابور أمام الحانوت، بصورة يومية تقريبا. ومنذ أوائل ايار/مايو، حين بدأت الايام الحارة، اضطرت المرأة تلقائيا الى الذهاب الى حانوت الخضروات بصورة تكاد تكون يومية. ولأن قسما صغيرا فقط من العائلات يملك ثلاجات كهربائية، ولأن خطر التعفن والفساد السريع للثمار كبير في ايام الصيف، حتى في صندوق الثلج، فقد كانت المرأة مضطرة الى شراء كميات صغيرة كل يوم او كمية واحدة ليومين. وهكذا نشأ وضع ينطوي على مفارقة، اذ انه في الوقت الذي بدأت تتدفق على السوق كميات اكبر وأصناف اكثر تنوعا، كانت الطوابير تطول أضعاف ما كانت عليه في السابق (. . .).»

كان الامر صعبا على بائعي الخضروات ايضا. وكتبت شولاميت ليف آري في تقرير من الغرفة رقم ١٣، في سوق الجملة «علياه» في تل ابيب: «انهم يأتون مسرعين الى هنا للحصول على بضاعة لحوانيتهم. يقتربون من لوحة الاعلانات في الطبقة الارضية من المبنى، ويحدقون الى اللوائح التي يعلقها العاملون في الغرفة ١٣ هناك. وكل واحد منهم يطلب رقمه واسمه بين عشرات الأسماء التي تضمها كل لائحة. لكن اللوائح تخرج من الغرفة ١٣ بالتقطير، لأن البضاعة من خارج المدينة هي الاخرى تنقل ببطء، سيارة تلو سيارة، والى ان يتمكن المراقبون في المخازن من فحص استماراتهم وتسجيلها وتسليمها، والى ان يتم التوزيع داخل المكتب نفسه، تمر ساعة وساعتان وثلاث وأربع وأكثر. وفي الاثناء، يصل عدد بائعي الخضروات الى العشرات، بل حتى الى المئات، اذ انه يوجد في تل ابيب ــ يافا نحو ٣٠٠ حانوت خضروات. انهم يصعدون ويهبطون السلالم ما بين لوحة الاعلانات في الاسفل والغرفة رقم ١٣ في الاعلى، في الطبقة الثانية. ويحتشدون في الردهة الكائنة امام الباب رقم ١٣، وينتظرون (. . .). وفي الاثناء، ثمة حانوت فارغ في احد شوارع تل ابيب. والنساء اللواتي بحاجة الى الخضروات من اجل وجبة الغداء يحملقن داخله ويعدن من حيث اتين؛ ‹لم تصل البضاعة بعد›، تقول زوجة بائع الخضروات او مساعده (. . .).»(٢٢)

حدث شيء من هذا القبيل، أيضا، في صفوف انتظار البيض والحليب واللحم والسمك. وغالبا ما كان هناك حاجة الى الاحتشاد في الصف ساعة بل ساعتين، وأكثر من مرة كان الأوان يفوت: فحتى يحين دور «ربة البيت»، بلغة تلك الايام، كانت الحصص تنفد

وتضطر المرأة الى العودة الى بيتها صفر اليدين. اشتكى حاييم كمحي، الذي سكن ضاحية العاملين في الموشفاه: «ذهبت زوجتي يوم الخميس قبل رأس السنة الى السوق في الخضيرة. ووقفت نحو ساعة في الصف، امام محل القصاب لتتسلم طيرا. وما ان دخلت حتى نفدت الطيور من عند القصاب. ولم تستطع الذهاب الى مكان آخر لأن في البيت ولدين في قيد المعالجة ينتظرانها. ولدى عودتي من العمل في الساعة الخامسة بعد الظهر، ذهبتُ الى قصاب آخر ولم احصل على اي شيء. وقبيل ظهر يوم الجمعة، ذهبت زوجتي مرة أخرى الى القصاب وعادت صفر اليدين. وتوجهت الى المشرف على المواد الغذائية هناك، فواساها بلطف. هكذا هو الترتيب. سوف تتسلمين بعد العيد، في الاسبوع القادم. وعادت زوجتي الى البيت منهكة وغاضبة. وتوجهت الى مكتب دائرة التموين في الموشفاه لشرح الأمر، لكنني وجدت العبارة التالية مكتوبة هناك: يفتح المكتب من يوم الأحد حتى الخميس من الساعة التاسعة الى الواحدة. ولم يكن في استطاعتي الذهاب الى المكتب في هذه الساعات لأنني اعمل خارج الخضيرة.»(٢٣) لم يكن تعسف البيروقراطيين أقل اساءة لهم مما كان يسببه النقص (في المواد التموينية). فقد كتب احد قراء صحيفة «دافار» الى الصحيفة: «ان أناسا عديدين من الذين وقفوا في الصف عشية هذا السبت، عادوا من حيث أتوا. لقد خسروا القسيمة رقم ٢٠ من دفتر القسائم. ولم تكن هذه الخسارة حدثا سيئا، بل كانت نتيجة الافتقار الى المنطق من جانب الذين يحددون القسائم للأغراض المختلفة. لماذا، على سبيل المثال، أعطوا المواطنين لقاء القسيمة ٢١ قبل ان يعطوهم لقاء القسيمة رقم ٢٠؟ بهذه الطريقة تقطع القسائم، ونظرا الى انه لا يمكن استعمالها لغرضين في آن، فانها كانت تتلف. يفقد المواطنون حصصهم، وينصب الغضب على الحكومة كلها (. . .).»(٢٤) وعندما كانت صفحات «دفاتر القسائم» تتفكك، بدا انها تجنح الى الاغاظة، وكان هذا لا يطاق.* وأشار دوف يوسف فيما بعد، بروح الاستبدادية المتحضرة التي استرشد بها، الى انه قياسا بظروف العاملين في الاتحاد السوفياتي، فان عمال اسرائيل يحصلون على ثلاثة أضعاف ما يحصل عليه [العاملون في الاتحاد السوفياتي] من الخبز، وضعفي الحليب، وعشرة أضعاف السكر، وأربعة أضعاف اللحم. وزعم ان «الناس يتدبرون امورهم بالحصص التي كانوا يحصلون عليها، وقبلوا التقشف بروح طيبة. لقد تململوا منه، وتمازحوا، وألفوا عليه الاغاني.»(٢٦) ولم يكن بعض النكات اكثر طرافة، ولم يكن بعض الأغاني اكثر شعرية مما تداولوه وغنوه في الاتحاد السوفياتي.** وبذلت وزارة

* بادرت البيروقراطية الى تصفية صفوف الانتظار الضاغطة على طريقتها، فشكلت «لجنة لتصفية صفوف الانتظار.»(٢٥)

** تبين في استطلاع للرأي العام، اجري سنة ١٩٥٠، ان معظم الاسرائيليين أحسوا بأن وضعهم الاقتصادي قد تدهور منذ اقامة الدولة. واعتقد معظم الذين شملهم الاستطلاع ان الصعوبات =

التموين والتقنين جهودا كبيرة في شرح التقشف، ونشرت بين ما نشرته وصفات للطبخ، منها وصفة ثريد من فتات المصة (نوع من الخبز يصنعه اليهود خلال صوم عيد الفصح)، والسمك واللبن المملحين، وفطائر السردين بالحليب المخفف بالماء، وما شابه ذلك.(٢٨)

وفي آب/اغسطس ١٩٥٠، اي بعد خمسة عشر شهرا تقريبا من تطبيق التقشف على المواد الغذائية، بدأ تطبيقه على المنتوجات النسيجية والجلدية. لم يلزم المستهلكون بالاتصال بحوانيت معينة، لكن اصبح في امكانهم منذ ذلك الحين شراء ملابس وأحذية بكميات مقننة فقط، لقاء «نقاط»: ٨٥ نقطة للملابس في السنة، و ٤٥ للأحذية. «كل مواطن يحصل على ما يستحقه»، هكذا اعلن دوف يوسف أمام الكنيست، مضيفا كمعلم صارم جاء يوبخ تلاميذه: «لو لم يكن الجمهور يتهافت على شراء ما يزيد عن حاجته خلال عام ونصف العام، لما كنا اليوم مضطرين الى ان نفعل هذا.» لقد استند التعليل الاساسي [للتقشف]، كما في الماضي، الى النقص في العملة الاجنبية والى ضرورة استيعاب المزيد من المهاجرين. يقول يوسف: «اذا اردنا للمهاجرين الذين قد يصلون الى البلد في السنة المقبلة ان يكون في قدرتهم الحصول، هم ايضا، على ملابس وأحذية، فانه يجب علينا ان نقلص منذ اللحظة، ومسبقا، ما نشتريه لأنفسنا كي نضمن انه سيكون هناك ما يمكن اعطاؤه للمهاجرين الجدد عندما يحضرون.»(٢٩) وفي الوقت ذاته، جرى توسيع خطط الانتاج «للجميع»، بنوعية منخفضة وشكل واحد وأسعار شعبية تقل حتى ٥٠٪ عن الأسعار السابقة، ومع اشراف محكم على نظام الانتاج في كل مصنع. كانت وزارة التموين والتقنين تحدد منذ البداية نوعية المنتوج، مع خفض النوعية اجمالا، وتصدر تعليماتها بانتاجه وفق نماذج معينة فقط. وبعد تحديد النوعية والنموذج، كان يصار الى تخصيص المواد الخام للمعامل بسعر رسمي مخفض. وجاء في الكتاب السنوي للحكومة على نحو دقيق، انه «في الفترة ما بين ايار/مايو ١٩٤٩ وآذار/مارس ١٩٥٠، تم انتاج ٢,١٥٥,٨١٩ وحدة (لباس) من الانتاج المخصص «للجميع»، و ٤,٢١٠,٢٨٨ مترا من القماش.»(٣٠) وكان ثمة احذية «للجميع»، وحقائب «للجميع»، وأثاث «للجميع»، وثلاجات «للجميع»، تحمل شارات خاصة بنجمة داود كانتاج «للجميع». وكان ثمة صحون للمطبخ، ودفاتر للأولاد، وورق كتابة وغُلف، وورق تواليت، وحقائب كرتون، وحقائب للسيدات، وقبعات رجالية، ومكانس وسطول،

= الموضوعية التي تواجه الدولة كانت، فعلا، من العناصر التي ادت الى تدهور وضعهم. لكن كان الى جانبها مجموعة كبيرة من العوامل الاخرى، بما فيها العيوب في التخطيط، ونقص الفعالية، و «السياسة»، و «الفساد»، وما الى ذلك. وقد تذمر صناعيون وتجار وأرباب مهن حرة من تدهور كبير في وضعهم. وكان لدى بعض الموظفين والعمال ميل نحو القول ان وضعهم ظل من دون تغيير، او انه تحسن قليلا.(٢٧)

وعربات للأطفال ودراجات نزهة للأولاد. وقد عدد الكتاب السنوي للحكومة البنود بفخر، واحدا واحدا، وأطرى أسعارها المخفضة، ووصفتها صحيفة «معاريف» بأنها «كل شيء للجميع.»(٣١)

لقد روى عاموس كينان عندما كان في الجندية القصة الواقعية التالية:

«أخيرا دخلت الحي الجديد. شقة من غرفتين في مبنى جديد قائم على اعمدة في الشارع ٢٣، المجموعة ١٢، مدخل ٥، شقة ٧. اخذت شاحنة ونقلت فيها الأثاث: خزانة للجميع، طاولة للجميع، كراسٍ للجميع، وخزانة كتب للجميع، أرائك للجميع، راديو، اريكة للجميع، صورة لهيرتسل وخريطة ارض ـ اسرائيل. كانت زوجتي مسرورة للغاية، وكذلك كان الولدان. رتبت زوجتي الأثاث في الغرفتين، وبسطت السجادة، وقالت اننا سنبدأ منذ الآن حياة جديدة. ذهبت الى العمل مسرورا ومرتاحا. وعدت الى البيت في الليل متأخرا، وتعبا. تذكرت اني اسكن حيا جديدا، شارع ٢٣، مجموعة ١٢، مدخل ٥، شقة ٧. صعدت السلالم وقرعت جرس الباب. من الداخل، تناهت الى مسامعي صيحات الولدين، فبدأت اخرج من جيبي الحلوى التي احضرتها لهما. فتحت المرأة الباب، وقبلتها على جبينها، وسألتني عن أخبار المكتب. ثم جلست على أريكة للجميع، وجلس الولدان على ركبتي وبدآ يعبثان بشعري. وكان بن ـ غوريون يتحدث في الاذاعة عن زيادة الانتاج وخفض الاستهلاك. وكانت تصطف على رفوف خزانة الكتب في صف خلفي جميع مؤلفات بيالك،* ومؤلفات بيرل، ومؤلفات هيرتسل، وموسوعة عبرية، وكتب بن ـ غوريون. وكانت الزهور موضوعة على الطاولة، وتتألق على السرير سجادة جديدة، وأخرى على ارض الغرفة. تحدثت المرأة عن صعوبات الوقوف في صف الانتظار لدى بائع الخضروات، وتحدثت انا عن احتمالات رفع الاجور. قالت لي المرأة: «يوسي، انا تعبة».

ـ اية فطنة هذه، قلت، منذ متى انا يوسي؟

ـ ماذا تعني بقولك هذا؟ سألت المرأة: انت يوسي مذ عرفتك. منذ ذهبنا معا الى الحديقة ووقعنا في الحب. منذ اتخذتني زوجة لك.

ـ عفوا، قلت للمرأة، يبدو انه حدث سوء تفاهم. انا اسكن شارع ٢٣، مجموعة ١٢، مدخل ٥، شقة ٧.

ـ يا لها من غلطة مؤسفة، قالت لي المرأة: هنا شارع ٢٢، مجموعة ١١، مدخل ٤، شقة ٦.

ـ في الحقيقة لا ضير في ذلك كله، قلت للمرأة: انني تعب ومستعد للبقاء هنا دوما.

ـ تفضل، قالت المرأة، لا مانع عندي. ما هي درجتك؟

* شاعر عبري معاصر. واسمه بالكامل حاييم نحمان بياليك. (المحرر)

ـ الدرجة نفسها، اجبت.

ـ حسنا، قالت المرأة، عليك فقط ان تتذكر منذ الآن انك تسكن في شارع ٢٢، مجموعة ١١، مدخل ٤، شقة ٦. ومنذ الآن تستمر الحياة كالمعتاد، لكن من اجل المزيد من التأكد كتبتُ على الباب: الرجاء ان تقرع الجرس مرتين.»(٣٢)

طلب من دوف يوسف عدة مرات ان يصعد الى منصة الكنيست ليدافع عن نظام التقشف. وكما كان خطابه الاول، كذلك كانت خطبه اللاحقة، مثقلة الى درجة الاعياء بالمعطيات الاحصائية وبأدق التفاصيل. وقد اكثر الاستناد الى خبراء دعاهم، جميعهم، من انكلترا. وبدا ان الوزير يقرأ من كتاب جردة محتويات احد المخازن، وبدا انه يقرأ من كتاب طبخ. فعلاوة على ما عكسته عقلية هذا الرجل، عكست خطبه نمط التفكير القائم وراء برنامج التقشف، وعكست أيضا عمق التغلغل الذي كان من المفروض بهذا النظام ان يدخل في صلب الحياة اليومية وحياة الفرد في كل منزل. وفيما يلي بعض المقاطع:

- «... ان حقيقة انه لا توجد زبدة لا تعني شيئا، لأننا نوفر السمن النباتي بسدس السعر وندخل فيه الفيتامينات التي تضمن عدم انخفاض مستوى السمن عن مستوى الزبدة؛ هذا امر يعرفه كل رجال العلم في العالم (...) انني اعلن بادراك كامل ان قائمة الطعام هي على ما يرام تماما، وأنا مسؤول عن عدم موت احد من الجوع، بل سيحافظ على كامل عافيته (...).»(٣٣)
- «... هنالك دول، كفرنسا مثلا، معروفة بطيب مآكلها بالذات، وهناك يحب الشخص سمكة صغيرة، وهو يعتقد ان اللحم اطرى وألذ. أما اليهود فهم يحبون «اي فش!» (سمكة معروفة). واذا لم نعط لليهودي «اي فش» نوعية، فانه يعتبر انه لم يحصل على شيء. وعندما نريد ان نبيع له سمكا صغيرا، فانه لا يريد ان يدفع الثمن. وهذا يسبب صعوبة (...).»(٣٤)
- «(...) تظهر الأرقام ما وعدت باعطائه للجمهور في قائمة الطعام الخاصة بنا، وما اكله الجمهور فعلا في شهر تشرين الاول/اكتوبر. وأستطيع ان اعلن لكم ان الجمهور اكل اكثر مما اعتبرناه آنئذ كافيا له، وليس اكثر قليلا.

  مناحم بيغن: هل يستطيع الجمهور ان يأكل أرقاما؟

  دوف يوسف: في امكانك ان تأكل من دون قيود الخبز المتوفر. وفي امكانك ان تأكل من دون قيود السمك المثلّج المتوفر لدينا، وان تأكل الحبوب، والنقولات، والسميد، واللبنة، والجبن الابيض، من دون قيود. في امكانك ان تأكل الكيلو ونصف الكيلو من السكر الذي لديك في الشهر (...).»(٣٥)
- «(...) سنضطر الى تقليل حصة اللحم وجعلها ٥٤٠ غراما للشخص في الشهر. وليس

هذا رقما متوسطا، لأنه ينبغي لنا ان نضيف الى ذلك ما يتلقاه المرضى والذين يقومون بأعمال جسدية صعبة، وغيرهم ممن يجري استثناؤهم. وفي المتوسط، سيكون هنالك ٦٠٠ غرام من اللحم للشخص في الشهر. وذلك يعني ان الكمية ستكون اقل بـ ٢٥٠ غراما عندما بدأنا نظام التقشف. لقد رفعنا الرقم، خلافا لرأيي، نتيجة ضغط الجمهور. لكن الوقائع اثبتت ان وزارة التموين والتقنين كانت على حق حين رفضت زيادة حصة اللحم قبل بضعة اشهر. والآن علينا ان نجعل الرقم ٦٠٠ غرام متوسط [حصة] الشخص في الشهر. أما حصة السكر فسنضطر الى جعلها كيلوغراما واحدا للشخص في الشهر (...) هكذا نتوصل الى تقنين الشوكولا والصابون المعطر. ونحن نأمل بألا نضطر الى تقليص كمية الصابون، إلا من اجل تنظيم الاستعمال فقط، بحيث يمكن لكل واحد ان يتسلم ما يصل اليه (...).»[٣٦]

- «(...) ليس ثمة اي اساس لتصريحه (تصريح عضو الكنيست ناحوم نير) ان الولد الصغير لا يمكنه ان يعتاش بـ ١٥٠ غراما من اللحم، و ٥ بيضات في الاسبوع. يمكنه ذلك بالتأكيد. هنالك ما يكفي من الغذاء، فيما عدا البيض واللحم، غذاء صحي ومغذٍ. وسيستورد البلد كميات معينة من مسحوق البيض، سيخفف النقص الى حد ما (...).»[٣٧]

- «(...) اذا تزوج اثنان فسنوفر لهما عددا من النقاط يمكنهما من شراء ملاءات وأغطية وما شابه، كي يبدآ حياتهما الزوجية (...).»[٣٨]

- «(...) قالوا لي: ما هذا؟ ٧٠ نقطة فقط للنساء الحوامل؟ ان هذا لا يكفي لثوب وحفاضات. ايها السادة، انني ارفض هذا الادعاء. ان الحفاض يكلف نقطتين. وفي امكان المرأة ان تشتري عشرة حفاضات، او ١٢ حفاضا بـ ٢٤ نقطة. (صيحات: هذا لا يكفي!) ويبقى لها ٤٦ نقطة. في استطاعتها ان تشتري ٣ أثواب اخرى للطفل وبطانية له، وحتى ثوبا لها (...).»[٣٩]

- «(...) ان الثوب المحاك وفق موضة جديدة جميلة، والذي يرتفع سعره كثيرا عن اي ثوب آخر محاك وفق موضة اكثر بساطة، لا تزيد نقاط سعره كثيرا عن الثوب البسيط، اذا لم تكن كمية القماش اكبر. واذا كان الثوبان يتضمنان كمية القماش نفسها، فان السعر المختلف لا يؤثر في النقاط. وليس لدى النساء اللواتي يردن شراء أثواب أغلى ثمنا، وفق موضة احدث، ما يخشين، اذ في امكانهن الاستمرار في شراء أثواب غالية يعتقدن انها اجمل (...).»[٤٠]

- «(...) سأل عضو الكنيست لانداو عما يستطيع شخص ان يشتري لقاء ٨٥ نقطة للملابس، و ٤٥ للأحذية؟ (...) سروال كاكي قصير بـ ١١ نقطة، سيدي، ويمكن

الحصول عليه بـ ٩ نقاط. قميص كاكي ـ ١٤ نقطة. ملابس داخلية ـ ٦ نقاط. زوجان من الجوارب ـ ٦ نقاط. ثوب نوم ـ ١٢ نقطة. ولست ملزما ان تشتري ثوب نوم من الفلانيلا بالذات، بل يمكنك ان تكتفي بثوب نوم من القطن (...) يقول عضو الكنيست مازور انه يلزم انفاق ٧٢ نقطة من اجل زوج من السراويل. معاذ الله، سيدي، هذا ليس صحيحا (...).

لانداو: سنضطر الى السير من دون سراويل على الاطلاق! (...).»[٤١]

- «(...) لم التق حتى الآن في الشارع شخصا عاريا او حافيا (...) يطلقون الصراخ في شأن الأحذية. ان احدهم يخشى ألا يكون قادرا إلا على شراء زوج واحد من الأحذية.

صيحة: فردة حذاء فقط!

يوسف: من يخشى ذلك لا يكون إلا على خطأ. سنصرف ٩ نقاط في هذا الشهر، وكذلك في الشهر المقبل أيضا. واضح انه بهذه النقاط التسع الاولى لن يكون ممكنا شراء زوج من الأحذية. لكن بـ ١٧ او بـ ١٨ نقطة سيكون في امكان المرأة ان تشتري زوجا من الأحذية، مما يعني انه سيكون عليها ان تنتظر شهرا آخر (...) صحيح انه يمكنها ان تقول انني اريد بالضبط حذاء مصنوعا بكامله من الجلد، ومثل هذا الحذاء يتطلب ٢٥ نقطة. لهؤلاء النساء اقول: اذا لم يكن بامكانهن الحصول على ذلك الحذاء المصنوع بكامله من الجلد، فالرجاء ان ينتظرن. واذا كن يردن حذاء ذا نعل مطاطي، لا يقل متانة عن غيره ويخدم طويلا، فان في امكانهن شراءه بـ ١٧ نقطة (...) واذا كانت العائلة تضم اربعة أشخاص في المتوسط، وكان الأب مضطرا الى شراء زوج احذية الآن بالذات، وهو بحاجة الى ٣٣ نقطة، فليأخذ كل نقاط العائلة ويشتري بها زوجا من الأحذية. وفي الشهر التالي، يأخذ نصف نقاط العائلة، ويشتري حذاء لزوجته وآخر لأحد الاولاد. وسيكون في امكانه في الشهر الثالث ان يشتري حذاء لولد، وهكذا سيكون في امكانهم جميعا ان يشتروا احذية حتى فصل الشتاء، حتى اذا لم يكونوا جميعا بحاجة الى احذية (...) واذا كان عازب بحاجة الى زوج احذية هذا الشهر، يأخذ الـ ٩ نقاط حصته ويذهب الى اسكافي ـ هنالك ١٢٠٠ اسكافي في البلد ـ يصنع لحذائه نعلا وكعبا من الجلد او من مادة اخرى، فيكون لديه زوج من الاحذية الجيدة في امكانه ان ينتعله لنصف عام. صحيح ان هذا الحذاء لن يكون جديدا، لكنه سيكون جيدا (...) ليس من العيب ان ينتعل المرء حذاء مرقعا. وأنا اخشى ان نضطر جميعا، خلال عام او عام ونصف العام، الى انتعال احذية مرقعة، ولن يكون في ذلك فاجعة. وبذلك يصبح لأصحاب المهن، للخياطات

والخياطين، عمل كثير كما لم يكن لديهم من قبل. ان هذا القطاع أيضا لا يقل اهمية عندنا عن غيره (. . .).»[٤٢]

- «(. . .) انني اعتقد انه اذا لم نمكّن، من ناحية، ٣٠٠ ــ ٥٠٠ شخص من شراء اريكة بـ ١٥٠ ليرة، وعوضا من ذلك مكّنا، بواسطة المنتوجات «للجميع»، ٢٠,٠٠٠ شخص من شراء اريكة بـ ٢٠ ــ ٢٥ ليرة، فانني اعتقد اننا بذلك نرفع مستوى معيشة الشعب بكامله (. . .) سنعطي الأثرياء الذين بيننا الأشياء ذاتها التي نعطيها لباقي أفراد الشعب، لكن ليس اكثر من ذلك (. . .).»[٤٣]

- «(. . .) انني اقصد الأطباء والمحامين الجدد الذين سيكونون بحاجة الى شراء معاطف لهم. كل محام يكون لديه معطف، سواء أكان اشتراه منذ عشرة أعوام ام منذ عشرين عاما، لن نسمح له بشراء معطف جديد. ان المعطف القديم دليل على الاحترام، وعلى العراقة. لكننا سنعطي المحامي الجديد معطفا جديدا (. . .).»[٤٤]

- «(. . .) وجد أعضاء محترمون ان من الضروري ان يطرحوا معي موضوع ممسحة الأرض: ٥ نقاط للممسحة. صحيح، مطلوب ٥ نقاط للممسحة ايها السادة، ومن الجرم اليوم ان يصنعوها من الصوف والقطن الصافي. لماذا لا يمكن انتاجها من بقايا قطع القماش الهالكة؟ لن نسمح في المستقبل بانتاج مماسح كتلك، وعندها لن يكون هناك حاجة الى ٥ نقاط، بل الى نقطة واحدة، وممسحة كهذه تمتص اكثر. هذا ما اكده لي الخبراء (. . .).»[٤٥]

استوجب ذلك كله جهازا اداريا كبيرا للاشراف. وادعى دوف يوسف دائما ان عدد المشرفين الذين تسمح ميزانية وزارته بتوظيفهم لا يكفي. وقال: «اننا لا نوظف حتى خُمس عدد الموظفين الذين يتطلبهم تنفيذ عملنا. اننا نقوم بأشغال شاقة. ولا يكاد يكون في وزارتي أشخاص يعملون اقل من ١٠ ــ ١١ ساعة في اليوم. ويعمل المشرفون أحيانا طوال الليل، ويأتون الى المكتب صباحا كي يعملوا ٨ او ٩ او ١٠ ساعات من عملهم، وذلك لأنه ليس لدينا إلا ٣٥٠ مشرفا في البلد كله.»[٤٦] وقد نقلت اليهم مهمتهم الكثير من الاحباط، لأن الاسرائيليين يلجأون الى الغش كلما عرفوا اليه سبيلا ــ وكانوا يعرفون السبيل. فالحليب خلطوه بالماء، واللحم بالخبز. وقد استحصل الآلاف وعشرات الآلاف منهم، من اطبائهم، على تقارير مرضية متنوعة تؤهلهم الحصول على مزيد من حصص الغذاء. ففي تل ابيب وصلت نسبة المواطنين الذين «مرضوا» فجأة، لدى تطبيق التقشف، الى ١٥ ٪ من مجموع السكان.[٤٧] وقد سجل دوف يوسف في مذكراته عددا من أساليب الغش: «اكتشفنا انه عندما كانت تخصص كمية معينة من الجلد لأحد الصناعيين من اجل انتاج عدد معين من

الأحذية، كان ذلك الصناعي كثيرا ما يغير شكل الحذاء الى شكل يتطلب جلدا اقل، وكان في امكانه ان ينتج بهذه الطريقة كمية اكبر من الأحذية بحيث يذهب الباقي الى السوق السوداء. واضطررنا الى ان نقيد، بأمر، النماذج وعدد النماذج من الأحذية التي يمكن انتاجها. وكان بعض منتجي المواد الغذائية يضعون في منتوجاتهم كمية من السكر تقل عما اتفق عليه مع الوزارة، وكانوا يبيعون الفائض او يستعملونه في صنع منتوجات اخرى (. . .).» وعلاوة على الرقابة على المعامل الصناعية والمخازن والحوانيت، كان من المألوف ان يصار الى ايقاف وسائط النقل لمراقبتها، والى ارسال مراقبين لتفتيش المنازل الخاصة.

يقول يوسف: «كشف المراقبون عن حافلة لشركة تنتج السمن النباتي، تنقل داخل صناديق السمن ٣٥ طيرا مذبوحا الى السوق السوداء. وكشف المراقبون عن مخبأ داخل باص، وفيه عجل حي و٦ طيور و٢٠٠ بيضة.»[٤٨] وكان يوسف ينقل، من حين الى آخر، تفاصيل مشابهة من على منصة الكنيست بدقة كبيرة، كعادته، وتشدد: «وجدنا في احد البيوت ٤٠ كلغ من اللحم، وكان في الشقة ٣ زبونات عندما جئنا للتفتيش (. . .) وفي بيت آخر، وجد ١٨ كلغ من اللحم، وفي بيت آخر ١٥ طيرا، وفي بيت آخر صندوق و ١٥٠ طردا من الشاي (. . .) وفي احد البيوت، وجدت ١٠ طيور و٨٧ بيضة. ووجد في شقة اخرى (. . .) ٣ كلغ من اللحم و ١,٥ كلغ من الكبد. وفي احد البيوت وجد ٣٠ كلغ من اللحم و ٢٠ لترا من القشدة، وهي سلعة يمنع القانون انتاجها اجمالا (. . .).»[٤٩]*

---

* دخلت الرقابة العسكرية، التي فرضت على الرسائل الواردة والصادرة، بدورها، في صراع ضد السوق السوداء وضد تهريب العملة. فقد اعتاد الرقيب الرئيسي لوزارة البريد ان يرسل الى دوف يوسف خلاصات شبه استخباراتية تشتمل، بين امور اخرى، على تفاصيل الوضع الاقتصادي للشركات الاجنبية التي كان لها علاقات تجارية بالحكومة، بما في ذلك نسخ مصورة لتقارير في شأن اللقاءات التي أجراها مستثمرون من خارج البلد مع دوف يوسف نفسه. وبناء على طلب الوزير، فتحت الرقابة الآن الرسائل للوقوف على مدى استعداد اليهود الذين يسكنون خارج البلد لاستثمار رؤوس أموالهم في اسرائيل. وفي شهري نيسان/ابريل وأيار/مايو ١٩٤٩، فتحت الرقابة اكثر من ٥٠٠٠ رسالة مرسلة من اسرائيل الى سويسرا، اي نحو ١٠ ٪ من مجموع الرسائل التي أرسلت على هذا الخط. ونتيجة ذلك، حدد الرقيب أسماء ٣٦ مواطنا اسرائيليا، وأدرجت الأسماء في «القائمة السوداء»، بحسب قوله: لقد خضعت كافة المراسلات التي بعثوا بها او تلقوها، منذ ذلك الحين، لرقابة مشددة. وقد أضيفوا الى الـ ١٨٥ اسما التي كانت قد أصبحت في «القائمة» السويسرية. لقد قام الرقيب بعمله برغبة، وجهد في أن يوصل الى دوف يوسف وسائل الغش التي نجح في اكتشافها. فقد كتب مرة: «يبعث فان كلينغ في لوزان، مثلا، بالنقود الى ابيه في تل ابيب. ويتضح من رسالته انه يبعث بالنقود بواسطة يعقوب فيل، زوريخ. وفيل يتراسل مع د. تيريزا باك، شارع هيلل ٣ في تل ابيب. إن تبادل الرسائل بين فيل وباك يظهر لنا أنه يجري هنا تحويل الأموال بالشيفرة. لكننا لو عرفنا شيئا عن هذين الاثنين من رسالة كلينغ، لكنا تركنا هذه الرسائل من دون الارتياب من الشيفرة.»[٥٠]

في السنة ذاتها، جرى تسجيل حادثي قتل، نفذا بسبب عمليات السوق السوداء: كان واحد من الضحيتين قصابا من تل ابيب، أما الضحية الثانية فتعمل في تهريب سجائر «كَمِل» الأميركية.* وكان هذان الحادثان شاذين، طبعا: فقد عرف معظم الاسرائيليين كيف يدبرون امورهم بطريقة ابسط، من دون التورط اكثر من اللزوم. فثمة من كان يربي دجاجا لفقص البيض على شرفات البيوت. وكان ثمة من احتفظ بأرانب في ساحات المنازل، وكان لديهم علاقات: هذا له جار صهره مقرب من جهاز الاستيراد، وذاك يملك ابن عمه مزرعة في احدى المستعمرات. وهناك من له ابن مريض يؤهله مرضه للحصول على حصة معينة من البيض، ولكن بسبب مرضه يمنع عليه اكل البيض بتاتا، فتكون بضاعة قابلة للمقايضة: البيض في مقابل الزبدة او اللحم. وغالبا ما كانت مدبرات المنازل يجلبن البضائع الى بيوت سيداتهن. فقد كانت عائلة مدبرة منزل احد مراسلي «معاريف» تتألف من ١٢ شخصا: ثمانية فتيان وأربعة بالغين. وكانت تتلقى، بحسب الحصص المخصصة لها، ٥٢ بيضة في الأسبوع ونحو ١٥ كلغ من السكر في الشهر. وروى الصحافي: «ان هذه العائلة لن تستهلك أبدا، ولن تستهلك على الاطلاق، هذه الكمية من البيض والسكر. وهي تبيع جزءا كبيرا من حصصها بواسطة البنات الى ربات البيوت التي يعملن فيها.»(٥١) وكان ثمة من لا يستطيع دفع ثمن الحصص المخصصة له، فيضطر الى بيعها في السوق السوداء. لقد تطورت السوق السوداء بالتدريج كلما كانت انظمة التقشف والرقابة تثقل الجمهور، وكلما كان في أيدي الجمهور فائض من النقد يدفعه لقاء العرض في السوق السوداء. ونشأ الفائض في النقد نتيجة التمويل التضخمي لنشاطات الحكومة. وازدادت الكتلة النقدية المعروضة في سنة ١٩٤٩ بنسبة ٣٨,٥ ٪ قياسا بالسنة التي سبقتها. وفي السنوات ١٩٤٩ ـ ١٩٥١، ازدادت الكتلة النقدية المعروضة بنسبة سنوية متوسطة، مقدارها ٣٤ ٪. وقد وجد نداف هليفي وروت كلينوف ـ ملول، من الجامعة العبرية، انه في حين ازدادت كمية النقد بنحو ١٤٠ ٪، فان مؤشر الأسعار للمستهلك (الذي لا يشتمل على أسعار السوق السوداء) ارتفع بنسبة ١٦ ٪ فقط. وبكلمات اخرى، فان الناس كان لديهم نقود، لكن التقنين حال دون انفاقها. ولذلك اتجهوا الى السوق السوداء.(٥٢)

وقد وصل جزء كبير من البضائع الى [السوق السوداء] نتيجة سياسة التوزيع بالتساوي بين الجميع، وبطريقة موحدة، بحسب ما حدد وزير الزراعة، بنحاس لافون، في خطاب فريد في نوعه، تحدث فيه بالتفصيل ـ بصورة منهجية وواضحة، للمرة الاولى ـ عن مصادر تموين السوق السوداء. وقال ان ثمة بضاعة تصل مباشرة من المنتجين، والكيبوتسات من

* حكم على قاتلَيْ تاجر السجائر ـ وهما عربيان من حيفا ـ بالموت شنقا، وكان ذلك [الحكم] الأول في تاريخ الدولة، ثم أُلغي بعد ذلك.

بينهم. وثمة بضاعة تصل من تجار الجملة، وتشكل هذه وتلك جزءا من أعمال الغش المخططة. وكانت ثمة كميات ضاعت خلال وزنها، او احصائها، او تعبئتها، او نقلها، او ما شابه ذلك. وعلى الرغم من ان هذه الكميات تشكل ١ ٪ فقط من البضاعة، فانها كانت كبيرة. وكان ثمة من وجد «الضائع» وأوصله الى السوق السوداء. وكان هنالك تهريب من خارج حدود البلد ومن داخله. وطالب لافون بالتقليل من اهميته، مدعيا انه «لا تهرب ألف بقرة للذبح»، لكنه اقر بوجود «تهريب معين» وأنه يتسبب بايجاد «سوق سوداء معينة». وأكد انه هو الذي ألغى القيود المفروضة على ارسال طرود المواد الغذائية من الخارج الى اسرائيل. وقال: «لقد فعلت ذلك مع علمي الاكيد انه ربما تذهب نسبة معينة من هذه الطرود الى السوق السوداء. اذا وصلنا اليوم الى ١٢٠ ألف طرد في الشهر، وحتى اذا افترضت افتراضا مبالغا فيه للغاية (وأكرر: مبالغا فيه للغاية) ان ١٠ آلاف طرد تذهب الى السوق السوداء، وان ١٠ آلاف طرد كفيلة بأن تؤدي الى قيام سوق سوداء هائلة، فاننا سنواجه سؤالا يتعلق بالسياسة ويتطلب الاجابة عنه: (...) ما الافضل بين الاثنين: المزيد من المواد الغذائية لـ ١٠٠ او ١٥٠ ألف عائلة اخرى، اي نحو ٤٠٠ ألف شخص، او القلق في شأن ان يتضرر احد ما، لا سمح الله، بسبب تسرب معين لعدد من الطرود الى السوق السوداء.»(٥٣) لقد كانت الطرود الآتية من الخارج من ملامح هذا الجيل، مثلما كانت صفوف الانتظار والقسائم والفيليه. وكانت تصل من الاقارب والاصدقاء موضبة للاستعمال الفردي، وكانت تصل بكثافة ومحتوياتها واحدة: كانوا يستحصلون عليها بواسطة ايصال خاص ذهبي اللون ـ «سكريب» [Scrip] بالانكليزية ـ يكاد يكون مرادفا للمقانق ولوجبة طعام معلبة ومعدة من اللحم والتوابل [Goulash]، وللكاكاو والحليب المحلى ـ وهي ملذات يحلم بها المرء.*

في النصف الثاني من شهر ايلول/سبتمبر ١٩٥٠، تفرغ دافيد بن ـ غوريون من كل مشاغله، وحاول خلال ثلاثة ايام متتالية دراسة مشكلة السوق السوداء، وتعيين طرائق لتصفيتها.** وقد اغرق رئيس الحكومة نفسه في ادق التفاصيل، طوال ساعات عديدة.

* جزم رئيس الدائرة الاقتصادية في الشرطة: «اثبتت التحقيقات التي اجريت مع بعض الشركات الخاصة باستيراد المواد الغذائية ان ٩٩ ٪ من المواد الغذائية، التي تصل بواسطة هذه الشركات، ليست موجهة الى مستلمين حقيقيين، وانما كان يتم تسويقها الى السوق السوداء (...) وقد استغلت المؤسسات الخيرية، على اختلاف أنواعها، وصناديق الأحزاب وغيرها من محولي الاموال، طريقة السكريب من اجل ارسال شهادات هبة الى مؤسساتهم كي يجعلوا قيمة مخصصاتهم اكبر من تلك التي كانت تدفعها الحكومة (...).»(٥٤)

** كان بين الذين حضروا هذه المشاورات، عدا رئيس الحكومة، الوزيران دوف يوسف وغولدا مئير، ومستشار الحكومة القانوني هرمان حاييم كوهين، ورئيس جهاز الامن ايسر هالبرين (هارئيل)، والمفتش

وأراد ان يعرف كل شيء عن مواد البناء، والحديد، والخشب، وأسعار الشقق: هل تهبط اذا تولت الحكومة بناءها بنفسها؟ (ردوا عليه بالايجاب)؛ اللحم والخضروات والشاي: هل يمكن زراعة الارز في اسرائيل؟ (ردوا عليه بالنفي)؛ لماذا ارتفع سعر أحواض الحمامات؟ (ردوا عليه بأن ذلك جزء من هوس عام)؛ هل يحب المواطنون الفيليه؟ (ردوا عليه بأن أبناء الطوائف الشرقية يفضلون الشبوط ـ سمك نهري). وفيما يلي مقتطفات من محاضر الجلسات:(٥٥)

آبا حوشي: ان الوكالة اليهودية هي اكبر مستورد لمواد البناء. وهي تعطي الكيبوتسات مواد البناء بدلا من الأموال. ولدينا مادة تتعلق باثنين وعشرين حادث سوق سوداء من جانب الكيبوتسات. وقد حققت الهستدروت في ١٤ منها، ورفعت دعاوى قضائية على الأخرى. وبين الاثنين والعشرين حادثا هذه، هنالك كيبوتسات باعت مواد بناء تلقتها من الحكومة او الوكالة. وقد كشف الأمر بطريقة مثيرة للغاية. ثمة قرية اسمها شمرياهو، وهي موشافاه يقطنها في الغالب مهاجرون من ألمانيا، وقد دون مدير حسابات القرية في الدفاتر ما يلي: «اشتريت ثلاثة أطنان بذور لاطعام الطيور، بسعر رسمي، و ٦ أطنان بسعر السوق السوداء.» وكذلك حدد الكيبوتس الذي باع هذه البذور.* (...) في فرنسا وايطاليا، يقيم تجار يصدرون المواد الغذائية الى البلد بواسطة المهاجرين. ويبيع المهاجرون هذه المنتوجات قرب معسكر شاعر هكلياه. عندما رووا لي هذا الامر، عبرت عن رغبتي في أن أذهب الى هناك في الليل كي أرى ما يجري. انذروني بأن اكون حذرا؛ فقد اتلقى طعنة سكين في جسمي. ولذلك، ذهبت الى هناك، لكن ليس بمفردي. ولدى وصولي رأيت سوقا مكشوفة فيها مئات

= العام للشرطة يحزقئيل سوهر، وعدد من أعضاء الكنيست وعدد من نشيطي الوكالة، بمن فيهم ليفي اشكول، وعدد من العاملين في الهستدروت، وموظفون لا عد لهم.

* في تشرين الاول/اكتوبر ١٩٥٠، توجه المستشار القانوني، حاييم كوهين، الى رئيس الحكومة وروى له بعض الوقائع عن ثلاثة كيبوتسات ـ بيت هشيطا، ومعوز (معوز حاييم)، وسديه إلياهو ـ اتهمت بسلسلة من المخالفات لأنظمة السوق السوداء، معظمها رفع أسعار بصورة فاحشة. وقد قدمت الكيبوتسات الثلاثة للمحاكمة. فوكلت المحامي يعقوب شمشون شابيرا، مستشار الحكومة القانوني سابقا ووزير العدل فيما بعد، الذي ادعى في معرض الدفاع عنها ان ليس لدى المحكمة اية صلاحية لمقاضاة كيبوتس باعتبار انه ليس «شخصية طبيعية». وقال كوهين لبن ـ غوريون: «ان ألمي ازاء هذه الواقعة، التي لا استطيع ان أرى لها تبريرا، لا من الناحية القانونية التقنية ولا من اية ناحية اخرى، هو اكبر كثيرا بسبب ما فعله أشخاص وقطاعات يتبجحون بالوقوف الى جانبك وجانب الحكومة في حربنا لاجتثاث الشر.»(٥٦) حتى ذلك الحين، جرت العادة على انهاء المسائل التي من هذا النوع «داخل العائلة»، وتقديم الكيبوتسات المخالفة الى «محكمة الهستدروت».

الأشخاص، يعملون من دون ما يزعجهم.*

دوف يوسف: ان أصحاب مصنع «ليبر»، وكذلك أصحاب مصنع «ت. د.» (السيد ت. دوفلسكي)، قدموا الى المحاكمة. وكذلك رفعت دعوى ضد مصنع «عليت» (...).

بن ـ غوريون: كيف أصحاب مصانع كبيرة كهذه يلجأون الى عمليات التداول التجاري في السوق السوداء؟! انهم بالتأكيد أصحاب ملايين.

حوشي: في أيام الانكليز، أيضا، جمعوا ثروتهم عن طريق مثل هذه النشاطات. وفي بعض الأحيان، يمر عام وربع عام حتى يقدم متهم بالاتجار في السوق السوداء الى المحاكمة. ومعظم الأحكام الصادرة خفيفة الى درجة انه يصبح من المجدي ارتكاب هذا الذنب.

بن ـ غوريون: هل يمكن فرض غرامة ٢٠ ألف ليرة على السيد ليبر؟

يوسف: يمكن حتى وضعه في السجن!

(...).

يحزقئيل سوهر: اذا سألت عن السعر (...) في احد الحوانيت في تل ابيب، يجيبونك بأنه كذا وكذا بالنقاط، وكذا وكذا من دون نقاط.

يوسف: نحن نرسل رجالنا، ونقبض على الذين يقومون بمثل ذلك.

بن ـ غوريون: في امكاننا حشد ٥٠٠ عضو هستدروت في تل ابيب يذهبون الى الحوانيت للشراء، من اجل استقصاء هذا الامر.

سوهر: جاء الى بيتنا يهودي وعرض بيضا بـ ٨٠ مليما للبيضة الواحدة. ولحسن حظه، لم اكن تلك الساعة في البيت.

دوف يوسف: لو امكننا ان نضع في السجن دزينة من التجار، لكنا وجهنا بذلك ضربة قاسية الى السوق السوداء.

(...).

سوهر: اذا اعتقلت نحو ١٠٠ يهودي على هذا النحو، فلن يبقى لك سجون في الدولة تضعهم فيها.

بن ـ غوريون: ليس من الضروري معالجة امر الصغار [صغار التجار] وانما الأغنياء فقط (...) انا اريد ان تحصل على بعض السارقين ليعملوا لمصلحتنا (...) لقد سمعنا انه

* اقر بنحاس لافون في الكنيست انه اصدر تعليمات بعدم تفتيش المواد الغذائية المهربة بين امتعة المهاجرين. وبحسب قوله، كان خطر وصول كمية معينة من المواد الاستهلاكية الى السوق السوداء اقل من خطر «المشاجرات والمنازعات» واللطمات مع مهاجرين في يوم وصولهم الى البلد عبر ميناء «التحرير في بلادنا (...).»(٥٧)

حدث اكثر من مرة انه في اثناء نقل بعض المواد من مكان الى آخر، كان جزء منها يسرق. كنت اريد ان يحاول عدد من السارقين ان يسرقوا لمصلحتنا كي نعرف اين تختفي البضائع.

سوهر: ان الأغلبية العظمى من السارقين تقيم حاليا في السجن.

حوشي: لقد ألقينا القبض، منذ زمن غير بعيد، على مراقب كشيروت كان يهرب لحم خنزير.

(. . .).

بن ــ غوريون: انني اريد ان يعرفوا الآن في البلد انه قد بدأت حرب جدية ضد السوق السوداء، وسيكون من المفضل اذا عوقب عدد من الأثرياء، الذين هم جباة للكنس ومحترمون في أوساطهم، بسبب مداولاتهم في السوق السوداء، وأمضوا بضعة اشهر في السجن (. . .).*

عاموس لندمن: ثمة هنا حالتان ليس من السهولة الى هذا الحد التغلب عليهما. في الحالة الاولى، ثمة يهودي لا يريد ان يسلم يهوديا آخر الى السلطات، حتى لو كان ذلك داخل دولة اسرائيل، والمقصود هو الشرطة الاسرائيلية. اننا نواجه هذه الحقيقة فيما يتعلق بالعاملين لدينا، الذين يجب، في الواقع، ان يكونوا مسؤولين عن المخازن والمستودعات. عندما يقبضون على عامل متلبس بالسرقة، يصعب عليهم ان يسلموه الى الشرطة. ويدعون ان على الشرطة ان تكون في المكان وأن تقبض على السارقين.

بن ــ غوريون: ان هذا الموقف هو نتيجة مئات السنوات من العيش في المنفى.

لندمن: هناك امر ثان موروث، بدوره، عن عهد الانتداب، وهو ان الممتلكات العامة مباحة.

---

* تظهر التقارير اليومية للقيادة القطرية للشرطة ان الموقوفين كانوا، في معظمهم، في الحقيقة «سمكا صغيرا»: نادلا من يافا قدم وجبة ولم يطلب قسائم؛ صاحب دكان للأدوات الكهربائية في غفعتايم باع برميل غسيل بسعر فاحش؛ صاحب مخزن في حيفا اخفى ١٨٢ بيضة؛ مواطنا من تل ابيب نقل تسعة كيلوغرامات من الجبنة الصفراء، وما شابه ذلك. وبالاجمال، بضع عشرات كل يوم.(٥٨) وفي تشرين الاول/اكتوبر، توجه بن ــ غوريون الى رئيس المحكمة المركزية في تل ابيب، طالبا وضع «افضل القوى» في خدمة الحرب ضد السوق السوداء، وتحديد يوم واحد في الاسبوع لسماع محاكمات المضاربة في السوق السوداء. وقد حث وزير العدل، روزين، القضاة على فرض عقوبات قاسية على المخالفين. وهذا لم يحدث بصورة عامة؛ ففي الفترة من ايار/مايو ١٩٤٩ حتى حزيران/يونيو ١٩٥٠، فتحت الشرطة ٨٣٨٧ دعوى مضاربة وسوق سوداء، قدم منها الى المدعي العام ٣٥٣٠. وقد اصدرت المحاكم أحكامها في ١٦١٣ من هذه الدعاوى. وحكم على ٨٦ مخالفا بالسجن، وعلى ١١٩١ بدفع غرامات. وكان متوسط فترة السجن ٢٧ يوما، ومتوسط الغرامة ٤١ ليرة.(٥٩)

بن ــ غوريون: هذه الظاهرة بكاملها تثير قلقي. اذا عالج رجال سلاح البحرية امر السرقة، فكيف سيحرسون؟

لندمن: كنت اقترحت ان يعير سلاح البحرية الشرطة عددا من الاشخاص لفترة محددة، وأن يكون هنالك هيئة واحدة تشرف على ذلك.

بن ــ غوريون: لكن اذا مكث في كل زورق شرطي، فثمة ما يستدعي القلق من ان يصبح هو الآخر سارقا!

(. . .) كيف يسرقون بضائع من السفينة؟

لندمن: يقوم الملاحون بالسرقة في الطريق، وعندما ترسو السفينة في [احد الموانىء] في طريقها الى هنا يبيعون البضاعة او ينزلونها في اي مكان او، اذا وصلوا الى هنا مع البضائع المسروقة، يبذلون جهدهم لتهريبها عن طريق الميناء.

يوسف: تناهى الى علمنا، في الفترة الاخيرة، ان تجارا بدأوا يستحصلون على عقود تأمين على بيوتهم اعلى من ذي قبل. وثمة من يعتقد ان هذا دليل على إخفائهم بضاعة في شققهم.

بن ــ غوريون: افهم من ذلك انه لا تجري، في سفينة سويدية مثلا، أعمال كهذه لأن الملاحين مستقيمون، وأن لا علاقة للمسألة بترتيب معروف.

لندمن: انها مسألة ترتيب، ومسألة تقليد ايضا.

بن ــ غوريون: الى ان نوجد تقليدا بألا يكون هناك يهود سارقون، سيكون قد مر وقت طويل. لكن كيف نضمن ذلك قبل ان نعلمهم؟

(. . .)

يوسف: ليس من السهل ان نقيم ترتيبات في السفن. فالسفينة مكان ضيق، وفيها طاقم من ٢٥ الى ٣٠ رجلا، وهم سيعرفون فورا ان مهمة هذا الرجل او ذاك هي الحراسة لمنع السرقات، فينغصون عليه حياته.

سوهر: انهم يسرقون امتعة المهاجرين. وقد اكتشفنا الأمر عندما تم العثور على بياضات ايطالية في صناديق.

بن ــ غوريون: ليس المتاع المسروق هو المسألة التي تهمني، وانما العار ان يكون ملاحون يهود لصوصا.

لندمن: هنالك أيضا عمال يسرقون. في البداية، لم تساعدنا مؤسسات الهستدروت في اجتثاث الشر. وفي سنة ١٩٤٨، عندما بدأنا نلقي القبض على عمال الصالات (قاعات الجمرك. . . الخ) وغيرهم متلبسين بسرقات في الميناء وبدأنا باقالتهم، لم نحصل على مساعدة الهستدروت.

بن ـ غوريون: يا للهول. هذا هو اقتصادنا، هذا هو عَلَمُنَا وشرفنا. ان الأمر يتعلق بأناس لديهم عمل ثابت ولهم مصدر رزق. ان هذه الظاهرة تدنس اسم اسرائيل.

(. . .)

يوسف: يحدث ان يحضر باعة متجولون سيارات فيها مواد استهلاكية ويعلنون السعر، ويضيفون اليه مبلغا آخر للكيرين هكاييمت. ويعلنون ذلك بسخرية، اذ انهم يعلمون ان ذلك المبلغ الآخر يعود الى السوق السوداء.

(. . .) *

عندما قدم يوسف خطته للتقشف لمناقشتها في الحكومة للمرة الاولى، واجه معارضة: فقد كانت بحاجة الى نقاش متواصل، الى ان تكفلت الحكومة طرح الخطة على الكنيست لاقرارها. كان الخوف الذي اعترى الوزراء سياسيا، لا اقتصاديا، وهو ألا يقال ان هدف الخطة هو تدمير الطبقة الوسطى، وهذا ما حدث فعلا.[٦٢] فقد اصبح الصهيونيون العموميون وحيروت يرددون هذا الادعاء، وهاجم مابام وماكي الخطة من اليسار زاعمين ان العبء سيقع، أساسا، على كاهل الشرائح الفقيرة. لقد وعد الجميع ان يدافعوا عن مثل هذه الجماعات او غيرها ازاء التمييز والغبن: النساء، والاسكافيين، وأصحاب الأكشاك، والمتقاعدين، والعرب، وأبناء الطوائف الشرقية، والمتدينين. ان جزءا من اللحم الذي يستورد من خارج البلد لتوزيعه في اطار التقنين، لم يكن كاشير. وقد دار جدل تضافرت فيه تناقضات فكرية ومصالح حزبية.

حاييم لانداو: انني مقتنع بأن احد الاهداف الأساسية لخطة التقشف كان ابعاد صغار الناس عن الدائرة الاقتصادية. ان جوهر نظام حكومتنا لا يتحمل الرجل الصغير الذي تعتبره وسيطا، وعقبة يجب ازالتها من الطريق. ولذا، فهي تحرم صاحب المهنة والصناعي الصغير والتاجر (. . .).[٦٣]

يوسف: لن اجادل عضو الكنيست لانداو. انني اعرف انه لا يؤيد نظام الحكومة الاقتصادي، ولا الرقابة، ولا التقنين. فهو لا يؤمن بذلك. انه يؤمن بما يسميه الحرية والانعتاق. وأنا

* كان وزير الزراعة، بنحاس لافون، يميل الى اعتبار السوق السوداء جزءا من أسلوب التقنين نفسه. وقال في احدى المرات للجنة الاقتصادية في الكنيست: «اذا فرض غدا تقنين على النكات، فانه سينشأ نقص فيها.»[٦٠] وكما هو عهد السياسيين، اتهم لافون الصحف: «سأكون آخر من يريد تشويه الحقائق او تقديم صورة وردية، وكأن كل شيء على ما يرام. لكن، ايها السادة، ان المرض الذي دخل نفوس جمهورنا، والميل المرضي نحو المغالاة الشرقية والافتقار الى كل احساس بالنزاهة في ذكر الحقائق وتحديدها، والميل نحو التمسك بكل تفصيل واعتباره الصورة كلها، ان هذه السجية التي تنميها الأحزاب والصحافيون، يوما بعد يوم، تتحول الى مرض قومي يتهددنا جميعا بالخطر.»[٦١]

اسمي ذلك استباحة. لو سرنا ايضا في الحياة الاقتصادية في طريقك، عضو الكنيست لانداو، لما كنا نجلس الآن في هذه الغرفة، ولكنا قد قضينا جوعا.

لانداو: لكنا نقيم في البلدة القديمة [في القدس]، سيدي (. . .).

يوسف: ان عضو الكنيست لانداو يريد الدفاع عن السوق السوداء (. . .).[٦٤]

يوسف سابير: ان الطريقة التي تقود هذه الحكومة بها اقتصاد الدولة ستؤدي، بالضرورة، الى الدكتاتورية او الى الافلاس. وفي الظروف التي نعيشها، فان الاولى تؤدي الى الثانية.[٦٥]

بن ـ غوريون: (ان نظام التقشف لا يقصد منه ان يكون) وسيلة لفرض المساواة. وهذه الحكومة لا تجرؤ حتى الآن على ان تأخذ هذه المهمة على عاتقها، لا لأن هذه المهمة ليست كبيرة ومهمة ـ فهي كبيرة جدا ـ لكن ساعتها لم تحن بعد. وكل من يأخذ ذلك على عاتقه الآن انما هو مخاتل او مخرب (. . .)[٦٦] لقد قلنا ان الحد الادنى لكل واحد افضل من البحبوحة للقلة. وقال (الصهيونيون) العموميون: أطلقوا المبادرة الحرة وهي توفر البحبوحة للجميع. اننا لم نر بعد بلدا يضمن البحبوحة للجميع. ان اميركا اكبر بلد يرفل بالرخاء وأغنى دولة في العالم، لكن بعد قيام الرئيس هوفر في الثلاثينات بفرض المبادرة الحرة، اصبح ملايين العمال عاطلين عن العمل وجائعين، وأصبحت المصارف كلها على وشك الاقفال، الى ان جاء التدخل والتخطيط الرسميان من جانب روزفلت، فأنقذ اميركا العظمى والغنية من افلاس كامل. ونحن ايضا لم نشأ ان نعتمد على مبادرة حرة لعدد من السماسرة (. . .).[٦٧] *

لقد تغلبت السياسة على دوف يوسف، فنشبت الاضرابات والتظاهرات في كل مكان، سواء من جانب العمال او التجار او أصحاب المهن. وقد استفاد هؤلاء واولئك، اجمالا، من هذا الدعم الحزبي او ذلك، من اليمين او اليسار. وعرفت المعارضة كيف تستخرج من الوضع القائم فائدة كبيرة. وكلما ازداد الاستياء تصدعت المشاركة الائتلافية. وقد اشتكى دوف يوسف، فيما بعد، من ان وضعه في الحكومة كان «بائسا»: ان قسما من الوزراء لم يساعده. وادعى يوسف ان وزير الشرطة، باخور شالوم شطريت، «عارض في قرارة نفسه اجراءات الرقابة»، وكان يميل نحو عدم اتخاذ اية تدابير ضد التجار الذين يخرقون القانون.

* أثار دافيد هوروفيتس تكهنا بأن خطة التقشف اعجبت بن ـ غوريون لأن التوجه نحو ادارة الاقتصاد، بأوامر ادارية، يوافق مفهومه للسلطة الرسمية. وكتب: «كان الايمان بقوانين الاقتصاد وباستقلالية الآلية الاقتصادية يثير الاشمئزاز لدى بن ـ غوريون. لم يكن يفهمها على الاطلاق، وكان ينفر منها ويعتبرها نسيجا من الأحاجي وعقبة في وجه ارادة الانسان. وقد بدا انه يريد اغتصاب القوانين الاقتصادية، وتحطيم سلطانها، وكشف عدم نفعها.»[٦٨]

وان الجهاز القضائي لم يهب لمحاكمة مخالفي أنظمة التقشف. وبحسب ما يقوله يوسف، فان وزير العدل، روزين، كان يتعرض طوال الوقت لضغوط من حزبه التقدمي. وانبرى وزير الداخلية، شابيرا، يدافع داخل الحكومة عن حق الصناعيين والتجار في ممارسة أعمالهم بلا قيود.

وفي الوقت ذاته، حذر البعض في ماباي من ان خطة التقشف ستنتقم من الحزب خلال انتخابات السلطات المحلية المقبلة.[٦٩] وقد فعلت الضغوط فعلها. في البدء، كان «الاستيراد من دون دفع» لتسهيل الأمر على الذين يريدون نقل رؤوس أموالهم الى اسرائيل من دون إلزامهم بتحويلها بحسب سعر الصرف الرسمي. ومنذ ذلك الحين، سمح لهم باستقدامها بصورة بضائع للتداول في السوق الحرة. وبموازاة ذلك، تقرر الغاء وزارة التموين والتقنين، ووزعت صلاحياتها على وزارة الزراعة ووزارة التجارة والصناعة؛ وتم الغاء جهاز الرقابة فعلا. وحدثت ازمة حكومية. فقد استقال بن ــ غوريون، وحاول تأليف حكومة اقلية وفشل، ونجح أخيرا في رد الاعتبار الى الائتلاف السابق. اسندت وزارة التجارة والصناعة الى صناعي يفتقر الى اية تجربة سياسية، هو يعقوب غاري، مدير شركة النسيج «آتا». ونقل دوف يوسف الى وزارة المواصلات. ونجح ماباي، في انتخابات الكنيست الثاني، في الاحتفاظ بقوته، وذلك بفضل نفوذه في معسكرات المهاجرين والمعابر. وحصل الصهيونيون العموميون على ١٦ ٪ من الاصوات، اي ثلاثة أضعاف ما حصلوا عليه في انتخابات الكنيست الاول التي جرت قبل عامين ونصف العام. وكانت الرسالة واضحة اذن: بعد فترة وجيزة شرعوا في تخفيف الرقابة، ثم ألغوها بالتدريج. *

عكست سياسة التقشف منطقا معينا، لكن تنفيذها باء بالفشل. لقد حققت الهدف الاساسي الذي حددته لنفسها: ادى التقنين الى تأمين الحد الادنى للجميع بأسعار معقولة. وتم توزيع الطلب في السوق على مواطني الدولة كافة، القدامى منهم والمهاجرون الجدد، بحسب حاجاتهم لا بحسب مداخيلهم، وبأسلوب تصاعدي جدا: كانت العائلات صاحبة المداخيل المنخفضة هي أيضا العائلات الكثيرة الأولاد والتي فيها العديد من النساء الحوامل والعديد من الذين يقومون بأعمال جسدية صعبة: هؤلاء جميعا حصلوا على حصص اكثر من

---

* في الواقع، كانت سنة ١٩٥١ هي أيضا سنة ازمة تموينية في أعقاب الجفاف الذي اجتاح البلد وضآلة الغلة الزراعية، الى جانب ارتفاع الأسعار في الأسواق العالمية نتيجة الحرب الكورية. وحاول دوف يوسف، مجددا، ان يبعث نظام التقشف في اطار وزارة التجارة والصناعة لكن، في شباط/فبراير ١٩٥٢، طبقت السياسة الاقتصادية الجديدة التي ادت، بين ما ادت اليه، الى الغاء معظم انظمة التقنين والرقابة. وسرعان ما وصلت أموال القروض والجباية من الولايات المتحدة، وأموال التعويضات من ألمانيا. وفي الوقت ذاته، انخفضت الهجرة فلم يصل سنة ١٩٥٣ إلا ١٠ آلاف مهاجر.

غيرهم. واشترى أصحاب المداخيل المرتفعة «نقاطا» و«قسائم»، وكان هناك من اشترى «حصصا» من أصحاب الامكانات الضئيلة، لكن الحد الادنى المطلوب كان في متناول اليد. وفي الفترة ما بين ايار/مايو ١٩٤٨ وشباط/فبراير ١٩٥٠، سجل مؤشر الغلاء انخفاضا نسبته نحو ١٤ ٪، وذلك بفضل انخفاض مؤشر الأسعار الخاضعة للرقابة بنسبة ٢٠ ٪. لكن كلما انخفضت الاسعار ازداد الطلب، وتعزز الاحساس بنقص المواد، وازداد الميل الى معارضة الخطة وتخريبها. ومن اجل وقف المسار التضخمي، كانت ثمة حاجة الى سلسلة من التدابير المالية لامتصاص فائض الأموال لدى الجمهور، كفرض الضرائب او تجميد الأجور او حتى تخفيضها، وما الى ذلك. لكن مثل هذه التدابير لم يتخذ، مما وضع الأساس لجدل لم يهدأ حتى بعد أعوام من تبني الحكومة سياسة اقتصادية جديدة.

يقول دوف يوسف: «لم تستكمل وزارة المالية تحقيق انجازات خطة التقشف بواسطة اجراءات اقتصادية ومالية اخرى، كان عليها ان تتخذها كأمر بديهي، ومن اجل امتصاص فائض المال لدى الجمهور الذي نتج عن نظام التقشف.»[٧٠] وقد لقيت هذه الحجة قبولا. وأشارت أيضا صحيفة «هآرتس»: «يبدو ان وزارة المالية لم تكن على استعداد لتأييد سياسة وزارة د. يوسف عن اقتناع.»[٧١] وقد وافق المدير العام لوزارة المالية آنذاك، دافيد (دولك) هوروفيتس، على ذلك فيما بعد، لكنه ادعى ان نظام التقشف كان مغلوطا فيه من الأساس. واقترح، من جانبه، وسائل اخرى رفضتها الحكومة لأسباب سياسية، على حد قوله. في هذه الاثناء، طالب بسلسلة من الاجراءات القاسية التي هي بالضرورة غير مستحبة، لكبح الارتفاع في مستوى الحياة والاستهلاك، وذلك بوقف ارتفاع الاجور وبفرض ضرائب فاحشة. وقد اشتكى، في مذكرة قدمها الى بن ــ غوريون في أواخر سنة ١٩٥٠، من ان الحكومة تسمح بتوظيف استثمارات في صناعات استهلاكية، في مبان فخمة كمباني الأمة في القدس ومكاتب اللجنة التنفيذية للهستدروت في تل ابيب. وكتب: «اننا نبني على أساس اقتصاد Consumption.» وأنا استعمل الكلمة الانكليزية عن قصد لأن لكلمة Consumption في الانكليزية معنيين هما: استهلاك، وداء السل. ويبدو لي ان كليهما ينطبق على نظامنا.» وقال في احدى جلسات الحكومة: «طبعا، يمكن من الناحية الفنية عمل كل شيء، بغض النظر عن الأسعار. فيمكن زراعة القهوة فوق سطوح القدس، لكن المشكلة هي ما اذا كانت هذه سياسة حكيمة. اننا نعيش في جنة المغفلين. ويبدو ان السياسة الاقتصادية، التي تبناها أعضاء الحكومة، تقوم على الاعتقاد انه اذا ضربنا الجدار بالرأس عدة مرات، فان الجدار سيتصدع (...) اننا لا نعيش وفق حجم امكاناتنا، اذ ان الكثير من أعمالنا يشبه «تجاعيد الشعر على رأس اصلع.»[٧٢]

حاول ناتان غروس، من الجامعة العبرية، ان يفسر واقع ان وزارة المالية لم ترفق خطة

التقشف بسياسة نقدية ومالية ملائمة. اذ ان ربابنة الاقتصاد لم يستوعبوا بصورة صحيحة جوهر التضخم. وقد وجد غروس، استنادا الى تحليل مفصل للتصريحات المتعلقة بالسياسة [الاقتصادية]، ان المتغير الوحيد الذي حاولت الحكومة في ضوئه تقدير الضغط التضخمي، كان التغيير في الأسعار. وكانت وزارة المالية تميل الى مماثلة انخفاض الأسعار بانخفاض الضغط التضخمي. وفي غضون ذلك، لم تأخذ في الحسبان كمية الأموال التي كانت في ايدي الجمهور. وبكلام آخر، فان مسؤولي وزارة المالية اعتقدوا ان الامر يتعلق بتضخم النفقات، وتجاهلوا تأثيرات الطلب. وكذلك أشار غروس الى ان جهاز الضرائب لم يكن ناجعا. وبناء عليه، كان من الصعب على وزارة المالية امتصاص فوائض أموال الجمهور، حتى لو أرادت ذلك.[٧٣]

في أواخر سنة ١٩٥١، كان البلد لا يزال يعاني بطالة خطرة، وكان عشرات الآلاف لا يزالون يقيمون في المعسكرات والمعابر. وعلى الرغم من الهبات من الولايات المتحدة ومداخيل قروض التطوير، فقد كان هنالك نقص شديد في العملات الاجنبية. وظلت الضغوط التضخمية على حالها، وبقيت بنية الأسعار مجحفة كما كانت في السابق. وأدت «السياسة الاقتصادية الجديدة» الى وقف التمويل الحكومي التضخمي، والى محاولات تقييد اعتمادات الجمهور. وفرض قرض اجباري على الأموال النقدية المتداولة، وحتى على الودائع الجارية في المصارف. وجرى تحسين جهاز ضريبة الدخل، وازدادت اهمية الضريبة كمصدر للدخل. وبيع جزء من أراضي الدولة الى الجمهور كوسيلة لامتصاص الأموال، وفي الوقت ذاته جرى تقليص النفقات الحكومية. وتم خفض الليرة، وألغيت الرقابة على جزء من الاسعار، فارتفعت ارتفاعا فاحشا نتيجة ذلك. كانت هذه جميعا تدابير اقتصادية. وفي موازاة ذلك، اتخذ أيضا تدبير لم يكن السياسيون ليجرؤوا قبل عام او عامين على طرحه صراحة: لقد قلصوا مساعي تشجيع الهجرة الى الحد الادنى. ففي سنة ١٩٥١ وصل الى البلد اكثر من ١٧٣ ألف مهاجر؛ وفي سنة ١٩٥٢، جاء ما يزيد بقليل عن ٢٣ ألفا؛ وفي السنة التالية، لم يصل إلا ١٠ آلاف، او اكثر قليلا. وفي غضون ذلك، قطعوا شوطا كبيرا منذ ان تجادلوا في شأن «التنظيم» و«الانتقاء»، وقرروا ان يجلبوا في سنة واحدة نحو ربع مليون مهاجر.

أنجب التقنين والرقابة الاسرائيلي «المستحق»، كما أنجبا الاسرائيلي «الذي يتدبر امره». اذ سعى الجميع، الى جانب استعدادهم الجماعي للتنازل عن شيء ما كمساهمة في تحقيق الثورة القومية، لجعل تنازلهم هذا متواضعا قدر الامكان. وبعد فترة وجيزة، اتفق الجميع على ان «لا خيار» سوى خداع السلطات. لقد دان الجميع السوق السوداء، وتبنوا قوانينها كمعيار. وكتبت الرفيقة ح. روفا من نحلات يتسحاق الى صحيفة «دافار»: «املنا بأن نحصل على شيء ما بمناسبة الأعياد على الاقل. لكننا، في الواقع، لم نحصل على طيور لا في

رأس السنة ولا في يوم الغفران. وأنا، الوفية لنظام التقشف والمعارضة للسوق السوداء، اضطررت من دون خيار وبسبب النقص في السمك واللحوم، الى التوجه الى السوق السوداء.»[٧٤]

قال يشعياهو فوردر، عضو الكنيست وأحد قادة الحزب التقدمي، ان «هناك ظاهرة تتمثل في وجود أُمٍّ تضطر الى التوجه الى السوق السوداء، لأن ليس عندها من الطعام ما يكفي ولدها.»[٧٥] واستشهدت صحيفة «يديعوت احرونوت» بتاجر من تل ابيب، وصف وفرة السلع التي تعرض عليه في السوق السوداء بقوله: «ثلاجات، وغسالات، وأفران، وخلاطات، جزء منها جلبه اسرائيليون عادوا من مهمة ما في خارج البلد.» وتساءلت الصحيفة بتفهم: «من يستطيع ان يقاوم مثل هذه الاغراءات؟»[٧٦] وكتب ناتان ألترمن: «لم تكن الشمس مختلفة، ولا نورها. لكن في حوار مساومة، لم يحدّق الشاري الى عيني البائع، لأن السرقة كانت شاخصة في العيون.» لقد كانت السرقة، على حد قول ألترمن، «نوعا من نكهة الواقع التي يمكن تحملها، ونوعا من الموافقة الصامتة.»[٧٧]

وأقر وزير العدل، روزين، بذلك في الكنيست: «لم يتوقف الامر عند حد عدم تلاشي السوق السوداء، بل ان هنالك دلائل على ان السوق السوداء تشرع في بسط شبكتها على الفروع التجارية في كل أنحاء البلد، وينخرط فيها الجميع، فئات السكان وشرائحهم، من دون فارق بين تنظيم او وجهة نظر سياسية او اقتصادية. ونحن نسمع عن ذلك أشياء ليست بالقليلة، وتصل الينا في هذا الشأن شكاوى عديدة (...).»[٧٨] وفي النصف الثاني من سنة ١٩٥٠، انشأت لجنة الاقتصاد التابعة للكنيست لجنة فرعية لتقصي مصادر السوق السوداء. وقد كثرت نزاعات أعضاء اللجنة فيما بينهم، وتبادلوا التهم، ولم يتفقوا في نهاية المطاف إلا على ان السوق السوداء هي «كارثة ومرض مستفحل، وتعبير عن وهن الخلق والنزاهة.» وقد نشروا، كل ما عدا ذلك، في ثلاثة تقارير محلية منفصلة موضوعها السوق السوداء في فرع البناء. وأكد تقرير أعضاء ماباي ان «ليس هناك أساس للتهمة الشاملة بأن القطاع التعاوني ــ الاقتصادي: الاستيطان العامل و«سوليل بونيه» و«همشبير» والتعاونيات، هو بالذات السبب الاساسي او هو، على الاقل، السبب الاهم في قيام السوق السوداء.» أما تقرير حيروت، فقد أكد هذه التهمة. وركز تقرير مابام على «تفاهة اليمين البورجوازي الرجعي.»[٧٩] يقول بنحاس روزين: «لا يمكن القول ان المخطئين والمجرمين موجودون في معسكر واحد.»[٨٠] وتوجهت اللجنة الى الجمهور الواسع، لدى بدء عملها، عبر الاذاعة والصحف، طالبة معلومات عن هوية المتعاملين مع السوق السوداء. وظل الطلب من دون اجابة تقريبا، اذ لم يشأ الجمهور التعاون مع اللجنة.[٨١] وفي مرحلة معينة، تشكلت محاكم خاصة لمحاكمة مخالفي التقشف، وفيها محلفون. ويذكر بنحاس روزين: «كان القصد

هو سحب حسم هذه المخالفات من يد قاض واحد، يفصل يوميا في قضايا جزائية عادية، وذلك لإحالة هذه القضايا على قضاة من الرجال والنساء، تؤثر هذه المخالفات ونتائجها الخطرة في نفوسهم مباشرة. كنا نظن ان هؤلاء القضاة المتطوعين سيعبرون عن غضب الجمهور على السوق السوداء (...) وقد اثبتت التجربة التي حصلنا عليها في هذه المحاكم ان معظم ممثلي الجمهور يميل الى التخفيف لا الى التشديد، وأن الاحساس بالبحث المبالغ فيه في مصير المتهم يفوق أحيانا غضب المتضرر.» حتى انه كان بينهم، بين ممثلي الجمهور هؤلاء، مشاركون في الجريمة، وقد اضطر روزين الى الاعتراف بذلك.(٨٢) وقامت وزارة التموين والتقنين بمحاولة لاشراك الجمهور في اجهزة الرقابة. ولم يكن هناك مواطنون مستعدون للمساعدة إلا في نصف المناطق التي أدرجت في الخطة.(٨٣) وجاء في الكتاب السنوي للحكومة انه عقد نحو ١٠٠ اجتماع عام لشرح التقنين والرقابة، وأكثر من ١٠٠ اجتماع ومؤتمر، وعشرات المناظرات والمحاضرات، لتقديم توجيهات في شأن المسائل المتعلقة بالرقابة. وكانت النتيجة بائسة: في القدس، كان هناك نحو ٢٠٠ شخص فقط وافقوا على مساعدة الوزارة. وفي تل ابيب، كان هناك نحو ٣٠٠. وفي حيفا نحو ١٥٠ شخصا.(٨٤) واشتكت حانا لمدان، من مابام، من ان «الجمهور لا يشعر بأن السمسرة بالمواد الاستهلاكية جريمة»، بل على العكس: «(ان المراقبين) غير مقبولين من الجمهور. فهو ينظر اليهم انهم وشاة (...) ويتلقى [المراقب] الضربات في كل مكان يجيء اليه لمراقبة نشاط الحانوتي، والتحقق من انه لا يبيع بأسعار فاحشة (...).»(٨٥) وقد اثارت عمليات تفتيش المنازل الخاصة عاصفة في الكنيست، وأجبرت دوف يوسف على الاعتذار مطولا عما عرضه آريه بن أليعازر، عضو حيروت، قائلا: «ان افدح انتهاك للحد الادنى من حقوق المواطن، هو انتهاك حرمة منزله.»(٨٦) وطلب بيرتس برنشتاين من مستشار الحكومة القضائي، حاييم كوهين، اغلاق ملف الدعوى التي رفعها ضد احدى شركات الـ «سكريب». وأوضح في الكنيست، فيما بعد، «ان عملا قضائيا جزائيا ضد هذه الشركة سيؤدي الى اثارة أصداء سيئة في اميركا.»(٨٧) وكشف دوف يوسف أيضا، قبيل موته، السر التالي: «في ذروة أيام التقشف، زار الموظفون لدي فجأة مطعما رومانيا قديما في يافا، اشتهر بامكان اكل اللحم فيه من دون نقاط. وكان ليفي اشكول، في ذلك الوقت، من الزبائن الذين يرفهون عن انفسهم هناك. وعندما سمعت ذلك، طرحت الموضوع في جلسة الحكومة وطلبت الى بن ــ غوريون ادانة الواقعة صراحة ومنع أعضاء الحكومة وقادة الجمهور من زيارة الأماكن التي تتحايل على نظام الرقابة، والا ــ أضفت مهددا ــ فانني أنقل الامر الى الصحف.»(٨٨) *

* قال المحامي أ. مريدور في كتاب الدفاع عن موكله، تسفي غينتسبورغ، وهو تاجر سمك من القدس: «عشية اليوم السابع من فصح سنة ١٩٤٩، طلب حضرة وزير الشؤون الاجتماعية، الحاخام =

فهم الاسرائيليون، في معظمهم، دور التقشف في الثورة القومية، ووافقوا على الاضطلاع بجزء من العبء، لأنهم كانوا يريدون هذه الثورة. أما ما رفضوه فهو هذا التنغيص الدائم في رتابة حياتهم اليومية. لقد ثاروا على الاجحاف الذي اسفر عنه هذا النظام، وعلى التفرقة، والمحسوبية، والتعسف، والفساد، والبيروقراطية الخرقاء. لقد تغلبوا على النظام، وكانت تلك فرصة سانحة لوعيهم الديمقراطي، وهو وعي قديم عندهم. فبعد إلغاء نظام التقشف، وضعت حدود واضحة لتدخل السلطات في الاقتصاد، وأزيلت تلك الاتجاهات الماركسية شبه التوتاليتارية التي كانت شائعة في ماباي؛ وكان ذلك درسا لسنوات. كما ان معايير الغش التي افرزتها السوق السوداء ظلت حية سنين عديدة بعدها، مثل الخدمة السيئة التي كانت تقدم للمشتري في حوانيت اسرائيل، حتى عندما كانت فعلا مملوءة بكل الملذات، وظل الزبون واقعا تحت رحمة البائع كما كانت الحال أيام التقشف. وكان الاحساس بأن العيش خارج اسرائيل افضل من الحياة فيها، هو ايضا ــ بين الحلم والروتين اليومي ــ من مخلفات التقشف؛ لم يكن هذا الاحساس صادرا عن وعي، لكنه كان عميقا للغاية ويشترك فيه العديدون. لقد اصبح تعبير «خارج البلد»، كما كتب فيما بعد، تعبيرا آخر مرادفا للنوعية والبحبوحة والأمن في المستقبل، وأصبح في نظر العديدين امنية محرمة: كان الخروج من البلد سنة ١٩٤٩ يتطلب تصريحا خاصا، لم يكن يعطى إلا لاثنين، وفيما بعد لثلاثة فقط من كل اربعة من أصحاب الطلبات. كان نصفهم تقريبا «موفدين» من قبل الدولة ومؤسساتها. وهكذا، فان «خارج البلد» كان مصطلحا آخر لبعض «الروابط»، ويحتل مكانا بين القيم التي شكلت نظرة الاسرائيليين الاوائل الى بلدهم وأنفسهم.

وعليه، فان روتين الاسرائيليين الأوائل اليومي كان اقل ريادية مما كانوا يحلمون. وكان المجتمع الذي بدأوا يبلورونه اقل تحضرا، وأقل عدلا، وأقل محبة للغير، وأقل اشكنازية مما حلموا؛ وهو لم يضمن المساواة للجميع ولا السلام. وربما الاسرائيليون الأوائل لم يلاحظوا، في معظمهم، ذلك؛ اذ ان استغراقهم في حلمهم جعل من الصعب عليهم ان يروا الواقع على حقيقته. ومهما يكن الأمر، فان حلمهم كان الوقود الذي حركهم والملاط الذي وحدهم، الأسطورة والاجماع؛ وكان [الحلم] أحيانا الذريعة لتبرير أخطاء ارتكبوها. وقد منحهم الحلم القوة والشجاعة للبدء بحياة جديدة، بعد ان اختبروا أهوال الكارثة النازية،

= ي. م. ليفين، من موكلي ان يبيع ويبقي له كمية من السمك للعيد، بمناسبة استقبال ضيوف من انكلترا والولايات المتحدة. واعتقد موكلي ان من واجبه القيام بذلك بناء على طلب الوزير، ففرز كمية السمك التي طلبها منه. وصادف وصول الرقيبين الى حانوت موكلي، ووجدا السمك هناك. فأمرا السيد غينتسبورغ ببيع السمك وتقدما بشكوى ضده.» وكان سمك العيد، الخاص بالوزير، موضوع مراسلات متواصلة بين مستشار الحكومة القضائي وعدد من وزرائها.(٨٩)

وبقوته ناضلوا ضد البريطانيين وحاربوا العرب، وبقوته انتصروا. وهو الذي جعل العديد منهم يهاجر الى اسرائيل. وهو الذي سلح المهاجرين بالصبر الذي كان مطلوبا منهم في المعسكرات الانتقالية والمعابر. وبقوته تمكنوا من المحنة والبؤس. لقد ولد الحلم خطط عمل، وخطوطا للسياسات، ومعايير، وقيما، وأنماط حياة؛ وهو الذي لجم الكراهية التي سادت معسكرات متنازعة، ولجم اشتداد المواجهات التي كانت تهدد المجتمع؛ ولعله كان الحلم المشترك الذي منع الاسرائيليين الأوائل من شن حرب اهلية بعضهم ضد بعض: المهاجرون ضد القدامى، والاشكناز ضد المهاجرين من الدول العربية، والمتدينون ضد العلمانيين. وأكثر من ذلك كله، فقد كان هذا الحلم بالذات مصدرا للثقة بأنفسهم. لقد تجادلوا وتخبطوا وترددوا، وأحيانا تراجعوا، لكن الطريق الذي سلكوه كان في نظرهم الطريق الصحيح؛ وقد ساروا فيه انطلاقا من ايمان كامل بصواب نهجهم. وهم، من هذه الزاوية، جديرون بحسد الغير.

المصادر

المقـدمـة

(١) «معاريف»، ٤٩/٢/٩.
(٢) محاضر الكنيست، المجلد ٣، ص ٥، ٤٩/١١/٧.
(٣) «دافار»، ٤٩/٨/٢.
(٤) مكتب ماباي، ٤٩/٢/٢١، أرشيف حزب العمل، 25/49/2.
(٥) «هآرتس»، ٤٩/١/١٣.
(٦) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٨/٦/٩.
(٧) عرضت هذه المسألة على سكان حيفا في اطار استفتاءات للرأي (حداك) اجرتها قيادة الهاغناه في المدينة. وقد استشهد بها، متكرما، رحبعام عمير الذي كان احد المبادرين الى الاستفتاءات.
(٨) «يديعوت احرونوت»، ٤٩/١/١٣ (من دون توقيع المراسل).
(٩) ابو اياد، ص ٢٥.
(١٠) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٨/٨/١٨.
(١١) «دافار هشفواع»، ٤٩/٩/٢٢.
(١٢) «هآرتس»، ٤٩/٢/١٣.
(١٣) «معاريف»، ٤٩/٢/١٨.
(١٤) «هآرتس»، ٤٩/٨/٩.
(١٥) اوري افنيري، «اعترافات شاب عبري»، «هآرتس»، ٤٩/٢/١١.
(١٦) أقوال الأدباء.
(١٧) ادارة الشعب، ص ١٠٧.
(١٨) «هآرتس»، ٤٩/١/١٠.
(١٩) بن ـ غوريون، دولة اسرائيل المتجددة، ص ١٨٤.
(٢٠) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٧/١.
(٢١) وثائق الولايات المتحدة، ١٩٤٨، ص ١٧٠٥؛ وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٥٩٤؛ ماكدونالد، ص ١١٧.
(٢٢) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/١/٦.
(٢٣) المصدر نفسه.
(٢٤) المصدر نفسه، ٤٩/١/٥.
(٢٥) تقرير الشين بيت [جهاز الامن العام]، يشعيا، ٤٩/١/٣، تراث بن ـ غوريون.

---

* وردت مصادر بصورة مختصرة، وللاطلاع عليها كاملة انظر لائحة المراجع أدناه، صفحة ٣٨٥. (المحرر)

(٢٦) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/١/٧ .

(٢٧) المصدر نفسه، ٤٩/١/٨ . وفي اليوم التالي، ابرق آلون بأن البريطانيين استطاعوا تصوير حطام الطائرات في المكان التي سقطت فيه، قبل ان يكون لديهم متسع من الوقت لنقلها الى الأراضي الاسرائيلية.

(٢٨) وايزمن، ص ٧٠.

(٢٩) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/١/٨ .

القسم الاول: بين اليهود والعرب

الفصل الأول: الخط الأخضر

(١) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/١/٧ .

(٢) برنادوت، ص ٧٩.

(٣) دايان، ص ٨٦.

(٤) رابين، ص ٧٦.

(٥) ايتان، ص ٣٤.

(٦) وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٢٢. استعنت في هذه الصفحات بأمور، بينها مقدمة لشهادات اسرائيل، المجلد ٣ بقلم يميا روزنتال.

(٧) مشاورات سياسية، ٤٩/٤/١٢، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2447/3.

(٨) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/١/١٨ .

(٩) ايتان، ص ٣٣.

(١٠) من ايتان الى شاريت، ٤٩/١/٢٢، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٥٣، وكذلك ايتان، ص ٣٦.

(١١) من يادين الى ايتان، ٤٩/٢/١٢، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٢٤٠.

(١٢) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٢/٩ .

(١٣) المصدر نفسه، ٤٩/٢/٢٤ .

(١٤) رابين، ص ٧٧.

(١٥) من ايتان الى شاريت، ٤٩/٢/٢٢، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٢٦٦.

(١٦) وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٢٦١.

(١٧) من روزين الى روبنزون، ٤٩/٣/٦، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٢٩٣.

(١٨) من روزين الى ساسون، ٤٩/٣/١٣، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٣١١.

(١٩) من شاريت الى شيلواح، ٤٩/٣/٣، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٢٩١.

(٢٠) من روزين الى روبنزون، ٤٩/٣/٦، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٢٩٣.

(٢١) من يادين الى ايتان، ٤٩/٣/١١، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٣٠٩.

(٢٢) من روزين الى شاريت، ٤٩/٣/١٦، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٢١٣.

(٢٣) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٣/١٧ .

(٢٤) وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٢٣٣.

(٢٥) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٨/٥/٢٤ .

(٢٦) مذكرات شاريت، المجلد ٤، ص ٩٩٦.

(٢٧) من دايان الى يادين، ٤٩/٣/١٢، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٤٠٥.

(٢٨) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/١/١٧ .

(٢٩) طيفت، ص ٣٢٨.

(٣٠) من ايتان الى شاريت، ٢٣ ـ ٤٩/٣/٢٤، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٤٦٨.

(٣١) من ايتان الى شاريت، ٤٩/٤/٣، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٥٠٠.

(٣٢) «يديعوت احرونوت»، ٥٩/٥/٢٩؛ ١١ و ١٩ حزيران/يونيو ١٩٥٩.

(٣٣) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/١/٢٦ .

(٣٤) من ساسون الى شاريت، ٤٩/٣/١٠، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٣٧٧.

(٣٥) من بن ـ غوريون الى د. ش. غروس، «هآرتس»، ٦٢/٣/٢٣، وبار زوهر، المجلد ٢، ص ٨٢٣ ـ ٨٢٦.

(٣٦) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٨/٥/٢٤ .

(٣٧) المصدر نفسه، ٤٨/٦/١٨ .

(٣٨) المصدر نفسه، ٤٩/٦/٢١ .

(٣٩) مشاورات سياسية، ٤٨/١٢/٣٠، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2447/3.

(٤٠) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/١/٢ .

(٤١) جلسة الوفد الاسرائيلي الى الأمم المتحدة، ٤٨/١٠/٣، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 93.01/181/3.

(٤٢) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٣/١١ .

(٤٣) المصدر نفسه، ٤٩/١/٣ .

(٤٤) المصدر نفسه، ٤٩/١/١٦ .

(٤٥) وضعت التفاصيل في مداولات داخلية، شارك بن ـ غوريون في جزء منها. وتم الاتفاق على التوجيهات المرسلة الى الوفد في جلسة الحكومة في ٤٩/٢/٢٧، محضر الجلسة، أرشيف الكيبوتس الموحد (تسيزلينغ)، المجموعة ٩، الوحدة ٩، الملف ١.

(٤٦) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٤/١٦ .

(٤٧) المصدر نفسه، ٤٩/٤/٣٠ .

(٤٨) من المفوض الى وزير الخارجية، ٤٩/٥/٢، وثائق الولايات المتحدة، ١٩٤٩، ص ٩٦٥.

(٤٩) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٥/٧ .

(٥٠) من وزير الخارجية الى السفارة في اسرائيل، ٤٩/٥/٩، وثائق الولايات المتحدة، ١٩٤٩، ص ٩٩٠.

(٥١) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٥/١٦، ومن روزين الى بن ـ غوريون وشاريت، ٤٩/٥/١٨، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٥٨١.

(٥٢) من ايبن الى روزين، ٤٩/٥/١٨، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٥٨٤.

(٥٣) من المفوض الى وزير الخارجية، ٤٩/٥/١٩، وثائق الولايات المتحدة، ١٩٤٩، ص ١٠٣٠.

(٥٤) من ايبن الى شاريت، ٤٩/٦/١، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٥٩٤.

(٥٥) من شاريت الى ايبن، ٤٩/٦/٢، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٥٩٥.

(٥٦) من شاريت الى ايبن، ٤٩/٦/٥، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٥٩٦.

(٥٧) من شاريت الى ايبن، ٤٩/٦/٨، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٥٩٧.
(٥٨) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٧/٩.
(٥٩) من شاريت الى ايبن، ٤٩/٥/٢٥، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٥٨٩.
(٦٠) من شيلواح الى شاريت، ٤٩/٥/٣١، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٥٩٢.
(٦١) «دافار»، ٤٩/١/٨.
(٦٢) «حيروت»، ٤٩/١/٢٥.
(٦٣) محاضر الكنيست، المجلد ١، ص ٦٥، ٤٩/٣/٨.
(٦٤) المصدر نفسه، المجلد ١، ص ١٠٧، ٤٩/٣/٩.
(٦٥) المصدر نفسه، المجلد ١، ص ٢٨٩، ٤٩/٤/٤.
(٦٦) «عال همشمار»، ٤٩/١/١٤.
(٦٧) محاضر الكنيست، المجلد ١، ص ٣٠٦، ٤٩/٤/٤.
(٦٨) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/١/١٨.
(٦٩) المصدر نفسه، ٤٩/٢/١.
(٧٠) المصدر نفسه، ٤٩/١٢/١٤.
(٧١) أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، مجمل امني، 2449/1/أ. بشأن تفاصيل المفاوضات، انظر ايضا: وثائق الولايات المتحدة، ١٩٤٩، ص ١٥٤٥، ١٥٥٨ وغيرهما.
(٧٢) شاريت في سكرتارية ماباي، ٤٩/٧/٢٨، أرشيف حزب العمل.
(٧٣) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٦/١٦.
(٧٤) من ساسون الى شاريت، ٤٩/٨/٢١، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، لجنة التوفيق، 2447/13.
(٧٥) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/١١/٢٨.
(٧٦) مجلس ماباي، ٤٨/٢/٧، أرشيف حزب العمل؛ بن ـ غوريون، في محاربة اسرائيل، ص ٦٨ ـ ٦٩.
(٧٧) عرض للوضع في الجلسة الاولى لمجلس الشعب، ٤٨/٥/٤، يوميات الحرب، ص ٣٨٧.
(٧٨) ميخائيلي.
(٧٩) بن ـ غوريون، في محاربة اسرائيل، ص ٦٥. في غمرة الجدل بشأن مشكلة اللاجئين، هنالك ما هولافت في مقالة ماري سيركين: «اللاجئون العرب ـ نظرة صهيونية»، «كومنتري»، كانون الثاني/يناير ١٩٦٦، وفي مقالة اوري افنيري: «ولادة مشكلة»، «اتغار»، ٦٣/١١/٢٨.
(٨٠) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٨/١١/١٠.
(٨١) محضر جلسة الحكومة، ٤٨/٦/٢٧، أرشيف الكيبوتس الموحد (تسيزلينغ)، المجموعة ٩، الوحدة ٩، الملف ٣.
(٨٢) من بن ـ غوريون الى شابيرا، ٤٨/١١/١٩، تراث بن ـ غوريون.
(٨٣) قرارات حكومية، ٤٨/١٢/٥، أرشيف الكيبوتس الموحد (تسيزلينغ)، المجموعة ٩، الوحدة ٩، الملف ١.
(٨٤) اللجنة الوزارية لشؤون الاملاك المتروكة، ٤٨/٧/١٣، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2401/21/أ.
(٨٥) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٨/٧/١٥.
(٨٦) «هآرتس»، ٢ ـ ٧٩/١٠/١١، ٧٩/١٠/٢٤ (بقلم دان مرغليت). محضر جلسة الحكومة، ٤٨/٧/٢١، أرشيف الكيبوتس الموحد (تسيزلينغ)، المجموعة ٩، الوحدة ٩، الملف ٣. للمزيد من

التفاصيل عن طرد عرب اللد والرملة او «اجلائهم»، انظر: تورن.
(٨٧) أوامر تسفي ايلون، ٤٨/٧/٦، أرشيف الكيبوتس الموحد (تسيزلينغ)، المجموعة ٩، الوحدة ٩، الملف ١.
(٨٨) اللجنة الوزارية، ٤٨/١١/٥، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2401/21/أ.
(٨٩) تقرير م. سيلع، ٤٨/١١/٤، أرشيف الدولة، وزارة الاقليات، المجموعة ٤٩، الوحدة ١١٤، الملف ٣٠٢.
(٩٠) بن ـ غوريون في مركز ماباي، ٤٩/٣/١٦، أرشيف حزب العمل.
(٩١) مشاورات سياسية، ٤٩/٤/١٢، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2447/3.
(٩٢) شاريت في كتلة ماباي في الكنيست، ٤٩/٤/٢٦، أرشيف حزب العمل، المجموعة ٢، 11/1/1.
(٩٣) من شاريت الى ايتان، ٤٨/٦/٦، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، اللاجئون العرب، 2444/19.
(٩٤) من شاريت الى غولدمان، ٤٨/٦/١٥، وثائق اسرائيل، المجلد ١، ص ١٦٣.
(٩٥) من شاريت الى برنادوت، ٤٨/٨/١، وثائق اسرائيل، المجلد ١، ص ٤٤١؛ بن ـ غوريون، دولة اسرائيل المتجددة، ص ١٦٧.
(٩٦) برنادوت، ص ١٦٣.
(٩٧) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٨/٩/٨.
(٩٨) المصدر نفسه، ٤٨/٩/٢٦.
(٩٩) المصدر نفسه، ٤٨/١٠/٢٦؛ قدر احد التقارير، في وقت لاحق، ان عددهم يصل الى ٦٠٠ ألف. أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، اللاجئون العرب، 2444/19. وادعى العرب ان العدد يناهز ٩٠٠ ألف.
(١٠٠) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٨/١٠/٣١.
(١٠١) من يوسف الى شاريت، ٤٩/٢/١، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، لجنة التوفيق، ج/5578 221.
(١٠٢) من اثريج الى وزير الخارجية، ٤٩/٤/١٣، وثائق الولايات المتحدة، ١٩٤٩، ص ٩١٣.
(١٠٣) أخبار من الشرق الاوسط، مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، اللاجئون، 2444/19.
(١٠٤) من بن ـ غوريون الى شابيرا، ٤٩/٤/١٠، تراث بن ـ غوريون.
(١٠٥) من شاريت الى فايتس وليفشتس ودانف، ٤٩/٣/١٤، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، اللاجئون، 2444/19.
(١٠٦) جلسة الحكومة، ٤٨/٧/٢١، أرشيف الكيبوتس الموحد (تسيزلينغ)، المجموعة ٩، الوحدة ٩، الملف ٣.
(١٠٧) من فايتس الى شاريت، ٤٩/٥/٢٧، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، اللاجئون، 2444/19.
(١٠٨) مذكرات فايتس، ٤٩/٧/٢٧.
(١٠٩) من ماكدونالد الى وزير الخارجية، ٤٩/٦/١٠، وثائق الولايات المتحدة، ١٩٤٩، ص ١١١١.
(١١٠) من ماكدونالد الى وزير الخارجية، ٤٩/٧/٢٧، وثائق الولايات المتحدة، ١٩٤٩، ص ١٢٦٥.
(١١١) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٨/١.
(١١٢) شاريت في لجنة الخارجية والدفاع، ٤٩/٨/١، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2451/3/أ.

(١١٣) مشاورات، ٤٩/٤/١٢، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2477/3.
(١١٤) شاريت في سكرتارية ماباي وكتلة الكنيست، ٤٩/٧/٢٨، أرشيف حزب العمل، 24/49.
(١١٥) من شاريت الى ساسون، ٤٩/٦/٢، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، أ/2451/3.
(١١٦) محاضر الكنيست، المجلد ٢، ص ١٢٢٧، ٤٩/٨/٢.
(١١٧) من المفوض الى وزير الخارجية، ٤٩/٨/٩، وثائق الولايات المتحدة، ١٩٤٩، ص ١٢٩٢.
(١١٨) من بورات الى أتشيسون، ٤٩/٨/١٥، وثائق الولايات المتحدة، [١٩٤٩؟]، ص ١٣١٤.
(١١٩) جلسة كتلة الكنيست مع سكرتارية ماباي، ٤٩/٨/١، أرشيف حزب العمل، 11/2/1.
(١٢٠) مذكرات فايتس، ٤٩/٨/١٨.
(١٢١) أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2442/6.
(١٢٢) من يوسف تكواع، مكتب المستشار القضائي، الى يهوشفاط هركابي، مكتب الوزير، ٤٩/٨/٩، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، اللاجئون العرب، 2444/19.
(١٢٣) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٧/١٤.
(١٢٤) من شاريت الى ايبن، ٤٩/٩/٢٦، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2447/1.
(١٢٥) من كيلي الى وزير الخارجية، ٤٩/٥/١٩، وثائق الولايات المتحدة، ١٩٤٩، ص ١٠٣٢.
(١٢٦) من اثريج الى ترومان، ٤٩/٤/١١، وثائق الولايات المتحدة، ١٩٤٩، ص ٩٠٥؛ وكذلك من المفوض في سويسرا الى وزير الخارجية، ٤٩/٥/٢٠، في أعقاب محادثة مع ايتان، وثائق الولايات المتحدة، ١٩٤٩، ص ١٠٥٨.
(١٢٧) من أتشيسون الى السفراء، ٤٩/٨/١٦، وثائق الولايات المتحدة، ١٩٤٩، ص ١٣١٧.
(١٢٨) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٦/٣٠.
(١٢٩) المصدر نفسه، ٤٩/٥/٢٩.
(١٣٠) من الحكومة الاسرائيلية الى حكومة الولايات المتحدة، ٤٩/٦/٨، وثائق الولايات المتحدة، ١٩٤٩، ص ١٠٧٥، ١٠٠٥؛ رسالة ترومان، ص ١٠٧٤.
(١٣١) من اثريج الى وزير الخارجية، ٤٩/٦/٢، وثائق الولايات المتحدة، ١٩٤٩، ص ١٠٨٥.
(١٣٢) من ساسون الى شاريت، ٤٩/٨/١٥، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، لجنة التوفيق، 2447/1.
(١٣٣) من ايتان الى شاريت، ٤٩/١/٢٣، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٥٢.
(١٣٤) بن ـ غوريون في لجنة ماباي المركزية، ٢٢ ـ ٤٩/٧/٢٣، أرشيف حزب العمل.
(١٣٥) مشاورات سياسية، ٤٨/١٢/٣٠، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2447/3.
(١٣٦) من ساسون الى شاريت، ٤٩/٢/٢٤، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٢٧١.
(١٣٧) من ساسون الى شاريت، ٤٩/٢/٢٥، وثائق اسرائيل، المجلد ٣، ص ٢٧٤.
(١٣٨) مشاورات سياسية، ٤٨/١٢/٣٠، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2447/3.
(١٣٩) مشاورات سياسية، ٤٩/٤/١٢، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2447/3.
(١٤٠) المصدر نفسه.
(١٤١) مذكرات بن ـ غوريون، ٥٠/١٢/٢١.
(١٤٢) مشاورات سياسية، ٤٨/١٢/٣٠، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2447/3.
(١٤٣) من بن ـ غوريون الى لجنة عاغوش (الكتلة)، ٤٩/٣/٨، تراث بن ـ غوريون.
(١٤٤) مشاورات سياسية، ٤٩/٤/٢٢، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، مؤتمر لوزان، 2447/3.

(١٤٥) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٦/٣.
(١٤٦) المصدر نفسه، ٤٩/٧/٩.
(١٤٧) سكرتارية ماباي وكتلة الكنيست، ٤٩/٧/٢٨، أرشيف حزب العمل.
(١٤٨) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٧/١٨.
(١٤٩) ادارة الكتلة في الكنيست، ٤٩/١٢/١٨، أرشيف حزب العمل، 11/1/1.
(١٥٠) محضر رقم ٢ لجلسة اللجنة الفرعية للكنيست من اجل تنظيم عملها لدى عودتها من القدس، ٥٠/١/١١، أرشيف الدولة، أرشيف دوف يوسف، المجموعة ٦٩، 716/24.
(١٥١) كتلة ماباي في الكنيست، ٤٩/١٢/١٢، أرشيف حزب العمل، 2/1.
(١٥٢) محاضر الكنيست، المجلد ٣، ص ٢٢١، ٤٩/١٢/٥.
(١٥٣) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/١٢/١٤.
(١٥٤) المصدر نفسه، ١٦ ـ ٤٩/١٢/١٧.
(١٥٥) المصدر نفسه.

الفصل الثاني: وجها لوجه

(١) مذكرات فايتس، ٤٩/٢/١٤.
(٢) المصدر نفسه، ٥٠/٢/٨.
(٣) محاضر الكنيست، المجلد ١، ص ٨٥، ٤٩/٢/٢٨.
(٤) بشأن مشكلات المستدروت في الدولة، شباط/فبراير ١٩٤٨، أرشيف حزب العمل، 7/69/48. أعضاء لجنة توضيح العلاقات بالعامل العربي هم: ز. ايسرزون (اون)، أ. أغاسي، م. أساف، ر. بورشتين (بركان)، ر. شيلواح، راحيل ينئيت، أ. ج. كوهين، ب. لافون، غولدا مئير، م. نميروفسكي (نمير)، ي. كوسوي (كاسيه)، س. شلومون، أ. ساسون.
(٥) بشأن مشكلات التربية في الدولة، تل ابيب، حزيران/يونيو ١٩٤٨، أرشيف حزب العمل، 7/1/48.
(٦) جلسة الكتلة في الكنيست مع سكرتارية الحزب، ٤٩/٨/١، أرشيف حزب العمل.
(٧) أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، عرب ارض ـ اسرائيل، 2451/12.
(٨) اللجنة الوزارية لشؤون الاملاك المتروكة، ٤٨/٧/٢٦، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، أ/2401/21.
(٩) أرشيف الدولة، وزارة الاقليات، 1319/42، محاولة لمنع طرد سكان ترشيحا؛ 1319/66، محاولة لمنع الطرد من قرية اجزم وغيرها.
(١٠) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٥/١.
(١١) المصدر نفسه، ٤٩/٦/١٩.
(١٢) المصدر نفسه، ٤٩/١١/٢٢.
(١٣) المصدر نفسه، ٤٩/١٢/٢٠.
(١٤) المصدر نفسه، ٤٨/٥/٨.
(١٥) المصدر نفسه.
(١٦) المصدر نفسه، ٤٩/٣/٢٢.
(١٧) المصدر نفسه، ٤٨/١١/١٠.
(١٨) المصدر نفسه، ٤٨/١٠/٩.

(١٩) المصدر نفسه، ٤٩/٣/٢٤.

(٢٠) المصدر نفسه، ٤٩/٦/٢٢.

(٢١) لجنة توضيح مسألة العرب في اسرائيل، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، ج/5593.

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) المصدر نفسه.

(٢٤) من بن ـ غوريون الى يادين، ٥٠/٥/١٤، تراث بن ـ غوريون.

(٢٥) «هبراكليت» [«المحامي»]، شباط/فبراير ١٩٤٦، ص ٥٨ ـ ٦٤.

(٢٦) هيرتسل كوك وتسيبورا فينيرسكي ضد وزير الدفاع وآخرين، المحكمة العليا 2/48 + 1، «همشباط» [«المحاكمة»]، المجلد ٣، ١٩٤٨، ص ٣٠٧.

(٢٧) اسماعيل علي ضد مفتش الشرطة وآخرين، أحكام المحكمة العليا، المجلد ٧، ص ٩١٣؛ أليوفي ضد وزير الدفاع وآخرين، أحكام المحكمة العليا، المجلد ٦، ص ١٠٥؛ أبو علي وآخرون ضد فاربين وآخرين، أحكام المحكمة العليا، المجلد ١٣، ص ٤٧٣.

(٢٨) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٨/٨/٢٦.

(٢٩) اللجنة الوزارية لشؤون الاملاك المتروكة، ٤٨/٧/١٣، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، أ/2401/21.

(٣٠) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/١٠/٩: «قلت لآفنر ان يتشدد في مسألة الفساد، وان عليه اذا كانت لديه شكوك مثبتة ان يلجأ الى الاقالات من دون رحمة.»

(٣١) طرحت بعض هذه الاعمال في الكنيست، المجلد ١، ص ٧٥٣، ٤٩/٦/٣٠ (الناصرة)؛ المجلد ٢، ص ٩٠٦، ٤٩/٧/٥ (الرملة)؛ المجلد ٣، ص ٧١، ٤٩/١١/١٦ (شفا عمرو) وغيرها.

(٣٢) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٥/١.

(٣٣) «عال همشمار»، ٥٠/١٢/١٠.

(٣٤) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/١/٤.

(٣٥) المصدر نفسه، ٤٩/٢/٧.

(٣٦) أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، اللاجئون العرب، 2444/19.

(٣٧) محاضر الكنيست، المجلد ١، ص ٨٥، ٤٩/٣/٩.

(٣٨) المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ١٥٣، ٤٩/٩/١.

(٣٩) «هعولام هازيه»، ٥٠/٦/٢٢، تصوير مكسيم سلومون؛ «هعولام هازيه»، ٥٠/٦/٢٩.

(٤٠) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٧/٦.

(٤١) مذكرات فايتس، ٤٩/٨/١٧.

(٤٢) المصدر نفسه، المجلد ٤، ص ٣٥٨.

(٤٣) من بوردت الى أتشيسون، ٤٩/٤/١٩، وثائق الولايات المتحدة، ١٩٤٩، ص ١٣٢٠. طلب وزير الخارجية أتشيسون من القنصل تزويده بأسماء المطرودين وأرقام بطاقات هوياتهم. من أتشيسون الى بوردت، ٤٩/٤/٢٦، المصدر نفسه. هذه الوثائق مثبتة في كتاب المستندات، لكنها ليست مستنسخة بكاملها فيه. والاقتباسات هنا بحسب المصدر المحفوظ في واشنطن بعد استئذان المركز الثقافي الاميركي في القدس. أرشيف الدولة، وزارة الاقليات، 1319/40، طرد سكان قرية معليا؛ 1319/53، محظور على سكان قرية الحواسة العودة الى بيوتهم؛ 1319/66، جدل بين اجهزة الامن ووزارة الاقليات في شأن طرد سكان من قرية اجزم وغيرها. دايان، ص ٩٥.

(٤٤) اللجنة الوزارية لشؤون الاملاك المتروكة، ٤٨/١٢/٣١، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، أ/2401/21؛ مذكرات فايتس، ٤٩/٢/٢٣؛ دايان، ص ٩٦؛ «نير»، ٣ ـ ٤، ٥٠/١٢/١.

(٤٥) محاضر في حيازة رحبعام عمير مقتبسة بعد استئذانه.

(٤٦) مقابلة، ٨٣/٦/١٤.

(٤٧) مقابلة، ٨٣/٦/١٥.

(٤٨) من بن ـ غوريون الى رئيس الكنيست، ٤٩/١٢/٤، تراث بن ـ غوريون.

(٤٩) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/١١/٢٢.

(٥٠) «تأنيب توفيق طوبي»، مجلة «هطور هشفعي» [«العمود السابع»]، المجلد ١، ص ٢٧٦.

(٥١) من بوردت الى أتشيسون، ٤٩/٤/١٩، مقتبسة من وثائق الولايات المتحدة، ١٩٤٩، ص ١٣٢٠، لكنها ليست مطبوعة بكاملها. المقتبس هنا بحسب المصدر المحفوظ في واشنطن، بعد استئذان المركز الثقافي الاميركي في القدس.

(٥٢) اللجنة الوزارية لشؤون الاملاك المتروكة، ٤٨/١٢/١٧، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، أ/2401/21.

(٥٣) عطاالله منصور، «هآرتس»، ٧٧/٩/٢٣.

(٥٤) «هآرتس»، ٧٢/٨/١١.

(٥٥) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٨/١١/١٦.

(٥٦) من رحبعام عمير الى موشيه بيتح، كانون الثاني/يناير ١٩٤٩، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 1319/47.

(٥٧) لاجئون عرب في قرى الشمال، تقرير استخبارات، ٤٨/١٠/١٤، أرشيف الدولة، وزارة الاقليات، المجموعة ٤٩، الوحدة ١١٤، الملف ٣٠٢.

(٥٨) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٥/١.

(٥٩) من قائد لواء حيفا الى وزارة الاقليات، ٤٨/١٢/١، أرشيف الدولة، وزارة الاقليات، عين حوض، 1319/54.

(٦٠) بن ـ غوريون، يوميات الحرب، المجلد ٣، ص ٨٣٣ و ٩٢٦.

(٦١) مذكرات فايتس، ٤٩/١/٢١.

(٦٢) المصدر نفسه، ٤٩/٦/٢٤.

(٦٣) المصدر نفسه، ٥٠/١/٥.

(٦٤) اللجنة الوزارية لشؤون الاملاك المتروكة، ٤٨/١٢/١٧، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، أ/2401/21.

(٦٥) محاضر الكنيست، المجلد ٢، ص ١١٨٩، ١ ـ ٤٩/٨/٣. بشأن طرد سكان قرية الرابسية [الغابسية؟] ـ المحكمة العليا 288/51 و33/52، أحكام المحكمة العليا، المجلد ٩، ص ٦٨٩ ـ ٦٩٦.

(٦٦) «هآرتس»، ٤٩/٨/٩.

(٦٧) من موشيه شاريت الى وزراء الحكومة، ٥٠/٢/٢٤، أرشيف الدولة، أرشيف دوف يوسف، مراسلات ومذكرات، 703/16.

(٦٨) أرشيف حزب العمل، المجموعة ٢، رقم موقت 901.

(٦٩) من يهوشواع بالمون الى سكرتير الحكومة، ٥٠/٧/٣، لجنة توضيح مسألة العرب في اسرائيل، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، ج/5593.

(٧٠) كوليك، ص ١٣٤.

(٧١) مقابلة، ٦/٦/٨٣.

(٧٢) مذكرات بن ـ غوريون، ١٦/١٠/٤٩.

(٧٣) محضر الاجتماع الثاني لتنسيق الدعاية في وسط الاقليات والاسرى العرب في اسرائيل، ٣٠/١١/٤٨، أرشيف الدولة، وزارة الاقليات، المجموعة ٤٩، الوحدة ٣١، الملف ١٣٢٢.

(٧٤) «هآرتس»، ١/٧/٤٩، صيغة معتدلة كثيرا، «حيروت»، ١/٧/٤٩.

(٧٥) «هآرتس»، ٢٠/١٢/٤٩.

(٧٦) «هادور»، ٢٩/٣/٤٩.

(٧٧) جلسة السكرتارية، ٢٨/٧/٤٩، أرشيف حزب العمل. بشأن الطرد من الفالوجة وعمليات السلب والنهب وضرب المواطنين واطلاق النار، في تقرير القنصل الاميركي في القدس، ٢٦/٤/٤٩، مقتبسة من وثائق الولايات المتحدة، ١٩٤٩، ص ١٣٢٠.

الفصل الثالث: توزيع الغنائم

(١) أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، القيم على أملاك الغائبين، 210/05، ج/5440.

(٢) مذكرات بن ـ غوريون، ١٦/٦/٤٨.

(٣) اللجنة الوزارية لشؤون الاملاك المتروكة، ٥/١١/٤٨، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، أ/2401/21.

(٤) من يوسف الى بن ـ غوريون، ٩/١٢/٤٨، تراث بن ـ غوريون.

(٥) نحميا أرغوف الى رئيس هيئة الاركان العامة، ١٧/١٢/٤٨، تراث بن ـ غوريون.

(٦) من بن ـ غوريون الى يوسف، ١٦/١٢/٤٨، تراث بن ـ غوريون.

(٧) بن ـ غوريون، يوميات الحرب، ص ٥٩١.

(٨) أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، القيم 210/05، ج/5440.

(٩) شفرير، ص ٢٤٢.

(١٠) محاضر من جلسات الحكومة، ٩/٦/٤٨ (شطريت)، ٤/٧/٤٨ (بنطوف)، ٢١/٧/٤٨ (تسيزلينغ)، أرشيف الكيبوتس الموحد (تسيزلينغ)، المجموعة ٩، الوحدة ٩، الملف ٤.

(١١) محاضر الكنيست، المجلد ٣، ص ٣٧، ١٤/١١/٤٩.

(١٢) المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ١٥٦، ٢٢/١١/٤٩.

(١٣) شفرير، ص ٢٢٤.

(١٤) مذكرات بن ـ غوريون، ١١/١١/٤٨.

(١٥) «هآرتس»، ١/٩/٤٩.

(١٦) مذكرات بن ـ غوريون، ٧/٦/٤٨.

(١٧) من تسيزلينغ الى بن ـ غوريون، ١٦/٦/٤٨، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، أ/2401/21.

(١٨) تقرير القيم، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، القيم، 210/05، ج/5440، محضر جلسة الحكومة، ٢١/٧/٤٨، أرشيف الكيبوتس الموحد (تسيزلينغ)، المجموعة ٩، الوحدة ٩، الملف ٣.

(١٩) اللجنة الوزارية لشؤون الاملاك المتروكة، ١٣/٧/٤٨، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، أ/2401/21.

(٢٠) المصدر نفسه، ٥/١١/٤٨، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، أ/2401/21.

(٢١) من بن ـ غوريون الى زالمان مسحاري، ١١/١١/٤٨، تراث بن ـ غوريون.

(٢٢) لوفبن، ص ١١٧.

(٢٣) مذكرات بن ـ غوريون، ١٦/٦/٤٨.

(٢٤) الأرشيف الصهيوني المركزي، S/41 248؛ لوفبن، ص ١٩٩؛ في ايلول / سبتمبر ١٩٤٨ حددت الحكومة لجنة من اربعة وزراء كي تقرر كيفية توزيع المساكن في يافا. محضر جلسة الحكومة، أرشيف الكيبوتس الموحد (تسيزلينغ)، المجموعة ٩، الوحدة ٩، الملف ١.

(٢٥) تقرير شفرير، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 210/05، القيم، ج/5440.

(٢٦) الأرشيف الصهيوني المركزي، S/41 248.

(٢٧) «هآرتس»، ٣/٧/٤٩.

(٢٨) المصدر نفسه، ٨/٤/٤٩، عن الحدث وأحداث مشابهة، أرشيف الدولة، وزارة الاقليات، المجموعة ٤٩، الوحدة ٨٣، الملف ٣٠٩.

(٢٩) رسالة الى هيئة تحرير «هآرتس»، ٢٠/٩/٤٩، وأيضا ٢٥/٢/٤٩.

(٣٠) تقرير شفرير، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 210/05، القيم، ج/5440.

(٣١) بيان بن ـ غوريون، محاضر الكنيست، المجلد ١، ص ٣٩٩، ٢٦/٤/٤٩.

(٣٢) لوفبن، ص ٣ ـ ١٢٢.

(٣٣) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٢٩/٤/٤٩.

(٣٤) لوفبن، ص ٣ ـ ١٢٢.

(٣٥) جلسة الحكومة، ٤/٧/٤٨، أرشيف الكيبوتس الموحد (تسيزلينغ)، المجموعة ٩، الوحدة ٩، الملف ١.

(٣٦) محضر الجلسة، ١٧/٩/٤٨، أرشيف الكيبوتس الموحد (تسيزلينغ)، المجموعة ٩، الوحدة ٩، الملف ٤.

(٣٧) لوفبن، ص ١٢٣.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ١٢٥.

(٣٩) الأرشيف الصهيوني المركزي، S/41 247. القرار اتخذ بتوطين بئر السبع والرملة واللد في جلسة اللجنة الوزارية لشؤون العرب، ٥/١٢/٤٨، محضر أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، أ/2401/21. تعديل قرار، اللجنة الوزارية لشؤون الاملاك المتروكة، ١٧/٢/٤٨. توطين مجدل جاد وأماكن اخرى، محضر، ٣١/١٢/٤٨، المصدر نفسه.

(٤٠) من يوسفتال الى غرينبرغ، ١٣/٤/٤٩، الأرشيف الصهيوني المركزي، قسم الاستيعاب، S/84/71.

(٤١) «دافار»، ٦/١٠/٤٩.

(٤٢) الأرشيف الصهيوني المركزي، قسم الاستيعاب، S/84/71.

(٤٣) المجلس التنفيذي الصهيوني، ١٥/١١/٤٩.

(٤٤) تقرير لجنة النظر في التعويضات عن أملاك الغائبين، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، تعويضات وأملاك الغائبين، 2451/18.

(٤٥) مذكرات بن ـ غوريون، ٦/٥/٤٨.

(٤٦) المصدر نفسه، ٤/٨/٤٩، وكذلك محضر جلسة تتعلق بالأملاك المتروكة، ٤/٨/٤٩، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 5431/17.

(٤٧) من بن ـ غوريون الى روزين، ٣٠/٨/٤٨، أرشيف الكيبوتس الموحد (تسيزلينغ)، المجموعة ٩، الوحدة ٩، الملف ٤.

(٤٨) من شاريت الى سكرتارية الحكومة، ٢٨/٩/٤٨، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 5431/17.

(٤٩) تقرير وزارة الزراعة، ٥١/١٠/٩، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، المجموعة ٩٧، الملف ٥٨٠٦، الوحدة ج/2458.

(٥٠) أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 5431/17.

(٥١) محاضر الكنيست، المجلد ٣، ص ١٤٤، ٤٩/١١/٢٢.

(٥٢) مقتبس في جريس، ص ٦٦.

(٥٣) محاضر الكنيست، المجلد ٣، ص ١٦٤، ٤٩/١١/٢٣.

(٥٤) تقرير لجنة النظر في التعويضات عن أملاك الغائبين، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2451/18.

(٥٥) من القيم على أملاك الغائبين الى وزير المالية، ٥١/٢/١١، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، مجلس القيمين، ١٩٤٩ ـ ٥٣، 5431/19.

(٥٦) محضر جلسة تتعلق بشؤون الاملاك المتروكة، ٤٩/٨/٤، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 5431/17.

(٥٧) مشكلات أملاك الغائبين بقلم يهوشواع بالمون، ٤٩/٦/١٥، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، أ/2401/21؛ لجنة شؤون أملاك الغائبين، ٥٢/١/٨، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، ملف املاك الغائبين، رقم ٢، 5431/18؛ أهارون ليسكوفسكي، الغائبون الحاضرون في اسرائيل ـ وثيقة داخلية في محفوظات المستشار لشؤون العرب، آب/اغسطس ١٩٥٩، أرشيف الدولة، الوحدة ٣٨٦، 3/9959/27.

(٥٨) من وزير الخارجية الى مستشار الحكومة القانوني، ٥٠/١/١١، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، أ/2401/21.

(٥٩) من شبطاي روزين الى وزير الخارجية، ٤٨/٧/٢٧، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، تعويضات وأملاك الغائبين، 2451/18؛ مراسلات مع موفدي الموساد للهجرة في العراق، ملفات قسم الهجرة التابع للوكالة اليهودية، ربطة رقم 365/57، الترقيم الاصلي 2421/53.

(٦٠) محاضر الكنيست، المجلد ٣، ص ٤٠، ٤٩/١١/١٤؛ وكذلك اتهامات مشابهة، المجلد ٤، ص ٦٧٤، ٥٠/١/٣١.

(٦١) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٦/٥.

(٦٢) من شعبة رعاية المهاجر الى تسفي هيرمان، ٤٩/١٠/٦، الأرشيف الصهيوني المركزي، قسم الاستيعاب، S/84/71.

(٦٣) أرشيف الدولة، أرشيف دوف يوسف، مراسلات ومذكرات، 703/16، ٤٩/١٢/٥.

(٦٤) من طوليدانو الى الوكالة اليهودية، ٤٨/١٢/١، الأرشيف الصهيوني المركزي، طوائف الشرق، S/41 508.

(٦٥) الأرشيف الصهيوني المركزي، قسم الاستيعاب، القدس، S/84/70.

(٦٦) أرشيف الدولة، وزارة الاقليات، المجموعة ٤٩، الوحدة ١٣١٤، الملف ٤٩، شباط/فبراير ١٩٤٩.

(٦٧) اقتبسه باين، ص ٨٠ ـ ٨١؛ كورن، ص ٢٦.

(٦٨) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٨/١١/٢٢.

(٦٩) محضر جلسة الحكومة، ٤٨/٦/٢٧، أرشيف الكيبوتس الموحد (تسيزلينغ)، المجموعة ٩، الوحدة ٩، الملف ٣.

(٧٠) من بن ـ غوريون الى تسيزلينغ، ٤٨/٩/١٣، أرشيف الكيبوتس الموحد (تسيزلينغ)، المجموعة ٩، الوحدة ٩، الملف ٤؛ وكذلك محضر اللجنة الوزارية لشؤون الأملاك المتروكة، ٤٨/٩/١٧، والمصدر نفسه.

(٧١) أرشيف الدولة، أرشيف دوف يوسف، المجموعة ٦٩، 714/4.

(٧٢) خطط الاستيطان ـ أرشيف الكيبوتس الموحد (تسيزلينغ)، المجموعة ٩، الوحدة 8/أ.

(٧٣) مذكرات فايتس، ٤٩/١/٢٦.

(٧٤) المصدر نفسه، ٤٩/٦/٧؛ ٤٩/٨/٩.

(٧٥) المصدر نفسه، ٤٩/٣/١٥.

(٧٦) المصدر نفسه، ٤٩/١/٢٧؛ ٤٩/٢/٢٤؛ ٤٩/٦/٢٤.

(٧٧) أرشيف الكيبوتس الموحد (تسيزلينغ)، المجموعة ٩، الوحدة ٩، الملف ١.

(٧٨) اللجنة الوزارية لشؤون الاملاك المتروكة، ٤٨/٨/٢٧؛ ٤٨/١٢/٢٧، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، أ/2401/24.

(٧٩) الأرشيف الصهيوني المركزي، معسكر للمهاجرين، غفعات شاؤول ب، دير ياسين، S/84/28؛ S/84/30؛ S/84/32؛ S/63/51؛ S/84/70؛ S/84/71.

(٨٠) أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، استيعاب مهاجرين في الزراعة، ج/5559 7133.

(٨١) محاضر الكنيست، المجلد ٢، ص ١٢٠١، ٤٩/٨/١.

(٨٢) المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ١٢١٩، ٤٩/٨/٢.

(٨٣) «دافار»، ٤٩/٧/٢٧.

(٨٤) «هآرتس»، ٤٩/٥/٣١.

(٨٥) «دافار هشفواع»، ٤٩/٨/٤.

(٨٦) محاضر الكنيست، المجلد ٣، ص ٣٠٣، ٤٩/١٢/١٤.

(٨٧) «هآرتس»، ٤٩/٢/١١.

القسم الثاني: بين القدامى والمهاجرين الجدد

الفصل الأول: المليون الأول

(١) المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون، ص ١٧٨ وما يليها.

(٢) ألترمن، المجلد ١، ص ١٢٠.
هناك جداول احصائية اخرى، تختلف عن هذا الجدول، لكن الفوارق بينها وبينه ليست كبيرة، وهي ناجمة عن الاختلاف في تحديد مصدر المهاجرين بحسب مسقط رأسهم او البلد الذي أقاموا فيه قبل هجرتهم. سيكرون، ص ٧.

(٣) بشأن مشكلات الهجرة واستيعاب المهاجرين من العامين الأولين لتأسيس الدولة، نيسان/ابريل ١٩٤٨، أرشيف حزب العمل، 7/36.

(٤) ١٩٤٩ ـ ٢٣٠,٩٠٠؛ ١٩٥٠ ـ ١٦٩,٠٠٠؛ ١٩٥١ ـ ١٧٤,٠٠٠؛ ١٩٥٢ ـ ٢٣,٣٧٥.

(٥) «هآرتس»، ٤٩/٤/١٣.

(٦) بن ـ غوريون، محاضر الكنيست، المجلد ١، ص ٥٤، ٤٩/٣/٨.

(٧) بن ـ غوريون، خلود اسرائيل، ص ١٦.

(٨) مشاورات، ٤٩/٤/١٢، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 130.02/2447/3. أقواله في سكرتارية ماباي، ٤٩/٤/٢٢، (أرشيف حزب العمل، المجموعة 2 24/49) وفي جلسة لجنة الحزب المركزية،

٢٢ ـ ٤٩/٧/٢٣ (أرشيف حزب العمل، المجموعة 2 11/2/1). وقد وضع بن ـ غوريون، في احدى صفحات مذكراته، عناصر امن الدولة وفق الترتيب التالي: ١ ـ الهجرة. ٢ ـ الاستيطان. ٣ ـ القوة الاقتصادية. ٤ ـ السياسة الخارجية. (مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٥/١٢).

(٩) من برزيلاي الى شاريت، ٤٩/٩/٣٠، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2397/19.

(١٠) تقرير شاريت، ٤٨/١٢/١٢، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 130.11/2502/8.

(١١) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٨/١٢/١٣.

(١٢) المصدر نفسه، ٤٩/١/١٠.

(١٣) أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2411/7.

(١٤) أرشيف الدولة، أرشيف دوف يوسف، مراسلات ومذكرات، المجموعة 69 703/16.

(١٥) من القنصلية الاسرائيلية في وارسو الى وزارة الخارجية، ٤٩/٨/٢١، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2397/19.

(١٦) من برزيلاي الى شاريت، ٤٩/١٠/١٩، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2397/19.

(١٧) أرشيف الدولة، أرشيف دوف يوسف، مراسلات ومذكرات، المجموعة 69 703/16.

(١٨) مقابلة، ٨٣/٣/٢٢.

(١٩) من افريئيل الى شاريت، ٤٩/٨/١٤، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2397/20. يظهر من الملف كأن الجوينت انفردت في رأيها في هذا الشأن.

(٢٠) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/١١/٩، وكذلك ملفات دائرة الهجرة، الربطة ٥٦، الملف ٣٥٢، الترقيم الاصلي 2421/34 (تصاريح الهجرة من هنغاريا)؛ الربطة ٤١٠، الترقيم الاصلي 2437/40، وفيه مجموعة من الرسائل التي بعث بها زعيم أغودات يسرائيل، ي. م. ليفين.

(٢١) «محضر في شأن هجرة المواطنين الهنغاريين الى اسرائيل»، ٤٩/١٠/٢٠، في ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/49. ان جزءا من الملفات المتعلقة بالترتيبات المالية بين اسرائيل ودول اوروبا الشرقية لم يفتح بعد. وقد أُخرج من الملفات التي فتحت عدد من الوثائق المتعلقة بالموضوع. وما يقال هنا تعكسه ملفات وزارة الخارجية ودائرة الهجرة التابعة للوكالة اليهودية، وبينها: أرشيف الدولة ـ وزارة الخارجية: العلاقات الاسرائيلية ـ التشيكوسلوفاكية، 2381/19: تصاريح الهجرة من بلغاريا 21/34، الملف ٢٢٤٦؛ الهجرة من المجر 2397/20؛ الهجرة من رومانيا 2411/7. ملفات دائرة الهجرة التابعة للوكالة، تصاريح الهجرة من بلغاريا، الربطة ٥٦، الملف ٣٥٤، الترقيم الاصلي 2421/43؛ تصاريح الهجرة من المجر، الربطة ٥٦، الملف ٣٥٢، الترقيم الاصلي 2412/34؛ تصاريح الهجرة من بولونيا، الربطة ٥٦، الملف ٣٤٩، الترقيم الاصلي 2421/12. وكذلك الأرشيف الصهيوني المركزي، الهجرة بحسب الدول، S/41 256. ان ملفات دائرة الهجرة ليست محفوظة في الارشيف المركزي. وجزء منها موجود لدى الدكتور رفائيل. وقد سمحت لي الوكالة اليهودية بالاطلاع على تلك الملفات التي لا تزال في عهدة الدائرة، ووجدتها في مخزن معتم ذي رائحة نتنة في ساحة الروس بالقدس. ونقلت في هذه الاثناء الى مخزن آخر. وأنا اشكر رجال الوكالة زئيف محنائي، ويهودا دومينتس، وآرييه غولتس، على المساعدة التي قدموها. ان جزءا من المادة المحفوظة في هذه الملفات، وتفاصيل اخرى بهذا الشأن، هي ايضا موجودة في ملفات مؤسسة الهجرة، في أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي.

(٢٢) غرينبويم، المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٨/٨/١٨.

(٢٣) نيومان، المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٨/٨/١٩.

(٢٤) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٨/١٠/١٠، وكذلك ٤٨/١٠/١٠ (مناقشة مسألة ما هو حكم كلمة فلسطين في التسمية الرسمية للوكالة). ٤٨/١٠/٢٠ (فلسطين)؛ ٤٨/١٠/٢٤ (كولونيزيشن ـ لوكر)؛ ٤٨/٨/١٩ (شهادات ـ غولدمان).

(٢٥) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٨/٨/١٩.

(٢٦) المصدر نفسه.

(٢٧) المصدر نفسه، ٤٨/٩/٢٧ (ان المقصود، كما يبدو، هو الليرات).

(٢٨) المصدر نفسه، ٤٨/٩/١٩.

(٢٩) المصدر نفسه، ٤٨/٩/٢٨.

(٣٠) المصدر نفسه، ٤٩/٣/٢١. للمزيد من النقاشات في شأن تمويل الخدمات البلدية التي كانت الوكالة تقدمها الى المدن العربية المهجورة، انظر: المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٨/٩/١٩. كما تجادلوا في تمويل أعمال ترميم البيوت العربية المهجورة، وكذلك في تمويل الاستيطان.

(٣١) بعثت الوزارة، فعلا، بتوجيهات الى ضباط الهجرة الذين ارسلتهم الى الخارج، لتشجيع الهجرة. من شابيرا الى ضباط الهجرة، ٤٨/١٠/٢٢، الأرشيف الصهيوني المركزي، S/41 260.

(٣٢) رفائيل، ص ٥٠ ـ ٥٢.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٥١.

(٣٤) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/١١/٢٨؛ رفائيل، ص ١٤٧.

(٣٥) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٤/٢٢.

(٣٦) المصدر نفسه، ٤٩/٥/٢.

(٣٧) المصدر نفسه، ٤٩/١٠/٤.

(٣٨) من الأمور الفوضوية تحويل الأموال من يهود رومانيا الى اسرائيل، بوسائط منها: دبلوماسيون اسرائيليون، وكذلك «اختلاسات في الهجرة من الهند» ـ ملفات دائرة الهجرة، الربطة ٥٩، الملف ٤١١، الترقيم الاصلي 2139/55. «اختلاسات في الهجرة من ايران» ـ الربطة ٦٣، الملف ٤١٠، الترقيم الاصلي 2429/54، الخ. وبهذا الصدد ايضا تقرير مراقب الوكالة في ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي 14 (تسيم)، ٣ ـ ٤، قضية تسيون عزري وكذلك 14/10. امور فوضوية اخرى، بما فيها استعمال عملات اجنبية لأغراض خاصة، وتقاعس، وحتى مساس بالمعايير الخلقية، فيما يتعلق بمعالجة شحن امتعة المهاجرين، وحفلات عرض نظمها موظفون في الوكالة، وحياة البذخ التي عاشوها، والهدايا التي تلقوها، على حساب الوكالة ـ ملفات دائرة الهجرة، مؤسسة الرقابة، المجموعة ١٩، الملف ٨١، الترقيم الاصلي 1006.

(٣٩) ميلشتاين، «كودمون» وكليغر.

(٤٠) رفائيل، ص ٦٦.

(٤١) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٦/٢٢، وكذلك فان «المؤسسة هي مؤسسة لمساعدة دائرة الهجرة» ـ من رفائيل الى زروبابل، ٤٩/٦/٢٢، S/20 95.

(٤٢) من ليفين الى شاي، مدير عام مكتب الهجرة، وزارة الهجرة، ٥٠/٣/٨، ملفات دائرة الهجرة، تصاريح الهجرة من النمسا، الربطة ٥٦، الملف ٣٣، الترقيم الاصلي 2421/35.

(٤٣) من العراق الى المؤسسة، ٤٩/٣/٢٦، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي 28/14.

(٤٤) أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، يهود البلاد العربية، 2451/11، ٥٠/٢/٢٧، وأيضا الأرشيف الصهيوني

المركزي، دائرة اليهود في الشرق الاوسط، 538/ 20 S، بشأن تنظيم الهروب من البلاد العربية بالزوارق، بما في ذلك تفاصيل غرق احد زوارق الهاربين.

(٤٥) في ليبيا مثلا. تقرير مئير شيلون، ٥٢/٣/١٩، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، ج/52 21/721، الوحدة ٢٢٤٦.

(٤٦) تقرير ضابط الهجرة في النمسا الى وزارة الهجرة، ملفات دائرة الهجرة، تصاريح الهجرة من النمسا، الربطة ٥٦، الملف ٣٣، الترقيم الاصلي 2421/35.

(٤٧) ملف الشين بيت [جهاز الامن العام]، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/451.

(٤٨) من الشين بيت الى مؤسسة الهجرة، ٤٩/٨/١٤، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، تسيم 14/29.

(٤٩) مقابلة، ٨٣/١/٤.

(٥٠) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٦/١٦.

(٥١) ملفات دائرة الهجرة، الربطة ٥٧، الملف ٣٦٥، الترقيم الاصلي 2421/53.

(٥٢) من رفائيل الى أعضاء مؤسسة التنسيق، ٥٠/٨/٢٧، والمصدر نفسه.

(٥٣) من الشركة الى بنيامين يروشلمي، ممثل الوكالة، ٤٩/٣/٢١، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/635.

(٥٤) رفائيل، ص ٦٥.

(٥٥) رسالة القنصل د. يسرائيل كارمل، ٤٩/٩/٢٢، الأرشيف الصهيوني المركزي، الهجرة بحسب الدول، S/41 256I.

(٥٦) من شيلو الى المؤسسة، ٤٩/٧/٢٤، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/123.

(٥٧) تقرير غلعادي، ٥٠/٥/٢، الأرشيف الصهيوني المركزي، الهجرة بحسب الدول، S/41 256I.

(٥٨) بشأن المهاجرين من شنحاي، المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٤/٢٢.

(٥٩) أقوال رفائيل، المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٨/٢٨، الرسالة المبعوثة من جوهانسبرغ ورسائل مشابهة تحمل جميعا أختام ايقاف من الرقابة، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/451. هناك ايضا مناشدة من مندوب الهجرة في تونس يطالب فيها بايقاف رسائل المهاجرين ذات المضمون السلبي.

(٦٠) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٣/٢١. المقطع الكامل هو: «لقد منعت نشر الامر، لأنه كان من شأن ذلك إضعاف رغبة اليهود في الهجرة، والامر بكامله موضع شك. وعلى العموم فاننا لا نعرف ما سيكون عليه وضع الهجرة غدا. أما الآن فيمكن اخراجهم من هناك.»

(٦١) من مردخاي بن أوري الى موشيه شابيرا، ٥٠/٧/٦، ملفات دائرة الهجرة، الربطة ٦٥، الملف ٣٥٣، الترقيم الاصلي 2421/35.

(٦٢) من شاريت الى أعضاء الحكومة، ٥٠/٨/٢٥، أرشيف الدولة، أرشيف دوف يوسف، مراسلات ومذكرات، المجموعة 69 703/16.

(٦٣) بن مناحم، ص ١٧٩.

(٦٤) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/١١/٢٨. وفقا لأحد التقديرات، فان اليهود لن يهرعوا الى مغادرة ليبيا بعد عودة الايطاليين اليها. ولذلك، جرت جهود حثيثة للتعجيل في اخراجهم خشية ان تتحسن أوضاعهم. من الدكتور ي. فاينشتاين (دائرة الهجرة) الى زئيف شيند (المؤسسة) بشأن محادثة بين الدكتور ش. أ. ناخون والقنصل الايطالي في القدس، ٤٩/٣/١٣، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش

الدفاع الاسرائيلي، 14/123.

(٦٥) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٤/٢٢.

(٦٦) مؤسسة هجرة الشبيبة في مراكش والجزائر، ٥٠/٢/٢٥، ملفات دائرة الهجرة، تصاريح الهجرة من شمال افريقيا، الربطة ٦١، الملف ٣٩٨، الترقيم الاصلي 2421/73.

(٦٧) من «مكسي»، الوفد في مصر، الى اعضاء ادارة المؤسسة، ٤٩/١١/١٨، ملفات دائرة الهجرة، تصاريح الهجرة من مصر، الربطة ٦٠، الملف ٣٨٩، الترقيم الاصلي 2421/71.

(٦٨) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٤/٢٢.

(٦٩) رفائيل، ص ٥١.

(٧٠) التقرير محفوظ بكامله في ملفات دائرة الهجرة، مؤسسة الرقابة، المجموعة ١٩، الملف ٨١، الترقيم الاصلي 1006، تقرير سنة ١٩٥١. وهناك أجزاء ايضا في ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/10.

(٧١) المصدر نفسه.

(٧٢) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٣/٢١.

(٧٣) المصدر نفسه، ٤٩/٤/٢٩.

(٧٤) د. اينهورن بشأن نقل مهاجرين من بولندا، ٥٠/١/١٧، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/444. وأيضا بشأن ظروف السفر، مافات المؤسسة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/118، «عجوزان فارقا الحياة»، من كدمون الى المؤسسة، ٤٩/١/٢٤؛ من الدكتور ي. غولدين الى المؤسسة، ٤٨/٨/٣١، 14/362، «ان الظروف الصحية ووضع التهوية سيئة للغاية»؛ من ن. فاكسمان الى برفيل، ٤٩/٣/٢٣، تسيم 14/28، «الاختناق الذي لا يحتمل»؛ من وزارة الصحة الى دائرة الهجرة، ٤٩/٤/١٥، 14/372، «جرذان».

(٧٥) من الدائرة المالية الى مؤسسة الهجرة، ٤٩/٦/٢٠، ملفات المؤسسة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 4/10.

(٧٦) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٤/٢٩. وادعى مئير غروسمان، أيضا، ان المؤسسة تعمل من دون رقابة: المصدر نفسه. وأيضا موشيه كول: «ليس ضباط الهجرة هم الذين يحسمون الامور في ميونيخ، ولا وفد الوكالة، وانما رجال المؤسسة» (المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٨/٨/١٩). وفي غضون بضعة أسابيع، اتخذ المجلس التنفيذي الصهيوني قرارات بشأن سلسلة من الخطوات كانت تهدف الى تشديد الرقابة على المؤسسة (المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٦/١٩). لكن هنالك شهادات على ان رفائيل لم ينجح في الحصول على تقرير عن نشاطات المؤسسة وعن الاموال التي انفقتها. ملفات دائرة الهجرة، الجوينت، الربطة ٢٣، الملف ١٢٢، الترقيم الاصلي 1092.

(٧٧) «هآرتس»، ٤٩/٤/١٥، رد برفيل: «لن نتحمل ان يتكلموا عنا هكذا اليوم.» وفي غمرة حديثه الحماسي، مرت ايضا هذه الجملة ذات الدلالة: «اننا نحكم الملايين (...) هذا اقتصاد هائل.» المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٤/٢٢.

(٧٨) محضر، ٥٢/٣/٢١، الأرشيف الصهيوني المركزي، S/41 263.

(٧٩) بشأن التهافت على اغلاق مؤسسة الهجرة في ملفات المؤسسة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/648.

(٨٠) تقرير مراقب الوكالة، ملفات دائرة الهجرة، مؤسسة الرقابة، المجموعة ٢٩، الملف ٨١، الترقيم الأصلي

1006، تقرير سنة ١٩٥١. وهنالك أجزاء منه أيضا في ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/10.

(٨١) من ضابط الهجرة غلعادي الى وزارة الهجرة، ٤٩/٣/٢، الأرشيف الصهيوني المركزي، S 41/256I.

(٨٢) من برزيلاي الى شاريت، ٤٩/١٠/٣٠، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، الهجرة من بولندا، 2397/19.

(٨٣) ايزنشتاين، الفصل الثاني، ص ٣٤ وما يليها.

(٨٤) من القنصل الى وزارة الهجرة، ٤٩/١١/٢، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، وضع اليهود في ألمانيا، 2387/22.

(٨٥) من برزيلاي الى شاريت، ٤٩/٩/٢٠، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2397/19.

(٨٦) اللجنة التنفيذية، ص ١١٨.

(٨٧) أقوال الأدباء.

(٨٨) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٨/١١/١٥.

(٨٩) بن ـ غوريون، خلود اسرائيل، ص ٣٧.

الفصل الثاني: الأيدي التي تعمل وتقاتل

(١) لوفبن، ٩٤.

(٢) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٦/١٩.

(٣) المصدر نفسه، ٤٩/٨/١٩.

(٤) يوسف برفيل في اجتماع مديري المكاتب الاسرائيلية في اوروبا، باريس، ٤٩/٣/١٨، الأرشيف الصهيوني المركزي ج/12413. «في الدول حيث تتم تصفية اليهود بواسطة الهجرة لا بد من اخذ الجميع.»

(٥) ملخص جلسة، ٤٩/٣/٣٠، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، معسكرات المهاجرين، ج/5558.

(٦) محاضر الكنيست، المجلد ٥، ص ١٧٤٥، ٥٠/٦/١٩.

(٧) آرييه ديسنتشيك، «معاريف»، ٤٩/٧/١.

(٨) سلسلة مقالات بعنوان «كنت مهاجرا جديدا لمدة شهر» نشرت في خمس عشرة حلقة، بين ٤٩/٤/١٣ و ٤٩/٥/٢٠.

(٩) في ٧ ايلول/سبتمبر ١٩٤٩ كتب الدكتور يعقوب فاينشتاين، احد مسؤولي دائرة الهجرة، الى الدكتور غيورا يوسفتال: «زرت مع وفد من الشخصيات التونسية معسكرا للمهاجرين في بئر يعقوب ورأيت بأم عيني ان مهاجرين رفضوا تناول الحساء بسبب الديدان الموجودة في الخضروات.» ملفات دائرة الهجرة، بيوت المهاجرين، كريات شموئيل، الربطة ٤٩، الملف ٢٣٦، الترقيم الاصلي 215/4912.

(١٠) عن اقامة معسكرات من دون مطابخ او منتفعات صحية او حمامات، المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٤/١١. مراسلات مع الوزير شابيرا بشأن المساكن المشتركة للرجال والنساء، وفيها تعبير عن التخوف من انتشار أمراض جنسية وعجز عن المحافظة على طهارة العائلة. ملفات دائرة الهجرة التابعة للوكالة اليهودية، الربطة ٤٩، الملف ٢٣٢، الترقيم الاصلي 215.

(١١) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٣/٢٩.

(١٢) المصدر نفسه، ٤٩/٨/١٢.

(١٣) من يوسفتال الى لوكر، ٤٩/٦/٩، الأرشيف الصهيوني المركزي، S 41/247I.

(١٤) محاضر الكنيست، المجلد ١، ص ٦٦٢، ٤٩/٦/٧.

(١٥) المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ١٣٠٢، ٤٩/٨/١٠.

(١٦) المصدر نفسه. وأيضا تقارير عن النقص في الاطباء وسيارات الاسعاف، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، ج/5558، معسكرات المهاجرين.

(١٧) «هآرتس»، ٤٩/٣/١٠.

(١٨) تقرير روت كليغر، ايلول/سبتمبر ١٩٤٩، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، المجموعة ٤٣، 333/5. نقد شديد لأساليب التنظيم والادارة في المعسكرات غير الفعالة بما فيه الكفاية، ولذلك فانها تزيد في معاناة المهاجرين: «مع اعلان الاستقلال، أُخرج من الوكالة اليهودية معظم العاملين الفعالين ونقل للعمل في اجهزة الدولة، ونتيجة ذلك تدهور وضع الوكالة وبلغ حد الفوضى.» تقرير لانداو، ٤٩/٤/٢٢. أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، ج/5558. عن الفساد في توزيع الاغذية، الأرشيف الصهيوني المركزي، استيعاب المهاجرين S 41/247I.

(١٩) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٤/٢٢. أنظر ايضا تقرير كليغر، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، المجموعة ٤٣، 333/5: «لا يحظى المهاجر باعتراف مواطنية كاملة في دولة اسرائيل، وهو يشعر بأنه انسان من الدرجة الثانية، الخ.»

(٢٠) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٣/٢٩.

(٢١) مقابلة، «هآرتس»، ٨١/١٢/٢٥.

(٢٢) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٣/٢٩.

(٢٣) ماباي ـ بشأن مشكلات الهجرة والاستيعاب في العامين الاولين لتأسيس الدولة، نيسان/ابريل ١٩٤٨، أرشيف حزب العمل، 7/36.

(٢٤) مقتبس من [كتاب] ناين، ص ٨٠ ـ ٨١.

(٢٥) كورن، ص ٢٢.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٢٧.

(٢٧) تقرير عن جولة في مستعمرات ممثلي نواة مستعمرة زراعية شمال ـ افريقية من البقعة يومي الاربعاء والخميس، ١٢ ـ ١٣ تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٩. الأرشيف الصهيوني المركزي، S/20 479.

(٢٨) كورن، ص ٢٨ ـ ٢٩.

(٢٩) مكتب رئيس الحكومة، استيعاب المهاجرين في الزراعة، أرشيف الدولة، ج/5559 7133.

(٣٠) الأرشيف الصهيوني المركزي، S/63 42.

(٣١) من أساف الى بن ـ غوريون، ٥١/١/٢٣، ومن اشكول الى بن ـ غوريون، ٥١/١/١٣، ومن ألكن غالي الى أساف، ٥١/٢/٩، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، استيعاب المهاجرين في الزراعة، ج/5559 7133.

(٣٢) مقابلة، ٨٣/٥/٢٠.

(٣٣) كورن، ص ٣٦.

(٣٤) بن ـ غوريون في الكنيست، محاضر الكنيست، المجلد ٣، ص ٥٣٦، ٥٠/١/١٦. أهارون تسيزلينغ، «عال همشمار»، ٥٠/١/٢٧. تقرير غولدشتاين، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، استيعاب

المهاجرين في الزراعة، ج/5559 7133.

(٣٥) «هآرتس»، ٤٩/٤/٢٦.

(٣٦) المصدر نفسه، ٤٩/٥/٩.

(٣٧) محاضر الكنيست، المجلد ٢، ص ١١٣٧، ٤٩/٧/٢٦.

(٣٨) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٣/٧، وكذلك ٤٩/٤/٢٩.

(٣٩) محاضر الكنيست، المجلد ٣، ص ٦١٨، ٥٠/١/٢٤.

(٤٠) المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ١٢٧٨، ٤٩/٨/٨.

(٤١) المصدر نفسه، المجلد ١، ص ٣٤ ــ ٦٣٣، ٤٩/٦/١.

(٤٢) المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ١٢٧٦، ٤٩/٨/٨.

(٤٣) المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ١٢٧٥، ٤٩/٨/٨.

(٤٤) المصدر نفسه، المجلد ١، ص ٣٤ ــ ٦٣٣، ٤٩/٦/١.

(٤٥) «هآرتس»، ٤٩/٨/٢١.

(٤٦) محاضر الكنيست، المجلد ١، ص ٦٠٩، ٤٩/٥/٣١.

(٤٧) المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ١٢٤٤، ٤٩/٨/٣.

(٤٨) من دوف غفعون، مدير شعبة الاسكان، الى غولدا مئير، ٤٩/١١/٣٠، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، اسكان المهاجرين، ج/5559 7135.

(٤٩) سكرتارية ماباي، ٤٩/٤/٢٢، أرشيف حزب العمل، 24/49، المجموعة ٢.

(٥٠) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٣/٢٤.

(٥١) أقوال غروسمان، المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٥/٢.

(٥٢) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٣/٢٩.

(٥٣) المصدر نفسه، ٤٩/٥/٢.

(٥٤) من يوسفتال الى كابلان، ٤٩/٩/٦، الأرشيف الصهيوني المركزي، استيعاب المهاجرين، S 41/247.

(٥٥) سكرتارية ماباي، ٤٩/٤/٢٢، أرشيف حزب العمل، المجموعة 2 24/49.

(٥٦) محاضر الكنيست، المجلد ٣، ص ٣٢، ٤٩/١١/٩.

(٥٧) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٥٠/١/٢. استعنت في الصفحات التالية بمقال لدفوراه برنشتاين، وكذلك بتقرير اللجنة الوزارية المشتركة لتنسيق الخدمات الاجتماعية في معسكرات المهاجرين الموقتة (المعابر)، أرشيف الدولة، المجموعة ٤٣، الملف ٣٩٠٣، الوحدة ج/5558، ووزارة العمل، خطة إسكان، أرشيف الدولة، 16/957/24.

(٥٨) يوسفتال، ص ١٤٨.

(٥٩) ميخائيل، ص ٢١.

(٦٠) أفلفيلد، ص ٦١.

(٦١) كانت تلك هي المقولة الاساسية في بحث ش. ن. ايزنشتات، فلاءمت وجهة النظر المألوفة للمؤسسة السياسية، ودعمتها، ووضعت أساسا لمدرسة كاملة في البحث السوسيولوجي الاسرائيلي. وكان التعبير الشائع «الاستيعاب بواسطة العصرنة».

(٦٢) أقوال الأدباء.

(٦٣) جلسة اللجنة المركزية لحزب ماباي، ٢٢ ــ ٤٩/٧/٢٣، أرشيف حزب العمل، المجموعة 2 11/2/1.

(٦٤) «هآرتس»، ٤٩/٤/٢١.

(٦٥) ألترمن، المجلد ٣، ص ٢٣٦.

(٦٦) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٤/٢٢.

(٦٧) تقرير مئير شيلون، ٥٢/٣/١٩، أرشيف الدولة، الهجرة من ليبيا، ج (52) 21/721، الوحدة ٢٢٤٦.

(٦٨) محاضر الكنيست، المجلد ١، ص ٥٤، ٤٩/٣/٨.

(٦٩) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٨/١٢/١٠.

(٧٠) المصدر نفسه.

(٧١) المصدر نفسه، ٤٩/٤/٢٩.

(٧٢) المصدر نفسه، ٤٩/٣/٢٩.

(٧٣) المصدر نفسه.

(٧٤) المصدر نفسه.

(٧٥) المصدر نفسه، ٤٩/١٠/٦.

(٧٦) المصدر نفسه، ٤٩/١١/٢٨.

(٧٧) المصدر نفسه، ٤٩/١٢/١١.

(٧٨) المصدر نفسه، ٥٠/١/٢.

(٧٩) المصدر نفسه، ٤٩/٤/٢٩. عن النقاش مع «معارضي الهجرة»، رفائيل، ص ١٣٣ ــ ١٦٦، وبين امور اخرى ادعاء بأن الدكتور ناحوم غولدمان اقترح اعادة ألف يهودي الى خارج البلد من الذين هاجروا.

(٨٠) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٤/٢٢.

(٨١) «هآرتس»، ٤٩/٢/١١، م. كرمر (كيرن).

(٨٢) «هآرتس»، ٤٩/٤/١٣.

(٨٣) «همشكيف» [«المراقب»]، ٤٩/٣/٢٥.

(٨٤) «دافار هشفواع»، ٤٩/٤/٢١.

(٨٥) «هتسوفيه»، ٢٦ نيسان ٥٧٠٩ [تاريخ عبري] (٤٩/٤/١٣).

(٨٦) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٤/٢٩.

(٨٧) المصدر نفسه، ٤٩/٣/٢١.

(٨٨) محاضر الكنيست، المجلد ٣، ص ١٢٨، ٤٩/١١/٢١.

(٨٩) مشكلات الهجرة والاستيعاب، ١٩٤٨، أرشيف حزب العمل، 7/36.

(٩٠) آران في اللجنة المركزية، ٤٩/٤/٢١، أرشيف حزب العمل، المجموعة ٢، 24/49.

(٩١) دوفكين في السكرتارية، ٤٩/٤/٢٢، أرشيف حزب العمل، المجموعة ٢، 24/49.

(٩٢) «هآرتس»، ٤٩/٤/١٩.

(٩٣) المصدر نفسه، ٤٩/٢/١١.

(٩٤) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٤/٢٩. وكذلك حرمون، المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٣/٢١، «يعملون لتهجير مادة بشرية ذات مستوى منخفض من ناحية الاستيعاب.»

(٩٥) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٣/٢٩.

(٩٦) المصدر نفسه، ٤٩/١٠/٤.

(٩٧) المصدر نفسه، ٤٨/١٠/١٠.

(٩٨) المصدر نفسه، ١٠/١٢/٤٨.

(٩٩) المصدر نفسه، ٢٩/٣/٤٩.

(١٠٠) المصدر نفسه.

(١٠١) من دان الى المؤسسة، ٢٩/١/٤٩، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 570/14.

(١٠٢) ١٧/٢/٥٠، ملفات دائرة الهجرة، الربطة ٦٠، الملف ٨٣٩، الترقيم الاصلي 2421/71.

(١٠٣) من وزير الهجرة الى ضباط الهجرة، ٢٠/٩/٤٨، ملفات المؤسسة، وزارة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/362.

(١٠٤) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٢٩/٣/٤٩.

(١٠٥) المصدر نفسه، ١٩/٦/٤٩.

(١٠٦) برفيل في اجتماع مديري المكاتب الاسرائيلية في باريس، ١٨/٣/٤٩، الأرشيف الصهيوني المركزي، ج /12413.

(١٠٧) ملفات دائرة الهجرة، الجوينت، الربطة ٢٣، الملف ١١٢٢، الترقيم الاصلي 1092، وكذلك الأرشيف الصهيوني المركزي، حالات اجتماعية لمهاجرين، S 41/246.

(١٠٨) دائرة الهجرة، تصاريح هجرة من مصر، الربطة ٦٠، الملف ٨٣٩، الترقيم الاصلي 1421/71؛ أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، الهجرة من مصر، ج/2397/16، وملفات المؤسسة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/372.

(١٠٩) ملفات دائرة الهجرة، تصاريح الهجرة من شمال افريقيا، الربطة ٦١، الملف ٣٩٣، الترقيم الاصلي، 2421/73، تاريخ الرسالة ٨/٦/٤٩.

(١١٠) من شميدت الى الدائرة، ١٣/٥/٥٠، الأرشيف الصهيوني المركزي، وزارة الهجرة، عدن، S 27II.

(١١١) ملفات دائرة الهجرة، تصاريح الهجرة من الولايات المتحدة، الربطة ٦٠، الملف ٣٨٠، الترقيم الاصلي 2421/62.

(١١٢) مداخلة كاهان، أرشيف الدولة، المجموعة 21/43، الملف ٢٢٤٦، تصاريح الهجرة من بلغاريا.

(١١٣) رفائيل، ص ٩٠ ـ ٩١ وكذلك نقاش بين م. شاريت وم. فيلنر في الكنيست. محاضر الكنيست، المجلد ١، ص ٨٦٦، ٢٩/٦/٤٩.

(١١٤) مداخلة ناتان يلين مور، محاضر الكنيست، المجلد ١، ص ٦٧١، ٨/٦/٤٩.

(١١٥) ملفات دائرة الهجرة، تصاريح الهجرة من النمسا، الربطة ٥٦، الملف ٣٥٣، الترقيم الاصلي 2421/35.

(١١٦) تعميم لدائرة الهجرة، الأرشيف الصهيوني المركزي، S/41 240.

(١١٧) من وزير الهجرة الى موفدي وزارته: «كل حادثة تحدث مع احد الصحافيين يجب احالتها واخضاعها لقرارنا»، ٢٠/٩/٤٨، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/362.

(١١٨) تعميم لدائرة الهجرة، الأرشيف الصهيوني المركزي، S/41 240، نشرة دائرة الاستيعاب، رقم ٤، الأرشيف الصهيوني المركزي، S/20/103. انظر ايضا الطلب الذي وجهه رفائيل الى اشكول لمنح بعض النشيطين السياسيين معاملة خاصة، ٢٠/١١/٤٩، مكتب ليفي اشكول، الأرشيف الصهيوني المركزي، S/43/260.

(١١٩) تقرير مئير شيلون من ليبيا عن عمل الموفد باروخ دوفدفاني، ١٩/٣/٥٢، أرشيف الدولة، ج (52) 21/721، الوحدة 22.6.

(١٢٠) «هآرتس»، ٢١/٤/٤٩.

(١٢١) تقرير كليفر، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، المجموعة ٤٣، 333/5.

(١٢٢) معهد استقصاء الرأي العام، تقرير رقم ٥.

(١٢٣) كرمر، «هآرتس»، ١٥/٤/٤٩.

(١٢٤) غلبلوم، «هآرتس»، ٢٠/٥/٤٩.

(١٢٥) شمعون غورفيتس، «يديعوت احرونوت»، ٣٠/٩/٤٩؛ أليعيزر كابلان، محاضر الكنيست، المجلد ٣، ص ١٢٢، ٢١/١١/٤٩؛ م. كرمر، «هآرتس»، ١٥/٤/٤٩.

(١٢٦) أقوال الأدباء.

(١٢٧) غروبر، ١٢/٨/٤٩، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، معسكرات اللاجئين، ج/5558.

(١٢٨) نشرة كشاف القدس، رقم ٢، أرشيف ناحوم ليفين، الأرشيف المركزي لتاريخ الشعب اليهودي.

(١٢٩) رفقه سابير، مشروع مأوى لأطفال المعسكرات، مغاموت، ج، ١٩٥١.

(١٣٠) المجلس التنفيذي الصهيوني، ١٢/١٠/٤٨؛ ٢١/٣/٤٩.

(١٣١) المصدر نفسه، ٢/١/٥٠.

(١٣٢) الأرشيف الصهيوني المركزي، ملفات قسم يهود الشرق الأوسط، S 20/538.

(١٣٣) أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، المجموعة 43 333/5.

(١٣٤) من أريئاف الى وزير العدل، ١٥/٦/٥٠، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، المجموعة 3335/43.

(١٣٥) من اوستروفسكي الى يوسفتال، ٥/١/٥٠، الأرشيف الصهيوني المركزي، S 41/247I.

(١٣٦) اللجنة التنفيذية، ص ١٢٨.

(١٣٧) غلبلوم، «هآرتس»، ١٢/٤/٤٩.

(١٣٨) الرأي العام، رقم ٥.

(١٣٩) ب. مينكوفسكي، صفحات هجرة، ١٤.

(١٤٠) «هآرتس»، ٢٢/٤/٤٩.

(١٤١) صفحات هجرة، ١١.

(١٤٢) بن ـ غوريون في سكرتارية ماباي، ٢٢/٤/٤٩، أرشيف حزب العمل، 24/49، المجموعة ٢.

(١٤٣) افنيري، ص ٣٢٤.

(١٤٤) الرأي العام، رقم ١.

(١٤٥) «معاريف»، ١٣/١/٤٩.

(١٤٦) «هآرتس»، ١/٣/٤٩.

(١٤٧) الرأي العام، رقم ١.

(١٤٨) «معاريف»، ١٧/٤/٤٩.

(١٤٩) شالوم كوهين في لجنة ماباي المركزية، ٤/٨/٤٩، أرشيف حزب العمل، المجموعة 2 23/49.

(١٥٠) رسالة الى هيئة تحرير «هآرتس»، ٢٥/٢/٤٩.

(١٥١) بن ـ غوريون في سكرتارية ماباي، ٢٢/٤/٤٩، أرشيف حزب العمل، المجموعة 2 24/49.

(١٥٢) أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، معسكرات المهاجرين، ج/5558.

(١٥٣) كورن، ص ٥٦.

(١٥٤) ألموغي، ص ٨٢.

(١٥٥) استنتاجات اللجنة لاستيضاح امكانات تنظيم المهاجرين في كتائب عمل وزمر، أرشيف الدولة، 1/160.

(١٥٦) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/١٢/١٨.

الفصل الثالث: أشخاص بلا أسماء

(١) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٤/٢٩، وكذلك المصدر نفسه، ٤٩/٤/١٠: «اننا لا نتمنى لأنفسنا ان يكون هذا هو مصدر الهجرة الوحيد.»

(٢) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٣/٢١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) من رؤوفين هيرش الى المؤسسة، ٤٨/٩/٢، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/123.

(٥) من بركائي (وزارة الخارجية) الى تشرفينسكي – كرميل (المؤسسة)، ٤٩/١٠/٢، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/372.

(٦) محاضر الكنيست، المجلد ٤، ص ٩٤٠، ٥٠/٣/٦.

(٧) مذكرات فايتس، ٥٠/٩/١٩.

(٨) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٦/٥.

(٩) أقوال الأدباء.

(١٠) بن – غوريون، «خلود اسرائيل»، ص ١٧.

(١١) المصدر نفسه، ص ٩.

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٤.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٣٤.

(١٤) اللجنة التنفيذية، ص ١١٨.

(١٥) بن – غوريون، «خلود اسرائيل»، ص ٣٧.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٢٣.

(١٧) لجنة الدستور والقانون والقضاء، ٤٩/٧/١٣، تراث بن – غوريون.

(١٨) مذكرات بن – غوريون، ٤٩/٧/٢٠.

(١٩) من بن – غوريون الى عتسيوني، ٥٩/٨/٣، تراث بن – غوريون.

(٢٠) «مغاموت»، ب/٣، (نيسان/ابريل ١٩٥١)، وكذلك في الأعداد ب/٤، ج/١. تقسيم المهاجرين الى اشكناز والمتحدرين من الدول العربية وفق الاشهر – ايزنشتات، ص ٢٨. وقد ظهر التغيير في منتصف سنة ١٩٤٩.

(٢١) شيران.

(٢٢) «يديعوت احرونوت»، ٤٩/٤/١٣.

(٢٣) المصدر نفسه، ٤٩/٥/٣. وبشأن المهاجرين من رومانيا الذين اعتادوا حياة الخمول على حساب الجمهور، «يديعوت احرونوت»، ٥١/٣/٣٠. كما نشرت تقريرا عن أمراض الرئة والسل بين المهاجرين الاشكناز. ونُشرت أخبار بروح ايجابية مثل تأسيس مستعمرات جديدة للاشكناز، «هآرتس»، ٤٩/٥/١٨؛ «يديعوت احرونوت»، ٤٩/٦/١٢؛ «هآرتس»، ٥٠/١٢/١٥.

(٢٤) «هآرتس»، ٥١/٣/٢٢. في سنة ١٩٥٢، نشرت «هآرتس» مقالات عن القادمين من تونس (٥٢/٥/٥)، وأفغانستان (٥٢/٥/٢١)، وايران (٥٢/٦/٢)، عن طريق اظهار فقرهم ومرضهم

وانحلالهم: «ان قسما كبيرا من يهود ايران يتعاطى الافيون والحشيش (...) وهناك مصابون بالسفلس، وحتى الاطفال. وهناك عنصر وراثي لهذه الامراض.» (المصدر نفسه). وفي نيسان/ابريل ١٩٥٢، نشرت «هآرتس» افتتاحية جاء فيها ان تهجير الجماهير من الدول المتخلفة يحمل معه خطرا على وجود اسرائيل كدولة عصرية، (٥٢/٤/١١). وقد ظهرت أخبار شبيهة ايضا في الصحف الاخرى. فكتبت، على سبيل المثال، عن مهاجري العراق الذين كانت الشركات البريطانية ومصلحتا البريد والسكة الحديد تستخدمهم في اعمال وظيفية: «(...) على الرغم من انهم جميعا يملكون خبرة في العمل الوظيفي، فان مستواهم وفق المقياس الاوروبي اقل من المعدل (...) وهناك تخوف من انخفاض المقياس الوظيفي في البلد (...)»، («يديعوت احرونوت»، ٥١/٣/٣١). كما ازيح الستار عن مصانع طلبت من مكتب العمل «عمالا متحضرين»، و«من غير الطوائف الشرقية»، («يديعوت احرونوت»، ٥١/٢/٢٣؛ «هآرتس»، ٥٢/٥/٢٧).

(٢٥) «هآرتس»، ٤٩/٤/٢٢. ردات فعل تتضمن افتتاحية تدافع عن حق غلبلوم «في الاشارة الى الحقائق كما يراها هو»، ٤٩/٤/٢٥ (افتتاحية)؛ ٤٩/٤/٢٧ (رسالة الوزير شطريت)؛ ٤٩/٥/٨ (مقال بقلم أفرايم فريدمان)؛ ٤٩/٥/١٦ (رسائل القراء)؛ ٤٩/٥/١٩ (رسائل القراء ايضا)؛ ٤٩/٥/٢٠ (جواب غلبلوم). انظر ايضا «الحقيقة بشأن هؤلاء المراكشيين»، بقلم ك. شبطاي، «دافار»، ٤٩/١١/١٨؛ ٤٩/١٢/١؛ ٤٩/١٢/١٢. وكانت هناك ردات فعل اخرى، وحتى بعد انتظار اكثر من ثلاثين عاما كان المقال لا يزال يشكل منطلقا للنقاش في شأن العلاقات بين الطوائف. انظر ايضا عاموس ايلون، «اسبوعان في اسرائيل الثانية»، اصدار «هآرتس»، ١٩٥١. سلسلة مقالات بقلم أ. فيزل، «يديعوت احرونوت»، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٠.

(٢٦) تقرير رئيس لجنة اتحاد مهاجري شمال افريقيا، ٥٠/٣/٤، ملفات دائرة الهجرة، المجموعة ٦٢، الترقيم الاصلي 2421/73.

(٢٧) بشأن وضع اليهود في شمال افريقيا الفرنسي، ٤٩/٢/٣، S 20 550/5.

(٢٨) مشاورات سياسية، ٤٩/٤/١٢، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية 130.02/2447/3.

(٢٩) «يوم المليون»، ألترمن، المجلد ١، ص ١٢٠.

(٣٠) الأرشيف الصهيوني المركزي، S20/555.

(٣١) تفاصيل عن المذابح والاضطهاد وخطف الفتيات اليهوديات في ليبيا، يعقوب كراوس – بشأن وضع اليهود في ليبيا، ٤٩/٤/١٨، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، أ/14/5.

(٣٢) يعقوب كراوس، بشأن وضع اليهود في شمال افريقيا الفرنسي، ٤٩/٢/٣، الأرشيف الصهيوني المركزي، S20/5550/5.

(٣٣) من رفائيل الى اعضاء المجلس التنفيذي، ٤٩/٦/٥، الأرشيف الصهيوني المركزي، S 41/256.

(٣٤) من كراوس الى المؤسسة، ٤٩/٤/١٨، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، أ/S14/5.

(٣٥) المصدر نفسه.

(٣٦) وضع الهجرة والهروب من مراكش (من دون تاريخ)، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، أ/14/5.

(٣٧) المصدر نفسه.

(٣٨) ملفات دائرة الهجرة، تصاريح الهجرة من شمال افريقيا، المجموعة ٦١، الملف ٣٩٣، الترقيم الاصلي 2421/73.

(٣٩) وضع الهجرة والهروب من مراكش (من دون تاريخ)، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، أ/14/5.

(٤٠) من ياني (أفيدوف) الى برفيل، ٤٨/١٢/٣، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، أ/14/5.

(٤١) من رفائيل الى المجلس التنفيذي، ٤٩/٩/٩، الأرشيف الصهيوني المركزي، الهجرة S 41 256 II، وبالنسبة الى وقائع المفاوضات، انظر تقريرا عن وضع الهروب والهجرة من مراكش (من دون تاريخ)، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، أ/5-14. وفي المصدر نفسه، ايضا، رسالة طويلة من غرشوني الى حاكم مراكش، ٤٩/٣/٩.

(٤٢) المصدر نفسه.

(٤٣) من أقوال تسفي حرمون، المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٣/٢١.

(٤٤) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/١٠/٦.

(٤٥) اتفاق بين مردخاي بن بورات (مدعي) وباروخ نادل (مدعى عليه)، محكمة في هيرتسليا، ملف مدني 63/81.

(٤٦) ملفات وزارة الخارجية، تتضمن [ملفات] المؤسسة ودائرة الهجرة التابعة للوكالة تقارير وبرقيات كثيرة تعكس البحبوحة ومقدار الامن لدى الجالية اليهودية في العراق، حتى بعد اقامة الدولة وحرب الاستقلال، باستثناء أعضاء الجالية الذين اتهموا بنشاط صهيوني.

(٤٧) من بيرمن الى المؤسسة، ٤٩/٣/١٥، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/28.

(٤٨) من تشيرفنسكي (المؤسسة) الى موشيه شاريت، ٤٩/١٠/١٠، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، ج/14/29.

(٤٩) محكمة الصلح في هيرتسليا، ملف مدني 63/81.

(٥٠) من «بيرمن» الى المؤسسة، ٥١/١/١٤، ومن المؤسسة الى «بيرمن»، ٥١/١/١٥، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/389؛ من العراق الى المؤسسة، ٥٠/٣/٤، ملفات دائرة الهجرة، الربطة ٥٧، الملف ٣٦٥، الترقيم الاصلي 2421/53.

(٥١) من رفائيل الى أعضاء المجلس التنفيذي، ٤٨/١٠/٢٨، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/372.

(٥٢) من بينمر الى ضباط الهجرة، ٤٨/١٠/٢٨، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/444.

(٥٣) تقرير كليغر، ايلول/سبتمبر ١٩٤٩، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، المجموعة 43 333/5.

(٥٤) من برفيل الى المؤسسة، ٤٨/١٠/٣، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/123.

(٥٥) من رابينوفيتس الى دائرة الهجرة، ٤٨/١٢/٢٢، ملفات دائرة الهجرة، المجموعة ٦١، الملف ٣٩٣، الترقيم الاصلي 2421/73.

(٥٦) ٤٨/١٢. الأرشيف الصهيوني المركزي، S20/550I.

(٥٧) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٥/٣.

(٥٨) المصدر نفسه، ٤٩/٨/٨.

(٥٩) الأرشيف الصهيوني المركزي، S20/550I.

(٦٠) من الدكتور غولدمان الى الدكتور كورنبليط، ٤٨/١٢/٣١، الأرشيف الصهيوني المركزي، S 20/550I، وتجد هناك رسائل من غولدمان. وهناك تقرير قاس جدا عن الوضع في معسكرات مرسيليا، في الأرشيف الصهيوني المركزي، S 20/562 (تقرير ايلي بيلغ). وهناك وصف اقل ايجابية في تقرير الوكالة، ملفات دائرة الهجرة، المجموعة ١٩، الملف ٨١، الترقيم الأصلي 1006. وحذر الدكتور يسرائيل غولدشتاين، في احدى جلسات المجلس التنفيذي للوكالة، من التمييز ضد المتحدرين من شمال افريقيا في المعسكرات الموقتة في مرسيليا. (المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٧/١٨).

(٦١) من دون تاريخ، ملفات دائرة الهجرة، الربطة ٦١، الملف ٣٩٣، الترقيم الاصلي 2421/73.

(٦٢) تقرير ارتسيئيلي، ٤٩/٨/٩، الأرشيف الصهيوني المركزي، S20/555.

(٦٣) تقرير ايلي بيلغ، ٤٩/٧/٢٤، الأرشيف الصهيوني المركزي، S 20/562. وأيضا المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٧/٣١، إلياهو دوفكين: «هناك ظاهرة عدم الرغبة في السفر. وكانت في نيويورك كوتا لـ ١٥٠٠ شخص لم تمتلىء. انني اعلم بنقل ١١٢ شخصا ولم يصل منهم سوى ثمانية. ويقول المسؤولون عن المعسكرات في مرسيليا: لننتظر قليلا حتى يتحسن وضع السكن في البلد. وهناك ظاهرة هجر المعسكرات في مرسيليا والعودة الى مراكش.» وهناك تقرير من وفد استقصائي حضر من تونس كي يقف عن كثب على ظروف الاستيعاب وغادر البلد بانطباع سيىء جدا. الأرشيف الصهيوني المركزي، S 41/256، الملف ٦ ـ ٧.

(٦٤) تقرير غروسمان، من دون تاريخ، ملفات دائرة الهجرة، الربطة ٦١، الملف ٣٩٣، الترقيم الاصلي 2421/73.

(٦٥) بشأن التصور والغربة، «مأوى»، بقلم رفقه سابير، «مغاموت» ج، ١٩٥١.

(٦٦) ارسل الاسكافي الى بن ـ غوريون مجموعة من الرسائل المؤثرة. الأرشيف الصهيوني المركزي، S 41/498.

(٦٧) ملفات دائرة الهجرة، الربطة ٦١، الملف ٣٩٣، الترقيم الاصلي 2421/73.

(٦٨) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٨/١٠/٢٤.

(٦٩) نيني، ص ٢٨٤، وأيضا أقوال أ. أغاسي في اللجنة التي درست مستقبل العلاقات بالعامل العربي: «اذا ما تعمقنا في البحث فسندرك ان مبدأ العمل العربي لم يكن في حقيقة الامر، بالنسبة الينا، حاجزا ضد العامل الرخيص ـ احضرنا عمالا رخيصين نحن انفسنا من اليمن ـ وانما ضد خطر تدفق العمال الاجانب (...).» ماباي، مركز مشكلة الهستدروت والدولة، أرشيف حزب العمل، 7/69/48.

(٧٠) مقابلة، ٨٣/٥/٢٠.

(٧١) مذكرات فايتس، ٥٠/٧/٧.

(٧٢) المصدر نفسه، ٥٠/٩/١٩.

(٧٣) تقرير شاريت، ٤٨/١٢/١٢، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 130.11/2502/8.

(٧٤) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٩/٢.

(٧٥) مكتب ماباي، ٤٩/١٢/١٨، أرشيف حزب العمل.

(٧٦) م. غروفوفسكي، مكتب ماباي، ٤٩/٢/٢١، أرشيف حزب العمل.

(٧٧) المصدر نفسه.

(٧٨) المصدر نفسه.

(٧٩) المصدر نفسه.

(٨٠) من دائرة الاستيعاب في الوكالة بالقدس الى د. تانا، تل ابيب، ٥٣/١/١١، الأرشيف الصهيوني المركزي، S 84/77.

(٨١) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/١٠/٩.

(٨٢) المصدر نفسه.

(٨٣) المصدر نفسه، ٤٩/١٢/٢٦.

(٨٤) المصدر نفسه، ٥٠/١/٢.

(٨٥) من برزيلاي الى شاريت، في سلسلة من الرسائل تبودلت بين ايلول/سبتمبر وتشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٩. أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2397/19.

(٨٦) من بن ـ غوريون الى غرينبويم، ٥٠/٣/٢٨، تراث بن ـ غوريون.

(٨٧) الأرشيف الصهيوني المركزي، S 41/247I.

(٨٨) «هآرتس»، ٤٩/١١/٩.

(٨٩) المصدر نفسه، ٤٩/٣/١١.

(٩٠) الأرشيف الصهيوني المركزي، S 41/256I.

(٩١) «تايمز»، ٤٩/٩/٢٣.

(٩٢) محاضر الكنيست، المجلد ٣، ص ٣١، ٤٩/١١/٨.

(٩٣) «هآرتس»، ٤٩/٩/٩.

(٩٤) الأرشيف الصهيوني المركزي، L27، الملف ٤، ٤٩/١٢/٣١.

(٩٥) تقرير فرومكين، ص ١٢٧.

(٩٦) بشأن وقائع هجرتهم، نيني ولويتن.

(٩٧) بشأن المفاوضات، من كوفوفيتسكي الى المؤتمر اليهودي، ٤٩/٤/٢٤، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/49. وكانت هناك اتصالات اخرى في هذا الشأن: اجتمع مبعوث الوكالة، يوسف تسادوق، الى الامام نفسه. أما مبعوث المؤسسة، عوفاديا طوبيا، فقد أقام علاقة بالسلطان العواذلي. من طوبيا الى المؤسسة، ٤٩/٥/١٤، ملفات مؤسسة الهجرة، أرشيف جيش الدفاع الاسرائيلي، 14/49.

(٩٨) تقرير شرابويم، ٤٩/٧/٢١، الأرشيف الصهيوني المركزي، S 20/457II. وعن دور القنصل الاميركي في عدن في هذه الاتصالات، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2397/15، وكذلك المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٦/٥، والمصدر نفسه أيضا، ٤٩/٨/٢٨.

(٩٩) من تسادوق الى المكتب الارض ـ اسرائيلي في عدن، ٤٩/١٢/٢٠، الأرشيف الصهيوني المركزي، L27، الملف ٤. وهناك أيضا مذكرات تسادوق ورسائله.

(١٠٠) من تسادوق الى مكتب الهجرة في عدن، ٤٩/١٢/٣١، الأرشيف الصهيوني المركزي، L27.

(١٠١) المصدر نفسه.

(١٠٢) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٨/٢٨.

(١٠٣) رفائيل، ص ٧٣.

(١٠٤) من رفائيل الى لوكر، ٥١/١/٢٢، الأرشيف الصهيوني المركزي، S41/256I.

(١٠٥) تسادوق، ص ٢٣٣.

(١٠٦) تقرير كليغر، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، المجموعة 43 333/5.

(١٠٧) وزارة الصحة، مذكرة داخلية ـ ليست للنشر ـ في شأن زيارة لعدن، ايلول/ستمبر ١٩٤٩، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2397/15.

(١٠٨) من يوسف تسادوق الى مناحم، ٤٩/٧/٢١، الأرشيف الصهيوني المركزي، S20/457II.

(١٠٩) برر.

(١١٠) لويتن، ص ١٣٣؛ تسادوق، ص ٢٣ ـ ٣٠؛ شترنبرغ، ص ٧٨ ـ ١٠٤.

(١١١) تقرير لجنة التحقيق للعثور على أطفال اليمن، آذار/مارس ١٩٦٨، ص ١٨٣، أرشيف الدولة، 968/1.

(١١٢) تقرير بن تسفي، ٤٩/١٢/١٨، الأرشيف المركزي لتاريخ الشعب اليهودي، أرشيف ناحوم ليفين.

(١١٣) من مناحم بن يوسف الى أفرايم هدار، ٤٩/١٠/٩، الأرشيف الصهيوني المركزي، دائرة يهود الشرق الاوسط، S/20/600؛ كذلك الأرشيف الصهيوني المركزي، S20/109؛ الأرشيف الصهيوني المركزي، S 20/547II.

(١١٤) الأرشيف الصهيوني المركزي، S 20/547II، بما فيه ذلك التنافس بين أعضاء ماباي ومابام وهمزراحي، وكذلك التحقيق الذي أجراه جهاز الامن في ماضي احد المبعوثين من رجال الايتسل.

(١١٥) الأرشيف الصهيوني المركزي، مكتب الهجرة في عدن، L27.

(١١٦) من ش. ك. (تلميذ مدرسة دينية في الخليل) الى الوزير ي. م. ليفين، ٥٠/٢/٩، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 347/15.

(١١٧) تسادوق، ص ٢٣٢؛ رفائيل، ص ٧٥؛ المؤتمر الصهيوني ٢٣، ص ٢٠٩.

(١١٨) رفائيل، ص ٧٢؛ لويتن، ص ١٦٧.

(١١٩) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٩/٢٨.

(١٢٠) محاضر الكنيست، المجلد ٣، ص ١٢٨، ٤٩/١١/٢١.

(١٢١) الارشيف الصهيوني المركزي، ٤٩/٧/١٨. بعد مرور بضع دقائق، طلب غرينبويم ان يسجل في المحضر انه لم يتكلم ضد هجرة اليهود من اليمن. وبشأن تردده: مذكرات بن ـ غوريون ايضا، ٤٩/٩/٢٨.

(١٢٢) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٨/١١/٨.

(١٢٣) المصدر نفسه، ٤٩/٩/١١.

(١٢٤) المصدر نفسه، ٤٩/١١/٢٨.

(١٢٥) المصدر نفسه، ٤٩/٩/٤.

(١٢٦) المصدر نفسه، ٤٩/١٠/٦.

(١٢٧) المصدر نفسه، ٤٩/٦/٥: «يجب عدم الخوف من العدد الكبير من المرضى المزمنين، اذ ينبغي لهم السير على الاقدام لمدة اسبوعين تقريبا. أما المرضى الذين في حالة خطرة، فلا يستطيعون السير.» لكن المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٩/٣٠، ذكر أنه «يستحيل وقف الهجرة من اليمن. استطيع تأخير جميع المقيمين في اماكن اقامتهم وحتى في معسكرات اوروبا. ان اليمنيين متسكعون في الشارع والصحراء.»

(١٢٨) «دافار هشفواع»، ٤٩/١١/١٠؛ «القادمون من اليمن»، ألترمن، المجلد ١، ص ١١٧.

(١٢٩) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٩/٢٨.

(١٣٠) محاضر الكنيست، المجلد ٣، ص ١٢٨، ٤٩/١١/٢١.

(١٣١) المصدر نفسه.

(١٣٢) من بن ـ غوريون الى يادين، ٢٧/١١/٥٠، تراث بن ـ غوريون.

(١٣٣) محاضر الكنيست، المجلد ٨، ص ١١٠٢، ١٤/٢/٥١.

(١٣٤) نشرة دائرة الاستيعاب، ٧، الأرشيف الصهيوني المركزي، S 20/103.

(١٣٥) لويتن، ص ١٦٤؛ المجلس التنفيذي الصهيوني (حرمون)، ٢٦/١٢/٤٩.

(١٣٦) لويتن، ص ٢٣٧.

(١٣٧) المصدر نفسه، ص ٢٤٣.

(١٣٨) المصدر نفسه، ص ٢٤٥.

(١٣٩) المصدر نفسه، ص ٢٤٦ (خريطة).

(١٤٠) «هآرتس»، ١٣/١٠/٥٠، رسالة اتحاد اليمنيين بشأن استغلال العمال المتحدرين من اليمن من خلال مخالفات مكتب العمل ووعد من سكرتير رئيس الحكومة ان تحظى هذه القضية بالمعالجة الملائمة: من اتحاد اليمنيين الى مركز مكاتب العمل، ٨/٥/٥٠، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، معسكرات المهاجرين، ج/5558.

(١٤١) غلوسكا، محاضر الكنيست، المجلد ٢، ص ١٠٤١، ١٨/٧/٤٩. وأيضا المجلد ١، ص ٤٤١، ٢٧/٤/٤٩؛ المجلد ٢، ص ١٣٠٥، ١٠/٨/٤٩؛ المجلد ٣، ص ٨٤، ١٦/١١/٤٩. في ابريل/نيسان ١٩٥٠، بعث غلوسكا برسالة طويلة ومهمة الى ليفي اشكول طرح فيها سلسلة طويلة من أعمال التمييز ضد المتحدرين من اليمن ارتكبت خلال فترة الانتداب، بما في ذلك التمييز في تخصيص اذونات الهجرة وغيرها. من غلوسكا الى اشكول، ٢٠/٤/٥٠، الأرشيف الصهيوني المركزي، S 34/272. عن اليمنيين في الجيش: «على الرغم من تفوق جميع الشبان اليمنيين فقد بقي ٩٠٪ منهم رقباء.» محاضر الكنيست، المجلد ٢، ص ١٥٥٩، ٥/٩/٤٩.

(١٤٢) غلوسكا، ص ٢٧٥.

(١٤٣) «هآرتس»، ١٨/١٢/٥٠. بشأن محاولة تدريب النساء اليمنيات على ختان أطفالهن وتغذيتهن كما يجب: «انهن يطعمنهم الخبز والقهوة»، («هآرتس»، ٢١/١١/٥٠). وقد وصف الآباء مرارا بأنهم لا يتركون الطعام لأولادهم. («هآرتس»، ١٩/١٢/٥٠؛ ٢٠/٥/٥٢).

(١٤٤) محاضر الكنيست، المجلد ٢، ص ١٥٥٠، ٥/٩/٤٩.

(١٤٥) تقرير لجنة التحقيق في الوضع في المستعمرات الجديدة لمستوطني اليمن ومادة مرفقة. أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة (٩٠١٢)، 4 5581/22.

(١٤٦) الجالية والاستقرار في مدينة مهاجرين بقلم بيرتس كوهين. ابحاث اجتماعية، اصدار وزارة الشؤون الاجتماعية، دائرة الابحاث والتخطيط، القدس، ١٩٥٩. وعن انطباعات في جولة على معسكرات مهاجري اليمن في نشرة الهجرة ايضا، ٧، الأرشيف الصهيوني المركزي، S20/103. زيارة تفقدية لمهاجري اليمن في يافا، الأرشيف الصهيوني المركزي، S20/104. تقرير مثير من إستر بديمي عن وضع النساء المتحدرات من اليمن، الأرشيف الصهيوني المركزي، S20/457 III، ١٤/١/٤٩. حاغيت ريغر، «بشأن مشكلة تجذر الشباب اليمني في البلد»، «مغاموت» ج، ١٩٥١؛ «الاكتظاظ ـ قرية للمتحدرين من اليمن في جبال القدس»، بقلم عوفاديا شابيرا، القدس، ١٩٦٠.

(١٤٧) لجنة ماباي المركزية، ٤/١/٤٩، أرشيف حزب العمل.

(١٤٨) مذكرات بن ـ غوريون، ٢٠/١/٤٩.

(١٤٩) لجنة ماباي المركزية، ٢٧/١/٤٩، أرشيف حزب العمل.

(١٥٠) من أ. تافيف وآخرين الى لجنة ماباي المركزية، ٢١/١٢/٤٨، تراث بن ـ غوريون.

(١٥١) لويتن، ص ٣١٣ وما يليها.

(١٥٢) من اتحاد اليمنيين الى وزير الشرطة، ١١/٤/٥٠؛ ١٨/٤/٥٠؛ ٨/٥/٥٠. أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، معسكرات المهاجرين، ج/5558.

(١٥٣) «اثنتا عشرة عائلة تبحث عن أولادها»، «معاريف»، ١/٤/٦٦.

(١٥٤) تقرير لجنة التحقيق للعثور على أولاد من اليمن، آذار/مارس ١٩٦٨، أرشيف الدولة، 1/968/1. وقد اسند التحقيق الى ي. بهلول، وكيل النيابة في قضاء حيفا، والمفوض رؤوفين مينكوفسكي من قيادة الشرطة القطرية. بشأن تحقيق الشرطة ووزارة الصحة خلال السنوات ما بين عملية «البساط السحري» وتأليف لجنة تحقيق، عبر محاولات اخفاء عملية التحقيق نفسها ونتائجها، لويتن، ص ٢٧٠ وما يليها.

(١٥٥) من وزير الشرطة شطريت الى وزراء الحكومة، ٢٤/٤/٥٠، ارشيف الدولة، أرشيف دوف يوسف، مراسلات ومذكرات، المجموعة 69 703/16. وكذلك مكتب رئيس الحكومة، ج/5558.

القسم الثالث: بين المتدينين والعلمانيين

الفصل الأول: لكلّ ربّه

(١) تقرير لجنة التحقيق في الشؤون التربوية في معسكرات المهاجرين، ص ٣٢، أرشيف الدولة، 1/152 (فيما يلي: تقرير فرومكين).

(٢) تقرير فرومكين، ص ٤٤.

(٣) مقابلة، ٣٠/٩/٨٢.

(٤) تقرير فرومكين، ص ٣٧.

(٥) ترك ناحوم ليفين، بعد وفاته، محفظة عتيقة مكدسة بالوثائق المختلفة، ومقاطع من انطباعاته الشخصية، بما في ذلك انطباعات تحمل طابع المذكرات الشخصية. وقد احتفظت ارملته طوال هذه السنوات بهذه المادة، وتكرمت علينا ووضعتها في تصرفنا. وهي تستحق الشكر على ذلك. وفي هذه الاثناء، وزعت المادة على ارشيفين: الأرشيف المركزي لتاريخ الشعب اليهودي يعرف المادة بالرمز P161، لكنه لم يصنفها حتى كتابة هذه السطور. والكلام الذي اقتبس هنا محفوظ في هذه المجموعة، إلا اذا تم التنويه بغير ذلك. أما الجزء الآخر من المادة، فهو محفوظ في أرشيف ياد فيشيم ويحمل الرمز الترقيمي Z/36-2,Z/36-1 (5814). وهنالك مواد، بما في ذلك رسائل، في حيازة السيدة برونيا بندك التي كانت سكرتيرة ليفين. وقد تكرمت علينا، هي ايضا، بوضع المادة في تصرفنا، وأنا شاكر لها ذلك. كما ساعدني افيتار ليفين، الذي توفي في هذه الاثناء، بتزويدي بالمعلومات الخاصة ببيت ابيه.

(٦) تقرير فرومكين، ص ٢١.

(٧) ياد فيشيم، Z/36-1.

(٨) أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 347/15.

(٩) مقابلة، ٢/١١/٨٢.

(١٠) تقرير فرومكين، ص ٤٠.

(١١) ياد فيشيم، Z/36-2.

(١٢) المصدر نفسه.

(١٣) تقرير فرومكين، ص ٧٨ ــ ٨٠.

(١٤) وثائق بندك؛ تقرير فرومكين، ص ٤٠.

(١٥) مقابلة، ٨٢/١٠/٢٧.

(١٦) «دافار»، ٥٠/٦/١٢.

(١٧) وثائق بندك، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 347/15.

(١٨) تقرير فرومكين، ص ١٠.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٨٢ وما يليها.

(٢٠) أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 3634/ج /43/5543؛ محاضر الكنيست، المجلد ٥، ص ١٦٩٩، ٥٠/٦/١٣، وص ١٧٢٣ ــ ١٧٢٥، ٥٠/٦/١٤.

(٢١) أرشيف الدولة، أرشيف دوف يوسف، مراسلات ومذكرات، 703/16.

(٢٢) الأرشيف الصهيوني المركزي، S 41/340، المزيد من الشكاوى ــ من الحاخام يتسحاقي (رأس العين) الى بن ــ غوريون، ٤٩/١٢/١٢، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، ج /3631/5543. بما في ذلك قص السوالف والتعرض للتربية الدينية. من بن ــ غوريون الى ي. م. ليفين، ٥٠/٧/١١، تراث بن ــ غوريون.

(٢٣) تقرير فرومكين، ص ٤٠.

(٢٤) محاضر الكنيست، المجلد ٤، ص ٨٥٥، ٥٠/٢/٢٧.

(٢٥) تقرير الرقابة في معسكرات المهاجرين في عين شيمر وبارديسيا، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 3885/ ج /43/5558.

(٢٦) من بن ــ غوريون الى ميمون وليفين، ٥٠/٢/٢٠، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 3633/ ج /5543.

(٢٧) أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 3885/ج /43/5558.

(٢٨) ادارة الكتلة في الكنيست، ٥٠/١/٢٤، أرشيف حزب العمل، 11/1/1.

(٢٩) دون يحيى، ص ٦٣٥.

(٣٠) استعنت في هذه الصفحات ببنتويتش في الموسوعة التربوية، وبمقال تسفي لام، «توترات ايديولوجية ــ صراعات بشأن أهداف التربية»، في اورميان.

(٣١) محاضر الكنيست، المجلد ٤، ص ٨٩٢، ٥٠/٢/٢٨.

(٣٢) المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ١١٦٥، ٤٩/٧/٢٧.

(٣٣) «هتسوفيه»، ٤٩/٦/٣٠؛ ٤٩/١٠/٢٥؛ ٤٩/١٢/١٢.

(٣٤) «دافار»، ٥٠/١/١٠؛ ٥٠/١/٢٤. وأيضا «معاريف»، ٤٩/١١/٧.

(٣٥) رسائل بين بن ــ غوريون وآفنر، حزيران/يونيو ١٩٤٩، تراث بن ــ غوريون.

(٣٦) من بينكس الى بن ــ غوريون، ٥٠/١/٦، ارشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 3633/ج /5543.

(٣٧) محاضر الكنيست، المجلد ٢، ص ١١٥٣، ٤٩/٧/٢٦.

(٣٨) المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ١١٠١، ٤٩/٧/٢٠.

(٣٩) المصدر نفسه، المجلد ٤، ص ٨٩٤، ٥٠/٢/٢٨.

(٤٠) المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ١١٤٤، ٤٩/٧/٢٦.

(٤١) المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ١١٠٣، ٤٩/٧/٢٠.

(٤٢) المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ٩٣٦، ٥٠/٣/٦.

(٤٣) استعنت في هذه الصفحات بكتاب أليعيزر دون يحيى، «تعاون ونزاع بين معسكرات سياسية، المعسكر الديني وحركة العمل وأزمة التربية في اسرائيل»، وهذا الكتاب اعده كأطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة، مقدمة الى مجلس أمناء الجامعة العبرية في أيلول [الشهر العبري] ١٩٧٧.

(٤٤) مقابلة، ٨٢/١٠/٢١.

(٤٥) مذكرات بن ــ غوريون، ٤٩/٢/٢٨.

(٤٦) محاضر الكنيست، المجلد ٤، ص ٨٨٤، ٥٠/٢/٢٨؛ وأيضا ش. ز. شرغاي («محاكم التفتيش»)، المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/١٢/٤.

(٤٧) محضر، ٥٠/٢/١، أرشيف الدولة، 347/15.

(٤٨) دون يحيى أيضا، ص ٥٥٧.

(٤٩) محاضر الكنيست، المجلد ٤، ص ٨٨٥، ٥٠/٢/٢٨.

(٥٠) بشأن القضية، دون يحيى، ص ٦٥٨.

(٥١) كارليباخ، ص ٢٧٨.

(٥٢) من بن ــ غوريون الى الحاخام ميمون، ٥٠/١/٢، تراث بن ــ غوريون.

(٥٣) جميع المتحدثين في الكتلة في الكنيست، ٥٠/١/٢٤، أرشيف حزب العمل.

(٥٤) تقرير فرومكين، ص ١٧.

(٥٥) من بن ــ غوريون الى ميمون وليفين، ٥٠/٢/٢٠، تراث بن ــ غوريون.

(٥٦) من بن ــ غوريون الى ميمون، ٥٠/١/١٢، تراث بن ــ غوريون.

(٥٧) من بن ــ غوريون الى آران، ٥٠/٢/١٩، تراث بن ــ غوريون.

(٥٨) المصدر نفسه.

(٥٩) ارشيف الدولة، 347/15.

(٦٠) مقابلة، ٨٢/١٢/٥.

(٦١) مقابلة، ٨٢/١٢/١٠.

(٦٢) محاضر الكنيست، المجلد ٥، ص ١٧٥٨، ٥٠/٦/١٩.

(٦٣) مقابلة، ٨٢/١١/١١.

(٦٤) من بن ــ غوريون الى روزين، ٤٩/٨/٢٥؛ من بن ــ غوريون الى فرومكين، ٤٩/٨/٣٠، تراث بن ــ غوريون.

(٦٥) مقابلة، ٨٢/١١/٣.

(٦٦) محاضر الكنيست، المجلد ٥، ص ١٧٦١، ٥٠/٦/١٩.

(٦٧) أرشيف الدولة، 3885/ج /43/5558؛ 3633/ج /43/5543؛ وثائق بندك.

(٦٨) مقابلة، ٨٢/١١/٤.

(٦٩) من بن ــ غوريون الى شابيرا، تراث بن ــ غوريون، ٥٠/٧/٧.

(٧٠) من روزين الى وزراء الحكومة، ٥٠/٨/٢٠، أرشيف الدولة، 3633/ج /43/5543.

(٧١) أرشيف الدولة، 3633/ج /43/5558.

(٧٢) من دانيا ليفين الى بن ــ غوريون، ٥٠/١١/٢١؛ من ناحوم ليفين الى بن ــ غوريون، ٥١/٢/١٣،

أرشيف الدولة، 3633/ج/43/5543 .

(٧٣) من كوهين الى بن ـ غوريون، ٥١/٢/١٩، أرشيف الدولة، 3633/ج/43/5543 .

(٧٤) مقابلة، ٨٢/١٢/١٦.

(٧٥) تقرير فرومكين، ص ١٠٤ .

(٧٦) المصدر نفسه، ص ١٧٧ .

(٧٧) المصدر نفسه، ص ١١٦ .

(٧٨) محاضر الكنيست، المجلد ٤، ص ٨٨٩، ٥٠/٢/٢٨ .

(٧٩) لويتن، ص ١٩٩ .

(٨٠) محاضر الكنيست، المجلد ٣، ص ٢٦٢، ٤٩/١٢/١٧ .

الفصل الثاني: الصراع على السبت

(١) قضية التظاهرة وذيولها، أرشيف الدولة، وزارة الشرطة، المجموعة ١١٩، 3331/ج/24/160 .

(٢) تقرير لجنة التحقيق في تظاهرات السبت، ١٩٥٦، أرشيف الدولة، 1/157 .

(٣) محاضر الكنيست، المجلد ٢، ص ٩٠٧، ٤٩/٧/٥ . وميلشتاين، الحجة الدينية .

(٤) محاضر الكنيست، المجلد ٤، ص ٧٩٤، ٥٠/٢/١٤ .

(٥) المصدر نفسه، المجلد ٥، ص ٢٥٠٩ وما يليها، ٥٠/٨/٨ .

(٦) ليبوفيتس، ص ١٤٠ ـ ١٤١ .

(٧) مناشير ناطوري كارتا، تقرير لجنة التحقيق في تظاهرات السبت، ١٩٥٦، أرشيف الدولة، 1/157؛ مجموعة مناشير في دار الكتب الوطنية وفريدمان.

(٨) اتحاد أغودات يسرائيل العالمي، ازالة القناع، توضيح امور، القدس، ١٩٥١؛ من يضع حدا للمعركة ـ عرض موجز لوقائع المعركة بين اليهودية المتدينة المنظمة وبين أحزاب الاحرار. رد واضح على حملات ناطوري كارتا الهجومية على أغودات يسرائيل، من إعداد أغودات يسرائيل في القدس، مناحم آف، ١٩٦٤ .

(٩) «شعاريم»، ٤٧/١١/١٣ .

(١٠) ليفين، الرجل وعمله، ص ٤٤ .

(١١) محاضر الكنيست، المجلد ٤، ص ٩٣٢، ٥٠/٣/٦ .

(١٢) راطوش، ص ٩ وما يليها.

(١٣) محاضر الكنيست، المجلد ٦، ص ٢٣٩٨، ٥٠/٨/١ .

(١٤) مقابلة، ٨٢/١١/١١.

(١٥) محاضر الكنيست، المجلد ٤، ص ١٠١٣ وما يليها، ٥٠/٣/١٣ .

(١٦) المصدر نفسه، المجلد ٤، ص ١٠١١، ٥٠/٣/١٤ .

(١٧) دور لادور (مشمار هعيمك)، ص ٢٠٤ .

(١٨) أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 4468/ج/5585 .

(١٩) بار زوهر، المسؤول، ص ٩٤ وما يليها.

(٢٠) محاضر الكنيست، المجلد ٩، ص ١٧٧٩، ٥١/٥/١٦ .

(٢١) رابطة منع الاكراه الديني، بلاغ رقم ١ وما يليه: «لجنة السلام» ـ أرشيف بلدية القدس، 1/13/21-1856 .

(٢٢) أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 4681/ج/5593 .

(٢٣) محاضر الكنيست، المجلد ٩، ص ١٧٧٧، ٥١/٥/١٦ .

(٢٤) استعنت، في هذه الصفحات، بمقال مناحم فريدمان، «علاقات دينية ـ علمانية قبيل اقامة الدولة»، قضايا في تاريخ الصهيونيين والييشوف، ٢ (التيار الديني في الصهيونية)، منشورات عام عوفيد وجامعة تل ابيب، ١٩٨٣ .

(٢٥) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٢/٧ .

(٢٦) المصدر نفسه، ٤٩/٣/٧ .

(٢٧) محاضر الكنيست، المجلد ١، ص ٥٥، ٤٩/٣/٨ .

(٢٨) من بن ـ غوريون الى ليفين، ٤٩/٤/١٠، تراث بن ـ غوريون .

(٢٩) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٩/٢٣ .

(٣٠) أخبار المجلس من اجل السبت، ١٩٥٤ .

(٣١) أرشيف الدولة، وزارة الشرطة، 3331/ج/24/160، اقتراح اقل اعتدالا من وزارة الاديان (١٩٤٩)، تراث بن ـ غوريون .

(٣٢) محاضر الكنيست، المجلد ٦، ص ٢٥٩١، ٥٠/٨/١٠ .

(٣٣) المصدر نفسه، المجلد ١، ص ٣٢٦، ٤٩/٤/٦ .

(٣٤) المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٣٧٣، ٥٠/١/٢ .

(٣٥) المصدر نفسه، المجلد ١، ص ٧٠٣، ٤٩/٦/١٤ .

(٣٦) المصدر نفسه، المجلد ١، ص ٥٧٢، ٤٩/٥/٢٤ .

(٣٧) اتحاد أغودات يسرائيل، ازالة القناع، توضيح امور، القدس، ١٩٥١ .

(٣٨) من ليفين الى بن ـ غوريون، ٥٠/١/١٥، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 3633/ج/5543 .

(٣٩) أرشيف الدولة، ادارة الشعب، محاضر، ص ١٢٠ وما يليها.

(٤٠) محاضر الكنيست، المجلد ١، ص ١٣٦، ٤٩/٣/١٠: «سأل الحاخام كهانا لماذا لم اذكر ابينا في السماء؟ اود القول في هذا الصدد بصورة قاطعة: انني اتكلم في هذا الحفل في امور يمكن طرحها للتصويت، وأنا واثق من ان الحاخام كهانا يعترف بأنه يجب عدم طرح قضية الرب المبارك للتصويت في الكنيست.»

(٤١) رفائيل، ص ٣٥٩ .

(٤٢) دانييل، ص ١٨٩ .

(٤٣) من بن ـ غوريون الى شابيرا، ٥٢/٣/٣١، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 1122/5385/22 .

(٤٤) من بن ـ غوريون الى ميمون وليفين، ٥٠/٢/٢٠، تراث بن ـ غوريون .

(٤٥) من بن ـ غوريون الى ميمون، ٥٠/١/١٢، تراث بن ـ غوريون .

(٤٦) من ميمون الى بن ـ غوريون، ٥٠/١/١٥، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 3633/ج/5543 .

(٤٧) تقرير فرومكين، ص ١٦ .

(٤٨) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٢/٤ .

(٤٩) بن ـ غوريون، «خلود اسرائيل»، ص ٤٣ .

(٥٠) عشية يوم الاستقلال العشرين أجريتُ مقابلة مع دافيد بن ـ غوريون، سوية مع يوسف آفنر وأبراهام كوشنير. ان ملاحظته بشأن نظرته الى التلمود بالمقابلة بنظرته الى التوراة، وكذلك ملاحظاته عن الله، مقتبسة وفق تسجيل لذلك الحديث الذي جرى في سديه بوكر واستمر ثلاث ساعات .

(٥١) مقابلة، ٨٢/١١/١ .
(٥٢) ليبوفيتس، ص ١٧٣ .
(٥٣) بن ـ غوريون، «خلود اسرائيل»، ص ٢٠ .
(٥٤) مقابلة، ٨٢/١٠/٢٩، أقوال روفين، محاضر الكنيست، المجلد ٣، ص ٢٦١، ٤٩/١٢/٧ .
(٥٥) مقابلة، ٨٢/١١/١١ .
(٥٦) بن ـ غوريون، «خلود اسرائيل»، ص ٢٣ .
(٥٧) جلسة الكتلة في الكنيست مع أعضاء الامانة العامة، ٤٩/٦/١٤، أرشيف حزب العمل، 11/2/1، وأيضا: محاضر الكنيست، المجلد ٤، ص ٨١٢ وما يليها، ٥٠/٢/٢٠ .
(٥٨) تافوري (ماباي)، محاضر الكنيست، المجلد ٤، ص ٧٢٢، ٥٠/٢/١٣؛ ليفنشتاين (أغودات يسرائيل)، محاضر الكنيست، المجلد ٤، ص ٧٤٢، ٥٠/٢/٧؛ ليفين، محاضر الكنيست، المجلد ٤، ص ٨٠٨، ٥٠/٢/٢٠ .

القسم الرابع: بين الحلم والروتين

الفصل الأول: يسار ـ يمين

(١) «هآرتس»، ٤٩/٥/٥ .
(٢) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٥/٤ .
(٣) «هآرتس»، ٤٩/٥/١٥ .
(٤) «معاريف»، ٤٩/٥/٥ .
(٥) «يديعوت احرونوت»، ٤٩/٨/١٦ .
(٦) جلسة اللجنة المركزية مع الكتلة في الكنيست، ٤٩/٧/٢٣، أرشيف حزب العمل، 11/2/1.
(٧) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/١٢/٣١ .
(٨) لجنة ماباي المركزية مع الكتلة في الكنيست، ٤٩/٧/٢٢، أرشيف حزب العمل، 11/2/1.
(٩) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٨/٢٦ .
(١٠) المصدر نفسه، ٤٩/١/٤ .
(١١) المصدر نفسه، ٤٩/٦/٢٠ .
(١٢) من بن ـ غوريون الى لاسكوف، ٥٠/٤/٢٧، تراث بن ـ غوريون.
(١٣) بن ـ غوريون، خاصية ورسالة، ص ١٣٠ ـ ١٣١ .
(١٤) لجنة ماباي المركزية مع الكتلة في الكنيست، ٢٢ ـ ٤٩/٧/٢٣، أرشيف حزب العمل، 11/2/1.
(١٥) المصدر نفسه.
(١٦) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٢/٧ .
(١٧) المصدر نفسه، ٤٩/٧/٣ .
(١٨) من بن ـ غوريون الى ربابورت، ٤٨/١١/١٠، تراث بن ـ غوريون.
(١٩) من بن ـ غوريون الى رئيس هيئة الاركان، ٤٨/١١/١٠، تراث بن ـ غوريون.
(٢٠) «هآرتس»، ٤٩/١/١٣ .
(٢١) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٧/٢١ .

(٢٢) من بن ـ غوريون الى رئيس هيئة الاركان، ٤٩/١/٢٤، تراث بن ـ غوريون.
(٢٣) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٥/٢٠ .
(٢٤) المصدر نفسه، ٤٩/٦/١٦ .
(٢٥) المصدر نفسه، ٤٩/٦/٢٣ .
(٢٦) المصدر نفسه، ٤٩/٧/٢١؛ من بن ـ غوريون الى الرائد مئير دافيد روزين، ٤٩/٨/٣، تراث بن ـ غوريون.
(٢٧) رابين، ص ٨٦ .
(٢٨) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/١٠/١٦ .
(٢٩) المصدر نفسه، ٤٩/١٠/١٨؛ من بن ـ غوريون الى رئيس هيئة الاركان، ٤٩/١٠/١٩، تراث بن ـ غوريون.
(٣٠) رابين، ص ٨٧ .
(٣١) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٧/٣ .
(٣٢) آران في مكتب الحزب، ٤٩/٢/٢٤، وفي الامانة العامة، ٤٩/٦/٥، أرشيف حزب العمل.
(٣٣) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٩/١١ .
(٣٤) من بن ـ غوريون الى بار، ٤٩/١٠/١٤، تراث بن ـ غوريون.
(٣٥) جلسة اللجنة المركزية مع الكتلة في الكنيست، ٢٢ ـ ٤٩/٧/٢٣، أرشيف حزب العمل، 11/2/1.
(٣٦) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٦/٢٨ .
(٣٧) المصدر نفسه، ٤٩/٩/١٢ .
(٣٨) من بن ـ غوريون الى بن أهارون، ٤٩/٧/٢٨، تراث بن ـ غوريون.
(٣٩) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/١/٤ .
(٤٠) مقابلة، ١٣ ـ ٨٣/٧/١٧ .
(٤١) من بن ـ غوريون الى بن أهارون، ٤٩/٧/٢٨، تراث بن ـ غوريون.
(٤٢) «كول هعام»، ٤٩/٨/١٨ .
(٤٣) الحزب الشيوعي الاسرائيلي، محاكمة «كول هعام»، بن ـ غوريون، حزيران/يونيو ١٩٥١، «كول هعام»، ٥١/٨/٢٩ .
(٤٤) من بن ـ غوريون الى بن أهارون، ٤٩/٧/٢٨، تراث بن ـ غوريون.
(٤٥) «عال همشمار»، ٤٩/٩/٢٣ .
(٤٦) محاضر الكنيست، المجلد ٢، ص ١٤٥٨، ٤٩/٨/٣٠ .
(٤٧) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٤/٢٣ .
(٤٨) المصدر نفسه، ٤٩/٤/٢٥ .
(٤٩) المصدر نفسه، ٤٩/٦/٢٣ .
(٥٠) مقابلة، ٨٣/٧/١٥ .
(٥١) مقابلة، ٨٣/٧/١٣ .
(٥٢) محاضر الكنيست، المجلد ١، ص ١٢٥، ٤٩/٣/١٠ .
(٥٣) «دافار»، ٤٩/٥/٣ .
(٥٤) محاضر الكنيست، المجلد ١، ص ٥٥، ٤٩/٣/٨ .

(٥٥) من بن ــ غوريون الى شاريت، ٤٩/٩/١٥، تراث بن ــ غوريون.
(٥٦) جلسة أمانة حزب العمل، ٤٩/١٠/٢٠، أرشيف حزب العمل، 24/49.
(٥٧) من ماكدونالد الى مارشال، ٤٨/١٢/٢٠، وثائق الولايات المتحدة، ١٩٤٨، ص ١٦٧٤.
(٥٨) محاضر الكنيست، المجلد ١، ص ١٥٥، ٤٩/٣/١٧.
(٥٩) من ساترويت الى أتشيسون، ٤٩/٣/٢٤، وثائق الولايات المتحدة، ١٩٤٩، ص ٨٦٣.
(٦٠) من دوغلاس الى مارشال، ٤٨/٨/٦، وثائق الولايات المتحدة، ١٩٤٨، ص ١٢٩٢.
(٦١) كوليك، ص ١٧٦.
(٦٢) استعنت، في هذه الصفحات، بمؤلف غلعاد زيف: «انقسام الكيبوتس الموحد»، اطروحة في العلوم الادبية، جامعة تل ابيب.
(٦٣) محضر جلسة الحكومة، ٤٩/٣/٢، أرشيف الكيبوتس الموحد (تسيزلينغ)، المجموعة ٩، الوحدة ٩، الملف ١.
(٦٤) محاضر الكنيست، المجلد ٣، ص ٢٣٤، ٤٩/١٢/٥. وهناك خطاب مماثل ألقاه عضو الكنيست شموئيل مارلين (حيروت)، محاضر الكنيست، المجلد ٣، ص ١١١١، المجلد ٢، ص ١١١١، ٤٩/٧/٢٥.
(٦٥) نحن والألمان، «هآرتس»، ٤٩/٩/٢؛ وكذلك «هآرتس»، ٤٩/٩/٤، ضد العلاقات التجارية بألمانيا.
(٦٦) أورا شيم اور، «يديعوت احرونوت»، ٤٩/٩/٦.
(٦٧) مذكرات بن ــ غوريون، ٤٩/١/٢٦.
(٦٨) المصدر نفسه، ٤٩/١/١٧.
(٦٩) المصدر نفسه، ٤٩/٢/٤.
(٧٠) هيمنة عمالية في حكومة تقدمية، بقلم مئير يعري، «عال همشمار»، ٤٩/١/٢٤.
(٧١) زئيف تسور، بين المشاركة والمعارضة، ياد طبنكين، كراريس بحثية، ح، ١٩٨٣.
(٧٢) من بن ــ غوريون الى وايزمن، ٤٩/٣/٤، تراث بن ــ غوريون.
(٧٣) مذكرات بن ــ غوريون، ٤٩/٥/١٨.
(٧٤) المصدر نفسه، ٤٨/٨/١٥.
(٧٥) محضر جلسة الحكومة، بن ــ غوريون، دولة اسرائيل المتجددة، ص ١٨٤.
(٧٦) مجلس الدولة، المجلد ١، ٤٨/٩/٢٣.
(٧٧) «حيروت»، ٤٩/١/٢٦.
(٧٨) المصدر نفسه، ٤٩/٢/٤.
(٧٩) محضر جلسة اللجنة المركزية الموقتة، ٤٨/٩/٣٠، معهد جابوتنسكي، 9/0/2.
(٨٠) من تامير الى ادارات الفروع، ٤٨/٩/٢٧، معهد جابوتنسكي، 9/5/1.
(٨١) مذكرات بن ــ غوريون، ٤٩/٤/٢٧.
(٨٢) المصدر نفسه، ٤٩/١٠/١٢.
(٨٣) محاضر الكنيست، المجلد ١، ص ٧٢٨، ٤٩/٦/١٥.
(٨٤) آرام في أمانة ماباي، ٤٩/٦/٥، أرشيف حزب العمل.
(٨٥) «دافار هشفواع»، ٤٩/١١/١٠.
(٨٦) المصدر نفسه، ٤٩/٥/٨.
(٨٧) المصدر نفسه، ٤٩/٧/١٧.

(٨٨) من بن ــ غوريون الى شوكين، ٤٩/١/٤، تراث بن ــ غوريون.
(٨٩) من بن ــ غوريون الى ي. ش. شابيرا، ٤٩/١٠/١٦، تراث بن ــ غوريون.
(٩٠) محاضر الكنيست، المجلد ١، ص ٥١٥، ٤٩/٥/١٧.
(٩١) من بن ــ غوريون الى دوف يوسف وآخرين، ٤٩/١٢/٢٩، تراث بن ــ غوريون.
(٩٢) شبرينتساك في أمانة ماباي، ٤٩/٦/٩، أرشيف حزب العمل.
(٩٣) بادر، ص ٢٥.
(٩٤) «حيروت»، ٤٩/١/١٦.
(٩٥) مذكرات فايتس، ٤٩/٣/١٢.
(٩٦) المصدر نفسه، ٤٩/١٢/١٢.
(٩٧) من بن ــ غوريون الى ليو كوهين، ٤٨/١١/١٦، تراث بن ــ غوريون.
(٩٨) وايزمن؛ فايسغل وكرميخائيل؛ فايسغل.
(٩٩) «معاريف»، ١٦ ــ ٤٩/٨/١٧.
(١٠٠) من بن ــ غوريون الى بلوما كلاين، ٤٩/٩/٢٢، تراث بن ــ غوريون.
(١٠١) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٩/٨/٢١.
(١٠٢) هوروفيتس، ص ١٨.
(١٠٣) المصدر نفسه، ص ٢٦.
(١٠٤) مشاورات سياسية، ٤٩/٤/٢٢، أرشيف الدولة، وزارة الخارجية، 2447/3.
(١٠٥) مذكرات بن ــ غوريون، ٤٩/٣/١١.
(١٠٦) من بن ــ غوريون الى رئيس تحرير «هدور»، ٤٨/١١/١٨، تراث بن ــ غوريون.
(١٠٧) من بن ــ غوريون الى روني باروخ، ٤٩/٩/٢٨، تراث بن ــ غوريون.
(١٠٨) أقوال الأدباء.
(١٠٩) مذكرات بن ــ غوريون، ٤٩/٣/٢٥. ومن بن ــ غوريون الى اريخا، ٤٩/٤/١٠، والى افينوعام، ٤٩/٤/٢٤، تراث بن ــ غوريون.
(١١٠) ايهود بن عيزر، «مقتحمون ومحاصرون»، كيشت، السنة العاشرة، العدد ٧، ١٩٦٨.
(١١١) غرشون شيكد، «ضمير الجمع المخاطب»، سلسلة مقالات في «دافار»، ٧٩/٧/٦ وما يليه.
(١١٢) أقوال الأدباء.
(١١٣) «دافار هشفواع»، ٤٩/٣/١٧.
(١١٤) كورتسويل، ص ١٦٨ وما يليها.
(١١٥) نقاش في هذه القضية: «بروزا»، آب/اغسطس ــ أيلول/سبتمبر ١٩٧٧، «التقصير الادبي سنة ١٩٤٨»، وبينها محادثة مع دان عومر وعاموس كينان، تعليقات ومادة وثائقية.
(١١٦) راطوش، ص ٢١٨.
(١١٧) المصدر نفسه، ص ١٨٣، ٢١٤.
(١١٨) بن ــ غوريون، خلود اسرائيل، ص ٢٢.
(١١٩) أقوال الأدباء.
(١٢٠) سلسلة مقالات في شأن هذه الظاهرة، بقلم مردخاي كسوبر في المجلة اليهودية الاميركية «بتسورن»، السنة الثالثة عشرة، المجلد ٢٦، والبقية في المجلد ٢٧.

(١٢١) المجلس التنفيذي الصهيوني، ٤٨/٨/١٩ .
(١٢٢) لجنة هبوعيل هتسيوني، ص ١٥٣ .
(١٢٣) المصدر نفسه.
(١٢٤) صفحات الهجرة، ص ٤٦ .
(١٢٥) محاضر الكنيست، المجلد ٢، ص ١٣٣٩، ٤٩/٨/١٥ .
(١٢٦) غبريئيلي وأفيفي، ص ٣٠ .
(١٢٧) المصدر نفسه، ص ٦٢ .
(١٢٨) المصدر نفسه، ص ٥٢ .
(١٢٩) «دافار هشفواع»، ٤٩/٧/٧ .
(١٣٠) مذكرات فايتس، ٤٩/٨/١٨ .
(١٣١) المصدر نفسه، ٥٠/١/١٠ .
(١٣٢) «هآرتس»، ٤٩/٣/١١ .
(١٣٣) «دافار هشفواع»، ٤٩/٣/١١ .

الفصل الثاني: سمك فيليه مع كل شيء

(١) هوروفيتس، ص ٣٠ .
(٢) هليفي وكلينوف ـ ملول، ص ١٤٨ .
(٣) مذكرات بن ـ غوريون، ٤٩/٩/١٨ .
(٤) هليفي وكلينوف ـ ملول، ص ١٢١ .
(٥) هوروفيتس، ص ٢٣ .
(٦) «معاريف»، ٤٩/٥/١٣ .
(٧) محاضر الكنيست، المجلد ١، ص ٤١٧، ٤٩/٤/٢٧ .
(٨) المصدر نفسه، المجلد ٦، ص ٢٤٦٩، ٥٠/٨/٧ .
(٩) المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ٢٢، ٤٩/١١/٩ .
(١٠) المصدر نفسه، المجلد ١٢، ص ٢١٣٠، ٥٢/٥/٢٧ .
(١١) يوسف، ص ٢٣٥ .
(١٢) استعنت، في هذه الصفحات، بأطروحة كتبها اوري فايس، «الرقابة على الاسعار في اسرائيل ١٩٣٩ ـ ١٩٦٣»، لنيل شهادة البكالوريوس من الجامعة العبرية، تموز/يوليو ١٩٦٤ .
(١٣) محاضر الكنيست، المجلد ٦، ص ٢٥٠٣، ٥٠/٨/٨ .
(١٤) يوسف، ص ٢٢٨ .
(١٥) بادر، ص ٣١ .
(١٦) محاضر الكنيست، المجلد ١، ص ٣٩٩، ٤٩/٤/٢٦ .
(١٧) المصدر نفسه، المجلد ١، ص ٤٠١، ٤٩/٤/٢٦ .
(١٨) يوسف، بلدة وفية، ص ٩ .
(١٩) الكتاب السنوي للحكومة، ١٩٥١، ص ٤٢ .
(٢٠) المصدر نفسه، ص ٤٤ .

(٢١) «هآرتس»، ٤٩/١/١٣ .
(٢٢) شولاميت ليف آريه، «لماذا نقف في صف الانتظار»، «هآرتس»، ٤٩/٧/١، المقال الاول في سلسلة مقالات.
(٢٣) «دافار»، ٤٩/١٠/٦ .
(٢٤) المصدر نفسه، ٤٩/٩/٧ .
(٢٥) أرشيف الدولة، وزارة التموين والتقنين، المجموعة ١٩٦، 2/4/7.
(٢٦) يوسف، ص ٢٣٦ .
(٢٧) معهد استقصاء الرأي العام، الحرب ضد السوق السوداء، ١٩٥٠، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 5512/17 .
(٢٨) أرشيف الدولة، 22/950/6؛ 22/950/7؛ 22/956/8 .
(٢٩) محاضر الكنيست، المجلد ٦، ص ٢٤٢٥، ٥٠/٨/٢ .
(٣٠) الكتاب السنوي للحكومة، ١٩٥١، ص ٤٦ .
(٣١) «معاريف»، ٤٩/٩/١٩ .
(٣٢) كينان، ص ٢٧٤ .
(٣٣) محاضر الكنيست، المجلد ٢، ص ٩٥١، ٤٩/٧/١١ .
(٣٤) المصدر نفسه، المجلد ٢، ص ٩٥٣، ٤٩/٧/١١ .
(٣٥) المصدر نفسه، المجلد ٣، ص ١١٧، ٤٩/١١/٢١ .
(٣٦) المصدر نفسه، المجلد ٥، ص ١٧٨٣، ٥٠/٦/٢٠ .
(٣٧) المصدر نفسه، المجلد ٥، ص ١٧٧٥، ٥٠/٦/٢٠ .
(٣٨) المصدر نفسه، المجلد ٦، ص ٢٤٢٥، ٥٠/٨/٢ .
(٣٩) المصدر نفسه، المجلد ٦، ص ٢٤٩١، ٥٠/٨/٨ .
(٤٠) المصدر نفسه، المجلد ٦، ص ٣٤٢٩، ٥٠/٨/٢ .
(٤١) المصدر نفسه، المجلد ٦، ص ٢٤٩٥، ٥٠/٨/٨ .
(٤٢) المصدر نفسه، المجلد ٦، ص ٢٤٢٨، ٥٠/٨/٢ .
(٤٣) المصدر نفسه، المجلد ١، ص ٤٩٢، ٤٩/٥/١١ .
(٤٤) المصدر نفسه، المجلد ٦، ص ٢٤٢٧، ٥٠/٨/٢ .
(٤٥) المصدر نفسه، المجلد ٦، ص ٢٤٩٥، ٥٠/٨/٨ .
(٤٦) المصدر نفسه، المجلد ٥، ص ١٩٤٣، ٥٠/٦/٢٨ .
(٤٧) يوسف، ص ٢٣٥ .
(٤٨) المصدر نفسه، ص ٢٤٧ .
(٤٩) محاضر الكنيست، المجلد ٥، ص ٩٠١، ٥٠/٣/١ .
(٥٠) أرشيف الدولة، أرشيف دوف يوسف، المجموعة ٦٩، 728/4, 713/11.
(٥١) «معاريف»، ٤٩/٥/١٠ .
(٥٢) هليفي وكلينوف ـ ملول، ص ٢٢١ .
(٥٣) محاضر الكنيست، المجلد ٦، ص ٢٩، ٥١/٩/١١ .
(٥٤) المصدر نفسه، المجلد ١٧، ص ٩٥٨، ٥٥/٣/١ .

(٥٥) أرشيف الدولة، أرشيف دوف يوسف، الحرب ضد السوق السوداء، 714/16.
(٥٦) من كوهين الى بن ـ غوريون، ٥٠/١٠/٢٦، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 5512/10.
(٥٧) محاضر الكنيست، المجلد ١٠، ص ٢٩، ٥١/٩/١١.
(٥٨) أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، الحرب ضد السوق السوداء، 5512/11.
(٥٩) من بن ـ غوريون الى يسرائيل ليفين، ٥٠/١٠/٩، أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 5512/9.
(٦٠) محاضر الكنيست، (من أقوال ي. سابير)، المجلد ١٠، ص ٢٦٠، ٥١/١٠/٨.
(٦١) المصدر نفسه، المجلد ١٠، ص ٢٦، ٥١/٩/١٠.
(٦٢) يوسف، ص ٢٣٠.
(٦٣) محاضر الكنيست، المجلد ٥، ص ١٥٥٩، ٥٠/٥/٣٠.
(٦٤) المصدر نفسه، المجلد ٦، ص ٢٢٣٦، ٥٠/٧/٨.
(٦٥) المصدر نفسه، المجلد ٦، ص ٢٤٥٢، ٥٠/٨/٧.
(٦٦) المصدر نفسه، المجلد ٦، ص ٢٤٩٩، ٥٠/٨/٨.
(٦٧) المصدر نفسه، المجلد ١٠، ص ٢٥١، ٥١/١٠/٨.
(٦٨) هوروفيتس، ص ١٤.
(٦٩) يوسف، ص ٢٥١ ومـا يليها.
(٧٠) المصدر نفسه، ص ٢٥١.
(٧١) «هآرتس»، ٥٠/٨/٤.
(٧٢) هوروفيتس، ص ٦٥.
(٧٣) هليفي وكلينوف ـ ملول، ص ٢١١.
(٧٤) «دافار»، ٤٩/١٠/١٦.
(٧٥) محاضر الكنيست، المجلد ١٠، ص ٢٩، ٥١/٩/١١.
(٧٦) «يديعوت احرونوت»، ٤٩/٨/٢٤.
(٧٧) من أغاني السوق السوداء، «دافار»، ٥٠/١٠/٢٧.
(٧٨) محاضر الكنيست، المجلد ٦، ص ٢٢٠١، ٥٠/٧/١٧.
(٧٩) أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، أرشيف دوف يوسف، 716/26.
(٨٠) محاضر الكنيست، المجلد ٦، ص ٢٢٠١، ٥٠/٧/١٧.
(٨١) تقرير اللجنة، أرشيف الدولة، أرشيف دوف يوسف، المجموعة 716/69.
(٨٢) محاضر الكنيست، المجلـد ٦، ص ٢٢١٨، ٥٠/٧/١٧.
(٨٣) المصدر نفسه، المجلد ١٢، ص ٢١٣٠، ٥٢/٥/٢٧.
(٨٤) الكتاب السنوي للحكومة، ١٩٥٣، ص ١٢٢.
(٨٥) محاضر الكنيست، المجلد ٦، ص ٢٢٣٨، ٥٠/٧/١٨.
(٨٦) المصدر نفسه، المجلد ٤، ص ٨٩٨، ٥٠/٣/١.
(٨٧) المصدر نفسه، المجلد ١٧، ص ٩٥٩، ٥٥/٣/١.
(٨٨) مقابلة مع دان ألمغور، «يديعوت احرونوت»، ٨٠/١/١٨.
(٨٩) أرشيف الدولة، مكتب رئيس الحكومة، 5512/20.

المـراجـع

ابو اياد. «ليلو موليدت» («من دون وطن»). أحاديث مع إريك رولو، مفراش، ١٩٧٨.

افنيري، اوري. «بسدوت فليشت، ١٩٤٨» («في حقول فلسطيا ــ ارض الفلسطينيين، ١٩٤٨»). جرى الاقتباس من الطبعة الحادية عشرة، ١٩٧٥.

اورميان، حاييم (محرر). «هحينوخ بيسرائيل» («التعليم في اسرائيل»). وزارة المعارف والثقافة، ١٩٧٣.

اورن، ألحانان. «بديريخ ايل هعير» («في الطريق الى المدينة»). معراخوت، ١٩٧١.

ايزنشتات، شموئيل نواح. «كليتات علياه» («استيعاب الهجرة»). الوكالة اليهودية، الجامعة العبرية، ١٩٥٢.

ايتان، وولتر. «بين يسرائيل لعاميم» («بين اسرائيل والشعوب»). مساداه، ١٩٥٨.

ألموغي، يوسف. «بعوفي هكوراه» («في اعمدة السقالة»). عيدانيم، ١٩٨٠.

ألترمن، ناتان. «هطور هتسفيعي» («العمود السابع»). جرى الاقتباس من نسخة الكيبوتس الموحد، ١٩٨٠.

«انسايكلوبيديا حينوخيت» («الموسوعة التربوية»). وزارة المعارف والثقافة ومؤسسة بياليك، ١٩٦٩.

أفلفيلد، أهارون. «ماكوت هاؤور» («ضربات النور»). الكيبوتس الموحد، ١٩٨٠.

«الأرشيف الصهيوني المركزي».

بادر، يوحنان. «هكنيست فيآني» («الكنيست وأنا»). عيدانيم، ١٩٧٩.

باين، اليكس. «علياه فهيتيشفوت بمديناة يسرائيل» («الهجرة والاستيعاب في دولة اسرائيل»). عام عوفيد، ١٩٨٢.

بنتويتش، يوسف. «هحينوخ بمديناة يسرائيل» («التعليم في دولة اسرائيل»). تشتشيك، ١٩٦٠.

بن ــ غوريون، دافيد. «بهلاحيم يسرائيل» («نضال اسرائيل»). ماباي، ١٩٥١.

بن ــ غوريون، دافيد. «ييحود فييعود» («خاصية ورسالة»). معراخوت، ١٩٧١.

بن ــ غوريون، دافيد. «مديناة يسرائيل همحوديشت» («دولة اسرائيل المتجددة»). عام عوفيد، ١٩٦٩.

بن ــ غوريون، دافيد. «نيتسح يسرائيل» («خلود اسرائيل»). الكتاب السنوي للحكومة، ١٩٥٤.

بن مناحم، يتسحاق. «آدام فيلوحيم» («انسان ومقاتل»). عميحاي، ١٩٧٥.

بن زوهار، ميخائيل. «بن ــ غوريون». عام عوفيد، ١٩٧٧.

بن زوهار، ميخائيل. «هممونيه». فايدنفيلد ونكلسون، ١٩٧٠.

برنادوت، فولكا. «ليروشاليم» («الى القدس»). أحيآساف، ١٩٥٢.

برنشتاين، دفوراه. «همعفاروت بشنوت هحميشيم» («المعابر في الخمسينات»). كراريس للبحث والنقد رقم ٥، ١٩٨٠.

برر، شلومو. «عال كنافي نشاريم» («على اجنحة النسور»). مساداه، ١٩٥٦.

غبريئيلي، ناحوم وآفيفي، باروخ. «مكرآه لاييلد» («مطالعات للطفل»). الطبعة الاولى، ١٩٤٤.

جريس، صبري. «هعرافيم بيسرائيل» («العرب في اسرائيل»). الاتحاد، ١٩٦٦.

غلوسكا، زاخاريا. «سيفر لماعن يهودي تيمان» («كتاب من اجل يهود اليمن»). اصدار يعقوب بن دافيد غلوسكا، ١٩٧٤.

«ديفري هسوفريم» («أقوال الأدباء»). أ ــ في لقاء جرى بناء على طلب رئيس الحكومة في ٢٧ آذار/مارس

١٩٤٩؛ ب ـ في لقاء ثان جرى بناء على طلب رئيس الحكومة في ١١ تشرين الاول/اكتوبر ١٩٤٩، الطبعة الحكومية.

«دواح فرومكين» («تقرير فرومكين»). دين فحشبون شيل فعادات هحكيراه بعنياني هحينوخ بمحانوت هعوليم (تقرير لجنة التحقيق في شؤون معسكرات المهاجرين). أرشيف الدولة، 1/152.

دون يحيى، أليعيزر. «شيتوف فيكونفليكت بين محانوت بوليتييم: همحانيه هداتي فيتنوعات هعفوداه ومشبير هحينوخ بيسرائيل» («التعاون والنزاع بين المعسكرات السياسية: المعسكر الديني وحركة العمل، وأزمة التربية في اسرائيل»). اطروحة دكتوراه في الفلسفة، الجامعة العبرية، ١٩٧٧.

«دور لادور» («من جيل الى جيل»). كتاب المؤسسة التربوية التابعة لهشومير هتسعير في مشمار هعيمك، محررون: شموئيل غولان وآخرون، ١٩٤٨.

دايان، موشيه. «أفاني ديريخ» («عقبات في الطريق»). عيدانيم، ١٩٧٦.

دانييل، ش. «هسار شابيرا» («الوزير شابيرا»). ياد شابيرا، ١٩٨٠.

«داعات هكاهل» («الرأي العام»). انظر: ماخون لحكير داعت هكاهل (معهد استقصاء الرأي العام).

«دابي علياه» («صفحات الهجرة»). نشر متسلسل، اصدار الوكالة اليهودية.

هوروفيتس، دافيد. «حاييم بموكيد» («حياة في الموقد»). مساداه، ١٩٧٥.

هليفي، نداف وكلينوف ـ ملول، روت. «هتبتحوت هكلكليت شل يسرائيل» («التطور الاقتصادي في اسرائيل»). اكدمون، ١٩٦٨.

هـ. ص. (المجلس التنفيذي الصهيوني). «بروتوكوليم مييشيفوت ههانهلاه هتسيونيت» («محاضر من جلسات المجلس التنفيذي الصهيوني»). محفوظة في الأرشيف الصهيوني المركزي.

فايسغل، مئير. «عاد كان، اوتوبيوغرافيا» («حتى هنا، سيرة ذاتية»). مكتبة معاريف، ١٩٧٢.

فايسغل، مئير وكرميخائيل، يوئيل. «حاييم فايتسمان، يلكوت براكي حاييم» («حاييم وايزمن، مجموعة من فصول حياته»). المكتبة الصهيونية، ١٩٦٤.

فايتس، يوسف. «ميوماني» («من مذكراتي»). مساداه، ١٩٦٥.

وايزمن، عيزر. «لاخ شمايم، لاخ آرتس» («لك ايتها السماء، لك ايتها الارض»). مكتبة معاريف، ١٩٧٥.

فاعد هبوعيل هتسيوني (اللجنة التنفيذية الصهيونية). دورة اللجنة التنفيذية الصهيونية في القدس (١٩٤٩)، اصدار المجلس التنفيذي الصهيوني.

طيفت، شبطاي. «موشيه دايان». شوكين، ١٩٧١.

«يومان بن ـ غوريون» («مذكرات بن ـ غوريون»). جرى الاقتباس وفق المصدر المحفوظ في سديه بوكر ووفق يوميات الحرب، وزارة الدفاع، ١٩٨٢.

يوسف، دوف. «يونا فيحيرف» («حمامة وحراب»). مساداه، ١٩٧٥.

يوسف، دوف. «كرياه نئمناه» («بلدة وفية»). شوكين، ١٩٦٤.

يوسفتال، غيورا. «حاياف أوفوعالو» («حياته وأعماله»). اصدار ماباي، ١٩٦٣.

ليبوفيتس، يشعياهو. «يهودوت، عام ييهودي ومديناة يسرائيل» («اليهودية، الشعب اليهودي ودولة اسرائيل»). شوكين، ١٩٧٩.

لويتن، دوف. «عليات مرباد هكساميم كهمشيخ هستوري لعليوت ميتيمان ميئاز ١٨٤٢» («هجرة البساط السحري كاستمرار تاريخي للهجرات من اليمن منذ ١٨٤٢»). تحليل اجتماعي سياسي لهجرة يهود اليمن واستيعابهم في اسرائيل في الزمن المعاصر. عمل بحثي اعد للحصول على بكالوريوس قدم الى دائرة

العلوم السياسية في جامعة بار ـ ايلان، ١٩٧٣.

ليفين، يتسحاق مئير. «هئيش أوفوعالو» («الرجل وأعماله»). اصدار مؤسسة هريم ليفين، القدس، ١٩٧٢.

لوفبن، حزاي. «إيش يوتسي إيل أحيف» («رجل مغادر الى اخيه»). عام عوفيد، ١٩٦٩.

«موريشيت بن ـ غوريون» («تراث بن ـ غوريون»). مجموعة وثائق ورسائل، مرفقة بمذكرات بن ـ غوريون، محفوظة في معهد تراث بن ـ غوريون، سديه بوكر.

ميخائيل، سامي. «شافيم فيشافيم يوتر» («متساوون وأكثر مساواة»). بوستان، ١٩٧٤.

ميخائيلي، بن تسيون. «ييشوفيم شنيتشو» («قرى هجرت»). ميلو، ١٩٨٠.

ميلشتاين، اوري. «هطيعون هداتي بتهليخ هتحيكا بيسرائيل كفي شيبا ليدي بيطوي بيشالوش كفوتسوت شيل حوكيم» («الحجة الدينية في عملية التشريع في اسرائيل كما تجلت في ثلاث مجموعات قوانين»). أطروحة دكتوراه في الفلسفة، الجامعة العبرية، ١٩٧٢.

ميلشتاين، اوري. «كدمون فيحافوراتو» («كدمون وزمرته»). عام عوفيد، ١٩٧٤.

ماخون لحكير داعت هكاهل (معهد استقصاء الرأي العام). «داعت هكاهل عال...» («الرأي العام بشأن...»). سلسلة استطلاعات رأي. منشورات رسمية، ١٩٤٩.

منهيلت هعام (الهيئة التنفيذية لمجلس الشعب). محاضر ١٩ نيسان/ابريل ـ ١٣ ايار/مايو ١٩٤٨، أرشيف الدولة، ١٩٧٨.

«مسماخي بندك» («وثائق بندك»). مجموعة وثائق محفوظة عند السيدة برونيا بندك، القدس، ماكدونالد، الاقتباس وفق المصدر الانكليزي:

MCDONALD, JAMES C., **MY MISSION TO ISRAEL;** N.Y., 1951.

نيني، يهودا. «تيمان فتسيون» («اليمن وصهيون»). المكتبة الصهيونية، ١٩٨٢.

سيكرون، موشيه. «هعلياه ليسرائيل، 1948 عاد 1953» («الهجرة الى اسرائيل، ١٩٤٨ ـ ١٩٥٣»). مركز فالك، ١٩٥٧.

فريدمان، مناحم. «حفراه فيدات» («المجتمع والدين»). ياد يتسحاق بن تسفي، ١٩٧٨.

تسادوق، يوسف. «بسعاروت تيمان، مغيلات مرباد هكساميم» («في عواصف اليمن، ميثاق البساط السحري»). عام عوفيد، ١٩٥٦.

كوليك، تيدي. «يروشاليم آحات» («القدس واحدة»). مكتبة معاريف، ١٩٧٩.

كورن، يتسحاق. «كيبوتس هغلويوت بهتنحلوتو، لتولدوت موشافي هعوليم بيسرائيل» («جمع المنفيين في الاستيطان، حول تاريخ مستعمرات المهاجرين في اسرائيل»). عام عوفيد، ١٩٦٤.

كورتسويل، باروخ. «حيبوس هسفروت هيسرائيليت» («البحث في الأدب الاسرائيلي»). جامعة بار ـ ايلان، ١٩٨٢.

كينان، عاموس. «بشوطيم وبعكرافيم» («بالسياط والعقارب»). اصدار اسرائيل.

كليغر، روت (علياف). «همفلاط هأحارون» («الهروب الاخير»). عام عوفيد، ١٩٧٦.

كارليباخ، عزريئيل. «سيفر هدمويوت» («كتاب الشخصيات»). مكتبة معاريف، ١٩٥٩.

رابين، يتسحاق. «بنكاس شيروت» («بطاقة خدمة»). مكتبة معاريف، ١٩٧٩.

راطوش، يوناتان. «راشيت هياميم» («في البدء»). هدار، ١٩٨٢.

رفائيل، يتسحاق. «لوزخيتي باؤور من ههيفكير» («لم احظ بالنور من المباح»). عيدانيم، ١٩٨١.

شترينبرغ، أبراهام. «بهيكاليط عام» («استيعاب شعب»). الكيبوتس الموحد، ١٩٧٣.

شيران، ويكي. «هتيوغ همختيم. عيدوت همزراح بحفراه هيسرائيليت» («وصمة العار. الطوائف الشرقية في المجتمع الاسرائيلي»). عمل بحثي للحصول على بكالوريوس، معهد أبحاث الجرائم في جامعة تل ابيب، ١٩٧٨.

شفرير، دوف. «عاروغوت حاييم» («مساكب الحياة»). المركز الزراعي، ١٩٧٥.

شاريت، موشيه. «يومان ايشي» («مذكرات شخصية»). معاريف، ١٩٧٨.

«تعودوت ارتسوت هبريت» («وثائق الولايات المتحدة») —

FOREIGN RELATIONS OF THE UNITED STATES, 1948, VOL. V, WASHINGTON 1976 AND 1949, VOL. VI. WASHINGTON 1977.

«تعودوت يسرائيل» («وثائق اسرائيل»). تعودوت لمدينيوت هحوتس شيل مديناة يسرائيل (وثائق سياسة دولة اسرائيل الخارجية). أرشيف الدولة، ١٩٨٣.

الفهرست

---

* حـ = حاشية.

هذا الكتاب يقدم رواية عن الفترة الاولى من قيام الكيان الصهيوني، تختلف تماما عن الرواية الاسرائيلية التقليدية. فهو يعرض بالتفصيل اساليب مراوغة القادة الصهيونيين في محادثات الهدنة مع العرب، وطرائق اجلاء الفلسطينيين من وطنهم، ونهب ممتلكاتهم والتنكيل بهم. كما يسوق الادلة على بطلان الزعم بـ «انقاذ اليهود» من خلال الهجرة، وعلى ان «الاسرائيليين لا يريدون المهاجرين». ويفند الكتاب اسطورة الصهيوني «الريادي»، استنادا الى وقائع عديدة تتعلق بالنهب، والسوق السوداء، والتقشف، واستغلال الاحزاب للدين والسياسة لتحقيق مآربها الخاصة.

لقد استند المؤلف الى آلاف الوثائق المهمة التي تتضمنها ملفات المؤسسات الصهيونية، وقدم لنا، دون ان يقصد ذلك ـ وهو الذي لا شك في ولائه لاسرائيل ـ الكثير من الاسرار المذهلة المتعلقة باغتصاب فلسطين.

توم سيغف: رئيس تحرير الصحيفة الاسبوعية «كوتيرت راشيت». ولد في القدس سنة **١٩٤٥**. وتخرج من الجامعة العبرية. حائز على شهادة الدكتوراه في التاريخ من جامعة بوسطن.

تطلب قائمة المنشورات من:
مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ص.ب ٧١٦٤ ـ ١١
برقيا: دراسات. تلكس: ماداف ٢٣٣١٧، بيروت ـ لبنان

او من:
شركة الخدمات النشرية المستقلة / المحدودة
Independent Publication Services Ltd.
ص.ب ٥٦٥٨، نيقوسيا ـ قبرص

$ 10.00